نظريّات الشخصيّة

البناء ـ الديناميات ـ النمو ـ طرق البحث ـ التقويم

الدكتور
جابر عبد الحميد جابر
استاذ علم النفس
جامعة قطر

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

دار النهضة العربية
للطبع والنشر والتوزيع
٣٢ عبد الخالق ثروت - القاهرة

دار الاتحاد العربي للطباعة
. الصاحب : محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون : ٩٢٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قل ان صلاتي ونسكي
ومحياي ومماتي
لله رب العالمين

قرآن كريم

« بسم الله الرحمن الرحيم »

تقديم

نظريات الشخصية موضوع بالغ الاهمية فى مجال الدراسات النفسية لشموله وتنوعه ولانه يلم بأطراف من تاريخ علم النفس وبالعديد من موضوعاته النظرية والتطبيقية ولا يخلو برنامج فى الدراسات النفسية من تناول هذا الموضوع بالدراسة المتعمقة . ولقد شغلنى هذا الموضوع تعلما وبحثا فترة طويلة من الزمان . وشعرت بحاجة المكتبة العربية الى كتاب يتناول اساسيات هذا المجال وعلمائه البارزين وخلاصة فكرهم ونبذة عن حياتهم .

بدأت ادرس موضوع الشخصية فى أواخر الاربعينات من هذا القرن وكنت طالبا بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، وكان استاذنا الدكتور مصطفى زيور يقسم زمن التعليم والتعلم الى جزئين ، اما احدهما فيتولاه بنفسه ، ويختص بالتحليل النفسى وأما الآخر فيختص بعلم النفس الاكاديمى ، وكان يكلف بعض الطلاب باعداد هذه الدروس من مراجع انجليزية ، دروس فى طرق البحث ، والادراك والتعلم والدوافع وغير ذلك . ولقد كان لمشاركة الطلاب فى التعليم اثر باق فى نفوسنا ؛ فما زلنا نذكر طرفا مما درسنا فى هذه الموضوعات وبعض وقائعها .

وفى أوائل الخمسينات انتقلت الى مرحلة اخرى من مراحل طلب العلم فدرست على يد الدكتور اسحق رمزى وقد كان يدرس الشخصية ونظرياتها بالاعتماد على المصادر الأصلية ، فنظرية الانماط عند كرتشمر تدرس من كتابه « الخلق والشخصية » ومثل هذا يصدق على نظريات يونج والبورت وفرويد وادلر ... الخ وكان اسلوبه فى التعليم يقوم على مشاركة الطلاب وعلى النقاش . ولقد كانت مكتبة كلية التربية بجامعة عين شمس آنذاك حافلة بهذه المصادر الأولية . الأمر الذى قد لا نجد له نظيرا فى كثير من الجامعات الآن .

ثم درست موضوع الشخصية للمرة الثالثة على يد الدكتور برونو بتلهيم الاستاذ بجامعة شيكاغو فى نهاية الخمسينات وكانت له طريقة فريدة فى التعليم . نتلقى فى اول لقاء به قائمة بالقراءات تحتوى على عدد من البحوث والكتب والمقالات التى كتبها مفكرون مختلفون من امثال افلاطون

وفرويد وآنا فرويد وليفين واريكسون وفروم وهورنى وسوليفان ، بل وتحتوى على مؤلفاته هو . وعلى الطلاب أن يدرسوا هذه القراءات معتمدين على أنفسهم ثم يفيدوا مما درسوا فى الاختبارات التى تطبق عليهم ولا تناقش هذه القراءات خلال دروسه . وكنا نلتقى بالاستاذ فى درسين فى الأسبوع يخصص أحدهما لمشاهدة فيلم يصور شخصا مشكلا ، وبعد عرضه يدور النقاش لتحليل الأنماط السلوكية لهذا الشخص وتفسيرها . أما الدرس الثانى فيقوم على دراسة أحداث نفسية يدلى بها بعض الطلاب خاصة بهم ، وكان هذا الدرس يملؤنا رهبة وخوفا لما يمكن أن نتعرض له من كشف عن الذات وخصوصياتها أمام جمهور من الطلاب والطالبات .

وقد جاء عملى بجامعة قطر بعد أربعة عشر عاما من التعليم لعلم النفس فى جامعات القاهرة وعين شمس والاسكندرية والمنيا وبغداد والمستنصرية والأزهر . وقد أدى اضطلاعى بعمادة كلية التربية بجامعة قطر فى الفترة من ١٩٧٨ — ١٩٨٥ م الى انغماسى بشكل أعمق فى قضايا التعليم ، وكان لا بد أن تتشكل معظم اهتماماتى وتوظف لخدمة تطوير التعليم فاهتممت بأهداف التعليم وتحليل أعماله ودراسة التلاميذ وتقويمهم واعداد البرامج والاهتمام بالتربية العملية والمشاركة فى تنمية المشرفين عليها والاسهام فى حلقات النقاش الأسبوعية بكلية التربية . ولقد ظهرت بعض آثار هذه الاهتمامات فى أربعة كتب وهى : التعلم وتكنولوجيا التعليم ، واسلوب النظم بين التعليم والتعلم ، ومهارات التدريس ، والتقويم التربوى والقياس النفسى . كتبت بعضها بمفردى وشاركت بعض الزملاء فى كتابة البعض الآخر . وقد كتبت كلها فى محاولة للربط بين التنظير والتطبيق .

وبانتهاء هذه الفترة اقتضى الأمر أن أقوم بتدريس نظريات الشخصية لطلاب الدبلوم الخاصة فى التربية بجامعة قطر وكان لا بد أن أعود الى نوع من الدراسات النفسية الصرفة وأعكف على دراسة عدد من أصحاب الفكر المتميز فى هذا المجال . ولقد وقع اختيارى على النظريات الواردة فى هذا الكتاب فى ضوء معايير ثلاثة هى : **أولا** — اتفاق المؤلفين فى هذا المجال ، فالنظريات التى أقدمها هى أكثر النظريات شيوعا فى كتب الشخصية ونظرياتها ، **وثانيا** — تحقيق التوازن فى الكتاب أى تقديم عدد من المفكرين يمثلون الاتجاهات النظرية المختلفة ، أى : النظريات السيكودينامية ونظريات

السمات والعوامل ، والنظريات السلوكية ، والنظريات الانسانية . **وثالثا** — تأثير النظرية واثارتها للبحوث فى مجال الشخصية فى الماضى والحاضر .

ويبدو أن كثيرا من كتب علم النفس تفترض أن تعلم علم النفس معناه حفظ ما قدمه علماء النفس من مفاهيم ومبادىء ، أى أنهم لا يفترضون أن يقوم الدارسون بالتفكير فيما يدرسون وفى نقده بل وفى الابداع فى هذا المجال . ولعل تأكيد الكتاب الحالى على طرق البحث التى استخدمت وبعض البحوث التى أجريت فى اطار كل نظرية ثم بيان نواحى قوتها ونواحى ضعفها يساعد على ايجابية الدارس فى تعلم مادة الكتاب .

ومن المعقول أن نتصور أن طلاب المرحلة الجامعية الأولى لا يستطيعون أن يتصدوا لدراسة الشخصية الانسانية ما لم يتقنوا أطرا فكرية تساعدهم على ذلك . غير أن هذا قد يصدق خارج نطاق علم النفس لان لدى كل منا نظريته عن الشخصية حتى دون أن ندرس الموضوع على نحو منهجى ، بل ان كثيرا من الأفكار التى سيدرسها الطلاب شائعة بين المثقفين .

ويبدأ كل فصل من فصول هذا الكتاب بنبذة عن سيرة صاحب النظرية ثم يتناول بناء الشخصية ودينامياتها ونموها وطرائق البحث فيها وتقويمها . وتناول حياة صاحب النظرية بالدرس كثيرا ما يساعد على فهم اتجاهه الفكرى .

والمتوقع أن يدرس هذا الكتاب فى المقررات النفسية التى تتناول الشخصية ونظرياتها . وقد يستخدم فى مقررات علم نفس الشواذ والنمو النفسى والدوافع وفى قاعات البحث . ويستطيع الدارسون أن يفيدوا من مادته على اختلاف تخصصاتهم ، فى علم النفس التربوى ، وفى التربية الخاصة ، وفى علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية ، وفى التمريض والطب النفسى .

ودراسة نظريات الشخصية تتيح للدارس أن يخبر على نحو وثيق خصوبة علم النفس وثراءه ، لانه يدرس فى هذا المجال مفكرين متشددين فى منهجهم العلمى فى دراسة الانسان وآخرين أقرب الى المؤرخين والأدباء . وهو مجال يتيح للدارس فيه أن يجيب عن كثير من الاسئلة التى تشغل فكره من قبيل : لماذا تظهر الفروق الفردية بين البشر ؟ ولماذا يسلك الناس على

نحو ما يسلكون ؟ وما العلاقة بين الجسم والعقل ؟ وما مدى تأثر الشخصية بالعوامل الوراثية والبيولوجية والبيئة ؟ وما مدى حتمية السلوك الانسانى ؟ وهل حرية الارادة حقيقة أم خيال ؟ وفى هذا المجال يتعرض الدارس لتاريخ علم النفس منذ فرويد ويونج حتى يصل الى المعاصرين من أمثال روجرز وماسلو وباندورا وسكنر . انه مجال يدرس فيه الطالب ما يساعده على فهم نفسه وعلاقته بالآخرين ولا يوجد موضوع آخر تقريبا فى ميدان علم النفس بهذا الشمول والاتساع . ومعنى هذا أنه اذا أراد الطالب أن يدرس مقررا واحدا فى علم النفس وجب أن يدرس مقررا فى نظريات الشخصية . والمفاهيم التى نعرضها فى نظريات الشخصية المختلفة ليست تجريدات اكاديمية عديمة المعنى وانما هى أفكار حيوية لها علاقة وثيقة بأنماطنا السلوكية فى مجالات الحياة المختلفة وبخبراتنا المنوعة .

وقد يكون من الأمور المضللة البحث عن نظرية فى الشخصية هى النظرية الصحيحة ، ولعل الموقف الأفضل لفهم الشخصية ان ندرسها من وجهات نظر مختلفة ومن زوايا عديدة ، وهكذا فحين يدرس الطالب نظريات سيكودينامية ، ونظريات سمات وعوامل ونظريات سلوكية ونظريات انسانية فانه يدرس مداخل مختلفة تتساوى فى مصداقيتها من حيث تحقيق أهداف العلم وهى فهم الظاهرة والتنبؤ بها وضبطها .

وقد عرضت فى مقدمة الكتاب لعدد من القضايا عن طبيعة النظرية ووظائفها وغير ذلك من مسائل تختصم حولها النظريات وتتفق وتعرضت للأسس التى تقوم النظريات فى ضوئها ، كما انهيت الكتاب بفصل يلخص الموقف الحاضر ويقومه . وأثبت المراجع العربية والأجنبية التى افدت منها فى اعداد هذا الكتاب ، كما أثبت عددا من المصادر الأولية التى تتيح لطلاب الدراسات العليا على وجه الخصوص التعمق باستخدام المظان الأصلية .

وعلى الله قصد السبيل

جابر عبد الحميد جابر

١٤٠٦ هـ
الدوحة — قطر فى ———
١٩٨٦ م

الفصل الأول

مقـــدمة :

تحتوى الفصول الآتية على تعريفات عديدة للشخصية ، ولكن التعريف الجيد لا بد أن يتضمن الاتساق الذى يساعد على تمكين الآخرين من التنبؤ بسلوكك ، ولا بد ان يضفى عليك احساسا داخليا بالتماسك ولا بد لهـذا التعريف ان يفسر تفرد الفرد أو على الأقل تمايزه .

ان تعريفات علماء النفس للشخصية — والتى تشتمل على تعـريف بيولجى اجتماعى وتعريف بيولوجى فيزيقى تجميعى وتعريف تكاملى — نتيجة لوجهة نظر كل منظر فى بنية الشخصية الانسانية ووظيفتها .

ونوضح بعض النظريات لشرح ما هو موجود وهذه نظريات وصفية ، ويوضح البعض الآخر ليشرح كيف أصبحت الشخصية على هذا النحو أو ذاك وهذه النظريات وظيفية أو علية .

ويسلم صاحب النظرية بمسـلمات معينة وقد تكون هــذه المسلمات فلسفية وهى التى يسلم بها المنظر وتتناول طبيعة الواقع أو الحقيقة ، وقد يسلم بمسلمات منهجية لها علاقة باجراءات دراسة الشخصية ، ومن أكثر هذه المسلمات شيوعا فى نظرية الشخصية أن السلوك الانسانى قانونى ، وان الزمن خطى . وان السلوك له أسباب وعلل تحدده .

والقول بأن الموضوعية هى الأساس الوحيد لدراسة الشخصية مسلمة منهجية . ويصدق هذا ايضا على تفضيل المنهج الذرى على المنهج الكلى أو العكس . بل ان قرار المنظر بدراسة جوانب معينة من الشخصية وتفضيلها على جوانب اخرى يتضمن مسلمة منهجية . وفى الحق انه يستحيل التنظير دون التسليم بمسلمات . وأحد أسباب وجود نظريات شخصية مختلفة أن المنظرين يختلفون فيما يتبنون من مسلمات .

وتتضمن النظرية مجموعة من المسلمات يتم التوصل اليها عن ظاهرة معينة أو حدث ، كما يتضمن أيضا مجموعة من التعريفات الامبيريقية التى

التى تربط النظرية المجردة بالملاحظات المحسوسة . وينبغى أن تكون مسلمات النظرية ملائمة لموضوع الدراسة ومتصلة بعضها بالبعض الآخر . وينبغى أن تكون التعريفات الامبيريقية دقيقة بقدر ما تسمح به المعلومات الحاضرة .

ولا تحتكر نظرية معينة الحقيقة كلها ، ذلك أن النظرية أداة تلائم عملاً معينـــا .

والوظيفة الأساسية للنظرية أن تكتشف علاقات مستقرة بين الوقائع والمتغيرات ، علاقات يمكن بيانها . وينبغى أن تؤدى النظرية الى الكشف عن بيانات جديدة وعلاقات بين البيانات ، وان تقدر على تمثل النتائج الامبيريقية المعروفة فى اطار متسق بسيط بدرجة معقولة ، وأن تساعد الباحث على اختيار المسائل الهامة للدراسة ، وأن تمكنه من عزلها عن غيرها .

والفرق الرئيسى بين نظرية الشخصية والنظريات النفسية الأخرى يتمثل فى اختلاف مسار كل منهما ، فقد نمت الأولى من مجال الطب ومن الحاجة الى تطبيقات علاجية مباشرة ، ونمت الأخيرة من الاهتمامات الأكاديمية والاستقصاءات العلمية . ونتيجة لذلك نجد أن نظرية الشخصية أكثر وظيفية فى طبيعتها من علم النفس التجريبى ، وهى تعمل كقوة تحقق التكامل وتوحد النتائج التى تسفر عنها مجالات نفسية مختلفة وتحاول أن تزودنا بصورة موحدة لطريقة السلوك الشخصى ككل .

ولقد ادى بقاء نظرية الشخصية خارج التيار الأساسى لعلم النفس الاكاديمى الى تمتعها بحرية فى أن تتساءل وترفض مسلمات يشيع تقبولها فى ميدان علم النفس العام ، وفى نفس الوقت فانها كثيرا ما قصرت عن الصرامة والدقة العلمية ، وكثيرا ما كان اهتمامها بالطرق العلمية التقليدية محدودا اذا قورنت بفروع علم النفس الأساسية الأخرى .

وعلى الرغم من أن من المعقول أن نعتقد أن العلم موضوعى موضوعية تامة وخلو من التحيز الشخصى ، الا أن الشواهد المتاحة تدلنا على أن القيم الشخصية تؤثر فى نظريات الشخصية وفى استراتيجيات البحث فيها . وهذه المواقف واضحة على وجه الخصوص فى المراحل المبكرة من نمو العلم .

وقد تساعد على فهم المواقف المتصارعة والمتباينة فيما يتصل بالمسائل ذات المغزى والأهمية . ولعل الوعى بتاريخ التقدم العلمى فى المجالات الأخرى يساعدنا على فهم وجود نظريات متنافسة فى مجال الشخصية فى الوقت الحاضر ، وعلى فهم ما يمكن أن تقدمه من امكانيات تساعد على التقــــدم العلمى فى المستقبل فى هذا المجال .

ونظرية الشخصية الشاملة ينبغى أن توضح وتفسر (١) بنيــــة الشخصية ، وبالديناميات ما يتعلق بما يحرك الشخصية (فنظريات الدافعية الشخصية ، وبالديناميات ما تعلق بما يحرك الشخصية (فنظريات الدافعية نظريات عن الديناميات) ويقصـــد بالنمو الطريقة التى تكبر بها الشخصية وتتغير مع مضى الزمن . وتتناول قلة من النظريات هــذه الجوانب الثلاث على نحو متوازن ، وكثير منها يركز على الديناميات على الأغلب .

ويرى البعض أن نظرية الشخصية الشاملة ينبغى أن تعالج الى جانب البنية والديناميات أو العملية والنمو جانبين آخرين هما النواحى المرضـــية وتغير الشخصية . وهذه الجوانب الخمسة بطبيعة الحال تمثل تجــريدات تصورية ، فالشخص ليس بنية أو عملية ، وما يبدو بنية فى لحظة معينة قد يبدو عملية فى لحظة أخرى . فقد يقال عن فرد أن لديه ضميرا متشددا (بنية) يشعره بالاثم (عملية) . وهذه التصورات المجردة ما هى الا أدوات تساعدنا حتى فهم السلوك الانسانى وتفسيره وقد نجدها فى علم الأحياء كما نجدها فى علم النفس . وبالمثل فان النمو والتغير ليسا مستقلين عن البنية أو العملية ، بل أن الواحد منهما غير مستقل عن الآخر . أن النظرية تمثل جهدا للتوصل الى نمط السلوك الانسانى وانتظامه والى الطرق التى يتشابه بها الأفـراد ويتمايزون . ان المفاهيم التى تضعها نظرية وتطورها تمثل جهودا نحو تفسير وتنظيم خصائص الشخصية والشروط أو الظروف التى تنمو فيها والعمليات التى تميز قيامها بوظيفتها .

ويمكن المقارنة بين النظريات وفهمها على نحو مفيــد على أســاس المسائل الآتية : —

(أ) — المحددات الشعورية واللاشعورية للسلوك .

٢ — نواتج التعلم أو المكتسبات ام عملية التعلم (أى التأكيد على الأبنية الثابتة فى وقت معين أم على عملية التغير أساسا) .

٣ — الوراثة مقابل البيئة .

٤ — الماضى مقابل الحاضر .

٥ — المدخل الكلى مقابل المدخل التحليلى أو الجزئى .

٦ — الشخص مقابل الموقف .

٧ — النظرة الغرضية مقابل النظرة الميكانيكية .

٨ — دوافع كثيرة أم دوافع قليلة .

٩ — سلوك سوى أم سلوك شاذ .

ويستخدم علماء نفس الشخصية اربعة طرق لجمع البيانات ولبناء نظرياتهم واختبارها .

١ — الطريقة الأولى :

هى التأمل الفلسفى ، أى أن يلاحظ الباحث نفسه ويلاحظ الآخرين ويدرس الأدب السيكولوجى باتقان ويستخدم تحليله العقلى للتوصل الى مجموعة متسقة ومترابطة من التعميمات التى تؤلف نظرية . وقد تكون هذه الطريقة من أفضل الطرق بالنسبة لذوى الفكر الخصب والبصيرة النافذة والعبقرية . وعيبها أنه لا تتوافر طريقة مقبولة بصفة عامة لتحقيق واختبار صحة هذه النظريات التى تستند الى التأمل الفلسفى .

٢ — الطريقة الثانية :

هى الملاحظة الكلينيكية ودراسة الحالة . وهنا نجد المعالجين النفسيين يفكرون ويتأملون فى ملاحظاتهم عن المرضى ، ويبلورون نظرياتهم لترشيد ممارساتهم . ولقد أقام فرويد ويونج وأدلر وهورنى وأريكسون وروجرز

وكيلى نظرياتهم على أساس هذه الطريقة . واستخدم مورى والبورت فى الأساس نفس الأسلوب ولو انهما لم يعالجا عينة من المرضى .

ان مزايا هذه الطريقة تتمثل فى عمقها وبعدها النسبى عما هو مصطنع ومن عيوبها عدم وجود ضوابط تحول دون تأثير تحيز الملاحظ وعدم امكانية اعادة الملاحظات ، وخاصة حين يكون المفحوصون مرضى ، ولا تتوافر لأصحاب هذه الطريقة عينة ممثلة للانسان لتحول دون تعرض النظرية لعدم التوازن .

٣ ـ قياس الفروق الفردية :

وهذه الطريقة تفترض أن الشخصية تتألف من عدد من السمات أو العناصر التى يمكن قياسها بالاختبارات النفسية. والمنظرون الذين يستخدمون هذه الطريقة يقضون أوقات طويلة فى بناء الاختبارات وفى تحليل نتائجها باستخدام معاملات الارتباط والتحليل العاملى . ومن أمثلة أصحاب هذا الاتجاه كاتل وايزنك على الرغم من أن مورى والبورت وحتى يونج يستخدمون هذه الطريقة احيانا .

ومن مزايا هذه الطريقة انها علمية فالقياس دقيق وموضوعى وقابل للاعادة وتكميم الملاحظات يجعلها قابلة للتحليل الاحصائى . وهذه الطريقة علمية لانها تكشف عن المكونات العامة للشخصية .

غير أن هذه العناصر العامة فى الشخصية قد تكون بالغة التجريد وعقيمة ولا حياة فيها ، وقد تنقصها خصوبة دراسة الحالة الجيدة وعمقها . وفى الحق أن العناصر قد لا توجد الا كتجريد رياضى وان وجدت قد تتغير مع كل موقف جديد . ومما يبعث على الحيرة ان نجد المنظرين وقد اكتشفوا مجموعات مختلفة تماما من عناصر الشخصية باستخدام هذه الطريقة ، هذا فضلا عن أن الأساليب الارتباطية الناتجة عن استخدام هذه الطريقة تخفق فى الكشف عن العلاقات العلية .

٤ ـ الطريقة التجريبية :

وتقضى بتغيير شرط او ظرف مع ابقاء جميع الشروط الأخرى ثابتة ثم

تتبين ما اذا كان هذا التغيير يؤثر في النتيجة أم لا يؤثر فيها . أي اننا نتناول المتغير المستقل ونلاحظ ما يطرأ على المتغير التابع من تغيرات . والمتغيرات التي نتناولها في التجارب عادة ما تكون متغيرات موقفية يسهل تناولها وكثيرا ما يكون لها آثار قوية ، وباندورا وسكنر من اكثر الآخذين بهذه الطريقة .

والطريقة التجريبية تؤدي عملها وتمكننا من التنبؤ بالسلوك على نحو افضل من اي طريقة أخرى ، واكثر من هذا فانها تكشف الأسباب وبالتالي تزودنا بمقترحات مفيدة جدا لتغيير السلوك . هذا فضلا عن موضوعيتها .

غير انه يلاحظ أن سيكولوجية الشخصية علم حديث . ويرى بعض النقاد ان استخدام التجريب يعتبر نوعا من التسرع في هذا المجال وانه ينبغي أن يؤجل حتى تتوافر لدينا قاعدة نظرية أرسخ مبنية على التأمل وعلى الملاحظة الطبيعية . ويذهب بعض النقاد الى أن التجريب لن يكون ملائما قط لانه يستخدم دائما مواقف مصطنعة وتكنيكات خادعة . وفضلا عن ذلك فان القيود التي تفرضها الطريقة التجريبية تؤدي الى دراسة ظواهر تافهة وقليلة الأهمية . ثم أن التركيز على المتغيرات الموقفية يؤدي بأصحاب هذا الاتجاه الى اغفال الشخص عند دراسة الشخصية . واخيرا فان البعض يتساءل : هل التنبؤ بالسلوك هو فهم الشخصية أم أن هذين أمران مختلفان ؟

تقويم النظرية :

يمكن تقويم النظرية في ضوء ستة أسس او محكات نوجزها فيما يأتي : —

١ — القابلية للتحقيق :

تعتبر النظرية جيدة بمقدار قابلية مفاهيمها للاختبار التجريبي والتحقيق على يد باحثين مستقلين . وهذا يقتضي بأن تصاغ مفاهيم النظرية بوضوح وان تتحدد العلاقات بينها على نحو جلي وبهذه الطريقة يمكن استنباط النتائج الامبريقية منها بطريقة منطقية ووضع الفروض المتولدة موضع الاختبار .

٢ ـ تنشيط البحث العلمى :

تختلف نظريات الشخصية من حيث قدرتها على تنشيط البحث العلمى. فبعض الصياغات النظرية للشخصية مثيرة للاهتمام كنظرية ماسلو عن تحقيق الذات ولكن البحوث التى تدعمها قليلة أو نادرة . ولعل ذلك يرجع الى عدم تمكن صاحب النظرية من تعريف مفاهيمها اجرائيا على نحو يجعلها ميسرة للاختبار الامبيريقى . وبطبيعة الحال قد تجد النظرية أتباعا وتلامذة يزيدون من قدرتها على اثارة البحوث العلمية الوثيقة الصلة بمفاهيمها الأساسية .

٣ ـ الاتساق الداخلى :

لا ينبغى أن تناقض النظرية نفسها . أى أن النظرية الجيدة تفسر الظواهر النفسية بطريقة متسقة . ونظريات الشخصية بصفة عامة تستوفى هذا الشرط على نحو مرض .

٤ ـ الاقتصـــــاد :

يمكن الحكم على النظرية فى ضوء عدد المفاهيم التى تحتاجها لتفسير الوقائع فى مجالها . والتفسير المفضل لظاهرة هو ذلك الذى يتطلب اقل عدد من المفاهيم فالنظرية التى تستخدم مفهوما مختلفا ليفسر كل جانب من جوانب السلوك نظرية ضعيفة .

٥ ـ الشمـــــول :

كلما ازداد شمول النظرية ازداد المجال السلوكى الذى تتناوله. ومنظرو الشخصية يؤكدون بدرجات متفاوتة على العوامل البيولوجية والانفعاليـة والمعرفية والاجتماعية والثقافية من حيث درجة تأثيرها فى السلوك . وكل مدخل من هذه المداخل اذا استخدم وحده يكون نوعا من تضييق وتحـديد الطبيعة الشمولية للنظرية . وينبغى أن ننوه بأنه لا توجد فى الوقت الحاضر نظرية تفسر جميع أنواع السلوك الانسانى والوظائف الانسانية على نحـو مرض . ولما كان من الصعب تحديد أهمية وحيوية ظاهرة معينة فى فهمنا

للسلوك الانســـانى ، فانه يصعب المفاضلة بين نظـــرية وأخرى لاختلاف الجوانب التى تؤكد عليها كل منها .

٦ — الأهمية الوظيفية :

قد تقوم النظرية على أساس مدى نفعها وفائدتها فى مساعدتنا على فهم السلوك الانسانى فى الحياة اليومية . وغنى عن البيان أن الناس جميعا يهتمون بفهم أنفسهم وفهم الآخرين ممن يتعاملون معهم .

الفصل الثاني

سيجمند فرويد

ولد فرويد فى فريبرج عام ١٨٥٦ بالنمسا وهى الآ بتشيكوسلوفاكيا.وحين بلغ الرابعة من عمره سحب أسرته الى فيينا التى عاش فيها قرابة ثمانين عاما ، وكان أبوه تاجر صوف غير ناجح ، متسلطا صارما . وحين ولد فرويد كان أبوه قد بلغ الأربعين من عمره ، وكانت أمه هى الزوجة الثانية فى العشرين من عمرها . وكان فرويد الابن الأول لستة اطفال ولدوا لامه .. وكان له أخوان من أبيه .

كان فرويد تلميذا متفوقا دائما ، احتل المرتبة الأولى فى صفه عند التخرج ، ولم يكن مسموحا لاخوته وأخواته أن يدرسوا الآلات الموسيقية فى البيت لان هذا قد يزعج فرويد ويعوقه عن التركيز فى دراساته . والتحق بمدرسة الطب عندما بلغ السابعة عشرة من عمره ، ولكنه مكث بها ثمانى سنوات لكى ينهى الدراسة التى تستغرق عادة أربع سنوات ، ويرجع ذلك الى متابعته وانشغاله بكثير من الاهتمامات خارج مجال الطب . ولم يكن فرويد مهتما فى الحقيقة بأن يصبح طبيبا ولكنه رأى أن دراسة الطب هى الطريق الى الانغماس فى البحث العلمى .

وكان أمل فرويد أن يصبح عالما فى التشريح ونشر عددا من الأوراق العلمية فى هذا المجال . وسرعان ما أدرك أن التقدم فى مدارج العلم ومراتبه سيكون بطيئا بحكم انتمائه العرقى ، وادراكه هذا ، فضلا عن حاجته الى المال دفعاه الى الممارسة الكلينيكية الخاصة كمتخصص فى الأعصاب عام ١٨٨١ م .

وفى عام ١٨٨٦ تزوج مارثا برنيز Martha Bernays وانجب منها ستة أطفال ثلاثة من البنين وثلاثا من البنات ؛ وأصبحت احدى بناته آنا طبيبة نفسية مشهورة فى علاج الاطفال فى لندن .

وقد بدأ فرويد عمله مع بروير Josef Breuer عام ١٨٨٠ تقريبا . وكان الاخير ناصحا لفرويد وصديقا ومقرضا للمال . وكان طبيبا ناجحا ، نجح فى استخدام طريقة جديدة لعلاج الهستريا . والهستريا لفظ يستخدم لوصف أعراض متنوعة كالشلل وفقدان الاحساس واضطرابات البصر والنطق . ولقد افترض فى الأصل ان الهستيريا مرض انثوى . ولقد وجد بروير أن مريضته وكانت تبلغ من العمر احدى وعشرين سنة وتسمى الآنسة آنا أو Anna O. حين عبرت عن مشاعرها وانفعالاتها اختفت بعض اعراضها اختفاء مؤقتا او اختفاء دائما. وأطلق على التنفيس عن التوتر الناتج عن «حديث البرء talking cure التفريغ الانفعالى Catharsis . ولقد استخدم أرسطو فى الأصل اللفظ تفريغ لوصف الافصاح عن الانفعالات والمشاعر والتنفيس عنها ذلك الذى نجده عند جمهور النظارة عندما يتابعون دراما تراجيدية . ولقد اطلقت المريضة نفسها على هذا الاسلوب « حديث البرء » .

ولقد امكن تعلم عدة حقائق من طريقة بروير فى علاج هذه الفتاة . وكان من اهمها أن حالتها تحسنت الى حد ما عندما عبرت تعبيرا صريحا عن انفعالاتها . وهذه الملاحظة أثارت اهتمام بروير الى حد انه كان يلتقى بهذه الفتاة عدة ساعات فى اليوم الواحد لفترة تزيد عن السنة. وخلال تلك الفترة بدأت آنا تحول ما لديها من مشاعر نحو ابيها اليه وهذه الظاهرة التى تعنى أن المريض يستجيب للمحلل كما لو كان شخصا هاما فى حياته يطلق عليها ظاهرة التحويل transference . وبالمثل لقد اصبح بروير منغمسا انفعاليا مع آنا . ويطلق على هذه الظاهرة التحويل المضاد Counter transference . ولقد شعر بروير بأن هذا الانغماس الانفعالى يؤثر فى حياته الزوجية فتوقف عن العلاج .

ولا بد ان علاج بروير لآنا كان ناجحا جزئيا على الأقل لانه اتضح فيما بعد انها اصبحت الاخصائية الاجتماعية الأولى واسست عدة مؤسسات لتدريب الطلاب .

وفى عام ١٨٨٥ تسلم فرويد منحة صغيرة أتاحت له أن يدرس مع طبيب نفسى فرنسى مشهور هو « جين شاركوه Jean Charcot الذى كان

يستخدم التنويم المغناطيسى فى علاجه للهستيريا . وكانت هذه الزيارة هامة لفرويد لسببين على الأقل . السبب الأول أن فرويد تعلم من شاركوه أن من الممكن علاج الهستيريا كاضطراب نفسى وليس كاضطراب عضوى . وكان فرويد يستخدم فى ممارسانه العلاج الكهربائى ، أى يوجه صدمة كهربائية مباشرة الى العضو الذى يشكو منه المريض كالذراع المشلولة مثلا . والسبب الثانى : أن فرويد سمع شاركوه ذات مساء يؤكد بحماس أن أساس المشكلات التى يعانى منها أحد مرضاه جنسى . ولقد اعتبر فرويد هذه الملاحظة خبرة معلمة . ومنذ ذلك الحين عمد الى الالتفات الى امكانية أن تكون المشكلات الجنسية سببا فى الاضطراب الذى يعانى منه المريض .

وبعد ان قضى أقل من ستة شهور يدرس مع شاركوه فى باريس عاد فرويد الى فيينا والى تعاونه مع بروير . ولقد جرب فرويد التنويم المغناطيسى لفترة من الزمان ولم يقتنع بنتائجه لانها كانت مؤقتة ولانه لا يصل الى جذور المشكلة . وتركه كاسلوب للعلاج لانه وجد أن بعض المرضى لا يمكن تنويمهم . ولقد غضبت احدى مريضاته غضبا شديدا لمقاطعته لها أثناء الحديث وهو يحاول تنويمها . وعبرت عن رغبتها فى الا يقاطعها لتعبر عما فى نفسها .

وجرب فرويد بعد ذلك اسلوب ضغط اليد بدلا من التنويم . وكان يضع يده على جبهة المريض ويطلب منه ان يبدأ الكلام حين يزول الضغط عن الجبهة . وعلى الرغم من ان هذا الاسلوب كان ناجحا الا أن فرويد تركه واستقر على استخدام التداعى الطليق الذى اعتبره القاعدة الرئيسية للتحليل النفسى .

ولقد عمل فرويد مع بروير فى دراسة وعلاج حالات هستيرية وفى عام ١٨٩٥ م نشر كتابا بعنوان « دراسات فى الهستيريا Studies in Hysteria والذى يعتبر عادة بداية حركة التحليل النفسى . وعلى الرغم من أن لهذا الكتاب مكانته البارزة ، الا انه قوبل من النقاد آنذاك باتجاهات سلبية . وبيع منه خلال ثلاثة عشر عاما ٦٢٦ نسخة . وسرعان ما انفصل الصديقان الحميمان وذلك لاصرار فرويد على ان الصراعات الجنسية هى

سبب الهستيريا . وكان هذا هو السبب الأول الذى ادى الى طرد فرويد من جمعية فيينا الطبية عام ١٨٩٦ م .

ولقد بدأ فرويد فى تحليل نفسه عام ١٨٩٧ م وبدأ فى ذلك لاسباب نظرية وشخصية . وعلى سبيل المثال لقد كان لديه خوف غير صحى من السفر بالقطار . وكانت اداته الوحيدة فى تحليله لنفسه تفسير احلامه . ولقد ادى هذا التحليل فى النهاية الى ما اعتبره الكثيرون اعظم كتب فرويد « تفسير الاحلام » The Interpretation of Dreams الذى نشر عام ١٩٠٠م ولقد لقى هذا الكتاب حظا مماثلا لحظ الكتاب الذى سبقه فلقى نقدا شديدا ، وبيع منه خلال ثمان سنوات ٦٠٠ نسخة حصل منها فرويد على ما يعادل مائتين من الدولارات تقريبا . وفى النهاية برزت أهمية الكتاب وعم نشره فى انحاء مختلفة من العالم وترجم الى لغات عديدة منها العربية . وهو كتاب عن الاحلام ، وعن دينامية العقل الانسانى ، ويتضمن الفصل الأخير منه نظرية فرويد فى العقل .

وبعد نشر هذا الكتاب بدات حركة التحليل النفسى تأخذ قوتها الدافعة وجاء الاعتراف الدولى بها أخيرا حين دعا ستانلى هول فرويد لالقاء سلسلة من المحاضرات فى جامعة كلارك فى امريكا عام ١٩٠٩ م . وعلى الرغم من أن فرويد لم يهتم بأمريكا كثيرا ولم يعد اليها قط ، الا انه اعتبر زيارته لجامعة كلارك ذات مغزى كبير فى نمو حركة التحليل النفسى .

وفى عام ١٩٢٣ أكتشف أن فرويد مصساب بالسرطان فى فمه وقد ارتبط هذا بعادته فى تدخين عشرين سيجارا فى اليوم وهى عادة لم يتخلص منها حتى بعد اكتشاف مرضه . ومنذ عام ١٩٢٣ وحتى وفاته ١٩٣٩ اجريت له ثلاث وثلاثون عملية . وعلى الرغم من معاناته من الألم لانه كان يرفض استخدام العقاقير المسكنة . فقد بقى يقظا واستمر يعمل حتى نهاية حياته .

ولم يشعر فرويد قط أن عمله قد انجز ، فقد كان يراجع نظرياته الأساسية وافكاره ويغيرها . ففى عام ١٩٢٠ مثلا — وكان فى السبعين من عمره — جدد نظريته فى الدافعية وغير نظريته فى القلق .

وعندما استولى النازيون على السلطة عام ١٩٣٣ أحرقوا كتب فرويد علنا فى برلين. معلنا أحدهم «محاربة للمبالغة فى تقدير الحياة الجنسية التى تحطم الروح وخدمة لنبل الروح الانسانية أقدم كتابات سيجمند فرويد لالسنة اللهب ». ولقد قاوم فرويد ترك فيينا حتى بعد غزوها عام ١٩٣٨ م . ولكنه فى النهاية وافق وذلك بعد القاء القبض على آنا ابنته وبعد تعرض بيتها للتفتيش والاعتداء من قبل عصابات النازية . وذهب الى لندن ومات فيها فى ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩ .

نظرية الشخصية فى التحليل النفسى :

ليس هنــاك رواية واحدة لنظرية الشخصية عند أصحاب التحليل النفسى يمكن أن نقول انها الرواية الصحيحة . وذلك لان فرويد كثيرا ما ذهب الى انه مع التقدم التصورى والمنهجى والتكنولوجى حدثت تغيرات فى مفاهيم اساسية عنده . ولقد أحدث فرويد بعض التغييرات الأساسية فى تفكيره فى ضوء خبراته الكلينيكية المتراكمة . ولســوء الحظ فانه فى حالات كثيرة لم يوضح بعد احداث التعديلات على بعض المفاهيم المبكرة ، هل ذلك رفض للمعانى القديمة ؟ أم أن المعانى الجديدة تكمل المعانى القديمة وتزيدها ثراء .

وعلى الرغم من ان هذه التعديلات والتجديدات لم تتناقض مع القديم الا انه نشأ مع ذلك بعض الخلط ، وترتب على ذلك فيما يبدو عدم وجــود تكامل بين هذه التصورات فى النظرية ، وايها يعتبر العمدة او المرجع . وما يزال بعض الكتاب يؤكدون على تقسيم العقل الى اللاشعور ، وقبـل الشعور ، والشــعور . بينما يرى آخرون ان هذا التقســيم غير هام وأن التطورات الأخيرة فى النظرية تخلصت منه . ولعل الايجاز فى عرض هذه النظرية مطلوب لكثرة ما يتوافر عن فرويد فى المكتبة العربية .

بنية الشخصية :

تتألف الشخصية من ثلاثة أجهزة رئيسية هى : الهو والأنا والأنا الأعلى وحين تعمل متعاونة تيسر لصاحبها سبل التفاعل مع البيئة على نحو مرضى

بحيث يتم اشباع حاجاته الأساسية ورغباته . اما اذا تنافرت وتشاحنت هذه الاجهزة ساء توافق الفرد وقل رضاه عن نفسه وعن العالم ونقصت كفـــايته .

الهـــــو Id

يستهدف الهو تخليص الفرد من كميات الاستثارة أو الطاقة التى تنبع داخله نتيجة للتنبيه الداخلى أو الخارجى ، أى أن الهو يستهدف تجنب الألم وتحقيق اللذة . ويلجأ الهو الى الأفعال المنعكسة التى تخلصه على نحو آلى من كل طاقة جسمية يستثيرها مثير ما يفعل فعله فى عضو الحس . والنتيجة العامة هى استبعاد المثير ، فامتلاء العين بالدموع من شأنه أن يخرج منها الجسيمات المثيرة ولو انه كان بالامكان التخلص من كل أنواع التوتر عن طريق الأفعال المنعكسة لما كانت هناك حاجة الى أن يتطور الكائن الحى نفسيا . ولذلك يلجأ الهو الى العمليات الأولية التى تحاول التخلص من التوتر بتوحيد الادراك ، أى أن الهو يعد الصورة العقلية المبنية على التذكر مساوية للمدرك الحسى ومطابقة له . ومعنى هذا أن تذكر الطعام مساو ومطابق لعمليـة الطعام عند الهو ، أى أن الهو يعجز عن أن يميز بين الصورة المتذكرة وهى ذاتية وبين الادراك الحسى الموضوعى للشىء القائم فعلا . ومن أمثـلة العمليات الأولية « الاحلام عند النوم » فالجائع يحلم بالطعام .

والهو هو المصدر الأولى للطاقة النفسية ومستقر الغرائز ، هو الصق بالجسم وبعملياته منه بالعالم الخارجى . وهو يحتاج الى التنظيم وطاقته غير مستقرة بحيث يتم التخلص منها او تحويلها من موضوع الى آخر ، والهـو لا يتغير بمضى الزمن ولا بفعل الخبرة أو التجـربة لانه لا يتصـل بالعالم الخارجى ومع ذلك يمكن السيطرة عليه . والهو لا تحكمه قوانين العقل أو المنطق ولا القيم الاخلاقية ولا يدفعه الا تحصيل الاشباع للحاجات الغريزية وفقا لمبدأ اللذة (علم النفس عند فرويد : أحمد سلامة وآخرون ص ١٩ — ٢٦).

الأنــــــا The Ego

جهاز نفسى يسعى للتعبير عن رغبات الهو واشباعها وفقا لمقتضياته

الواقع ومطالب الأنا الأعلى . والآنا تكتسب بنيتها ووظائفها من الهو ، أى أنها تتطور عنه وتمضى لتقترض بعضا من طاقته لتستخدمها فى استجابتها للبيئة . وهكذا تضمن الآنا الأمن للكائن الحى وحفاظه على ذاته . والآنا وهى تخوض معركة البقاء ضد العالم الخارجى وازاء مطالب الهو الغريزية ينبغى ان تميز على نحو مستمر بين الأشياء كما يدركها العقل والاشياء فى العالم الخارجى الواقعى . فالجائع الذى يبحث عن الطعام على سبيل المثال ينبغى ان يميز بين الصورة العقلية للطعام والادراك الفعلى للطعام ، اذا أريد أن يتحقق انقاص التوتر . أى أنه ينبغى ان يتعلم أن يتناول الطعام حتى يتم انقاص التوتر الناتج عن الجوع . ويتحقق هذا العمل من خلال استراتيجيات توافقية تمكن الهو من التعبير عن الحاجات الغريزية وفقا لمعايير المجتمع واخلاقياته . ومثل هذه الاستراتيجيات تتطلب من الفرد أن يتعلم ويفكر ويدرك ويقرر وينتقى ... الخ . وهذا يفسر لنا لماذا تعتبر وظائف الآنا عادة قدرات معرفية .

وفى مقابل سعى الهو الى تحقيق اللذة وسلوكها وفقا لمبدئها ، فاننا نجد أن الانا يعمل وفقا لمبدأ الواقع . وهى تستهدف المحافظة على سلامة الكائن الحى بتأجيل الاشباع الغريزى حتى يتوافر الموضوع المناسب أو الظروف البيئية الملائمة لهذا الاشباع . ومبدأ الواقع يمكن الفرد من كف طاقة الهو وتحويلها والافراج عنها تدريجيا بما يتلاءم مع القيود الاجتماعية ويتناسب مع ضمير الفرد . وعلى سبيل المثال فان التعبير عن الدافع الجنسى يؤجل حتى يتوافر الموضوع والظروف الملائمة او المثالية ، عندئذ يتحقق مبدأ اللذة . والآنا تختلف عن الهو من حيث ان الاولى تميز الحقيقة من الخيال وتتحمل التوتر المعتدل من التوتر . وتتغير نتيجة للخبرة الجديدة وتنمى مهارات معرفية ادراكية . والغرض من المهارات المعرفية الادراكية او ما يطلق عليه تزويد عمليات ثانوية هو تحديد مسارات مناسبة للفعل تشبع الحاجات الغريزية دون تهديد سلامة الفرد وسلامة الآخرين وأمنهم . فالآنا هى الجهاز التنفيذى للشخصية وهى مستقر العقل . وأحد أهداف العلاج بالتحليل النفسى الاساسية تحرير قدر من طاقة الآنا بحيث يمكن بلوغ مستويات اعلى لحل المشكلات .

الآنا الأعلى Super - ego

التكوين الثالث فى بناء الشخصية هو الآنا الأعلى وهى تعمل على بلوغ الكمال وليس الواقع أو اللذة . انها تمثل النواحى الخلقية والقيمية والمعيارية لدى الفرد وهى تنشأ كجزء من الآنا يستقل نتيجة تمثل الطفل لمعايير والديه وبهذا يصبح قادرا على السيطرة على سلوكه وجعله مطابقا لرغبات والديه وبذلك يحظى بموافقتهم ورضاهم ويتجنب اعتراضهم وسخطهم . والطفل يظل متكلا على والديه فترة طويلة نسبيا مما ييسر تكون الآنا الأعلى .

والآنا الأعلى تتألف من جهازين فرعيين هما : الآنا المثالية والضمير وتنشأ الآنا المثالية نتيجة لاثابات الوالدين وهى تؤدى بالفرد الى تحديد الأهداف والمطامح التى تؤدى حين تتحقق الى الاحساس بتقدير الذات والفخر . فالطفل الذى يكافأ على تفوقه الدراسى يشعر بالفخار كلما أظهر انجازا أكاديميا . وينشأ الضمير من خلال استخدام الوالدين للعقاب على ما هو سىء من الوجهة الاخلاقية ويشتمل على القدرة على تقويم الذات تقويما معاقبا وعلى التحريمات الخلقية ؛ ومشاعر الاثم حين يخفق الفرد فى الارتقاء لمستوى ما هو مثالى . فالآنا المثالية والضمير وجهان لعملية اخلاقية واحدة .

والآنا الأعلى غير عقلانية كالهو . انها تطلب من الفرد بلوغ الكمال بدلا من أن تطلب منه أن يقوم بأفضل ما يستطيع . وهى تعاقبه بقسوة سواء قام بالعمل السىء أو حتى فكر فيه . أى أن التفكير فى التصرف أو الفعل والقيام به متساويان فى نظر الآنا الأعلى ولعل هذا يفسر كيف أن من الناس من يتمسك بالفضيلة فى حياته ومع ذلك يعانى من وخز الضمير ؛ لان آناه العليا تعاقبه على انشغاله بأفكار خبيثة ولو لم ينفذها . ولكن الآنا الأعلى تشبه الآنا من حيث انها تحاول ضبط نزعات الهو الغريزية . وهى حين تقوم بوظائفها الأساسية — كف الهو ، واجبار الآنا على تحقيق الاهداف الخلقية والسعى لتحقيق الكمال — تعارض كلا من الهو والآنا وتحاول فرض وجهة نظرها على الشخصية .

ولا بد أن نتذكر دائما أن هذه الأجهزة الثلاثة الهو والآنا والآنا الأعلى

ليست الا مصطلحات تشير الى تكوينات وعمليات نفسية تعمل وفق مبادىء معينة . وانما تعمل كفريق فى ظل توجيه الإنا . وانه حين تنشأ صراعات بينها يظهر السلوك الشاذ وعدم التوافق .

ديناميات الشخصية :

كيف تعمل الهو والانا والانا الاعلى وكيف تتفاعل بعضها مع بعض ومع البيئة ؟

الطاقة النفسية :

الطاقة النفسية هى التى تحرك الأجهزة الثلاثة وهى تساعد على اداء العمل وتوفير امكانيات أدائه . وتؤدى اشـــــكالا نفسية كالتفكير والادراك والتذكر وفى مقدورنا أن نتحدث عن تحول الطاقة النفسية الى طاقة جسمية، فنحن نفكر ثم نتصرف على نحو ما أو نقوم باداء عمل معين .

الغــــــريزة :

والغرائز هى المصادر التى تستمد منها الشخصية ما يلزمها من طاقة لاداء أعمالها وهى التى توجه العمليات النفسية . ومصـــــدر الطاقة النفسية مشتق من حالات الاثارة العصبية الفسيولوجية . وانه لدى كل فرد قدر محدود من هذه الطاقة متاح للنشاط العقلى . وان هدف السلوك الانسانى كله هو انتقاص التوتر الذى يخلقه تراكم الطاقة المؤلم بمضى الزمن . وعلى سبيل المثال اذا استخدمت طاقتك فى قراءة كلمات هذه الصـــــفحة ، فان ما تبقى منها لاوجه النشاط العقلى الأخرى كأحلام اليقظة ومشاهدة البرامج التلفزيونية .. الخ يقل مثلا . وبالمثل فان السبب فى قراءتك لهذه الكلمات قد يكون انتقاص التوتر المرتبط باختبار يعقد فى الاسبوع التالى .

وهكذا نتصور فرويد الدافعية الانسانية باعتبارها قائمة كلية على الطاقة التى تصدرها حاجات الانسجة الجسمية . ولقد اعتقد أن مقدار الطاقة النفسية التى تنشأ من حاجات الانسجة الجســــمية يستثمر فى الانشطة العقلية التى تصمم لانقاص الاستثـــارة التى تخلقهـــا الحاجة .

والتمثيلات العقلية لهذه الاستثارات الجسمية تظهر فى صورة رغبات ويطلق عليها غرائز . فالغريزة اذن تشير الى حالة استثارة جسمية فطرية تسعى للتعبير وللتخلص من التوتر . ولقد راى فرويد ان النشاط الانسانى كله يتحدد بالغرائز . وقد يكون تأثيرها على السلوك ملتويا ومقنعا . وقد يكون مباشرا وسافرا . فالناس يسلكون ويتصرفون لان التوتر الغريزى يدفعهم الى ذلك وسلوكهم وتصرفاتهم تنقص التوتر .

غريزة الحياة وغريزة الموت :

يرى فرويد وجود مجموعتين من الغرائز الأساسية : غرائز الحياة وغرائز الموت . المجموعة الأولى تشتمل على جميع القوى التى تعمل على الحفاظ على العمليات الحياتية الحيوية وبقاء النوع وتكاثره . وبسبب اهمية هذه الغرائز فى التنظيم النفسى للأفراد ، اعتبر فرويد الغرائز الجنسية اكثر غرائز الحياة بروزا فى نمو الشخصية . ويطلق على قوة الطاقة الكامنة وراء الغرائز الجنسية مصطلح اللبيدو Libide وهو مشتق من كلمة لاتينية بمعنى الرغبة . ويقصد بالطاقة اللبيدية طاقة غرائز الحياة بصفة عامة ، والطاقة النفسية التى تبحث عن اشباع من خلال الأنشطة الجنسية بصفة خاصة .

والفئة الثانية هى غرائز الموت وهى غرائز وراء مظاهر القوة والعدوان والانتحار والقتل . ولم يطلق فرويد اى اسم على طاقة غرائز الموت كما فعل بالنسبة للطاقة اللبيدية . وعلى اية حال فان فرويد اعتبر هذه الغرائز منغرسة أو متجذرة فى النواحى البيولوجية ولها اهمية مساوية لغرائز الحياة من حيث تحديد السلوك الفردى . وفضلا عن ذلك ، فقد راى الأساس الامبيريقى لغريزة الموت فى مبدأ Entropy وهو قانون من قوانين الديناميكا الحرارية يقرر أن أى نظام للطاقة يبحث عن حالة من التوازن ، فغاية الحياة الموت . وقد قصد بذلك ان جميع الكائنات الحية مضطرة الى العودة الى حالة اللاحياة التى جاءت منها . اى أن فرويد اعتقد ان لدى كل شخص رغبة لا شعورية فى الموت .

ولكل غريزة مصدر وهدف وموضوع وقوة اندفاع . أما المصدر فهى

حاجات الجسم ونزعاته والحاجة عملية اثارة فى نسيج الجسم أو فى عضو من أعضائه من شأنها أن تطلق طاقة تختزن فى الجسم . فمثلا حاجة الجوع تنشط غريزة الجوع بأن تمدها بالطاقة . وهذه الطاقة توجه العمليات النفسية من ادراك وتفكير للبحث عن الطعام .

والهدف النهائى للغريزة هو التخلص من حاجة الجوع الجسمية ، فاذا تحقق يعود الفرد الى حالة السكينة . أما موضـــوع الغريزة فهو الشىء أو الوسيلة التى يتحقق به هدفها ، فموضوع غريزة الجوع هو تناول الطعام ومطلب غريزة الموت هو التتــل . والموضوع او الوســيلة اكثر جوانب الغريزة تغيرا . ويمكن لكثير من الموضوعات ان يقوم بعضها مقام البعض الآخر ويعتبر هذا احد المدارج الرئيسية لنمو الشخصية كما سنرى فيما بعد .

واما قوة اندفاع الغريزة فهو شدتها التى تتحدد بمقدار ما تملكه من طاقة فالجوع الشديد له قوة دفع اكبر على العمليات النفســية من الجوع الضعيف .

وكل فعل يتحدد او يشتق من عدة دوافع . فقد تعمل غريزة الحيــاة وغريزة الموت معا . ويحدث هذا على سبيل المثال فى تناول الطعام فهــو يحفظ الحياة ولكنه يتضمن افعالا هدامة كالعض والمضغ والابتلاع وقد تحيد غرائز الحياة غرائز الموت ، فقد يستخدم الناس الاتقان واجادة العمل لبلوغ الموضوعات التى يحبونها . وقد تتصارع الغريزتان كما يحدث حين يشعر الشخص بالحب لانسان وبالغضب منه فى آن واحد . وقد يصبح لغرائز الموت احيانا اليد العليا ، فيتخذ الحب شكلا ساديا .

وقد كتب فرويد (١٩٣٣) رسالة الى اينشتين عن الحرب والداعين لرفض حمل السلاح (دعاة السلام) يقترح فيها ان غرائز الحياة التى تتخذ شكل العلاقات والروابط الانفعالية بين الناس ينبغى ان توجه لمعارضة نزعة الانسان الى التتل وميله للحرب . ولكنه عبر عن شكه فى ان مثل هــذه الروابط التى لم تنجح فى الماضى سوف تقدر على منع الصراع فى المستقبل . ولقد دل تشاؤمه على اعتقاده بعجز الناس عن ضبط نزعاتهم الغريزية وعن العثور على منافذ مقبولة للانصياع عنها .

كيف تتوزع الطاقة وتستخدم ؟

ان لفظ ديناميات الشخصية يشير الى الطريقة التى تتغير الشخصية بها وتنمو وبالتالى الى الطرقة التى تتوزع بها الطاقة النفسية وتستخدم من قبل الهو والآنا والآنا الأعلى . ومقدار الطاقة المتاح للشخصية محدود . وينبغى ان تتنافس الأجهزة الثلاث للحصول عليها . وهكذا فانه ما لم تضف طاقة جديدة للبنية الكلية ، تؤدى زيادة قوة جهاز الى ضعف الجهازين الآخرين .

طاقة الهو مرنة :

تتوافر فى البداية لدى الهو طاقة الشخصية كلهـا وتستخدمها فى الأفعال المنعكسة ، وفى اشباع الرغبات فى ظل توجيه العملية الاولية . ان الهو يستثمر الطاقة فى الأشياء التى يبدو انها تشبع حاجاته ، ولكن الهو لا يستطيع التمييز بين الذاتى والموضوعى ، ولذلك فان الطاقة مرنة — ويسهل ابدالها وازاحتها من موضوع الى آخر . فالوليد الجائع يضع فى فمه أى شىء يراه ويمسكه — أصابعه ، طرف الملاءة ، لعبة من البلاستيك . ولكن استثمار الطاقة فى هذه الأشياء حين يخفق فى اشباع حاجات الكائن العضوى كما فى حالة جوع الوليد ، يتحول من عمليات الهو الذاتية الى عمليات الآنا المنطقية والموضوعية .

تزايد رصيد الآنا من الطاقة :

تكتسب الآنا التى لا تتوافر لها طاقة خاصة بها تدريجيا قدرا يتزايد من طاقة الهو ؛ لانها اكثر نجاحا من الأخيرة فى انقاص التوترات وبالتالى اشباع حاجات الكائن الحى . ويرجع نجاح الآنا الى قدرتها على استخدام ميكانزم هام هو التوحد الذى تقوم الآنا بواسطته بمزاوجة صورة عقلية لدى الهو بادراك فعلى . وبينما تعتقد الهو بأنه لا فرق بين صورة الشىء المرغوب فيه ؛ والشىء الفعلى . تعرف الآنا ان الصورة تختلف عن الشىء الحقيقى أو الواقعى وان الصورة ينبغى أن تنطبق مع الواقع وهى لا تغنى عنه .

ومفهوم التوحد له اهمية عظيمة لان جميع التقدم المعـرفى يتألف من تحويل التمثيلات العقلية للعالم الى صورة أكثر دقة له كما هو فى الواقع . وحين ينجح الوليد فى مطابقة صورته العقلية عن الطعام مع حلمة ثدى الأم المانحة للبن تتزايد قدرته على اشباع حاجاته تزايد عظيما .

وفى نهاية الأمر تحتكر الأنا الطاقة النفسية لانها فى كل مرة تنجح فيها فى الحصول على ما يشبع الحاجة تتحول الطاقة المستثمرة فى صورة ذلك الشىء الى الآنا . وبطبيعة الحال فى كل مرة تخفق الآنا فى اشباع الغرائز تعيد الهو تأكيدها لقوتها وسلطتها .

ولما كانت الآنا ذات كفاءة عالية فانها تجمع طاقة اضافية تستطيع استغلالها فى أشياء وانشطة متنوعة . انها تكرس جزءا من طاقتها لتنمية العمليات النفسية الاساسية كالادراك والتمييز والاستدلال . ولكن طاقة الآنا ينبغى أن تستخدم فى خلق قوى كابحة هى الشحنات المضادة وتستخدم هذه القوى عادة لتمنع الهو من الفعل المندفع غير العقلانى ، ولكن يمكن استخدامها ضد الأنا الأعلى أيضا اذا اصبحت مطالبها جائرة جدا . واذا هددت الهو او الانا الأعلى بالخروج عن الجسادة او الشطط ، فان الآنا تستطيع حماية نفسها باستخدام الحيل الدفاعية .

والانا هى الجهاز التنفيذى للشخصية تستخدم الطاقة لتنسيق الأنشطة التى تقوم بها الأجهزة الثلاثة جميعا . انها تحاول ان توجد انسجاما داخل الشخصية بحيث يصبح التعامل مع البيئة سلسا وفعالا .

الآنا الأعلى والطاقة :

تكتسب الانا الأعلى شأنها شأن الآنا الطاقة عن طريق التوحد . ويستثمر الوليد طاقة فى والديه منذ وقت مبكر جدا ، لانه يعتمد عليهما كلية لاشباع حاجاته ومع نمو الطفل ينقل الولدان قيم المجتمع ، كما يفسرانها الى الطفل من خلال الاثابات والعقوبات . ولكى يحتفظ الطفل بحب الوالدين وتقبلهما يتعلم أن يتوحد معهما ؛ أى ان يزاوج ويضاهى سلوكه مع معايير الوالدين . انه يستثمر الطاقة فى مثلهم العليا وفى تحريماتهم . ان للوالدين

سلطات كبيرة فى عقاب الطفل واثابته ، ولهذا نجد للآنا الأعلى سلطة فرض العقاب ، ومنع الثواب . وتتولى الآنا المثالية الاثابة ويتكفل الضمير بالعقاب .

وتحريمات الضمير شحنات سالبة توقف استنفاذ الطاقة الغريزية فى صورة سلوك اشتهائى أو اندفاعى ، أى على نحو مباشر . كما توقف ذلك بصفة غير مباشرة عن طريق ميكنزمات الأنا ، اى أن الضمير يقاوم كلا من الهو والآنا معا ويحاول أن يعطل مبدأ اللذة ومبدأ الواقع . فصاحب الضمير متيقظ دائما لما عنده من نوازع غير خلقية وهو بهذا يستهلك جانبا كبيرا من طاقته ضد الهو مما يعوقه عن الانتاج والشعور بالرضا . (كالفن هول : احمد سلامة وآخر ١٩٦٧ ، ص ٥٠) .

واذا كانت غالبية الطاقة تحت سيطرة الآنا الأعلى ، كان سلوك هذا الفرد اخلاقيا . أما اذا كانت هذه الغالبية فى حوزة الآنا ، كان سلوكه واقعيا . أما اذا كان الهو وهو مصدر الطاقة محتفظا بمعظمها ، فان سلوك الفرد يتسم بالاندفاع . وعن طريقه توزع الطاقة النفسية بين هذه الجوانب الثلاثة للشخصية يعبر الشخص عن نفسه .

القـــلق :

القلق متغير أساسى فى جميع نظريات الشخصية تقريبا وينتج عن الصراع وهو جانب من الحياة لا يمكن تجنبه ، وكثيرا ما يرى القلق باعتباره مكونا أساسيا فى ديناميات الشخصية . ولقد كان لتحليل فرويد للقلق سواء لدى الأسوياء أو غير الأسوياء اثر كبير على المنظرين اللاحقين ، وما يزال له تأثيره لدى الكلينيكيين .

ويتضمن اداء الشخصية لوظائفها فى كثير من الأحيان التعامل مع العالم الخارجى . وهذا العالم قد يزودنا بالطعام وقد يحرمنا منه ، وقد يوفر لنا الأمن أو يحمل لنا التهديد ، وقد يزعجنا وقد يرضينا وريحنا ، وحينما لا نكون على استعداد لمواجهة هذه التهديدات قد يعترينا الخوف ويجتاحنا القلق .

ولقد ميز فرويد بين ثلاثة أنواع من القلق تشترك كلها فى أنها غير مريحة ومؤلمة ولكنها تختلف فحسب من حيث مصدر كل منها . ففى القلق الواقعى يكون مصدر الخوف المخاطر الواقعية فى العالم الخارجى ، كأن يخاف الفرد من ثعبان سام ، أو شخص مخمور . أما القلق العصابى فينشأ من خبرة طفلية مبكرة ، من قسوة سلوك الوالدين وتربيتهم أو عدم رعايتهم له . وحين نكون قلقين عصابيا فاننا نكون خائفين من عقاب متخيل سوف نتلقاه من والد متخيل أو من سلطة أخرى نتيجة لاشباعنا لنزعاتنا الغريزية — وقد حدث أن عاقبنا الوالدان فى الماضى على مثل هذا الاشباع . ان التهديد فى القلق العصابى يكون كلمنا فى موضوع اختيار غريزى للهو؛ فيخاف الشخص من ان يجتاحه دافع لا يقدر على التحكم فيه أو يعمل عملا يؤدى الى الاضرار به . وينشأ القلق الخلقى حين نخالف المعايير الوالدية المتمثلة . وحين نقلق خلقيا فاننا نخاف من عقاب الآنا الأعلى أو الضمير .

وقد يتداخل القلق العصابى مع القلق الخلقى . ان الفرق يكمن اساسا فى درجة الضبط الذى يصدر عن الآنا . وكثيرا ما يكون الفرد فى القلق الخلقى عقلانيا وقادرا على التفكير فى المشكلة حتى النهاية . ويفرض الآنا الأعلى مطالبه ،ولكن الآنا يقدر على الصمود أمامها واتخاذ قرار يتصل بمسار الفعل . اما فى القلق العصابى فكثيرا ما يكون الناس مبتئسين ، بل واحيانا فى فزع ولا يستطيعون التفكير بوضوح . ان الهو تمنعهم من التمييز بين الخيال والواقع . ويعتقد القلقون عصابيا ان ثمة قوة خارجية سوف تعاقبهم فعلا وانهم كثيرا ما يسلكون كما لو كانوا يعتقدون بصحة هذا . والقلقون خلقيا يعرفون عادة ان ما بداخلهم هو الذى يسبب تعاستهم ويحدث قلقهم .

والوظيفة الأساسية للقلق ان يكون بمثابة اشارة خطر أو انذار للآنا ؛ فاذا برزت هذه الاشارة فى الشعور وجب على الآنا ان يكون حذرا .والقلق مؤلم ، ولكنه يؤدى عملا ضروريا وهو انه ينبه الشخص بوجود اخطار مصدرها الهو ، او الآنا الأعلى . وهذه الاخطار داخلية . او مصدرها الواقع . واذا تنبه الشخص عمل على دفع الخطر . ان القلق اشارة تدل الآنا على وجود خطر ، وما لم تتخذ اجراء قد تنهزم . ان القلق يدفعنا لعمل شىء : « الهرب من الخطر الخارجى ، أو كف النزعة الغريزية أو اطاعة

صوت الضمير » . واذا لم نستطع معالجة القلق بطريقة عقلانية فلا بد من استخدام اساليب دفاعية غير واقعية .

حيل الآنا الدفاعية :

تواجه الآنا الوانا من التهديد وانواعا من الأخطار تثير القلق والاضطراب، فتحاول السيطرة عليها بطرق حل المشكلات واقعيا ، وقد تصطنع اساليب من قبيل انكار الحقيقة او تشويهها . وهذه الأساليب هى الحيل الدفاعية ونعرضها بايجاز فيما ياتى : —

١ — الكبت :

حيلة دفاعية تستخدمها الآنا لمنع الأفكار المثيرة للقلق من الوصول الى الشعور . وقد تكون هذه الأفكار جزءا فطريا من الهو وفى هذه الحالة يطلق على الكبت « كبت أصيل بدائى » وقد تكون ذكريات لخبرات مؤلمة حدثت خلال حياة الفرد ويطلق عليها فى هذه الحالة « كبت عادى » وفى الحالتين تعمل الآنا على ابقاء الأفكار المثيرة للقلق فى اللاشعور باستخدام شحنات مضادة كلما هددت هذه الأفكار باتخاذ طريقها نحو الشعور .

وللكبت أهمية كبيرة عند فرويد لان المادة المكبوتة تظل تؤثر فى الشخصية ، انها ببساطة غير متاحة ولا متوافرة للشعور . والغرض من عمليات تحليل الاحلام والتداعى الطليق والتنويم المغناطيسى وتحليل فلتات اللسان والنسيان ، الكشف عن المادة المكبوتة بحيث يمكن فهم تاثيرها فى الشخصية .

٢ — الابدال :

قد تستبدل الآنا شيئا متاحا بشىء غير متاح ، أو موضوعا او نشاطا لا يثير القلق بموضوع أو نشاط يثيره .

ولقد بين فرويد فى كتابه « الحضارة وسخطها Civilization and Its Discontents» (١٩٣٠) أن الحضارة نفسها تعتمد على ابدال الطاقة الغريزية ونقلها من موضوع الى آخر . وحين يؤدى الابدال الى شيء يخدم الحضارة ويساعد على تقدمها فهو اعلاء كما يحدث حين تتحول النزعات الغريزية الى انشطة فى الفن والأدب والعمارة او الى الاجتهاد فى العمل . ان اعلاء الغريزة خاصية بارزة للتطور الثقافى ، وهذا هو الذى يجعل فى الامكان ان تؤدى العمليات العقلية العليا والأنشطة العلمية والفنية والأيديولوجية دورا هاما فى الحياة المتحضرة .

ويمكن ابدال النزعات الغريزية جميعا حتى المرتبطة بغرائز الموت ، وعلى سبيل المثال فالنزعة نحو هدم الذات يمكن ابدالها لتتجه الى هدم الآخرين . والنزعة العدوانية الموجهة نحو شخص يهددنا كالأب او الرئيس يمكن ابدالها لتتجه نحو اشياء اقل تهديدا لنا كسيارة فى الطريق او طفل فى البيت أو قطة ، وكثيرا ما تتجه هذه النزعة نحو فريق رياضى ينافس الفريق الذى نشجعه .

٣ — التوحـــد :

استخدم فرويد مصطلح توحد بطريقتين : الأولى هى ما يتم خلال العملية التى تقوم بها الأنا وتحاول مزاوجة الأشياء والاحداث فى البيئة للرغبات الذاتية للهو . والطريقة الثانية : أن يستخدم اللفظ لوصف الميل الى زيادة المشاعر بالقيمة والجدارة بتمثل خصائص فرد نراه ناجحا ، ومن أمثلة ذلك : « لقد فاز فريقنا » « ابنى فاز بالمرتبة الأولى على مجموعته عند التخرج » . وبتوحد الطفل مع والديه ، اى انه يتقبل قيمهم وبهذا يتجنب عقابهم وبهذه الطريقة تنمو الأنا الأعلى .

٤ — الاســـقاط :

الاسقاط هو ان نضفى على انسان او حيوان او جماد الخصائص والمشاعر والمقاصد التى تنبع من ذواتنا . انه حيلة دفاعية تتيح لنا ان نزيح بعض جوانب شخصيتنا من داخلنا الى البيئة الخارجية . فتعامل

التهديدكما لو كان صادرا عن قوة خارجية . وهكذا يستطيع الفرد ان يعالج المشاعر الفعلية دون أن يقر بوعيه بأن هذا السلوك المخيف او الفكرة المخيفة هي فكرته هو أو سلوكه . ونورد فيما يأتي مثالين للاسقاط ، و العبارة الموضوعة بين قوسين تمثل المشاعر اللاشعورية .

— لا أستطيع ان اثق فى أجنبى (أريد ان استغل الأجانب)

— اعرف انك غاضب منى ومتضايق (أنا غاضب منك ومغتاظ)

وحينما نصف شخصا او شيئا على انه شرير أو خطر او معيب .. الخ دون أن نعترف بأن هذه الخصائص قد تصدق علينا ، فاننا على الأغلب نسقط . والاسقاط بصفة عامة هو كبت الحقائق التى تتصل بذواتنا والمثيرة للقلق واضفاءها على الآخرين بدلا من ذلك .

٥ — التكوين العكسى :

ان الفرد اذا كره شخصا كراهية تبعث فى نفسه القلق اخذت الأنا تيسر انسياب الحب نحوه لكى يخفف الكراهية . وتبقى مشاعر الكراهية قائمة فى اللاشعور . ويكون الحب بمثابة قناع يخفيها ويطلق على الحيلة الدفاعية التى تحجب عن الشعور نزعة غريزية معينة بما يناقضها تكوين عكسى .

واذا أردنا ان نميز بين الحب الناتج عن التكوين العكسى والحب « الحقيقى » فاننا نجد أن الحب الأول يتسم بالمبالغة والاسراف والاصطناع ويكون هذا الحب أيضا قسرى ، اى جامد لا يتكيف مع الظروف المتغيرة ، أى انه يختلف عن الانفعالات الأصيلة لان الفشل فى ابداء هذا الحب فى اى لحظة يؤدى الى أن يظهر الشعور المضاد ويطفو الى السطح .

ومن الأمثلة الدالة على التكوين العكسى خشونة بعض الرجال المبالغ فيها خوفا من ظهور امارات الطراوة فى تكوينهم . وحماية الأم الزائدة للأبناء التى تكون بمثابة تغطية لرغبتها اللاشعورية فى نبذهم . والمسايرة الزائدة لقواعد المجتمع ونظمه التى قد تكون قناعا يخفى دوافع التمرد والعداء .

٦ — التبــــرير :

باستخدام هذه الحيلة الدفاعية يسوغ الشخص سلوكا وافكارا او مشاعر تثير قلقه بغير هذا التسويغ . فالآنا تسوغ نتائج معينة باستخدام المنطق (ولو انه منطق معوج) وهى نتائج تثير القلق اذا لم تبرر بطريقة او اخرى . فالعجز عن الوصول الى الهدف ، والقول بأنه لا يستحق السعى والجهد لبلوغه تسويغ شائع ، اى اننا اذا لم نستطع بلوغ العنب الجيد وقطف الثمار نقول انه حصرم . ومن امثلة التبريرات القول بانى تأخرت لان ساعة التنبيه لم تدق ، وانا ادخن لان الناس يدخنون وانا سعيد لانى لم اقبل بالجامعة فالتعليم الجامعى غير مفيد فى الحياة العملية .

٧ — النكــــوص :

قد يصل الفرد الى مرحلة معينة من النمو ثم يتراجع بسبب الخوف الى مرحلة سابقة عليها . فالشخص الذى يتعرض للالام من العالم الخارجى ينكص الى عالمه الخاص وأحلامه ، بل قد ينكص الاسوياء احيانا كما يحدث حين يقضم الانسان الراشد اظافره نتيجة لقلق او احباط . والطفل قد ينكص الى التبول اللاارادى حين يولد له اخ جديد . ومن امثلة ذلك ايضا عودة الزوجة بعد احتدام الخلاف بينها وبين زوجها الى بيت والديها ، حيث تجد رعاية واشباعا لرغباتها .

٨ — التثبيت :

ينتقل الفرد السوى من مرحلة من النمو الى اخرى انتقالا سلسا ؛ غير أن هذا الانتقال قد يتوقف اذا تعلق الفرد بمرحلة من هذه المراحل لا يتعداها الى ما بعدها . والتثبيت حيلة دفاعية يستخدمها الافراد فى مواجهة القلق وفى مواجهة اخطار المواقف الجديدة . ويؤدى التثبيت بالفرد الى التمسك بطريقة او اسلوب قديم من اساليب الحياة ، اى بما هو مالوف خوفا من الاخفاق او العجز فى مواجهة مقتضيات الموقف الجديد ، كأن نجد طفلا فى السابعة من عمره ما يزال يمص اصبعه ويخاف ان يذهب الى اى مكان بغير امه .

مراحل النمـــو :

يعتقد فرويد أن كل طفل يمر بسلسلة من مراحل النمو المتتابعة وأن ما يخبره الطفل خلال هذه المراحل يحدد خصائص شخصيته كراشد . ولقد أعتقد فرويد أن شخصية الراشد تتشكل خصائصها الأساسية بنهـــاية السنة الخامسة من العمر ، أى أن السنوات الخمس الأولى تكون حاسمة فى تكوين الشخصية . ولكل مرحلة من مراحل النمو منطقة ترتبط بها وتكون أعظم مصدر للاثارة واللذة خلال تلك المرحلة .

ولكى ينتقل الطفل انتقالا سلسا من مرحلة نفسية جنسية الى التى تليها ينبغى الا يقل اشباعه لحاجاته فى تلك المرحلة والا يكون زائدا لان ايا منهما يؤدى الى تثبيت الطفل على تلك المرحلة . والتثبيت والنكوص يرتبط الواحد منهما بالآخر ، فحين ينكص الشخص فانه يميل الى أن ينكص الى تلك تلك المرحلة التى تثبت عليها .

المرحلة الفمية :

وتستمر قرابة العام الأول من حياة الفرد ويكون المصـــدر الرئيسى للذة مشتق من الفم عن طريق التنبيه اللمسى الناتج عن وضع الاشياء فى الفم ثم العض . والتنبيه اللمسى للفم والشفتين واللسان عن طريق المص والبلع يحدث لذة شبقية ، واما العض فيحـــدث لذة عدوانيـــة فمية وتجىء اللذة العدوانية الفمية فى مرحلة تالية من النمو بعد ظهور الاسنان . وقد يكون تناول الطعام اليها عندما يكون مر المذاق او غير مستساغ فيعمد الطفل الى انتخلص منه بلبصق ، ويتعلم الطفل نتيجة لذلك تجنب الاشياء الكريهة . ويرى فرويد أن للفم خمسة انواع من الوظائف هى : الابتلاع ، والامساك والاصرار ، والعض ، واللفظ ، والاطباق ، وان كلا من هذه يمثل نمطا بدائيا أو نموذجا لعدد من سمات الشخصية .

ويتصـــد بالنمط البدائى اسلوب للتكيف ، ويميــل الطفل الى نفس الاسلوب حين يواجه بعض المواقف المشابهة فيما بعد اثناء حياته ؛ فاذا كان الابتلاع مؤديا الى الاحساس باللذة فان الفرد ينغمس فى انشطة فمية

كثيرة كالاكل والشرب والتدخين ، والتهام المعرفة والحب والقوة حين يحس الفرد بالخواء . والابتلاع هو النمط البدائي لحب التملك ، كما ان الامساك والاصرار هو النمط البدائي للحرص والتصميم على حين أن العض والبصق والاطباق هي الأنماط البدائية للتخريب والنبذ والاحتقار ثم الرفض . على أن نمو هذه السمات مرهون بما يخبره المرء من مشاعر الاحباط والقلق عند التعبير عن هذا النمط البدائي . والذى يثبت على المرحلة الفمية المتأخرة يستخدم بكثرة السخرية من الآخرين والجدال معهم .

وتتميز هذه المرحلة على وجه الخصوص بمشاعر الاتكال . فالوليد يعتمد كلية على الآخرين طلبا للرعاية والحماية . ومشاعر الاتكال تميل الى الاستمرار الى حد ما لدينا جميعا ، وتبرز لدينا فيما بعد حين نشعر بالقلق وعدم الأمن .

المرحلة الشرجية :

تستغرق هذه المرحلة السنة الثانية من العمر تقريبا . ومن المعروف انه بعد ان يتم هضم الطعام تتراكم المخلفات فى النهاية السفلى للقناة الهضمية لتطرد بواسطة الفعل المنعكس عندما يبلغ ضغطها على عضلات الشرج العاصرة مستوى معينا . وخلال هذه الفترة يتم تدريب الطفل على الاخراج حتى يتعلم تأجيل اللذة الناتجة عن ازالة مصدر الضيق والتوتر .

وهذا التدريب له آثار بعيدة المدى على الطفل ويتوقف هذا على الاتجاهات الوالدية نحو التدريب على الاخراج والطرائق المتبعة . فاذا بالغ الوالدان فى التشدد والصرامة فى التدريب ، فقد يتمرد الطفل ويمسك الفضلات . وهذا هو النمط البدائي لسمات البخل والعناد . او قد يعبر الطفل عن غضبه بالاخراج فى أوقات غير ملائمة وتظهر سمات لدى الفرد فيما بعد من قبيل التدمير وعدم النظافة او القسوة والانغماس فى اللذات . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى اذا كانت الأم حنونة متسامحة فى التدريب فقد تتكون لدى الطفل فكرة قوامها ان النشاط الاخراجى بالغ الاهمية ، وهذا شكل من اشكال السلوك الذى يتم تعميمه فى مجالات حياة الفرد الأخرى فيكون منتجا خلاقا .

المرحلة القضيبية :

وتستغرق هذه المرحلة عادة الفترة من السنة الثالثة من العمر وحتى سن الخامسة . والمنطقة الشبقية فى هذه المرحلة هى العضو التناسلى ، وهى من اكثر مراحل النمو تعقيدا عند فرويد واكثرها اثارة للجدل . وخلال هذه المرحلة تتحدد انماط توافقاتنا اللاحقة مع افراد الجنس الآخر . والمرحلة القضيبية هى مرحلة الصراع الأوديبى وصراع الكترا . وحل هذين الصراعين له آثار عميقة فى حياة الراشد من الذكور والاناث .

والطفل الذكر يخبر عقدة أوديب ، وسميت كذلك اشارة الى مسرحية اغريقية كتبها سوفوكليس قتل فيها أوديب ملك طيبة اباه وتزوج أمه . ولما علم بما حدث عاقب نفسه بفقأ عينيه . ولا يقصد فرويد أن أحداث هذه الاسطورة تصدق على سلوك الأطفال حرفيا ، وانما يقصد أن هذه الاسطورة واحداثها تتسق مع فكرته عن وجود رغبة لا شعورية فى استحواذ الطفل على اهتمام وحب والده من الجنس المخالف واستبعاد منافسه وهو الوالد من نفس جنسه . ويرى فرويد انه فى البداية ينمى الأطفال الذكور منهم والاناث مشاعر ايجابية نحو الأم لانها تشبع حاجاتهم ، وهم يستاءون جميعا من الأب لانهم يعتبرونه منافسا لهم فى حب الام واهتمامها . وان هذه المشاعر تستمر لدى الذكر ولكنها تتغير لدى الانثى .

ويبدأ الذكر من الخوف من الأب باعتباره منافسا قويا ومسيطرا ويتحول هذا الخوف ليصبح قلق خصاء . ويؤدى القلق الى كبت الرغبة والحب نحو الأم والمشاعر السالبة نحو الاب ويتوحد الابن مع أبيه ويحقق اشباعا بديلا لمشاعره نو الام . وبمعنى من المعانى يصبح الذكر ابا ؛ وهذا هو الحل السليم لعقدة أوديب عند فرويد ، ى ان ينمو الذكر ليبحث عن زوجة تشبه الأم فى خصائصها .

ويختلف الموقف بالنسبة للأنثى ، فموقفها اكثر تعقيدا . وتخبر الانثى عقدة الكترا ، وسميت على اساس ما جرى فى مسرحية اخرى كتبها سوفوكليس ، حيث تدفع الكترا اخاها ليقتل امها جزاء ما فعلت حين قتلت اباها .

والاناث يبدان حياتهن بارتباط عاطفى بالأم ويقل هذا الارتبـاط أو الانجذاب حيث تكتشف الانثى أنها لا تملك العضو الثمين وتعتبر أمها مسئولة عن حرمانها منه . ونبذ الأم يقترن بالانجذاب نحو الاب ، غير أن مشاعرها الايجابية نحوه مختلطة بالغيرة والحسد لانه يملك ما لا تملك . ويرى فرويد أن لديها حسدا للتضيب ويترك فرويد الأنثى معلقة بين الام والاب بمشاعر موجبة وسالبة نحوهما معا . أى أن لديها تناقضا وجدانيا . ان الانثى تترك المرحلة القضيبية ولديها صراع اقدام احجام .

ويرى فرويد أن الأمل الوحيد للأنثى أن تنجب ولدا وبالتالى تعوض ما فقدته رمزيا .

ويعتقد أن الجنسية المثلية تحدث اذا انقلبت التوحدات السوية.وعلى سبيل المثال اذا توحد الطفل الذكر بأمه أو ارتبطت الأنثى ارتباطا وجدانيا وتوحدت مع ابيها .

ويطلق على مراحل النمو الثلاث الأولى « المراحل قبل التناسلية » وهى اهم المراحل فى نمو الشخصية وتكوينها . ولقد شعر فرويد أن المقومات الرئيسية فى شخصية الراشد تكون قد تشكلت وصيغت بنهاية هذه المراحل .

مرحلة الكمـــــون :

وتمتد هذه الفترة عادة من سن السادسة حتى الثانية عشرة ، وتتميز بالهدوء النسبى من الناحية الدينامية . وتميل النزعات الغريزية فى هـذه الفترة الى البقاء فى حالة كبت . ويتم اعلاء الطاقة الغريزية وتوجيهها الى اهتمامات عقلية ورياضية والى العلاقات مع الأتراب . ويمكن النظر الى هذه المرحلة باعتبارها فترة اعداد للنمو الهام الذى سـوف يتحقق فى المرحلة الأخيرة من النمو النفسى . وانحسار الاهتمام الغريزى من وجهة نظر فرويد فى هذه المرحلة ظاهرة فسيولوجية بحتة . ومرحلة الكمون لا تعتبر مرحلة من مراحل النمو النفسى الجنسى لانه لا يرتبط معها بزوغ منطقة شـبقية جديدة ، والنزعات الغريزية تكون كامنة . ولقد أولى فرويد اهتماما ضـئيلا بعمليات النمو التى تحدث خلال هذه المرحلة وهى حقيقة غريبة حين يلاحظ

الفـرد أنها تشغل فترة زمنية تسـاوى ما تستغرقه مراحل النمو الثلاث السابقة .

المرحلة التناسلية :

وهى المرحلة الأخيرة من مراحل النمو وهى تبدأ مع البلوغ وتنتهى قبيل الشيخوخة ، فهى أطول مراحل النمو زمنا . والمأمول ان يتحول الطفل ببلوغ هذه المرحلة من الأنانية والبحث عن اللذة والنرجسية الى الايثار والتطبيع الاجتماعى الواقعى والاهتمامات الجنسية الغيرية التى تؤدى الى الزواج والانجاب . وهى مرحلة نشأة الميل الجـاد إلى التقدم المهنى والاضطلاع بمسئوليات الراشد . أما اذا ادت الخبرات فى المراحل قبل التناسلية الى التثبيت ، فان ذلك يظهر فى حياة الراشد وشخصيته . والتحليل النفسى كأسـلوب فى العلاج يسـاعد الفرد على التخلص من بقايا مراحل النمو المبكرة وآثارها السيئة أو يساعده على مواجهتها وبالتالى ينقص تأثيرها فى حيـاته .

والحق أن عملية التحليل النفسى يمكن النظر اليها باعتبارها وسيلة لاكتشاف الأفكار المكبوتة التى لها اثر سلبى على حياة الفرد والسـؤال المطروح هو : كيف يمكن للفرد أن يصل الى هذه الأفـكار ويتناولها وهى نشطة فى اللاشعور ؟ والاجابة هى : بتحليل احلام الفرد ومن خلال استخدام أسلوب التداعى الطليق معه .

البحوث المميزة وطرق البحث :

لقد درب فرويد على مناهج البحث العلمى السائدة فى القرن التاسـع عشر ولقد أجرى بحوثا فى مجالات علم الأمراض العصبية وفى علم الانسجة العضوية وكان على دراية بالحركة التجريبية الجديدة فى علم النفس ، ومع ذلك فانه فى دراساته للعقل الانسانى لم يستخدم الأساليب المعملية ولم يحاول قط أن يختبر مفاهيمه ونظرياته فى بحوث امبيريقية تم ضبط متغيراتها . لقد قامت نظرياته على تحليل مكثف للبيانات التى تألفت أسـاسا من كلمات المرضى وافعالهم ، المرضى الذين عالجهم ليتخلصوا من مشكلاتهم النفسية .

ولقد التقى بهؤلاء المرضى لفترات طويلة من الزمن ولذلك فان البيانات التي توافرت له منهم مكثفة . وكان فرويد دقيقا وناقدا لذاته بدرجة عالية بحيث يتأكد في دراسته لكل حالة من أن جميع البيانات أو العناصر يتسق بعضها مع بعض . وكان تحليله منطقيا ومتسقا اتساقا داخليا .

وسوف ننظر في اهم الطرائق التي استخدمها : —

التداعي الحـــــر :

لقد طور فرويد هذه الطريقة الفريدة وهي التداعي الحر أو الطليق من اسلوب توصل اليه صديقه وزميله يوسف بروير Josef Breuer في علاجه للهستيريا (والهستيريا كلمـــة علمة تطلق على مجموعة من الاضطرابات النفسية يكون الكبت هو الحيلة الدفاعية المستخدمة فيها . ومن الأشكال الشائعة للهستيريا ان يخبر الفرد الما جسيما وعجزا رغم عدم وجـــود أى اضطراب عضوى واضح) . ولقد طور بروير اسلوبه بمساعدة احد مرضاه حيث حكى له عن تفاصيل كيفية ظهور احد الاعراض التي يشكو منها لاول مرة ، وتبين للمريضة وللمعالج اختفاء العرض مما اثار دهشتهما.واستمرت في وصف اصل أعراضها ، واطلقت على هذه الطريقة « حديث الشفاء أو البرء » . وحين علم فرويد من بروير بما حدث خلبت لبه الامكانيات الظاهرة لهذا الاسلوب .

ويختلف التداعي الحر عن حديث الشفاء من حيث ان الأول يتطلب من المرضى أن يتحدثوا عمـــا يرد لوعيهم أيا كان والا يقتصر الحـــديث على الأعراض المرضية ومنشـــأها . ان طريقة فرويد في صـــورتها الكلاسيكية تتطلب ان يمتنع المحلل النفسي عن مقاطعة تدفق حديث المريض . ويعلق المحلل أو يطرح اسئلة لتشجيع المريض فقط حين يتوقف أو حين يبدو انه معاق .

ويقوم هذا الاسلوب على ثلاث مسلمات اساسية . أولها : أن كل ما نقوله او ما نفعله له معنى . ليس ذلك فحسب بل يتصل بكل شيء آخر قلناه من قبل وفعلناه . وثانيا : ان المادة اللاشـــعورية يمكن استدعاؤها

بحيث نعيها على نحو له معنى بتشجيع التعبير الحر عن افكارنا عندما يتم ذلك . وثالثها : أن المادة اللاشعورية تؤثر فى سلوكنا . وهناك افتراض بأن هذا الاسلوب كفيل بالكشف عن المادة اللاشعورية المكبوتة ، من خلال دراسة الروابط بين الوقائع الحقيقية والصور العقلية (الذكريات وصور الاحلام) ، وهكذا فان التداعى الحر ليس حرا فى الحقيقة لانه يرتبط على نحو محدد ارتباطا عليا متسلسلا ، وان التدفق أى التداعى يتحدد بواسطة العمليات اللاشعورية النشطة داخل الشخص فى تلك اللحظة . ووفقا لما يراه فرويد ، على الرغم من أن المريض سوف يعرف موضوعات معينة ويحاول أن يتجنبها أو يشوه أخرى فان سلاسل تداعى التفكير عند الشخص سوف تؤدى بالمستمع الى فهم صراعات الشخص العقلية والانفعالية .

ولكى ينشط فرويد التداعى الحر أو الطليق (وهو القاعدة الاساسية للتحليل النفسى) كان يلقى بالتعليمات على مرضاه : ـــ

« سوف تلاحظ وانت تروى عن الأشياء ، انه سيطرا على ذهنك افكار نود لو تنحيها جانبا على أسس انتقادات معينة واعتراضات . وسوف تميل الى أن تحدث نفسك بأن هذا أو ذاك لا صلةله بالموضوع ، أو غير هام بالمرة ، أو حمق وهراء ولذلك فلا حاجة الى قوله . لا ينبغى اطلاقا أن ترضخ لهذه الانتقادات ، وانما ينبغى أن تحكيها بالرغم من هذا ـــ بل وان تحكيها بدقة لانك تنفر من فعل هذا . . . واخيرا لا تنسى قط انك وعدت أن تكون أمينا امانة مطلقة ، والا تترك شيئا لانه من المؤلم ان تتحدث عنه لهذا السبب او ذاك » (1913/1958, pp. 134 135)

والفكرة الأساسية وراء ذلك انهحتى التعبيرات الشعورية بالنسبة للملاحظ المتدرب تعتبر مؤشرات تدل على المحتوى اللاشعورى . وبطبيعة الحال فان مالا يقال هام بل قد يكون اكثر اهمية مما يقال . فالموضوعات التى تجد مقاومة قوية من المريض تزود المحلل بمؤشرات مفيدة للمشكلات فى العقل اللاشعورى .

تحليل الاحلام :

استخدم فرويد أحلامه كمصدر أولى للبيانات فى تحليله لنفسه . ولقد رأى ان تفسير الاحلام هو الطريق الملكى لمعرفة اللاشعور . ومن خلال الاحلام يمكن التوصل الى محتوى اللاشعور حتى ولو كان هذا المحتوى مقنعا ومشوها .

وحين نستدعى حلما فاننا نصف محتواه الظاهر او ما يبدو عليه فى الظاهر . واهم من ذلك التوصل الى المحتوى الكامن للحلم . ولا يمكن للأفكار المكبوتة ان تصل الى الشعور بغير قناع حتى ولو كان ذلك اثناء النوم . ولا بد ان تكون على الأقل مموهة الى حد ما او جزئيا . ولقد سمى فرويد الميكنزمات التى تشوه المحتوى الحقيقى للحلم « عمل الحلم » Dream Work وعمل الحلم هو جميع العمليات التى تحول المواد الخام للحلم والمثيرات الجسمية وآثار اليوم السابق وافكار الحلم — بحيث ينتج الحلم الظاهر .

وقد يجىء تشويه الحلم على شكل تكثيف Condensation ؛ حيث تجد جزءا من شىء يرمز للشىء كله ، كأن يرمز جزء من الزى على صاحبه ، او يرمز شارع للمدينة كلها ، او مصباح للمنزل الذى عاش فيه الحالم فترة من الزمان . وقد يحدث التاليف او التركيب حين تدل فكرة فى المحتوى الظاهر للحلم على افكار كثيرة مترابطة فى المحتوى الكامن كما يمثل القط او حيوان منزلى اليف لاحدى الاسر الاسرة باكملها . وقد تستخدم الازاحة او الابدال ويقصد بها ان تنسب فكرة غير مقبولة الى شىء مقبول ومكافىء رمزيا للشىء الأول فالمسدور يصبح جبالا والاتصال الجنسى يصبح ركوب خيل .

وهناك جوانب أخرى تعمل عملها وتؤثر فى الحلم لتجعل المحتوى مقبولا بدرجة أكبر . ويظل بذلك المعنى الكامن موجودا وعلى الملاحظ المدرب أن يكتشفه ويفسر أبعاده . غير أنه لما كانت الاحلام تحتوى دائما على ما يبدو مؤذيا ، فان على المريض والمعالج أن يعملا معا بسرعة على الكشف عنه حتى لا يتعرض هذا المحتوى للكبت مرة أخرى وللنسيان .

وبناء على تحليل فرويد للاحلام انتهى الى نظريته القائلة بأن وظيفة الحلم اشباع الرغبات المكبوتة وتعبير عن محتويات العقل الانسانى البدائية. وينشأ الحلم بعملية أولية . ذلك أن الآنا تصبح اثناء النوم ضعيفة نسبيا ، وتحاول النزعات والأفكار اللاشعورية أن تعبر عن نفسها . ولكن الآنا تستطيع أن تخفى هذه المادة ، وهذا هو السبب فى أن الرغبة التى يعبر عنها الحلم لا تكون واضحة دائما على نحو مباشر ، وفى أن تفسير الحلم وتحليله عمل صعب .

وفى اطار التحليل النفسى يساعد المعالج المريض فى تحليل احلامه لييسر استعادة المادة اللاشعورية . ولقد انتهى فرويد الى تعميمات معينة عن انواع معينة من الاحلام (ومنها احلام السقوط واحلام الطيران واحلام العوم وأحلام الحريق) ولكنه يبين بوضوح أن هذه القواعد العامة قد لا تدق على حالات خاصة وان تداعيات الفرد عن احلامه اكثر أهمية من اى مجموعة من القواعد تم التوصل اليها لتفسير الاحلام .

دراسات الحالات :

أن المادة الأولية الهائلة التى تجمعت لدى فرويد واشتق منها نظريته لا يمكن معرفتها ولا الاحاطة بها . والحالات القليلة التى نشر عنها فرويد تمثل جانبا محدودا من الحالات التى عالجها . كما أن اخلاقه المهنية حالت دون الافاضة فى عرض هذه الحالات مخافة الكشف عنها والتعرف على هوياتها وفيما يلى عرض لعدد من هذه الحالات وقد عرضت لابراز وتوضيح مفاهيم تحليلية هامة وليس من المعروف ما اذا كانت هذه الحالات هى المصدر الامبيريقى الفعلى للمفاهيم التى توضحها أم انها أمثلة جيدة لها . ومهما يكن من شىء فان هذه الدراسات تكشف عن نوع المادة التى جمعها فرويد والاساليب التى استخدمها والطريقة التى فكر بها . واذا أرادت مزيدا من التفاصيل والاستقصاءات لهذا المجال فلا بد ان تعود الى مصادرها الأولية ، اى الى كتب فرويد نفسه التى عرض فيها لهذه الحالات .

حالة دورا ١٩٠٥ :

هذه الحالة تبين ان الأعراض الهستيرية ما هى الا انعكاسات للنزعة الجنسية المكبوتة ، وان تحليل الحلم وتفسيره قد استخدم للكشف عن المادة المكبوتة .

ولقد كانت دورا شابة تبلغ من العمر ١٨ عاما تعانى من الاكتئاب ومن الانهاك ومن مشكلات جنسية . وكانت منغمسة فى شبكة معقدة من العلاقات تضمنت والديها ، وعلاقة أبيها برئيسة الخدم وبزوج الأخيرة الذى كان يغازل دورا . ويقدم فرويد تحليلا مفصلا لحلمين من احلام دورا حيث يتضح مما رونه دورا من تداعيات وتفسيراته لهذه التداعيات اسلوبه فى تحليل الحلم على نحو جلى .

حالة هانز الصغير ١٩٠٩ :

هذه الحالة توضح مفهوم فرويد للنظرية الجنسية الطفلية بما فى ذلك عقدة اوديب ، والقلق المرتبط بالخصاء . وكان هانز يخاف من أن جوادا سوف يعضه لو غامر وخرج الى الشارع . وقد استطاع فرويد بواسطة المذكرات التى دونها والد الصبى والتى عرضها على فرويد ان يوجهه لعلاج الحالة . ولقد برهن فرويد على ان المخاوف او الفوبيا كانت تعبيرا عن ديناميات المرحلة القضيبية ، أى عن عقدة أوديب وعقدة الخصاء .

شريبر Schreber ١٩١١ :

توضح هذه الحالة العلاقة بين البارانويا (جنون العظمة والاضطهاد) والجنسية المثلية .

لقد كتب شريبر وهو قاضى سيرة ذاتية عن مرضه الذى شخصه على انه بارانويا ، فقد اعتقد شريبر انه مخلص للبشرية ومنقذ لها وانه قد تحول الى امرأة . ولقد استند تحليل فرويد لهذه الحالة على ما كتبه المريض والذى اظهر ان هذه هذاءات يتصل بعضها بالبعض الآخر وان الدافع لها هو الجنسية المثلية الكامنة . ولقد افترض فرويد أن الصراع الرئيسى فى

البارانويا (على الأقل عند الذكور) هو الرغبة الجنسية المثلية . وعن طريق التكوين العكسى يحول الشخص هذه الرغبة المهددة الى كراهية مسقطة ، وتصبح « انا أحبه » انا اكرهه اذن فهو يكرهنى ويضطهدنى .

الرجل الذئب Wolf man ١٩١٨ :

وتوضح هذه الحالة استجابة الطفل للمشهد الأول سواء اكان حقيقيا أم متخيلا ، واثر قلق الخصاء على الحياة اللاحقة للفرد .

والرجل الذئب شاب فى العشرينات من عمره تعرض للاصابة بمرض السيلان فاوقظ لديه قلق الخصاء الذى كبت لفترة طويلة . فاصبح مكتئبا وعاجزا عن القيام بأعماله ووظائفه بالاعتماد على نفسه . ولقد قام فرويد بتحليل العصاب الطفلى لدى هذا الشاب وفسر حلما مخيفا عن الذئاب خبره فى طفولته كرد فعل للمشهد الأول .

البحوث التحليلية النفسية المعاصرة :

لقد أجريت اختبارات تجريبية لكثير من مفاهيم التحليل النفسى منذ وفاة فرويد أسفرت بعضها عن نتائج تتسق مع هذه المفاهيم وتدعم صدقها ، وأسفرت أخرى عما يخالف ذلك .

تقويم النظرية والموقف الراهن :

بعض افكار فرويد مقبولة على نطاق واسع — افكاره عن اهمية الاحلام وحيوية العمليات اللاشعورية — وهناك افكار اخرى او جوانب أخرى من نظريته — العلاقة بين الآنا والهو والآنا الأعلى — تثير جدالا وخلافا كبيرا بين الدارسين . وهناك مجموعة ثالثة من الأفكار لقيت نقدا عاما يقترب من الرفض كتحليله للجنس عند الانثى ونظرياته فى اصل الحضارة .

والقارىء لكتابات فرويد والدارس لافكاره يجد ان هناك اوقاتا فى حياته تبدو هذه الأفكار عن دور الشعور واللاشعور كما لو كانت تأملات ورؤى شخصية وانها توضح جانبا من خلقه وخلق الآخرين وتدفعه الى مزيد من القراءة والتأمل والمتابعة . وهناك اوقات اخرى تبدو فيها هذه الأفكار

بغير نفع تتسم بقدر كبير من المبالغة ولا ترتبط بخبراتنا ، بل هى غريبة عنها على نحو جلى .

وفى كلتا الحالتين يبرز فرويد شخصية متميزة تحملنا على التجاوب معه والاستجابة اليه على نحو شخصى . ولا يمكن أن نأخذه بخفة ، اى لا بد أن نأخذه مأخذ الجد حين نتفق معه وحين نختلف وذلك لانه يعالج مسائل حيوية تتصل بحياة كل منا وبخصوصياته .

وهناك كثير من العوائق التى تحول دون التقدير الموضوعى لنظريات فرويد ومن بينها اللغة التى عبر بها عن نظرياته وافكاره . لقد انغمس فرويد فى علوم القرن التاسع عشر . وتظهر كتاباته تاثرا كبيرا بهذا حين يشير بكثرة الى تصاعد التوتر الذى ينبغى تفريغه عن طريق مخرج أو آخر . وكثيرا ما يصعب تبين ما يقصده فرويد حين يستخدم مفاهيم وأوصافا معينة هل المقصود هو معناها الحرفى أم معنى مجازى ، فالغموض والقصور فى الدقة كثيرا ما يستبعد التوصل الى تنبؤات قاطعة تساعد على وضع نظريته موضع الاختبار والتحقيق .

وهناك عوائق منطقية لبحث مفاهيم فرويد على نحو موضوعى ولعل اوضحها التكوين العكسى . ان هذه الحيلة الدفاعية تعنى أن الشخص الذى ينبغى عليه من الناحية النظرية ان يظهر النمط السلوكى (أ) يستجيب بنمط مخالف ومضاد . وهكذا فالشخص الذى ينبغى عليه بسبب احداث طفلية أن يكون هلوعا قد يظهر عدوانيا شديد المراس عن طريق التكوين العكسى . وهكذا يتحقق الفرض بغض النظر عما اذا كان الفرد قد وجد هلوعا أم عدوانيا .

وبالرغم من هذه الصعاب فان بعض المحللين النفسيين قد حاولوا أن يقدموا الشواهد الدالة على صدق دعاواهم . ومعظم هذه الشواهد مستقاة من حالات كان يعالجها المحللون ، وبالتالى فان النتائج معرضة لتحيز هؤلاء كمعالجين . وفضلا عن ذلك فان معظمها مواد كلينيكية مستقاة من جلسات العلاج بالتحليل النفسى . ويندر ان يبحث هؤلاء المحللون عن شواهد مستقلة مستقاة من خارج الموقف الكلينيكى .

لقد راجع كلاين عام ١٩٧٢ م Kline عددا كبيرا من الدراسات التي تستهدف دعم النظرية الفرويدية. ولقد اصطنع معايير متشددة في نقد مناهج هذه الدراسات وانتهى الى القول بوجود قدر كبير من الشواهد التي تؤيد علميا كثيرا من افكار فرويد . وأن الشواهد المتوافرة حاليا ترجح صدق نظرية التحليل النفسي في الشخصية . ويشير ايزنك عام ١٩٧٢ الى أن الدراسات التي لخصها كلاين ومحصها تدل فقط على وجود ظاهرات معينة كالكبت ، وأن هذا وحده لا يدعم بالضرورة النظريات الفرويدية . وبعبارة اخري هناك طرق عديدة لتفسير هذه النتائج . وعلى سبيل المثال : لقد تمت البرهنة مرارا على أن الأفكار غير السارة والرغبات والذكريات يسهل تعرضها للنسيان ، وهذا يدعم مفهوم فرويد عن الكبت ، غير ان هناك مداخل اخرى كثيرة لتفسير نفس النتائج . ولقد بين موريس Moriss عام ١٩٧٣ م أن مبادىء نظرية التعلم يمكن ان تقدم لنا تفسيرا مناسبا للكبت دون حاجة الى مفاهيم فرويد عن الأنا والهو . وهذه التفسيرات البديلة ليست صادقة بالضرورة ولكنها تتساوى مع تفسير فرويد من حيث معقوليتها وطالما أن هناك بدائل ، فان أي عبارة تقرر أن مفاهيم فرويد قد تمت البرهنة على صدقاتيتها دون منازع قول مبالغ فيه .

ان لانفعالنا عند فرويد دوافع لاشعورية . واننا لانعي هذه الدوافع لأنها لاشعورية ، ومع ذلك فنحن مضطرون لاداء هذه الاعمال او الانفعال .

ولقد أنتهى فرويد الى هذه الفكرة نتيجة لممارساته في العلاج النفسي بالتنويم المغناطيسي ولمعالجته للمرضى الذين يعانون من الهستيريا التحولية . ولقراءته لكتاب هارتمان عن «فلسفة اللاشعور» ١٨٦٨م . لقد اقنعته هذه المصادر بوجود الدوافع اللاشعورية .

ولقد استطاع فرويد باستخدامه لهذه الفكرة ان يفسر ويوضح مدى متنوعا وعريضا من الخبرات الانسانية ،لقد ذهب الى أن الاعصبة وبعض الوقائع اليومية كفلتات اللسان ونسيان المواعيد كثيرا ما ترجع الى صراع بين الدوافع اللاشعورية هذا فضلا عن ان الأحلام تمثل دوافع لاشعورية في صورة مقنعة . كما ان الاختيار المهني يستند الى الدوافع اللاشعورية التي اتخذت صورا مقبولة عن طريق الاعلاء .

ومما يؤكد فكرة الدافعية اللاشعورية انها سائغة ولها معقوليتها لدى كثير من الناس حين يتحدثون عن فلتات اللسان وماتكشفه من تفكير خبىء لديهم .

وان كثيرا من التجارب قد دعمت الدوافع اللاشعورية وان المعارضين للتحليل النفسى قد عجزوا عن دحض هذه الفكرة وهى أساس لعلاج نفسى ناجح . ذلك أن الأساليب التحليلية التى تكشف عن الدوافع اللاشعورية (تفسير الاحلام ، والتداعى الطليق وتفسير فلتات اللسان) قد شفت الكثيرين من اضطراباتهم النفسية وما تزال .

غير ان هذه الفكرة أيضا موضع نقد لأنها تفترض وجود عقل يعمل خارج العقل الشعورى العادى ، عقل لاشعورى وهذا تناقض منطقى لان ما هو خارج العقل لايمكن ان يكون عقليا ولابد ان يكون فيزيقيا . هذا فضلا عن ان تفسير الظاهرات على أساس الدوافع اللاشعورية ليس الا تفسيرا واحدا من بين عدة تفسيرات وجيهة . فالنظريات السلوكية ونظرية المعلومات تقدم لنا تفسيرات معقوله اخرى لفلتات اللسان والأحلام والحيل الدفاعية والقلق العصابى . هذا فضلا عن ان الدوافع اللاشعورية تنكر وجود الارادة الحرة ، فاذا كنا مجرد عبيد للاشعور فلا يمكن اعتبارنا مسئولين عن افعالنا . وعلى الرغم من ان العلاج النفسى الذى يستند الى هذه الفكرة فعال ، الا ان النظرية قد لاتكون صادقة بالضرورة ، ولدينا طرق اخرى للعلاج تستند الى نظريات اخرى وتؤدى عملها بنفس الكفاءة .

وقبل فرويد كانت النظرة السائدة أن الانسان كائن منطقى وعقلانى يسلك بطريقة نرضية وهو على وعى دائما بأسباب سلوكه . ولقد أدى تأكيد فرويد على الدوافع اللاشعورية وتأثيرها الى هدم هذا الاعتقاد وبالتالى الى ان ننظر الى الانسان نفسه من منظور اكثر تواضعا .

ومن اسهامات فرويد البارزة فى دراسة الشخصية اصراره على ان سلوك الانسان مسبب ومعلول وانه لايحدث عشوائيا او نتيجة لعوامل الصدفة . فالسلوك عند فرويد محتوم حتى ولو بدا عند النظرة الأولى انه حادث عارض فانه يمكن فى التحليل النهائى اظهار انه انبثق او صدر فى الأصل عن

اللاشعور وانه قابل للتفسير . وينبغى ان يسلم المرء بأن سلوك الانسان مسبب قبل أن نبدأ فحصه فى اطار علمى . ولقد لعب فرويد دورا اساسيا فى نشر هذه الفكرة .

ولعل من المناسب ان نختتم حديثنا عن فرويد بفقرة أوردها هول ولندزى فى كتابها «نظريات الشخصية» حيث يقولان : ـ

« الا ان الاسلوب الأدبى الجميل والموضوع المثير ليسا السببين الرئيسين للتقدير العظيم الذى يحظى به فرويد . بل الاحرى ان سبب ذلك هو أن افكاره مثيرة متحدية . وان تصوره للانسان شامل وعميق معا . ولأن لنظريته دلالتها فى عصرنا هذا . وربما لم يكن فرويد عالما دقيقا او واضع نظرية من الطراز الأول ، الا انه كان ملاحظا صبورا ومدققا ثاقب النظر ، ومفكرا جسورا ومنظما وشجاعا ومبتكرا . وبالاضافة الى هذا كله ، وأهم من جميع مزايا نظريته هذه الميزة الفريدة : انها محاولة لتصوير الشخص المكتمل الحى الذى يعيش جزئيا ـ فى عالم الواقع ـ وجزئيا ـ فى عالم من الوهم تحاصره الصراعات والتناقضات الداخلية ، وبرغم هذا فهو قادر على التفكير والعمل العقلى ، تحركه قوى لايعرف عنها الا القليل . وطموح لاطاقة له على بلوغه ، آنا تختلط الأمور عليه وآنا آخر يصفو ذهنه . ويتناوبه الاحباط والاشباع ، الامل والياس ، الاثرة والايثار . انه بايجاز كائن بشرى معقد » (ترجمة فرج وآخرين . ص : ٦٩) .

الفصل الثالث

كـارل جوسـتاف يونـج

ولد كارل جوستاف يونج فى سويسرا فى ٢٦ يوليه عام ١٨٧٥ م ، وكان والده وبعض أقربائه من القساوسة . ولهذا اهتم يونج منذ وقت مبكر من حياته بالمسائل الدينية والروحية .

ويبدو ان كارل يونج كان طفلا حالما ومنعزلا انفق قدرا كبيرا من وقته فى احلام اليقظة وفى التأمل والتفكير التخيلى فى العالم . ولقد دخلت أمه المستشفى وهو فى الثالثة من عمره وبقيت بها عدة شهور . وبالرغم من هذا فقد كانت اقوى والديه من الناحية الجسمية أو من ناحية شخصيتها . ويبدو أن اباه كان منهمكا فى عمله ومنشغلا بمهنته الدينية . ولقد توفى وقد تجاوز كارل العشرين من عمره بقليل ، ولكن امه عاشت حتى بلغ الخمسين من عمره تقريبا ، وحتى فى هذا السن يبدو انها كانت قادرة على التأثير عليه تأثيرا قويا غامضا . ولقد اعتبر يونج امه ساحرة تستطيع ان تقرأ افكاره وان تسيطر على افعاله وان تهدده بالاحلام المزعجة . ومن الصعب ان نميز فى هذه النقطة بين الحقيقة وخيال يونج الخصب وتصوراته . ويحتمل ان امه كانت غير متزنة انفعاليا ، أو لعل يونج نفسه قد تعرض لانهيار عصبى . وعلى اية حال فان يونج انفرد برعاية امه له وحده حتى بلغ التاسعة من العمر حين ولدت اخته الأولى .

وفى السنوات التالية التحق بمدرسة ثوية فى بـازل Basel (4) حيث اعتبر طفلا ريفيا فقيرا ، وقد عانى يونج فى مراهقته المبكرة من نوبات انفعالية وذلك بعد واقعة سقوطه على الارض واصطدام رأسه بها . وقد اعتبر مرضه فيما بعد عصابيا ، ولكن طبيبه فى ذلك الوقت شخصه تشخيصا بدنيا على انه صرع . وتدور نوبات هذه النوبات بموضوعات مدرسية وكانت تحدث كلما فتح كتابا . هذا على الرغم من أن يونج احب الكتب ، ولكنه كان يكره وضعه فى المدرسة . وإذا صدقنا رواية يونج للاحداث ، فانه بعد عدة شهور من التأمل فى البيت شفى نفسه بقوة ارادته وعاد الى المدرسة وعمل بجد فى الدرس بحيث انه احتل المرتبة الأولى بين زملائه فى الصف فى الرياضيات .

وقد أضاع عاما من حياته غير ان هذا فيما يبدو افاده لانه ارتبط بجماعة اتراب جديدة كانت أكثر تقبلا له .

وكان المتوقع من فتى حالم كيونج ان يطيع أحلامه فى اختيار مهنة يتعيش منها . وقد تحير يونج فى ضوء ولعه بالكتب . هل يتخصص فى الفلسفة ام فى التاريخ أم فى الانتروبولوجيا أم يصبح عالما طبيعيا . كما فكر فى التخصص فى علم الآثار وفى اللغات القديمة . ويبدو أنه رأى رؤيا قبل تخرجه فى المدرسة الثانوية اوحت اليه بان يتعمق فى دراسة اسرار الطبيعة وذلك بالتخصص فى علم الحيوان . غير انه فى ضوء قلة امكانياته المادية ورغبته فى اعداد نفسه لمهنة يتكسب منها اختار الدراسة فى مدرسة الطب بمدينة بازل .

وفى عام ١٨٩٥ عندما بلغ يونج العشرين من عمره بدا دراسة الطب . ولقد ادى عثوره مصادفة على كتاب عن الروحانية Spiritualism الى تحويل اهتمامه فى هذا الاتجاه . ولقد استطاع قبيل انتهائه من دراسته الطبية ان يشبع هذا الاهتمام الجديد من خلال اختياره لموضوع رسالته . كما استطاع التوفيق بين الروحانيات والدراسات الطبية بالتخصص فى مجال الطب النفسى ، كما ظهر اهتمامه هذا فى حضوره لجلسات لاستحضار الارواح التى كانت تقوم فيها هيلين بريزورك H. Preis Werk بدور الوسيط . وقد اتم يونج تحت اشراف الاستاذ يوجين بلويلر Eugen Bleuler — الذى اشتهر بدراساته فى الفصام — دراسة حالة هيلين هذه فى رسالته للدكتوراه . ولقد كانت هيلين مصابة بالهستيريا ويحتمل انها كانت مصابة بتعدد الشخصية . وكان هذا هو تشخيص يونج لها . وبعد عامين من تخرجه من مدرسة الطب ، اى فى عام ١٩٠٢ م ذهب يونج الى باريس ليستزيد من دراسة الهستيريا على يد بيير جانيه P.Janet الذى جاء خلفا لشاركوه .

ولكنه فى عام ١٩٠٠ م : اى بعد تخرجه من مدرسة الطب مباشرة أصبح مساعدا فى مستشفى بورجولزى للطب النفسى بزيورخ والعيادة الطبية النفسية بزيورخ وكان بلويلر مديرا لها . وقد اكتشف يونج فى سنواته

المكرة في هذه المستشفى ان اختبار تداعى الكلمات يمكن استخدامه للكشف عن المواد اللاشعورية كالتنويم المغناطيسى والتداعى الحر عند فرويد .

وفى عام ١٦٠٦ م بعد ان صدر كتاب عن بحوثه باستخدام اختبار تداعى الكلمات ارسل نسخة منه الى فرويد ، وبعد ذلك بعام ذهب لزيارته فى فيينا وبدا ان كلا من الرجلين يشبع حاجة عميقة عند الآخر ، فقد كان فرويد فى حاجة الى ابن يواصل عمله ، وكان يونج فى حاجة الى اب ناصح . وقد حسنت الصحبة . وفى عام ١٩٠٩ صحب يونج فرويد فى زيارته لأمريكا حيث حاضرا وتسلما درجات فخرية من جامعة كلارك . وفى السنة التالية استطاع فرويد رغم معارضة زملائه فى فيينا أن يرتب ليونج ليصبح أول رئيس لرابطة التحليل النفسى الدولية . وعلى غير ماهو متوقع بدأت علاقاتهما تتدهور بعد ذلك بقليل . وبدأ يونج يبتعد تدريجيا وعلنا عن مواقف فرويد وافكاره . ورأى فرويد بدوره أن هذا الخروج عن مدرسته لايمكن تحمله . وفى عام ١٩١٣ أصبحت القطيعة نهائية . ويبدو ان هذه القطيعة اثرت فى الرجلين تأثيرا شديدا وعميقا . ففى نفس العام اعتذر يونج عن عمله كمحاضر فى جامعة زيورخ وكان مستمرا فيه منذ عام ١٩٠٥ م . وانسحب من كل نشاط ماعدا ممارسته الاكلينيكية الخاصة . ويذهب بعض المؤرخين الى أنه كان يصارع انهيارا عصبيا من نوع ما .

وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى الا وكان يونج قد خرج من ليلة الروحى الطويل ليعود الى نفسه . وعندئذ بدأنا نرى بدايات نظريته المتميزة فى الشخصية . وعلى الرغم من أنه كان قد بلغ من العمر أواسط الاربعينات الا انه لحسن الحظ عاش اربعين سنة اخرى ليتوفى عام ١٩٦١ م . وخلال النصف الأول من حياته بلور مفهومه عن اللاشعور الجمعى والانماط الاولية، وقام ببعثاته الانثروبولوجية المختلفة لدراسة البدائيين الافريقيين ، والهنود الامريكيين ، كما مد مبارانه فى موضوعات متنوعة من الديانات التبتية القديمة Tibetan الى كيمياء العصور الوسطى . ولقد بلغت اعمال يونج العلمية عشرين مجلدا .

خصائص الشخصية المستمرة :

تتالف الشخصية من عدد من الأنظمة التى تعمل فى ثلاثة مستويات من الشعور . فالأنا تعمل فى المستوى الشعورى .والعقد والانماط الاولية تعمل عادة فى مستوى اللاشعور الشخصى واللاشعور الجمعى على التوالى. وتعمل الاتجاهات والوظائف فى المستويات الثلاث من الشعور . وبمضى الزمن يحدث تاليف بين الشعور واللاشعور داخل الشخص وذلك من خلال عمل الذات وهى اهم الأنماط الاولية على الاطلاق .

الأنـــا :

الانـــا مركز الشعور واحد الانماط الاولية الاســاسية للشخصية . والآنا تزودنا باحساس بالاتساق والاتجاه فى حياتنا الشعورية . وتميل الى معارضة ما يمكن ان يهدد هذا الاتساق الشعورى الهش وتحاول ان تقنعنا أنه ينبغى علينا دائما أن نخطط ونحلل خبرتنا شعوريا .

ويرى يونج ان النفس تتالف فى البداية من اللاشعور فحسب ، وهو فى هذا يشبه فرويد من حيث أن الآنا تنشا من اللاشعور وتجمـــع الخبرات المختلفة والذكريات معا ، منمية التقسيم بين اللاشعور والشعور ولاتوجـــد عناصر لاشعورية فى الانا ، وانما يوجد به محتويات شعورية مشتقة مـــن الخبرة الشخصية . ونحن نعتقد ان الآنا هى العنصر المركزى فى النفس كلها ، واننا نتجاهل النصف الآخر من النفس وهو اللاشعور .

اللاشعور الشخصى والعقد :

يتالف اللاشعور الشخصى من النزعات الطفلية المكبوتة والرغبـــات والمدركات قبل الشعورية والخبرات المنسية التى لاحصر لها والتى تنتمى اليه وحـــده .

وذكريات اللاشعور الشخصى لاتكون تحت سيطرة الارادة بأكملها ، واذا ضعف الكبت (كما فى حالة النوم) يمكن استرجاعها ، واحيانا تظهر دون استرجاع مقصود ، او يحدث لها تداعى بالصدفة مما يعيدها الى الضوء ،

وقد تبدو متنكرة في الاحلام والخيالات ، واذا احدثت اضطرابات لدى الفرد كما هو الحال في حالة العصاب فان استرجاعها يحتاج الى بذل الجهد .

ولقد استخدم يونج في المراحل المبكرة من عملة اختبار تداعي الكلمات ليكشف عن هذه المدركات . ولقد كشفت هذا الاختبار عن خاصية غريبة للبنية النفسية وهي ميل الأفكار الى الارتباط والتداعي حول نواة معينة وهذه النواة هي مايطلق عليه يونج العقدة complex . والنواة تعمل كنوع من المغناطيس النفسي له قدر من الطاقة ويجتذب على نحو آلي افكارا تتناسب مع طاقته . وانواه العقدة مكونان احدهما يتصل بالميل والنزعة dispositional والثاني بيئي ، اي انها لاتتحدد نتيجة للخبرة وحدها ، وانما ايضا نتيجة لطريقة الفرد في الاستجابة للخبرة .

وقد تكون العقدة شعورية ، اى اننا نعرفها ، وقد تكون شعورية جزئيا اى اننا نعرف شيئا عنها ونجهل اشياء ،وقد تكون لاشعورية ، وفي الحالتين الأخيرتين وخاصة حين تكون العقدة لاشعورية تسلك كما لو كانت مستقلة عن صاحبها . وسوف تخرج الافكار والوجدانات المرتبطة بها من الشعور وتعود اليه دون ضابط .وعلى الرغم من انه من الامور غير الطبيعية ان نميز تمييزا قاطعا في وصفنا للمحتويات النفسية الا اننا نستطيع ان نقول ان هناك عقدا تنتمي الى اللاشعور الشخصي وأخرى تنتمي الى اللاشعور الجمعي . وهو جانب من النفس مشترك بين ابناء الجنس البشرى كله . والانسان لايملك العقدة ، وانما العقدة هي التي تملكه . فاذا الحت فكرة معينة وسيطرت على شخص بحيث تدخلت في ادائه السوى لوظائفه اليومية عدت هي المتحكمة وليس الشخص .

اللاشعور الجمعي :

يرى يونج اننا نولد ولدينا ارث سيكولوجي كالارث البيولوجي وكلاهما محددان هامان للسلوك والخبرة « وبما ان الجسم الانساني يمثل متحفا من الاعضاء ، لكل منها فترة طويلة من التطور وراءه فاننا ينبغي ان نتوقع ان يكون العقل منظما بطريقة مشابهة . لايمكن أن يكون منتجا بغير تاريخ ومنفصلا عن البدن الذي يوجد فيه » (Jung, 1964 p. 67)

ان اللاشعور الجمعى يشتمل على مواد نفسية لاتجىء من الخبرة الشخصية . ويونج يسلم بأن عقل الوليد يمتلك بنية تشكل النمو التالى كله وتوجهه الى قنواته ، كما تشكل التفاعل مع البيئة . وهذه البنية الاساسية واحدة فى الاساس عند جميع الاطفال . هذا على الرغم من أننا ننمو جميعا على نحو مختلف . ونصبح افرادا متميزين كل له فرديته ، فاللاشعور الجمعى مشترك وعام لدى جميع الناس وكذلك فهو واحد ولعل ذلك يرجع الى تشابه بناء العقل بين جميع اجناس البشر . وهذا التشابه يرجع بالتالى الى التطور المشترك . « ان اللاشعور الجمعى يحتوى على الارث الروحى لتطور الانسانية ، يولد من جديد فى بنية مخ كل فرد ، وعقله الشعورى ظاهرة تنجز جميع التوافقات المؤقتة والتوجهات .... واللاشعور من ناحية اخرى هو مصدر القوى الغريزية للنفس .... وجميع أقوى الأفكار فى التاريخ ترجع الى الأنماط الاولية » (Jung in Compbell, 1971, p. 45)

ويمكن ان نفهم تناول يونج للاشعور الجمعى من الفقرة التالية من خطاب أرسله الى احد الذين يقوم بتحليلهم . « انت تثق فى لاشعورك كما لو كان ابا محبا ، ولكنه الطبيعة ولايمكن استخدامه كما لو كان انسانا موثوقا به . انه غير انسانى وفى حاجة الى العقل الانسانى ليعمل على نحو مفيد لاغراض الانسان ..... انه يسعى دوما لتحقيق اغراضه الجماعية ، ولايسعى مطلقا لبلوغ نصيب الفرد وقدره . ان قدرك هو نتيجة للتعاون بين الشعور واللاشعور » (Jung, 1973 p. 283)

الأنمــاط الاولية :

توجد باللاشعور الجمعى بنيات نفسية او انماط اولية وهى اشكال ليس لها محتوى فى ذاتها ، وتنظم المادة النفسية وتوجهها فى قنواتها . انها أشبه مايكون بمجارى الأنهار الجافة التى تحدد بشكلها خصائص النهر متى بدأ ماؤه فى التدفق والجريان .

والانماط الاولية تشكل البنى التحتية للنفس . وهذه الانماط تشبه البلورات ؛ حيث لانجد بلورتين تتشابهان تماما . وبالمثل فان الخبرات النفسية

لكل فــرد فردة من حيث المحتوى ، ولكن ثمة انماط عامة تحددها ولهذه الانماط معالم عامة ومبادىء موحدة .

ويطلق يونج على الأنماط الاولية صورا بدائية أو اصــلية لانهــا كثيرا ما تتطابق مع موضوعات اسطورية يتكرر ظهورها فى الحكايات الشعبية والاساطير فى الازمنه والثقافات المختلفة . وسوف نجد التيمات والموضوعات فى احلام وخيالات ورؤى كثير من الافراد . ويرى يونج ان الانماط الاولية كعناصر بنائية فى اللاشعور تثير خيالات الفرد واساطير الجماعة وهى تبدو كمنظمات معينة تكرر انماطا معينة من المواقف والاشكال . ان مواقف الانماط الاولية تشتمل على ما يأتى : ضيف البطل ، ورحلة البحر الليلية ، ومعركة الولادة والانفصال عن الأم ؛ واشكال الانماط الاولية تشتمل على الطفل المقدس ، والبديل ، والحكيم القديم والأم البدائية .

ولقد وضع كامبل J. Campbell وهو عالم على مذهب يونج كتابا اسماه « بطل بألف وجه » Hero With a thousand Faces لخص فيه الموضوعــات النمطية الاولية الاساسية فى قصص الأبطال واساطيرهم التى وجدها فى ثقافات مختلفة عبر التاريخ . ومن امثلة هذه الموضوعات قصة أوديب فهـى مثال جيد لموقف النمط الأولى الذى يتناول حب الابن العميق لامه وصراعه مع ابيه . ويمكن ان نجد هذا الموقف الرئيسى فى كثير من الخرافات والاساطير كنمط سيكولوجى لدى كثير من الافراد وهناك مواقف كثيرة تتصل بهذا الموقف كعلاقة الابنة بأبيها ، وعلاقة الوالدين بأطفالهما والعلاقات بين الرجل والمراة ، وبين الاخوة وبين الاخوات وهلم جرا .

« وكثيرا ما يساء فهم لفظ النمــط الاولى باعتباره صــورة ميثولوجية او فكرة سائدة . ولكن هذه ليست اكثر من تمثيلات شعورية . . . ان النمط الأولى هو ميل الى تكوين تمثيلات لفكرة سائدة — تمثيلات يمكن أن تتفاوت تفاوتا كبيرا فى التفاصيل دون ان تفقد نمطها الاساسى . وهناك على سبيل المثال كثير من تمثيلات للفكرة السائدة لمراهبة الاخوة ؛ ولكن الفكرة تبقى كما هى » — (Jung, 1964, p. 67)

ويمكن ان ترتبط رموز متنوعة تنوعا كبيرا بنمط اولى معين . فنمط الام

الأولى على سبيل المثال لايشتمل على الأم الحقيقية لكل فرد ، بل على صور الأم ، وصور عطوفة اخرى ، وهذا يشتمل على النساء بصفة عامة ، وعلى الصور الاسطورية للنساء مثل فينوس ، ومريم والطبيعة الام ، والرموز المدعمة والعطوفة كالجنة . والنمط الأولى للأم لايشتمل فحسب على ملامح موجبة بل يتضمن أيضا ملامح سالبة كالتهديد والسيطرة والكبح . ولقد تبلور هذا الجانب فى العصور الوسطى على سبيل المثال فى صور الساحرة .

ولقد بين يونج ان محتوى الأنماط الاولية يمكن ان يتكامل فى الشعور ، أما الانماط نفسها فلا يمكن التخلص منها عن طريق التكامل ، كما انه لايمكن التخلص منها برفض السماح لمحتوياتها بالدخول الى الشعور . وتبقى الأنماط الاولية مصدرا لتوجيه الطاقات النفسية خلال الحياة كلها ، وينبغى ان تعالج على نحـــو مستمـــر .

وكل بنية من البنيات الاساسية للشخصية نمط اولى . وهذه تشتمل على القناع والانا والظل والانيما عند الرجل والانيموس عند المرأة والذات.

القنـــاع :

ان القناع هو المظهر الذى نبديه للعالم . انه الخلق الذى نتخذه ومن خلاله نتصل بالآخرين . ويشتمل القناع على ادوارنا الاجتماعية والملابس التى نختار ارتداءها واساليبنا الفردية فى التعبير عن انفسنا . ان علينـــا ان نرتدى شيئا يحدد أدوارنا لكى نقوم بوظائفنا الاجتماعية ، وحتى بالنسبة لاولئك الذين يحاولون نبذ ادواتنا التوافقية لايستطيعون الا ان يتخذوا أدوارى تمثـــل النبـــذ .

وللقناع جوانبه الموجبة وجوانبه السلبية . فالقناع المسيطر يمكن ان يكتم انفاس الفرد ، والذين يتوحدون مع قناعهم يميلون الى رؤية انفسهم على اساس ادوارهم الاجتماعية السطحية وواجهتهم . ويسمى يونج القناع ايضا النمط الاولى للمسايرة Conformity Archetype ومهما يكن من شىء فان القناع ليس كله سلبا لانه يفيد فى حماية الانا والنفس من القوى الاجتماعية المختلفة ومن الاتجاهات التى تؤثر فيها . والقناع ايضا اداه قيمة فى التوصل .

وفى الدراما الاغريقية يتحدث الممثلون باقنعتهم الواضحة الى الجمهور كلة حديثا واضحا . وان كان احيانا على نحو نمطى جامد عن خلقهم واتجاهاتهم التى ترتبط بالدور الذى يلعبه كل منهم . ويستطيع القناع ان يلعب فى حالات كثيرة دورا قائدا فى نمونا الموجب . ومع بداية تمثلينا بطريقة معينة ولعبنا الدور الآنا تدريجيا فى هذا الاتجاه .

وتشمل الرموز الذى يشيع استخدامها عن القنـاع الاشيـاء التـى نستخدمها لتغطية انفسنا (كالملابس والحجاب) ورموز الدور المهنى (كالادوات والحقائب) ورموز المكانة (كالسيارة والمنزل والدبلوم) . وقد اتضح ان هذه الرموز تظهر كممثلات للقناع . وقد يظهر الشخص ذو القناع القوى فى الاحلام مبالغا فى التأنق فى ملابسه ، ومقيدا بكثير من الملابس التى يرتديها . وقد يظهر الشخص ذو القناع الضعيف عريانا مكشوفا .

ان القناع ضرورى لانه من خلاله نتصل بعالمنا وهو يبسط تفاعلاتنا لانه يبين ما الذى يمكن ان نتوقعه من الآخرين ، وبصفة عامة يجعلهم اكثر دماثة ، كما تجمل الملابس الجيدة الاجسام القبيحة .

الظـــل :

الظل هو شكل من اشكال الانماط الاولية ويفيد كبؤرة للمادة التى كبتت وابعدت من الشعور . وهذه المحتويات تشتمل على الميــول والرغبــات والذكريات والخبرات التى نبذها الفرد لانها غير متسقة مع القناع ، وكلما ازداد توحدنا معه . ازداد ، ازداد انكارنا للاجزاء الاخرى من انفسنا . ان الظل يمثل مانعبره دونيا فى شخصيتنا ، وايضا ، وايضا ما اهملناه ومالم ننمه على الاطلاق فى شخصيتنا . وقد تبدو اشكال الظل فى الاحلام على هيئة حيوان او قزم أو متشرد او اى شكل او شخص من ذوى المكانة المتدنية .

ولقد وجد يونج ان المادة المكتوبة تنتظم وتنبنى حول الظل الذى يصبح ذاتا سالبة بمعنى من المعانى ، انه ظل الآنا . وكثيرا ما يظهر الظل فى الاحلام كشكل معتم بدائى . عدائى منفر لان محتويات الظل قد دفعت عنوة خارج الشعور وتبدو عادية لوجهة النظر الشعرية . واذا سمح للمادة

ان تعود من الظل الى الشعور فانها تفقد كثيرا من طبيعتها المظلمة ومن اثارتها للخوف .

وتزداد خطورة الظل حينما لانعترف به ولاندركه . وحينئذ فان الفرد يميل الى اسقاط خصائصه غير المرغوب فيها على الآخرين ، ويصبح خاضعا الظل الذى يسيطر عليه دون ان يتحقق من ذلك ، وكلما اصبحت مادة الظل اكثر شعورية قلت سيطرته . ولكن الظل جزء لايتجزأ من طبيعتنا ولايمكن مطلقا ان نتخلص منه ببساطة . والشخص الذى يبدو بغير ظل ليس فردا كاملا . وانما هو ذو بعدين ، وهو ينكر ان الخير والشر يمتزجان وان التناقض الوجدانى موجود فينا جميعا .

وكل جزء مكبوت من الظل يمثل جزءا من انفسنا . وبمقدار ما تبقى هذه المادة فى اللاشعور بمقدار ما نقيد انفسنا . وكلما اصبح الظل اكثر شعورية امتلكنا من جديد اجزاء سبق كبتها من انفسنا . والظل ليس ببساطة قوة سالبة فى النفس ، انه خزانة لطاقة غريزية كبيرة التلقائية والحيوية وهو مصدر أساسى لطاقاتنا الخلاقة والظل مثله مثل جميع الأنماط الاولية متجذر فى اللاشعور الجمعى ويستطيع ان يتيح للفرد كثيرا من المواد اللاشعورية القيمة التى تبدعها الذات والقناع .

وحينما نعتقد اننا نفهم الظل فانه يظهر فى شكل آخر . ومعالجة الظل عملية تستمر طول الحياة قوامها النظر فى داخلنا والتفكير بأمانة فيما نراه .

الأنيما او الانيموس :

ان اللاشعور يكمل الشعور ، اى ان لاشعور الرجل يشتمل على عنصر انثوى يكمله ، كما يحتوى لاشعور المرأة على عنصر ذكرى . وهذا هو ما يطلق عليه يونج على الترتيب الأنيما والانيموس . وقد يبدو متناقضا ان نقول ان الرجل ليس رجلا بكليته ، وان المرأة ليست امرأة بكليتها لأننا نجد فى الشخص الواحد بعض الخصائص الذكرية وبعض الخصائص الانثوية . واكثر الرجال ذكورة كثيرا مايظهرون رقة مدهشة مع الاطفال والضعفاء والمرضى . والرجال الاقوياء يفصحون عن انفعالاتهم دون سيطرة حين ينفردوا بأنفسهم ،

والشجعان من الرجال يفزعون أحيانا فى مواقف غير خطرة ، ولدى بعض الرجال حدس مدهش او قدرة على الاحساس بمشاعر الآخرين . والمفترض ان هذه كلها سمات انثوية . وهذه الانثوية الكامنة فى الرجل ماهى الاجانب واحد من الروح الانثوية أو من الانيما . وهو صورة جماعية موروثة للمراة توجد فى لاشعور الرجل كما يقول يونج وبمساعدتها يستطيع ان يفهم المرأة .

والرجل يفهم المراة كظاهرة عامة لان الصورة نمط أولى وهى تمثيل لخبرة الرجل عن المراة منذ القدم ، وعلى الرغم من ان كثيرا من النساء يتطابقن مع هذه الصورة على الاقل من الخارج وفى المظهر . الا انها لاتمثل الخلق الحقيقى لامراة معينة كفرد .

والصورة اللاشعورية تصبح شعورية وواقعية من خلال الاحتكاكات الفعلية التى يقوم بها الرجل مع المراة خلال مسار حياته . والخبرة الاولى والاكثر أهمية عن المراة تأتى من خلال أمه وهى بالغة القوة فى تشكيله والتاثير عليه . وهناك رجال لم ينجحوا قط فى تحرير انفسهم من قوتها الاسرة . ولكن خبرة الطفل لها خاصية ذاتية واضحة ؛ فالمسالة ليست كيف تسلك الأم ، بل كيف يشعر الطفل بسلوكها . وصورة الام التى نجدها لدى كل طفل ليست صورة مطابقة لها . ولكنها تتشكل وتتلون بالقدرة الداخلية التى تمنح صورة الام أى بالانيما .

وفيما بعد يسقط الرجل الصورة على النساء على اختلافهن اللاتى يجتذبنه خلال حياته . وقد يؤدى هذا بطبيعة الحال الى سوء فهم لانهاية له . لان معظم الرجال لايعون انهم يسقطون صورهم الداخلية عن المراة على امرأة مختلفة [illegible] ومعضلة الحب التى لايمكن تفسيرها والزيجات المتشابكة بقوة [illegible] . ولسوء الحظ فان الاسقاط شىء لايمكن [illegible] لنفسه بطريقة عقلانية . فالرجل لايتحكم فى الاسقاطات ، انها تحدث له .

والأنيموس عند النساء هو الجزء المقابل للأنيما عند الرجال . ويبدو أنه مشتق كالانيما من ثلاثة اصول : الصور الجماعية للرجل التى ترثها المرأة . وخبرتها بالذكورة التى نشأت عن الاحتكاكات التى تمت بينها وبين الرجال فى حياتها . ومبدأ الذكورة الكامن لديها .

والمعتاد ان يكون تفكير المراة ومشاعر الرجل وانفعالاته منتمية للاشعور، ان الأنيما تنتج حالات مزاجية ، والانيموس ينتج آراء تستند الى مسلمات لاشعورية بدلا من ان تستند الى تفكير شعورى مباشر .

ويمثل الاب صورة الانيموس بالنسبة للبنت ولهذا تاثير عميق وسحرى على عقلها بحيث انها بدلا من ان تفكر وتتصرف لنفسها ، فانها كثيرا ما تقتبس اقوال الاب وتعمل اشياء بطريقته حتى وهى فى فترة متاخرة من حياتها .

وخلال النمو الطبيعى يصبح الانيموس مسقطا على كثير من الرجال وحين يحدث هذا الاسقاط تسلم المراة بأن الرجل هو ماتراه ومن المستحيل ان تقبله على حقيقته . وهذا الاتجاه يمكن ان يخلق توترات ومشكلات فى العلاقات الشخصية التى يمكن ان تمضى فى نعومة ويسر طالما ان الرجل يتطابق مع مسلماتها عنه . ويمكن ان يتشخص الانيموس فى أية صورة ذكرية من أكثر الرجال بدائية الى اكثرهم روحانية ويتوقف هذا على حالة نمو المراة وتطورها ، بل وقد يظهر فى الأحلام كولد ، وكثيرا ما يسمع كصوت .

وهذا النمط الاولى من اقوى منظمات السلوك تاثيرا . انه يظهر فى الاحلام واحلام اليقظة والتخيلات ، ويعمل كوسيط بين العمليات اللاشعورية والعمليات الشعورية . انه يتوجه اساسا نحو العمليات الداخلية ، كما يتوجه القناع نحو العمليات الخارجية . انه مصدر الاسقاطات ، ومصدر صنع الصور وباب من أبواب الابتكار فى النفس .

الـــذات :

اذا استطاعت الانا ان تتنازل عن اعتقادها بقدرتها على كل شىء ، فان فى الامكان ان تجد موضعا بين الشعور بقيمة التى اكتسبها بصعوبة ومشقة واللاشعور بحيويته وقوته ، ويمكن فى هذه الحالة ان يبزغ مركز جديد للشخصية يختلف فى طبيعته عن الانا وهذا المركز الجديد للشخصية هو الـــذات .

فالانا يمكن النظر اليها على انها مركز للشعور ، واذا حاول ان يضيف الى ذاته محتويات لاشعورية (كمحتوى اللاشعور الجمعى وليس محتوى اللاشعور الشخصى أو الظل الذى ينتمى الى الانا) فانه يتعرض لخطر التدمير مثله فى ذلك مثل الباخرة التى تغرق لضخامة حمولتها واجهادها . ويمكن للذات ان تحتوى كلا من الشعور واللاشعور ، ويبدو انها تعمل كما يعمل المغناطيس بالنسبة لعناصر الشخصية المحتلفة : ولعمليات اللاشعور وهى مركز الشخصية ككل (كما ان الانا مركز الشعور) لانها الوظيفة التى توحد جميع العناصر المتضادة فى الرجل والمراة ، والشعور واللاشعور والخير والشر . وهى حين تعمل هذا تتغير من حال الى حال ، وبلوغ اهدافها يقتضى تقبل ماهو متدنى فى طبيعة الفرد وما هو غير عقلانى .

ولايمكن للشخص الناضج ان يبلغ هذه الحالة بغير قدر كبير من الكفاح وهذا يتضمن المعاناة . والذات تتالف من الوعى من ناحية بطبيعتنا الفريدة ، ومن ناحية اخرى الوعى بعلاقتنا الوثيقة بالحياة كلها ، بالانسان والحيوان والنبات بل وبما ليس عضويا وبالكون ذاته . انها توفر لنا مشاعر الواحدية والمصالحة مع الحياة ، التى يمكن قبولها كما هى الآن ، لا كما ينبغى ان تكون .

ولقد لاحظ يونج نمو هذا المركز الجديد للشخصية لدى عدد من مرضاه قبل ان يصوغ المفهوم على هذا النحو . ولاينبغى ان يعتقد المرا ان جميع من اختاروا عملية التحليل بلغوا هذه المرحلة من النمو . لانه يكفى كثيرا من الناس ان يحرروا انفسهم من اكليتهم الطفلية اللاشعورية وان يتخلصوا من العرض المؤلم بالتعرف على سببه . او بالتوصل الى طريقة جديدة اكثر ارضاء للتوافق مع الحياة . غير ان هناك بعض الافراد الذين يضطرون لمراعاة اللاشعور مراعاة تامة وينبغى عليهم ان يجدوا طريقا لتقبل حياتهم الى جانب حياة الشعور وان يتكاملا معا بطريقة تجعل شخصيتهم كلا واحدا .

فالذات كما يقول يونج ليست مركز الدائرة فحسب بل هى ايضا محيطها الذى يضم الشعور واللاشعور . انها مركز هذا الكل او الصيغة الاجمالية كما ان الآنا مركز الشعور .

الانجاهــات والوظائــف :

ان تقسيم الشخصية الى نمطين منبسط ومنطوى ليس الا جزءا مــن خطة تفصيلية وضعها يونج لتصوره التباين بين الافراد .

ويطلق على المنطوى والمنبسط انماطا اتجاهية . attitudinal types

وهذان النمطان يمثلان قطبين متقابلين . والمنطوى يتوجه نحو العالم الداخلى الذاتى بينما يتوجه المنبسط نحو العالم الخارجى الموضوعى . ويميل المنطوون الى الانسحاب والعزلة والتامل العقلى ويتميزون بقدر من الكف، ويبدو عليهم عدم الثقة والميل الى الدفاع عن الذات وهم يبتعدون عن التفاعل الاجتماعى. والمنبسطون اجتماعيون ، يسهل عليهم ان يكونوا صداقات ويبدون اكثر انفتاحا واقل حرصا ، ولديهم ثقة اكبر فى انفسهم ويتسمون بعـدم المبالاة . والانماط الخالصة المتطرفة لاوجود لها فى دنيا الواقع ، وانما توجد فى النظرية ، ذلك ان معظمنا يقع فى موضع ما بين المنطوى ١٠٠٪ والمنبسط ١٠٠٪ وحتى لو صنف الفرد على انه منبسط معتدل ، فانه يبقى لديه بعض الجوانب المنطوية . وفى تصورنا لانماط الشخصية ينبغى ان نتجنب تصنيف الناس على نحو جامد فى فئات منفصلة .

ولقد رأى يونج ان هناك اربعة انماط وظيفية Functional Types تتفاعل مع النمطين الاتجاهيين السابقين والوظائف التى نتحدث عنها هى طـرق للاتصال بالعالم ونحن نتصل بالعالـم كما لاحظ يونـج بالتفكير thinking والـوجدان Feeling والاحســاس sensing والحدس intuiting .. والتفكير عملية عقلية تتناول افكارا ، وهدف التفكير القصدى او غير القصدى هو الفهم وحين تفكر فى شـىء فانـك تتبين مـا هو هذا الشىء (اسمـه) والفئة التى يندرج فيها وهكذا ..

والوجدان وظيفة تقويمية، انها تتيح لك ان تقيس قيمة الشىء او جدراته. هل تحب هذا الشىء تميل اليه ام تكرهه وتميل عنه ؟ هل يؤلمك اويسرك؟ هل تعتبره ذا قيمة ام لاتعتبره كذلك ؟ فقد ترغب فى شىء رغبة شديـدة او تنفر منه وتشمئز ، والشىء قد يغضبك او يخيفك . والحق ان الوجدان

يمكن ان يطلق صفات من الانفعالات غير انه بغض النظر عن الانفعال الذى يطلقه فان وظيفته الاساسية هى ان يعرفك ما اذا كنت تضفى على الشيء موضع النظر قيمة ام لا .

والاحساس يدلك على مايوجد ، وبدون تقويم او تصنيف فى فئات يقدم لك الواقع العيانى للعالم . انه يخبرك بأن شيئا موجودا ودون ان يدلك على ماهيته وما اذا كان خيرا ام شرا .

والحدس يمضى الى مابعد الحقائق وحتى الى مابعد المشاعر والوجدانات لكى يزودك بتحديرات قبلية والهامات مبتكرة وخبرات روحية ومشاعر غريبة ذاتية . انه ينبئ بما سوف يحدث ، أو بما حدث من قبل ولكنه لم يدرك باى من الوظائف الاخرى .

ويعتبر يونج التفكير والوجدان وظيفتين عقلانيتين . وقد قصد بذلك ان كلا منهما يستخدم العقل والحكم . اى انهما يستخدمان العمليات العقلية المجردة فى محاولة لاكتشاف النظام القانونى للخبرة . وهو يعتبر الاحساس والحدس وظيفتين لاعقلانيتين . أى أن العمليات المتضمنة تتعدى اللغة والعقل . انهما مرتبطان على نحو مباشر بالعالم العيانى الفيزيقى . وهذه العيانيان تمثل الانسان دون تدخل من العقل او استخدام الاحكام .

ولقد اعتقد يونج ان هذه الوظائف الاربع زوجان متقابلان ، اى ان لكل منهما قطبين : التفكير — الوجدان ، والاحساس — الحدس . وان الخط الذى يربط قطبى التفكير — الوجدان يتقاطع بزوايا قائمة مع الخط المستقيم الذى يربط الاحساس بالحدس .

وكما توجد فروق فردية فى بعد الانطواء الانبساط . توجد ايضا فروق فردية بين قطبى هذه الانماط الوظيفية . فبعضنا من النمط المفكر اكثر مما هو من النمط الوجدانى . واخرون من النمط الحسى اكثر من كونهم من النمط الحدسى . وهكذا ، واذا اضفنا جميع التكوينات الممكنة لنمطى الاتجاه لجميع التكوينات الممكنة لانماط الوظائف فانا ننتهى الى ثمانية انماط للشخصية .

وقد يميل الشخص بدرجة كبيرة أو قليلة الى اى من هذه الانماط الثمانية ولكل منهم مجموعة فريدة من الخصائص : —

النمط المنبسط المفكر : هذا النمط يدرك كل شيء على انه مشكلة عقلية تحل بجمع الحقائق والبيانات ، وبالاستدلال وصولا الى نتيجة منطقية وهؤلاء يصلحون للوظائف التنفيذية ويجيدونها .

النمط المنطوى المفكر : هذا النمط يتتبع افكاره متوجها الى الداخل بدلا من توجهه الى الخارج . وقد ينشغل تفكيره انشغالا تاما بالواقع الذاتى والذى لايكون مفهوما للآخرين كالعلماء الواسعى الثقافية .

النمط المنبسط الوجدانى : هذا النمط يميل الى صحبة الناس والتحدث معهم . وينتج حين يعمل عملا يتطلب تفاعلا مع الناس ويعمل على اكتساب موافقة الاخرين .

النمط المنطوى الوجدانى : هذا النمط محكوم بمعتقداته القوية وولاءاته ولكن هذه الوجدانات والمشاعر يصعب ان تظهر اللهم الا اذا تغلغلت ونفذت من قناع التحفظ .

النمط المنبسط الحسى : يضع يونج فى هذا النمط من يستمتع بالخبرة الحسية العيانية كخبير تذوق الأطعمة وانواع الشراب والروائح ، والفنانين ، واصحاب هذا النمط يتذكرون تفاصيل عيانية اكثر من اى نمط آخر .

النمط المنطوى الحسى : ويضم العمليين من الناس ، فمن لديهم ذاكرة قوية التفصيل وبسبب هدوئهم وانطوائهم فانه لايبدو عليهم مباشرة أن ادراكهم للواقع يتسم بغرابة جزئية .

النمط المنبسط الحسى : وهذا النمط يضع خططا للمشروعات الجديدة على الدوام ، ويعمل على تنفيذها بحماس وطاقة واندفاع . ويدخل فى هذا النمط الزعماء والسياسيون . انهم يكرهون الروتين ويجدون الالتفات الى التفاصيل مملا ، وقاتلا .

النمط المنطوى الحدسى : عدا النمط ملتزم برؤية داخلية ، صوفية منعزلة دامية .. الخ . ان هذا الشخص فى الحقيقة قد يكون مبتكرا او لديه هوس بفكرة معينة . وحتى المبتكرون فى الحقيقة كثيرا ما يساء فهمهم من اترابهم ، وينبغى ان يكافحوا حتى تنبل اعمالهم .

ويمكن ان يقاس مدى تشابه شخصية الفرد باى نمط من هذه الانماط المثالية بمقياس Myers Bnggs Type Indicator الذى يزودنا بدرجة لكل من هذه الابعاد الثنائية . (Myers, 1962)

التفاعل بين خصائص الشخصية :

ان خصائص الشخصية التى وصفناها يتفاعل بعضها مع البعض الآخر بثلاث طرق ، فقد تعارض خاصية خاصية اخرى وقد تعوض عنها ، أو قد تلتحم بها . ومن الأفكار الشائعة فى نظريات الشخصية مبدأ التعارض والتقابل — اى أن الشخصية تشتمل على اتجاهات متصارعة أو ذات قطبين . ويرى يونج ان التوتر هو جوهر الحياة فبغيره لاتتوافر للشخصية الطاقة التى تعمل بها . والتعارض أو التقابل يوجد فى كل جانب من جوانب الشخصية ، فالأنا تتعارض مع الظل ، والانطواء مع الانبساط ، والتفكير مع الوجدان ، والأنيما او الانيموس مع الأنا وقد يعوضها .

اينبغى ان تكون الشخصية دائما فى صراع وتوتر ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال ليست بالضرورة بالايجاب ؛ لان العناصر المتقابلة قد يكمل الواحد منها الآخر ويجذبه . وهكذا قد يحال بين النفس والتعرض لعصاب مصدره جانب دون آخر . وبصفة عامة يحدث التعويض بين الشعور واللاشعور ، فما يبدو مسيطرا فى عالم الشعور بوظيفته يعوض بخاصية مخالفة مكبوتة . وعلى سبيل المثال اذا تعرض الاتجاه الشعورى للاحباط على نحو ما ، أكد الاتجاه اللاشعورى ذاته . واذا لم يستطع الفرد ان يمارس اتجاهه المفضل ، فان الاتجاه اللاشعورى يسود خلال النوم ويعبر عن ذاته فى الاحلام . وقد يكون النمط الأولى علاقة تعويضية بالمثل الشعورى ، فالانيما والانيموس تزود الرجال والنساء على الترتيب بخصائصهما الأنثوية والذكرية .

وأخيرا يرى يونج ان الشخصية تكافح دوما لتوحيد الأضداد . انها تكافح لتؤلف بين الملامح المتقابلة والمتضادة بحيث تتوصل الى شخصية متوازنة متكاملة .

نمو الشخصية :

لدى كل فرد ميل للتفرد أو لتنمية الذات والمقصود بالتفرد أن يصبح كائنا حيا فردا متجانسا . والفردية تحتضن اكثر خصائصنا جوانية وتفردا ، تفردا لايضاهيه تفرد ، وتتضمن أيضا تحقيق الذات . والتفرد عملية طبيعية . ان التفرد هو ما يجعل الشجرة تنمو لتصبح شجرة ، واذا حيل بينها وبين ذلك تجف ولاتؤدى وظيفتها كشجرة ، اما اذا تركت لذاتها فانها تنمو لتصبح شجرة والشعور جزء من التفرد ولكن هذا يتوقف على مقدار مايوجد من شعور على نحو طبيعى . والشعور يمكن ايضا ان يعوق التفرد اذا لم يتح لما يوجد فى اللاشعور بأن ينمو .

ان التفرد عملية تنمية الكل وبالتالى التحرك نحو حرية أعظم . وهذا يشتمل على تنمية علاقة دينامية بين الانا والذات مع تكامل الاجزاء المختلفة للنفس ، والانا والقناع والظل والانيميا أو الانيموس ، والانماط الاولية اللاشعورية . وكلما ازداد تفرد النفس ، أمكن رؤية هذه الأنماط البدائية معبرة عن نفسها بطرق معقدة بارعة .

وكلما أصبحنا اكثر شعورا بانفسنا عن طريق معرفة الذات وتصرفنا وفقا لذلك ، كلما تلاشت طبقة اللاشعور الشخصى المفروضة على اللاشعور الجمعى ، وبهذه الطريقة يظهر شعور لم يعد سجينا فى عالم شخصى من الاهتمامات الموضوعية . عالم يتسم بالحساسية الزائدة والنفاهة . وهذا الشعور المتسع لم يعد حزمة من الاثرة والرغبات الشخصية والمخاوف والآمال يتطلب دائما تعويضا أو تصحيحا من قبل الميول اللاشعورية المضادة . وانما اصبح وظيفة للعلاقة مع عالم الاشياء مما يؤدى بالفرد الى معايشة لاتنفك منها مع العالم بصفة عامة معايشة مطلقة وملزمة . (Jung, 1928 b, p. 176)

ولقد اتضح ليونج كمحلل ان الذين جاءوا اليه فى نصف حياتهم الاول

كانوا نسبيا غير منغمسين فى العملية الداخلية للتفرد . لقد نزعوا الى الاهتمام اساسا ببزوغ الفرد ، وبالانجاز الخارجى وبتحقيق مرامى الآنا . اما المرضى الأكبر سنا الذين حققوا مثل هذه المرامى والاهدافت تحقيقا معقولا، فقد اتجهوا الى تنمية مقاصد مختلفة ، ليصبحوا اكثر اهتماما بالتكامل اكثر من اهتمامهم بالانجاز، واكثر اهتماما بالبحث عن الوئام والانسجام مع النفس ككل .

ومن وجهة نظر الآنا ؛ يتألف النمو والارتقاء من تكامل مادة جديدة مع شعور الفرد ؛ وهذا يشتمل على اكتساب معرفة العالم ومعرفة الفرد لنفسه . ونمو الآنا فى الأساس هو امتداد واتساع الوعى الشعورى ومهما يكن من شىء فان التفرد هو نمو الذات ، ومن وجهة نظرها ، والهدف هو اتحاد الشعور مع اللاشعور .

كشف القناع :

من الضرورى فى مرحلة مبكرة من عملية التفرد ان ندرك اهمية كشف القناع، وان ندرك القناع كأداة نافعة لا كجزء ثابت من ذات الفرد ، وعلى الرغم من ان القناع له وظائف هامة فى حماية ذات الفرد ، الا انه يخفيها ويخفى اللاشعور .

ان عملية تحضر الانسان تؤدى الى التوفيق بين نفسه والمجتمع فيما يتصل بما ينبغى ان يكون عليه ، وفيما يتصل بتكوين القناع الذى يعيش خلفه . ان القناع الذى يرتديه الممثل يحدد الدور الذى يلعبه ، غير ان لعب الدور لايقتصر على الممثلين لأن لكل منا دوره فى الحياة . صحيح ان الناس يختارون الى حد ما الادوار التى تناسبهم والى هذا الحد يكون القناع هو الفرد ، ولكنه لايمكن ان يمثل رجلا او امراة بكليتها . والطبيعة الانسانية ليست متسقة ، ومع ذلك نحن نقوم بدور لابد ان نكون كذلك ، اى متسقين . وبالتالى فهى تزيف نفسها .

والذين يهملون فى تنمية القناع يغلب ان يستعدوا الآخرين وان يجدوا صعوبة فى ترسيخ مكانتهم فى العالم ؛ غير ان هناك خطرا دائما فى توحد الفرد مع الدور الذى يقوم به وهو خطر لايظهر . اذا كان الدور جيدا ويلائم

الشخص على نحو جيد . ولكننا مع ذلك كثيرا ما نقول عن فرد « انه يلعب دورا » وهو ليس في الحقيقة كذلك اى ان هذا التوحد قد يجعل الفرد مغتربا عن ذاته وبعيدا عن مشاعره الحقيقة .

وهناك خطر اخر هو ان القناع اذا كان جامدا جدا فان ذلك يعنى انكارا كاملا لبقية الشخصية ولجميع الجوانب التى تنتمى الى اللاشعور الجمعى .

مواجهة الظل :

حين ننظر الى ما وراء المظاهر المجردة فاننا مضطرين الى مواجهة الظل . ونحن نصبح اكثر تحررا من تاثير الظل بمقدار ادراكنا لحقيقة الجانب المظلم وفى نفس الوقت ندرك اننا اكثر من مجرد الظل . ان الظل هو تسمية يونج للفكرة القديمة القائلة بأن هناك جانبا شريرا من خلق كل شخص . هذا الظل مكبوت معظم الوقت ولاشعورى ؛ ولكنه كامن فى داخلنا ومترصد ومستعد لأن يعمل فى اى وقت والشياطين والارواح الشريرة ترمز كلها للظل كنمط اولى .

ولابد ان يجد الانسان طريقة للعيش مع جانبه المظلم لان صحته العقلية والجسمية تعتمد على هذا . وقبول الظل يتطلب جهدا خلقيا كبيرا . والتخلى في حالات كثيرة عن مثل عليا ولكن ذلك مرجعه الى ان هذه المثل العليا قد ارتفعت وبعدت جدا او انها تادت الى وهم . ان محاولة العيش بطريقة انبل وافضل مما نحن عليه معناه نفاق لانهاية له وخداع ؛ هذا فضلا عن ان هذه المحاولة تلقى بعبء ثقيل علينا بحيث نتعرض للانهيار وتسوء حالتنا على نحو لم يكن هناك حاجة تدعو اليه .

وهناك خطر فى كبت الظل فى اللاشعور لانه فيما يبدو يكتسب قوة ويتعاظم حيوية بحيث حين تتاح اللحظة المناسبة لظهوره يكون اكثر خطرا ويجتاح بقية الشخصية وبغير هذا يمكن ان يحقق توازنا صحيا ويصدق هذا على وجه الخصوص على الجوانب الجمعية من الظل التى تظهر حين يتحول حشد برىء من الناس فيدمر ويأتى افعالا متوحشة .

مواجهة الانيما والانيموس :

ولابد ان يواجه الفرد الانيما او الانيموس وهذا النمط الاولى ينبغى ان يعامل كما يعامل الشخص الفعلى الذى يتفاهم معه الفرد وان يتعلم منه . ويصبح الفرد واعيا بأن صور الانيما او الانيموس لها استقلالية ذاتية ملحوظة، وانها يغلب ان تؤثر بل وتسيطر على من يتجاهلها ، او على من يتقبل صورها تقبلا أعمى او اسقاطاتها كما لو انها من انتاجه الشخصى .

تنمية الذات :

ان هدف عملية التفريد هو تنمية الذات . ان الذات هى مرمى حياتنا ، لانها اكمل تعبير عن الفرد . وتحل الذات محل الآنا باعتبارها مركز النفس . والوعى بالذات يحقق الوحدة للنفس ويساعد على تكامل مادة الشعور ومادة اللاشعور .

ومن الضرورى أن نذكر انه على الرغم من انه من الممكن ان نصف التفرد على اسس المراحل ، الا أن عملية التفرد تعتبر اكثر تعقيدا على نحو ملحوظ من مجرد التقدم البسيط الذى نلخصه هنا . وجميع الخطوات التى نثبتها متداخله ، ويعود المرا دوما الى المشكلات والمسائل القديمة ، والامل ان تكون العودة من منظور مختلف . ومسار التفرد مسار لولبى يواجه الفرد فيه باستمرار نفس الاسئلة ، وفى كل مرة فى صور اكثر دقة .

مراحل النمو :

لم يفحص يونج فى معالجة مراحل الحياة كما فعل فرويد ونوجز فيما يلى عرض لافكاره الاساسيه فى هذا المجال : —

الطفولة :

لاحظ يونج ان الاطفال كثيرا ما يواجهون صعوبات انفعلية وهو يرى ان هذه الصعوبات تعكس تاثيرات البيت . وان استمراية الشعور التى تستند الى الاحساس بالهوية الشخصية لاتتوافر لدى الاطفال فى الفترة

السابقة على التحاقهم بالمدرسة . ويعيش الاطفال عادة فى هذه الفترة فى جو نفسى منعزل يوفره الوالدان ، وحياتهم النفسية فى هذه الفترة محكومة بغرائزهم . وباستثناء ما تحققه هذه الغرائز من انتظام سلوكهم فى المأكل والنوم ... الخ تصبح حياة الاطفال فوضى مالم يبرمجها الوالدان .

ولقد بين يونج فى نفس الوقت أن من الخطأ ان نفسر غرابة سلوك الطفل أو اتكاليته أو عصيانه او صعوبة توجيهه على انه مضطرب اضطرابا شديدا أو انه يفعل بارادته ، ففى مثل هذه الحالات ينبغى علينا ان نفحص الوالدين وان ندرس بيئتهم . وسوف نكتشف دون استثناء تقريبا ان الاسباب الحقيقة لصعوبات الطفل ترجع الى الوالدين .

الشباب والرشد المبكر :

يحدث ميلاد نفسى عند المراهقة يصاحب التغيرات الفسيولوجية واشتداد الرغبة الجنسية . وهذه المرحلة تتميز بالتمايز والتفاضل النفسى عن الوالدين . وفجأة تواجه الشخصية مواقف تتطلب اتخاذ قرارات كثيرة ، وان عليها ان تقوم بكثير من التوافقات مع الحياة الاجتماعية . واذا كان الشخص معدا اعدادا سليما فان الانتقال من انشطة الطفولة الى الانشطة المهنية ومتطلبات العمل يكون سلسا على نحو معقول . واذا غرق الشخص فى أوهام الطفولة أو كانت له توقعات غير واقعية فانه قد يواجه مشكلات كثيرة . فالشاب الذى خطط ليصبح طيارا قد يكتشف ان حدة بصره غير ملائمة لمطالب العمل ومقتضياته . واذا لم يستطع ان يغير اهدافه فقد يتعرض للضيق ويكون نهبا للقلق .

ولاتكون المشكلات التى يواجهها الفرد فى هذه المرحلة كلها خارجية كاختيار المهنة . ذلك انه قد تنشأ صعوبات داخلية كالغريزة الجنسية أو الحساسية الزائدة أو عدم الشعور بالامن . وفى مكان ما عميق فى داخلنا (والنمط الاولى للطفل مسئول عن ذلك) نريد ان نبقى اطفالا ، وان نستمر فى هذه المرحلة من مراحل النمو حتى لايكون لدينا مشكلات حقيقية اومسئوليات نضطلع بها . واعمال المرحلة الثانية هذه علاقتها بقيم الانبساط اكبر من

علاقتنا بقيم الانطواء . وينبغى أن يكون الناس قادرين فى هذه المرحلة على اتخاذ القرارات والتغلب على العوائق وتحقيق الاشباعات لانفسهم وللآخرين ، وينبغى ان يسعوا وراء ما هو ممكن حتى ولو كان معنى ذلك انكار جميع الامكانيات النفسية الاخرى .

متوسط العمر :

مابين سن الخامسة والثلاثين والاربعين يشعر الناس بوضوح بالحاجة للقيم الروحية . وهى حاجة تشكل دائما جزءا من النفس ، غير انها تنحى جانبا فى وقت مبكر من الحياة بسبب ما يكون للاهتمامات المادية من اولوية واسبقية . وما ان يبلغ الناس أواسط العمر الا ويكونوا قد توافقوا مع البيئة بنجاح بدرجات متفاوتة ، اى انهم قد استقروا فى مهنهم ، وتزوجوا ، واصبح لديهم اطفال ، واصبحوا مشاركين فى خدمة البيئة . وقد يجدون انفسهم فجأة فى حيرة يتساءلون عن معنى حياتهم وهدفها . وهم لم يعودوا فى حاجة الى استثمار طاقاتهم فى الجهود التى حققت لهم النجاح ، وقد تخلق خسارة الدم المترتبة على ذلك احساسا بالفراغ فى شخصياتهم . انهم فى حاجة الى قيم جديدة توسع آفاقهم بحيث تتعدى الاعتبارات المادية الصرفة . وأواسط العمر وقت مناسب لتحقيق الذات . ويحتاج الشخص أن يفهم معنى حياته كفرد من خلال التأمل وان يختبر جوانيته .

ولقد كان يونج من اوائل المنظرين فى مجال الشخصية الذين حاولوا ان يفهموا سيكولوجيه متوسطى العمر . ومن المحتمل أن خبرة يونج نفسه فى استقصاء ذاته وتحديد مسار جديد لحياته وقيم وأهداف جديدة — التى حدثت وكان عمره ٤٠ عاما — كان لها تأثير كبير فى اهتمامه بهذه الفترة من الحياة .

وهناك دليل اخر لاثارة اهتمام يونج بهذه المرحلة وهو ان كثيرا من مرضاه كانوا فى هذه المرحلة العمرية . فقد كانوا فى كثير من الحالات أناسا حققوا قدرا كبيرا من النجاح فى المجال المهنى والاجتماعى ، ولكن الحياة بالنسبة لهم كانت قد فقدت معناها وطعمها .

سن الشيخوخة :

لقد كان اهتمام يونج بهذه المرحلة ضئيلا .لقد اعتقد ان الطفولة والشيخوخة متشابهان ، ففى هاتين المرحلتين يقوم الشخص بوظيفته اللاشعورية الى حد كبير . فالطفل لم يكن قد بلغ بعد مرحلة تكوين أنا شعورية نسقة عاقلة ، والمسن يغرق تدريجيا فى اللاشعور ويختفى فيه فى النهاية.

ولقد شعر يونج بأن شيوع الاعتقاد فى حياة ما بعد الموت فى الاديان على اختلافها ، ينبغى ان يعنى ان هناك سببا معقولا لوجود هذه الحياة . ولقد اقترح كأحدالممكنات أنْ تستمر الحياة النفسية بعد الموت الفيزيقى بحيث تحقق النفس ذاتها ، اى ان تحقيق الذات تحقيقا تاما فى الحياة غير ممكن،لان الكمال ابعد من ان يبلغه أى فرد .

البنــــاء :

الجســـم :

لم يعالج يونج فى كتاباته الكثيرة على نحو واضح دور الجسم ووجه جهوده الى تحليل النفس . ولقد ذهب الى ان العمليات الفيزيقية وثيقة الصلة بناء بمقدار تمثيلها فى النفس ، وذلك اننا لانستطيع معرفة الجسم الفيزيقى والعالم الخارجى الا من خلال العمليات السيكولوجية وحدها . يقول يونج « انا مهتم اساسا بالنفس ذاتها ؛ ولذلك فاننى اترك الجسم والروح . . . والجسم والروح بالنسبة لى ليس الا مجرد جوانب من حقيقة النفس . والخبرة النفسية هى الخبرة المباشرة الوحيدة ؛ فالجسم ميتافيزيقى كالروح (Jung, 1973, p. 200)

العلاقات الاجتماعية :

التفاعل الاجتماعى هام فى تكوين وارتقاء البنيات الاساسية للشخصية : القناع والظل والانيما او الانيموس . ومحتوى الخبرات الاجتماعية يساعد فى تحديد الصور والرموز النوعية او المحددة المرتبطة بكل بنية ، وفى نفس

الوقت ، فان هذه البنى الاساسية الاكتيبية archetypal تشكل العلاقات الاجتماعية وتوجهها .

ويؤكد يونج على ان التفرد فى الاساس محاولة وسعى شخصى ، وهو على اية حال عملية تنمو من خلال العلاقات مع الاخرين « لانه لايستطيع اى فرد ان يعى فرديته مالم يرتبط او يتصل بزملائه من بنى الانسان ارتباطا او اتصالا وثيقا ومسئولا ، انه لاينسحب الى الصحراء من الانانية حين يحاول ان يجد نفسه ، انه يستطيع فحسب ان يكتشف نفسه حين يرتبط على نحو عميق وغير مشروط ببعض الافراد ، وان يرتبط بصفة عامة بافراد كثيرين جدا بحيث تتاح له فرصة المقارنة معهم وبحيث يقدر أن يميز ذاته عنهم » .

(Jung in Serrano, 1966, pp. 83 - 84)

الارادة :

يعرف يونج الارادة باعتبارها الطاقة المتوافرة فى الشعور أو الآنا . ويرتبط نمو الارادة بتعلم القيم الثقافية والمعايير الاخلاقية وما شابه ذلك . ان لدى الارادة القوة والتأثير فى التفكير والفعل الشعورى ، ولاتستطيع التاثير المباشر فى العمليات الفريزية والعمليات اللاشعورية الاخرى ، هذا على الرغم من ان لها تأثيرا قويا غير مباشر عليها عن طريق العمليات الشعورية .

ولقد شعر يونج ان الارادة الفردية ظاهرة حديثة نسبيا فى النمو الانسانى والارتقاء ، وذلك ان الطقوس فى الثقافات البدائية تدفع أعضاء القبائل الى حالة تحل محل ارادة القوة فى مجتمعنا المعاصر ، اى أن الارادة لم تكن عمليا موجودة ؛ واحتاجت القبائل البدائية الى طقوس احتفالية للتوصل الى مايعادل اتخاذ القرار . وقد اكتسبنا قدرا معينا من ارادة القوة ببطء خلال الاجيال ، ونستطيع ان نفصل قدرا كبيرا من الطاقة من طاقة الطبيعة ، ومن اللاشعور الاصلى ، ومن التدفق الاصلى للاحداث أو الوقائع ، بقدار من الطاقة نستطيع ان نسيطر عليه ونضبطه .

(Jung in McGurire & Hull, 1977, p. 103)

الانفعـــــالات :

لقد أكد يونج على الدور الرئيسى الذى يمكن ان تؤديه دراسة الانفعالات فى علم النفس . « ان علم النفس هو العلم الوحيد الذى كان عليه ان يدخل فى اعتباره عامل القيمة (أى المشاعر) لانها الصلة بين الوقائع السيكولوجية والحياة . وكثيرا مايتهم علم النفس باللاعلمية بسبب هذه النقطة ولكن نقاده يخفقون فى فهم الضرورة العملية والعلمية التى توجب الاهتمام بالمشاعر اهتماما كافيا » . (Jung , 1964, P. 99)

ان المادة النفسية المتصلة على نحو مباشر بالانماط الاولية تميل الى اثارة انفعالات قوية ، وكثيرا ما تثير الرهبة . وحين يناقش يونج الرموز فانه لايكتب عن كلمات ميتة لاحياة فيها او صور فارغة ، وانما يكتب عن حقائق ووقائع حية قوية يعيش بها الرجال والنساء حياتهم والتى مات من أجلها كثيرون . ووفقا ليونج فان الانفعال يصاحب جميع التغيرات النفسية . ان الانفعالات هى القوة وراء عملية التفرد « الانفعال هو المصدر الرئيسى للشـــــعور » (Jung, 1954 b, p. 96)

العقـــــل :

ان العقل عند يونج يشير الى العمليات الشعورية الموجهة . ويونج يميز بين العقل والحدس لان الاخير يعتمد بقوة على المادة اللاشعورية وللعقل دور محدود ولو انه هام فى القيام بالوظائف السيكولوجية . ويؤكد يونج على ان الفهم العقلـــى الصرف لايمكن ان يكون تاما » وعلم النفس الذى يشبع العقل وحده لايمكن ان يكون عمليا على الاطلاق ؛ لان النفس لايمكن ان يدركها ويلم بها العقل وحده » (Jung 1917, p. 117)

العـــــلاج النفسى :

يؤكد يونج على ان العلاج مجهود مشترك بين المحلل ومن يقوم بتحليله اللذان يعملان باعتبارهما متساويين متكافئـــين وهمـــا وحدة دينامية ، ولذا فان المحلل ينبغى ايضا ان يكون متفتحا للتغيير نتيجة للتفاعل . ولقد شعر

يونج ان العلاج ليس في اساس الاتفاعلا بين لاشعور المحلل ولاشعور المريض الذي لايستطيع ان يتقدم في العلاج الا بمقدار تقدم المعالج .

« أن من الاشياء التي تثير الاعجاب عن العلاج النفسي ، انك لاتستطيع أن تتعلم أى وصفة وتحفظها عن ظهر قلب ثم تطبقها على نحو يتفاوت من حيث الملاءمة ، ولكنك تستطيع ان تشفى من تشفى من نقطة رئيسية واحدة وهى تتألف من فهم المريض ككل سيكولوجي وان تتعامل معه كانسان ، تاركا جانبا كل النظريات ومصغيا بانتباه الى كل ما يقول » (Jung, 1973, p. 456)

ولقد حاول يونج ان يتجنب الاعتماد على النظرية وعلى أساليب معينة في عملية العلاج لانه اعتقد ان هذا يجعل المحلل يعمل بطريقة آلية وتبعده عن فهم المريض . ولقد كان الغرض من العلاج ان يحاول تناول الفرد ككل من خلال علاقة حتمية دون محاولة تجميع اجزاء نفس الفرد وربطها كما لو ان الفرد آلة من الالات . ولايستطيع المحلل ان يمنع نفسه احيانا من التفكير بأن هذا المسار او ذاك هو افضل مسار للمريض ، ولكن المعالج ليس له الحق في فرض آرائه وافكاره على المريض . ان عمله هو ان يساعد المريض ليصل الى الحالة التي يستطيع ان يكتشف لنفسه الطريق للعيش والحماس الضروري لوضع هذا موضع الممارسة .

ان علم النفس التحليلي ليس طريقة للشفاء فحسب بل هو أيضا طريقة لتنمية الشخصية خلال عملية التفرد . ولما كان التفرد ليس هدف كل من يسعى للعون السيكولوجي لان مقاصد هؤلاء في كثير من الحالات محدودة ، فان يونج يغير من طريقته في العلاج تبعا لعمر المريض أو حالة نموه ومزاجه ولايهمل الرغبة الجنسية او ارادة القوة اذا كان اى منهما يعمل عمله في العلاج ، ولكنه يرى ان وجهة نظر فرويد وادلر اكثر ملاءمة للشباب .

وكان يونج يلقى عملائه مرة في الاسبوع أو مرتين . ولقد حاول ان ينمى لدى عملائه احساسا بالاستقلال الذاتي ، وكان في كثير من الحالات يكلفهم بواجبات يقومون بها كتحليل احلامهم . وكان يصر ايضا على ان يقوم عملاؤه بعطلة ويبتعدون عن التحليل لكى يتجنب اتكالهم عليه وعلى جلسات التحليل .

ولقد حدد يونج مرحلتين اساسيتين للعملية العلاجية ، ولكل منها جزءان المرحلة الاولى هى المرحلة التحليلية analytic Stage وهى تتالف اولا من الاعتراف confession حيث يبدأ الفرد فى استعادة مادة لاشعورية . وتميل روابط الاتكال على المعالج ان تنمو فى هذه المرحلة . ويلى ذلك مرحلة التوضيح أى شرح مادة الاعتراف حيث يزداد فهم العمليات النفسية وبتطور وتزداد الالفة بها . والاعتراف الكامل اى الذى يتعدى الادراك العقلى للحقائق الى تأييدها بالقلب والتنفيس الفعلى عن الانفعالات المقموعة يمكن ان يكون له اثر كبير فى البرء وخاصة مع غير المعتدين من الناس . غير ان الاعتراف لسوء الحظ ليس مسالة بسيطة ، لان شخصية المعترف تلعب دورا هاما فى تحقيق الاثر الصحيح . ويحدث كثيرا ايضا انه على الرغم من شفاء المريض كما يتضح للاخرين ، اى اختفاء اعراضه ، او فهمة لاصل هذه الاعراض ومعناها فانه يستمر فى العلاج حتى ولو بدا انه لاضرورة لهذا الاستمرار . اى انه لايستطيع العيش والعمل دون الاعتماد على الشخص الذى شفاه .

والتوضيح أو الشرح كلمة مضللة تصف طريقة وعملية . لان الانفعالات متضمنة ولايمكن تفسير عملية الطرح أو التحويل transference شرحا يؤدى الى التخلص منها لانه لابد من ان يعيش المريض والمحلل هذه العملية معا . ويرى يونج انه على الرغم من القيود التى تفرضها ظروف غرفة الاستشارة وقيود ساعات العلاج المحددة الا انه ينبغى على المحلل ان يقابل المريض باعتباره انسانا ، وان تتوافر الصراحة من الجانبين على قدم المساواة . وان يشتركا فى المعاناة . وتنبثق من هذه العلاقة الثنائية نتائج علاجية لايؤثر فيها مجرد الشرح .

والمرحلة الثانية من مرحلتى العلاج هى المرحلة التركيبية The Synthetic واول جزء فيها هو التربية حيث اكد يونج الحاجة للتحرك من الاستبصار السيكولوجى الى خبرات فعلية جديدة تؤدى الى نمو الفرد ، وتكوين عادات جديدة . والجزء الاخير هو التحول transformation وتتكامل علاقة المحلل بالمحلل ويقل الاتكال عندما تتحول العلاقة وتركز الخبرات عاليا فى عملية التفرد . على الرغم من ان مادة الانماط الاولية قد لاتواجه بالضرورة وهذه مرحلة تربية الذات

Self-education حيث يتصدى الفرد للمسئولية وهى مسئوليته عن نموه وارتقائه، وهى مسئولية تتزايد دوما .

والمراحل المبكرة من التحليل تعالج الى حد كبير مشكلات شخصية ، وهى بالتالى تتعامل مع اللاشعور الشخصى ؛ ولكن فى المرحلة الاخيرة وحيث يحتاج الفرد الى ان يتوصل الى موضعه ومكانته فى حياة الاجيال يتعامل مع اللاشعور الجمعى . ونظرية يونج عن اللاشعور الجمعى واللاشعور الشخصى هى التى تميز سيكولوجيته عن سيكولوجيات الآخرين .

البحوث المميزة وطرق البحث :

لقد استقى يونج البيانات التى تقوم عليها نظريته من مصادر مختلفة وكثيرة استقاها من بحوثه الكلينيكية والتجريبية ومن احلام ورؤى الاسوياء والمرضى من الناس . كما استقاها من الاساطير والقصص الخرافية والحياة البدائية والانثروبولوجيا والتاريخ والادب والفن والدين . ولقد وجد يونج مادة رمزية عن الانماط الاولية فى هذه المصادر المتفاوتة فى النوعية ومن اجزاء مختلفة من العالم ولقد توصل الى علاقات مقنعة بين هذه المواد ابدلل على اثرها ذا المعزى فى حياة الناس .

ويذهب يونج الى ان كشوفه حقيقة وليست تأملية ؛ وان مفاهيمه ليست الا اسماء اطلقها على حقائق . ولكن كثيرا من الدارسين يجدون ان حقائق يونج تأملية بدرجة عالية . ويجدد كثير من علماء النفس ان طرقة المقارنة فى البحوث غير مقنعة وذلك لان هذه الطرق ينقصها ضبط عوامل الصدفة وما يترتب عليها من نتائج . وانه لم يستخدم اساليب نسقية كمية . وهذه الضوابط والاساليب ضرورية للباحثين اذا ارادوا ان يقدروا موثوقية دراساتهم ويتحققوا من صدقها ويعيدوا هذه الدراسات للتاكد من ثبات نتائجها .

الدراسات التجريبية للعقد :

وضع يونج مجموعة من الكلمات واستخدمها كاختبار لتداعى الكلمات . وتقتضى طريقة تطبيقها ان يقرأ كل كلمة على المفحوص ويطلب منه الاستجابة

يأول كلمة تخطر على باله . ويقيس الزمن الذى يستغرقه المفحوص فى الاستجابة لكل كلمة بواسطة ساعة ايقاف .

ولما كانت الاستثارة الانفعالية تتضمن عدة وظائف فسيولوجية ، فقد بدأ يونج فى قياس عدد من هذه الوظائف اثناء استجابة المفحوص لقائمة كلماته . فالنيموجراف المرتبط بشريط يلف حول الصدر يقيس شدة تنفس المفحوص ومدته كما يقيس السيكوجلفنومتر الذى يستخدم الكترود يوصل الجلد ، التغيرات التى تطرأ على الجلد من حيث مقاومته للتيار الكهربى ، وهى تغيرات ترجع أساسا الى التفاوت فى مقدار ما يفرزه المفحوص من عرق .

ويقترح يونج انه اذا اثارت كلمة معينة تأخرا فى زمن الاستجابة اللفظية وتغيرا ذا مغزى فى التنفس أو فى الاستجابة السيكوجلفانية فان ذلك دليل على العثور على عقدة . افترض على سبيل المثال ان كلمة غابة احدثت لدى مرأة صعوبة فى الاستجابة،وسرعة فى معدل التنفس واستجابة سيكوجلفانية واضحة ، عندئذ قد يكون من المعقول ان نفترض وجود عقدة لديها تتصل بهذه الكلمة . وبعد استجابات مماثلة لعدد من الكلمات مثل مدرسة ، جاكتة ولحية وبعد مزيد من الاستقصاء قد تكتشف ان هذه الشابة قد تعرضت لاذى من رجل ملتح يرتدى « جاكتة » غريبة بين مجموعة من الاشجار على مقربة من المدرسة التى تتعلم فيها . فاذا لم تكن قد ذكرت هذه الواقعة من قبل ، فقد نستنتج ان صدمة الواقعة استدعت مادة تتصل بنمط اولى له علاقة بهذا التهجم . ان الفزع الذى اثارته هذه الهجمة كانت من الشدة بحيث تعرضت الواقعة كلها للكبت فى اللاشعور .

وقد استخدم يونج اختبار تداعى الكلمات خلال عمله مع المرضى باعتباره طريقة سريعة للتوصل الى امارات عن عقد هامة . ويستخدم علماء النفس المعاصرون احيانا اختبارات مشابهة تساعدهم فى مواقف التشخيص الكلينيكى وقد عدلت هذه الطريقة لتستخدم للكشف عن الكذب والنشاط الاجرامى كما تستخدم أيضا فى دراسة الميول والاتجاهات .

تحليل الاحلام والمواد اللاشعورية الاخرى :

ان بحث يونج عن الشواهد التى تدعم مفهومة عن النمط الأولى أدى الى استقصاء كثير من الموضوعات المعقدة والغامضة ، بما فى ذلك علم الكيمياء القديم . ولقد وجد مرارا وتكرار فى هذه المصادر رموزا وتعبيرات مشابهة لتلك التى ظهرت فى احلام مرضاه وتخيلاتهم . وتراكم هذه الشواهد اقنع يونج بوجود افكار عامة او اشكال للتفكير توافرت لدى الناس باعتبارها نوعا من الافكار الفطرية أو باعتبارها خصائص للارث العنصرى .

لقد كانت الاحلام عند يونج شأنها عند فرويد اوضح تعبير عن العقل اللاشعورى . فالاحلام كما يرى يونج « نتاج تلقائى غير متحيز للنفس اللاشعورية وهى تظهر لنا الحقيقة الطبيعية غير مصقولة» (1943 b. p. 149) ولكن الاحلام فيما يرى يونج لاتتساوى فى فائدتها . فهناك احلام صغيرة تهتم بمسائل غير هامة نسبيا . اما الاحلام الكبيرة فهى التى تثير اهتمام يونج ، وهى تلك تحدث حين يلقى شىء اللاشعور اقلاقا خطيرا ، كثيرا ما يحدث هذا مصاحبا لاخفاق الذات فى معالجة العالم الخارجى على نحو مرضى .

والخطوة الاولى فى فهم الحلم ان نحدد سياقه . وهذا معناه الكشف عن شبكة علاقته مع الحالم وشبابه ، واكتشاف مغزى الصور المختلفة التى يعرضها الحلم . وعلى سبيل المثال قد تظهر الام فى حلم فردين ولدى كل منهما تصور عن مضامين مفهوم الام ، ولكن صورة الام قد تكون مختلفة عند كل منهما : ومغزى الصورة قد يتفاوت من وقت لآخر فقد ترتبط فكرة الام عند احدهما بالحب والرعاية والحماية ، وعند الآخر بالقوة والغضب والاحباط ، وهكذا يختلف معنى الام فى الحلم . ولابد من معالجة كل رمز او صورة حتى يتضح معناه للحالم وحتى يترسخ هذا المعنى ، ومالم يتحقق ذلك بعناية ودقة فان المرا لايكون فى وضع يمكنه من فهم معناه . ثم ينتقل بعد ذلك الى الرمز الذى يليه وهكذا . وواضح انه ليس لدى يونج طريقة ثابتة لتفسير الحلم كتلك التى نجدها عادة فى الكتب الشائعة عن الاحلام (بحيث ان من يحلم بقطة سوداء سوف يحالفه الحظ) لان كل حلم تعبير مباشر عن لاشعور الحالم ولايمكن فهمه الا فى هذا الضوء .

وسلسلة الاحلام توفر أساسا اكثر ارضاء للتفسير عما يوفره الحلم المفرد ، لان الثيمة التى يعبر عنها اللاشعور تزداد وضوحا فى احد الاحلام وتبرز الصور الهامة نتيجة لتكرارها ، وتصحح اخطاء التفسير فى أحد الاحلام بما يحتوى عليه حلمآخر .

ويمكن تفسير الاحلام على المستوى الموضوعى أو على المستوى الذاتى فى الحالة الاولى يرتبط الحلم بما يجرى فى البيئة ، ويؤخذ الاشخاص الذين ظهروا فيه على انهم حقيقة ، وتحلل علاقاتهم بالحالم وتاثيرهم فيه . وفى الحالة الثانية يعتبر الاشخاص الذين وردوا فى الحلم ممثلين لجوانب من شخصية الحالم . والظروف هى التى تؤدى الى تاكيد احد هذين التفسيرين وتغليبه على الآخر . فالمراة التى تحلم بابيها قد تكون فى حاجة الى مواجهة مشكلة ترتبط به ، وبعض جوانب علاقتها به وقد تكون فى حاجة الى مراعاة مبدأ الذكورة عندها أو الانيموس . وبصفة عامة فان الجانب الذاتى من الحلم يصبح اكثر اهمية فى المراحل المتاخرة من التحليل حين تتضح المشكلات الشخصية وتفهم .

ولبعض الاحلام مغزى اكبر من مغزاها الشخصى كحلم فرعون مصر الذى قام بتفسيره سيدنا يوسف . ومثل هذه الاحلام تكون عاده حية وتستخدم رموزا غير مفهومة ومدهشة ويصعب تتبع علاقاتها بالحالم . وهذه الاحلام يصنفها يونج فى فئة الاحلام الجماعية ولكى نفهمها ينبغى استخدام مسوات تاريخية وميثولوجية لنتبين معنى الرموز عند الآخرين وفى ازمنة اخرى . وقد يبدو غريبا لاول وهلة ان نفكر فى هذه الاحلام باعتبارها متصلة بنا وهامة لنا ، لاننا عزلنا انفسنا عن الماضى لدرجة اصبح من الصعب علينا ان ندرك ان خبرات الانسان البعيد مايزال لها معنى عندنا . ومع ذلك فان الامر ليس كذلك . فنحن مازلنا نفكر لاشعوريا كما كان يفكر اجدادنا البعيدون عنا فى الزمن ، وفهمنا لهذا يعمق خبرتنا ويوسع افقنا لنرى امكانيات جديدة . وينتج لنا الاستقرار والحيوية اللذين ينبثقان عن اكتشاف جذورنا والاتصال بهـــا .

ان الحلم عند فرويد يمثل رغبة مكبوتة ، ولكنه عند يونج جهد لتنمية الشخصية . فالأحلام تخدم عملية التفرد لانها تعوض ما هو مهمل فى النفس اى تلك الجوانب التى لم تتميز وذلك بتحديد خطط انجازات المستقبل وحل المشكلات . وللمستوى الشعورى والمستوى اللاشعورى اهمية متساوية عند الشخص السوى . وحين يكون اتجاه الشعور متفاوتا من حيث القصور والكفاية يكون الحلم تعويضيا ، ولكن حين يكون اتجاه الشخص الشعورى غير متوافق موضوعيا وذاتيا ، يقوم الحلم بوظيفة التوجيه التى تساعد العقل الشعورى على ان يضطلع بتوافقاته على نحو اكثر ارضاء .

المكانة الراهنة والتقويم :

لقد تعرض يونج للنقد بكثرة بسبب قصور فى اتساق نسقه الفكرى ، فهو لم يعرض افكاره بطريقة منطقية نسقية وكثيرا ما يستخدم تعريفات متفاوتة لنفس المصطلحات بتفاوت الأوقات . ولقد كان على وعى بهذه الصعوبة فى كتاباته ولكنه لم ير فى ذلك عيبا . واعتقد يونج انه يندر ان تتبع الحياة نمطا منطقيا متسقا متماسكا ؛ كذلك النمط الذى اصبح معيارا للكتابة العلمية والاكاديمية وان اسلوبه قد يكون اقرب الى الواقع السيكولوجى بخصوبته وتعقيده وغناه .

ولقد توصل يونج عن قصد الى وضع نسق مفتوح يتيح للمعلومات الجديدة ان تجد لها مكانا . وذلك دون ان تتعرض للتشويه . ولم يعتقد قط انه يعرف جميع الاجابات ، او ان المعارف الجديدة لن تخرج عن نظرياته وانها ستدعمها . ولقد ترتب على ذلك ان جاءت نظريته قاصرة عن كونها بناء نظريا محكما يصف جميع المعارف ويردها الى عدد محدود من التكوينات النظرية .

ان المسائل التى يدركها قارىء أعمال يونج فى وضوح ان استاذيته مذهلة فلكى يدرس نمطا اوليا واحدا يبدو وكأنه لم يترك شاردة ولا واردة الا تتبعها وقرا عنها فى المكتبات والمتاحف . وسوف يبدو للقارىء انه قرأ التاريخ القديم كله تاريخ اوروبا وافريقيا والشرق الأقصى ، وانه الم بالفلسفة وبالطب . وهو يقدم عادة قدرا هائلا من الشواهد والأدلة ليدعم

بة النمط الاولى ويصعب على القارىء ان يظل متشككا امام الأمثلة التى يسوقها . ولعل هذا هو الذى ادى الى صعوبة فهم ما يقدمه لنا يونج وقراءته ليست صعبة على تلميذ علم النفس المبتدىء فحسب بل قد تتعدى هذه الصعوبة الى المختص المتمرس . وقد يصدق القول بان نظرية يونج فى الشخصية من اكثر النظريات التى يختلف فى فهمها الدارسون ولعل القارىء يجد هذا التضارب او بعضه حين يرجع الى بعض الكتب التى تناولت نظرية يونج فى الشخصية .

ومع ذلك يرى جلوفر المحلل النفسى الانجليزى ان الانماط الاولية مفاهيم ميتافيزيقية يصعب اثبات صحتها ، وانه يمكن تفسير الظاهرات التى تنطبق عليها على نحو تام على اساس خبراتنا وانه لا حاجة الى افتراض ارث عنصرى لتفسيرها . (هو ولندزى ١٩٧٨ ص ١٤٦) .

ومن مزايا فكرة يونج عن اللاشعور الجمعى انه مفهوم مفيد فى دراسة الفن والأدب والدراما والدين والانثروبولوجيا والفلكلور واللغويات وغير ذلك من مجالات العلم والثقافة . ولقد تقبل كثير من العلماء فى هذه المجالات العلمية والادبية والفنية فكرة يونج عن اللاشعور الجمعى وطبقوها على تخصصاتهم . وعلى سبيل المثال فان هربرت ريد الناقد الفنى والمتخصص فى علم الجمال يفيد بشكل واضح فى تفسيره للأعمال الفنية من مفاهيم يونج ومذهبه . غير ان كلمة لا شعور جمعى التى تخيرها يونج قد جرت عليه نقدا عنيفا لانها كلمة غير علمية وغامضة . والمفكرون الذين لا يعترضون على التمثيلات الجمعية يرفضون فكرة اللاشعور الجمعى . والواقع ان فرويد سلم بوجود عقل ثان حين قدم لنا فكرة اللاشعور ، ويبدو ان يونج سلم بعقل ثان مختلف عن العقل الفردى الشعورى وهو عقل خارج الفرد . ولقد فسر البعض فكرة يونج عن اللاشعور الجمعى على انها نوع من العقل الكونى او الروح الفوقية ، او وحدة نفسية توجد على نحو مستقل عن عقول الافراد . وهذه الفكرة موجودة فى الفلسفات الشرقية ولكنها ليست مقبولة من العلماء الغربيين . ولعل انشغال يونج بالسحر والدين ، والتنجيم تبرز وجاهة هذا الفهم ، وعلى اية حال فان فكرة اللاشعور الجمعى باعتباره عقلا كونيا ليست اساسية لنظرية يونج . ولا اعتقد انه قصد الى هذا المعنى ،

ولو انه بطبيعة الحال وبالتاكيد عرض نفسه لهذا النقد ولهذا التفسير نتيجة لطبيعة كتاباته .

ان فكرة يونج عن اللاشعور الجمعى والانماط الاولية فكرة خلاقة ويكفى أن تتصفح أعمال يونج لتجد فيها توضيحات وصورا تثير الاهتمام ، ولو وزعت بعض هذه الصور والرسوم على مجموعة من طلاب علم النفس لتبين لك مدى ما تثير فيهم هذه الصور من حب استطلاع وما يترتب على ذلك من تساؤلات .

ونظرية يونج عن اللاشعور الجمعى مثلها فى ذلك مثل نظرية فرويد تفسر الظاهرات النفسية بعلة واحدة . ففرويد يرى أن السلوك يتحدد بالغرائز ويونج يرى أن السلوك كله يرجع الى اللاشعور الجمعى . والفرق بينهما ان اللاشعور الفردى عند شخص يشتمل على غريزتين هما الجنس والعدوان اما اللاشعور الجمعى عند يونج فيشتمل على انماط أولية كثيرة وهكذا نجد أن يونج يجمع بين ميزتين : ميزة النظرية الأحادية العلية ، وميزة التعددية لانه يعزو كثيرا من انواع الظاهرات النفسية الى سبب واحد هو اللاشعور الجمعى وبالتالى فانه يتجنب بعض عيوب النظريات الاحادية العلية لانه يبين ان العلة الواحدة تتألف من كثير من العناصر المختلفة وهى الانماط الاولية . ونظرية يونج شأنها شأن نظرية فرويد تفسر كل شىء يفعله الشخص او يفكر فيه وذلك باستخدام فكرة اساسية واحدة وهى عند يونج اللاشعور الجمعى .

والأفكار الفطرية فكرة موجودة منذ بداية الفلسفة . ويرى التجريبيون من الفلاسفة ان الطفل يولد وعقله كالصفحة البيضاء ، ويرى السلوكيون من علماء النفس هذا الراى : اى انهم يرون ان كل ما يفعله الشخص او يفكر فيه نتيجة للتعلم . وان الأفكار كلها تشتق من الخبرة . ولقد اجاب المفكرون عن السؤال الذى يتصل بكيفية بلوغ هذه الأفكار الفطرية العقل اجابات مختلفة . ونهة سؤال آخر أدى الى الخلاف بين دعاة الافكار الفطرية وهو اى الافكار يكون فطريا وايها يكون مكتسبا ؟ وهذا الخلاف يرجع الى حد كبير الى ان الفطريين طبقوا فكرة الأفكار الفطرية على مشكلات مختلفة .

فعلماء نفس الجشطلت وجدوا أن الحركة الظاهرة فكرة فطرية . وذهب بياجيه الى ان التتابع المنظم لأشكال التفكير خلال مراحل النمو فطرى . ولقد وجد يونج حين درس الاحلام والرموز والأساطير ان الانماط الاولية باللاشعور الجمعى فطرية .

ويرى جمهرة علماء النفس رغم ذيوع شهرة مدرسة الجشطلت وبياجيه ويونج أن الأفكار الفطرية مفهوم غير علمى وهو أقرب الى التأملات الفلسفية . واذا كان اللاشعور الجمعى فكرة فطرية فان هذا يزيد من تعرضه للنقد .

ولقد تناول يونج بالدراسة الدين والكيمياء القديمة والروحانيات وما شابه ذلك ، ولذلك فقد اعتبره النقاد اقرب الى المتصوفة منه الى العلماء . غير أن من يدرس كتابات يونج بعناية ودقة يجد أن اتجاهاته دائما هى اتجاهات الباحث المستقصى ، وليست اتجاهات صاحب عقيدة . ولقد رأى أن اتساق العقائد وما يرتبط بها من غيبيات هى تعبيرات هامة عن المثل العليا الانسانية والمطامح ، ولا ينبغى تجاهلها اذا اردنا أن نفهم التفكير الانسانى والسلوك الانسانى الكلى .

وكان من أهم اسهامات يونج ادراكه للأهمية السيكولوجية للرموز وتحليله التفصيلى لها وتفسيرها . ولقد اهتم بتعقد الرمزية وبالحاجة الى تحليل الرموز دون مبالغة فى التبسيط. ولقد انجذب الى الميثولوجيا والفلكلور والكيمياء القديمة لانها تمثل سياقات مختلفة تلقى الضوء على ما تتسم به الرموز من تعقيد . تلك الرموز التى اجتهد فى تحليلها .

وكان من آثار نظرية يونج فى الشخصية على علم النفس العلمى وضعه لاختبار تداعى الكلمات . ولقد استخدم فى دراساته لنتائج تطبيق هذا الاختبار المنهج الاحصائى . كما ان انماط يونج عن الانطواء والانبساط أصبحت قاسما مشتركا فى علم النفس العام . ووضعت مقاييس لقياس هذه الانماط ، فضلا عن ان بعض أصحاب نظريات العوامل فى الشخصية قد أجروا كثيرا من دراساتهم العلمية التجريبية الاحصائية على هذين النمطين (راجع ايزنك وبحوثه وبحوث تلاميذه) .

ولكن علم النفس التحليلى عند يونج لم يلق ما يستحق من اهتمام من علماء النفس ، ولعل ذلك يرجع الى أن سيكولوجية يونج تستند الى خبراته الكلينيكية اكثر مما تقوم على المنهج التجريبى . هذا فضلا عن أن اهتمامه بالغيبيات والعلوم الكشفية والتنجيم والكيمياء القديمة جعله هدفا لسهام النقاد وأدى الى عدم اهتمام النفس بفكره بالقدر الكافى .

غير اننا ينبغى ان نذكر فضل يونج فى ثلاثة مسائل لها اهميتها فى نظرية الشخصية المعاصرة . اولاها اسهامه فى مفهوم تحقيق الذات الذى شاع فى كتابات جولد شتين وروجرز والبورت وماسلو وميرفى وغيرهم . والمسألة الثانية فكرته عن النمو باعتباره تقدما من حالة كلية إجمالية الى حالة متفاضلة متمايزة الى حالة متكاملة وهى فكرة نجدها عند ميرفى . والمسألة الثالثة تميز كثير من آرائه بالتفاؤل الذى نجده عند روجرز والبورت . ولقد أدى اهتمام يونج بالسلوك الهادف الى تمهيد الطريق للنظريات الغرضية المعاصرة .

واذا كان من الصعب فهم كتابات يونج ، فاننا ينبغى أن نلتفت الى أن هذه الصعوبة ترجع الى خصوبة تفكيره . وليس من شك فى أن مرونة يونج الفكرية ، وسعة افقه العقلى واهتمامه بالحقائق العميقة عن الوجود الانسانى تجعل اعماله من حيث اتساعها وشمولها وتعقدها تحتل مكانة فريدة فى علم النفس .

الفصل الرابع

الفـرد ادلـر

ولد الفرد ادلر فى احدى ضواحى فينا بالنمسا فى السابع من فبراير ١٨٧٠ م ، لأب يشتغل بتجارة الحبوب . وقد شب ادلر فى ظروف فيزيقية مريحة ، واستطاع ان يستمتع بالحرية من العوز وبمدينة فينا وكانت مركزا من اعظم المراكز الثقافية فى اوربا ، وفضلا عن ذلك فقد كان قادرا على أن يشرك اسرته كلها فى حبه للموسيقى .

وعلى الرغم من ظروف ادلر الفيزيقية المواتية ، الا انه رأى أن طفولته كانت تعسة ؛ واعتقد انه قبيح ومرغوب عنه . وكان ترتيبه الثانى بين اخوة خمس . وكانت المنافسة بينه وبين اخيه الاكبر قاسية ، وكان الاخير رياضيا وطفلا نموذجيا . ويبدو ان أم ادلر كانت تفضل اخاه عليه ، وكان ادلـر متوافقا مع والده على نحو طيب .

ولم تكن نظرة ادلر لنفسه بغير اساس . فقد كان طفلا معتلا ضعيف البنية ؛ اصيب فى طفولته بالكساح ومات أخ له وهو فى سن الثالثة وكان الى جانبه فى فراش واحد . وبعد عام أصيب بالتهاب رئوى واشرف على الموت ؛ بل ودهمته السيارات خلال صباه المبكر مرتين فى شوارع فينا ، ولقد اقتنع نتيجة هذا كله بوجوب أن يصبح طبيبا حين يكبر . وقد ذكر عن امه انها كانت تمتاز بالسذاجة وعطف الأمومة وانوثة المراة ، شديدة العناية بأطفالها الستة . مجدة ، يغلب عليها حب الفكاهة سمحة صادقة ومع انها لم تتلق من التعليم قدرا كبيرا الا انها كانت تناهز اباه فى العقلية ؛ ومع انها لم تكن فى مثل رقته ورفقه الا انها كانت فى الواقع اكثر منه ايثـارا وتضحية . وكان ادلر يفضل اباه لغيرته من اخيه الأصغر الذى كانت تكثر امه من تدليله (اسحق رمزى : ٦٣) .

وعلى عكس ما يتوقعه المرء لقد بقى ادلر طفلا ودودا اجتماعيا يحب الناس حبا صادقا (وهى سمات احتفظ بها طيلة حياته) . ولقد استمرت تعاسته فى المدرسة حيث بدأ كطفل ضعيف وخاصة فى الرياضيات . ولقد

نصح احد معلميه اباه ان يخرجه من المدرسة لعله ينجح فى صناعة الأحذية . ومع هذا فقد استطاع ادلر بعد ذلك ان يتفوق ويصبح من افضل التلاميذ فى صفه . ثم درس أدلر علم النفس والاقتصاد السياسى والاجتماع وأتم دراسة الطب فى جامعة فينا ، وحضر فى اثنـــاء دراسته للطب جانبا من المحاضرات فى الفلسفة وعلم النفس وكان مولعا خلال دراسته بالتشريح على الأخص . ولقد تحقق طموح ادلر حين حصل على درجته الطبيـــة من جامعة فيينا عام ١٨٩٥ م . ولقد تخصص فى البداية فى طب العيون ثم اشتغل بعد ذلك طبيبا عاما ، وفى النهاية اشتغل بالطب النفسى . وبعـــد عامين من تخرجه تزوج من فتاة روسية غنية جاءت الى فينا للدراســـة . وكانت زوجته هذه امراة متحررة مسيطرة ، وهى حقيقة رآها البعض مسئولة عن مفهوم ادلر « الاحتجاج الذكرى » masculine protest

ولقد قرأ ادلر كتاب فرويد « تفسير الاحلام » وكتب مقالا يدافع فيه عن موقف فرويد النظرى وعلى اساس هذا الدفاع دعـــاه فرويد لكى يلتحق بجماعة فينا للتحليل النفسى علم ١٩٠٢ م . ولقد قبل أدلر دعـــوة فرويد وأصبح من اوائل زملائه ثم اصبح رئيســا للجمعية عام ١٩١٠ م اى قبل ان يترك هذه الجمعية رسميا بعام واحد . ويبدو الآن أن انضمامه للجماعة كان خطأ ، وذلك لان التشابه بينه وبين فرويد كان قليلا . ولقد تزايد هذا الخلاف واصبح واضحا عام ١٩١١ م وكان ما يزال رئيسا لجماعة التحليل النفسى بفينا — وقد مضى على ارتباطه بفرويد تسع سنوات — فاستقال من الجمعية . ولم يلتق الرجلان بعد ذلك قط ولقد كانت الخلافات بينه وبين فرويد عديدة الأمر الذى ادى الى الفراق والقطيعة .

وبعد أن انفصل عن الفرويديين كون ادلر مع سبعة آخرين الجماعة الحرة لتحليل النفس ، وفى عام ١٩١٢ م أطلق عليها اسم جماعة علم النفس الفـــــردى .

ولقد عمل أدلر كطبيب فى الجيش النمسـاوى خلال الحرب العالميـــة الأولى ، وبعد ان سرح طلبت اليه الحكومة ان يفتتح عددا من عيادات توجيه الأطفال فى فينا . كما كان له الفضل فى انشاء مدرسة تجريبية فى فينا

تطبق نظرياته فى التربية . وكان هذا العمل من اوائل الجهود التى بذلت لتطبيق نظريته على مشكلات تنشئة الطفل ، وعلى التربية ، وعلى مشكلات الحياة اليومية الاخرى . ولقد وجه كثيرا من كتبه ومقالاته ومحاضراته (التى تعد بالمئات) الى المعلمين والى الجمهور العام . فذاعت شهرة ادلر فى فينا واحاط به طلاب كثيرون واصدقاء ومعجبون . ولقد ضاق فرويد ذرعا بذلك وزعم وهو زعم غير صحيح ان نظرية ادلر لا تعدو أن تكون بعض المعارف فى التحليل النفسى عبر عنها بمصطلحات مختلفة .

وفى عام ١٩٢٦ زار ادلر الولايات المتحدة الامريكية لاول مرة والقى سلسلة من المحاضرات عن مذهبه فى بوسطن وشيكاغو وغيرهما من المدن الامريكية . وقوبل بحفاوة من قبل المربين وفى عام ١٩٢٧ م عين محاضرا فى جامعة كولمبيا وفى عام ١٩٣٢ استدعته كلية لونج ايلند فى نيويورك حيث انشىء له كرسى استاذ فى الطب احتفظ به حتى وفاته فى مايو ١٩٣٧ م . ولقد توفى خلال زيارته لمدينة ابردين باسكتلندا لالقاء سلسلة من محاضراته فى جامعتها .

ولقد بلغت شهرته الذروة عام ١٩٣٠ فى المؤتمر الدولى الخامس لعلم النفس الفردى الذى عقد فى برلين والذى شارك فيه ما يزيد عن الفين من المختصين . ويبدو ان هناك ذروة اخرى قد بلغها علم النفس الفردى . ويقول انسباشر Anasbacher « ان اتباع حركة ادلر يبلغون الآن عدة الوف من الاعضاء فى الولايات المتحدة الامريكية وكندا والدول الاوربية وخاصة المانيا . انها تضم اطباء نفسيين ، وعلماء نفس ، واخصائيين اجتماعيين ومرشدين نفسيين ، ومربين وكذلك اناس من الجمهور العام الذين تقبلوا نظرية علم النفس عند ادلر وطبقوا طريقته على حياة الاسرة وعلى النمو الشخصى والارتقاء » . (1977, p. 49)

ونظرية ادلر مستمرة فى النمو فى الوقت الحاضر من خلال المجلة الامريكية لعلم النفس الفردي American Journal of Individual Psychology ولقد لخص هاينز وروينا انسباشر Heinz and Rowena Ansbacher كثيرا من افكار ادلر فى مجلدين (1956, 1964) وهما احسن مصدر وحيد للمعلومات

عن علم النفس الفردى . وتمارس ابنته الكساندرا ، وابنه كيرت الطب النفسى الأدلرى فى نيويورك . ولقد كان أدلر يؤمن بقوة بأهمية توصيل أفكاره الى غير المهنيين ويعمل على ذلك ، وهو عمل يعمل على استمراره وتحقيقه رودلف ديكرز Rudolf Driekers فى الوقت الحاضر .

علم النفس الفردى :

تعتبر نظرية أدلر فى الشخصية عكس نظرية فرويد من وجوه عديدة فبينما راى فرويد الافراد فى صراع مستمر الواحد مع الآخر ومع المجتمع ، راى ادلر أنهم يبحثون عن الرفقة والانسجام . وبينما تجاهل فرويد اسئلة تتصل بمعنى الحياة وبآثار مطامح المستقبل على حياة الفرد ، جعل ادلر من هذه الاسئلة جزءا رئيسيا من نظريته . فالحياة النفسية للفرد تتحدد ... تبعا للغاية التى يتجه الفرد اليها ، وينبع ذلك من حاجة الكائن الحى للتوافق مع البيئة التى يعيش فيها .« ولهذا لا يمكن أن نتصور العقل الانسانى استاتيكيا ، بل يمكن أن نتصوره فقط مجموعة معقدة من القوى المتحركة التى تصدر مع هذا عن علة واحدة ، وتجاهد لتحقيق هدف واحد...ولا يمكن الا ان نتصور أن للحياة النفسية هدفا تتجه نحوه صنوف النشاط التى توجد فى الحياة النفسية » .

(Adler, Understanding htuman Naher, p. 19)

وبينما راى فرويد أن العقل يتألف من مكونات مختلفة كثيرا ما تكون فى صراع الواحد مع الآخر ، نظر ادلر الى العقل على انه كل متكامل يعمل للمساعدة على تحقيق المرامى المستقبلية للفرد. وهكذا فباختيار ادلر للمصطلح علم النفس الفردى لنظريته لم يقصد ان يقول ان الناس مدفوعين على نحو انانى لاشباع حوافزهم البيولوجية . بل قصد ان يقول انه على الرغم من أن الأفراد متفردين الا انهم يتميزون بانسجام داخلى وبكفاح ليتعاونوا مع زملائهم من بنى الانسان .

وترتبط نظرية ادلر بالمذهب الانسانى لانها تهتم بالعلاقات الموجبة بين الناس . كما تتصل نظريته بالوجودية لانها تهتم بأسئلة تتعلق بمعنى الوجود الانسانى . ويعتقد ادلر شأنه فى ذلك شأن الوجوديين المحدثين أن الناس

توجه نحو المستقبل،وهم احرار جزئيا على الأقل فى أن يحددوا قدرهم وهم مغنيون بمعنى الحياة .

وترتبط نظرية ادلر بسيكولوجية الجشطلت لانهـا تؤكد على الكل وليس على الأفراد . وعبارات مثل « الكل اكبر من مجموع اجـزائه » . « والتجزئة تعنى التشويه » والتى تمثل افكار علماء نفس الجشطلت عبارات يوافق عليها ادلر . وكما قيل من قبل ان ادلر لا يعتقد ان العقل مقسم الى مكونات مختلفة متصارعة بعضها مع البعض الآخر ، وانما يعتقد ان جميع جوانب الفرد تدور حول هدف مشترك ، هدف موجود فى المستقبل عليها تحقيقه وهى تعمل فى وئام مع بعضها ومع المجتمع . وواضح أن هنـاك تشابها ضئيلا بين علم النفس الفردى عند ادلر والتحليل النفسى عند فرويد.

القصور العضوى والتعويض :

ان الشعور بالقصور الذى يوحى به الى الفرد احد أعضـاء بدنه لا يصير على الدوام عاملا فعالا فى نموه النفسى . والمقصود بقصـور أحد الاعضاء عدم استكمال نموه او توقفه او عدم كفايته التشريحية او الوظيفية او عجزه عن العمل بعد المولد . ووجود الاعضـاء القاصرة يؤثر دائما فى حياة الشخص النفسية لانه يحقره فى نظر نفسه ويزيد شعوره بعدم الأمن ، ولكن هذا الشعور هو الذى يلهب الكفاح لاقرار الشخصية ويزيد مقدرة العضو القاصر على التعويض كما وكيفا .

« ان اصابة احد الاعضاء بالقصور يلزم المسالك العصبية التى تتصل به كما يلزم النشاط النفسى ببذل جهد كبير من طبيعته ان يؤدى الى تعويض تقوم به النفس فى الحالات التى يكون فيها التعويض ممكنا،وهى تلك الحالات التى تجد فيها الروابط التى تصل العضو القاصر بالعالم الخارجى تأييدا قويا من وظائف النفس العليا . فاذا كان عضو الابصار مثلا مصابا بقصور اصلى، قابلته بصيرة نفسية قوية ، واذا كان الجهاز الهضمى مصابا بالقصور ، كان مما يلازمه زيادة فى النشاط النفسى الذى يتعلق ويتصل عن قرب أو عن بعد بالطعام . فتظهر هذه الزيادة على شكل النهم او حب الكسب وجمع

المال او تشتــــتد قوة فتصل الى الادخـــــار أو التقتير والبخل » (اســــحق رمزى : ٧٣) .

أى أنه لما كان الجسم يعمل فى وحدة متكاملة فان الشخص يستطيع أن يعوض عن ضعفه ، أما بالتركيز على تنمية هذا الضعف و التخلص منه أو بالتأكيد على وظائف أخرى تعوض هذا الضعف . ومن الأمثلة المشهورة للتعويض عن نقص عضوى ديموستين الذى كان يتلعثم فى طفولته ثم اصبح من ابلغ خطباء اليونان . وتيودور روزفلت الذى كان مريضا فى طفولته ثم أصبح من خلال التدريب المستمر رجلا متين البنية .

ولقد وسع أدلر مفهوم القصور ليشمل الى جانب مشاعر القصـــور البدنى مشاعر القصور السيكولوجى والاجتماعى . وساوى بين القصـــور ونقص الرجـــولة أو الانوثة واطلق على التعـــويض عن ذلك « الاحتجاج الذكرى » ثم اتسع المفهوم ليشمل المشاعر التى تنشأ عن احساس بعدم الاتقان فى أى مجال من مجالات الحياة . فالطفل تحركه مشـــاعر النقص لكافح نحـــو مستوى اعلى من النمو والارتقاء ، وعنــدما يبلغه يبدأ فى الاحساس بالنقص مرة أخرى فتدفعه هذه الى الحركة الى الأمام . وقـــد تؤدى ملابسات كتدليل الطفل تدليلا زائدا ، أو نبذه الى ظهور عقدة القصور أو عقدة التفوق التعويضى وهما من مظاهر الشـــذوذ ؛ اما فى الظـــروف السوية فان مشاعر القصور تكون قوة دافعة لدى الفرد لتحقيق التفوق . ان الكمال وليس اللذة هو هدف الحياة (هول ولندزى : ١٦٦) .

اننا جميعا نبدأ الحياة بمشـــاعر القصـــور لاننا نعتمد كلية على الراشدين لتحقيق البقاء . ان الأطفال يشعرون بالعجز وبأنه لا حول لهم ازاء الراشدين الأقوياء الذين يعتمدون عليهم . ان هذا الشعور بالضعف والقصور والدونية يثير فى الطفل الرغبة الشديدة للبحث عن القوة وبالتالى التغلب عى مشاعر القصور أو الدونية . وعند هذه النقطة من تطور نظرية أدلر اكد على أن العدوان والقوة وسيلتان للتغلب على مشاعر القصـــور والدونية .

وبسبب الظروف الثقافية فى هذا الوقت ساوى ادلر بين القـــوة

والذكورة والضعف والانوثة . « ان أى شكل من اشكال العدوان غير المكفوف ، والنشاط والقوة والسلطة وسمات الشجاعة والحرية والغنى والعدوان أو السادية يمكن اعتبارها ذكرية . وجميع نواحى القصور والكف وكذلك الحب والطاعة والفقر والسمات المشابهة يمكن اعتبارها انثوية » .

(Adler, 1910/1956, p. 47)

وعند هذه النقطة من تطور نظرية ادلر كان معنى أن تصبح أكثر قوة ، أن تصبح اكثر ذكورة ، وترتيبها على ذلك اقل أنوثة . ولقد اشار الى كفاح الفرد ليصبح اكثر ذكورة بالاحتجاج الذكرى .

يؤمن ادلر بما كشفت عنه البحوث البيولوجية من وجود الخصائص التشريحية والعضوية للتذكير والتأنيث فى الكائن الحى الواحد . وأن الازدواج الجنسى موجود فى الناس كافة . ثم يربط ادلر ذلك بشرحه لنشوء المعانى المجردة للعالى والوطىء فى ذهن الانسان ، وأن خبرة الطفل تزيده يقينا أن الوجود فى الأوضاع الوطيئة يكون نتيجة للسقوط مما ينفره من الانخفاض ويدفع به الى الشخوص نحو الارتفاع . وتدفعه الى الربط بين الارتفاع الخالص فى المكان واشكال السيطرة المعنوية والمادية . ويتصل بذلك المقابلة بين المذكر والمؤنث فيعتبر الأول مبدأ القوة ورمز السمو ، بينما يعتبر الثانى سمة للضعف وشكلا للتصور . (وهذه فكرة خاطئة ولكنها شاعت فى الفلسفة الالمانية واثرت على فكر ادلر) . فاذا ربط الطفل بين التذكير والسيطرة ، والقوة والأهمية والخطر فى المجتمع وعلو المكانة ، وربط بين التأنيث والخضوع والضعف والهوان وضآلة الشأن وانخفاض المكانة ؛ فان المتوقع أن ينشوف الطفل ولدا كان أو بنتا أن يكون «رجلا بمعنى الكلمة» فليس « الاسترجال » أو الاحتجاج الذكرى خاصا بالرجال وحدهم بل ان كل النساء يشعرن بقصورهن عن الرجال ويتطلعن على الدوام الى السيطرة والى مثل السطوة والسيادة التى يتمتع بها الذكور فى الجماعة . ويتخذن لذلك من الاساليب المعوجة الملتوية التى تخفى تحت مظاهر الرقة والرفق والحنان سعطشا شديدا للقوة وميولا قوية للقسوة ، ولا يمكن أن تفسر الا على انها اشكال من التعويض المنكر تستهدف المثل الاعلى للرجولة .

(اسحق رمزى : ١٠٢ — ١٠٥) .

هل مشاعر التصور سيئة ؟ يجيب ادلر على هذا السؤال بالنفى فلكى تكون انسانا فى الحقيقة معناه أن تشعر بالقصور ، انها حالة عامة ومشتركة بين جميع البشر وبالتالى فانها ليست علامة من علامات الضعف والشذوذ . والحق أن هذه المشاعر هى القوة الدافعة الأولى وراء جميع الانجازات الشخصية . ويشعر الفرد بأنه دون الآخرين وبالتالى يكون مدفوعا لانجاز شىء وتحقيقه . وهناك شعور قصير بالنجاح بعد الانجاز ولكن فى ضوء انجازات الآخرين يشعر الفرد مرة اخرى بالقصور وبالتالى يكون مدفوعا لانجاز المزيد وهكذا يمضى الى غير نهاية .

وعلى الرغم من أن مشاعر القصور تعمل كمثير للنمو الموجب فانها يمكن أن تخلق العصاب . فقد تسيطر مشاعر القصور والدونية عليه ، وعند هذه النقطة تحول دون انجازه اى شىء . وفى ظل هذه الظروف تعمل مشاعر القصور كعائق بدلا من أن تعمل كمثير للانجاز الموجب . ويقال عن مثل هذا الشخص أن لديه عقدة قصور أو مركب نقص inferiority complex ووفقا لأدلر فان الناس جميعا يخبرون مشاعر القصور ولكنها تؤدى عند البعض الى اثارة العصاب وعند البعض الآخر تخلق الحاجة الى النجاح .

الكفاح فى سبيل التفوق :

ما هى الغاية النهائية التى ينزع جميع البشر الى بلوغها والتى تمنح الشخصية الثبات والوحدة ؟ ان هذه الغاية ليست العدوان وليست القوة وليست الذكورة وانما هى التفوق والاتقان . ويشير ادلر الى الكفاح فى سبيل التفوق على انه الحقيقة الاساسية للحياة وعلى الرغم من ان ادلر استبقى الكفاح للتفوق كدافع اساسى فى نظريته الا انه عدل ذلك من الكفاح لتفوق الفرد الى الكفاح لتفوق الجماعة . يقول « بدات ارى بوضوح فى كل ظاهرة سيكولوجية الكفاح فى سبيل التفوق ويسير ذلك موازيا للنمو الفيزيقى — وهو ضرورة للحياة ذاتها ... وجميع وظائفنا تتبع اتجاهه ، فهى تكافح من اجل الانتصار واليقين والزيادة سواء اكان ذلك خطأ أو صوابا . ان القوة الدافعة من الناقص الى الزائد لا تنتهى ابدا . والدافع من اسفل الى اعلى لا يتوقف مطلقا . ومهما تكن المتقدمات التى يحلم بها

فلاسفتنا واخصائيونا النفسيون — حفظ الذات ، مبدأ اللذة ، التعادل — فانها جميعا ليست الا محاولات غامضة للتعبير عن الحافـز الأعظم الى أعلى ... انه المقولة الأساسية للتفكير وبنية عقلنا ... الحقيقة الاساسية لحياتنا » (Adler, 1930, p.p. 398-399) (هول ولندزى : ١٦٤) .

ولقد تطورت نظرية أدلر من النقطة التى أكدت فيها على أهميـة التعويض عن القصور العضوى ، الى التعويض عن القصور الذاتى عن طريق العدوان والقوة ، الى أن الحقيقة الأساسية للحياة أن جميع الناس يكافحون لتحقيق التفوق والاتقان . ما أساس هذا الكفاح من أجل الاتقان ؟ يرى اثار انه فطرى وانه جزء من تكوين جميع البشر منذ الميلاد .

ويعتقد أدلر ن مشاعر القصور يمكن أن تؤدى للنمو الايجابى أو الى عقدة قصور أو مركب نقص . وقد اعتقد أدلر أن الكفاح للتفوق يمكن أن يكون نافعا أو ضارا . فاذا ركز الشخص كلية على تفوقه وتجاهل جميع حاجات الآخرين وحاجات المجتمع فقـد ينمى عقـدة أو مركب التفوق . والشخص الذى لديه مركب التفوق يميل الى أن يكون مسيطرا ، مغرورا ، متفاخرا ، وأن يحط أو يقلل من شأن الآخرين ومثل هذا الشخص وفقا لأدلر ينقصه الاهتمام الاجتماعى وهو بالضرورة غير مرغوب فيه .

أسلوب الحياة :

أسـلوب الحياة هو الذى يحدد النظام الذى تمارس به الشـخصية وظائفها ، وهو الذى يفسر لنا تفردها . ولكل شخص أسلوب حيـاة ، ولا يوجد شخصان يترسمان نفس الاسلوب فى حياتهما .

« واسـلوب الحياة يصطنعه الطفل فى سنواته القليلة الأولى ويظـل ثابتا فى خطوطه الرئيسية . فلكل فرد اذن هدف من نوع خاص يميل نحوه فى كل موقف جديد . وخصوصا عندما يواجه مشكلات الحياة الكبرى الثلاث: مشكلة حياة الاجتماع والمجتمع ومشكلة المهنة ومشكلة الحب . فاسلوب الحياة ليس مفروضا على الفرد بالوراثة ، بل يحدده الى حد كبير مركـز الأسرة التى يجد الطفل نفسه فيها . وعلى هذا شأن الطفل الناجحين جدا

من الرجال يعطلهم فقدان الأمل فى بلوغ شىء يبلغ ما وصل اليه آباؤهم ، ويحتمل ان يصطنعوا اسلوبا فى الحياة لا يستدعى مجهودات جدية والطفل لابوين فقيرين جدا — ولكن مظهره جذاب — ربما اتخذ ميلا الى التسول يظل بعد فى كل نوع من مواقفه . والطفل المدلل يتخذ هدفا له أن يكون مركز الانتباه ، والطفل المنبوذ له هدف الهروب الى مسافة آمنة ، والطفل الأكبر يميل الى حفظ ما يملك . اى يتخذ ميلا الى المحافظة ، والطفل الثانى هو منذ البداية فى الخلف من السباق ، وقد ينمى ميله الى محاولة التغلب — ويمكن أن يكون هذا الاتجاه ايضا للطفل الأصغر وان كان هو بالاحرى يحتمل أن ينمى ميل الطفل المدلل ، والطفل الوحيد الذى لم يلق تنافسا ، يفترض أن الغير سيخدمونه وانه سيحكم . ولا يعنى ادلر أن مجرد الوضع فى ترتيب الميلاد يحدد اسلوب الطفل فى الحياة ، وما يتوقعه من الحياة . . . يحتمل أن يشكله منذ البداية موقف التنافس الذى يجد نفسه فيه . ولهذا فان أدلر يؤكد تأكيدا لا يقل من فرويد ، ولكن بطريقة مغايرة جدا — مركز الأسرة من حيث هو يكون الفرد » (ودورث — كمال دسوقى : ص ٢٤٦) .

أن الفرد يخلق لنفسه هدفا متخيلا للتفوق ينبثق من احساسه بالقصور ومن كفاحه للتعويض وقبل ان يبلغ الخامسة او السادسة من عمره . ان هذا الهدف المتخيل أو الوهمى هوالذى يصبح غرضا للحياة .ومنذ ان يتخلق يحدد الشخصية ككل بما فى ذلك الاسلوب الفريد لحركته نحو الهدف . ولقد استخدم أدلر اسلوب الحياة ليشير الى خطة الحياة التى يتطلبها الهدف المتخيل . ولما كان الهدف يحدد الى اين يمضى الفرد فان اسلوب الحياة هو المسلك المعين الذى يختطه الفرد لنفسه لكى يتحرك نحو الهدف . وهكذا فان هناك اتساقا ضروريا بين الهدف المتخيل واسلوب الحياة ، ولما كان هذان المفهومان لا ينفصلان فان الوصف الكامل للهدف المتخيل سوف يشتمل على وصف وتحديد لاسلوب الحياة والوصف المفصل لاسلوب الحياة لا بد وان يشتمل على وجهة الهدف . وهكذا فان العبارة « ينبغى أن اسيطر على الآخرين باجبارهم على ان يعتنوا بى لانى مريض » تعنى أن السيطرة على الآخرين نصف الهدف ، والمرض يشير الى اسلوب تحقيق ذلك الهدف .

واسلوب الفرد الشخصى فى الحياة او اسلوبه المتفرد يكمن وراء كل

شيء يفكر فيه أو يشعر به أو يعمله . وهذا السلوك يعبر عن اسلوب حياته ومع ذلك فان هذا التعبير يشبه الى حد كبير ما يعمله الفنان الذى يرسم معنى الحياة على لوحة . فمزاج الفنان وتفكيره ينبغى استنتاجهما من سلوكه (1931, p.p. 57-58) وبالمثل فان اتجاه الفرد نحو الحياة ينبغى أن يخمن ويستنتج من سلوكه . ويمكن تحديد خصائص اسلوب الحياة على نحو غامض فى معظم المواقف ولكنه يتخذ شكلا محددا حين يتعرض الفرد لضغوط شديدة فى الحياة : أى حين يواجه مشكلة فى حياته .

ولما كان كل اسلوب من أساليب الحياة فريد بالنسبة للفرد اللذى أوجده، فانه يصعب تصنيفه وفق أنماط وطرز ، لان الأنماط تعتبر تعميمات فضفاضة جدا عن البشر . وعلى أية حال بسبب فقر اللغة ، ولان الانماط تفيد فى تدريس علم النفس الفردى فان أدلر قدم لنا نظرية الانماط مصحوبة بتحذير بأن هذه النظرية ما هى الا وسيلة لتيسير التدريس وانها لو طبقت على فرد معين فسوف تحول دون فهم أسلوبه الخاص فى الحياة .

ولقد نتجت انماط أدلر عن الربط بين الاهتمام الاجتماعى وبعد آخر هو درجة النشاط . ويقصد أدلر بدرجة النشاط مستوى الطاقة الذى يعالج به الفرد مشكلات الحياة ، ذلك أن هذا المستوى قد يتفاوت من التراخى الى التردد الى العراك مع الآخرين . والأنماط الثلاثة الاولى هى : المسيطر والمتلقى والمتجنب وينقصهم جميعا الاهتمام الاجتماعى ولكنهم يختلفون فى درجة نشاطهم والنمط الرابع هو الرجل الطيب الذى لديه اهتمام اجتماعى ودرجة عالية من النشاط .

فالنمط المسيطر يتميز بنشاط عال واهتمام اجتماعى منخفض ، وهو نشط بطريقة غير اجتماعية . ومن امثلة ذلك النمط الولد الذى يريد أن يكون قبطانا لسفينة بحيث يأمر الآخرين ويسيطر عليهم . وفى حالات متطرفة بدرجة اكبر نجد المهاجم أو المغير القادر على القسوة والوحشية ويدخل فى هذا النمط القتلة والمغتصبون وغيرهم ممن يقدرون على ارتكاب الجرائم ضد الأشخاص . وبلغة ابتراط فان هذا هو النمط الصفراوى .

وحين يرتبط انخفاض الاهتمام الاجتماعى بدرجة معتدلة من النشاط

يظهر لدينا النمط المتلقى ، انه لا يسهم بشىء ولكنه يستجدى للحصول على كل شىء. وبسبب انخفاض الاهتمام الاجتماعى ينقصه الاصدقاء الحقيقيون. ولا يتوافر لدى الفرد من هذا النمط طاقة يواجه بها مشكلات الحياة ولذلك يحاول أن يعتمد على الآخرين للحصول على الدعم . ان هذا النمط يشبه النمط البلغمى .

والنمط المتجنب لا يتوافر لديه اهتمام اجتماعى ولا نشاط يكفى ليشارك فى أى مسلك من مسالك الحياة . أن هدف التفوق عنده معناه أن ينجح فى تجنب جميع المشكلات ، وهو لا يعرض نفسه لادنى المخاطرات ، وهكذا يتجنب الفشل . ان هذا النمط يشبه النمط السوداوى .

والنمط الرابع يتميز بقدر عال من الاهتمام الاجتماعى ، وبدرجة من النشاط تسفر عن شجاعة فى معالجة مشكلات الحياة بطريقة نافعة من الناحية الاجتماعية . ويتجه نشاطه نحو التعاون فى الاسهام فى خدمة الصالح العام . انه الانسان الطيب أو الخير الذى يجد متعة فى الحياة وسعادة فى العطاء . انه دموى المزاج كما يقول أبقراط .

الأهداف النهائية الوهمية :

لا يمكن أن تتكون الشخصية وتنمو ما لم تتجه النفس الانسانية فى نشاطها اتجاها نمائيا ، لان الغاية التى ينشط الشخص لتحقيقها عامل حاسم فى توجيهه . والغائية التى تميز السلوك النفسى تحدد لمختلف ضروب النشاط الارادى وغير الارادى سبلا معينة ينبغى ان تسير فيها حتى تبلغ الهدف الذى عين لها . يقول ادلر : « اننا لو نظرنا الى الأمر عن كثب ، لوجدنا أن القانون الآتى يتحكم فى سير كل الأمور النفسية : وهو اننا لا نستطيع أن نفكر أو نشعر أو نعمل دون ادراك لهدف ما . اذ لا تكفى ، حينذاك كل قوانين العلية فى العالم لقهر عماء المستقبل ، أو للتغلب على ضربنا فى الحياة على غير هدى . ذلك الضرب الذى نقع فريسة له عندئذ ، فيبقى كل فعل فى مرتبة المحاولات التى لا ضابط لها ، ونعجز عن الحصول على ذلك الاتصال الواضح فى حياتنا النفسية ، كما نبقى دون ان تتكامل

شخصياتنا حتى لنتشبه فى كل مظاهر البدن وفى كل لمحة شخصية تلك الكائنات التى تعتبر فى مرحلة الأميبا » .

(Adler the Theory & Practice of Individual Pychology, Kegan Paul, London 1927, p. 3)

كتب هانز فيهنجر H. Vaihinger كتابا سماه The Philosophy of "As If فلسفة كأن . وأبرز فيه أن التفكير غاية فى ذاته بعد أن كان وسيلة للعمل ؛ وأصبح يعالج من المسائل مالا قبل له بحلها ؛ لان كثيرا من الأفكار ليس فى الحقيقة الا نوعا من الأوهام يضعها العقل ليستعين بها على حل المشكلات حلا لا يستند على الواقع لانه يقوم على تلك الأوهام التى اختلقها العقل اختلاقا (رمزى : ٩١) ويعتقد فيهنجر أن حياة الأفراد تسترشد بتلك الاوهام التى خلقوها لتضفى على الحياة مغزى ونظاما . وعلى الرغم من عدم وجود ما يقابل تلك الأفكار فى دنيا الواقع الا انها مفيدة للانسان الذى يحاول ان يتصدى لمشكلات الوجود ويعالجها . ومن الأفكار الوهمية ان يحدث الانسان نفسه قائلا : « عندما اكسب قدرا كافيا من المال ساكون سعيدا » . « اذا حصلت على الدكتوراه فان كل شىء بعد ذلك سيكون ميسرا كما اريد » .

ولقد تبنى ادلر هذه الفكرة واعتبرها جزءا هاما من نظريته . لقد اعتبر الغائية الوهمية هى المبدأ الموحد للشخصية . فكل ما يقوله الشخص وما يفعله يتصل بالهدف الوهمى النهائى . ولقد اصبح المستقبل بالنسبة لادلر اكثر اهمية من الماضى لفهم السلوك . ولقد شعر أدلر ان هذه الفكرة عن الغائية الوهمية حررت نظريته من الحتمية التى تميز نظرية فرويد .

ولقد أطلق على الغائية الوهمية فيما بعد الذات المثالية الموجهة a guiding self - ideal . وهذا المفهوم أعطى لنظرية ادلر مكونا مستقبليا وذو اتجاه له متجاوز للماضى نفسه . والآن نستطيع ان نتصور الانسان مدفوعا بمشاعر القصور أو متجها نحو الكمال مستخدما اسلوبه الفريد فى الحياة كوسيلة لتحقيق هدف أو غاية مستقبلية .

ولقد أكد ادلر على أن هذه الرؤى المستقبلية او المثل اوهاما مريحة

وضعت لكى تجعل الحياة اكثر مغزى مما لو لم تكن موجودة . والأصحاء يغيرون من هذه الأفكار حين تقتضى الظروف ذلك ، أما العصابيون فانهم يتمسكون بأوهامهم مهما كان الثمن. وبعبارة أخرى فان الاصحاء يستخدمون المرامى المتخيلة يعالجون بها مواقف الحياة . والحياة بغير معنى لا يمكن تحملها ولذلك يضفون عليها معنى . وتصبح الحياة فوضى ما لم تكن لهـا خطة ولذلك يبتكر الأفراد مثل هذه الخطة وتكون هذه المرامى والافكار أو الخطط بالنسبة للاصحاء وسائل لكى يعيشوا حياة اكثر فاعلية ، حياة بناءة بدرجة اكبر ، أما بالنسبة للعصابى فتصبح غايات فى ذاتها بدلا من أن تكون وسائل لغايات . ولهذا فانه يحتفظ بها حتى حين يثبت عدم فاعليتها فى معالجة الواقع . وهكذا فان الفرق بين السوى والعصابى هو فرق فى سهولة التخلص من خطة الحياة المتوهمة أو المتخيلة اذا سوغت الظروف ذلك . أن السوى لا يغرب عن نظره الواقع ، أما العصابى فخطة الحيـاة الوهمية تصبح واقعا وحقيقة .

فالفرد لا يبتكر اسلوبا فى الحياة فحسب بل يبتكر مرمى أو هـدفا نهائيا يتوجه لتحقيقه بهذا الاسلوب . وهذا الابتكار يتضمن قدرا كبيرا من الحرية الشخصية ، وسوف نتناول هذه الفكرة عندما نعالج مفهوم الذات المبتكرة فيما بعد .

الاهتمام الاجتماعى Social Interest

فى عام ١٩١٩ وفى مقدمة الطبعة الثانية من كتابه «الجبلة العصابية» The neurotic Constition قدم ادلر لاول مرة فى ايجاز مفهوم الاهتمام الاجتماعى الذى اصبح مبدأ من مبادىء علم النفس الفردى الاساسية . (ان ما عناه بالاهتمام الاجتماعى شىء شبيه بالتوحد مع المجتمع) وكانت الحرب العالمية الأولى بالنسبة لادلر عملا شيطانيا واطلاقا لعنان الحوافز التى خانت الاهتمام الاجتماعى بالنسانية وخنقته . ولقد عبر عن اعتقاده بأن الطبيعة الانسانية سوف توجه طاقاتها نحو الاهتمام الاجتماعى البناء . ولقد اكد فيما بعد على أن الاهتمام الاجتماعى لا يمكن توقعه من ضعاف العقول لان الذكاء والابتكار ضروريان لتنميته . والاهتمام الاجتماعى عنـد العصابيين

والذهانيين أو المجرمين يكون عند حده الادنى ، أو غير موجود . وكدليل اضافى على طبيعة الاهتمام الاجتماعى يشير ادلر الى الاتكال المتبادل بين الأم وطفلها ، وكلاهما فى حاجة الى الحب ، وبينما يشبع الوليد جوعه فانه يخفف ما تشعر به الأم من توتر بسبب امتلاء ثدييها باللبن ، وهذا مثال لطريقة نشوء الاهتمام الاجتماعى ، ولقد كان مفهوم أدلر عن العلاقة بين الام والطفل مختلفا عن مفهوم فرويد الذى وصف هذه العلاقة باعتبارها قائمة جزئيا على دوافع فمية عدوانية .

المشكلات الثلاث الأساسية فى الحياة :

يبين ادلر فى كتابه Understanding of Human Nature 1927 « فهم الطبيعة الانسانية » ان اختيار الطفل لما يريد أن يكون عليه يكشف عمن اثر فيه وما اثر فيه بأكبر درجة حتى بلوغه هذه المرحلة وقد اعتبر أن من العلامات الخطرة أن يستمر المراهق بعد سن الثالثة عشرة مصرا على أن ليس لديه فكرة عما يريد أن يكون عليه . ان هذا قد يعنى عدم ميل الفرد الى ان يصبح عضوا نافعا فى المجتمع .

ولما كانت المشكلة الثانية اجتماعية : فان علم النفس الفردى يدخل ضمن علم النفس الاجتماعى . ولقد اكد ادلر خلال كتاباته كلها على ان الوظائف الانسانية تنمو وتتطور فى اطار علاقتنا برفاقنا من البشر وكتعبير عن هذه العلاقة ، فالتخاطب او الكلام على سبيل المثال ينمو كتعبير عن جهادنا للتواصل والتفاهم احدنا مع الآخر على افضل نحو . ونتيجة لذلك فان اضطرابات النطق عند الأطفال والراشدين كثيرا ما تعبر عن وجود حواجز او عوائق تضر بالعلاقات الانسانية . (Alexandra Adler, p. 58-59,

أما المشكلة الثالثة فهى الزواج ويرى أدلر : « ان الحب وما ينتهى اليه من سبيل الى زواج هو أقوى عاطفة وأعمقها تدفع بالمرء الى شريك فى الحياة من الجنس الآخر قرينة لتلك الحاجة الجنسية وحب المحبة والرغبة فى انجاب النسل ومن السهل أن نرى أن الحب والزواج جانب من التعاون لا يعود بجزيل النفع على اثنين من الناس فحسب بل على الناس أجمعين .

وصلاحية المرء للزواج مرهونة بشجاعته وثقته بنفسه وتوفره على عمل ومهارته فيه . والناس قد الفوا ان يعملوا فرادى أو جماعات وخبرتهم قليلة بالعمل ازواجا . فاذا قسم على اثنين من الناس أن يعيشا معا وجب أن يؤثر الواحد منهما الآخر على نفسه ، وان يسود بينهما روح العطف والمساواة لان احدا من الناس لا يطيق أن يوضع موضعا دون غيره . (اسحق رمزى : ١٥٦ — ١٥٧) .

الذات الخلاقة The Creative Self

ان مفهوم الذات الخلاقة عند ادلر هو المحرك الأول والسبب الأول لكل ما هو انسانى .

ولقد اراد ادلر أن يقول باستخدام هذا المفهوم أن الانسان ليس مجرد متلق سلبى للمؤثرات الوراثية والبيئة وذلك لان كل رد حر فى ان يؤثر فى هذه المؤثرات وأن يجمع بينها وفق ما يراه ملائما . وهكذا فانه لا يوجد اثنان متشابهان حتى ولو كانت مكونات شخصياتهما متشابهة . ولقد راينا أن بعض من لديهم قصور عضوى يعوضون عنه ويصبحون ذوى نفع اجتماعى، بينما يكون آخرون عقدة قصور ولا ينجزون شيئا . والفرق بين هذين بالنسبة لادلر هو مسألة اختيار . وهكذا توفر البيئة والوراثة المواد الخام التى منها تتشكل الشخصية . بواسطة الذات الخلاقة . ووفق ما يراه ادلر : « أن الوراثة والبيئة يتيحان للفرد المادة التى يستخدمها بطريقته المبتكرة لكى ينمى ويشكل اتجاهه نحو الحياة . انها طريقته الفردية فى استخدام مادة البناء — اتجاهه نحو الحياة — التى تحدد علاقته بالعالم الخارجى »
(1935/1956. p. 206)

ان فكرة اختيار الانسان لمصيره تتسق مع الفلسفة الوجودية ومع هذا المكون من نظرية ادلر فان الشخص السليم يتخير اسلوب الحياة والهدف النهائى الذى يتفق مع مثل المجتمع . ويلاحظ هنا اختلاف أساسى مع فرويد، الذى شعر أن السلوك الانسانى يتحدد كلية فى ضوء المؤثرات البيولوجية والبيئية وان الفرد ليس بأى حال حرا .

ولقد كان أدلر أول صاحب نظرية فى الشخصية نادى بأن السلوك الانسانى ليس محتوما كلية . لقد أصر على أن كل فرد حر فى تحديد حياته. وبعبارة اخرى فان الحياة وفقا لادلر معرضة لتفسيرات كثيرة ممكنة ، وأن الامر متروك للفرد ليتخير أكثرها فاعلية وأكثرها جلبا للراحة . وسوف يتاح لكل فرد موروثا بيولوجيا معينا وعددا كبيرا من الخبرات الماضية ، ولكن الذات الخلاقة هى التى تعمل عملها فى هذه المتغيرات وتفسيرها وهذا هو ما تحدده شخصية الفرد . لقد اتضح أن مفهوم أدلر مفهوم ملهم لانه شاع بين أصحاب نظريات الشخصية المحدثين .

مواقف الطفولة :

ولقد أكد ادلر على أن الحالة الجسمية والعقلية للوليد هى عجز تام . فعجزه ظاهر بحيث لا يستطيع البقاء ما لم يتوافر لدى الوالدين مشاعر الاهتمام الاجتماعى . وبالاضافة الى هذا القصور العام ، فان لدى كل طفل قصورا فى أعضاء معينة وقصورا وراثيا فى قدراته . هذا فضلا عن ان الوليد يتلقى انطباعات معينة من بيئته بعضها موات وبعضها غير موات . وعلى أية حال فان أدلر اعتبر أن من الاخطاء الجسام أن نفترض ان نواحى العجز العام أو النوعية فى نواحى القدرة وأن انطباعات الطفل الأولى تحدد حياته . فليست حياته الأولى هى التى تحدد شخصيته ، وليست هذه الخبرة أو تلك هى التى تسبب افعاله وانما تفسيره لها . وما أن يبلغ الطفل الخامسة من عمره ، الا ويكون من خلال قواه المبتكرة قد عثر على المعنى الذى يضفيه على حياته وعلاقاته بالعالم ، ويقرر الطفل كيف يستخدم جبلته المميزة وانطباعاته المبكرة . ان الطفل هو الذى يحدد هدفه الوهمى ، واسلوب الحياة الذى يؤدى اليه . وبعد هذه النقطة فى الحياة تختفى حرية الاختيار ؛ لانه بعد التوصل الى هذا التحديد يحدد الهدف الوهمى واسلوب الحياة كل فكرة يفكر فيها الفرد وكل شعور يشعر به وكل فعل يقوم به .

وبصفة عامة فان أمام الطفل طريقان ممكنان للنمو والارتقاء أحدهما فى الجانب النافع فى الحياة ، والآخر فى الجانب الذى لا فائدة فيه من الناحية الاجتماعية . ومتطلبات الحركة فى الجانب النافع اهتمام اجتماعى

ودرجة عالية من النشاط والاهتمام الاجتماعى يزود الطفل برغبته فى العمل مع الآخرين بطريقة تعاونية والشجاعة فى مواجهة ثلاث مشكلات فى الحياة والاخفاق فى تنمية اهتمام اجتماعى كاف يؤدى لا محالة الى الاخفاق فى الحياة . وعمل الأم ان توقظ فى الطفل الشعور الاجتماعى ، وان تدربه لكى يوجه هذا الشعور نحو ابيه واخوته وفى النهاية نحو جميع الناس . ان هذا العمل يتطلب ان تكون الأم قادرة على التعاون مع طفلها . وتتحدد درجة نجاحها فى ضوء ما اذا كان هدف الطفل موجه نحو التفوق الصالح لزملائه أو نحو التفوق الآثر او الأنانى على الآخرين .

ان تكوين الشخصية يحدد الذات ، اى انها لا تتحدد نتيجة للموقف الذى يجد الطفل نفسه فيه وانما تتحدد بتفسيره لهذا الموقف وبطريقة استخدامه له . والحق أن الموقف لا يعمل كسبب وعلة ولكنه يحدد مجموعة من الاحتمالات المعينة للنتيجة المتوقعة . والمواقف الثلاثة التى حددها ادلر (1931, p.p. 14-19) والتى يحتمل بدرجة كبيرة ان تكون نتائجها غير مواتية هى : القصور العضوى الحاد ، والتدليل والاهمال . فالقصور العضوى كضعف البصر او السمع أو عدم قيام الجهاز الهضمى بوظائفه على نحو سليم ، أو قلب ضعيف يلقى بعبء اضافى على كاهل الطفل . انه يزيد من شعوره بالقصور فوق المستوى العام ، ويمده بعذر عن عدم كونه شجاعا، ويزوده بسلاح جاهز يتغلب به على الآخرين. والموقف الطفلى الثانى التعس هو التدليل لانه يهيىء المسرح للطفل بحيث يقوم بتفسيرات خاطئة للحياة ، ان الطفل المدلل يتعلم ان يضع نفسه فوق الآخرين ، وأن يتوقع اشباعا مباشرا لرغباته ، وان يشعر بأن من حقه ان يكون مركزا لهذا العالم .

وملاحظة الطفل المدلل المتعلق بأمه قد ادت الى نشوء فكرة خاطئة والتى أطلق عليها فرويد عقدة أوديب . ولقد رأى ادلر انه ليس هناك حاجة الى افتراض أوهام مثل سفاح القربى والرغبة اللاشعورية فى الموت لكى نشرح هذه الظاهرة . فمحاولات الاستحواذ على الام هى ببساطة افعال طفل مدلل يريد أن يجعل انتباه أمه قاصرا عليه وخاصا به وحده ولما كان الأب [illegible] لأن يظهر مشاعر رقيقة نحو ابنته كما يفعل سواها نحو [illegible]

والفتيات ... فهناك احتمال فى أن يفسد ابنته بالتدليل وهو أقوى مما نتوقع فى هذا الأمر عادة (1933,p. 222)

والموقف الثالث الذى يزيد من احتمال تفسير الحياة تفسيرا خاطئا هو أن ينشأ الطفل مهملا . ان هذا يشب فى بيئة معادية تزيد من مشاعره بعدم الجدوى وتعوق امكانيات التعاون لديه .

وهناك طريقة اخرى صنف أدلر على أساسها مواقف الطفولة وذلك ببيانه لمزايا وعيوب ترتيب ميلاد الطفل فى الأسرة . وترتيب الميلاد من المواقف الهامة التى تحدد احتمالات معينة لنتائج متوقعة . وعلى أية حال فان القدرة الابداعية للطفل هى التى تحدد بالفعل الطريقة التى بها يشكل المواقف الشخصية .

ان الطفل الأول يحتل المركز المفضل للأسرة بعض الوقت . انه فى مركز الانتباه والمحتمل أن يفسده التدليل . وفجأة يولد أخ أو أخت له فتنحيه عن عرشه وتبعده عن مركز الاهتمام ويعطى دورا ثانويا . وهذا الموقف ييسر للطفل الأكبر أن يرى العالم مليئا بأناس من الممكن أن يغتصبوا قوته . والموقف الطبيعى بالنسبة له أن يحارب أمه ومنافسه والعالم . والنتيجة المتوقعة سوف تكون مختلفة اذا درب الابن الأكبر على التعاون ، لانه عندئذ سوف يقوم بمسئولية أسرية أكبر ويصبح حاميا للضعيف والعاجز وسوف يصبح حتا المحافظ على اخيه أو أخته .

وموقف الطفل الثانى يتميز بأن له أخا أكبر ومن المهم بالنسبة له أولا أن يشارك طفلا آخر فى الانتباه والاهتمام . والكثير يتوقف بطبيعة الحال على ما اذا كان الابن الأكبر عدوانيا نحوه أو درب لكى يتعاون معه . والنتيجة الثانية المترتبة على وجود أخ أكبر ، أن لديه شخصا يحدد معدل خطوه ، شخصا يجعله يسلك كما لو كان فى سباق مستمر .

وموقف الطفل الأصغر هو انه لن يحل محله من المؤخرة أحد ، ويتقدمه طفلان أو أكثر يحددون سرعة الخطو . وقد يقاسى من مخاطر التدليل ، الا انه أيضا قد يقبل التحدى ويعمل على التفوق على من يكبرونه .

والطفل الوحيد يغلب أن يلقى التدليل من أمه ، واذا حدث هذا فانه سوف يدخل على نحو آلى فى تنافس مع أبيه ويصبح مرتبطا بأمه ويرى أباه عدوا له . وموقف الطفل الوحيد هو موقف الطفل المدلل .

وهذه الخطوط التمهيدية تتشكل بعوامل لا حصر لها كجنس الطفل ، والفروق بين اعمار الأبناء ، وتاثير الأشخاص الآخرين وشخصية الوالدين. ولم يعزو ادلر هذه الخصائص الى ميلاد الطفل فى ترتيب معين بل الى الموقف الذى يحتمل أن يرتبط بهذا الترتيب . ومرة اخرى ان الموقف فى ذاته لا يحقق هذا التاثير أو ذاك وانما الذى يحقق ذلك هو المعنى الذى يضفيه الطفل على الموقف .

العلاج النفسى :

يتصف الأفراد الأصحاء باهتمامات اجتماعية نامية . والافراد ذوو الاساليب الحياتية الخاطئة يميلون الى التمسك بها لان هذه الاساليب تحافظ على ذاتها . ويميل اسلوب الحياة الى أن يركز على طريقة معينة للنظر الى الأشياء.وهذا الاسلوب فى الادراك يستمر ما لم يواجه الشخص مشكلات اساسية ، أو ما لم يجد مساعدة لكى يفهم اسلوبه عن طريق التربية أو العلاج النفسى .

« ان علم النفس الفردى يعتبر جوهر العلاج فى خلق الوعى لدى المريض بنقص فى قوته التعاونية ، وفى اقناعه بوجود اصل هذا النقص فى عدم توافقاته فى الطفولة المبكرة . وما يحدث خلال هذه العملية ليس مسالة بسيطة ذلك ان قدرته على التعاون تتحسن من خلال تعاونه مع الطبيب . وسوف يكتشف أن مركب القصور خاطىء ، وسوف تصحو فيه الشجاعة ويظهر التفاؤل ، ويشرق معنى الحياة مما يعنى انه ينبغى عليه أن يعطى للحياة المعنى الصحيح » (Adler, 1930, n.p. 404)

وبتحليل ترتيب ميلاد الفرد فى الاسرة ، وذكرياته الأولى واحلامه وخصائص سلوكه المميزة يتتبع علماء النفس الفردى نمو الفرد وبزوغ اسلوب الحياة الخاطىء ذلك الذى يتطلب العلاج لان هذا الاسلوب غير فعال فى

تناول مشكلات الحياة . أى أن المعالج يبحث مع المريض فى اسلوب حياة جديد يتضمن الاهتمام الاجتماعى وبالتالى يكون أكثر وظيفية .

« وفى دراسة الفرد المريض وتحليله يكون العمل الرئيسى هو الكشف عن اسلوب حياته . والهدف القريب للتعالى الذى تصب نفسه له طفلا وما يزال يتبعه فى صورة أو اخرى . ومركز الفرد فى أسرته يعطى الأثر العام . فما يجب وما يكره وأبطاله فى التاريخ والخرافة ، وما يختاره أولا ومن بعد مهنة فى حياته كل هذه تعطى اثرا . وطريقته فى الوقوف والمشى والجلوس ربما أظهرت ميولا جوهرية . وقبل ذلك طريقته فى المصافحة ، بل والوضع الذى يتخذه أثناء النوم » . فعندما ترى شخصا ينام على ظهره متمددا كالجندى فى الانتباه ، كان ذلك دليلا على انه يريد أن يبدو عظيما بقدر ما يستطيع ، والذى يرقد منحنيا كالقنفذ والملاءة ملتفة على رأسه ، ليس من المحتمل أن يكون مناضلا أو متصفا بشجاعة ... والشخص الذى ينام على معدته (بطنه) يكشف العناء والسلبية. فاسلوب الحياة يظهر فى كل موضع وان كان المرء قد يتصور أن مثل هذه المماثلات اليسيرة ربما تؤدى بالمحلل غالبا الى الشطط . فعالم النفس الفردى فى المعمل لا شك أنه يقيم نتائجه فى نظرة شاملة لالوان كثيرة من السلوك » (ودورث : ٢٤٧) .

« وحقيقتا فرويد الأوليتان ، المقاومة والتحول يواجهها أيضا أدلر ومدرسته فى علاجهم للمصابين بأمراض عصابية ، ولكنهماتفسران على نحو لا فرويدى . والمقاومة ترى — لا بوضعها ممانعة لا شعورية لظهور رغبات مكبوتة قديمة — بل كدفاع ضد العلاج ذاته — المريض يخشى ان يشفى لأنه اذا شفى سيقوم بأعمال ربما فشل فيها ! ومثل ذلك التحول : فاذا وقع المريض فى حب مع الطبيب ؛ فليس ذلك حبا حقيقيا ؛ بل مجرد وسيلة للتفوق عليه ؛ وبوجه عام فالشعور واللاشعور ليسا كائنين منفصلين . أو شطرين متصارعين فى الفرد ولكنهما يرتبطان معا بما لهما من رغبات وميول بعينها . ومركب النقص اللاشعورى والشعورى الباحثان عن القوة يكونان وحدة دينامية . فلسنا فى حاجة الى « كائنات متحاربة » نفترضها على حد تعبير أدلر » (ودورث : ٢٤٨ — ٢٤٩) .

البحوث العلمية والطرق :

ان الأفكار التى قدمها أدلر فيما يتصل بأساليب الحياة ، وبالاهداف النهائية الوهمية وبالسمات تبلغ من الوضوح حدا يجعل قيام البحث العلمى وتناوله لها له معنى . ولعل علم النفس الفردى لم يلق حظا من الشيوع بحيث يستحوذ على اهتمام الباحثين بالقدر الكافى ، غير ان هنـــاك بعض الاستثناءات ومن أهمها ترتيب الميلاد وهو محدد هام من محددات اسلوب الحياة ، وقد كان البحث الذى قام به شاكتر Schachter عام ١٩٥٩ عن ترتيب الميلاد والميل الى الانضمام الى الجماعات عند الاناث نقطـــة بداية لفيض من البحوث التى ترتبط بهذا الموضوع .

وقد لاحظ شاكتر أنه فى ظل الظروف الضاغطة تميل طالبات الجامعة — ممن شغلن المرتبة الأولى بين اخوتهن من حيث الميلاد — الى مصاحبة الأخريات بينما اتجهت الطالبات اللاتى جاء ترتيب ميلادهن فى أسرهن فى المرتبة الثانية الى الانسحاب والتقوقع . ولقد قدم لنا شاهدا على ان تفضيل المجموعة الأولى للصحبة والمجموعة الثانية للانسحاب ساعد على فهم انماط سلوكية منوعة مثل فاعلية الطيارين فى المعـــارك ، والادمان على شرب الخمر . ومع ظهور هذه النتائج المثيرة للاهتمام اقبل الباحثون على دراسة هذا المجال . وبدأ البحث عن المتغيرات التى ترتبط بالطفل الأول .

ومن النتائج الملفتة للنظر فيما يتصل بالدراسة بالجامعة ان شاكتر انتهى عام ١٩٦٣ بعد مراجعته للدراسات السـابقة الى ان الطفل الاكبر يغلب ان يصبح بارزا عن الطفل المتاخر فى الميلاد ، وسرعان ما اتضح ان ما بين ٥٠ الى ٦٥٪ من المجتمع الطلابى فى كثير من الكليات فى الولايات المتحدة فى جامعة كولمبيا وكلية دارتموث وجامعة ولاية كانساس وكلية ريد وجامعة فلوريدا وغيرها اطفال اول فى اسرهم . وهذه النسب اكبر ممـا يتوقع على اساس الصدفة وحدها . وهذه النتيجة تدعم اعتقاد ادلر ان الطفل الأول طموح .

غير انه لا يوجد دليل علمى يوثق به يدل على ان الطفــل الأول فى المتوسط يتفوق على الطفل المتاخر من حيث متوسط درجات التحصيل فى

الجامعة . ولم يجد كامبل (1933) Campbell فروقا بين هاتين المجموعتين في التحصيل ، غير أن بيرس (1959) Pierce ، والدر (1962) Elder وشاكتر (1963) وجدوا أن الأطفال الأول من حيث ترتيب ميلادهم في الاسرة يحصلون على معدلات في التحصيل أعلى من الأطفال المتأخرين . وفي ضوء الشواهد العامة المتوافرة والتي تدل على أن الأسر تتطلب من الطفل الأول وتتوقع توقعات أكبر مما تفعل مع أطفالها الآخرين ، وتتوقع منهم أن يصلوا الى مستويات أعلى ، يبدو من المعقول أن يؤدى هذا الى أن تلتحق نسبة أكبر من المجموعة الأولى بالجامعة سواء ارتبط ذلك بحصولهم على درجات أعلى ممن يجيئون بعدهم في الترتيب الولادى أم لم يرتبط بذلك .

ولكن طموح الأطفال الذين احتلوا المرتبة الأولى في الاسرة لا يعني أنهم يتميزون بالاستقلال . ولقد وجد سيرز Sears عام ١٩٢٠ وشاكتر عام ١٩٦٤ م أن هؤلاء الأطفال فعلا أكثر اتكالا على الآخرين ، وأيسر تأثرا من الذين يولدون بعد ذلك . وأن الأطفال الذين يتأخر ترتيبهم في الأسرة يجدون تقبلا أكثر من اترابهم (Sells & Roff 1963) وانهم يتميزون باتجاه أكثر استرخاء . ولقد وجد دياموند ومونز (Diamond & Munz 1967) أن الذين يجيء ترتيبهم في الميلاد متأخرا أكثر قدرة على التغلب على العوائق الاجتماعية بالانفتاح الذاتي Self - disclosure ولكن يبدو أن الاناث الأول في الأسرة من حيث رتبة الميلاد اذا توقعن تلقى صدمات كهربائية تظهر لديهن رغبة أقوى للصحبة ممن تأخر ميلادهن . وهذه النتيجة تقترح علينا أن الطموح الظاهر عند المجموعة الأولى من الأطفال تمثل رغبة في التقبل أو موافقة الآخرين أكثر من تمثيلها للنجاح . ولقد صمم رادلوف (1961) Rodloff دراسة استطاع فيها أن يقنع بعض المفحوصات من الاناث أن آراءهن تختلف عن آراء غالبية اترابهن . واتضح أن الاناث الأول من حيث ترتيب الميلاد واللاتي كن في خلاف وصراع مع اترابهن عبرن عن رغبة اقوى من زميلاتهن اللاتي اتفقن مع الاتراب في مزيد من النقاش حول الموضوع . وهذه النتيجة لم تظهر لدى المتأخرات في الميلاد من المفحوصات .

وهنك نتائج تثير الاهتمام عن العلاقة بين ترتيب الميلاد والتعرض للمرض النفسي . وعلى الرغم من ان النتيجة القائلة بأن الاطفال الأول من

حيث ترتيب الميلاد ليسوا اكثر مقاومة للتعرض للادمان على المسكرات من الأطفال الذين يولدون متأخرين (Schachter 1959) لم تثبت صحتها فى دراسة لاحقة (Smart 1963) الا أنهم فيما يبدو اكثر تعرضا لان يكونوا اطفالا مشكلين problem children وانهم اكثر قلقا ازاء المواقف الخطرة . ويبدو أن أعلى نسبة من الجانحين هى من الأبناء الذين يتوسطون اخوتهم من حيث ترتيب الميلاد . وهناك دليل غير قاطع على أن من يتأخر ميلادهم فى الأسر (على الأقل من الاناث) أكثر تعرضا للشيزوفرينيا ممن يحتلون المرتبة الأولى من حيث الميلاد . ويبدو أن آخر الأطفال اقل كفاءة من الناحية الاجتماعية بصفة عامة ، على الرغم من أن دراسات أخرى بينت انهم اكثر ابتكارا . والصورة ما تزال فى حاجة الى مزيد من البحوث لتتضح معالمها .

الاهتمام الاجتماعى :

لقد قام ورثن واوكنونل Worthen and Oconnell بدراسة من الدراسات النادرة تناولت مفهوم ادلر عن الاهتمام الاجتماعى . وعن الميل الى التعاون بدلا من التنافس وايهما يمكن تنميته عن طريق التعلم . ولقد قيس الاهتمام الاجتماعى البناء باختبار قيم وضعه الباحث الأول ؛ كما قيس تقدير روح الدعابة humor appreciation باختبار وضعه الباحث الثانى . واسفرت النتائج عن وجود معامل ارتباط بين الاهتمام الاجتماعى وتقدير روح الدعابة . وينبغى أن نتبين مدى التطابق بين المتغيرات موضع القياس وتصورات ادلر .

وحديثا قام جريفز وزميلاه Greeves, Tseng and Friedland بوضع اختبار قرطاسى يسمى مقياس الاهتمام الاجتماعى Social Interest Index لتحديد درجة الاهتمام الايجابى فى اربعة مجالات للحياة : العمل والصداقة والحب ومغزى الذات Self - significance . وعلى اساس اتفاق ثلاثة من علماء النفس الفردى البارزين تم اختيار ٣٢ بندا يجيب المفحوصون على اساس مقياس متدرج من خمس نقاط يحددون مدى الملاءمة الشخصية مع البند . ولقد اتضح ان هذه البنود لا ترتبط مع مقياس للاشتهائية الاجتماعية . وبلغت درجة الاتساق الداخلى ٨١ر . وبلغت درجة الاستقرار بعد ١٤ يوما ٧٩ر .

ولقد طبقت الأداة على ٢٢٨ من المفحوصين من الجنسين ، ووجد جريفز وزميلاه أن الاناث حصلن على درجات أعلى فى الاهتمام الاجتماعى من الذكور، وأن هذا الاهتمام يتزايد مع التقدم فى العمر ومع متوسط درجات التحصيل grade point average ولكنه لا يتصل بالمستوى الاجتماعى الاقتصادى .

وباستثناء النتيجة الخاصة بالتحصيل الدراسى تتسق هذه النتائج مع الفكر الأدلرى . ونتائج ارتباط مقياس الاهتمام الاجتماعى مع متغيرات اختبار شخصية شامل مقنن هو اختبار كاليفورنيا للشخصية مدرجة فى الجدول رقم (٤ — ١) The California Personlity Inventory

والقول بصدق المنهوم لمقياس الاهتمام الاجتماعى يستند الى وجود ارتباطات بين نتائجه ودرجات المفحوصين فى متغيرات الاشتراكية والمسئولية الاجتماعية والاحساس بالصحة والتحصيل عن طريق المسايرة . وهذا المقياس جدير بمزيد من الدراسة الامبيريقية .

جدول (١ و ٤)

يبين معاملات الارتباط بين مقياس الاهتمام الاجتماعى و ١٨ درجة لاختبار كاليفورنيا Calfornia PsychologicalT est CPT

متغيرات CPT	ر أ		ر ب		ر ج	
السيطرة	×	٠ر٣٧	×	٠ر٢٠	××	٠ر٣٥
القدرة على اكتساب المكانة	××	٠ر٢٧	××	٠ر٢٥	×	٠ر٢٦
الاجتماعية	××	٠ر٢٧	××	٠ر٢٤	××	٠ر٢٧
الحضور الاجتماعى		٠ر٠٧		٠ر٠٨		٠ر٠٨
التقبل الاجتماعى	×	٠ر١٦		٠ر٠٩	•	٠ر٢٠
الاحساس بالصحة Sense of Well being	××	٠ر٣٦	××	٠ر٢٧	××	٠ر٣٦
المسئولية	××	٠ر٣٩	××	٠ر٢٩	××	٠ر٣٢
الاجتماعية	××	٠ر٣٩	××	٠ر٣١	××	٠ر٢٨
ضبط الذات	×	٠ر١٩		٠ر١٠	×	٠ر٢٦
التسامح	××	٠ر٢٦	•	٠ر١٧	××	٠ر٢٧
الانطباع الجيد	××	٠ر٢١	•	٠ر١٤	××	٠ر٣٥
الاشتراكية	××	٠ر٤٠	××	٠ر٣٧		٠ر١٨
التحصيل عن طريق المسايرة	××	٠ر٣٥	××	٠ر٢٥	××	٠ر٣٥
التحصيل عن طريق الاستقلال	•	٠ر١٣		٠ر٠٥		٠ر١٤
الكفاءة العقلية	××	٠ر٣٣	×	٠ر٢٤	××	٠ر٣٠
Psychological mindedness		٠ر٠٩	—	٠ر٢٠	××	٠ر٣٤
المرونة	××	—٠ر٢٢	××	—٠ر٢٧	•	—٠ر١٧
الأنوثة	××	٠ر٢٩		٠ر٠٣		٠ر٠٨

حجم العينة الكلية = ٣٤٤ (أ) الذكور = ١٩٨ (ب) الاناث = ١٨٩ (ج)

• أ < .05

× أ < .01

×× أ < .001

الذكريات المبكرة :

حين كان أدلر يجمع البيانات الخاصة بالفرد استخدم الذكريات المبكرة استخداما كاملا ، كما استخدم تاريخ النمو وأهداف الفرد المستقبلية فى محاولة لفهم اتجاه الفرد الحالى نحو الحياة والاتجاه الذى حدده للمستقبل.

ان اكثر البيانات نفعا على اية حال لفهم شخصية ولفهم كيف يصل شخص نفسه بمشكلات الحياة ، هى تلك البيانات التى تيسر تفسير الى أين يمضى الشخص فى الحياة ان هدف الحياة الذى وضعه الفرد لنفسه فى الطفولة هو الذى يحدد النمط الفريد لحياته . ان الجهة التى يمضى اليها ، وليس الجهة التى جاء منها هى التى تقدم لنا مفتاحا لفهم شخصيته ، والطريقة التى يواجه بها مشكلات الحياة . ان الحياة تتطلب حل مشكلات المجتمع وهكذا فان سلوك الانسان كله يشير دائما الى المستقبل حتى حين يبنى هذا المستقبل من مادة مأخوذة أو مشتقة من الماضى .

تحليل الاحلام :

يتفق أدلر مع فرويد على اهمية الاحلام ولكنه يختلف مع تفسيره لها ، فالاحلام بالنسبة لادلر تزود الفرد بطريقة بديلة لمعالجة مشكلات الحياة . انها توفر وسيلة لتجريب حلول مختلفة للمشكلات وتخطيط للمستقبل . وبتحليل كيفية الاحلام وكيفية تخطيط وقائع المستقبل ، يمكن تعلم قدر كبير من أسلوب الشخص فى الحياة .

ولم يقبل ادلر نظرية فرويد فى الاحلام باعتبارها تمثل اشباعا لرغبات جنسية طفلية ، واكد على قصور هذه النظرية عن فهم الاحلام . ولكنه قبل تمييز فرويد بين المحتوى الظاهر والمحتوى الكامن للحلم ، واستخدم ايضا طريقة فرويد فى التداعى الحر لفهم الاحلام على الرغم من انه فعل ذلك مع تعديلها وتقييدها .

ولقد رأى ان الاحلام تدل على ان الحالم يشعر بتصوره عن حل المشكلات وهو يقظان . وهذا يوضح السبب فى أن الأصحاء ومن حسن توافقهم لا يحلمون . وقد اضاف ان الحالم قد يلقى بالغموض على مسائل

معينة بنفس الطريقة التى يتبعها الخطيب أو الكاتب حين يستخدم الرموز والمجاز اذا لم يكن فاهما للموضوع على نحو جيد . واكد أدلر على ضرورة تحقيق التكامل بين تفسير الاحلام وفهم الشخصية ككل لا أن ينظر الى الرموز باعتبار أنها قابلة للتطبيقات العامة . وهذا المدخل يفرق بين طريقته فى تفسير الاحلام وطريقة فرويد .

ولقد أظهر أدلر كيف يمكن الكشف عن معنى الاحلام بدراسة الاتجاهات والحركات التى عبر عنها فيها . وعلى سبيل المثال ، فان احلام السقوط تحدث لاناس يخافون ضياع شهرتهم بعد أن حققوا مركزا معينا . ومن ناحية أخرى فان احلام الطيران قد تحدث لدى الطموحين الذين يكافحون لتحقيق التفوق ، والذين يخشون عدم تحقيقه . واحلام الموتى قد تعنى ان الحالم ما يزال مرتبطا ارتباطا وثيقا مع شخص توفى ، كما لو أنه ما يزال حيا . والحلم بأن القطار قد فات الشخص أو أن السفينة تركته يعنى الخوف من ضياع الفرص . وقد تعنى ايضا ميلا الى تجنب الفرد لان يعرض نفسه للفضح ، أو امكانية الهزيمة اذا تأخر . واحلام الامتحانات تعنى خوفا مبالغا فيه من أن يوضع الفرد موضع الاختبار . والحلم الشائع بأن الانسان لا يرتدى الملابس اللائقة ينشأ عن الخوف من الكشف عن العيوب .

التقويم والمكانة الراهنة :

ان نظرية ادلر تلقى الآن للمرة الثانية الذيوع والانتشار ، ذلك أن عددا كبيرا من المربين والموجهين النفسيين والمعالجين يتبنونها . هذا فضلا عن اثارتها لقدر كبير من البحوث ، وخاصة عن آثار ترتيب الطفل بين أخوته على الشخصية . والحق أن عددا متزايدا من اصحاب التأثير يعتبرون اسهام أدلر فى علم النفس اعظم من اسهام فرويد نفسه .

يقول البرت اليس Albert Ellis ان الفرد ادلر حتى اكثر من فرويد يحتمل أن يكون الأب الحقيقى للعلاج النفسى الحديث . وهذه هى بعض الأسباب التى تحمل على صحة هذا الراى . لقد اسس علم نفس الآنا الذى أعاد الفرويديون اكتشافه حديثا . وكان واحدا من اوائل علماء النفس

الانسانيين ... واكد على الكل ، وعلى البحث عن الهدف ، وعلى أهمية القيم فى التفكير الانسانى وفى العاطفة الانسانية وفى الفعل الانسانى . ولقد رأى على نحو صحيح أن الدوافع الجنسية والسلوك — ولو أن لها اهمية فى المسائل الانسانية — الا انها الى حد كبير نتيجة لفلسفات الانسان غير الجنسية .

ويصعب أن نجد معالجا نفسيا هاما اليوم ليس مدينا فى جانب من الجوانب لعلم النفس الفردى عند ادلر .

وينبغى ان نشير الى انه على الرغم من ان اليس يرجع تأسيس علم نفس الآنا الى ادلر وبقدر ملحوظ من المسوغات السليمة ، الا أن هذا الفضل عادة ينسب اما الى آنا فرويد أو الى اريك اريكسون لان اريكسون فى الحقيقة فصل فى بيان وظائف الآنا اكثر من اى عالم نفس آخر سبقه . والحق أيضا ان نظرية ادلر فكت اسار الفرد من الهو ونزعاتها الغريزية وأكدت على اهمية الخبرة الشعورية وهذا يتفق مع ما سمى فيما بعد بعلم نفس الآنا .

ولقد انتشرت كثير من افكار ادلر واصبحت من مفاهيم علم النفس العام كمفهوم التعويض بسبب مشاعر القصور والدونية ، ولم يعد مرتبطا بعلم النفس الفردى . وقد حدث تطور مماثل فى مجال التربية فلقد توصل المربون بعد قدر كبير من التجريب التربوى الى الاهتمام بالمرامى التربوية ، ولقد حثل أدلر واهتم بمفهوم الاهداف فى نظريته .

الفصل الخامس

كارين هورنى

الأبنة الأولى والطفل الثانى لبرندت وكلوثلايد دانيلسون . وقد ولدت فى هامبورج فى الجزء الشمالى من المانيا فى ١٦ سبتمبر ١٨٨٥ م لاب نرويجى وأم هولندية . وكانت أسرتها بروتستانتية ، ومن مستوى اقتصادى اجتماعى جيد ومستقرة مع فارق أساسى واحد له مغزاه وهو ان والدها كان قبطانا لسفينة تجارية وكان يصحب ابنته الصغيرة فى رحلات بحرية طويلة. ولعل هذه الخبرات غير المألوفة اسهمت فى زيادة اهتمامتها بالثقافات المختلفة ولكن هذه الرحلات كانت فترات قصيرة اذا قورنت بالزمن الذى عاشته مع الاسرة مع ام واخ اكبر منها سمى باسم ابيه وكان مفضلا عند الأب .

ولقد كانت كارين دانيلسون طالبة متفوقة ، وكان من النادر فى عصرها أن تدرس فتاة الطب ، ولكنها قررت أن تتخصص فى الطب حين بلغت الثانية عشرة من عمرها بالرغم من معارضة أبيها القوية لهذه الرغبة . ولقد كان اهتمامها بدراسة نفسها سيكولوجيا واضحا حين بدأت فى كتابة يومياتها فى سن الثالثة عشرة واستمرت فى ذلك حتى تم تحليلها نفسيا بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ .

وفى سن الحادية والعشرين ذهبت الى برلين لتلتحق بمدرسة الطب. وتزوجت اوسكار هورنى — بعد ذلك بسنتين — وكان محاميا شابا فى برلين . وبعد ان حصلت على درجتها فى الطب M.D انضمت الى جمعية برلين للتحليل النفسى وذلك مع كارل ابراهام . وسرعان ما أصبحت هى نفسها محللة نفسية ثم مدربة للآخرين على التحليل النفسى فى معهد برلين للتحليل النفسى الذى تأسس عام ١٩٢٠ م . ولقد ربت ثلاث بنات أنجبتهن.

ولقد درست هورنى ومارست التحليل النفسى فى البدايات الأولى لحركة التحليل النفسى.وكان فرويد ما يزال يطور نظرياته فى القلق والحيل الدفاعية وفى اللاشعور وفى الجهاز النفسى . ولقد شاركت هورنى فى هذا بكتابة عدة مقالات لها اهميتها النظرية بما فى ذلك بعض مقالات كتبتها

عن سيكولوجية المرأة . ولقد شعرت منذ البداية فى حياتها المهنية أن الرجال لم يفهموا المرأة على النحو الصحيح .

وفى هـذا الوقت حدثت اضطرابات سياسية فى المانيـا ، وظهر استقطاب فى الحياة السياسية وبدأ الريخ الثانى تحت سيطرة قيصر فى التطور ليصبح فى النهاية حكما فاشيا . وظهرت حركة مضادة له اتجهت نحو الماركسية : ولقد اختارت كارين هورنى أن تتجه مع آخرين — اريك فروم وولهلم ريخ — نحو هذا اليسار .

وفى عام ١٩٣٢ ، وبناء على دعوة من فرانز الكسـاندر ذهبت هورنى الى الولايات المتحدة الامريكية لتصبح مديرة مساعدة لمعهد شيكاغو للتحليل النفسى . وكانت قد انفصلت عن زوجهـا قبل هجرتها الى امريكا ولكن ارتباطها بفرانز الكسـاندر لم ينجح . وبعد عامين ، أى فى عام ١٩٣٤ انتقلت هورنى الى نيويورك واستقرت لتتفرغ للعمل الكلينيكى ولتشـارك بنشاط فى جمعية نيويورك للتحليل النفسى ومعهد نيويورك للتحليل النفسـى ولتقـوم بتدريب المحللين .

وبعد عقدين من ممارسة التحليل النفسى الكلاسيكى بدأت هورنى فى تأليف كتب تنتقد فيها وجهة نظر التحليل النفسى فى النمو الانسـانى وفى طبيعة العصاب وفى اسلوب العلاج النفسى وتقدم تعديلات هامة . وعلى الرغم من انها نشرت عدة مقالات فى المانيا الا أن كتابها الأول « الشخصية العصابية فى زماننا » The Neurotic Personality of Our time ظهر فى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٣٧ ، وهو عام طلاقها ، كما ظهر كتاب « طرق جديدة فى التحليل النفسى » New Ways in Psychoanalysis عام ١٩٣٩ وهو مراجعة لنظرية فرويد نقطة بعد اخرى . وهذا العام هو العام الذى توفى فيه فرويد .

ولقد ادى نشر هذا الكتاب وانتقاداتها الواضحة لطـريقة تدريس التحليل النفسى الى اغضاب زملائها الفرويدين فاتخذوا اجراءات ضدها فى اجتماع صاخب لجمعية نيويورك للتحليل النفسى عام ١٩٤١ . وبعد التصويت انصرفت من الاجتماع ومعها مؤيدوها واستقالت من الجمعية .

وفى سبتمبر من نفس العام كونت هورنى وعشرين محللا نفسيا آخرين بجماعة تقدم التحليل النفسى

Association for Advancement of psychoanalysis

ومنذ هذه السنة وحتى نهاية حياتهـا انغمست هورنى فى صراعات سياسـية وشخصية فى عالم التحليل النفسى وشـاركت فى مناظـرات ومجادلات وكتبت مقالات وردود نشرتها مجلات المنظمتين المتنافستين . ولقد ربت اطفالها وزاولت الرسم واحتفظت بدائرة واسعة من رجـال المسرح ورجال الدين والفلاسفة والانتروبولوجيين كأصدقاء .

وبالاضافة الى مقالاتها فى التحليل النفسى الكلينيكى كتبت سلسلة من الكتب وضعت للجمهور العام ولم تكن متسقة مع ذوق زملائها الأكثر تمسكا بالفرويدية الخالصة . ولم تتناول المجلات المهنية بعض كتبها بالعرض أو النقد ، بينما لقى البعض الآخر هجوما عنيفا عندما لقى اعترافا رسـميا . ولقد استمرت هورنى فى التعبير عن افكارها ونظرياتها المتطورة الناميـة نتيجة لخبرتها الكلينيكية . ولقد ادت التقلبات الاجتماعية الاقتصادية فى المانيا والتغييرات الشخصية فى حياتها الى زيادة حساسيتها لاهميـة وتأثير العوامل الاجتماعية فى الشخصية . ولقد جلبت لحركة التحليل النفسى وعيا جديدا بالحاجة الى الاهتمام بآثار الاسرة والمجتمع فى تكوين العصاب .

ولقد افسحت المجال بكتاباتها لعدد من الناس رجالا ونسـاء ليهتموا بفهم الذات . ولم تأنس قط للفكرة الفرويدية القائلة بالحتميـة البيولوجية والتى تجاهلت المسائل الثقافية والتى شوهت سمعتها كامرأة بطريقة غير مباشرة . ولقد كانت هورنى اول كاتبة اسـاسية فى التحليل النفسى تتسم بالجراة وترى بانه على الرغم من أن المعالج النفسى له اهمية ودور الا انه فى الامكان اكتسـاب استبصارات فى التحليل النفسى عن طـريق تحليل الذات .

ولقد توفيت فى مدينة نيويورك فى ٤ ديسمبر ١٩٥٢ ، وكان عمرها ٦٧ عاما . وبعد اربع سنوات من وفاتها انتظم تلاميذها والمعجبون بها فى

الاكاديمية الامريكية للتحليل النفسى American Academy of Psychoanalysis وهى جماعة نشطة حتى يومنا هذا . ولقد استمرت تعلم كل جديد وجيد يدعو الى التفاؤل عن الانسان فى ضوء امكانياته وقدرته على القيام بوظائفه .

مقـــــدمة :

لقد دربت هورنى وفقا للتقاليد الفرويدية ، وتأثرت فى عملها كله بهذا التدريب . ولقد حللت نفسيا عنـــدما كانت فى معهد برلين للتحليل النفسى على يد كارل ابراهام وهانز ساكس K. Abraham & H. Sachs وهما محللان نفسيان مرموقان فى ذلك الوقت . ومع ذلك فقد وجدت هورنى بمضى الوقت أن من الصعب تطبيق افكار فرويد فى عملها . وقد اختلفت اختلافا تاما مع أفكار فرويد عن عقدة اوديب ، وعن تقسيم العقل الى هو وآنا وآنا اعلى . لقد شعرت أن نظرية فرويد تعكس ثقافة مختلفة عن الثقافة الامريكية وعصرا مختلفا عن العصر الذى عملت فيه فى نيويورك . لقد وجدت أن نظـــرية فرويد لا تلائم المشكلات التى يعانى منها الامريكيون فى سنوات الكساد . لقد كانت المشكلات الجنســـية بالنسبة لهم ثانوية اذا قورنت بعـــدد من المشكلات التى نشأت بسبب ظروفهم البيئية. لقد قلق الناس بسبب فقدانهم لاعمالهم ، وقلة ما لديهم من مال ليدفعوا اجور السكن وليشتروا طعـــاما وليوفروا العناية الطبية لاطفالهم .

ولقد رأت هورنى ان خبرات الناس تختلف من بلد الى آخر ومن زمن الى آخر وكذلك ما يواجهون من مشكلات ، ومن هنا فلا بد أن تكون هذه المشكلات مرتبطة بالعوامل الثقافية اكثر من ارتباطها بالعوامل البيولوجية ، كما ذهب الى ذلك فرويد . اى أن ما يخبره الشخص اجتماعيا سواء اكانت لديه مشكلات نفسية أم كان خلوا منها سوف تحدد نوع هذه المشكلات ، أن الصراع ينشأ عن الظروف البيئية ولا ينشأ نتيجة لمكونات متعارضة فى النفس أو العقل « اى بين الهو والانا والآنا الأعلى » كما ذهب الى ذلك فرويد .

وينبغى أن نلاحظ ان هورنى لم تكتب عن نظريات الشخصية وانمـــا

كتبت ودرست واشتغلت بالجوانب العصابية فى سلوك الانسان . وهى فى عملها هذا توصلت الى أساس عقلانى يساعدنا على فهم سلوك الانسان، والكشف عن الأسباب التى تدفعه الى ما يقوم به من أعمال . فنظريتها استهدفت فى الأصل تفسير السلوك العصابى . وما نعرضه هنا يطرح سؤالا اساسيا على القارىء وهو الى اى حد استطاعت هورنى أن تقدم لنا نظرية عامة للسلوك .

وصف السلوك الانسانى :

لعل هذا الوصف يتضح من دراسة مقدار الاتفاق بين هورنى وفرويد ومقدار الاختلاف حول المفاهيم الأساسية .

نواحى الاتفاق : :

١ — **الحتمية النفسية** : ان العلية أو السببية مفهوم أساسى يساعدنا على فهم ديناميات الانسان . أي أنه ينبغى ان يوجد لكل فعل سبب يسبقه . وان السلوك لا يحدث اعتباطا ، فوراء كل سلوك مقدمات لها طبيعة علية .

٢ — **الدوافع اللاشعورية** : ذهبت هورنى فى فترة معينة الى القول بأن هذه الفكرة من اهم اسهامات فرويد . وهى ترى أن العداء المكبوت هو الذى يؤدى الى القلق الأساسى الذى يؤدى بدوره الى العصاب .

٣ — **الحوافز الانفعالية** : الانفعالات ميكنزمات دافعة أولية لسلوك الانسان . فالانسان حيوان غير عقلانى .

٤ — **حيل الآنا الدفاعية** : على الرغم من ان هورنى أضافت اضافات فى استخدامها لحيل الآنا الدفاعية ، الا انها بعد ان وسعت معانيها بطريقتها تعتبرها اداة عظيمة القيمة فى العلاج .

٥ — **الأساليب العلاجية** : ان هورنى تقدر تقديرا عاليا أدوات العلاج كالتحويل ، والتداعى الطليق وتحليل الاحلام وهى مفاهيم واساليب قدمها فرويد واستخدمها .

نواحى الاختلاف مع فرويد : —

١ — **الهو والأنا والأنا الأعلى** : ان عدم اتفاق هورنى مع فرويد فى هذه المسألة ليس واضحا كالاضافات التى قدمتها فى الميكنزمات الأولية .

٢ — **عقدة التكرار** : لا يكرر الانسان سلوكه الطفلى على نحو اعمى وانما يستجيب بدلا من ذلك لمواقف القلق استجابة صادرة عن بنية شخصيته او بنيته الخلقية التى يشتقها من حياته المبكرة ككل .

ولقد شعر فرويدبطبيعة الحال ان الشخصية تتشكل فى فترة مبكرة من الحياة وانه يصعب جدا احداث تغييرات اساسية بعد ذلك . وتتفق هورنى مع فرويد على ان الشخصية تتأثر تأثرا شديدا بالخبرات المبكرة ، ولكنها تظل قابلة للتغيير خلال الحياة . وهكذا نجدها اكثر تفاؤلا من فرويد .

ولقد اعتقد فرويد بوجود مراحل للنمو عامة وان التثبيت على اى مرحلة يؤثر تأثيرا قويا فى شخصية الراشد . اما هورنى فترى ان علاقة الطفل بوالديه هامة لانها تحدد ما اذا كان الطفل سينمى قلقا اساسيا ام انه لن ينمى مثل هذا القلق .

٣ — **عقدة أوديب** : ان هذه العقدة ليست انماطا سلوكية ذات توجه جنسى خالص ، ولكنها قلق اثاره الوالدان لدى الطفل نتيجة لمشاعر العقاب والتسلح او النبذ وكلها جزء من بيئة الطفل ، وهى لا تنمو بالضرورة لدى جميع الأطفال .

٤ — **حسد القضيب** : ترى هورنى ان من المعقول ان يحسد الطفل امه على قدرتها على انجاب الأطفال الصغار ، كما تحسد البنت اباها على عضوه الثمين ، وهكذا تصبح منغمسة فى نبذ الأم .

٥ — **الليبدو او الطاقة الحيوية** : تفضل هورنى اعتبار الليبدو حافزا انفعاليا بدلا من اعتباره نزعة جنسية حيوانية تلازم الانسان الى الابد .
« فليس كل ما يلمع ذهبا ، وليس كل ما يبدو جنسيا جنسى »

(1937, p. 57) . ولقد شعرت أن المشكلات الجنسية نتيجة للقلق وليست سببا له . وان الرجل يعول على السلوك الجنسى كطريقة لتأكيد الذات نتيجة لمشاعر عدم الأمن .

لقد اكد فرويد على اهمية الدوافع البيولوجية . فجميع الصراعات نابعة من محاولات اشباع الحوافز البيولوجية . وهو يؤكد فى نظريته على الحافز الجنسى لانه يصعب اشباعه فى المجتمع المعاصر . ولقد قللت هورنى من أهمية الدوافع البيولوجية بتأكيدها على حاجة الطفل للأمن . وهكذا يمكن القول أن نظرية فرويد بيولوجية ونظرية هورنى اجتماعية . (Bischof, pp. 204-205)

العداء الأساسى والقلق الأساسى :

لقد اكدت هورنى فى كتابها « الشخصية العصابية فى زماننا » The Neurotic Personality of Our time على ان العصاب يرجع الى العلاقات الانسانية المضطربة . وبتحديد أكبر فاننا نجد اصول السلوك العصابى فى العلاقة بين الوالدين والطفل . وهى فى هذا تتفق مع نظرية فرويد وذلك لانها اكدت على اهمية خبرة الطفولة المبكرة فى نمو الشخصية. ولكنها لم تتقبل ما ذهب اليه فرويد من افكار عن مراحل النمو النفسى الجنسى.وهى تعتقد شأنها فى ذلك شأن ادلر ان الطفل يبدأ الحياة بشعور نسبى بالعجز ازاء والدين قويين وترى أن الطفولة تتميز بحاجتين اساسيتين هما الحاجة للأمن Safety والحاجة للرضا Satisfaction وان الطفل يعتمد على الوالدين اعتمادا تاما لاشباعهما .

وعلى الرغم من ان كل طفل فى الحقيقة يعتمد على الوالدين وعاجز بالنسبة لهما فى سنواته الأولى ، الا ان هذه الحاجة لا تخلق بالضرورة مشكلة نفسية . وهورنى لا تتفق مع ادلر فى ان كل طفل يشعر بالعجز والقصور ويقضى بقية حياته محاولا التعويض عن هذا الشعور والتعويض الزائد عنه . ولقد شعرت ان حالة العجز شرط ضرورى لنمو العصاب ولكنه ليس شرطا كافيا وحده . ويمكن ان يحدث امران : —

١ — أن يبدى الوالدان عطفا حقيقيا ودفئا نحو الطفل وبالتالى يشبعان حاجته للأمن .

٢ — ان يبدى الوالدان عدم مبالاة وعداء بل وحتى كراهية نحو الطفل ، وبالتالى يحبطان حاجة الطفل للأمن .

والظروف الأولى تؤدى الى النمو السوى بينما تؤدى الظروف الثانية الى نمو عصابى .

وتطلق هورنى على سلوك الوالدين الذى يقلل من شعور الطفل بالأمن « الشر الأساسى » basic evil . ومن امثلة هذه الانماط السلوكية : عدم الاهتمام بالطفل ، ونبذه ، ومعاداته ، وتفضيل اخوته عليه وعقابه ظلما والسخرية منه ، واذلاله ، والتذبذب فى السلوك ازاءه وعدم الوفاء بالوعود ، وعزله عن الآخرين .

ان الطفل الذى تساء معاملته بطريقة او اكثر أو بخبرة أو اكثر مما اسلفنا يشعر بعداء اساسى basic hostility نحو والديه . وهكذا يجد الطفل نفسه محصورا بين الاتكال على الوالدين والعداء نحوهما . وهذا موقف سىء ، لان الطفل لا يستطيع له تبديلا ، ولذلك ينبغى عليه أن يكبت مشاعره العدائية نحو والديه حفظا لبقائه . وهذا الكبت لعداء الطفل الأساسى مدفوع بمشاعر العجز والخوف والحب والاثم . فالطفل الذى يكبت عداوته الأساسية بسبب مشاعر العجز يقول لنفسه فيما يبدو « ان على ان اكبت عدائى نحوك لانى محتاج اليك » . والطفل الذى يكبت عداوته الأساسية بسبب الخوف يقول لنفسه فيما يبدو « ان على ان اكبت عدائى نحوك لانى اخافك » .

وقد لا يتوافر حب حقيقى للطفل فى بعض البيوت ، وان بذل بعض الجهد لاشعار الطفل بالحاجة اليه . وعلى سبيل المثال ، فقد تحل التعبيرات اللفظية عن الحب والعطف محل الحب الحقيقى والعطف الحقيقى ولا يجد الطفل مشقة فى ادراك الفرق بينهما ولكنه يتمسك بهذا الحب البديل لانه لا يوجد غيره وحينئذ قد يقول لنفسه « ان على ان اكبت عدائى خوفا من

فقدان الحب » وفى ثقافتنا قد يكبت الطفل عداءه الأساسى لانه قد نشأ بحيث يشعر بالاثم ازاء مشاعره السلبية نحو والديه ومثل هذا الطفل يشعر بالذنب وبأنه غير ذى جدارة اذا شعر بعداء نحو والديه ولذلك فانه يكبت مثل هذه المشاعر .

ولسوء الحظ فان مشاعر العداء التى يسببها الوالدان لا تبقى منعزلة ، وبدلا من ذلك تعمم لتشمل العالم كله والناس أجمعين . والطفل الآن مقتنع بأن كل شىء وكل فرد قد يكون خطرا . ويقال أن الطفل عند هذه النقطة لديه قلق أساسى .

« ان الحالة التى وصل اليها الفرد نتيجة للعوامل التى ذكرتها ... تتزايد على نحو خداع، وقوامها شعور شائع شامل بالعزلة والوحدة والعجز فى عالم عدائى ... وهذا الاتجاه فى ذاته لا يكون عصابا ولكنه تربة خصبة قد ينمو فيها العصاب فى أى وقت . وبسبب الدور الرئيسى الذى يلعبه هذا الاتجاه فى الأعصبة فقد أعطيته تسمية خاصة : « القلق الأساسى » وهو متشابك ولا يمكن فصله عن الداء الأساسى » . (1937, p. 89)

وتقول هورنى فيما يتصل بالقلق الأساسى والظروف التى تحدثه ما يأتى : — « ... انه الشعور الذى ينتاب الطفل بعزلته وعجزه فى عالم يحفل بامكانيات العداوة . ويمكن أن تؤدى مجموعة كبيرة من العوامل المتباينة فى البيئة الى هذا الشعور بانعدام الأمن لدى الطفل وهى : التحكم والسيطرة المباشرة وغير المباشرة ، واللامبالاة ، والسلوك غير المنتظم ، وعدم احترام حاجات الطفل الفردية ، ونقص التوجيه الحقيقى ، والاتجاهات المحطة المحقرة ، والاسراف فى الاعجاب أو غيبته ، ونقص الدفء الموثوق به ، والاضطرار الى الانحياز لاحد الوالدين عند الخلاف ، والمسئولية الزائدة عن الحد او الناقصة للغاية ، والحماية الزائدة ، والانعزال عن الأطفال الآخرين ، وعدم العدالة والتفرقة فى المعاملة ، وعدم الوفاء بالوعود والجو المعادى وهلم جرا » (1945, p. 41)

وترى هورنى ان اصول السلوك العصابى موجودة فى العلاقات بين الطفل ووالديه . فاذا خبر الطفل الحب والدفء ، فانه يشعر بالأمن وينمو

نموا سليما على الاغلب . ولقد شعرت هورنى أن الطفل اذا شعر بانه محبوب حقيقة فانه يستطيع ان يتغلب على ما يلقاه من سوء المعاملة كتعرضه للعقاب البدنى بين الحين والآخر دون ان تترك مثل هذه الخبرات لديه آثارا مرضية . أما اذا لم يشعر الطفل بانه محبوب ، فانه يشعر بالعداء نحو والديه ، وهذا العداء سوف يسقط فى النهاية على كل شىء وكل فرد ويصبح قلقا اساسيا . وترى هورنى ان الطفل اذا كان لديه قلق اساسى فهو فى طريقه لان يصبح راشدا عصابيا . (Hergenhahn. pp. 98-100)

اساليب التوافق مع القلق الاساسى :

يثير القلق الاساسى مشاعر قلة الحيلة والخوف ، ولذلك فان الشخص الذى يشعر بهذا القلق ينبغى ان يجد طرقا لابقائه عند الحد الادنى . ولقد حددت هورنى فى الاصل (١٩٤٢) عشر استراتيجيات لانقاص القلق الاساسى الى حده الادنى واسمتها الاتجاهات العصابية أو الحاجات العصابية . وسوف تلاحظ حين تلم بها انها حاجات لدى كل انسان تقريبا وهذه نقطة هامة . اى ان الشخص السوى فى الحقيقة لديه جميع هذه الحاجات او كثيرا منها وهو يسعى لاشباعها . أى أنه حين تنشأ حاجته الى العطف فانه يحاول اشباعها ، وحين تثار حاجته الى الاعجاب الشخصى فانه يعمل على ارضائها وهكذا . أما الشخص العصابى فلا ينتقل بسهولة من حاجة الى اخرى مع تغير الظروف . وانما يميل الى التركيز على احدى الحاجات واستبعاد الاخرى أى أن العصابى يجعل احدى هذه الحاجات نقطة مركزية فى حياته . وهو يختلف عن الشخص السوى من حيث ان مدخله لاشباع احدى هذه الحاجات لا يتناسب مع متطلبات الواقع وانما يكون مبالغا فيها وتكون عادة غير مناسبة من حيث الشدة ، وغير مميزة من حيث التطبيق . وحين تمضى الحاجة بغير اشباع فانها تثير قلقا شديدا . فاذا كان العطف هو ما يحتاجه الشخص فانه ينبغى ان يتلقاه من الصديق والعدو ومن رئيسه فى العمل ومن ماسح الاحذية .

وفيما يلى عرض للاتجاهات العصابية العشر او الحاجات : —

١ — الحاجة العصابية للعطف والموافقة .

— هذا الفرد يعيش لكي يحبه الآخريون ويعجبون به .

٢ — الحاجة العصابية لشريك يسير حياته .

— مثل هذا الفرد يحتاج الى الارتباط والانتساب الى شخص يحميه من الخطر ويشبع حاجاته .

٣ — الحاجة العصابية لان يعيش الفرد حياته داخل حدود ضيقة .

— مثل هذا الشخص محافظ جدا ، ويتجنب الهزيمة بمحاولته تحقيق القليل

٤ — الحاجة العصابية للقوة .

— هذا الشخص يمجد القوة ويحتقر الضعف .

٥ — الحاجة العصابية الى استغلال الآخرين .

— هذا الشخص ينزع من استغلال الآخرين له ، أما افادته من الآخرين فلا تستحق التذكير .

٦ — الحاجة العصابية الى التقدير الاجتماعى .

— ان هذا الشخص يعيش لكى يقدر . والهدف الاعلى له هو تحقيق الشهرة كأن يهتم بظهور اسمه فى الصحف .

٧ — الحاجة العصابية الى الاعجاب الشخصى .

— يعيش هذا الشخص ليثنى عليه ويمتدح ويتملق . ان هذا الشخص يريد من الآخرين ان يروه وفقا للصورة المثالية التى لديه عن نفسه .

٨ — الحاجة العصابية الى الطموح والانجاز الشخصى .

— ان لدى هذا الشخص ميل شديد للشهرة والغنى وان يصبح مهما بغض النظر عن النتائج .

٩ — الحاجة العصابية الى الاكتفاء الذاتى والاستقلال .

— ان مثل هذا الشخص يبذل جهدا كبيرا ليتجنب الالتزام ازاء أى

فرد . ولا يريد أن يرتبط باى شىء او اى فرد . ويتجنب العبودية مهما كان الثمن .

١٠ — الحاجة العصابية الى الكمال وعدم التعرض للهجوم .

— يحاول هذا الشخص ان يكون خاليا من العيوب بسبب حساسيته الشديدة للنقد .

ويخبر الاسوياء من الناس معظم الحاجات السابقة ان لم يخبروها كلها وحين يفعلون ذلك فانهم يتناولونها على نحو سليم . وعلى سبيل المثال فان حاجة الاسوياء من الناس الى القوة لا تبلغ درجة من الشدة تؤدى الى صراع مع الحاجات الاخرى كالحاجة الى العطف والحب . ويستطيع الاسوياء من الناس ان يشبعوا جميع حاجاتهم لانهم لا يستثمرون انفعالاتهم على نحو مبالغ فيه فى حاجة معينة . اما العصابى فقد اتخذ من احدى حاجاته طريقا للحياة . اى حياة العصابى كلها تنفق فى محاولة اشباع حاجة واحدة على حساب جميع الحاجات الاخرى . ولما كان من المهم أن تشبع كثير من الحاجات الاخرى ، فان العصابى يجد نفسه سجين حلقة مفرغة . وكلما ازداد التاكيد على حاجة عصابية واحدة كوسيلة لمواجهة القلق الاساسى ، كلما مضت الحاجات الاخرى الاكثر اهمية دون اشباع . وكلما بقيت هذه الحاجات بغير اشباع وكلما ازداد شعور الشخص بالقلق ، ازداد انغماسه فى استراتيجية مفردة لمعالجة القلق . ويستمر موقفه على هذا النحو . (Hergenhahn, pp. 10b 102)

التحرك نحو الناس وضدهم وبعيدا عنهم :

وتلخص هورنى فى كتابها صراعاتنا الداخلية Our Inner Conflicts ١٩٤٥ الاتجاهات العصابية العشر وتصنفهم فى ثلاث فئات . وتعتبر كل فئة من هذه الفئات توافقا عصابيا مع الآخرين . وتعتبر هذه الفئات الثلاثة للتوافق من اهم اسهامات هورنى فى نظرية الشخصية .

التحرك نحـو الناس :

هذا النمط من التوافق يشتمل على الحاجات العصابية ، الى

العطف والاستحسان ، والى شريك مسيطر ليسير حياته ، والى أن يعيش داخل حدود ضيقة . وتسمى هورنى هذا النمط بالنمط الممتثل الذى يبدو انه يقول لنفسه « اذا امتثلت فلن أتعرض للاذى » .

وفى ايجاز يحتاج هـــذا النمط الى أن يكون محبوبا من قبل الآخرين ومطلوبا ومرغوبا فيه ، وأن يشعر بأن الآخرين يتقبلونه ويرحبون به ، ويوافقون عليه ويقدرونه ، ويحتاجونه ، وأن له أهمية عندهم ، وخاصـــة عند شخص معين حتى يحصل على المساعدة والحماية والرعاية والتوجيه .

وينبغى أن يلاحظ ان هذه التوافقات مع الآخرين من الناس تقـــوم على القلق الاساسى . وهكذا ، فعلى الرغم من أن الشخص قد يتوافق مع القلق الاساسى بالتحرك نحو الناس وبالبحث الظاهر عن الحب والعطف ، فان الشخص ما يزال فى اساسه عدائيا . وهكذا تكون صداقة الشـــخص الممتثل سطحية وتستند الى عدوان مكبوت .

وفشل هذا النمط فى تحقيق اهدافه وكسب محبة الآخرين له ، غالبا ما يعرضـه لتوهم المرض « هيبوكوندريا » فيشكو من أعراض سيكوسوماتية ليستدر عطف الآخرين ومحبتهم .

التحرك ضد الناس :

وهذا الشخص عكس النمط الممتثل فى كثير من الانحاء . وهذا النمط من التوافق يجمع الحاجات العصـــابية للقـــوة ، ولاستغلال الآخرين . وللشهرة ، وللانجاز الشخصى . وتطلق هورنى على هذا النمط العدائى . ويبدو أنه يقول لنفسه « اذا توافرت السلطة أو القوة لى ، فان احـــــدا لن يستطيع أن يؤذينى » .

وينظر الى كل موقف وكل علاقة من زاوية فائدتها للفرد . ســـواء اكانت هذه الفائدة مالا أو شهرة أو افكارا . والشخص مقتنع شـــعوريا او شبه شعورى بأن كل فرد آخر يسلك بهذه الطريقة وأن المهم أن يقوم بهذا بكفاءة أكبر من الآخرين .

والنمط العدائى قادر على أن يتصرف بأدب وود ، ولكن هذا الادب وسيلة لغاية . واصل هذا الاسلوب التوافقى هو القلق الاساسى كالاسلوب السابق وهذا القلق يرجع فى الاصل الى مشاعر عدم الامن .

التحرك بعيدا عن الناس :

يشتمل هذا النمط التوافقى على الحاجات العصابية الى الاكتفاء الذاتى ، والاستقلال والكمال وعدم التعرض للهجوم . وتسمى هورنى هذا بالنمط المنعزل The detached type ويبدو أنه يحدث نفسه قائلا « اذا انسحبت فان شيئا لا يمكن ان يؤذينى » .

والامر الهام لدى أفراد هذا النمط هو حاجتهم الداخلية لوجود مسافة انفعالية تفصل بينهم وبين الآخرين وتبقيهم عن بعد . وبلغة أدق ، انهم مصممون شعوريا ولا شعوريا على الا ينغمسوا انفعاليا مع الآخرين بأية طريقة سواء اكان ذلك فى الحب او العراك ، فى التعاون او التنافس . انهم يحيطون انفسهم بنوع من الدوائر السحرية التى تحول دون اختراق اى فرد لها .

والشخص السوى يستخدم هذه الاساليب التوافقية الثلاثة مع الآخرين ، ويتوقف هذا الاستخدام على ملاءمة الاسلوب للموقف . والعصابيون لا يستطيعون ذلك . انهم يؤكدون احد هذه الاساليب على حساب الاسلوبين الآخرين . وهذا يسبب مزيدا من القلق لان جميع الناس يحتاجون الى ان يكونوا عدوانيين حينا وممتثلين حينا آخر ومتباعدين حينا ثالثا . والنمو العصابى غير المتوازن يسبب مزيدا من القلق الذى يحدث بدوره قدرا من الخلل فى النمو . وهكذا نقع مرة اخرى فى حلقة مفرغة .

وينبغى ان يلاحظ ان هذه الانماط التوافقية الثلاثة فى اساسها غير متسقة . اى ان الفرد لا يستطيع مثلا ان يتحرك نحو الناس وبعيدا عنهم فى نفس الوقت . اى أن هذه الاساليب التوافقية الثلاثة متصارعة الواحد مع الآخر بالنسبة للعصابى وللسوى على السواء . غير ان الصراع بالنسبة للشخص السوى ليس مكلفا انفعاليا تكلفته بالنسبة للشخص

العصابى . أى أن السوى لديه مرونة أعظم وهو أكثر قدرة على الحركة من أسلوب توافقى الى آخر مع تغير الظروف . وينبغى على العصابى أن يواجه جميع مشكلات الحياة مستخدما نمطا واحدا من هذه الانماط الثلاثة التوافقية سواء أكان هذا النمط ملائما أم غير ملائم . ويترتب على ذلك أن يكون الشخص العصابى أقل مرونة بكثير من الشخص السوى وأقل فاعلية فى تناول مشكلات الحياة . (Hergnhahn, pp. 102-103)

العلاقة بين الذات الواقعية والذات المثالية :

هناك فرق بالنسبة لكل فرد بين الذات الواقعية والذات المثالية . وتشتمل الذات الواقعية على الاشياء التى تصدق علينا فى أى زمن معين . وتعكس الذات المثاليه ما نود أن نصير اليه . والذات المثالية عند الاسوياء هدف يودون بلوغه فى المستقبل ، انها شىء يستطيعون أن ينظموا حياتهم على أساسه وان يطمحوا لبلوغه . والذات الواقعية والذات المثالية يتصلان دائما اتصالا وثيقا عند الشخص السوى ولا تبعد احداهما عن الاخرى بمسافة كبيرة . ويبدو ان الانسان السوى يحدث نفسه قائلا « على أساس مكانتى الآن ؛ وعلى اساس ما أنا عليه الآن فان هذا ما آمل ان أكون عليه على نحو معقول فى المستقبل » وبالنسبة لهذا الفرد فانه مع تغير الذات الواقعية وهذا ما يحدث لا محالة تتغير الذات المثالية أيضا . وكذلك كلما حققنا مثلا عليا حلت محلها مثل اخرى . وهكذا فالمطامح بالنسبة للشخص السوى واقعية وديناميه .

أما بالنسبة للشخص العصابى فان العلاقة بين الذات الواقعية والذات المثالية مشكلة . ذلك ان انطباع العصابى عن الذات الواقعية مشوه . ولقد قامت حياة هؤلاء الناس كلها على مسلم هو ان الذات الواقعية منحطة وحقيرة ؛ ولو لم يكن الامر كذلك لم تعرضوا لسوء المعاملة وهم أطفال وهكذا تصبح الذات المثالية عند العصابى مهربا للذات الواقعية أكثر من كونها امتدادا واقعيا لها . والذات المثالية عند العصابى رغبة أكثر منها حقيقة . والذات المثالية عنده غير واقعية وحلم لا يتغير .

وحين تتجه حياة الفرد الى صورة للذات مثالية وغير واقعية فان الفرد يكون مدفوعا بما ينبغى ان يكون عليه اكثر مما يكون مدفوعا بما هو عليه . وتشير هورنى الى هـذا — او تسميه — تسـلطية الانبغائية Tyranny of the should « عليك ان ننسى ما انت عليـه فعلا كمخلوق معيب ؛ فيما يلى ما ينبغى أن تكون عليه وكيف ينبغى أن تكون وان تصبح ذاتا مثالية هو مسألة أهم مما عداها . ينبغى أن تكون قادرا على تحمـل كل شيء ، وان تفهم كل شيء وان تحب كل انسان ، وأن تكون دائما منتجا — هذا اذا اردنا ان نذكر عددا قليلا من هذه الاملاءات الداخلية . انني اسميها تسـلطية ما ينبغى » (1950, pp. 64-65)

وتمضى هورنى لتحدد عددا من الانبغاءات التى تحكم حياة الشخص الذى حلت فيها الذات المثالية غير الواقعية محل الذات الواقعية .

« ينبغى ان يكون فى قمة الامانة ، والكرم ، ومراعاة لآخرين ، والعدل ، والكرامة والشجاعة والايثار . ينبغى ان يكون محبا وزوجا ومعلما كاملا . ينبغى ان يقدر على تحمل كل شيء وينبغى ان يحب كل انسـان ؛ وينبغى أن يحب والديه وزوجه ، ووطنه ، او ينبغى الا يرتبط بأى شيء او بأى انسان ، والا يبالى بأى شيء ، والا يشـعر بالتعرض للاذى . وينبغى دائما ان يكون هادىء البال غير مضطرب . وينبغى عليه دائما أن يستمتع بالحياة ، أو ينبغى أن يكون فوق اللذة والمتعة . وينبغى أن يكون تلقائيا ؛ وينبغى أن يضبط دائما مشاعره . وينبغى أن يعرف كل شيء ويفهمه ويستبصره . وينبغى ان يقدر على حل كل مشكلة خاصـة به او بالآخرين ، على نحـو سريع . وينبغى أن يقدر على التغلب على كل صعوبة خاصـة به بمجـرد رؤيته لها . ولا ينبغى أن يتعب قط أو يخر مريضـا . وينبغى ان يكـون دائما قادرا على أن يجد عملا . وينبغى ان يكون قادرا على انجـاز اشياء فى ساعة واحدة لا يمكن انجازها الا فى سـاعتين او ثلاث » . (1950, p. 65)

أن العصابى محصـور فى وهم الذات المثالية ، وهـو وهم لا يعكس الواقع ويميل الى ان يكون وهما غير متغير . وكلما طارد العصابى هـذا المثال بشدة ، كلما دفع بالفرد بعيدا عن ذاته الواقعية وازدادت شـدة

العصاب . والامل الوحيد لهذا الفرد هو أن يتوافر له محلل نفسى حسن تدريبية .

والاسوياء من ناحية أخرى لهم احلامهم ولكنها احلام واقعية قابلة للتغيير . ويخبر الاسوياء النجاح والاخفاق معا وكلاهما يحدث تغيرات فى مطامحهم . ويخبر العصابيون الاخفاق فى الاساس لان مثلهم العليا تميل الى عدم الاتساق مع ذواتهم الواقعية . (Hergenhahn, pp. 103-106)

أساليب التوافق الثانوية :

لقد اعتبرت هورنى التحرك نحو الناس وضدهم وبعيدا عنهم أساليب توافقية اساسية لان واحدا منها يميل الى التغلغل فى حياة الفرد الكلية . وقد اطلق على أساليب التوافق الثمانية أساليب ثانوية لانها تستخدم عادة فى نطاق محدود اذا قورنت بالاساليب الاساسية .

النقط العمياء :

اى ان ينكر الفرد او يتجاهل جوانب معينة من الخبرة لانها لا تتفق مع صورة الذات المثالية . وعلى سبيل المثال اذا اعتبر الفرد نفسه ذكيا جدا ، فانه يميل الى تجاهل الخبرات التى تدل على غبائه ، كما يحدث حين يتحدى التلميذ حكمة المعلم ، ان المعلمين كثيرا ما يصعب عليهم استرجاع هذه الوقائع فى نهاية اليوم . ولا نقصد القول بأن التلميذ كان مخطئا ، وانما نقصد القول ان الخبرة لا تتفق مع صورة الذات المثالية لدى المعلم ، اى ان المعلم لم يرى هذه النقطة . وهذا يتسق مع فكرة فرويد عن الكبت حيث يتم انكار التعبير الشعورى عن شىء لمعارضته لقيم الانا الاعلى وذلك لانه يمزق بنية قيم الفرد . فالنقط العمياء كالكبت تتيح للفرد ان يحافظ على اتساق صورة ذاته وذلك بتجاهل الخبرات التى لا تتسق معها .

التقسيم الى اجزاء مستقلة :

ان هذا معناه تقسيم حياة الفرد الى مكونات مختلفة لهذا قواعد

مختلفة تطبق عليها . وعلى سبيل المثال أن يكون هناك مجموعة من القواعد التي تنطبق على حياة الفرد الاسرية ، ومجموعة أخرى تنطبق على حياة الفرد في مجال العمل والمهنة . وهكذا يتصرف الشخص وفقا للمبادىء والقيم الدينية في البيت ولكنه لا يكون كذلك في عمله أو تجارته . وقد يعارض المعلم الغش بعنف في حجرة الدراسة ومع ذلك يسمح به او يمارسه في لعب الورق والطالب قد يرفض سيجارة يقدمها له عمه ولكنه يتقبلها من صديق في الجامعة . ولا يرى الفرد صراعات هنا لان المواقف مختلفة .

التبرير :

ترى هورني التبرير على الاغلب كما يراه فرويد . انه تقديم اسباب جيدة ولكنها خاطئة لتسويغ سلوك مثير للقلق ما لم نسوغه .

الضبط الذاتي الزائد :

ان هذا معناه حماية الذات من القلق بضبط اي تعبير عن الانفعال . ان الهدف هنا هو المحافظة على ضبط الذات على نحو جامد مهما كان الثمن . أن هذا الاسلوب الثانوي من أساليب التوافق يشبه على نحو وثيق الحاجة العصابية لان يعيش الفرد حياته في حدود ضيقة .

التجسيد :

ان هذا يشبه حيلة الاسقاط الدفاعية التي تلجأ اليها الانا وفقا لتصور فرويد وان كان أكثر عمومية من الاسقاط . ان التجسيد ما هو الا شعور بان جميع المؤثرات الاساسية في حياة الفرد خارجية بالنسبة للذات . فالشخص لم يعد مسئولا عن نفسه لان اشياء او اشخاص آخرين يسببون افعال الشخص ، اي أن الشخص يبدو كما لو انه يقول لنفسه « كيف تعتبرني مسئولا ؟ كيف تنسب هذا الاخفاق لي ؟ او لماذا اشعر بالمذلة طالما ان هؤلاء في الخارج هم الذين جعلوني اتصرف على النحو الذي تصرفت به ؟ وبعض الناس يبدون غير قادرين على تقبل النقد . فاذا اخفقوا في اختبار ، فان ذلك يرجع الى انهم كانوا متعبين ، او ان الكتاب كان غامضا ، او ان المدرس لم يحسن الشرح ، او ان الاختبار

ملىء بالالغاز والاسئلة الخداعة . واذا فقدوا عملهم فان ذلك يرجع الى التمييز ضدهم ، أو هناك من يسعى لايذائهم ، أو انهم ينتمون الى حزب أو دين غير مرغوب فيه من قبل الآخرين . أى أن أسباب كل ما يحدث لهم من اشياء تقع فى الخارج وليست نابعة من ذاتهم . ان هؤلاء الاشخاص يردون نواحى القصور الى مصادر خارجية ، أى أنهم يجسدون الاسباب فى الخارج .

الصواب التعسفى :

ان اسوأ شىء يمكن أن يقع فيه الشخص الذى يستخدم هذا الاسلوب التوافقى هو ان يكون غامضا وغير حاسم . وحين تثار المسائل التى لايوجد لها حل واضح بطريقة أو اخرى ، يختار الشخص حلا بطريقة تحكمية وهكذا ينهى الجدل والخلاف . ومن أمثلة ذلك ما تقوله الأم أحيانا لابنها « لن تخرج من البيت ليلة الجمعة وهذا كلام نهائى ولارجعة فيه » والشخص الذى يستخدم هذا الاسلوب التوافقى يصل الى نقطة ينتهى عندها كل النقاش والجدل . ويصبح الموقف الذى يتخذه هو الصواب ولا يمكن تحديه . والفرد ليس فى حاجة الى أن يقلق عما هو صواب وما هو خطأ ، وما هو مؤكد وما هو مشكوك فيه .

المراوغة :

هذا الاسلوب عكس أسلوب الصواب التعسفى . فالشخص المراوغ المتملص لا يتخذ قرارا عن شىء قط . واذا لم يلتزم الفرد بأى شىء ، فانه لا يخطىء مطلقا . واذا لم يخطىء الفرد فلا يمكن ان يتعرض للنقد قط . واذا قرر الشخص أن يذهب الى الجامعة ورسب فلا عذر له . اما اذا تأجل الالتحاق بالجامعة بسبب نقص فى المال ، أو رغبة فى السفر أو الزواج ، أو ان يخبر العالم الحقيقى ، فان على الفرد أن يؤخر الاخفاق الممكن .

السخرية :

وبينما يعتقد الشخص المراوغ بأن الالتحاق بالجامعة هام الا أنه يؤجل القرار بالالتحاق . اما الساخر فلا يعتقد بأهمية التعليم الجامعى ولا يؤمن بقيمته . والحق أن الساخرين لا يؤمنون بشىء . انهم يجدون لذة فى ابراز

تفاهة معتقدات الآخرين وخلوها من المعنى . وتعتقد هورنى ان هذا الاسلوب يحتمل أنه نما نتيجة لاخفاقات متكررة فيما يتصل بمعتقدات سابقة .. والساخرون نتيجة لعدم ايمانهم بشيء لا يتعرضون لخيبة الامل التى تنشأ من الالتزام بشيء يظهر انه زائف . وهم يتجنبون تحديد نسقهم القيمى وهو عمل صعب بالنسبة لهم . انهم يقولون ببساطة انه لا يوجد ما يستحق الاعتقاد فى قيمته وجدواه .

ومرة اخرى ، ان الفرق بين الاسوياء والعصابيين فرق فى الدرجة . وسوف يستخدم الاسوياء كلا من أساليب التوافق الثانوية فى وقت أو آخر . أما العصابيون فانهم يبالغون فى استخدام واحد او اكثر من هذه الاساليب، وبهذا تقل مرونتهم وكفاءتهم فى حل مشكلات الحياة التى لا يمكن تجنبها . (Hergenhahn, pp. 106-108)

النمــو النفسى :

ان النمو الانسانى السوى للطفل فى بيئة شخصية صحية ، مع الاهتمام بحاجاته الحقيقية والتجاوب معها يؤدى الى تحقيق لامكانياته . وهذا الميل أو الاتجاه الى التطور نحو صيرورتنا فطرى لدى ابناء الجنس البشرى بل ولدى جميع الكائنات الحية .

وتصبح القــوى التى شوهت لدى العصــابى (نحو الناس ، ضد الناس ، بعيــدا عن الناس) متناغمة متوائمة لدى الشــخص الذى ينمو ويتطور نحو الوئام الداخــلى . « معظمنا يريد العطف وضــبط الذات ، والتواضع ومراعاة الآخرين وتقدير الذات . كما ان اكتفاء الذات والاستقلال والاسترشاد بالعقل اهداف نراها قيمة بصفة عامة » . (1942, p. 56) ونمو الذات الواقعية ، الذات المنسية علامة النمو السيكولوجى . وهذا لا يتطلب جهدا من الارادة ، وانما يتطلب فحسب غيبة العقبات .

والفرق اذن بين الكفاح الصحى ، والحوافز العصابية وصولا الى المجد هو بين التلقائية والقسر ، بين ادراك الحدود وانكارها ، بين التركيز على رؤية عمل مستهدف مجيد ، وشعور بالتطور ، بين التنامى والكينونة ، وبين الخيال والحقيقة (1950, p. 38)

عوامل النمـو :

القلق الأسـاسى :

النمو السوى نحو تحقيق الذات الواقعية يمكن ان يشوه ويعاق بعوامل موجودة فى بيئة الطفل ، فاذا اهملت حاجات الطفل الحقيقية فى سنواته المبكرة أو لم تحترم بالقدر الكافى ، أو اذا كان والده لا يوثق بهما ، فقد ينمى الطفل قلقا اساسيا ، احساسا شائعا بالعزلة والشـك والعجز فى عالم يتسم بالعداء . (1945) والعمليات العصابية تنشأ من الحـاجة لاتقاء الوعى بهذا القلق الأساسى . والوصف التالى للقلق الاساسى يبرز الجهود الكثيرة التى يبذلها الناس ليتجنبوا خبرة القلق .

« القلق الاساسى معناه ان البيئة مفزعة ككل ، لان الفرد يشـعر انها غير موثوق بها كاذبة ، وغير مقـدرة ، وغـير عادلة ولا منصـفة ، وضنينة وغير رحيمة . ووفقا لهذا المفهوم لا يخاف الطفل العقاب والنبذ بسبب الحوافز المنوعة فحسب بل يشعر بان البيئة تهدد نموه كله وأكثر رغباته وكفاحه شرعية : انه يشعر بان فرديته ستمحى ، وحريته ستسلب، وسعادته ستمنع . وفى مقابل خوفه من الخصاء ، ان هـذا الخوف ليس تخيلا ، بل له أساس جيد من الواقع . وفى بيئة ينمو فيها القلق الاساسى « يعطل استخدام الطفل الحر لطاقاته ويقلل من شأن تقديره لذاته ، واعتماده عليها ويغرس الخوف فيه بالعزلة والتخويف ، ويغلف امتداده وتوسـعه من خلال القسوة ، والمعايير او الحماية الزائدة « الحب » .

والعنصر الرئيسى الآخـر فى القلق الاساسى ان نجعل الطفل عاجزا عن الدفاع عن نفسه على نحو مناسب ضد الاعتداء عليه . وهو ليس عاجزا من الناحية البيولوجية فحسب ومعتمدا على الاسرة ، ولكنه عاجز فى كل نوع من أنواع تأكيد الذات . وقد بلغ من تعرضه للتخويف أنه لا يعبر عن ضيقه او اتهاماته وحين يعبر عنها يجعل بحيث يشعر بالاثم والكـراهية التى لابد من كبتها لانها تثير القلق لانها خطرة حين توجه نحو انسـان يشعر بانه يعتمد عليه . (1939, pp. 75075)

الصراع الاساسى :

ان الطفل الذى لديه قلق أساس يكون فى صراع بين انشاله الفعلى على والديه وحاجته للتمرد ضد الوالدية غير الحساسة . وبالتالى المحافظة على ذاته الواقعية . وينبغى ان يكبت الغضب والعدوان بسبب موقف الاتكالية . وهكذا يصبح الطفل غير واع بالاخطار الحقيقية التى تهدد الذات ، ويمتثل امتثالا لا تمييز فيه . وهكذا يتزايد عجز الطفل فعلا . والامتثال ضرورى ، ولكنه يؤدى الى عدم الدفاع عن الذات ، الامر الذى يؤدى الى ان يفقد الطفل اتصاله بحب الذات داخله ، ويتوحد بدلا من ذلك مع الذات المثالية idealized self التى نشأت استجابة لمتطلبات الاسرة .

وتصف هورنى أربع طرق لانتقاص الصراع الى حده الادنى ، ولتجنب القلق الاساسى وهى : ان يبرره ، أن ينكره ، أن يحذره او يتجنب المواقف والافكار والمشاعر التى تدخله الوعى .

التبرير :

ان تحول القلق الاساسى الى مخاوف عقلانية . فقد يقلق الفرد على نحو غير واقعى عن مواقف ليس للفرد عليها الا سيطرة قليلة . وقد تشتمل الامثلة الموضحة لهذه النقطة على الاهتمام الزائد بصحة الابناء ، وبالزلازل ، وبحوادث السيارات ، او باحتمال فقدان الوظيفة او العمل . وقد تكون الموضوعات المختارة معقولة ، ولكن نوعية الاهتمام زائدة وقسرية ويئسة .

الانكار : وهو نوعان : —

١ — استبعاد القلق من الشعور : اى ان الفرد لا يعيه . وما يظهر هو الاعراض الجسمية كاللازمات العصبية ، والعرق ، وزيادة نبضات القلب ، وهلم جرا ، او اعراض عقلية كالاحساس بعدم الاستقرار ، وبأن آخرين يضغطون عليه للاسراع او يثيرونه ، او انه عاجز عن الحركة أو التيلم بالوظيفة .

٢ — أن يسيطر على القلق شعوريا ، أى أن يعمل الفرد على ان يجمع شتات نفسه ؛ انه فعل الشجاعة ، أى ادراك الخوف والعمل على أية حال ، وله قيمة عملية من حيث أنه يتيح للشخص أن يعمل بغض النظر عن المخاوف ؛ ولكن ديناميات الشخصية تبقى وراء ذلك بغير تغيير . والسيطرة على الخوف لا يمكن أن يطرأ عليها استرخاء .

التخـــدير :

خفض الوعى العام بالقلق وبالمشاعر الاخرى بوسائل خارجية . وقد تشتمل هذه على الاستخدام الواضح للمخدرات او الكحول بانماط سلوكية أقل وضوحا (كتجنب مواجهة الوحدة) والعمل الزائد والعجز عن قضاء وقت الفراغ ، والنوم الزائد دون الشعور بالراحة ، والانشطة الجنسية الزائدة (لتجنب الشعور بعدم القبول) .

الكـــف :

تجنب الخبرات التى تؤدى الى الوعى بالقلق الاســـــاسى . ويتألف الكف من العجز أو عدم ارادة الشعور أو التفكير او القيام بأشياء معينة ووظيفته ان تتجنب القلق الذى قد يثار اذا ســعى الشخص الى القيــام بهذه الاشياء أو فكر فيها أو قام بها .

البحث عن المجـــد :

تتحول طاقة تحقيق الذات عند العصابى الى المحافظة على الذات المثالية . ويرتبط تمجيد الذات بمشاعر التفوق والاهمية للتعويض عن مشاعر الخوف الفعلية وعن نقص التقبل . وتطلق هورنى على البحث لتبرير الذات المثالية ودعمها البحث عن المجد . وهكذا يعتبر الفرد الاتجاه العصابى الذى نماه لمعالجة القلق مثاليا . ويصبح الامتثال خيرا وحبا وقداسة ويصـــبح العدوان قوة وقيادة وبطولة ويصبح الاستعلاء حكمة واكتفاء ذاتيا واستقلالا وما يبدو وفقا لهـــذا الشـــكل قصورا وعيبـــا يترك بغير أن يمس أو يهتم (1950, p. 22) وفى البحث عن المجـــد يرتبط القيام بالعمل باتجاه عصابى

لتحقيق الاتقان ، ويصبح الطموح حافزا لا يشبع لنجاح متزايد ، بينما يتوجه العمل مع الآخرين نحو النصر الحقود ، ووفقا لما تراه هورنى تتألف العملية العصابية من مجموعة من الحوافز القسرية المتصارعة لتحقيق الذات المثالية والمحافظة عليها وهى خيال وليست حقيقة . وتحل النسخة الممجدة من الذات محل الذات الواقعية الخفية أو المفقودة ، ولفقدان العصابى للاحساس الاصيل بالهوية يجهد نفسه ليحافظ على شخصيته . وهذا الكفاح يصبح تدريجيا له الاولوية فى استخدام الطاقة النفسية وينمو الاهتمام بتنمية الذات امام القسر ليصبح الفرد متفوقا لا يصل اليه احد ولا يطال ولا يمس ، أى تصبح له خصوصيته .

وكثير من البحث عن المجد يحدث فى الخيال حيث يمكن تصور الانا المثالى المأمول ، وحيث يمكن ان يلقى الثناء والاحترام ، والحياة الداخلية للعصابى مليئة برؤى النجاح الذى لا يمكن بلوغه وكذلك بخيالات الاخفاق المدمر . وتظهر الانشطة الممارسة والتفاعلات غض نظر فعلى عن الذات الواقعية وهى فى الحقيقة تدمير ذات بالنسبة لملاحظ خارجى .

ويحدث عدم التوازن الغريب هذا لان العصابيين لا يكافحون لتمجيد صور ذواتهم المصطنعة الزائفة فحسب ، بل انهم فى نفس الوقت يكرهون انفسهم . وبمقدار استثمارهم لصور ذات مثالية براقة يكون احتقارهم لوجودهم الفعلى وانجازاتهم . والتنمية العصابية للذات المصطنعة الزائفة ، وبخس قيمة الذات الواقعية يبدو متبلورا فى مفهوم هورنى عن نسق التكبر والعجب .

نســق التكبر والعجب :

ينبغى على العصابيين أن ارادوا أن يراقبوا نجاحهم ان ينغمسوا فى مقارنة انفسهم بالآخرين . وهناك امكانية الخجل والمذلة بدلا من البحث عن فوز انتقامى حقود مما يدل على ان الذات المثالية آمنة على الاقل مؤقتا . ونسق التكبر يتكون لا من أجل الصورة المثالية للذات وما يلزم للحفاظ عليها من دفاعات فحسب ، بل يتألف أيضا من صراع مركزى بين هذه المثالية والكراهية الموجهة نحو الذات الواقعية .

وتؤدى المطالب المستمرة لبلوغ معايير عالية فى الأداء الى جعل جبروت الانبغاءات عذابات تتألف من مهاترات مع الذات ومشاعر يأس . وتؤدى متابعة الذات المثالية لا محالة الى الابتعاد عن الحقيقة والكرامة والحيوية والانغماس فى مستنقع من المطامح العصابية والصراعات المصحوبة بمشاعر التفاهة والاخفاق . (Frager & Fadiman, pp. 129-133)

العـــلاج النفسى :

على الرغم من ان هورنى حققت شهرتها عن طريق الكتب التى الفتها ولقيت رواجها لدى القراء ، الا أن عملها اليومى كان فى الاساس العلاج بالتحليل النفسى . وقد انبثقت نظريتها فى نمو الشخصية ، وحاجات الامن ، ودور القلق ، والذات المثالية idealized self والاتجاهات العصابية من تفاعلها مع عملائها فى الجلسات العلاجية .

« لقد فتحت الملاحظات المتتالية عينى على مغزى هذه الصراعات . ان ما ادهشنى بقوة عدم رؤية المرضى للتناقضات داخل أنفسهم . وحين أبرزت هذه التناقضات لهم اصبحوا مراوغين وبدا عليهم فقدان الاهتمام . وبعد خبرات متكررة من هذا النوع أدركت ان المراوغة عبرت عن نفور عميق من معالجة هذه المتناقضات . وفى النهاية فان الاستجابات الفزعة للادراك المفاجىء اظهرت لى أنى أتعامل مع متفجرات . وأن لدى المرضى سبب معقول للابتعاد عن هذه الصراعات انهم يخشون قوتها وقدرتها على تمزيقهم اربا » (1945, p. 15)

« ان الاضطرابات العصابية الأساسية نتائج للاتجاهات العصابية . ومن هنا فان هدفى الاساسى فى العلاج ان اكتشف بالتفصيل الوظائف التى تقوم بها الاتجاهات العصابية ، والنتائج التى تؤدى اليها فى شخصية المريض وحياته . (1939, p. 281) ومن منظور أرحب ان غرض العلاج النفسى من وجهة نظر هورنى هو استعادة القوى البناءة الفطرية لدى الفرد بحيث يمكن ان تصبح حياته تعبيرا عن ذاته الواقعية .

« ولكى نتوصل الى تقدير تقريبى لصعوبات العمليات العلاجية ينبغى

أن نلتفت الى ما تتضمنه بالنسـبة للمريض . وباختصار ينبغى عليه أن يتغلب على تلك الحاجات والحوافز أو الاتجاهات التى تعوق نموه . وحين يبدأ فى تنحية أوهامه عن نفسه وتنحية أهدافه الوهمية تتاح له فرصة ليعثر على امكانياته ولينميها . وبمقدار ما يستغنى عن كبريائه المزيفة يصبح اقل عداء لذاته وتتبلور الى ثقة بالذات راسخة . وحين تفقد انبغاءاته قوتها القسرية يستطيع ان يكتشف مشاعره الحقيقية ورغباته ومعتقداته ومثله ، وحين يواجه صراعاته الموجـودة فانه تتاح له الفرصـة لتكامل حقيقى وهلم جرا » . (1950, p. 334)

ويتحقق الهدف من خلال تأكيد المعالج النفسى على مشكلات اليـوم الحالية ، والصراعات والقلق ، والدفاعات . وعلى الرغم من أن هـذا الاستقصاء فى الدوافع الشخصية يحرك لا محالة ذكريات هامة . ويصل هذه الذكريات بالمشكلات الحاضرة الا انه لا يعتبر ذا قيمة مثل ربط اتجاهات الشخص ، بعضها بالبعض الآخر . وبالتالى تحديد الاتجاهات المتضـادة والصراعات اللاشعورية . والقيمة الذاتية لكل اتجاه لدى الشخص وحصيلة حياته ينبغى ان نعترف بها بالتفصيل والتحديد .

وهناك دائما فى عملية اكتشاف الذات لحظات وعى مؤلمة نتقبل الحقيقة عن ذاتنا ، بدلا من الصورة المثالية ، وهناك أوقات للقلق حين تند الصراعات اللاشعورية الى الوعى الشعورى . ويسـهل توافر الشجاعة الشـخصية للمحافظة على هذه العملية المؤلمة المتكررة بكثرة فى سياق علاقة الثقـة التى يدعم فيها المعالج المريض ويرشده ويسـاعده . وهكذا فان هورنى أوصت بأن يجلس المحلل والمريض وجها لوجه بحيث يمكن رؤية المعالج ، ويمكن أن يكون مؤيدا ، وان يكون مشـاركا مشاركة تامة خلال العملية العـلاجية .

وأدوات هورنى فى العلاج النفسى فرويدية فى الاساس وتشتمل على التداعى الطليق ، وتفسير الاحـلام وتحليلها ، والتقدير الحساس لانماط التفاعل بين المريض والمعالج . ولا ينبغى ان يكون المحلل من وجهة نظـر هورنى سلبيا ، وانما ينبغى أن يطرح الاسئلة ويتعمق وان يؤثر على نحو

مباشر فى المريض ليحدث تغيرات فى الحياة الواقعية بعد تحقيق استبصار بالمشكلات .

ورأت هورنى أن المحلل ينبغى وعلى نحو قصدى أن يسير عملية العلاج النفسى والا يترك تحديد وجهتها للتداعى الطليق عند المريض . وينبغى أن يتضمن توجه المحلل بالضرورة احكاما قيمية .

ومع تقدم التحليل ، ينبغى ان تتزايد الدافعية للحياة الكاملة والسعيدة من وجهة نظر هورنى ؛ لان طريقتها فى كشف الصراعات العصابية تتيح للمرضى أن يتوصلوا الى استبصارات تفصيلية وملزمة فى معاناتهم الفعلية . ولقد كان هدف العلاج عند هورنى أبعد من مجرد الاستبصار البسيط . ومع ابعاد الصراعات العصابية عن طريق الاستبصار ، تتزايد قدرة الفرد على حل مشكلاته الحياتية دون دعم من الخارج ، وانقاص مراحل اتكاله على المحلل . وعند اتمام العلاج يكون المريض قد استعاد شجاعته وقدرته على ادراك ذاته الواقعية وتحقيقها .

(Frager & Fadiman, pp. 133-134)

وقد عبرت هورنى فى كتابها عن تحليل الذات Self-analysis الذى نشر عام ١٩٤٢ م عن اعتقادها بأن الناس يستطيعون ان يتقدموا خطوات كبيرة فى حل مشكلاتهم . وهى تتساءل : كيف استطاع أبناء الجنس البشرى ان يحلوا مشكلاتهم الانفعالية قبل ان يتوافر العلاج النفسى ؟ وهى ترى ان كثيرا من الناس ليس لديهم مشكلات انفعالية وانهم تعلموا على نحو ما ان يحلوا المشكلات ، وان يقللوا الصراع الى حده الادنى ، وان يحافظوا على علاقة معقولة بين الذات الواقعية والذات المثالية ، وان يقبلوا على الحياة بتلقائية . ودور المعالج ان يساعد العصابى على ان يتعلم أن يستجيب لهذه الطرق وان يمضى وينصرف على هذا النحو بعد أن ينتهى العلاج . وقد نصحت هورنى بتحليل الذات تحليل الفرد لحياته ، ولم تقصد أن جميع الناس مهيئين ومستعدين لحل المشكلات الانفعالية العميقة سواء اكانت لديهم أم لدى آخرين . وعلى سبيل المثال فان من لديهم عصاب شديد لا يستطيعون حل مشكلاتهم ؛ وقد تؤدى محاولتهم لحل هذه المشكلات الى ضرر أكثر من النفع .

المكانة الراهنــة والتقويم :

تنتمي كارين هورنى الى الجناح اليساري الثقافى والاجتماعى من اتباع فرويد . وهى بهذا تندرج فى فئة مع أريك فروم وهارى ستاك سوليفان . ولقد اكدت هورنى طبيعة النمو الانسانى التطورية والبنائية وقابلية الطبيعة الانسانية للتغيير . ولقد نبذت هورنى الموقف الوراثى القائل بان التشريح قدر ونصيب . اى ان موقفها من الطبيعة الانسانية كان اكثر تفاؤلا .

ولقد اسهمت هورنى بالكثير فى فهم مشكلات المراة . ولقد عملت على ابعاد الاساطير المشبعة بالذكورة عن الديناميات النفسية للمراة ؛ وفى نفس الوقت اهتمت بموضوعات كانت تد لقيت التجاهل والاهمال كالبرود الجنسى ودورة الحيض والحمل والولادة ، والامومة . هذا على الرغم من اننا لم نعرض فى هذه العجالة عن نظريتها خلاصة ما قدمته عن سيكولوجية المراة .

وكانت متفائلة فيما يتصل بامكانيات الشخص الداخلية تفاؤلا ادى بها الى القول بامكانية تحليل الذات ولقد فحصت ومحصت فى كتبها بنية الشخصية وقدمت حلولا للصراعات العصابية الاساسية . ولقد ألفت كتبها وقدمتها على نحو مباشر لجمهور القراء دون ان تنتحها مؤسسة التحليل النفسى ، واستمر تاثيرها فى الجـو السيكولوجى . وكان من التيمات المستمرة فى كتاباتها الثقة المشبعة بالامل فى الانسانية وفى قدرتها على التغير والتطور .

وينبغى ان يكون واضحا أن الابتعـاد عن الفكر الفرويدى الخالص ومخالفته فى زمنها لم يكن بالامر الهين او اليسير . لقد خالفت التيار الاساسى فى عدد من المسائل ، وكان لها من ذكائها وابتكارها وشجاعتها ما مكنهـا من أن تبلور نظرية فى الشخصية أضاءت بعض الجوانب التى اغفلتها نظريات أخرى سبقتها ، ولعل من ابرز اسهاماتها افكارها التى قدمتها عن سيكولوجية المراة والتى تلقى الشيوع والذيوع فى الوقت الحاضر وخاصة انها تتسـق مع حركات تحرير المراة فى المجتمع الغربى . ولقد رات أن كثيرا من المشكلات النفسية ترجع الى عـوامل ثقافية ، وكذلك الحال بالنسـبة لكثير من

الفروق بين الرجال والنساء . ولقد شعرت هورنى أن كثيرا من الخصائص الانثوية التى عزاها فرويد للخصائص التشريحية ينبغى أن ينظر اليها باعتبارها محددة ثقافيا ، ولقد اتفقت هورنى مع فرويد على أن قدرا كبيرا من السلوك تتحدد دوافعه لا شعوريا ، ولكنها اختلفت معه حول أهمية الدوافع البيولوجية . لقد شعرت هورنى ان الحاجة الاجتماعية للامن أكثر اهمية من الحاجة للاشباع الجنسى .

ومن الصعب بطبيعة الحال ان نقدم الكثير من الشواهد العلمية والأدلة التى تدعم نظرية هورنى . وهذا النقد لا ينطبق على نظرية هورنى وانما يمتد ليشمل كثيرا من النظريات . ومع هذا فان نظرية هورنى افادت وما تزال تفيد فى توجيه العمليات العلاجية وفى فهم كثير من الانماط السلوكية.

الفصل السادس

اريك اريكســون

ولدا ا . اريكسون عام ١٩٠٢ بالقرب من فرانكفورت بالمانيا . وكان والداه دانمركيين نشأ كل منهما وكبر فى كوبنهاجن . ولقد انفصل والداه قبل مولده وتركت امــه الدانمرك . وحينما بلغ الثالثة من عمره تزوجت امــه الدكتور ثيودور هومبرجر Theodor Homburger وهو طبيب أطفــال عالج ابنها من احد امراض الاطفال . ولم يعرف اريك لسنوات عديدة ان الدكتور هومبرجر زوجا لامه وليس اباه . ولقد وقع على اول مقال كتبه فى التحليل النفسى مستخدما لقب زوج امه . وعندما اكتسب الجنسية الامريكية عام ١٩٢٩ فضل ان يعرف باسمه الاصلى .

ولم يلتحق اريكسون بالجامعة فتعليمه الرســمى انتهى عند المرحلة الثانوية ولم يتعداها . وكان تلميذا ضعيفا فى المدرسة الثانوية ، ولكنه مع ذلك تفوق فى التاريخ القديم وفى الفن . ولقد رفض ان ياخذ بنصيحة زوج امه بان يعد نفسه ليصبح طبيبا ، وذلك بعد تخرجه من المدرسة الثانوية وترك البيت ليتنقل مسافرا عبر وسط اوربا . وبعد سنة من هذا التاريخ التحق بمدرسة للفن فى كارلزروه Karlsruhe ثم ادرك انه حتى الفنان الطموح يستطيع أن يتعلم شيئا اذا توافرت له بيئة تعليمية مناســبة . ومهما يكن من شىء فسرعان ما اصبح قلقا وســافر الى ميونخ ليدرس فى مدرسة مشهور للفن تســمى اكاديمية دنست The Dunst - Akademie ثم انتقل بعد عامين الى فلورنسا فى ايطاليا . وعلى الرغم من انه تجــول بغير هدف فى ربوع ايطاليا لفترة من الزمان متمتعا بجوها المشمس وزائرا لمتاحف الفن الا انه ادرك أن هذه النرجسية قد تؤدى الى سقوطه كشاب ما لم يعثر على فكرة يؤمن بها وما لم يبذل جهدا ويثابر لتحقيقها .

وفى عام ١٩٢٧ كان ا . اريكسون قــد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، فقبل دعوة غير متوقعة من بيتر بلوس P. Blos احد زملائه فى المدرسة الثانوية لكى يعمل معه كمدرس فى مدرسة للاطفال الامريكيين فى فيينا . وهى المدرسة التى انشأتها انا فرويد لاطفال اباء يتعلمون ويتدربون لكى يصبحوا

محللين نفسيين . وبعض تلاميذ اريكسون الصغار كانوا يحللون نفسيا أيضا ، وبعد ذلك عمل اريكسون على ان يتم تحليله نفسيا . وقد تحقق له ذلك .

وقد بدأت دراسة أ . اريكسون للتحليل النفسى فى مكان بالقرب من فيينا . وقد عرف عائلة فرويد ، واختير بعد ذلك كمرشح للتدرب فى معهد فيينا للتحليل النفسى ، ولقد استمر تدريبه خلال الفترة من ١٩٢٧ الى ١٩٣٣ تحت توجيه آنا فرويد وأوجست ايكهورن . وتعتبر هذه الفترة هى التدريب الاكاديمى الرسمى الوحيد الى جانب حصوله على شهادة من جماعة منتسورى للمعلمين فى فيينا . وكان من القليلين الذين حصلوا على عضوية هذه الجماعة العلمية .

وفى عام ١٩٢٩ تزوج اريكسون جوان سرسن J. Serson وكانت معلمة كندية وفنانة وعضوا فى المدرسة التجريبية التى تديرها آنا فرويد . وفى عام ١٩٣٣ م سافرت أسرة اريكسون (بها فيها أبناه) الى كوبنهاجن حيث حاول اريكسون ان يستعيد جنسيته الدانمركية وأن يساعد فى تأسيس مركز للتدريب على التحليل النفسى فى هذا القطر . وحين بدا ان هذا هدف غير عملى هاجر مع اسرته الى الولايات المتحدة الامريكية . واستقرت الاسرة فى بوسطن وكانت قد تأسست فيها جماعة للتحليل النفسى تبل ذلك بعلم واحد . ولقد اتاح وصول اريكسون فى وقت مناسب الى هذا القطر الفرصة له لكى يصبح أول محلل نفسى للاطفال فى منطقة نيو انجلاند . ولقد مارس التحليل النفسى فى بوسطن خلال العامين التاليين وحصل على وظيفة كلينيكية واكاديمية لمدة عام كزميل باحث فى علم النفس فى قسم الطب النفسى العصبى فى مدرسة الطب بجامعة هارفرد . وقد التحق أيضا كطالب للحصول على الدكتوراه فى علم النفس من هارفرد ، على الرغم من انه انسحب من هذا البرنامج الدراسى بعد ذلك بشهور قليلة . وخلال بقائه فى بوسطن شارك فى العمل قليلا مع هنرى مورى فى العيادة النفسية بجامعة هارفرد .

وخلال السنوات من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ عين اريكسون فى قسم الطب النفسى فى معهد العلاقات الانسانية وفى كلية الطب بجامعة ييل ، ولقد

اتاح له هذا المنصب حرية كاملة ليتابع ما يرغب فيه من بحوث . وخلال هذه الفترة اهتم بالانثربولوجيا الثقافية . وفى عام ١٩٣٨ م قام برحلة ميدانية الى جنوب داكوتا بيلاحظ كيف يربى السيوكس الهنود أطفالهم .

وفى عام ١٩٣٩ م انتقل اريكسون الى سان فرنسيسكو حيث استأنف عمله التحليلى مع الاطفال وواصل تنمية اهتماماته بالانثربولوجيا والتاريخ وفى عام ١٩٤٢ أصبح استاذا لعلم النفس فى جامعة كاليفورنيا ببركلى . وشارك فى الدراسة الطولية المشهورة Child Guidance Study دراسة توجيه الطفل تحت اشراف جين ماكفارلين J. Macfarlane . وتبع ذلك فترة مكثفة من الملاحظة الكلينيكية والتأمل قضاها اريكسون ليرسخ هويته المهنية كمحلل نفسى عن طريق التأليف . ولقد انتهت استاذيته فى بيركلى نهاية مأسوية حين رفض أن يوقع على يمين بالولاء Loyality oath ولقد اعتبر فيما بعد شخصا موثوقا به من الناحية السياسية ، ولكنه استقال لان الجامعة فصلت آخرين بسبب نفس التهمة . ولقد نشر كتابه الاول « الطفولة والمجتمع » عام ١٩٥٠ Childhood and Society ونقحه واعيد نشره عام ١٩٦٣ . ولقد ذاعت شهرة الكتاب ، واعتبر على اساس محتواه المتحدث باسم علم نفس الأنا فى هذا المجتمع .

وفى عام ١٩٥١ م انضم الى مجموعة من المشتغلين بالصحة النفسية فى مركز اوستن ريجز فى ستوكبروج Austin Riggs Center in Stockbridge فى ماساشستس . وهو مركز يقيم فيه الشباب المضطربون لتلقي العلاج . ولقد عمل أ . أريكسون بعض الوقت فى التدريس فى المعهد الغربى للطب النفسى فى جامعة بيتسبرج وفى معهد ماساشستس للتكنولوجيا . ولقد طور نظريته فى النمو النفسى الاجتماعى التى اقترحها فى الاصل فى كتابه الطفولة والمجتمع وذلك فى العقد التالى .

وفى صيف ١٩٦٠ وبعد عام قضاه فى مركز الدراسات المتقدمة فى العلوم السلوكية فى بالو آلتو فى كاليفورنيا Center for Advanced Studies of Behavioral Sciences انضم أريكسون مرة اخرى الى جامعة هارفرد محاضرا واستاذا للنمو النفسى . ولقد استمر رغم احالته الى التقاعد فى

العطاء وكرس قدرا كبيرا من وقته لتطبيق تصوره النظرى عن دورة الحياة الانسانية فى دراســــة الشخصيات التاريخية والاطفال وجماعات الاقلية

ولقد حصل اريكسون على جائزة بوليتزر وجائزة الكتاب الوطنى فى الفلسفة والدين على كتابة حقيقة غاندى

Gandhi's Truth. N.Y. : Norton. 1968

وفضلا عن ذلك فقد نشر ثلاثة كتب أخرى هامة هى :

Young Man Luther, A'study in Psychoanalysis and History

كتابه عن لوثر الشاب New York : Norton, 1958

ونشر عام ١٩٦٤ كتابه « الاستبصار والمسئولية » .

Insight and Responsibility, New York : Norton 1964

وفى عام ١٩٦٨ نشر كتابه « الهوية والشباب والازمة » .

Identity, Youth and Crisis, New York : Norton 1968

كما راس تحرير كتاب

Youth Change and Challenge 1968

ومن أكثر كتاباته حداثة ذلك الذى نشرة عام ١٩٧٧م

« اللعب والاسباب » Toys and Reasons

ونشر كتابه « الرشد » عام

Adulthood : New York : Norton, 1978

كما نشر كتابه « الهوية ودورة الحياة » عام ١٩٨٠ م .

Identity and The Life Cyle. N.Y. . Norton 1980

سيكولوجيا الأنا

ركز اريكسون اهتماماته النظرية الاساسية فى نمو الذات . وهو يرى أن اسهاماته فى فهم النمو الانسانى لا تعدو ان تكون امتداد نسقيا لتصورات فرويد فى النمو النفسى الجنسى فى ضــوء البيانات الاجتماعية والانثربولوجية والبيولوجية المتاحة حاليا . ولكن عمل اريكسون يمثل احتلافا واضحا عن النظرية الفرويدية فى اربعة نواح اساسية .

اولا — ان عمل اريكسون احدث تحولا كبيرا من التركيز على الهو الى التركيز على الانا ، وهو أمر أدركه فرويد جزئيا فى السنوات الاخيرة من حياته . أى أن اريكسون أكد على اهمية الانا بدلا من الهو كأساس للسلوك الانسانى ولقيام الانسان بوظائفه . لقد اعتبر الأنا بنية مستقلة للشخصية (أى أن بعض وظائف الأنا وأدائها لم ينشأ لتجنب الصراع بين الهو ومطالب المجتمع) نتبع مسارا من النمو الاجتماعى التوافقى مواز لنمو الهو وغرائزه . وهذا المفهوم لطبيعة الانسانية او ما يسمى سيكولوجية الانا يمثل تغيرا جذريا وابتعادا عن التفكير التحليلى المبكر لانه يصور الاشخاص باعتبارهم عقلانيين منطقيين فى اتخاذ القرارات وحل المشكلات .

ثانيا — قدم اريكسون منظورا جديدا فيما يتصل بعلاقة الفرد بالوالدين وبالمصفوفة التاريخية التى تقع فيها الاسرة . فبينما اهتم فرويد بتأثير الوالدين فى شخصية الطفل المنبثقة ، أكد اريكسون على الوضع النفسى التاريخى الذى تتشكل فيه اناالطفل . وهو يعتمد على دراسة حالات اناس يعيشون فى ثقافات مختلفة ليبين كيف ان نمو الأنا مرتبط بالطبيعة المتغيرة المؤسسات الاجتماعية والانساق القيمية .

ثالثا — نظرية اريكسون فى نمو الذات تضم حياة الفرد كلها من سنى المهد الى الطفولة والمراهقة ، والنضج والشيخوخة . بينما قصر فرويد اهتمامه على آثار الخبرات الطفولية المبكرة ، ولم يهتم بالنمو بعد مرحلة التناسل . ويوضح التمحيص الدقيق ان هناك قدرا من التطابق بين المفكرين فيما يتصل بالمراحل الخمسة الاولى من الحياة .

وأخيرا فان فرويد واريكسون يختلفان فيما يتصل بطبيعة الصراعات النفسية الجنسية . لقد كان فرويد يطمح فى ان يكشف عن الحياة الفعلية اللاشعورية وان يفسر كيف يمكن ان تؤدى الصدمة المبكرة الى بعض الامراض النفسية فى الرشد . وعلى العكس من ذلك لقد كانت مهمة اريكسون أن يلفت النظر الى قدرة الانسان على الانتصار على مزالق الحياة النفسية الاجتماعية ، ولذلك فان نظريته تركز على خصائص الأنا التى تنبثق فى فترات النمو المختلفة . ولعل هذا التمييز هو مفتاح فهم تصور اريكسون لتنظيم الشخصية للنمو . ونجد فى مقابل تحذير فرويد القدرى بان الانسان

سوف يتعرض للفناء الاجتماعى اذا ترك لكفاحاته الغريزية ؛ ومسلمة اركسون المتفائلة بأن كل أزمة شخصية واجتماعية تمثل تحديا بالنسبة للانسان وتؤدى الى نموه وسيادته وسيطرته على العالم . ونجد أيضا أن معرفة طريقة تغلب الشخص على كل مشكلة من مشاكل مراحل النمو وطريقة معالجته غير السلبية للمشكلات المبكرة التى تعجزه عن معالجة المشكلات اللاحقة هى مفتاح حياة الشخص عند اريكسون .

ويرى اريكسون نفسه عضوا فى المدرسة الفرويدية ؛ ويوافق البعض على ذلك لان لديه ولاء للمبادىء الاساسية التى أعلنها فرويد واعتبرها محور عمله ؛ ولانه يشبه فرويد من حيث انه ملم بالتاريخ والفلسفة ولانه كلينيكى . ويرى آخرون أن جهود اريكسون تشكل مدخلا ومنظورا مختلفا تماما عن منظور فرويد بالنسبة لدورة حياة الانسان . ويؤكد اريكسون على قوى الفرد الخلاقة التوافقية ، وهو يتفق مع الانسانيين من حيث انه يرى أن الاشخاص بحكم امكانياتهم خيرين .

وهناك نواحى تشابه بين الرجلين . وعلى سبيل المثال كلاهما يعتبر مراحل الشخصية محددة تحديدا سابقا ؛ ولا تتغير من حيث ترتيب ظهورها . كما ان اريكسون يعترف بالاسس البيولوجية والجنسية للاتجاهات الدافعية والشخصية وملتزم بنموذج فرويد البنائى (الهو والانا والانا الاعلى) للشخصية . وعلى الرغم من مجالات التداخل والاتفاق هذه ، فان كثيرا من علماء نفس الشخصية يرون جهود اريكسون واجتهاداته النظرية مختلفة اختلافا أساسيا عن فرويد .

مراحل النمو :

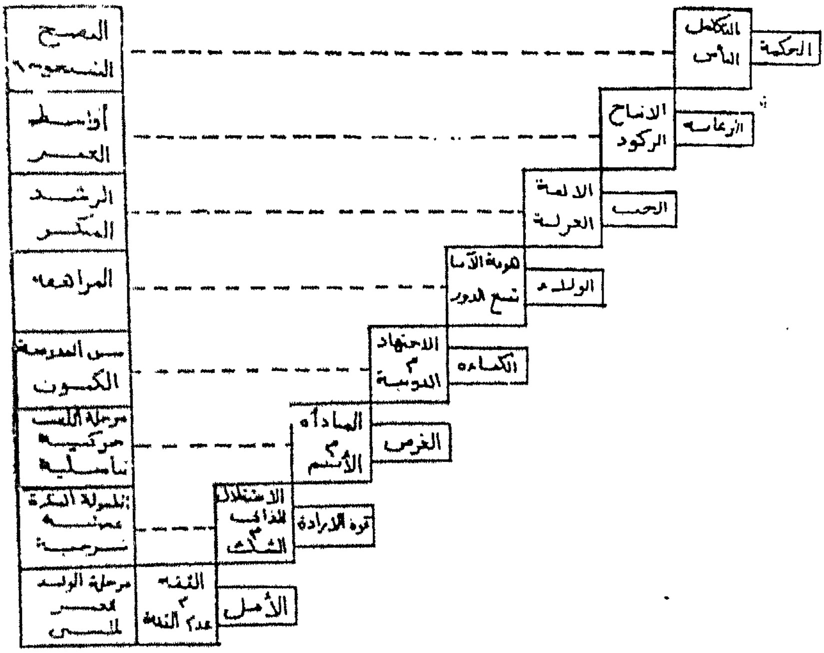
يرى أريكسون أن نمو الانسان يتميز بسلسلة من المراحل العامة التى يمر بها أبناء الجنس البشرى كافة . ولقد عرض اريكسون فى كتابه « الطفولة والمجتمع » ١٩٦٣ ثمانية مراحل متتابعة للنمو . وهو يرى ان هذه المراحل تنتج عن عوامل وراثية ، وان لكل مرحلة من مراحل الحياة من أمثل . وأن هذه المراحل متى تمت وفقا لخطتها تؤدى الى شخصية تقوم بوظائفها على نحو تام . ولقد افترض اريكسون ان كل مرحلة نفسية اجتماعية

مصحوبة بأزمة ، وهى نقطة تحول فى حياة الفرد تنشأ عن النضج الفسيولوجى وعن المطالب الاجتماعية التى على الشخص أن يستجيب لها فى تلك المرحلة . وتتحدد المكونات المختلفة للشخصية نتيجة لطريقة معالجة هذه الازمات او القيام بتلك الاعمال . والصراع جزء لا يتجزأ من نظرية أريكسون وهو جزء حيوى ويرجع ذلك الى النمو وما يرتبط به من اتساع دائرة العلاقات الاجتماعية وتزايد قابلية وظائف الانا للضرر فى كل مرحلة . وليس المقصود بالازمة كارثة تلحق بالفرد وتهدده ، بل نقطة تحول : اى أنها مصدر لنشوء قوة الفرد وتكاملة كما أنها مصدر لسوء توافقه .

ولكل أزمة نفسية اجتماعية بعدها الايجابى وبعدها السلبى . ماذا عولج الصراع بطريقة مرضية فى الاساس (كأن يكون للشخص تاريخ من انجازات الأنا) فان الانا المنبثقة تستوعب المكون الموجب (الثقة ، الاستقلال ، .... الخ) الى حد كبير ، وهكذا يزداد للتأكيد على النمو الصحى . اما اذا استمر الصراع او تمت معالجته بطريقة غير مرضية فان الأنا النامية تتعرض للاذى وتستوعب مكونا سلبيا (عدم الثقة ، الخجل ، الشك ... الخ) وتظهر الصراعات فى تسلسل نمائى ، ولكن هذا لا يعنى أن الانجازات او الاخفاقات المبكرة تلازم الفرد بصفة دائمة . فخصائص الانا التى تكتسب فى كل مرحلة تتاثر بالصراعات الجديدة وبالظروف المتغيرة . والنقطة الاساسية هى انه ينبغى على الشخص ان يحل على نحو سليم كل أزمة لكى يتقدم الى المرحلة التالية من النمو على نحو متوافق وصحى .

ان اعتماد اريكسون على مبدأ التخلق المتعاقب فى النضج قد يظهر بوضوح فى الرسم البيانى (شكل ٦ — ١) الذى يوضح الازمات النفسية الاجتماعية فى دورة الحياة . ان هذا الرسم البيانى يوضح مراحل النمو التى تظهر على شكل سلم متدرج هرميا مرتب ترتيبا زمنيا . وتشتمل المربعات القطرية على الفضيلة المرتبطة بحل كل أزمة ، اى على عنصر القوة النفسى الاجتماعى فيها . ويتسق مع مبدأ التخلق المتعاقب ان كل مرحلة تنبنى على حل الصراعات النفسية الاجتماعية السابقة وتكاملها . ويقترح أريكسون أن جميع الصراعات موجودة فى شكل ما منذ بداية الحياة وهو

يحدد الشروط أو الظروف التى يحتمل أن تتوافر فى نطايا الصحة النفسية الاجتماعية أو لا تتوافر وذلك بالنسبة لكل مرحلة من مراحل النمو وما يرتبط بها من أزمات .



(شكل ٦ــ١ يوضح مراحل النمو النفسى الاجتماعى عند أريكسون)

وعلى الرغم من ان اريكسون يسلم بأن للمراحل الثمانية خاصية عامة للنمو الانسانى الا انه يعتقد أيضا ان هناك قدرا من التباين الثقافى فى الطريقة التى يعالج بها الفرد مشكلات كل مرحلة وفى الحلول الممكنة لهذه المشكلات . وعلى سبيل المثال فان طقوس البلوغ الموجودة فى كل الثقافات تتفاوت تفاوتا كبيرا من ثقافة الى اخرى ؛ من حيث صيغة التعبير عنها وتأثيرها على الفرد . وفضلا عن ذلك فان أريكسون يشعر ان هناك تآزرا وتناسقا هاما وجوهريا فى كل ثقافة بين الفرد النامى والبيئة الاجتماعية . وهذا التناسق يشهد عليه قانون النمو التبادلى الذى يضمن ان يوفر المسئولون فى المجتمع الرعاية للفرد النامى حين تشتد حاجته لتلك الرعاية . وهكذا فان حاجات الاجيال وقدراتها تترابط على نحو محبوك . وهذا النمط المركب من الاعتماد المتبادل بين الاجيال يعبر عنه اريكسون فى مفهومه عن تبادل المنفعة .

ويمكن توضيح تحليل اريكسون للتنشئة الاجتماعية على افضل نحو بوصف الملامح المميزة لكل مرحلة من مراحل النمو النفسي الاجتماعي الثمانية :ـ

١ ــ الثقة الاساسية مقابل عدم الثقة ــ الامل :

تتطابق هذه المرحلة مع المرحلة الفمية عند فرويد وتمتد خلال العام الاول من حياة الطفل تقريبا . والاحساس العام بالثقة هو حجر الاساس الشخصية الصحية عند اريكسون . والطفل الذى لديه ثقة اساسية داخلية يرى العالم الاجتماعى عالما آمنا ومكانا مستقرا ويرى الناس عطوفين موثوقا بهم . ان هذا الاحساس بالثقة واليقين يكون خلال هذه الفترة شعوريا الى حد ما .

ويرى اريكسون ان مدى قدرة الاطفال الصغار على اكتساب الاحساس بالثقة فى الآخرين وفى العالم يتوقف على نوعية رعاية الام لهم . فالام هى التى تضبط الاشباع والامان . ذلك ان الاحساس بالثقة لا يعتمد على مقدار الطعام الذى يتلقاه الطفل ولا على تعبيرات العطف ؛ بل يتوقف على قدرة الام على توفير الاحساس بالالفة للطفل وبالاتساق وبالاستمرارية وبتماثل الخبرة . ويؤكد اريكسون على انه ينبغى أن يثق الاطفال لا فى العالم الخارجى فحسب بل وفى العالم الداخلى ايضا ، اى انه ينبغى عليهم ان يتعلموا الثقة فى انفسهم وفى قدرة اعضائهم على أن يعالجوا على نحو فعال رغباتهم الجسمية . ويظهر هذا السلوك حين يستطيع الطفل ان يتحمل غياب الأم دون أن يعانى من قلق الانفصال معاناة كبيرة .

ان ما يثير الازمة النفسية الاجتماعية الاولى فى حياة الطفل هو نوعية رعاية الام وهذه النوعية تتميز بعدم الثبات وعدم الملاءمة والنبذ وهكذا. تنمى الأم عند الوليد اتجاها نفسيا اجتماعيا قوامه الخوف والريبة والرهبة نحو العالم والناس . وتظهر اثاره السيئة فى مراحل النمو اللاحقة للشخصية . وفضلا عن ذلك فان اريكسون يشعر ان الاحساس بعدم الثقة قد ينجم حين تحول الام انتباهها واهتمامها الى مسائل اخرى غير الطفل ؛ مثلا كانت قد اجلت الاهتمام بها فى فترة الحمل وحتى الولادة ، كأن تعود الى

تحملها ، أو تحمل طفلا جديدا) وأخيرا فان اختلالات الوالدين فى انماط رعاية الطفل ونقص ثقتهم فى دورهم كآباء واختلاف نسقهم القيمى وتعارضه مع أسلوب الحياة السائد فى ثقافتهم قد يخلق جوا من الغموض بالنسبة للطفل مما يؤدى الى مشاعر عدم الثقة . وتتمثل النتائج السلوكية لقصور نمو الاحساس بالثقة فى الاكتئاب الحاد عند الاطفال الصغار ، والبارانويا عند الراشدين . وهو يلاحظ ان مثل هؤلاء الافراد حين يبداون فى تكوين علاقة مع المعالج النفسى ينبغى أن يطمئنوا الى انهم يستطيعون ان يثقوا فى انفسهم وفى النهاية ان يثقوا فى المجتمع .

وثمة مسلمة أساسية فى النظرية النفسية الاجتماعية مؤداها ان أزمة الثقة مقابل عدم الثقة (أو اى ازمة لاحقة) لا تحل حلا نهائيا دائما خلال السنة الاولى او الثانية من الحياة .. وسوف تظهر الثقة مقابل عدم الثقة فى كل مرحلة تالية من مراحل النمو اتساقا مع مبدأ التخلق التدريجى ، على الرغم من انها الازمة المركزية فى هذه المرحلة العمرية . وعلى اية حال ، فان الحل السليم لأزمة الثقة له آثار ونتائج هامة فى النمو المستقبلى لشخصية الطفل . فترسيخ الثقة بالذات والثقة بالام يمكن الاطفال من تحمل الاحباطات التى يواجهونها ويخبرونها لا محالة خلال مراحل النمو اللاحقة .

ويلاحظ اريكسون ان النمو الصحى لدى الطفل لا ينتج كلية من احساس تام بالثقة وانما ينتج حين ترجح نسبة الثقة على نسبة عدم الثقة . ومن الأهمية بمكان ان نتعلم مالا نثق فيه كتعلمنا لما نثق فيه . فالقدرة على التنبؤ واستباق الخطر اساسية فى السيطرة على البيئة وفى الحياة الفعالة . وهكذا ينبغى أن ينظر الى الثقة الاساسية على أساس سلم متدرج للانجاز . ويذهب اريكسون الى ان لدى الحيوان استعدادا غريزيا لاكتساب هذه القدرة ، غير انه ينبغى على افراد الانسان ان يتعلموا ذلك . وفضلا عن ذلك فانه يرى أن الأمهات فى الثقافات المختلفة ومن الطبقات الاجتماعية المتباينة سوف يعلمون الثقة وعدم الثقة لاطفالهم بطرق مختلفة وبالتالى يعكسون اثر التباين الثقافى ومع ذلك فان اكتساب الاحساس بالثقة عام فى جوهره بمعنى أن الفرد يستطيع ان يثق فى العالم الاجتماعى من خلال امه وانها سوف تعود لتطعمه الطعام المناسب فى الوقت المناسب .

وتسمى الفضيلة التى يكتسبها الفرد من الحل الناجح لصراع الثقة وعدم الثقة الأمل Hope فالثقة تعنى قدرة الطفل على استشراق الأمل ، وهذا بدوره هو أساس ايمان الراشد بدين معين . ويفيد الأمل فى المحافظة على ايمان الفرد واعتقاده بعالم ثقافى مشترك له معناه وقيمته . وعلى العكس من ذلك : فان اريكسون يؤكد على أنه حين تخفق المؤسسات الدينية فى توفير مغزى واضح وملموس للفرد ؛ تفقد كثيرا من معناها بالنسبة له وقد يتحول عنها الى غيرها .

٢ — الاحساس بالاستقلال الذاتى مقابل الخجل والشك — قوة الارادة :

ان اكتساب الاحساس بالثقة يهيىء المسرح لاكتساب الاحساس بالاستقلال الذاتى وضبط الذات . وهذه الفترة تتطابق وتتفق مع المرحلة الشرجية عند فرويد وهى تستغرق السنة الثانية والثالثة من الحياة . ووفقا لما يراه اريكسون يكون لدى الطفل فى هذه المرحلة الخيار بين الاحتفاظ والترك .

ان النضج العضلى يهيىء المسرح لمجموعة من الأساليب الاجتماعية التى تتسم بالثنائية الوجدانية وهى الامساك والاطلاق . وقد يصبح الامساك احتفاظا هداما أو ضبطا او نوعا من الاهتمام بأن تملك وأن تحافظ على ما تملك . والاطلاق أو التخلى يمكن ان يتحول الى اطلاق ضار او مسترخ . وهكذا تصبح هذه المرحلة حاسمة . والاحساس بضبط الذات دون فقدان لتقدير الذات مصدر للثقة فى الارادة الحرة ، والاحساس بالضبط الزائد وفقدان الضبط الذاتى يمكن ان يؤدى الى نزعة دائمة للشك والخجل .

وقبل هذه المرحلة كان الأطفال معتمدين اعتمادا تاما على الراشدين الذين يرعونهم ؛ وكان سلوكهم محكوم الى حد كبير بالقوى الخارجية ولكنهم مع اكتسابهم لنضج عصبى عضلى على نحو سريع ؛ وتعلم الكلام والتمييز الاجتماعى ؛ يبدأون فى ارتياد بيئتهم والتفاعل معها على نحو اكثر استقلالا . وهم يشعرون بالفخر فى اكتشاف مهاراتهم الحركية الجديدة ويريدون ان يعملوا كل شيء بأنفسهم (يرتدون ملابسهم ؛ ويطعمون انفسهم) ولديهم

رغبة هائلة فى الارتياد والاختيار ، والتناول مع اتجاه نحو الوالدين قوامه « دعني اعمل هذا » ، « انا ما اريد ان اكون » .

وتعتمد مواجهة الأزمة النفسية الاجتماعية فى هذه المرحلة على نحو مرضى وبصفة اساسية على ارادة الوالدين فى السماح للأطفال على نحو تدريجى بالحرية فى ضبط انشطتهم التى تؤثر فى حياتهم . وفى نفس الوقت يؤكد اريكسون على انه ينبغى على الوالدين أن يحافظا على حدود حاسمة ومعقولة فى مجالات حياة الأطفال التى تشتمل على ما يمكن ان يؤذيهم او يؤذى الآخرين . ان الاستقلال الذاتى لا يعنى توفير حرية غير مقيدة للطفل ، بل يعنى ان على الوالدين أن يوفرا درجات من الحرية تتناسب وقدرة الطفل النامية لممارسة اختياراته .

ويدرك اريكسون ان الطفل يشعر بالخجل حين لا تتاح له ممارسة استقلاله الذاتى . وقد يحدث هذا اذا كان الوالدان غير صبورين ويصران على أن يعملا للاطفال ما يقدران على عمله ، او اذا توقعا من اطفالهما القيام باعمال لا يقدران هم عليها . وكل اب بالتاكيد قد دفع بطفله احيانا ابعد من الحدود المعقولة للتوقعات . وعندما يبالغ الوالدان فى الحماية او يتسمان بعدم الحساسية ازاء الأطفال ، يتولد لدى الأطفال احساس بالخجل ازاء الآخرين واحساس بالشك فى فاعليتهم فى السيطرة على العالم وعلى انفسهم . وبدلا من الاحساس بالثقة فى الذات فيما يتصل بقدرتهم على تناول البيئة على نحو فعال ، يشعرون انهم تعرضوا لتمحيص متسم بالرفض، او أن الآخرين يعتبرونهم بغير فائدة ولا امل فيهم . انهم فى شك فى قوة ارادتهم وفى أولئك الذين يسيطرون عليهم ويستغلونهم . والنتيجة اتجاه نفسى اجتماعى قوامه الشك فى الذات والضعف والخرق .

ولما كانت كل مرحلة نفسية اجتماعية تبنى على المرحلة السابقة ، فان اكتساب احساس مستقر بالاستقلال الذاتى يضيف اضافة جوهرية الى احساس الطفل بالثقة وهذا الاعتماد المتبادل بين الثقة والاستقلال الذاتى قد يكون له احيانا تاثير ضار على النمو النفسى الاجتماعى المستقبلى . وعلى سبيل المثال فالأطفال الذين اكتسبوا احساسا مهزوزا بالثقة قد يصبحون

خلال مرحلة الاستقلال الذاتى مترددين خائفين غير آمنين فيما يتصل بتأكيد ذواتهم ، ومن ثم يستمرون فى البحث عن المساعدة وفى تشجيع الآخرين على القيام بأعمال لهم . ويرى اريكسون أنهم حين يصبحون راشدين يغلب ان يظهروا سلوكا وسواسيا قهريا (لضمان الضبط والسيطرة) أو خوفا يتسم بالبارانويا من اناس يضمرون لهم الاضطهاد سرا .

والمكون الاجتماعى المقابل للاستقلال الذاتى هو سيادة القـــانون والنظام . ويرى اريكسون أن على الأباء أن ينقلوا الى أبنائهم التزاما عميقا بالعدالة واحترام حقوق الآخرين ، اذا أرادوا أن يعدوا أطفالهم ليصبحوا مستقلين ذاتيا فى الرشد بدرجة معقولة .

٣ — المبادأة مقابل الشعور بالأثم — الغرض :

أن المبادأة مقابل الشعور بالاثم هو الصراع النفسى الاجتماعى الأخير الذى يخبره طفل ما قبل المدرسة ، اى الذى يخبره خلال الفترة التى يسميها اريكسون سن اللعب play age . وهذه الفترة تتطابق وتقابل فترة المرحلة القضيبية عند فرويد وتستمر من سن الرابعة الى سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية . وفى هذه الفترة يجد الطفل تحديا من عالمه الاجتماعى لكى يكون نشطا ، ولكى يتقن الاعمال الجديدة والمهارات ولكى يكتسب موافقة الآخرين على أنه منتج . ويبدأ الأطفال ايضا فى الاضطلاع بمسئولية جديدة لانفسهم ولما يؤلف عالمهم (أى اجسامهم ولعبهم وحيواناتهم الاليفة واحيانا أخـــوتهم الأصغر منهم سنا ، ويظهر اهتمامهم بالعمل مع الآخرين وبتجريب الأشياء الجديدة وبالتصدى للمسئوليات المتوافرة فى المجتمع حولهم . وتتيح لهـــم لغتهم الطيعة ومهاراتهم الحركية الارتباط بالأتراب وبالأطفال الاكبر ســـنا خارج بيئتهم المباشرة ، وهذا يتيح لهم المشاركة فى العاب اجتماعية معينة . وفى هذا العمر يبدأ الأطفال فى الشعور بأنهم اشخاص وان الحياة لها هدف وغرض بالنسبة لهم . ويصبح القول « أنا ما سوف أكون عليه » تعبيرا عن الاحساس بالهوية يسيطر على الطفل خلال سنى اللعب هذه . يقـــول اريكسون « ان المبادأة تضيف الى الاستقلال الذاتى خاصية جـــديدة هى التكفل بالعمل والتخطيط له وتنفيذه بقصد الحركة ، بينما كان الأمل قبل ارادة

الذات Self - will على الأغلب يؤدى الى أفعال التحدى والاعتراض يؤدى، وعلى اية حال الى نوع من الاستقلال المحتج » (1963, p. 55)

هل سيترك الأطفال هذه المرحلة من مراحل النمو ولديهم احساس بالمبادأة يغلب على احساسهم بالاثم ؟ أم أن العكس هو الصحيح ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال ايجابا أو نفيا تتوقف الى حد كبير على استجابات الوالدين لانشطة اطفالهم المبادئة فالأطفال الذين يشجعون على أن يتكفلوا بانشطتهم يجدون تعزيزا لهذه المبادأة . ويتيسر نمو المبادأة حين يعترف الآباء بحب استطلاع أطفالهم ولا يسخرون من نشاطهم التخيلى أو يكفونه . ان النمو الناجح فى هذه المرحلة يؤدى الى أن يكون سلوك الطفل موجها نحو هدف .

وينشأ الاحساس بالاثم عندما لا يتيح الآباء لأطفالهم الفرصة لاتمام أعمالهم معتمدين على أنفسهم . وهذا الاحساس بالاثم ينمو أيضا اذا استخدم الوالدان مقادير مبالغ فيها من العقاب (لفظيا كان او جسميا) كاستجابة لرغبة الطفل فى أن يحب أمه وتحبه اذا كان ولدا ؛ وان يحب اباه ويحبه اذا كان بنتا.واريكسون هنا ياخذ بمفهوم فرويد عن الطبيعة الجنسية للأزمة النمائية المتضمنة ؛ (اى التوحد مع الدور الجنسى ، وعقدة اوديب والكترا) ؛ على الرغم من ان مفهومه ذا صبغة اجتماعية اكبر . وعلى اية حال فان الطفل الذى يعوق الاثم حركته يشعر ويخبر الاستسلام وعدم الجدوى والجدارة . ومثل هؤلاء الأطفال يخلفون تأكيد ذواتهم ويعيشون على هامش الجماعات ، ويعتمدون اعتمادا كبيرا على الراشدين ؛ وتنقصهم الشجاعة لتحديد اهداف ومرامى عيانية ومتابعتها . ويقترح اريكسون ايضا ان الاحساس بالاثم الملح قد يتطور ويتخذ صورا مرضية نفسية عند الراشدين بما فى ذلك السلبية العامة والعنة الجنسية او البرود الجنسى والسيكوباتية.

واخيرا فان درجة المبادأة التى يكتسبها الطفل فى هذه المرحلة من حياته ترتبط بالنظام الاقتصادى للمجتمع المحلى . فامكانيات الطفل للعمل المنتج فى المستقبل ولتحقيق الاكتفاء الذاتى فى سياق النظام الاقتصادى لمجتمع يعتمد الى حد كبير على قدرته على مواجهة هذه الأزمة النفسية الاجتماعية على نحو سليم .

٤ — الاجتهاد مقابل القصور — الكفاءة :

تقع مرحلة النمو النفسى الاجتماعى الرابعة فى الفترة من ٦ سنوات الى ١١ سنة من عمر الطفل (وهى سن المدرسة) وتطابق مرحلة الكمون عند فرويد. وهنا ولأول مرة يتوقع من الطفل أن يتعلم المهارات الأولية لثقافته عن طريق التعليم الرسمى (يتعلم القراءة والكتابة والتعاون مع الآخرين للقيام بأنشطة محددة) وترتبط هذه الفترة من حياة الطفل بتزايد قدراته على الاستدلال الاستنباطى وضبط الذات ، وكذلك بقدرته على أن يرتبط بأترابه وفقا لقواعد سبق تحديدها . وعلى سبيل المثال فان الأطفال لا يستطيعون انتظار أدوارهم الواحد بعد الآخر والمشاركة فى النشاط على أساس الدور قبل هذا السن . وهذا يتطلب الامتثال لقواعد مفصلة . وحب الصبى لأمه والبنت لابيها والتنافس مع الأب من نفس الجنس يتم اعلاؤه ويعبر عن هذا الاعلاء برغبة شديدة فى التعلم والانتاج .

ويلاحظ اريكسون ان تربية الاطفال فى المجتمعات البدائية غير معقدة ونفعية اجتماعية . فتعليم استخدام الأدوات والاسلحة وغيرها من الاشياء يرتبط على نحو مباشر بالدور الذى سوف يلعبه الطفل حين يكبر . وعلى العكس من ذلك ان الاطفال فى الثقافات ذات اللغات المكتوبة يتعلمون أولا أدوات القـراءة والكتابة ، وهذه تمكنهم بمضى الزمن من اتقـان المهارات المعقدة التى تتطلبها المهن المختلفـة والأعمال المتبـاينة وما يرتبط بها من انشطة . والواقع انه على الرغم من ان نوع التعليم الذى يقدم للأطفال يختلف باختلاف الثقافة ، الا ان الاطفال يصبحون اكثر حساسية واهتماما بالنواحى التكنولوجية الجماعيـة technological ethos لتلك الثقـافة وبهويتهم بالنسبة لها .

ويرى اريكسون ان الاطفال ينمون احسـاسا بالاجتهاد حين يبداون فى فهم تكنولوجيا ثقافتهم عن طريق الدراسة بالمدرسة . ولفظ اجتهاد يحدد قيمة النمو الأسـاسية فى هذه الفترة لان الأطفال ينشغلون فيها بطريقة صنع الاشياء وادارتها وتشغيلها . وهذا الاهتمام يتعزز ويتيسر عن طريق الآخرين فى الجيرة والمدرسة الذين يتمون هذه العناصر التكنولوجية الاجتماعية عن

طريق التعليم والعمل معهم وتصبح هـوية الطفل فى هـذه المرحلة « انا ما أتعلم » .

ويكمن الخطر فى هذه المرحلة فى امكانية تنمية احساس بالدونية وعدم الكفاءة ، وعلى سبيل المثال اذا شك الأطفال فى مهاراتهم او امكاناتهم بين أقرانهم ، فقد يتقاعسون عن متابعة التعلم (وتترسخ الانجاهات نحو المعلمين ونحو التعلم خلال هذه الفترة) وقد ينمو الشعور بالقصور او النقص أو الدونية اذا اكتشف الاطفال ان قيمتهم كأشخاص تتحدد على أساس جنسهم او عنصرهم أو دينهم او مكانتهم الاجتماعية الاقتصادية وليس على اساس مهارتهم أو دافعيتهم ، والنتيجة أن الأطفال قد يفقدون الثقة فى قدرتهم على المشاركة فى عالم العمل .

وكما لوحظ من قبل فان شعور الطفل بالكفاءة والاجتهاد يتأثر الى حد كبير على الأقل فى الثقافات القارئة بانجازه التعليمى . ويرى اريكسون ان هناك اثرا سلبيا ممكنا لهذا التعريف المحدد او الضيق للنجاح وبتعبير أدق اذا قبل الأطفال الانجاز المدرسى او العمل على انه المعيار الوحيد للحكم على قيمتهم فقد يصبحون عبيدا بدرجة كبر لسلطة العمل فى ثقافتهم وللتنظيم الهرمى للأدوار الذى حددته تلك السلطة . وهكذا فان الاحساس بالاجتهاد الحقيقى يتضمن او يتطلب اكثر من مجرد انجازات تربوية ومطامح مهنية . فالاجتهاد يشتمل على احساس بأن الفرد كفء فى العلاقات بين الشخصية والثقة فى انه يستطيع ان يؤثر تأثيرا موجبا فى العالم الاجتماعى وأن يسعى لتحقيق ذاته كفرد له مغزى ، وأن يبلغ مرامى اجتماعية لها معنى . وهكذا فان الكفاءة قوة نفسية اجتماعية اساسية للمشاركة فى النظام الاجتماعى السياسى الاقتصادى .

٥ — المراهقة — هوية الانا مقابل تميع الدور — الولاء والاخلاص :

المراهقة هى المرحلة الخامسة من دورة الحياة عند اريكسون ولها اهميتها فى نمو الفرد النفسى الاجتماعى . فى هذه المرحلة لم يعد الفرد طفلا ولم يصبح راشدا (من سن ١٢ الى ٢٠) وفيها يواجه المراهق مطالب

اجتماعية مختلفة وتغيرات اساسية فى الدور لمواجهة تحديات الرشد . والحق أن اهتمام اريكسون النظرى بالمراهقة وبالمشكلات المصاحبة لها أدت الى تحليله لهذه المرحلة تحليلا مفصلا اكثر من اى مرحلة أخرى من مراحل النمو .

يرى اريكسون ان البعد النفسى الاجتماعى الجديد الذى يظهر خلال المراهقة اما أن يكون احساسا بهوية الأنا ، اذا كان موجبا ، أو احساسا بتميع الدور اذا كان سالبا . والعمل الذى يواجه المراهقين هو أن يبلوروا جميع المعارف التى اكتسبوها عن انفسهم (كأبناء وتلاميذ ورياضيين.. الخ) وأن يوجدوا تكاملا بين هذه الصور المختلفة للذات بحيث تصبح صورة شخصية تظهر وعيا بالماضى وبالمستقبل الذى يترتب على الماضى . ويؤكد اريكسون على الطبيعة النفسية الاجتماعية لهوية الأنا دون أن يركز على الصراعات بين البنيات النفسية بل يركز على الصراع داخل الأنا نفسها ، أى بين الهوية مقابل التميع فى الدور . والتأكيد هو على الأنا وطريقة تأثرها بالمجتمع وخاصة بجماعة الأتراب .

ويكشف تعريف اريكسون عن ثلاثة عناصر متضمنة فى تكوين الهوية :

أولا : ينبغى ان يدرك الأفراد انفسهم باعتبار ان لديهم نفس الاستمرارية الداخلية او المماثلة ، أى أنهم ينبغى أن يخبروا انفسهم عبر الزمن باعتبار أنهم ما زالوا فى الحاضر نفس الأشخاص الذين كانوا فى الماضى .

ثانيا : ينبغى ان يدرك الآخرون فى نفس البيئة الاجتماعية المماثلة والاستمرارية فى الفرد . وهذا معناه أن المراهقين يحتاجون الى أن يدرك الآخرون وحدتهم الداخلية التى نموها فى وقت مبكر . وبمقدار ما يكون المراهقون فى شك فيما يتصل بمفاهيم الذات وصورها الاجتماعية بمقدار ما تعوق مشاعر الشك والخلط وعدم الاكتراث احساسهم البازغ بالهوية .

ثالثا : ينبغى أن يتوافر للأفراد ثقة تتزايد فى التطابق بين خطوط الاستمرارية الداخلية والخارجية ، أى ينبغى أن تثبت مدركاتهم للذات مصداقيتها بالتغذية الراجعة المناسبة من خبراتهم مع الآخرين .

ويقتضى نضج المراهق اجتماعيا وانفعاليا احاطته بطرق جديدة لتقدير العالم وتقويمه من حيث علاقته به . ويستطيع المراهقون أن يتصوروا اسرا مثالية وعقائد وفلسفات ومجتمعات ، ويستطيعون بالتالى أن يقارنوا هذا بخبرتهم المحدودة بأشخاصهم ومؤسساتهم القاصرة . ويصبح عقل المراهق عقلا ايديولوجيا يبحث عن الأفكار الملهمة والموحدة ، وهكذا فان التشويش والخلط فى المثل العليا ينتج عن الاخفاق فى التوصل الى قيم باقيـة فى ثقافة الفرد وعقيدته وايديولوجيته والشخص الذى يعانى من تشويش فى الهوية لم يراجع ويعيد تقويم المعتقدات الماضية ولم يتوصل الى حل يتركه حرا فى العمل والفكر .

واخيرا فان الدور الجنسى الملائم ضرورى لنمو الاحساس بالهوية الشخصية . ويبين اريكسون أنه حيث تحدث التوحدات الانثوية والذكرية المناسبة تنمى الشخصية خليطا صحيا ومنسجما من الخصائص المحددة جنسيا . والاخفاق فى تحقيق هوية جنسية مناسبة كثيرا ما يؤدى الى تشويش ثنائى الجنس ، يضعف بنية الهوية .

ويذهب اريكسون الى أن اساس المراهقة الناجحة وتحقيق هوية متكاملة موجود أصلا من الطفولة المبكرة . فبالاضافة الى ما يجلبه الأفراد معهم من الطفولة عندما يصلون الى مرحلة المراهقة ، تتأثر تنمية الاحساس بالهوية لدى المراهقين تأثرا له مغزاه بالجماعات الاجتماعية التى يتوحدون معها . ولقد اكد اريكسون على سبيل المثال على ان التوحد الزائد مع الأبطال المشهورين (نجوم السينما والرياضة وغيرها) او مع جماعات الثقافة المضادة كالقادة الثوريين والجانحين ، يفصل الهوية النامية عن بيئتها ، مما يخمد الأنا ويقيد الهوية المنبثقة . وبالمثل فان هوية الأنا قد تكون اصعب منالا بالنسبة لجماعات معينة من الناس عنها بالنسبة لجماعات اخرى . وعلى سبيل المثال قد يكون من الصعب على شابة ان تحقق احساسا راسخا أو وطيدا بالهوية فى مجتمع تحتل فيه مكانة من الدرجة الثانية . ويرى اريكسون أن الحركة النسائية قد اجتذبت كثيرا من المؤيدين لها لان المجتمع الغربى حتى وقت قريب قد أحبط جهود المراة لتحقيق هوية موجبة (أى ان المجتمع لم يكن

مريدا لاستيعاب النساء فى ادوار اجتماعية ومهنية جديدة) كما أن أعضاء جماعات الأقلية يجدون صعوبات فى تحقيق احساس راسخ متسق بالهوية.

ويرى اريكسون أن المراهق قابل للتعرض للأذى نتيجة لضغوط التغيرات السريعة الاجتماعية والسياسية والتكنولوجية التى تضر بهويته . وهذا التغير الذى يثيره التفجر المعرفى،يسهم فى الاحساس الغامض بالشك والقلق وعدم الاستمرارية . انه يهدد أيضا بتحطيم كثير من القيم التقليدية العزيزة التى تعلمها الشباب وخبروها وهم أطفال . وتعكس الفجوة بين الأجيال بعض السخط وعدم الرضا العام بقيم المجتمع ولعل اضطرابات الشباب وحركاتهم مثال يوضح هذا ، وقد انتشرت هذه الاحتجاجات فى أروقة الجامعات خلال الستينيات فى أمريكا وأوروبا وأماكن أخرى من العالم. وما يبدو حقيقة بالنسبة لجيل يبدو وهما وخيالا للجيل الذى يليه . وبناء على ذلك يفسر اريكسون كثيرا من الحركات الاجتماعية للشباب باعتبارها محاولة لترسيخ استمرارية هويتهم بين الماضى والحاضر انطلاقا الى المستقبل .

ان اخفاق الشباب فى تنمية هوية شخصية بسبب خبرات الطفولة السيئة و الظروف الاجتماعية الحاضرة يؤدى الى ما يسميه اريكسون أزمة الهوية . ان ازمة الهوية أو تميع الدور كثيرا ما يتميز بعجز عن اختيار عمل أو مهنة او عن مواصلة التعليم . ويعانى كثير من المراهقين من صراع العصر ويخبرون احساسا عميقا بالتفاهة ، وبعدم التنظيم الشخصى ، وبعدم وجود هدف لحياتهم . انهم يشعرون بالقصور والغربة ، واحيانا يبحثون عن هوية سلبية ، هوية مضادة للهوية التى حدد خطوطها الوالدان أو جماعة الأتراب ويفسر بعض السلوك الجانح بهذه الطريقة . وعلى أية حال فان الاخفاق فى ترسيخ هوية شخصية مناسبة لا يعنى بالضرورة ان المراهق محكوم عليه بحياة تتسم بهزيمة مستمرة . ذلك ان اريكسون يؤكد على ان الحياة تغير مستمر ، وحل المشكلات فى مرحلة معينة من مراحل الحياة لا يعنى عدم ظهورها مرة أخرى فى مراحل لاحقة ، أو ان ذلك يمنع اكتشاف حلول جديدة لها . ان هوية الأنا كفاح يستمر مدى الحياة .

ان التأخر فى اضطلاع المراهقين بأدوار الراشدين ومسئولياتهم مسموح به لقطاعات معينة منهم فى معظم المجتمعات . ولقد وضع اريكسون

الاصطلاح Psychological moratorium ويقصد به الفترات الزمنية بين المراهقة والرشد . انها تعنى أن المراهق يؤجل دفع ما عليه من التزامات قبل المجتمع . وقد تم تقنين هذا التأجيل بانشاء مؤسسات التعليم العالى التى تمكن الشباب من استكشاف عدد من الادوار الاجتماعيسة والمهنية المختلفة قبل ان يقرروا ما يفعلونه بحياتهم . وفى حالات اخرى جنح الشباب وباعداد ليست بالقليلة فى الولايات المتحدة الامريكية الى التجـول وتكوين جماعات لها طقوسها واستكشاف بدائل للزواج التقليدى وللحياة الأسرية وذلك قبل أن يستقروا فى بيئة أو مجتمع محلى معين .

وينبثق الولاء والاخلاص fidelity من الحل السليم لهوية الآنا — وتميع الدور . ان هذا الولاء والاخلاص يشير الى قدرة الفرد على المحافظة على ولاءاته وتعهداته الحرة على الرغم من تناقضات القيم التى لا يمكن تجنبها. ويمثل الولاء والاخلاص باعتباره حجر الأساس فى الهوية قدرة الشاب على ادراك الاخلاق الاجتماعية وايديولوجية المجتمع والتمسك بها.والايديولوجية تعنى عند اريكسون مجموعة لا شعورية من القيم والمسلمات التى تعكس الفكر السياسى والدينى والعلمى للثقافة ، والغرض من الايديولوجية خلق صورة للعالم مقنعة بدرجة تكفى لدعم الاحساس الفردى والجماعى بالهوية. وتزود الايديولوجيات الشباب باجابات مبسطة جدا ، ولكنها اجابات محددة لاسئلة اساسية مرتبطة بصراع الهوية ، اى عنى انا والى اين امضى ؟ والشباب حين تلهمهم الايديولوجية ينجذبون الى انشطة تتحدى طرق الثقافة الراسخة : انشطة تتسم بالثورة والتمرد والشغب . ويرى اريكسون أن النقص فى الايمان بنسق ايديولوجى يمكن ان يؤدى الى عدم احترام لأولئك الذين يحكمون انساق القاعدة الاجتماعية social rule والى خلط وتشويش كبيرين .

٦ — الألفة مقابل العزلة — الحب :

ان المرحلة السادسة من دورة الحياة تمثل البداية الرسمية لحياة الرشد . وهذه هى المرحلة التى يصبح الشخص فيها عادة منغمسا فى الخطبة والزواج والحياة الأسرية المبكرة ، وتمتد من المراهقة المتأخرة حتى

الرشد المبكر (أى من سن ٢٠ الى ٢٤ سنة) وخلال هذه الفترة يوجه الراشدون انفسهم عادة نحو اتقانهم لعمل او مهنة ونحو الاستقرار . ويرى اريكسون كما فعل فرويد أن الشخص فى هذه الفترة يكون مستعدا استعدادا حقيقيا للألفة الاجتماعية والارتباط مع شخص آخر . وقبل هذا كان سلوك الشخص الجنسى مدفوعا بالبحث عن هوية الآنا غير ان اكتساب الاحساس بالهوية الشخصية بالانغماس فى عمل منتج يميز هذه المرحلة ويؤدى الى تكوين بين شخصى جديد قطباه الالفة من ناحية والعزلة من ناحية اخرى .

ومصطلح الالفة عند اريكسون كثير الابعاد من حيث المعنى والمجال . وهو يعنى الألفة والمودة التى يشارك فيها معظمنا (زوجه ، وأصدقاءه واخوته وأخواته ووالديه واقاربه) . وهو على اية حال يتحدث عن المودة والالفة مع الذات ، اى قدرة الفرد على أن يدمج هويته مع شخص آخر دون خوف من فقدان شىء من ذاته. وهذا الجانب من الالفة والمودة هو الذى يراه اريكسون أساسيا لتحقيق زواج له معنى . وبالمثل فانه يرى أن المعنى الحقيقى للاحساس بالألفة لا يمكن اكتسابه ما لم يكن الشخص قد حقق قبل ذلك هوية شخصية متماسكة محكمة . وبعبارة اخرى ، لكى تكونون ودودا الوفا مع شخص آخر او مع نفسك ، ينبغى عليك ان تكون قد نميت احساسا قويا رصينا بمن انت ، ومن تكون . ومن جهة اخرى فان وقوع المراهق فى الحب قد لا يكون أكثر من محاولة لاستكشاف هوية الذات باستخدام شخص آخر. وقد تأيد هذا فى ضوء عدم استقرار زيجات صغار السن (ممن تراوحت أعمارهن ما بين ١٦ ، ١٩ سنة) اذا قورنت بثبات الزيجات التى تمت فى العشرينات . ويرى اريكسون أن هذا ناتج عن أن كثيرا من الناس وخاصة النساء يتزوجن شخصا ليحددن هويتهن من خلال ذلك الشخص . ويرى اريكسون انه ليس من الممكن تحقيق الألفة والمودة بالبحث عن هوية المرء بهذا الاسلوب .

ووصف اريكسون للشخص القادر على الالفة والمودة يشبه شبيها كبيرا تعريف فرويد للشخص السوى ، انه ذلك الشخص القادر على الحب والعمل . وعلى الرغم من ان اريكسون لا يشعر بأن هذه القاعدة يمكن تحسينها ، فمن من المثير للتأمل ان ننظر فى السؤال فيما يتصل بما اذا كان

الراهب قادرا على أن ينمى احساسا بالألفة والمودة ؟ والاجابة هى نعم لان اريكسون يعتقد أن الألفة والمودة تتضمن اكثر من مجرد الجنس ، انها تشتمل على العلاقة بين الأصدقاء أو بمعنى اشمل تمثل التزاما نحو الرفاق فى الانسانية .

والخطر الأساسى فى هذه المرحلة النفسية الاجتماعية هو انهماك الذات Self absorption او تجنبها للعلاقات بين الشخصية التى تلزم الفرد بالألفة والانغماس الاجتماعى . وتؤدى عدم القدرة على تكوين علاقات ودية بآخرين الى الشعور بالخواء الاجتماعى والعزلة . والمنهمكون فى انفسهم قد يبحثون عن لقاءات بين شخصية شكلية تماما (كاللقاء بين الرئيس والمرءوس) وسطحية ويعزلون انفسهم عن اى نمط من انماط الانغماس الحقيقى ؛ لان مطالب الألفة والمودة تهددهم . ويحتمل ان يكون لدى المنهمكين فى أنفسهم اتجاهات الغربة بالنسبة لمهنهم وعدم فائدتها . واخيرا فان اريكسون يعتقد أن الظروف الاجتماعية (اى صعوبة تحقيق المودة والألفة فى المجتمع التكنولوجى غير الشخصى السريع الحركة وفى المجتمع الحضرى) قد تعوق ترسيخ الاحساس بالألفة والمودة . ويبين اريكسون أنه فى حالات العزلة المتطرفة قد تظهر انماط شخصية سيكوباتية ومضادة للمجتمع تستغل الآخرين وتستخدمهم دون احساس بالندم . وهؤلاء هم الراشدون الصغار السن الذين يؤدى عجزهم عن مشاركة هوياتهم مع الآخرين الى استحالة تكوين علاقات طويلة المدى ومكثفة .

والحل الصحى لأزمة الألفة — مقابل — العزلة يؤدى الى تكوين جانب نفسى اجتماعى قوى فى شخصية الفرد وهو الحب . وفضلا عن خصائص الحب الرومانسية والايروطيقية فان اريكسون يرى الحب باعتباره القدرة على التعهد لآخرين والالتزام بهذا التعهد حتى ولو تطلب ذلك انكار الذات والتراضى . وهذا النمط من الحب يعبر عنه حين يظهر الشخص اتجاها نحو رعاية الآخر واحترامه والاحساس بالمسئولية نحوه .

والدستور الاجتماعى الذى يقابل هذه المرحلة من مراحل الحياة هو الاخلاق . ويرى اريكسون أن الاحساس الخلقى يتطور مع ادراك الفرد لقيمة التزامه بصداقات باقية ومسئوليات اجتماعية وكذلك باحترام هذه

الالتزامات حتى ولو تطلبت تضحية شخصية . أما الذين ينقصهم الاحساس الخلقى فانه يصعب عليهم مواجهة المرحلة التالية من النمو النفسى الاجتماعى وذلك لنقص فى استعدادهم لها .

٧ — الانتاجية مقابل الركود — الرعاية :

تتطابق المرحلة السابعة من مراحل النمو عند اريكسون مع أواسط العمر (من سن ٢٥ الى ٦٥) وتضم ما يصفه اريكسون على أنه الانتاجية مقابل الركود والعقم . ويعتبر الشخص منتجا حين يبدأ فى الاهتمام بالصالح العام للجيل التالى ؛ ليس ذلك فحسب بل وأيضا حين يهتم بالمجتمع الذى سوف يعيش فيه ذلك الجيل ويعمل . ويرى اريكسون انه ينبغى على كل راشد اما ان يتقبل التحدى الذى يتطلبه التصدى لمسئولية تحسين الأدوات والوسائل التى تحافظ على الثقافة والتى تطورها او ان يرفض هذا . وهذا الاقتناع يقوم على اعتقاد اريكسون بأن النمو المتطور جعل من الانسان حيوانا معلما ومتعلما . والانتاجية تمثل اذن اهتمام الجيل الأقدم بتوجيه وترسيخ الجيل الذى يحل محله . ويمثل هذا على افضل نحو احساس الشخص بالانجاز الذى يرتبط بالانتاج وتنشئة الأطفال وبالانجاز التالى الذى يحققه الأبناء . وعلى اية حال فان الانتاجية لا توجد فقط لدى الوالدين بل توجد كذلك لدى أولئك الذين يرعون الشباب ويسهمون فى الارتقاء بهم . وتتمثل العناصر المبدعة من الانتاجية فى كل شىء ينتقل من جيل الى الذى يليه ؛ واعنى بذلك التكنولوجيا والأفكار والكتب والأعمال الفنية ... الخ . ويتضمن الاهتمام النهائى بصالح الانسانية القيمة النمائية لهذه المرحلة . أى ان جيلا جديدا يعتمد على الراشدين ، ويعتمد الراشدون على الشباب .

وينبثق من الأزمة النفسية الاجتماعية للانتاجية فضيلة الرعاية care وتنشأ الرعاية من الاحساس بأن شيئا او شخصا يهمك . انها ضد الاكتراث . وينزلق الذين يخفقون فى ترسيخ الاحساس بالانتاجية الى حالة من الانهماك فى الذات تسيطر فيها حاجاتهم الشخصية وراحتهم وهؤلاء هم الأشخاص الذين لا يهتمون بأى فرد ولا بأى شىء ما عدا ما يشبع انهماك الذات وانغماسها . ويؤدى النقص فى الانتاجية لدى الأشخاص الى التوقف عن

أداء وظائفهم كأعضاء منتجين في المجتمع ؛ وهم يعيشون لكي يشبعوا حاجاتهم فحسب وقد أجدبت علاقاتهم بين الشخصية . وهذه الأزمة معروفة ويطلق عليها « أزمة أواسط العمر » انها الاحساس باليأس وبأن الحياة لا معنى لها .

٨ — تكامل الآنا مقابل اليأس — الحكمة .

والمرحلة الأخيرة في خريطة التخلق المتعاقب هي المرحلة التي يتأمل فيها الأفراد جهودهم التامة وانجازاتهم الكاملة . وهذه المرحلة تعني في كل الثقافات بداية الشيخوخة . وهو زمن تكتنفه كثير من المطالب والتوقعات وذلك بسبب تدهور القوة الجسمية والصحة ، والتقاعد ونقصان الدخل وموت الزوج والأصدقاء المقربين والحاجة الى تكوين روابط جديدة مع جماعة الفرد العمرية . وخلال هذه الفترة يحدث تحول واضح في اهتمام الشخص من المستقبل الى الحياة الماضية .

ويرى اريكسون ان هذه المرحلة الأخيرة من الرشد لا تتميز بظهور ازمة نفسية اجتماعية جديدة بل بتجميع وتكامل وتقويم كل المراحل السابقة لنمو الآنا .

ان ثمار هذه المراحل النمائية السبع لا تتضح الا لدى شخص اهتم ورعى الأشياء والأشخاص وتكيف مع الانتصارات والهزائم التي ترتبط بالوجود والذي انجب آخرين وكان له انتاج وافكار . وليس هناك كلمة أفضل للتعبير عن هذا من كلمة تكامل الآنا .

ان تكامل الآنا ينشأ من قدرة الفرد على ان ينظر الى الوراء لحياته على نحو شامل « بما في ذلك الزواج والأطفال والأحفاد وانجاز العمل والهوايات» والعلاقات الاجتماعية ، وان يؤكد بتواضع ، ولكن بثقة « انا راضي » وان الموت لم يعد مخيفا « وذلك لان هؤلاء الأشخاص يرون وجودهم مستمرا عن طريق نسلهم أو انجازاتهم الابداعية . ويعتقد اريكسون ان النضج الحقيقي لا يتحقق الا في الكبر وكذلك الاحساس العملي بحكمة الأجيال ، اذا سلمنا بأن الشخص موهوب الى هذا الحد . ويلاحظ في نفس الوقت ان كلمة

الكبير تبقى على وعى بنسبية جميع المعرفة المكتسبة خلال حياة الفرد فى فترة تاريخية معينة. فالحكمة اهتمام نشط بالحياة وفى مواجهة الموت ولكنها فى نفس الوقت منفصلة عنها .

وفى الطرف الآخر نجد أفرادا يعتبرون حياتهم سلسلة من الفرص الضائعة والتوجهات المشتتة ، وهم يدركون عندما يأتى المساء ان الأمر قد تأخر للبدء من جديد . وفقدان تكامل الآنا أو نقصانه فى مثل هذا الشخص يبدو فى الخوف الخبىء من الموت ، وفى الشعور بأن الاخفاق لا رجعة فيه وبالانشغال الدائم بماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه فعل كذا ، أو حدث كذا . ويلاحظ اريكسون أن هناك حالتين سائدتين لدى الشخص المسن المتميز أو المرور — أسف على حياة لا يمكن أن يعاد عيشها ، ونبذ لنواحى قصور الفرد باسقاطها على العالم الخارجى . وفى حالات المرض النفسى الشديد يرى اريكسون أن المرارة والندم قد يؤديان بالمسن الى أن يكون مكتئبا حقودا منسما بالبارانويا والهيبوكندريا . (Hejelle, 1981, pp. 116-131)

ويلاحظ من هذا العرض لمراحل النمو ما يأتى : —

١ — أن اريكسون فى صياغته لنظريتــه قد أكد على دور المجتمع ودور الأفراد فى نمو الشخصية وتنظيمها . وقد أدى هذا بالمشتغلين برعاية الانسان وخدمته الى أن يدركوا أن مشكلات الراشدين اخفاق فى حل أزمات شخصيتهم وهم راشدين أكثر من كونها مجرد بقايا لاحباطات الطفولة المبكرة وصراعاتها ،

٢ — اهتم اريكسون بمرحلة المراهقة وهى مرحلة تجاهلها فرويد الى حد كبير ، وذلك لان الأول اعتبرها مرحلة رئيسية فى صياغة الرفاهيــة النفسية الاجتماعية للفرد وخيره .

٣ — اشار اريكسون موجة من التفاؤل حــين بين أن كل مرحلة من مراحل النمو النفسى الاجتماعى بها امكانيات القوة والضعف بحيث أن الاخفاق فى مرحلة من مراحل النمو لا يعنى بالضرورة الاخفاق الذى لا فكاك منه فى مرحلة لاحقة .

العلاج النفسى :

لقد بين أريكسون أن المعالج النفسى الكفء لديه احساس قوى بامكانيات المريض وقدرته على النمو . وعمل المعالج ان يغذى هذا النمو لا ان يفرض مستقبله هو أو ماضيه على المريض . وهذه النقطة من المتطلبات التى يتعلمها كل محلل نفسى حين يخضع للتحليل النفسى هو نفسه بقصد التدريب ، وهى متضمنة أيضا فى التأكيد على دور التحويل والتحويل المضاد فى التحليل النفسى . ولقد علق اريكسون على عبارة يونج بأن كل مريض جاءه كان يحمل حياته بين يديه ، قائلا « هذا صحيح ولكن ينبغى ان يضيف المرء الى هذا انه جاء الى ولم يذهب الى شخص آخر وانه بعد ذلك لن يكون قط كما كان — ولن اكون انا كما كنت » (Erikson in Evans, 1969, p. 103)

ينبغى أن يكون كل معالج نفسى مهنيا لان يفهم ويتوحد مع اساليب الحياة المنوعة وبدائلها . ومسائل القيم والخلق اساسية للعلاج . ان فكرة التجرد الشخصى عند المحلل النفسى الكلاسيكى انما هى سوء فهم لدور التقبل غير المتحيز لتداعى المريض الحر ولتاريخه الماضى . فالمعالج موجود دائما كفرد ، وله حرية التعبير عما يرغب فيه دون تشويه ناشىء عن التحويل المضاد غير العقلانى .

وقد أعاد اريكسون صياغة « القاعدة الذهبية » فى ضوء الفهم السيكولوجى المعاصر . وقد كتب مبينا ان الأفعال الخلقية الجديرة بالاهتمام حقا تقوى الفاعل حتى وهى تقوى الآخر ، وتنمى العلاقة بينهما . وهذه القاعدة تشجع المعالج اثناء العلاج على ان ينمو كممارس وكشخص وحتى مع شفاء المريض لان الشفاء الحقيقى يتسامى على الحالة الانتقالية للمرض ، انها خبرة تمكن المريض الذى شفى من أن ينمى اتجاها نحو الصحة ينتقل الى البيت والى الجيرة ، وهذا الاتجاه من اهم المكونات الأساسية للنظرة الأخلاقيـــة . (Frager, 1984, p. 163) (Erikson, 1964, pp. 236-237)

البحوث وطرق البحث :

لقد أقام اريكسون كثيرا من تصوراته على ممارسته العلاجية وخبراته الكلينيكية . وكتاباته عن الهوية تقوم على اساس من الملاحظة الكلينيكية

والخبرة . ونظريات اريكسون على أية حال مستقاة من ملاحظاته للشباب والأطفال . وقد لاحظ المجموعة الأخيرة فى مواقف اللعب التى استخدمها فى البداية فى العلاج . ولقد ازدادت مفاهيمه ثراء من دراساته لحياة الشخصيات التاريخية ومن دراساته الاجتماعية الثقافية .

وعلى الرغم من ذيوع شهرة اريكسون وأفكاره الا أن نظريته لم تولد الا قدرا محدودا من البحوث الامبيريقية . ولعل ذلك يرجع الى انه لم يفصل مفاهيمه النظرية تفصيلا كافيا . ومن العدل ان نقرر ان اريكسون يرى ان مفاهيمه عن نمو الشخصية قد لا تكون قابلة للتحقيق التجريبى على نحو مباشر . وهو لا يعتقد فضلا عن ذلك بأن المنظر عليه مسئولية بيان طرق وأساليب الدراسة التجريبية لمن يريد أن يدرس أفكاره .

غير أن بعض مفاهيم نظريته النفسية الاجتماعية قابلة لأن توضع موضع البحث الدقيق . وعلى سبيل المثال فان اريكسون قد حدد محكات الصحة النفسية الاجتماعية وسوء الصحة بالنسبة لكل مرحلة وازمة ، وذلك على أساس خصائص سلوكية حسن تعريفها وتحديدها . وهذه الأوصاف الحسنة الصياغة لها ميزة واضحة تتفوق بها على نظريات التحليل النفسى التى تحاول أن تعيد بناء تاريخ حياة الفرد السابق ، ذلك لان الاوصاف تيسر الدراسة المباشرة لحل الأزمات السابقة من خلال المظاهر السلوكية والاتجاهات الحالية . ويبدو أن النظرية أيضا تفسح المجال للبحوث الامبيريقية على نحو أفضل من نظريات التحليل النفسى الكلاسيكية ، لان الاولى تتناول الأبعاد الاجتماعية للنمو مقابل الثانية التى تركز على الطبيعة النفسية الداخلية للشخصية . ويصعب دراسة العوامل الداخلية الافتراضية اذا قورنت بالسلوك الاجتماعى الملاحظ . هذا فضلا عن أن اريكسون توصل الى مراحل متتابعة من النمو النفسى الاجتماعى للشخصية وهذا التركيب الطولى لمشاكل النمو لا نجده بهذا التفصيل والوضوح عند أصحاب النظريات السابقة عليه . وعلى أية حال وحتى يتم القيام بدراسات كثيرة دقيقة حسن تخطيطها بحيث تؤتى ثمارها على نحو نسقى فى تناول جوانب نظرية اريكسون المختلفة ستظل المضامين النمائية لهذه النظرية غامضة ، وكذلك يظل الأساس الامبيريقى لها ضعيفا .

الفروق بين الجنسين فى لعب الأطفال :

على الرغم من أن هذه الدراسة لا ترتبط باثبات صدق مفاهيم اريكسون النفسية الاجتماعية امبيريقيا ، الا انها وفرت الأساس لآرائه الجدلية عن سيكولوجية المراة وهو اساس يقوم على الملاحظة .

لقد لاحظ اريكسون أن الأطفال يكشفون عن مشكلاتهم على نحو افضل حين يلعبون باللعب اكثر مما يفعلون حين يستخدمون الألفاظ . ولقد ادت به هذه الملاحظة الى بحث تشكيلات ١٥٠ بنتا ومثلهم من البنين للعبهم ، ولقد تراوحت اعمارهم ما بين ١٠ ، ١٢ سنة وكانوا أفراد عينة دراسة طولية عن النمو تجرى فى جامعة كاليفورنيا(Erikson, 1963 a) وكانت طريقته فى البحث أن يدعو الطفل بمفرده ويطلب منه ان يشكل ويبنى باستخدام مجموعة من اللعب فوق منضدة منظرا مثيرا رآه فى فيلم أو تخيله،ثم يطلب من الطفل بعد ذلك ان يحكى حكاية عن المنظر الذى شكله وبناه ورتبه .

ولقد اظهرت الدراسة وجود فروق واضحة بين البنـات والبنين فى استخدامهم لمساحة اللعب فى اعداد المناظر . وعلى وجه التحديد لقد وجد اريكسون أن البنات يملن الى اعداد مناظر داخلية مسالمة هادئة باستخدام مجموعات من الاثاث ودمى لاشخاص وحيوانات فى أوضاع استاتيكية وكان هؤلاء يقمن بأعمال وهن جلوس كالعزف على البيانو . وان المساحات المسورة تتألف من حوائط منخفضة وبوابات وفى عدد من الحالات قد يؤدى دخيل الى المكان الى احداث صياح ويضطر النساء الى الاختباء ويظهر عليهن الخوف. وهذا الدخيل كان دائما فى شكل حيوان أو رجل أو ولد ولم يكن امراة و بنتا قط.ومما يثير الاهتمام أن البنات لم يحاولن اعاقة هذا الدخيل بحوائط عالية او باغلاق الابواب . ويعلق اريكسون على هذا قائلا « ان اغلبية هـــذه التدخلات تتميز بعنصر من الفكاهة والاثارة اللاذة »(1963a p. 105)ويقابل هذا ميل الأولاد الى بناء مناظر تتميز بابنية عالية وابراج وما يترتب على ذلك من استمتاعهم بانهيار المبانى.وفى عدة حالات زينت الحوائط والواجهات بنتوءات فى صورة اشكال مخروطية واسطوانية . وقد تضمنت مناظر الأولاد قدرا كبيرا من الأفعال والحركة كتدفق المرور فى الشوارع وتوجيه ضباط المرور له أو ايقافه ، وتحرك حيوانات وهنود .

ويرى اريكسون أن هذه الفروق بين الجنسين فى اللعب ترجع الى اختلاف طبيعة جسم الفتاة عن جسم الفتى فتميل الأولى فى لعبها الى استخدام المجال الداخلى والحماية والتلقى ويميل الآخر الى تأكيد الانتصاب والنواحى الخارجية والحركة . ويحتمل انهما يتأثران بالمفاهيم التقليدية عن التنميط الجنسى أى عن اختلاف دور الذكر عن الانثى .

ولقد هاجم عدد من النقاد هذا التفسير . فذهب السلوكيون ودعاة التعلم الاجتماعى بصفة عامة الى ان من الأفضل أن نفسر تشكيل الأطفال للعب فى مناظر لها خصائص معينة على أساس نوع اللعب التى زود بها الأولاد والبنات ونوع الأنشطة التى شجعوا على القيام بها منذ وقت مبكر. ويتفق دعاة الدفاع عن حقوق المرأة مع هذه النظرة ويصرون على أن هذه الفروق تعزى فقط الى المؤثرات الاجتماعية والثقافية . بينما يرى اريكسون أن السلوك يتحدد دوما نتيجة للعوامل البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية الثقافية . ان ما يفعله الذكور والاناث بامكانياتهم لا ينضبط على نحو جامد بخصائصهم الفيزيقية الجنسية التشريحية وانما يتأثر بمتغيرات الشخصية وبالأدوار الاجتماعية المتوقعة وبأهداف الحياة .

التاريخ النفسى :

هو دراسة حياة شخصيات تاريخية باستخدام أساليب التحليل النفسى من ناحية وطرق التحليل التاريخى من ناحية أخرى . وعلى الرغم من أن فرويد درس عددا من الشخصيات الهامة الا أن اريكسون فى الحقيقة هو الذى رسخ هذا النوع من الدراسة بمقالاته عن أدولف هتلر ، ومكسيم جوركى . واشهر دراساته تلك التى قام بها عن مارتن لوثر المصلح الدينى الألمانى ودراسته عن المهاتما غاندى الذى بلور مفهوم الثورة السلمية والذى حقق الاستقلال للهند .

وهناك فرق رئيسى بين دراسة حالات المضطربين نفسيا وتاريخ حياة شخصيات مرموقة . لقد بين اريكسون فى تصوراته عن النمو أن جميع الناس يواجهون صراعات خلال الحياة ، واننا حين نحلل شخصا يعانى من اضطراب او مشكلة فاننا نبدأ من فكرة أن هناك اشياء ووقائع أدت الى

اضطرابه فعجز عن القيام بوظائفه على نحو مناسب فى بعض مجالات الحياة ومهمتنا ان نكتشف الصراعات التى خلقت هذه الصعاب وان نساعد الشخص على تحقيق التكامل فى شخصيته .

اما حين ندرس شخصيات تاريخية فانا نبدأ بادراك ان هولاء الأفراد غيروا العالم بطريقة لها مغزى . وان علينا ان نعرف كيف استطاع هؤلاء الأفراد ان يصمدوا فى مواجهة الازمات.نريد أن نعرف كيف استطاعوا اعلاء صراعاتهم والهام الآخرين ليعملوا على تغيير المجتمع ايجابيا كما حدث فى حالة لوثر وغاندى ، او تغييره سلبيا بالعدوان والتدمير كما حدث فى حالة هتــــلر .

ويترتب على ذلك ان تواريخ الحالة وتواريخ الحيــاة تفحص انواعا معينة من الصراعات من زاويتين مختلفتين . افترض مثلا أن رجلا لا يستطيع الاستقرار فى عمل لانه يرفض تقبل سلطة الآخرين وتنقصه المبادأة لتنمية افكاره الذاتية وتنفيذها ومع ذلك يرفض توجيهات رئيسه ثم يشعر بالاثم . فى هذه الحالة نريد ان نعرف لمــاذا عجز هذا الشخص عن حــــل صراع السلطة (الصراع الأوديبى) واخفق فيمــا يبدو فى تنمية الاستقــــلال الذاتى والمبادأة .

وحين درس اريكسون غاندى لم يهتم بأسباب عدم حل الصراع الأوديبى عنده ، وانما اهتم بطريقة غاندى فى التعبير عن صراع السلطة بطريقة أدت بآخرين الى التمرد وتبعه ملايين الهنود ليعملوا تحت قيادته لتحرير الهند من الحكم البريطانى .

ولقد وضع اريكسون عام ١٩٧٥ بعض القواعد الصارمة عند القيــام بالدراسات النفسية التاريخية . فقد بين على سبيل المثال ان الباحث ينبغى ان يلتفت التفاتا وثيقا الى عبارات معينة صدرت عن الفرد وترتبط بمراحل نمو معينة ، وكيف تتسق هذه العبــارات بعضها مع بعض ومع استمرارية حياته كشخص . وينبغى ان يلتفت الباحث بعناية ودقة الى مــا يجرى فى العالم حول الشخص وقت صدور هذه العبارات والى كيفية ملاءمة الوقائع المعاصرة للعملية التاريخية .

ولقد ادرك اريكسون ان المحلل النفسى حين ينتقل من دراسة تاريخ الحالة

الى تاريخ الحياة عليه أن يوسع من اهتماماته ويدخل فى اعتباره أنشطة المفحوص فى العالم الخارجى وما اتيح له من فرص ، وما وجد من قيود وحدود. وهذا التقدير والاهتمام بتفاعل التيارات النفسية والاجتماعية اثر بدوره على أعمال اريكسون النظرية .

ويشير اريكسون الى أن الذين يقومون بدراسات نفسية تاريخية قد يسقطون حاجاتهم وصراعاتهم على موضوع الدراسة . ويبدو انه يقترح أن تحليل الباحث نفسيا يساعده على أن يصبح أكثر وعيا بصراعاته وكيف يمكن أن تؤثر فى الدراسة النفسية التاريخية .

ولقد أهتم اريكسون فى دراساته هذه برجال تعكس صراعاتهم هويتهم صراعات عصر بأكمله . وتكمن عظمتهم فى قدرتهم على العثور على حل شخصى لأزمة هويتهم ، حلا أصبح نموذجا للآخرين . وهم على الأغلب أفراد لديهم صراعات شخصية عميقة . ويبدو أن أزمة العصر قد انعكست على كل منهم على نحو مكثف ومع ذلك فقد استطاع كل منهم أن يثير نشاطا متصلا وتغييرا جذريا لحلها . (Hall & Lindzey, 1985, pp. 93-98)

وعلى الرغم من أن هذه الشخصيات كانت مبدعة ونشطة وقوية الا انها لم تكن خلوا من الخوف والقلق والشقاء . وكثيرا ما كان لديهم أحساس نابع من طفولتهم يسيطر على حياتهم ويدفعهم الى البحث عن نوع من الاستقرار . لقد كانوا بصفة عامة مرتبطين بآبائهم عن نحو يستبعد التمرد الصريح عليهم . ولقد تعلموا قدرا كبيرا من آبائهم وشعروا بأن هؤلاء الآباء كانوا يحتاجونهم ويختارونهم اختيارا له خصوصيته . ولدى هؤلاء الأفراد ضمائر حية واهتموا منذ وقت مبكر بالقيم المطلقة ، واعتقدوا أحيانا أن عليهم مسئولية خاصة يقومون بها نحو الانسان ، ولهم رسالة عليهم اداؤها. وكان يمكن لهؤلاء أن يسوء توافقهم وان ينحرفوا لو لم تتوافر لديهم القدرة والطاقة والتركيز والاخلاص الروحى .

بحوث عن الهوية :

لم يقم اريكسون بهذه البحوث وانما تصدى باحثون آخرون لها ومن

هؤلاء Ciacci o عام ١٩٧١ فقد طلب من ١٢٠ طفـــلا من الذكور البيض ان يكتبوا قصصا عن خمس صـــــور يتألفون من ثلاث مجموعات الأولى فى الخامسة من العمر ، والثانية فى الثامنة من العمر ، والثالثة فى الحــادية عشرة من العمر . وقام مجموعة من الحكام بتصنيف قصص الاطفال جملة جملة وفقا لمرحلة النمو التى تتطابق معها على افضل نحو . وحسبت النسب المئوية للجمل التى عبر بها كل طفل عن اهتمامه بمراحل النمو الأربعة الأولى عند اريكسون . واتضح أن نتائج الدراسة تميل الى تأييد نظرية اريكسون . فقد اتضح ان اكبر عدد من الثيمات التى عبر عنها اطفال الرابعة تتطابق مع المرحلة الثانية (٤٦ ٪) ويلى ذلك الثيمات التى تتطابق مع المرحلة الثالثة (٤٢ ٪) أما عن اطفال الثامنة فقد اتضح ان اكبر عدد من الثيمات صدرت عنهم او وردت فى قصصهم تتطابق مع المرحلة الثالثة (٥٦ ٪) وان المرحلة الثانية كانت تلى ذلك من حيث التواتر (٢٠ ٪) واظهرت استجابات مجموعة الحادية عشرة ان اكبر عدد يتطابق مع المرحلة الرابعة (٤٤ ٪) وان الثيمات التى تناسب المرحلة الثالثة جاءت دون ذلك (٢٦ ٪) .

وقد قام واترمان وآخران عام ١٩٧٠ Waterman, Buebel and Waterman بدراسة استهدفت اختبار صحة الفرض القائل بأن النتيجة الايجابية لاى مرحلة من مراحل النمو يزداد احتمال تحققها اذا كانت نتائج مراحل النمو السابقة موجبة ولقد استخدم هؤلاء الباحثون فى الجزء الأول من الدراسة استخبارا يبين ما اذا كان الفرد يعتقد أن احداث حياته يحددها هو شخصيا أم تحددها القوى والظروف الخارجية (كما بين ذلك مقياس جيمس لوجهة الضبط) (The internal-External Locus of control Scale of James, 1957) باعتبار ان هــذا مؤشر يوضح نتيجة المرحلة الثانيـــة من النمو . هل هى الاستقلال الذاتى ام الخجل والشك ، كما استخدم الباحثون طرق الاستخبار لتقويم ما اذا كانت الثقة أو عدم الثقة هى التى نتجت عن المرحلة الاولى من النمو . وكان المتغير التابع فى الدراسة هو الهوية مقابل تميع الدور وهو متغير تم قياسه ايضا باستخبار . وقد جاءت النتائج مدعمة لما تنبأ به . فقد ارتبطت الهوية بوجهة الضبط الداخلية؛وارتبط الشك والخجل بوجهة الضبط الخارجية . ولكن الدراسة لم تسفر عما يؤيد صحة العلاقة المفترضة والتى تربط الهوية بالثقة وتميع الدور بعدم الثقة .. وقد استخدم هؤلاء الباحثون

فى الجزء الثانى من دراستهم مقياسا لمفهوم الذات لاختبار العلاقة المتوقعة التى ذكرناها من قبل واسفر تحليل البيانات عن دعم متسق لفكرة اريكسون عن علاقة الهوية بالثقة . غير انه ينبغى أن نلاحظ انه فى هذا الجزء من الدراسة استخدم احد مصادر بيانات الدراسة لقياس عدة خصائص مما يشير الى امكانية أن تكون هذه العلاقات انعكاسا للتداخل فى الطريقة .

وفى دراسة قام بها برونسن عام ١٩٥٩ حاول أن يحدد ما اذا كانت مجموعة من الخصائص التى تشير عند احد قطبيها الى احساس راسخ بالهوية وعند القطب الآخر الى احساس بالتميع فى الهوية ، لها وجود امبيريقى فعلى . ولقد حدد الباحث اربع خصائص يمكن قياسها وذلك بعد قراءة متأنية لأوصاف اريكسون للهوية والتميع وهى : —

١ — أن يكون متأكدا من وجود علاقة بين فكرة الفرد عن نفسه فى الماضى وفكرته عن نفسه فى الحاضر أو متشككا فيها .

٢ — أن يظهر درجة عالية من التوتر الداخلى أو القلق او درجة منخفضة .

٣ — أن يكون الفرد متأكدا من خصائصه الشخصية السائدة او متشككا فيها .

٤ — أن يكون مستقرا فى مشاعره عن نفسه أو متذبذبا .

ولقد افترض برونسن وعلى نحو صحيح أن معاملات الارتباط الموجبة الدالة بين هذه الخصائص تدعم صحة تصور اريكسون عن المرحلة الخامسة عن الهوية وتميع الدور .

وتألفت عينة البحث من ٤٦ من طالبات الجامعة وقام بتقدير الخاصيتين الأولى والثانية باحثون من خلال مقابلة شخصية استغرقت عشرين دقيقة وكان الباحثون علماء نفس كلينيكين مدربين وحسب متوسط تقديراتهم واستخدم فى تحليل النتائج . ثم استخدم الباحث طريقة وصف الذات لقياس الخاصيتين الثالثة والرابعة بعد تكرار نفس العملية بعد اربعة اسابيع . وذلك حتى يمكن تقدير الاستقرار او التذبذب فى الخاصية الرابعة

وقد تراوحت معاملات الارتباط بين المتغيرات الأربعة ما بين ٤٧ر. : ٧١ر. وكانت كلها دالة احصائيا بدرجة عالية. وقد اتضح من نتائج الدراسة وجود بعض المراهقات القلقات اللائى لم يدركن وجود علاقة بين هويتهم الآن ، وما كانت عليه من قبل . وهن غير متأكدات من ماهية خصائصهن السائدة فى الحقيقة ، ويغيرن فكرهن عن هذه المسائل ؛ أى انهن يظهرن تميعا فى الهوية .

ولقد وضع كونستانتينوبل عام ١٩٦٩ م Constantinople مقياسا لتقدير الذات يتألف من ٦٠ بندا يسمى قائمة النمو النفسى الاجتماعى Inventory of Psychological Development يتناول تقدير مراحل النمو الثمانية عند اريكسون . وقد اتضح أن معامل الاستقرار هو ٧٠ر. على عينة تتألف من ١٥٠ فردا اجابوا عن القائمة مرتين بفاصل ستة أسابيع وهذا الثبات يكفى لنقول بأن هذا المقياس يقيس مدى نجاح الفرد فى النمو واجتياز المراحل الثمانية التى عرضنا لها بالتفصيل من قبل . وبيانات صدق هذا المقياس ما تزال تتجمع . وقد قام ريمانيس Reimanis بدراسة عام ١٩٧٤م استندت الى فكرة أساسية هى ان الحل غير الناجح لصراعات النمو النفسى الاجتماعى ينبغى ان تؤدى الى الاغتراب anomie ولكى يختبر هذا التنبؤ طبق قائمة النمو النفسى الاجتماعى ومقياسا للاغتراب Sole Scale measurement of Anomie على عينتين (١٠٠ من المحاربين القدماء ، ١٤١ من طلاب الجامعة وطالباتها) والجدول (٦ — ٢) يوضح معاملات الارتباط بين المتغيرات موضع الدراسة. وكما هو متوقع فان النمو غير الناجح يميل الى الارتباط مع الاغتراب ، بينما النمو النفسى الاجتماعى الناجح يميل الى عدم الارتباط مع الاغتراب . وهذه النتائج تتسق مع نتائج كونستانتينوبل ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ الذى وجد ان النمو الناجح يرتبط بالسعادة .

جدول (٦ — ٢)

يبين معاملات الارتباط بين الاغتراب ونتائج قائمة النمو النفسى الاجتماعى

قائمة النمو النفسى الاجتماعى	مقياس ميول الاغتراب		
	المحاربون القدماء	طـــلاب الجـامعة	طالبات الجامعة
ـ الثقة	—١٧ر٠	—١٧ر٠	—٢٨ر ×
ـ عدم الثقة	٣١ر٠ ×	٢١ر	٢٥ر
ـ المبادأة	—٠٨ر	—٠٥ر	—٣٦ر ×
ـ الإثم	٣١ر ×	٤٠ر ×	٢٥ر ×
ـ الاستقلال	—١٤ر	٢٦ر	—١٤ر
ـ الخجل والشك	٢٨ر ×	٤٠ر ×	١٣ر
ـ الاجتهاد	—١٧ر	٠٦ر	—٣٦ر ×
ـ القصور	١٦ر	٤٤ر ×	٢٩ر ×
ـ التوحد	—١٠ر	—١٤ر	—٣٥ر ×
ـ تميع الدور	٢٤ر	٤٣ر ×	٢٢ر ×
ـ الألفة والود	—٠٦ر	—٢٤ر	—٢٨ر ×
ـ العزلة	٤٢ر ×	٢٩ر ×	١٦ر
	ن = ٧٤	٥٥	٨٦

× دال عند مستوى ٠٥ر

لقد تناول مارسيا Marcia عام ١٩٦٦ مرحلة هوية الذات مقابل تميع الدور وفصل التول فيها ؛ وهى مرحلة اهتم بها اريكسون اكثر من غيرها من مراحل النمو وخاصة فى الستينات.ويرى مارسيا انه من الممكن أن نميز على الأقل خمسة توجهات فى فكر اريكسون فى هذه الفترة وهما : —

— تحقيق الهوية Identity achievement وتضم الأشخاص الذين خبروا الأزمة والتزموا بمهنة أو عمل وبايديولوجية .

— تعليق الهوية Moratorium وتضم الأشخاص الذين يعيشون الأزمة الآن مع التزام غامض بعمل وبايديولوجية .

— حبس الهوية Foreclosure ويصدق على الأشخاص الذين يلتزمون بعمل وايديولوجية ولكنهم فيما يبدو لم يخبروا الأزمة لان التزامهم يحدده الوالد الى حد كبير .

— تميع الهوية Identity diffusion وتصدق على اشخاص خبروا الأزمة أو لم يخبروها ولكنهم لا يظهرون التزاما .

— انجاز مغترب Alienated achievement وتصدق على اشخاص خبروا الأزمة ويظهرون عدم الالتزام ولكنهم توصلوا الى ايديولوجية تدين النظام الاجتماعى .

ولقد أمكن تحديد نوع هوية الشخص أو حالة تلك الهوية بتقدير استجاباته لمقابلة مقننة حدد مارسيا قواعد اجرائيا . ولقد تراوحت نسب الاتفاق بين المقدرين ما بين ٨٠ ، ٩٠٪ فى عدة دراسات . غير انه لا تتوافر فى هذه الدراسات بيانات عن الاتساق الداخلى أو الاستقرار ولذلك فاننا لسنا على ثقة من أن هذه الأنواع أو الحالات لها أساس امبيريقى راسخ .

ولقد درس ارلوفسكى Orlofsky وآخرون العلاقة بين هذه الحالات الخمس ومقاييس للألفة ؛ والعزلة ، والاشتهائية الاجتماعية . والتواد والجنسية الغيرية فى محاولة لتحديد ما اذا كانت مشكلات الهوية تنذر بالنمو اللاحق . وكما هو متوقع من فكر اريكسون اتضح ان أصحاب الهويات الحبيسة وتميع الهوية اتصفوا بعلاقات بين شخصية سطحية ومقولبة stereotyped حين قورنوا بالفئات الأخرى ؛ أما أصحاب الهوية المعلقة فكانوا أكثر الفئات قابلية للتغير ؛ أما أصحاب الهويات المحققة فتميزوا بألفة اجتماعية ونأوا عن العزلة ؛ أما أصحاب الانجاز المغترب فقد

جاءت نتائجهم غير متوقعة لقد اتضح انهم انهوا أزمة الهوية لصالح أزمة الالفــة . وهى فكرة ساحرة ولكن ليس من الســهل اشتقاقها من تنظير اريكسون الحالى .

وهذه الدراسة تدل على جدوى تنظير اريكسون،ولكن الحاجة ما تزال ماسة لمزيد من البحوث الجيدة قبل أن تقوم هذه النظرية تقويما شاملا من وجهة النظر الامبيريقية . (Madai, 1976, pp. 453-458)

التقويم والمكانة الراهنة :

لقد تعرض اريكسون للنقد بسبب غموض كتاباته . وهو فنان يستخدم الكلمات ليرسم بها صورا اكثر مما يعبر بها عن فكر منطقى . ولقد أدى التزامه بالتحليل النفسى الى تقييد فكره . وأدوات اريكسون هى الأدوات الكلينيكية التى طورت لعلاج المرضى ؛ واستخدامها مع نمو الأسوياء ليس مرضيا على الدوام . ويتضح هذا فى دراساته لحياة عدد من العظماء الذين تصدى لدراستهم . ففى تحليل اريكسون لغاندى على ســبيل المثال يطبق أدواته ويستخدم بصيرته على نحو عبقرى كمحلل نفسى ؛ ولكنه لا يتناول على نحو جاد دور مثله العليا وقيمة الروحية ومجاهداته النفسية. انه يتناول ديناميات حياة غاندى وتفكيره كما لو كانت لمريض أكثر من تناولها باعتبارها عمليات نفسية وحالات شعورية ذات نوعية ؛ انه لا يبين كيف يتمايز غاندى ويختلف عما نجده عند المرضى .

ولكن هذه الجهود رغم ما تعرضت له من نقد قد خلقت اتجاها علميا جديدا يسمى التاريخ النفسى psychohistory . اما عن مدى دقة تحليل اريكسون للشخصية التاريخية ؛ فقد أجاب عنه بنفسه حين بين أن تحليله يقوم على ذاتية مدربة ومنضبطة disciplined subjectivity وقد يكون هذا التحليل مزجا بين الحقيقة والاسطورة.ويبدى اريكسون الملاحظة الآتية فى تحليله لشخصية مارتن لوثر :

« أن كان بعض هذا اسطورة ؛ فليكن اسطورة ؟ وصناعة الأسطورة جزء من اعادة كتابة التاريخ علميا ؛ كما انها جزء من الحقائق الأصلية التى

تستخدم فى عمل العلماء . وهكذا فنحن مضطرون لقبول انصاف الاساطير تانصاف الحقائق التاريخية ، مع التسليم بأن الواقعة التى نرويها لا تتعارض مع حقائق راسخة ، وانها تستمر معبـرة عن جانب من الحقيقة ، وحاملة لمعنى يتسق مع النظرية النفسية » (1958, p. 37)

واستخدامه لادوات متجذرة فى التحليل النفسى لم يكن ملائما للأعمال التى يتصدى لدراستها . وهو حين عمل هذا وسع مجال التحليل النفسى وأثراه ولكنه فى نفس الوقت كشف عن نواحى قصوره وعن حدوده .

ويقدم لنا اريكسون اعادة صياغة موفقة للتحليل النفسى . لقد استطاع أن ينقل نسق فرويد الفذ نقلة جديدة . واهتمام اريكسون بالمحددات الاجتماعية والثقافية للسلوك وتحقيقه للتكامل بين علم النفس وعلم الاجتماع والانثربولوجيا مع استبصاراته التحليلية النفسية يمهد الطريق لمستقبل مشرق فى سيكولوجية الشخصية . ويرى علماء النفس أن نظريته فى النمو ومفاهيمه عن الهوية وازمتها جذابة . وهم بصفة عامة يرحبون بتاكيده على الجوانب النفسية الاجتماعية من النمو ويفضلونه على تأكيد فردية الديناميات النفسية الجنسية . وعلماء النفس والمحللون النفسيون الجدد وغيرهم كثير معجبون باريكسون بسبب حذق ملاحظاته ودقتها ومعقولية تفسيراته ، وتعاطفه العميق مع كل انسان .

ونظرية اريكسون تشبه كثيرا من نظريات الشخصية من حيث انه لا يمكن تقويمها على اساس البحوث المعملية . أو على الاقل لا يمكن ان نفعل هذا حتى الوقت الحاضر لقلة البحوث الامبيريقية التى اجريت فى مجالها . واريكسون لم يضع نظريته بعقلية الباحث ، وانما حاول أن يضيف مجموعة من العناصر التى تتصل بنمو الشخصية ويضع لها اساسا من التصورات ، وقد يشعر الفرد انه استطاع توضيحها وقد لا يشعر بذلك . وقد يكون هذا الاطار النظرى مرشد مفيد يساعدنا على فهم الشخصية وقد لا يكون مفيدا بالقدر الكافى . ان الدليل على صدق نظرية يكمن فى تمكينها المعالج والمريض من التواصل والتفاهم بحيث تؤدى الى استبصارات جديدة ومدهشة والى مزيد من قيام المريض بمسئوليته عن نفسه على نحو متزايد .

غير أنه من الانتقادات التى وجهت اليه فى هذا المجال أن دراسته للشباب فى الستينات من هذا القرن وافكاره عن الهوية والايديولوجية وربما نظريته كلها ليست عملية حين نصل الى علاج حالات فردية . وبعبارة اخرى أنه لا توجد مدرسة تضم معالجين على طريقة اريكسون كما حدث بالنسبة لسوليفان . صحيح ان اريكسون درب عددا من المعالجين النفسيين ولكنهم أفراد ، ولعل ذلك يرجع الى أن اريكسون لم يهتم بالتأسيس والتنظيم . والاغلب ان ما كتبه اريكسون اثبت انه اكثر نفعا للمؤرخين النفسيين ولصناع السياسة الاجتماعية عما هو عليه بالنسبة للمعالجين النفسيين . انه يختلف عن فرويد من حيث أن نظريته مجموعة من التمارين الاكاديمية وليس لهـا تطبيق عملى . ولعل اريكسون راى اعماله كالبحوث الأساسية التى قد يتيض الله لها فى المستقبل من يقدر على التوصل الى تطبيقات محسوسة لها . والخلاصة ان اريكسون لم يكتب كتابا يشتمل على اساليب ووصفات لمعالجة المرضى الذين يعانون من ازمة الهوية . وان جاءت نظريته عن الهوية والايديولوجية تمرينا اكاديميا ساحرا ومقنعا ولكنه مع ذلك تمرين أكاديمى .

وعلى الرغم من أن نظرية اريكسون ينقصها الضبط العلمى ، وعلى الرغم من النقد السابق فيما يتصل بالنواحى العملية والتطبيقية وخاصة فى العلاج النفسى الا أن كثيرون يعتبرونها من اكثر النظريات فائدة . وهكذا فانك حين تقرأ عن مصطلحات مثل : « النمو النفسى الاجتماعى ،وقوةالانا ، والتاريخ النفسى . والهوية وازمتها ودورة الحياة » فلابد ان تتذكر ان جميع هذه المفاهيم قد بلورها اريكسون وتناولها على نحو مستفيض واعمل الفكر فيها وانها قد اصبحت جزءا هاما من علم النفس .

وهناك اربعة انتقادات اساسية تعرضت لهـا أعمال اريكسون : —

أولا : أن بعض الكتاب يرى أن اريكسون متفائل جدا ، وينكر اريكسون هذا الاتهام مبينا انه يبرز فى كل مرحلة من مراحل النمو ازمة ، وخاصية سلبية محددة للانا (كعدم الثقة ، والخجل وهلم جرا) مما يعنى وجود مصدر ممكن طوال الحياة للقلق . والحق ان اريكسون لا يفسح مساحة كبيرة فى كتاباته لمناقشة القلق . وهو يميل الى التركيز على الجانب الموجب للقلق حيث يقول « انه بغير القلق لا توجد قوة انسانية » (Erikson, 1975, p. 259)

ويهتم اريكسون بحل الصراعات بقدر اهتمامه بالاختناق والانهيار العصبى وهو يختلف عن بعض المحللين النفسيين الذين سبقوه والذين يركزون تركيزا يكاد يكون تاما على النواحى المرضية النفسية . ويرى اريكسون أن هناك الكثير الذى يمكن تحقيقه من دراسة نمو الأسوياء وارتقائهم وهو فى هذا ليس وحده ، ذلك اننا نجد فى معيته ماسلو وروجرز وآخرون .

ثانيا : أن اريكسون ضحى بمفاهيم فرويدية أساسية كالهو واللاشعور فى سبيل الآنا والشعور . وهذا ليس نقدا لنظرية اريكسون وانما هو اعتراض على اختلافه عن فرويد الذى لم يدعى قط انه كشف عن حقائق مطلقة وتامة . والبعض يذهب الى ان اريكسون يختلف عن فرويد اختلافا كبيرا بحيث انه من الأفضل اعتباره غير منتم للتحليل النفسى الفرويدى ، ولكن معظم الدارسين فى المجال يرونه احد اعضاء هذه المدرسة .

ثالثا : ان اريكسون يدعم الوضع الراهن حيث يرى انه ينبغى على الفرد أن يتوافق مع طرق المجتمع الذى يشب فيه . وما يقوله اريكسون فى الحقيقة هو اننا نجد هويتنا فى اطار الامكانيات التى يقدمها المجتمع ويوفرها وأن هذه قد تشمل ما هو ثابت وما هو متغير . كما ان اهتمام اريكسون بدراسة شخصيات غيرت مجتمعاتها تغييرا جذريا كغاندى ولوثر يضعف هذه التهمة .

رابعا : ضعف الأساس الامبيريقى لنظريات اريكسون ، وقد سبق تناوله كما عرضنا لبعض الدراسات التى اجريت على اساس مفاهيمه واتسقت الى حد كبير معها وليس من شك ان كتابات اريكسون تقدم لنا مصدرا خصبا للفروض التى يمكن أن توضع موضع البحث والدراسة .

وفى المرحلة الأخيرة من حياته ركز اريكسون اهتماماته على المراحل المتأخرة من دورة الحياة على الراشدين وكبار السن وهذا الاهتمام المعاصر جاء فى وقته المناسب . كما كانت دراساته عن المراهقين والشباب فى الستينيات فى وقتها المناسب عندما كانت ثقافة الشباب الفرعية وحركاته فى أوجها .

الفصل السابع

هنرى ا . مورى

ولد فى مدينة نيويورك عام ١٨٩٣ م . وكان الطفل الأوسط فى أسرة غنية . له أخت تكبره واخ يصغره . ويبدو أنه تمتع بجميع المزايا الثقافية لمن ولد فى هذا الوضع المتميز . وقد سافر الى أوروبا خلال طفولته ومراهقته وطوف بها . وكانت أسرته تقضى فترة الصيف بانتظام على شـــاطىء لونج أيلند . وحينما حان وقت ذهابه الى المدرسة التحق بمدرسة جورتون Gorton وهى مدرسة اعدادية بنيو انجلند يدرس بها النخبة .

ولقد كان الانتقال من هذه المدرسة الى جامعة هارفرد ميسرا . وقد درس التاريخ فى جامعة هارفرد وتخصص فيه . ولم يقتصر الأمر على عدم اهتمامه بعلم النفس فى تلك المرحلة بل انه حصل على درجات دون المتوسط فى دراسته بالكلية . ولقد فسر انخفاض درجاته وانخفاض ادائه الاكاديمى بانشغاله الزائد بالرياضة ، لقد لعب كرة القدم ومارس التجديف والملاكمة ، ولقد اعتبر ولعه بالرياضة نوعا من التعويض عن قصور بصرى لحق به وهو فى الطفولة المبكرة حين اجريت له عملية لعلاج ما اصاب عينيه من حول . ولقد اثر هذا القصور على ثقته بنفسه فاصيب بالفأفأة وتاثر التآزر بين يديه وعينيه .

وعلى الرغم من انخفاض متوسط درجاته ، وتخصصـــه فى التاريخ اساسا فانه بعد ان تخرج فى جامعة هارفرد قبل بكلية الأطباء والجراحين بكولومبيا . ولقد اعتبر قبوله قرارا حكيما حين تخرج مورى على راس صفه عام ١٩١٩ م . وكان عمره آنذاك ٢٦ عاما . ولقد انفق العام التالى للحصول على درجة الماجستير فى علم الأحياء من كولومبيا وبعد ذلك عاد الى هارفرد ليدرس الفسيولوجيا . وبعد فترة قصيرة عاد الى نيويورك ليعمل كطبيب مقيم بقسم الجراحة فى مستشفى البرسبتارين Presbyterian Hospital

ولقد كانت مشكلته الوحيدة فى هـــذه المرحلة من حياته الاختيار بين البحث العلمى والممارسة . ولقد مارس العمل فى المستشفى من قبل ثم حصل على وظيفة كمساعد باحث فى معهد روكفلر للبحث الطبى . ولقد قام

ببحوث فى علم الأجنة ، وكانت هذه نقطة بداية لاهتمام لازمة طوال حياته بعمليات النمو والارتقاء.وخلال هذه الفترة حصل مورى على اجازة للدراسة فى جامعة كمبردج بانجلترا ، حيث حصل على دكتوراه الفلسفة فى الكيمياء الحيوية عام ١٩٢٧ م .وكان عمره فى ذلك الوقت ٣٣ سنة ولديه درجتا دكتوراه فى علوم أخرى غير العلوم السلوكية .

ولقد بدأ اهتمام مورى الجاد بعلم النفس عام ١٩٢٣ ، حيث قرأ نسخة من كتاب يونج « الانماط النفسية Psychological Types" وكان قد سئم أجنة الدجاج التى يجرى بحوث عليها ، ولقد لفت كتاب يونج نظره الى التباين العظيم فى الشخصية الانسانية وهيأ له الطريق للقاء تاريخى بين الرجلين بعد ذلك بعدة سنوات .

واثناء دراسة مورى فى انجلترا سافر فى العطلة الى سويسرا وقضى ثلاثة اسابيع مع يونج فى زيورخ . وكانت النتيجة أقرب الى التحول الدينى. فازداد مورى وهو عالم تجريبى فهما لشخصيته واستبصارا بها . ولقد تعلم من يونج أن هناك علاقة بين الفافاة والقصور البصرى الذى تعرض له، كما ادرك اهمية اللاشعور الذى أصبح ملمحا اساسيا فى نظريته عن الشخصية . ولقد قرر مورى انه راى نتيجة لهذا اللقاء اشياء لم تكن تحلم بها فلسفته قط ، وانفتحت بوابة فيض عجائب العالم امام ناظريه على مصراعيها . وترك زيورخ وقد اصبح من معتنقى علم نفس الأعماق .

وفى عام ١٩٢٧ اتيحت لمورى الفرصة ليحدد مجرى حياته . ومرة أخرى راى مورتن برنس Morton Prince فى هنرى مورى ضالته التى يبحث عنها ، ولم تكن مؤهلات مورى هى المسئولة عن ذلك . وكان برنس طبيبا نفسيا ومؤسسا لمجلة علم نفس الشواذ واختاره ليصبح مساعدا له فى عيادة هارفرد النفسية وكان عمره ٣٣ سنة ولم يكن قد درس مقررا واحدا فى علم النفس ، واصبح مورى فجاة عالما نفسيا متخصصا فى الشخصية . وبعد عام ترك برنس العيادة النفسية ليخلفه مورى فى ادارتها .

وسوف نعرض فى ايجاز لانجازات مورى فى العيادة النفسية لجامعة هارفرد وقد بقى فيها حتى جاءت الحرب العالمية الثانية التى شغلته عن

عمله . ولقد أسفر هذا العمل عن نشر كتابه الكلاسيكى « استقصاءات فى الشخصية » عام ١٩٣٨ Explorations in Personality . وفى منتصف الثلاثينات أسهم فى تأسيس جماعة التحليل النفسى فى بوسطن ، حيث أخضع هو نفسه للتحليل النفسى ، وخلال الحرب عمل بمكتب الخدمات الاستراتيجية Office of Stratigic Services وكان مديرا لبرنامج لاختيار وتدريب من يعمل بالتجسس وفى المهام السرية الصعبة والخطرة . وبعد الحرب عاد الى هارفرد واستمر يعمل بالتدريس وبالبحوث فى مجال الشخصية حتى عام ١٩٦٢ حيث أحيل الى التقاعد رسميا. ولكن هذا التقاعد كان اسميا لانه استمر يكتب ويبحث .

نواحى الاتفاق ونواحى الاختلاف مع السيكوديناميين :

ينتمى هنرى مورى الى فئة بمفرده . ولعله أدرك ذلك حين نحت كلمة عالم الشخصية Personologist لكى يشير الى مهنته . ويطلق معظم علماء النفس الآخرين الذين يقومون بنفس العمل على أنفسهم منظرى الشخصية Personality theorists . واختبار تفهم الموضوع « التات » tat هو أول ما يطرأ على الذهن حين يذكر أسم هنرى مورى . ولعل اكثر طلاب علم النفس يعرفون انه واضع هذا الاختبار الاسقاطى الذى يوضح توضيحا جيدا اهتمامات مورى الفريدة والمتنوعة. ومورى منظر سيكودينامى لان علم الشخصية عنده ما هو الا نظرية فى الديناميات، أى فى الدافعية. وقائمة حاجاته المشهورة وقائمة الضغوط هى ثبت دوافع . والضغوط البيئية قد تساعد على اشباع حاجات الناس أو تعوق ذلك الاشباع . وقد صمم « التات » لكى يوصل الباحث الى الحاجات النفسية والضغوط البيئية التى تعمل عملها فى شخصية الفرد الذى يجيب عن الاختبار ، ولكى يحدد مدى شدة تأثيرها عليه .

واختبار تفهم الموضوع TaT اختبار اسقاطى يتألف من مجموعة من الصور . وعلى الفرد ان ينظر الى كل صورة ويحكى قصة عنها ، ويستنتج عالم النفس منها وجود دوافع معينة . ولكن السؤال هو لماذا لا يسأل الشخص على نحو مباشر عن مدى قوة حاجته الى العدوان بدلا من أن يعرض

عليه صورة بها شخصان قد يدركهما على انهما يتصارعان أو يتعانقان ؟ والاجابة عن هذا السؤال بسيطة . ان علم النفس لا يعتقد ان الشخص يعرف عن نفسه ويثقة هذه المعلومة . انه يعتقد ان الأسس الدافعية الهامة للشخصية لا شعورية.وعلماء نفس الشخصية الذين يؤمنون بأهمية الدوافع اللاشعورية هم الذين يستخدمون الاختبارات الاسقاطية . ولقد ابتكر مورى اختبارا اسقاطيا من أكثر الاختبارات الاسقاطية شيوعا ، ليس ذلك فحسب بل انه بنى قدرا كبيرا من نظريته على بيانات جمعت باستخدام اختبار تفهم الموضوع.وهذا التأكيد على الدافعية اللاشعورية يضعه بالتأكيد فى المعسكر السيكودينامى .

ومع ذلك فان تأكيد مورى على تقدير الشخصية وقياسها باستخدام الاختبارات اقرب الى اهتمامات اصحاب نظريات السمات.والحق أن مورى أصبح مشهورا بين علماء النفس بسبب ما قام به من أعمال فى مجال القياس والتقدير لمكتب الخدمات الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية . وليس من شك فى انه لا واحد من علماء النفس الديناميين الذين عالجناهم قد كرس جهدا يقارب الجهد الذى كرسه مورى فى القياس الموضوعى لمتغيرات الشخصية .

ولكن مورى فى بعض النواحى يعتبر ممثلا لاصحاب النظريات الدينامية فى الشخصية وذلك فى ضوء العناصر الآتية : —

أولا : خلال سفره فى اوربا عام ١٩٢٧ م التقى بيونج فى عيادته وتأثر تأثرا كبيرا بما تعلمه من هذا اللقاء والاحتكاك .

ثانيا : ان مورى يشبه فرويد وتلامذته من حيث انه درس الطب وحصل على درجة فيه M.D.

ثالثا : كان مورى عضوا فى معهد بوسطن للتحليل النفسى وهو احد التنظيمات التى اسسها تلامذة فرويد المخلصون وذلك بغية تدريب تلاميذ أوفياء لفكر فرويد وممارساته . ولكى تصبح محللا نفسيا لا بد أن تخضع للتحليل النفسى وقد تم تحليل مورى نفسيا على يد فرانز الكساندر وهانز

ساكس F. Alexander & H. Sachs ولقد درب كل منهما على يد فرويد نفسه .

رابعا : يستخدم مورى مفاهيم فرويد عن الهو والآنا والآنا الأعلى فى نظريته عن الشخصية .

ونظرية مورى فى الشخصية نظرية للديناميات أكثر من كونها نظرية شاملة وهو اصيل حين يناقش الديناميات،ولكنه عندما يتناول بنية الشخصية ونموها فانه يعتمد اعتمادا كبيرا على مفاهيم فرويد .

وأخيرا — فان مورى يمثل أصحاب النظريات الدينامية فى الشخصية اصدق تمثيل لانه يركز دائما على الديناميات وخاصة اللاشعورية منها .

غير أن مورى من بعض الوجوه الأخرى لا يمثل تمثيلا صادقا أصحاب النظريات الدينامية وذلك أولا لانه كان باحثا اكاديميا وخبرته الكلينيكية محدودة . واصحاب النظريات الدينامية لهم ممارساتهم فى العلاج النفسى بطريقة منظمة لفترات طويلة من حياتهم ؛ اى أنهم كانوا يجلسون فى مكاتبهم وعياداتهم طول اليوم أو معظمه يتحدثون انى المرضى ويستمعون اليهم ، واسلوب حياتهم هو اسلوب حياة الأطباء ؛ وهم ليسوا مرتبطين عادة بكلية أو جامعة . غير ان مورى يختلف عن هؤلاء ؛ فهو أستاذ قضى معظم حياته فى قاعة المحاضرات او فى معمل علم النفس . ولقد عمل كطبيب سنوات قليلة فى الثلاثينات . وحتى فى هذه الفترة كان يرى المرضى ساعات قليلة فى الاسبوع . ومورى يختلف أيضا عن علماء النفس الديناميين من حيث تكريس جهوده المنتجة والبناءة لمجال القياس والتقدير السيكولوجى assessment صحيح ان يونج قد استخدم اختبارا لقياس الانطواء الانبساط وهرمان رورشاخ قد انشغل ببقع الحبر ؛ ولكن مورى أجرى بحوثا علمية فى قياس وتقدير الشخصية ؛ بحوثا متميزة تفرقه عن الآخرين من الديناميين بشكل واضح . ومعظم اصحاب النظريات الدينامية قد استرشدوا بأفكار فرويد وتوجيهاته ولا علاقة لهم بالقياس والتحديد الكمى لمتغيرات الشخصية ، وأخيرا فان مورى يصنف مع الانسانيين أكثر من تصنيفه مع الديناميين .

ان التناقضات الظاهرة فى خلفية مورى وفى نظريته عن الشخصية

يمكن أن نعزوها وفقا لما قرر الى واقعة هي دعوة مورتن برنس له لينضم الى هيئة العاملين بعيادة هارفرد النفسية وكانت قد تأسست حديثا وكان ذلك عام ١٩٢٦ وحين ترك برنس العيادة عام ١٩٢٩ اصبح مورى مديرا لها. وفى عام ١٩٣٨ م كان قد أتم مع هيئة العاملين فى هذه العيادة دراسة رائدة لخمسين طالبا من طلاب الجامعة الأسوياء ونشرها فى كتاب « استقصاءات الشخصية » . Explorations in Personality

ولم يكن هناك من قبل مثل عيادة هارفرد النفسية لانها ارتبطت بقسم أكاديمى لعلم النفس بدلا من ارتباطها بمستشفى . ولقد اكدت العيادة البحث العلمى وبينما كانت العيادة مسئولة عن تزويد العملاء والمرضى بالعلاج ، الا أن رسالتها الأساسية كانت اكتشاف الحقائق الأساسية عن الشخصية ، وبينما احتفظ هنرى مورى بهويته الطبية كرجل كلينيكى ، الا انه خلق هوية جديدة تماما فى مجال علم النفس وهى علم النفس الباحث الكلينيكى Clinical research psychologist

ولقد انفق مورى معظم عقد الثلاثينات وهو يحاول الجمع بين العالم الاكاديمى فى جامعة هارفرد والعالم الطبى فى معهد التحليل النفسى فى بوسطن . ولعل هذا يفسر المذاق الخاص لعلم الشخصية عند مورى . فتأكيده على الديناميات وخاصة الديناميات اللاشعورية يعكس اثر التحليل عند فرويد ويونج . هذا على الرغم من تقدير مورى لعلماء النفس الاكاديميين من امثال وليم مكدوجال ونظريته فى الغريزة ، وكيرت ليفين ونظريته فى المجال الحيوى . وتاكيد مورى على النمو ايضا خاصية تميز دعاة التحليل النفسى ، هذا على الرغم من انه قبل ان ينضم الى معهد التحليل النفسى فى برسطن كان مقتنعا بصحة ما ذهب اليه فرويد فى تأكيده بأن تاريخ النمو اساس لفهم شخصية الراشد . ولقد استند هذا الاعتقاد على سنوات عديدة من البحث فى معهد روكفلر حيث درس مورى اجنة الدجاج قبل ذهابه الى هارفرد مباشرة . والحق ان هنرى مورى قبل ان يصبح عالم نفس نشر ٢١ بحثا فى علم الأجنة والطب . ولكنه تعلم من علماء النفس الاكاديميين فى هارفرد لاول مرة اساليب اختبار الشخصية ومناهج البحث التجريبى النفسى . ان عمل جوردن اولبورت المبكر ودراساته فى الحركة التعبيرية

١٩٣٠ Expressive movement والاختبارات التى وضعها لتقدير الشخصية فى دراسة القيم ١٩٣١ ولقياس السيطرة والخضوع The A-S Reaction Study عام ١٩٢٨ افادته كنموذج يحتذيه فى استقصاءاته فى عيادة هارفرد النفسية .

اى أن مورى استطاع ان يدمج تيارين كانا منفصلين هما تيـــار الدينامين وتيار الأكاديميين . ولعله بغير جهود مورى كان هذا الاندماج قد استغرق زمنا اطول .

دراسة الحيـــوات :

وفى عام ١٩٧٩ م وبعد مضى اربعين علما على نشر كتاب استقصاءات فى الشخصية كرمت كلية رادكلف Radcliffe Colege مورى بانشاء مركز بحوث هنرى مورى لدراسة الحيوات
Henry A. Murray Research Center For the Study of Lives

وكانت هذه التسمية مناسبة تماما لان دراسة الحياة كانت الاهتمام الرئيسى لهنرى مورى . فهو لم يدرس مثيرات واستجابات وسمات شخصية منعزلة أو نفوسا متحررة من اجســـامها ، لقد درس مورى حيوات الناس ككل من خلال عملية الحياة نفسها .

وكان من أول القرارات التى اتخذها علماء النفس فى عيادة هارفرد النفسية ان يدرسوا الشخص ككل . وكان معنى هذا عرض لتاريخ حياة الشخص ، لان تاريخ الشـــخصية هو الشخصية . وكان على كل شخص يدخل العيادة أن يكتب تاريخا ذاتيا ، يلى ذلك مجموعة من المقابلات تستهدف تعمق ذكريات الأحداث الهامة فى حياته . وقد طبقت على كل فرد بطارية كاملة من الاختبارات لاعادة تنشيط ذكريات الطفولة المبكرة .

وعلى سبيل المثال اختبار تفهم الموضوع الذى يعرض صورا فسرها معظم المفحوصين باعتبارها تمثل اطفالا يتفاعلون مع آبائهم . وبعد أن يجمع فريق العمل فى العيادة كل البيانات عن شخص معين ، يوكل الى احد علماء

النفس مهمة كتابة المبيان النفسى لهذا الشخص psychograph وهو نوع من التاريخ السيكولوجى له .

ويستهدف علم الشخصية من الناحية المثالية التوصل الى نوع من السيرة المجردة ، والانتهاء الى ترجمة مجردة لحياة الشخص . ان علماء الشخصية يأملون التوصل الى نظام من التنويت notation ، اى الى مجموعة خاصة من الرموز المجردة تدل على الوقائع والأحداث فى حياة الشخص . ويتصور مورى أن مثل هذا النظام لدراسة الحيوات قد يشتمل على خطوط كثيرة ، فخط القمة على سبيل المثال قد يشتمل على الرموز المناسبة الدالة على القوى البيئية فى تاريخ حياة الشخص . والخط الثانى قد يصور أو يصف الانطباعات الذاتية للفرد عن الوقائع البيئية ، والخط الثالث يمكن استخدامه لتوضيح السلوك الظاهر أو الفعل والخط الرابع يدل على الانفعالات والعواطف والخط الخامس يمثل الأفكار والخيالات Fantasies . والهدف من هذا العمل هو انقاص حياة الناس الى عدد من البيانات والمواد التى يمكن السيطرة عليها وفى نفس الوقت يمكن أن نرى من خلالها الحياة ككل . وحيث يسهل مقارنة هذه الحيوات الواحدة بالأخرى فى محاولة للكشف عن المبادىء العـــــامة .

واستقصاءات الشخصية تشتمل على بعض الرموز والمختصرات — وهى مبادىء نسق لتنويت تاريخ الحياة ، اى التعبير عنها بالرموز المجردة . ولكن مورى ادرك عندئذ أن الشخصية الانسانية تبلغ من التعقيد حدا يتعذر معه انقاصها الى هذه الصيغة المجـــردة . ويحتمل ان نبلغ الهدف اذا امكن التغلب على نواحى القصور التكنولوجية الحالية . ولكن حتى لو حدث هذا فان مورى يشعر اننا لا محالة سنفقد شيئا . وينبغى ان يسعى علمـــاء الشخصية لتحقيق هذا الهدف لانهم حتى لو قصرت جهودهم دون تحقيقه ، فان هذه الجهود ستؤدى الى تركيز انتباههم على وقائع فى حياة الفـــرد ومتغيرات ذات مغزى .

وفى نفس الوقت فان مورى يحث علماء الشخصية على شحذ مهاراتهم الادبية وتعلم كتابة تواريخ الحياة أو السير بحيث تعبر عما لا يستطيع التعبير

عنه نســق التنويت المجرد ، أي أن نعبر عن جوهر الشخصية وتوحدها وتفردها بلحمها وشحمها . ويلاحظ موري انه حتى في العلوم الطبيعية فان أعظم المنظرين يملكون ناصية التعبير بالكتابة ونتيجة لذلك فهم قادرون على نقل افكارهم الى الآخرين على نحو مقنع . وهو ينصح علمــاء الشخصية بالافادة من ملاحظة الروائيين المقتدرين وطرائقهم في وصف الشخصية ورسم ملامحها فى الرواية .

وهذه النصيحة نتجت عن خبرته فى هذا المجال ، فقد مارس النقد الأدبى طوال حياته وخاصة بالنسبة لكتابات هرمان ملفل Herman Melville ولقد حرر ادوين شنيدمان Edürin Shneidman كتابا بعنوان Endeavors in Psychology: Selections From the Personology of Henry A Murray (1981) « جهود فى علم النفس : مختــارات من علم الشخصية لهنرى مــورى » واراد المحرر أن يضمن هذا الكتاب عينة ممثلة لكتابات مورى . ويحتوى على ٦٠٠ صفحة ، خصص اكثر من مائة صفحة منها للنقد الأدبى الذى كتبه مورى .

ويرجع الفضل الى هنرى مورى فى ارســاء تقليد دراسة الحيوات والاهتمام بها . ولقد قام روبرت هوايت Robert White وهو من تلامذة مورى ومن أعوانه فى تأليف كتاب « استقصاءات فى الشخصية » وهو الذى خلف مورى فى ادارة العيادة النفسية بهارفرد — بمواصلة مسيرة مورى بتفوق وامتياز فكتب كتابا بعنوان « حيوات فى تقدم » Lives in Progress وهو يقوم بدراسة وتقويم وتقدير عدة افراد خلال فترة طويلة من حياتهم وفى كل مرحلة من مراحلها .

وحين ظهر هذا الكتاب عام ١٩٥٢ ارخ لحياة ثلاثة من طلاب جامعــة هارفرد منذ الميلاد وحتى اوائل العشرينات من حياتهم ، اى حتى تخرجهم من الجامعة ومدى الحياة الذى وضع موضع الدراسة لا يزيد عما تم تناوله فى كتاب استقصاءات الشخصية ، على الرغم من أن كتاب هوايت أقل من حيث المستوى الاصطلاحى والتقنى ، اى انه اكثر سهولة فى القراءة عن كتب مورى . ولم يتضمن الكتاب البعد الطولى حتى دعا الباحث المفحوصين الثلاثة

العودة الى العيادة وكانوا يقتربون من اواسط العمر فقابلهم شخصيا واختبرهم باستخدام نفس الأساليب التى تم التثبت منها علميا،ثم اضاف النتائج الجديدة الى الطبعة الثانية المنقحة من كتاب « حيوات فى تقدم » وفى عام ١٩٧٥ ظهرت الطبعة الثالثة التى اشتملت على متابعة لهذه الحالات حتى سن الخمسين .

ولن تدهش أو تعجب اذا علمت ان روبرت هوايت مثله مثل مورى كان تخصصه الرئيسى فى التاريخ . والحق ان هوايت درس التاريخ فى جامعة Maine قبل ان يدرس مع مورى . ولقد اثبتت خلفية مورى وهوايت التاريخية فائدتها العظيمة ؛ ذلك ان مدخلهما لدراسة الحيوات قد اكد على اهمية البعد التاريخى فى نمو الشخصية .

وباختصار فان طريقة هنرى مورى وزملاؤه فى دراسة الحياة ، هى أن يتأمل عددا قليلا من الحالات تأملا ودراسة متأنية . فقد درست كل حالة من الحالات الخمسين الذين كتب عنهم فى الاستقصاءات دراسة متعمقة استغرقت حوالى ٣٥ ساعة فى العيادة النفسية ، وهذه الفترة لا تبلغ ما تبلغه الساعات المتطلبة لتحليل نفسى كامل لان هذا التحليل يستغرق عدة مئات من الساعات ، ولكنها مدة أطول كثيرا مما يقضيه علماء نفس السمات الذين لا يستغرق جمعهم للبيانات من مفحوصيهم اكثر من ساعتين أو ثلاث يطبقون عليهم فيها بعض الاختبارات الجمعية . والهدف المثالى لطريقة هنرى مورى هو اعادة فحص الأفراد موضع الدراسة فى فترات منتظمة خلال حياتهم ؛ لكى نتوصل الى التاريخ النمائى الشامل لحالة كل فرد من لحظة ميلاده الى الوقت الحاضر .

ولما كان من المرغوب فيه ان نفحص كل حياة فحصا متقنا ؛ فانه لا يمكن الا ان ندرس عددا محدودا من الحيوات وهذا يثير امكانية أن تكون العينة متحيزة ولعلك تذكر ان نظرية فرويد قد هوجمت باعتبارها متحيزة ، لان مرضاه كانوا جميعا من الاناث المصابات بالهستيريا ومن الطبقة البرجوازية . وبينما ادرك مورى خطورة التحيز الناشىء عن دراسة عدد قليل من الحالات ؛ الا انه تبنى استراتيجيتين مضادتين لهذا التحيز . أولها : الافادة من مجلس تشخيصى diagnostic council اى ان هذه الحالات لم

تدرس من قبل ملاحظ واحد ، بل من قبل فريق يستخدم مجموعة كبيرة من أدوات التشخيص . وهذا يعوض ما يمكن أن يتعرض له الملاحظ الفرد من تحيز وخاصة اذا كان هذا الفريق يمثل خلفيات نظرية متنوعة . وطريقة الفريق هذه تزيد من فرص الكشف عن التحيز فى العينة ، وباختصار فان استراتيجية هنرى مورى فى دراسة الحيوات تتطلب فريقا للتشخيص يدرس عددا قليلا من الحالات دراسة متأنية .

والاستراتيجية الثانية التى استخدمها مورى ليتجنب التحيز فى العينة الذى يمكن أن ينتج عن دراسة عدد قليل من الحالات ، اختياره لمجموعة من الأسوياء فكتاب الاستقصاءات يتناول بالدرس ٥٠ طالبا من الشباب الذين تقدموا لا الى العيادة النفسية وانما الى مكتب تشغيل الطلاب الباحثين عن عمل بعض الوقت . وكان يدفع لهم أجور لقاء دراستهم ولم يكونوا مضطربين أو مرضى . وأما الحالات الثلاث التى درسها هوايت ونشر نتائج دراستها فى « حيوات فى تقدم » فقد وفدوا الى العيادة النفسية كمرضى يلتمسون العون لمواجهة مشكلاتهم ، ولكن الباحثين لم ينكروا فيهم الا كشباب سوى يكافحون لمواجهة مشكلات النمو التى يواجهها معظمنا فى هذه المرحلة من النمو .

هناك خاصية أخرى فى طريقة مورى فى دراسة الحيوات وهى أن هذه النظرة أو الدراسة المتأنية لعدد قليل من الحالات على يد فريق من الدارسين لا بد أن يتعدى السطح ليبلغ الأعماق . واحد الأسباب التى دفعت الى لقاء هذه الحالات ساعات طويلة لفترة طويلة من الزمن هو أن يتاح لكل فرد أن يشعر بالارتياح اثناء وجوده فى العيادة وأن يكون علاقة وئام مع أعضاء فريق البحث . وعندئذ نتوقع من الفرد ان يتطوع بالحديث عن تفاصيل حميمة فى تواريخ حياتهم . ثمة طريقة اخرى اتبعها الفريق وهى استخدام عدة اختبارات اسقاطية لدراسة خصائص هذه الحالات بما فى ذلك اختبار تفهم الموضوع الذى وضعه هنرى مورى ومورجان وكان أداة جديدة . والنظرة العميقة المستهدفة تشتمل كما يرى مورى على دراسة الدوافع اللاشعورية والوقائع الماضية التى تعرضت ذكرياتها للكبت . وقد اشتملت تواريخ الحياة الناتجة على جرعة كبيرة من التفسير على أساس التحليل

النفسى ومع ذلك فان التحليل النفسى عند مورى فى هذا المجال توفيقى (إكلينيكى) وهو يستعير من يونج ومن أدلر كما يستعير من فرويد ما يجده مناسبا من استبصارات . وبصفة عامة فان طريقة مورى تتضمن تفسيرا اقل على اساس الديناميات اللاشعورية واهتماما أكبر بالشخصية الظاهرة، وذلك بدرجة اكبر مما نجد فى دراسة تواريخ الحالة على اساس التحليل النفسى . والنتيجة كما يقول مورى « حيوان اجتماعى اكثر قابلية للتصور بدرجة اكبر » "a much more imaginable animal" (Murray. 1938, p. 32)
وهو يسلم بأن التحليل النفسى يصل الى عمق أكثر مما تبلغه طريقته فى التحليل . ولكنه يشعر انه اذا كان ينبغى عليك أن تختار بين نظرة متانية طويلة ، ونظرة عميقة ، فان النظرة الطويلة المتانية افضل . والهدف المثالى على اية حال هو تحقيق التوازن بين الطريقتين .

وتتطلب التقاليد التى ارساها مورى فى دراسة الحيوات جمع فريق من المتخصصين فى فروع مختلفة من العلوم السلوكية لكى يدرسوا عددا قليلا من العاديين من الناس دراسة متانية طويلة وعميقة . وليس هناك طريقة اخرى فى نظر مورى تحمل على الأمل بالاسهام فى فهمنا للشخصية الانسانية افضل من هذه الطريقة .

التيمات فى تاريخ حياة الفرد :

ان معظم مؤلفى كتب الشخصية يرن أن الفكرة المحورية عند مورى هى نظريته فى الدافعية عن الحاجات والضغوط،وخاصة قائمته التى تشتمل على ما يقرب من عشرين حاجة . وليس من شك فى أن هذه احدى افكاره الرئيسية وكان لها تأثيرها الكبير فى فهم الشخصية ودراستها ، ولكن الفكرة القائلة بأن لدينا نزعات عدوانية أو رغبات للانجاز وان هذه اما ان تشبع أو تتعرض للاحباط والحرمان نتيجة لظروف البيئة وملابساتها ليست ابرز أفكار مورى ، لان الحقيقة ان تفكير مورى بالنسبة لهذه النقطة يتفق مع اغلبية منظرى الشخصية . ولعل هذا يفسر السبب الذى ادى الى حد ما الى تقبل علماء نفس الشخصية بسهولة ويسر لافكار مورى وعلم الشخصية عنده . وان انكر بعضهم بقية نسقه الفكرى . ومفاهيم الحاجة والضغط ليست أكثر مفاهيمه شمولية . ان الفكرة المحورية

فى نظرية مورى فى الشخصية هى الفكرة التى تبرز تفرده وتميزه ، وهى أن الشخصية هى ثيمات تسرى فى قصة حياة الفرد والهدف من دراسة الحيوات اذن هو تحليل حبكة القصة واستخلاص الثيمات السائدة فيها .

وفكرة مورى عن الشخصية باعتبارها ثيمات تسرى خلال قصة الحياة تذكرنا بأن كلمة شخصية مستعارة فى الأصل من المسرح ، فالقناع هو ذلك الذى يرتديه الممثلون فى المسرحيات الاغريقية لبيان الدور الذى يلعبونه . ومن ثم فان مفهوم الدور متضمن فى فكرة الشخصية . والعالم كله كما يقول شكسبير مسرح وجميع الرجال والنساء لا يعدو أن يكونوا مجرد لاعبين وممثلين على خشبته . ولعب الأدوار لا يقتصر على المسرح فنحن جميعا نلعب ادوارا ولكننا لا نلعب نفس الدور طول الوقت . اننا نبدل الاقنعة ، ونلعب ادوارا مختلفة فى مواقف متباينة . فقد يلعب الفرد دور الابن مع والديه ، ودور موضع الثقة مع صديقه ، ودور الخبير العالم حين يحاول بيع سلعة الى مستهلك ، ويقوم بهذا كله فى نفس اليوم . ومع ذلك فخلال هذه الادوار المختلفة التى يلعبها توجد ثيمة تسرى فيها كلها وتوحدها ، وهذه الثيمة الضمنية الأساسية والتى تبقى ثابتة بغض النظر عن الاقنعة التى يرتديها هى شخصيته الحقيقية .

وفكرة مورى الأساسية هى ان عمل عالم الشخصية هو أن ينظر نظرة عميقة طويلة لقصة حياة الفرد لكى يكتشف الثيمات الأساسية فى القصة شأنه فى ذلك شأن الناقد الأدبى الذى ينظر الى رواية ويحاول أن يستخلص منها الملامح الأساسية لحبكتها .

ولا عجب اذن أن يدرس مورى الشخصية من خلال سؤال صاحبها أن يحكى له قصصا وذلك بعد أن يعرض عليه عشرين صورة من صور اختبار تفهم الموضوع بحيث تلائم المشاهد التى يراها . ما الذى يبحث عنه مورى فى هذه القصص ؟ انه يبحث عن الثيمات أو الموضوعات.وهذا هو السبب الذى حدا به الى تسمية اختباره . اختبار تفهم الموضوع ، أى اختبار تفهم الثيمة . وهذا هو السبب فى رغبته فى الحصول على عشرين قصة من الفرد موضع الدراسة حتى تتاح الفرصة لظهور تيمات متواترة متكررة . وعلى الرغم من ان مورى عادة يصحح قصص اختبار تفهم الموضوع بتقدير شدة

الحاجات والضغوط البيئية التى يخبرها ابطال القصص ، الا ان هذا ليس هدفه النهائى . وقد يكون من المثير للاهتمام ان تعرف ان ابطــال شخص معين يظهرون قدرا غير معقول من القلق او السلبية ولوم الذات ، وان بيئته تمتلىء بكثير من الشخصيات المهددة المسيطرة ولكن المفسر ينبغى عليه ان :
« يجمع اجزاء الحقيقة ويضمها معا ، وهو يفعل هذا بأن يتنــاول الحاجة الشديدة بشكل غير مألوف ويلاحظ الضغط البيئى الذى يغلب ان يرتبط بها فى القصص ، وبعد ذلك يلاحظ الحاجات والانفعالات التى يغلب ان تتفاعل مع الضغوط الشديدة جدا . وبهذه الطريقة يحصل المفسر على قائمة بأكثر الثيمات شيوعا (وهى روابط بين الحاجات والضغوط) ثم يضيف اليها ثيمات أخرى قد لا تكون بنفس الدرجة من التوتر بحيث تحظى بتقدير كلــى مرتفع للحاجة والضغط المتضمنين ، الا انها تبدو ذات مغزى ودلالة لسبب او لآخر كالتفرد والحيوية والشدة والقيمة التفسيرية »

(Murray, 1943, p. 13)

والدور الثانوى للحاجات والضغوط واضح من حقيقة هى ان مفسر قصص اختبار تفهم الموضوع يستطيع أن يستغنى عن هذا النوع من التصحيح كلية . يقول مورى « من الممكن ايضا القيام بتحليل كلى للثيمات دون تقدير للمتغيرات منفصلة ، والمسألة هنا تقتضى النظر الى كل قصة ككل واختيار الثيمات الأساسية والفرعية والحبكة الفرعية . والسؤال المثار هو : ما هى المسائل والصراعات والمشكلات التى تثير أكبر اهتمام لدى المؤلف ؟ وهناك ثيمات مشتركة ، على سبيل المثال تتركز حول مشكلات الانجـــاز والتنافس والحب والحرمان والقهر والكبح والاستعداد والعقاب وتصـــارع الرغبات ، والارتياد والحرب وهلم جرا . (Murray, 1943, p. 13)

ولما كان مورى يعتقد أن الشخصية تتألف فى الأســـاس من ثيمات تسرى فى قصة حياة الفرد ، فانه من المعقول أن ندرس الشخصية باستثارة عدة قصص قصيرة من المؤلف . وأن نفحص الثيمات التى تتوافــر فيها . واختبار تفهم الموضوع نتيجة منهجية لفكرة مورى الأســاسية بأن الشخصية هى الثيمات التى تسرى فى قصة الحياة .

وهذه الفكرة المحورية لها نتيجة نظـرية هامة وهى انه اذا كانت الشخصية هى الثيمات التى تسرى فى حياة الفرد ، فان وحدات الشخصية ينبغى أن تكون الاحداث والوقائع وألا تكون بنيات استاتيكية كالسمات أو حصيلة من الارتباطات بين المثير والاستجابة او حتى من الحوافز . وفى اجابة السؤال البنيوى : ما الذى تتألف منه الشخصية ؟ فان مورى يجيب : من الوقائع والاحداث . وهذا يعنى أن الشخصية ليست شيئا ثابتا ولكنها سلسلة من الاحداث .

والفرق بين نموذج مورى للشخصية ونماذج معظم المنظرين الآخرين هو كالفرق بين الصورة الزيتية والموسيقى . ان الصورة الزيتية خارج اطار الزمن والتغير ، بمعنى انها تنقل رسالتها الى الرائى مرة واحدة ، اى أن جميع مستويات معناها حاضرة فى نفس الوقت . وحين ننظر الى اللوحة الزيتية نرى الصورة كلها فى لحظة واحدة . ولا يكون الأمر كذلك بالنسبة للمقطوعة الموسيقية لان الموسيقى توجد فى الزمن ويرى أن الموسيقى كالشخصية لها أمد . فالزمن عنصر لا يتجزأ لا من كل نمط من أنماط العمليات ، بل من كل عملية منفردة فى كل نمط (Murray & Kluckhohn, 1953/1981, p. 210) وفى الحق أن الموسيقى ملامح تحدث متآنية وهو ما يطلق عليه الموسيقيون البنية الراسية vertical structure ولكنك لا تستطيع حقيقة أن تخبر الموسيقى ما لم تسمع هذه النغمات المتآلفة تعزف باعتبارها جزءا من تتابع منظم . ان الموسيقى سلسلة من الأحداث الصوتية : أشياء تحدث فى الموسيقى ، هناك تغير ونمو . ولا تستطيع أن تسمع سمفونية كاملة فى لحظة واحدة ، ينبغى أن نستغرق وقتا منصتا اليها . وتستطيع ان تفهم معناها باعتبارها ثيمات ميلودية تنمو وتتفاعل . والشخصية الانسانية لا تختلف عن ذلك . وبينما نجد أن هدف معظم منظرى الشخصية هو أن يرسموا صورا زيتية للطبيعة الانسانية ، نجد هدف مورى ان يدرس الحيوات كما يدرس عالم الموسيقى سيمفونيته .

ولقد وضع علماء الموسيقى مصطلحاتهم وطوروها ، مصطلحات تشير الى اشياء تحدث فى السيمفونية ، كالحركات وتغيير السلم الموسيقى ، والتلب الميلودى وهلم جرا . ولما كان قله قليلة من منظرى الشخصية الآخرين

قد التفتوا الى الطبيعة الزمنية والتاريخية للشخصية على نحو جاد ، فلقد كان على موري أن يبتكر مجموعة جديدة كلية من المفاهيم لتشير الى جوانب الأحداث والوقائع ، وهذا يساعد على شرح وتوضيح : لماذا تحتوى نظرية موري للشخصية على كثير من المصطلحات غير المألوفة ، مصطلحات والفاظ لا تستخدمها نظرية أخرى . وعلى الرغم من أن الوقائع زائلة وغير جوهرية بطبيعتها الا انه لا يصعب تصورها باستخدام المفاهيم للتعبير عنها . والمشكلة هى اننا نسبيا معتادون على سماع علماء النفس يتحدثون عن مثل هذه الأشياء .

ومع ذلك فان وصف الوقائع جزء من خبرتنا العادية ، ولنلتفت الى استخدام موري لكلمة مسلسل Serial . ان المسلسل فى لغة موري يشير الى تتابع من الوقائع أو الأحداث البيوجرافية المنفصلة فى الزمن . ولكنها تنتمى معا لانها تتوجه لنفس الهدف وحيواتنا مليئة بمسلسلات مستمرة ، تتلقى دروسا في الموسيقى ، نعمل فى متجر فى نهاية الاسبوع ننغمس فى علاقة عاطفية . هذه الوقائع والأحداث قد لا تحدث فى تتابع غير متقطع ، غير انه عند النظر اليها كعناصر فى سلسلة واحدة متصلة يكون لها اعظم معنى . وهذا يفسر لماذا يستطيع المسلسل التلفزيونى الذى يعرض علينا جانبا واحدا من حياة البطل أن يترك لدينا الانطباع باننا نشاهد شخصية حقيقية ثلاثية الأبعاد . ان موري حين يتحدث عن المسلسلات وبرامج السلاسل يذكرنا ببعض ما شاهدناه على شاشة التلفزيون من مسلسلات مؤثرة . والشخصية حين ندرسها ونفهمها لا تخرج عما نراه من أبطال أو شخصيات مرسومة فى مثل هذه المسلسلات : من حيث وجود ثيمات تسرى فى جميع المواقف والاحداث وتوحد بينها لتتآلف منها الشخصية .

تعريف الشخصية :

الشخصية عند موري تجريد صاغه صاحب النظرية وليست ببساطة وصفا لسلوك الشخص . اى أن الشخصية صياغة تستند الى السلوك الملاحظ والى العوامل التى نستطيع استنتاجها مما هو قابل للملاحظة .

وعلى الرغم من أن تصور مورى للشخصية فى الأســاس ذا طبيعة مجردة ، الا انه يفترض وجود عمليات مركزية منظمة وحاكمة فى الفــرد . وهذه العمليات تعمل على دمج وتكامل القوى المتصارعة التى يتعرض لها الشخص وأن تشبع حاجاته ، وان تخطط لتحقيق أهدافه . وينبغى أن تعكس الشخصية عناصر سلوكية باقية ، ليس ذلك فحسب وانما أن تعكس ما هو جديد ومتفرد . وينبغى ان تظهر اداء الشخص لوظائفه خلال حياته كلها ، ويمكن أن نفهم الوقائع المفردة فى حياة الفرد حين نصلها بماضيه وبحاضره وبمستقبله المتوقع .

واخـــيرا فان مورى يؤكد على أهمية الربط بين الوقائع والعمليـــات السيكولوجية وبنى المخ وقيامه بوظائفه ، حتى ولو كنا لا نعرف على نحـــو دقيق كيف ترتبط هذه الأشياء.ان الظاهرات التى تؤلف الشخصية عند مورى تعتمد اعتمادا مطلقا على اداء الجهاز العصبى المركزى لوظائفه . فاذا لم يقم بها فلا وجود للشخصية .

نظرية الحاجة — الضغط :

ان نظرية مورى فى الدافعية نظرية تفاعلية لانها تنظر الى السلوك باعتباره نتاجا لحاجات داخلية تتفاعل مع ضغوط خارجية . والحاجة تكوين مرضى يمثل قوة فى منطقة المخ ، وهى قوة تنظيم الادراك والفهم والتفكير والنزوع بحيث تحول موقفا موجودا غير مشبع فى اتجاه معين . ويشـــير الضغط الى القوة التى تعترض الشخص فتفيده أو تؤذيه فى بيئته وقد تكون أشخاصا أو اشياء.والضغط ا Alpha press يشير الى الخصائص الموضوعية للأشياء التى يمكن ان تفيد الفرد أو تضره ، اى كما توجد فى الواقع وكما يظهرها البحث الموضوعى ؛ بينما يشير الضغط ب Beta press الى دلالات الأشـــياء كما يدركها الشخص ادراكا ذاتيا وكما يفسرها . وقد يســـتثار السلوك بواسطة الحاجات : فالجوع (الحاجة للطعام) يدفع الفــرد الى الحركة الى موضع الطعام (المطبخ) . ولكن الضغط قد يعوق الاشباع لان المطبخ خلو من الطعام . وقد يثير الضغط السلوك لانه يثير الحاجة ، فموجة من البرد تظهر الحاجة الى تجنب البرد فتغلق النافذة .

ويمكن تصنيف الحاجات الى حاجات حشوية المنشأ Viscerogenic n. او حاجات نفسية المنشأ Psychogenic n.. وحاجات النوع الأول تشتمل على الحاجة للهواء والماء والطعام والاستثارة الحسية والجنس والاخراج ؛ وتجنب الحرارة والبرودة والمثيرات الضارة والأذى الجسمى. وقائمة الحاجات النفسية المنشأ وهى اكثر ذيوعا ، ليست بالضرورة اكثر أهمية فى توجيه السلوك وتشتمل على ما يأتى : —

— **الحاجة الى لوم الذات** n. Abasement

أى أن يخضع الفرد ويذعن ويتقبل العقاب وتصغير الذات .

— **الحاجة للانجاز** n.Achievement

اى التغلب على العقبات وتحقيق هدف صعب وزيادة تقدير الذات عن طريق الممارسة الناجحة للقدرات .

— **الحاجة الى الانتماء** n. Affiliation

أن يكون صداقات ويستمتع بالتعاون والتبادل مع الآخرين والحب والانضمام الى جماعات .

— **الحاجة الى العدوان** n. Aggression

مهاجمة أو ايذاء شخص آخر أو معارضته او التقليل من شأنه .

— **الحاجة الى الاستقلال الذاتى** n. Autonomy

مقاومة التأثير ، والكفاح من اجل الاستقلال وتحاشى النشاطات التى تفرضها السلطة .

— **الحاجة الى المجاهدة** n. Counteraction

الكفاح للتغلب على الهزيمة والضعف والاحتفاظ باحترام الذات .

— **الحاجة الى الخضوع** n. Deference

الاعجاب بالقائد والثناء عليه واتباعه عن ارادة .

— **الحاجة الى الدفاعية** n. Defendance

أن يدافع عن نفسه ضد اللوم والتحقير واخفاء الفشل او تبريره .

— **الحاجة الى السيطرة** n. Dominance

التأثير فى الآخرين والتحكم فيهم .

— **الحاجة الى الاستعراض** n.Eyxhibition

أن يجتذب انتباه الآخرين ويستثير اعجابهم .

— **الحاجة الى تجنب الأذى** n.Harm - avoidance

أن يتجنب الألم والضرر الجسمى والمرض والموت .

— **الحاجة الى تجنب المذلة** n. Infavoidance

أن يتجنب الاخفاق والخجل والاذلال والسخرية .

— **الحاجة الى العطف** n. Nurturance

أن يشبع حاجة الذى لا حيلة له وأن يحميه ويساعده كالطفل والعاجز والمريض والمهزوم ... الخ .

— **الحاجة الى النظام** n. Order

ترتيب الأشياء وتنظيمها .

— **الحاجة الى اللعب** n.Play

أن يسترخى ويسلى نفسه ويبحث عن المتع من العناء والعمل بقصد اللهو وبغير هدف .

— **الحاجة الى النبذ** n. Rejection

أستبعاد الآخر أو تجاهله أو الاعراض عنه .

— **الحاجة الى الاستمتاع الحسى** n. Sentience

البحث عن الانطباعات الحسية الاستمتاع بها .

— **الحاجة الى الجنس** n. Sex

تكوين علاقة ايروطيقية ، وممارسة الجنس .

— **الحاجة الى المعاضدة** n. Succorance

سعى الفرد للحصول على عون ودعم وحماية وحب من الآخرين .

— **الحاجة الى الفهم** n. Understanding

تحليل الخبرة وتأملها والتأليف بين الأفكار .

كما تصنف الحاجات الى حاجات ظاهرة overt n. وحاجات كامنة covert n. وتفصح الحاجات الظاهرة عن نفسها فى الأفعال والأنشطة الحركية أما الحاجات الكامنة فتفصح عن نفسها عادة عن طريق التخييل والأحلام .

وتقسم الحاجات أيضا الى حاجات مركزة .Focal n وحاجات متميعة .Proactive n ترتبط الأولى بأنواع معينة من الموضوعات البيئية ، أما الثانية فيمكن تعميمها على أى موقف بيئى وما لم يكن هنــاك بعض التثبيت غــير العادى ، فان الحاجة تتعرض لتغيير الموضوعات التى تتجه نحوها ولتغيير الطريقة التى تتناول بها هذه الموضوعات ؛ اى أن دائرة الوقائع البيئية التى تناسب الحاجة تتغير اتساعا وضيقا كما تتغير الأفعال الادائية المرتبطة بها تزايدا ونقصا . والارتباط الشديد بموضــــوع غير مناسب هو تثبيت مرضى عادة ، والعجز عن اظهار اى تفضيل على نحو مستمر لموضوع مظهر مرضى أيضا كالتثبيت .

وتنقسم الحاجات الى حاجات ايجابية مبــادئة .Peactive n وحاجات استجابية .Reactive n والحاجة الايجابية هى التى تتحدد نتيجة شىء فى الشخص اكثر من أن تكون نتيجة شىء فى البيئة والحاجات الاستجابية عكس ذلك . واستخدم مورى هذين المفهومين لوصف التفاعل بين شخصين أو اكثر حيث يكون احدهما ايجابيا مبادئا والآخر استجابيا للمنبهات التى يقدمهــا الايجابى .

كما تقسم الحاجات الى حاجات عملية النشاط .Process activity n وحاجات الاسلوب .Modal n وحاجات التاثير .Effect n وحاجات التاثير هى الحاجات التى تؤدى الى نتيجة نهائية مرغوب فيها ، وحاجات عملية النشاط تستهدف أداء اعمال معينة بهدف الأداء فى ذاته ، اى القيام بمختلف العمليات العشوائية غير المنسقة (كالرؤية والسمع والكلام وما الى ذلك) ووظيفتها مجرد المتعة ، أما حاجات الاسلوب فتتضمن اداء شىء على درجة من الاجادة والاتقان .

والحاجات لا تعمل فى عزلة الواحدة منها عن الأخرى ولبعض الحاجات أسبقية على أخرى . فحاجات كالالم والجوع والعطش لها اسبقية على اخرى لانه لا يمكن تأجيلها ومن الضرورى تحقيق حد أدنى من الاشــباع لها قبل أن تتمكن الحاجات الأخرى من العمل . وقد يحدث صراع بين الحاجات الهامة كما يحدث بين الاستقلال والخضوع ، وبين الانجاز والاستمتاع . فقد يكون لدى شخص حاجة قوية للاستقلال ومع ذلك قد يحتاج الى مشاركة آخر فى

الأفكار والخبرات . وقد تشبع حاجات متعددة بأسلوب عمل واحد . وعلى سبيل المثال فقد تندمج الحاجة للعدوان مع الحاجة للسيطرة وذلك حين يرشح شخص نفسه فى الانتخابات للحصول على مقعد فى البرلمان ، ويقوم بحملة دعائية عدائية ضد منافسه تتسم بالبذاءة والطعن . وقد يحدث التحام بين بعض الحاجات حين يكون لها نفس النتاج السلوكى . وقد تعمل حاجة فى خدمة حاجة أخرى فتكون تابعة لها ، فقد تعمل الحاجة الى العدوان فى خدمة الحاجة الى الانجاز . فالحاجة قد تعمل لتيسر أخرى وعلى سبيل المثال فالحاجة الى لوم الذات قد تعمل فى خدمة الحاجة الى الانتماء وذلك حين يلوم فرد نفسه بسبب بعض سوء الفهم مع صديق له وذلك للمحافظة على الصداقة . ويبرز مورى أن تتبع سلاسل التبعية Subsidiation قد يساعد فى الكشف عن دوافع الشخصية الأساسية (هول/لندزى ترجمة فرج ص ٢٣٥ — ٢٣٨) .

وعلى الرغم من أن قائمة الحاجات التى عرضناها لا تعنى استغراق جميع الحاجات ، الا انه يصعب جدا التوصل الى قائمة مشابهة لها بالضغوط التى يتعرض لها الفرد لان المواقف البيئية يمكن أن تتفاوت تفاوتا كبيرا . وترتيبا على ذلك فان القائمة الآتية للضغوط التى يقدمها مورى ليست الا عينة لمواقف ممكنة كثيرة . (Murray, 1938, pp, 299-314)

الخطر — الأخطار الفيزيقية التى تنشأ من الأسباب الطبيعية .

النبذ — ان يعامل الشخص بعدم اهتمام انفعالى .

المنافس — وجود شخص يتنافس معك للحصول على العطف او الأشياء المرغوب فيها أو الاهتمام .

العدوان — سوء المعاملة اللفظى او الجسمى أو العقاب .

العطف — الاعتزاز بالعاطفة ، والمشاركة الوجدانية والهدايا والرفق واللين .

الخضوع — ضغط المدح والتقدير والتكريم .

الانتماء — ضغط الصداقة والرفقة .

المرض — اى نوع من الاعتلال قصيرا كان أو طويلا .

الدونية والقصور — ان تكون دون المتوسط جسميا أو اجتماعيا أو عقليا .

وتتفاعل الحاجات والضغوط بحيث تؤدى الى الاحداث السلوكية والثيمات التى تتألف من هذه الحاجات والضغوط .

تفاعل الحاجة والضغط ــ الثيمة :

ولكى نوضح ديناميات وحدة سلوكية يقترح مورى مفهوم التيمة Thema وهى تتناول التفاعل بين الحاجة والضغط ، والتيمة جانب من الواقعة والواقعة هى تفاعل يمكن ملاحظته بين شخص وشخص ، أو proceeding شخص وموضوع تستغرق فترة زمنية محددة ، والثيمة تصف الدوافع التى تعمل عملها فى هذا التفاعل .

وقد تؤلف عدة وقائع مسلسلا ، وهكذا فان عددا من الثيمات يؤلف مسلسل ثيمات . وعلى سبيل المثال فان عالم الانثروبولوجيا الذى يعرض بحثه الجديد على مجموعة من زملائه قد يعمل على أن يترك انطباعا حسنا لديهم ، ليس ذلك فحسب بل يأمل فى أن يتفوق عليهم فيما يظهره من معرفة بالميدان والمام بدقائقه . وهو يشعر انهم ينتقدون طريقة فى البحث،ويتشككون من نتائجه ، وهو يتخذ موقفا دفاعيا بالنسبة لمنهجه ويخفى الاجراءات التى يشعر بعدم دقتها . وهنا نجد لدينا ثيمة تشتمل على الضغط (ا) وهو استجابة الأتراب ، والضغط (ب) وهو نقد الأتراب وشكهم والحاجات : الانجاز والسيطرة والدفاعية .

ونرى ثيمة مشابهة لديه حين يناقش بعض ما يشتمل عليه احد معارض الفن ، حيث يقيم عمل الفنان ويرجع ما فيه من الهسامات الى فن بدائى قام بدراسته ويدعى خبرته به . وقد يتخذ شخص آخر موقفا مضادا له ويدافع الانثربولوجى عن وجهة نظره مضيفا اليها تفاصيل ليس واثقا من مصداقيتها على الاطلاق . ان هاتين الثيمتين يمكن اضافتهما الى ثيمات اخرى لتؤلف مسلسلا من الثيمات Serial thema يدل على ما يتصف به هذا العالم من درجة عالية من التنافسية ، ومن عدم ثقته فى كفاءته ، ومن دفاعيته حين يواجه تحديا .

ويرتبط بفكرة الثيمة وبمفهوم الحاجة المركزية ما اطلق عليه مورى تكامل الحاجة need integrate ، أى الحاجة الى نوع معين من التعامل مع

نوع معين من الأشخاص أو الأشياء وكثيرا ما يحدث أن يربط الشخص أشياء معينة بحاجات معينة ومن أمثلة تكامل الحاجة حب الموسيقى الكلاسيكية مقابل حب الموسيقى الشرقية. وسوف نجد تكامل الحاجة فى شكل آخر حين نتعرض للمركبات فى نمو الشخصية .

اتجاه السلوك : الموجهات والقيم : Vectors & Values

ان خطة الموجه — القيمة عند مورى هى محاولة لتمثيل القصد النهائى للسلوك فى نسقه النظرى . ويلاحظ مورى تأثره بأفكار اريكسون وليفين . ويرى مورى أن كل شىء يفعله الناس يفعلونه لخدمة غاية مرغوب فيها ، أى حالة يبلغونها او يتجنبونها ، وهكذا فانه حين يتابع الشخص مسارا للفعل ، فان لديه فى عقله غرضا له قيمته عنده .

ومن نواحى قصور تصور مورى الأصلى عن الحاجة — وهو نفسه يقر بذلك — أن المعلومات عن الحاجات المحددة والضغوط لا تشتمل عادة على أهداف الشخص ذات القيمة عنده . وهكذا فان معرفة ما يحتاجه الشخص والضغوط التى يتعرض لها لا تدلنا بالضرورة على ما سوف يعمله . وعلى سبيل المثال فقد يكون لدى الشخص حاجة للفهم ، ولكن مفهوم الشخص عن هدفه النهائى وماذا يعنى لتحقيقه له اهميته . هل يقرأ الشخص صحفا ومجلات ليفهم مجريات السياسة ؟ أم لسبب آخر ؟ هل يتردد على المسجد بهدف تحقيق فهم روحى لنفسه أم لسبب آخر ؟ وهلم جرا .

ولتوضيح العلاقة بين اتجاهات الفعل أو الموجهات Vectors التى تستند الى حاجات معينة ،والحالات المرغوب فيها او الغايات او القيم Values لاتجاهات الفعل هذه يستخدم مورى مصفوفة لها أعمدة وصفوف ، وتمثل كل خلية او خانة فى هذه المصفوفة سلوكا هو مثال لفعل معين يخدم هدفا معينا . وقد ملأ الصف (ه) والعمود ٦ لتوضيح كيف يتم خدمة هدف شخص أو قيمته بأفعال ذات اتجاهات معينة ، وكيف يستخدم شخص افعاله الموجهة لخدمة كل من القيم الموضحة .

ويقترح مورى انه يمكن استخدام هذه الخطة لا لتمثيل افعال شخص معين بل لتمثيل تفاعلات محددة بين ذات وذات ، أو بين ذات وموضوع .

وعلى سبيل المثال قد يعبر (٦) الشخص (س) عن نظريته (هـ) بأن معدل الربح العالى امر مرغوب فيه الى صديق له (ص) الذى يرفض (١) تلك النظرية (هـ) ويمكن التعبير عن هذا التفاعل بين الشخصين على النحو الآتى س هـ٦ ——— ص هـ١ .

جدول (١ — ٧)

جدول يوضح جزء من نسق مورى عن الموجهات — القيم

القيم (الأهداف)	الموجهات (اتجاهات الفعل)										
	الرفض	الاستغلال	الاستحواذ	الإنشاء	الإبقاء	التعبير	التنقل	الطرد	الهروب	الدفاع	[illegible]
أ الجسمى (الترويح البدنية)						يتريض على الملعب ويلعب الكرة					
ب الملكية (الاقتصادية الثروة)						يحافظ على بيت مريح					
جـ السلطة (القدرة على إصدار القرار)						يرأس بعض الرؤساء					
د الانتماء (الود من المجتمع)						يستمتع بأشياء مع الزوج والأطفال					
هـ المعرفة (اكتشاف المعرفة والعلم والتاريخ)	يرفض الرأى من المرتبطة ليكشف	يستعرض المعلومات التى عددها ويلعب إجابته	يحب الحكايات الشيقة فى العمل والمكتبة	يطور نظرية جديدة	يسترجع معلومات جديدة فى الذاكرة	يكشف عن نظرية جديدة	يناقش البحث مع الزملاء	يستبعد الأفكار الخاطئة	يهاجم أفكار الآخرين الخاطئة	يدافع عن معتقداته	يتمسك بالمعتقد [illegible]
و الشكل الجمالى (الجمال والفن)						يجمع السمفونيات ويرسم لوحات					
ز الأيديولوجية (نسق المعتقد والفلسفة والدين)						يدرس الديانات دراسة مقارنة					

ويلاحظ مورى أن هذا النسق من الموجهات والقيم ناقص وعلى سبيل المثال فان قائمة من سبع قيم عمل أولى تجريبى يتطلب تطويرا . ووصف التفاعل بين شخص وآخر ، أو بين شخص وموضوع وصفا كاملا يتطلب

الاهتمام بمتغيرات أضافية كمكانة الشخص الاجتماعية ، وسلوكه المرتبط بالدور الذى يؤديه ، وانغماسه الانفعالى فى الفكرة موضع النقاش .

مفتاح التفرد — الوحدة الثيمة :

ان الوحدة — الثيمة عند الشخص هى مفتاح تفرد طبيعته ، وهى مكون لا شعورى عادة يتألف من حاجات قوية يتصل بعضها بالبعض الآخر ويرتبط بالضغط الذى يتعرض له الفرد فى مناسبة أو أكثر فى طفولته المبكرة . وقد تكون الحاجات متصارعة وقد تكون الخبرة المبكرة لاذة أو صادقة ، ومهما تكن طبيعة الثيمة فانها تكرر نفسها مرات كثيرة خلال الحياة .

ولننظر على سبيل المثال الى شاب درسه مورى وأعوانه ، وقد رأى هؤلاء من خلال دراسته أن الوحدة — الثيمة التى تمثل شخصيته هى حرمان يؤدى الى سعى عدوانى لتحقيق الاشباع . ولقد كانت أم هذا الشاب عاجزة ومريضة وماتت وهو ما يزال صغيرا ، ولقد كان الشاب يشعر بخوف من أبيه وبكراهية نحوه ، ولم يكن الأب رجلا ناجحا ولم يظهر عطفا نحو ابنه وكان يثبط همته حتى لا يواظب على المدرسة. ولقد صمم الشاب على الحصول على درجة جامعية ، وأن يصبح مهندسا . ولكى تتم دراسة أساليبه فى الحياة طبق عليه اختبار تفهم الموضوع وكشف تحليل القصص التى أدلى بها من مشاعر لا شعورية بحرمان عظيم وحاجة الى الحصول على ما حيل بينه وبين اشباعه والى الحصول على العون .

الأساس الفسيولوجى للسلوك :

لقد اكد مورى دائما على اهمية العلاقة بين الشخصية والمتغيرات الفرضية التى تؤلف الأسس الفسيولوجية لجميع الظاهرات السيكولوجية . ولقد أطلق على هذه « العمليات السائدة regnant processes وكتب قائلا « ان الطريقة الصحيحة لتصور هذه العمليات لا يتوقع التوصل اليها فى المستقبل القريب » .

ويدرك مورى أيضا اهمية العمليات اللاشعورية ويقتبس عددا من الوقائع والعناصر السلوكية التى تدعم هذه الفكرة . يقول مورى « ان جميع

للعمليات الشعورية لها مصاحب فسيولوجى ، ولكن ليس كل العمليات التى لها مصاحب فسيولوجى شعورية ، اى أن كل حدث سيكولوجى أو عملية نعيها تصاحبها عملية فسيولوجية . غير أن جميع العمليات الفسيولوجية لا تمثل فى الوعى .

ويدرك مورى شأنه شأن فرويد ويونج وجود مستويات مختلفة من اللاشعور فبعض الاشياء يسهل استدعاؤها الى الوعى ، وبعض آخر يصعب استدعاؤه لوجود دفاعات نشطة بالنسبة لها حتى لا تدخل مجال الوعى . وهكذا فان مورى يتقبل فكرة فرويد عن الكبت والمقاومة .

نمو الشخصية :

يركز مورى قدرا كبيرا من اهتمامه فى نمو الشخصية . ويرى مورى أن تاريخ الشخصية هو الشخصية ، وانه لا يمكن فهم الشخصية خارج بعد الزمن . ولا يكفى أن نصف الحاجات التى تتفاعل مع الضغوط ونحدد زمن هذا التفاعل لاننا اذا اردنا ان نفهم الاشخاص فلا بد أن نراجع دوما كيانا ناميا فى ضوء خلفيته التاريخية واهدافه المستقبلية .

مركبات الطفولة :

ركز مورى معتمدا على الأسس الذى وضعه فرويد على خبرات الطفولة المبكرة ووقائعها والانماط السلوكية التى تشكلت خلال هذه السنوات الهامة وهو على وجه التحديد يقسم الطفولة الى خمس مراحل تتميز كل منها بحالة لاذة تلقى الاحباط لا محالة او تنتهى هذه الحالة خلال نضج الطفل وتطبيعه الاجتماعى . وتترك كل مرحلة من هذه المراحل بصمتها واثرها فى الشخصية فى صيغة مركب — وهى مجموعة من السمات والاساليب المشتقة من بصمات ، وآثار هذه المراحل — وهى تحدد لا شعوريا مسار نمو الفرد اللاحق . ويرى مورى أن كل فرد ينمى هذه المركبات الخمسة لانه يتقدم خلال نفس المراحل الخمسة للنمو . وهذه لا علاقة لها بالمرض الا اذا تطرفت وتضخمت . والظروف اللاذة وما يرتبط بها من مركبات هى : —

١ — الوجود الآمن السلبى والاتكالى — المركب الصومعى .

٢ — الاستمتاع الحسى بامتصاص الغـذاء الجيـد من ثدى الأم أو من الزجاجة — المركب الفمى .

٣ — الاستمتاع بالأحاسيس الممتعة المصاحبة للاخراج — المركب الشرجى .

٤ — الانطباع الحسى السار المصاحب للتبول — المركب التبولى .

٥ — الاستثارات اللاذة الناتجة عن العبث بالأعضاء التناسلية — مركب الخصاء .

المركب الصومعى : Claustcral c.

يرى مورى أن ثمة ثلاثة أنماط تنشأ من خبرة الفرد الرحمية أو حالته قبل الميلاد . وفى نمط المركب الصومعى البسيط تتخذ الرغبة فى العودة الى الحالة السائدة قبل الميلاد شكل البحث عن أماكن محمية شبيهة بالرحم . ومثل هذا الشخص يكون عادة سلبيا اتكاليا موجها نحو الماضى ومقاوما للجدة والتغيير . وهو يفضل البقاء تحت غطاء السرير فى الصباح ، وان يكون له مكان سرى للاختباء فيه أو يعيش فى جزء منعزل عن المدينة أو القرية . وأما مركب الخوف من فقدان السند in suppont c. فيتضمن القلق بسبب عدم توافر العون وهذا النوع يعبر عن نفسه عادة فى الخوف من الاماكن المفتوحة ، والسقوط والغرق والزلزال والنار وافتقاد المساعدة الأسرية . أما مركب الانطلاق egression c. فيتركز حول الخوف من الاختناق والحبس . والشخص الذى يظهر هذا المركب يفضل بشدة الأماكن المفتوحة والهواء الطلق والحركة والسفر والتغيير وحاجة قوية للاستقلال الذاتى .

المركب الفمى : Oral c.

يرى مورى أن هناك ثلاثة أنواع مشتقة من الوقائع المرتبطة بخبرات التغذية المبكرة . مركب تلقى العطف الفمى oral succorance c. . ويتضمن نشاطا فميا مع ميول سلبية واتكالية . وهـذا المركب يعبر عن نفسه فى المص والأكل والتقبيل والرغبة فى التعلق بشخص عطوف يمكن أن يتلقى منه الفرد الغذاء والحماية والثناء والمشاركة الوجدانية والحب والرعاية . وحين تصبح أنشطة الفم مرتبطة بالحاجة الى العدوان يظهر مركب

العدوان الفمى . oral aggression c. ويشمل السلوك المتضمن فى هذا المركب البصق والعض والصياح وتناقض وجدانى عام نحو اشكال السلطة . واخيرا مركب النبذ الفمى . oral rejection c.
ويكشف عن نفسه فى البصق والتقيؤ وضم الشفتين باحكام والتاتأة والخوف من العدوى الفمية وفقدان الشهية ونفور من العلاقات الاتكالية .

المـــركب الشرجـــى : Anal c.

ويعتقد مورى وهو فى ذلك يشبه فرويد أن المركبات الشرجية مشتقة من وقائع ترتبط بالاخراج وبالتدريب عليه . وان هنـــاك مركبين احدهما مركب النبـــذ الشرجى anal retention والآخـــر مركب الاحتفـــاظ الشرجى anal rejection ويتركز المركب الأول حول الانشغال بالتبرز والتمتع بالفكاهة الشرجية ، والاهتمام بمواد بالصلصـال والطين والمواد اللاصقة . وهـــذا النمط من الأشخاص يكون عادة قذرا غير منظم .وحين تصبح الحاجة للعدوان جزء من هذا المركب تتخذ انشطة الفرد شكلا عدائيا تدميريا . أما فى مركب الاحتفاظ الشرجى فهناك ميول قوية لاختزان الأشياء والخوف من التعرض للسرقة والعناد والسلبية وحاجة قوية للنظام والنظافة .

المركب التبولى Uretheral c.

على الرغم من ان مورى راى فى الأصل عدم اهمية المركب التبولى الا انه اصبح بعد مقتنعا بانه يلعب دورا رئيسيا فى حياة كثير من الناس . ولقد اقترح أن يطلق على هذا المركب « مركب ايكاروس "Icarus" وهو شخص اسطورى طار قريبا جدا من الشمس رغم تحذير والده بحيث ذاب الشمع الذى يمسك جناحيه الصناعيتين فخر صريعا . هذا الفرد الايكارى يظهر خصائص سلوكية قوامها الانشغال الزائد بالنار والطموح الزائد الذى يذوب عند مواجهة الاخفاق ، والرغبة الشديدة للحصول على الاعجاب وتقـــدير الذات المبالغ فيه وله تاريخ من التبول اللاارادى .

مركب الخصاء: Castration c.

ولعلك تذكر أن فرويد ارجع كثيرا من القلق العصابى لدى الراشـــد

الى الخوف من الخصاء فى الطفولة،ويعتقد أن هذا المركب ينبغى أن يفسر تفسيراً حرفيا باعتباره « القلق الذى يثيره تخيل امكانيــة تعرض القضيب للبتر » وهو يعتقد أيضا أن مثل هذا الخوف ينتج عادة من التخييلات المرتبطة بالاستمناء الطفلى وما يصاحبه من تحــريمات والديه وخصائص الشخصية التى ترتبط بهذا المركب عند الراشدين مشابهة لخصائص المرحلة القضيبية عند فرويد . وهكذا فان مورى يجــادل دفاعا عن أهميــة الطفولة المبكرة باعتبارها الأصل فى نمو شخصية الراشد .

الوقائع — السلوك فى زمن proceedings

لقد قسم مورى تاريخ الفرد الماضى الى وحدات زمنية أو تفاعلات بين ذات وذات وتفاعلات بين ذات وموضوع أطلق عليها وقائع . وهى فترات من الزمن تتم فيها أنماط سلوكية من البداية الى النهاية . وتعبر نظــرته الطولية للشخصية عن نفسها فى هذا المفهوم عَلى أوضح نحو ومؤداه أننا ينبغى أن نلاحظ عينة من السلوك خلال فترة زمنية كافيــة حتى نستطيع دراستها على نحو مناسب . واذا اقتطعنا صورة للتعبير عن انفعال معين فان هذه الصورة تجريد للحقيقة وهى بهذا المعنى يشوهها . فالصـــورة لا يمكن ان تدلنا على ما أدى الى الواقعة،وما هى الحاجات المرتبطة بالتعبير الانفعالى ، أو ما الذى عمله الشخص بعد ذلك . لكى نفهم السلوك ينبغى أن نحلله على أساس البعد الزمنى . ويميز مورى بين نمطين من الوقائع : داخلى ، وخارجى . وتتضمن الواقعة الداخلية جــزءا من الزمن ينغمس الأفراد فيه فى عالمهم الخاص ، أى فى مشـــاعرهم وتصوراتهم وأفكارهم ومن امثلة ذلك احلام اليقظة وتفسير المعنى الرمـــزى لفيلم سينمائى وحل مسألة رياضية وفهم نظرية نفسية . ويقابل ذلك الواقعة الخارجية وهى تلك التى تستغرق فترة زمنية ينغمس فيها الشخص فى التعامل مع البيئة من خلال سلوك حركى لفظى قابل للملاحظة ؛ كلعب التنس والتسجيل فى مقرر دراسى والمشاركة فى مناقشة صفية ؛ وتناول الغذاء مع صديق . وواضح أن مورى يرى أن النوع الأخير من الوقائع أكثر قابلية للدرس من قبل علماء الشخصية لقابليته للملاحظة . وهو يعتقد على وجـــه الخصوص أن الوقائع بين الشخصية مثمرة جدا عند دراسة الشخصية كالتعامل بين الأب والطفل ؛ والاخت والأخ ؛ والزوجة والزوج ؛ والمعلم والتلميذ . وهـــذه

الوقائع تتيح ملاحظة الجوانب السلوكية للعلاقات بين الحاجات والضغوط في بعدها الزمني .

ما هي القوى الثابتة التي تحدد تشكيل الشخصية ؟

المحددات الجبلية constitutional determinants

والمقصود بالمحددات الجبلية للشخصية عند موري بنية الشخص الفيزيقية الكلية ويدخل في هذه المحددات عوامل كسن الشخص وجنسه ونمط جسمه ، وقوته الجسمية ولون بشرته ونواحي قصوره ومدى مسايرة الجسم للنمط الثقافي الطرازي Fasionable ولكن هذه القوى الجبلية لا تعمل في فراغ فأهميتها تتمايز وتتفاضل وفقا لبيئة الشخص الاجتماعية .

ولتوضيح هذه النقطة ننظر الى شاب في ثقافتنا نحيف وضعيف جسميا وهش . أن هذه العوامل في ذاتها تلعب دورا ضئيلا في خطة موري في نمو الشخصية ، ولكننا اذا وضعناها في سياقها الاجتماعي فقد تكون لها أهمية عظيمة . فهذا الشخص قد يعجز عن المشاركة في الألعاب الرياضية التي تتطلب قوة جسمية وخشونة ، وبالتالي لن يتمكن من تنمية جوانب الشخصية التي تمكنه من المشاركة في هذه الرياضات وقد يتعرض للنبذ من اترابه في المدرسة الثانوية نتيجة لذلك . وهكذا فقد يتادى الى تنمية شخصيته واشباع حاجاته بطرق اخرى كأن يكافح للحصول على درجات عالية في التحصيل الأكاديمي . وبينما تكون العوامل الجبلية جزءا من محددات الشخصية ، الا أن آثارها الدقيقة على الشخص تكون عادة وظيفة لتفاعلاتها المتواصلة مع البيئة .

محددات عضوية Group membrship d.

تسهم الجماعات الاجتماعية التي ينتمي اليها الفرد أو يطمح في الانتماء اليها في تشكيل نسق موري في الشخصية . ومن بين هذه المحددات الجماعات الأسرية ، والاثنية والدينية والعنصرية والسياسية والاقليمية والاجتماعية الاقتصادية وانتماء الفرد الى جماعة او اكثر من هذه الجماعات يؤثر في شخصيته ، لان العضوية فيها تحمل معها التعرض لبيئة اجتماعية

معينة ولنسق قيمى . وبناء على ذلك يتفاوت نمـو حاجات معينة ويختلف التعبير عنها باختلاف المتغيرات الخارجية .

محددات الدور Role d.

ان الثقافة تحدد طريقة أداء الأدوار اللازمة للحيـاة الاجتماعية ، ويرتبط تكوين شخصية الأفراد ارتباطا وثيقا بالأدوار التى تحـدد لهـم (الجنس) وكذلك بالأدوار التى يختارونها (المهنة) ومن أمثلة ذلك اختلاف دور الأنثى عن دور الذكر وما يرتبط به من اختلاف فى خصائص شخصية كل منهما ، وفى تنميط لحاجاتهما النفسية كالخضوع والسيطرة وما الى ذلك .

المحـددات الموقفيـة Situational d.

تتألف هذه المجموعة من المحددات من خبرات الفرد من يوم الى آخر . ولايمكن التنبؤ بمعظمها . وقد تشتمل هذه المحددات الموقفية على اشيـاء حدثت مئات المرات وكذلك على اشياء حدثت مرة واحدة ، مع التسليم بأنها مطردة للمجموعة ككل . وهذه فئة من العوامل البارزة التى تشكل الشخصية وتشتمل على عناصر متنوعة كالاحتكاكات بين الشخصية التى تستغرق فترة زمنية قصيرة وتلك التى تستغرق فترة زمنية طويلة كالعلاقات الأسرية وترتيب الطفل بين أخواته والصداقات مع افراد معينين وطلاق الوالدين .

ومما يثير الاهتمام أن بعض الوقائع قد تحدث عشوائيا ولمرة واحـدة ولكنها تؤدى الى سلسلة كاملة من الوقائع المتتالية التى تؤثر فى نمو الشخصية تأثيرا عميقا . ومن أمثلة ذلك لقاء عابر مع فتاة تصبح زوجة لك . والواقعة المبدئية لا تغير الشخصية على نحو مباشر وفورى ، ولكنها قـد تؤدى الـى البدء فيما يصبح بعد ذلك علاقة حميمة غير عادية تؤثر فى تشكيل الشخصية تأثيرا حاسما . وهذه الأنماط من المحددات قد تكون فريدة فى موقف حياتى ، وقد تلعب دورا هاما جدا فى تشكيل نوع الشخص الذى سيصير اليه ذلـك الفـــرد .

المكانة الراهنة والتقويم :

اهتم مورى بمفهوم النمو فالشخصية تتألف من تيمات أو موضوعات أساسية تسرى خلال قصة الحياة . وهذه النظرية تستخدم منهجا طوليا فى البحث بدلا من استخدامها للمنهج المستعرض . وهذا التاكيد على النمو من نواحى القوة فى نظرية مورى لاسبا بعديدة منها : —

١ — ان المداخل النمائية قد أصبحت شائعة فى مجال علم النفس كله وليس فى مجال الشخصية وحدها خلال العقد الماضى أو ما يقرب من ذلك . ولقد انتقل هذا الذيوع والشيوع الى كثير من علماء النفس وطلابهم عندما اكتشفوا فكر بياجيه فى نهاية الستينيات ؛ ويكفى أن تتصفح كتب علم النفس فى هذه الفترة لتدرك مصداقية هذه النقطة ؛ هذا على الرغم من أن بياجيه كان يصدر كتابا كل سنة تقريبا منذ عام ١٩٣٠ م . ومع انتشار فكر بياجية انتشر المنهج النمائى الطولى لمعالجة مسائل علم النفس . ولقد تزايد ادراك علماء النفس بأن كثيرا من اسئلتهم يمكن الاجابة عنها على أفضل نحو بدراسة الأفراد وهم ينمون ويتغيرون خلال حياتهم كلها . ولقد أدرك مورى واعوانه فى عيادة هارفرد النفسية هذه النقطة منذ خمسين عاما ؛ بل أن مورى يقتبس فى كتابه « الاستقصاءات » ١٩٣٨ من بياجيه ؛ أى أن هذه الفكرة الأساسية من أفكار مورى تتسق مع الاهتمام المعاصر بالمداخل النمائية فى دراسة السلوك والشخصية . وهذه نقطة من نقاط القوة فى نظرية مورى .

وثمة ميزة أخرى لهذه الفكرة وهى أنها تروق لفهمنا وتصوراتنا بصفة عامة . وقد تكون الفكرة جديدة نسبيا لدى بعض علماء النفس ولكن الانسان العادى عرف فى الماضى ويعرف دائما انك تستطيع أن تفهم الناس على نحو أفضل اذا عاشرتهم طول حياتهم . وانك كلما طالت خبرتك بشخص عرفته على نحو أفضل ؛ صحيح أنه مما يساعدك على معرفة شخص معرفة وثيقة وعميقة أن تستمع الى اسراره العميقة والى آماله واحلامه ومخاوفه ، ولكن شيئا لا يمكن أن يحل محل معرفة الشخص منذ الميلاد من حيث اسهامها فى فهم شخصيته .

٢ — نظرية هنرى مورى نظرية دينامية شأنها فى ذلك شأن نظرية

فرويد ويونج واريكسون وهورنى فهى كلها تعتبر نظريات دينامية لانها تؤكد تأكيدا كبيرا على الدوافع اللاشعورية ، وتعتبر محتويات العقل نشطة . ولكن حين يحلل فرويد واتباعه تلك الديناميات اللاشعورية فانهم ينتمون الى ما يشبه الأفعال الاستاتيكية والأطر التى تظهر حين توقف فيلما تشاهده من أفلام الفيديو ، ولا تشبه التدفق فى التغيرات والأفعال الذى نراه فى فيلم السينما . وفرويد يوقف الفعل لانه يريد أن ينظر الى القوى التى تسهم فيه نظرة عن كثب . وموري يفعل هذا حين يبدأ فى قياس الحاجات والضغوط والفرق بينهما ليس مطلقا بل هو فرق فى التأكيد ، ومع ذلك فان قراءة فرويد تشبه مشاهدة صور متتابعة فى فيلم ، بينما قراءة موري تشبه فيلما متحركا يعرض بدون توقف . وهذا يرجع الى أن موري مهتم باستخلاص ثيمات من قصة الحياة ، بينما فرويد مهتم بدرجة أكبر بالكشف عن القوى الداخلية الخفية (كالغرائز) التى تقبع وراء الأفعال التى تمت وحدثت من قبل . ان فرويد يصف كيانات entities دائمة تحدث تغيرا ، بينما يصف موري عملية التغير ذاتها . ويعتقد موري اعتقادا جادا بأن الشخصية دينامية وأنها تتغير دوما وتكبر . واذا كانت الشخصية قصة ، فانه ينبغى أن توصف باستخدام مفاهيم تنقل تغير الوقائع وتدفقها ، مفاهيم دينامية كالثيمة .

٣ — نظرية موري نظرية تفاعلية . ومفهوم الثيمة يؤدى الى نظرية تفاعلية . ان مفهوم الثيمة باعتبارها تكوينا يتألف من حاجة وضغط يعنى ان هنالك تفاعلا بين كائن حى وبيئة . ويؤدى الى نظرية يتأثر فيها السلوك بنزعات داخلية وظروف وملابسات خارجية ، والمثيرات الاجتماعية لها أهمية كاهمية الرغبات الغريزية . ونظرية الشخصية الناتجة عن هذا أكثر توازنا مما نجد لدى فرويد الذى تعرض لنقد مؤداه أنه لم يلق انتباها كافيا للمحددات الاجتماعية والثقافية للسلوك .

غير انه ثمة نقطة اكثر ارتباطا بهذه القضية اليوم وهى أن مفهوم موري عن الثيمة باعتبارها تفاعلا بين الحاجة والضغط يقدم لنا حلا للجدل الدائر بين دعاة السمات ودعاة المتغيرات الموقفية وهو جدل استعر بين علماء نفس الشخصية خلال السبعينات . ولعل هذا هو السبب فى ظهور اهتمام جديد بعالم الشخصية عند هنرى موري وهو اهتمام يتسق مع التأكيد على

التفاعلية عند عدد من المعاصرين من أمثال والتر ميشيل Walter Mischel ولقد اكتشف هنرى مورى التفاعلية قبل هؤلاء بخمسين عاما . ولعل مورى فى ذلك الوقت كان يحاول أن يعدل تأكيد فرويد المكثف على جانب واحد دون آخر ، اى على الديناميات الداخلية ؛ ولكن نظرية مورى ملائمة اليوم كبديل لانشغال السلوكيين بالمثيرات البيئية فى العقود الحديثة . يقول س . أبشتين Seymour Epstein ١٩٧٩ محللا ما اسماه بعصور الظلام فى سيكولوجية الشخصية وهى السنوات التى فصلت بين كتاب « استقصاءات فى الشخصية » والوقت الحاضر .

« وبدلا من أن نتبع المثال الذى قدمه لنا مورى فى دراسة الأفراد دراسة شاملة وعميقة ، تابعنا رؤية ضيقة للعلم ، رؤية اصبحت فيها الطريقة أكثر أهمية من الجوهر. ونتيجة لذلك امتلأت مجلاتنا العلمية بدراسات تصف تناولا معمليا لمتغيرات قليلة المغزى للأفراد فى التجارب . ولم يكن غريبا ولا عجيبا أن الحصاد كان هشيما ، ونتيجة لذلك أصبحت المعاصرة العلمية تعنى العدمية وان نشك فى وجود الاستقرار فى الشخصية وبالتالى فى الشخصية ذاتها » .

ولحسن الحظ فان مفهوم مورى التفاعلى للذيمة يزودنا بفكرة رئيسية لاعادة الشخص الى الشخصية ، وفى نفس الوقت يحتفظ باستبصارات السلوكيين عن دور المتغيرات الموقفية .

٤ — اذا اقتصرت على وصف الوقائع التى يتكرر حدوثها فى قصة حياة الشخص اى على الثيمات الأساسية فانك لن تحتاج الى مسلمات فلسفية . وفى الحق أنه قد يكون هناك قدر من التحيز فى اختيارك للثيمات ، ولكنك ما زلت فى غير حاجة الى التسليم بمسلمات معينة . انك ببساطة تصف شخصا كما يحدد البيولوجى الملامح الأساسية لعينة تحت المجهر ، وانت تكشف عن شىء كان دائما هناك ، ولكنه لم يرى من قبل . فانت لا تستنتج اى شىء عما لا يمكن رؤيته ويستطيع العلماء ان يسهموا اسهاما سادتا فى زيادة رصيدنا المعرفى وذلك بالافادة من تدريبهم واستخدام ادواتهم التقنية ليظهروا اشياء ما كنا نستطيع اظهارها بغير هذه الأدوات وذلك التدريب . واختبار تفهم الموضوع مثال جيد لهذا النوع من الأدوات التقنية . وحين

يصف موري اختبار تفهم الموضوع TAT باعتباره جهاز اشعة اكس لعالم الشخصية فانه يعني انه أداة تكشف عن أشياء موجودة هناك في الحقيقة ولا يسلم الباحث بوجودها ببساطة ، ولكننا بغير هذه الاداة لا يمكن مطلقا ان نراها .

والاعتماد على مسلمات فلسفية قليلة أو عدم الاستعانة بمثل هذه المسلمات له ميزته بالنسبة للنظرية . وطالما أن موري يرى الثيمات باعتبارها سلسلة من الوقائع المتشابهة التي يتكرر حدوثها في قصة الحياة ، وطالما أنه يتمسك بوصف هذه الوقائع فانه لا يحتاج الى أي مسلمات . ان فكرته الاساسية التي تقضي بالبحث عن ثيمات قصص الحياة لا تستنتج وجود أي قوى افتراضية أو بنى وهذه احدى نواحي القوة في نظريته .

هذا عن نواحي القوة ، غير أن هناك نواحي ضعف ايضا في نظرية موري : —

١ — ان فكرته الأساسية لا تكشف عن الاسباب والعلل وبغير هذا لا بد من الاخذ ببعض المسلمات . ففي الوقت الذي يعتبر تجنب المسلمات امرا مرغوبا فيه بوضوح الا انه له نتائج خطيرة . فاذا تمسكنا بالوصف مجردا فاننا لا نستطيع ان نكشف عن الأسباب والعلل . ونستطيع أن نصف كيف تنتظم برادة الحديد في خطوط معينة حين نمسك بمغناطيس تحتها ، بل ونستطيع أن نرسم خطوطا تمثل هذه العملية ولكن هذا لا يفسر العوامل التي ادت الى ان تتخذ برادة الحديد هذا الشكل . ولكي تفسر هذه الظاهرة فان عليك أن تستنتج وجود قوى غير ظاهرة من ملاحظتك لانتظام الواقعة . ولا تستطيع ان تقدم نظرية سببية دون الاعتماد على مسلمات . ولكنك اذا رغبت عن الاعتماد على مسلمات فانك لا تستطيع أن تعالج الأسباب . وبغير معرفة بالأسباب من الصعب ان تحدد العوامل التي ينبغي عليك تناولها لاحداث تغيرات في الشخصية لكي تشفي المرضى من اضطراباتهم النفسية أو تعدل سلوك المحرومين أو المعاقين او المتأخرين دراسيا .

وعلى الرغم من انه في الامكان استخدام تحليل الثيمات بطريقة وصفية صرفة ، الا ان موري آثر التفسيرات العلية وبتعريفه للثيمات كتفاعلات بين

الحاجة والضغط انتقل من المجال المنظور الى مجال الاستنباط والاستدلال، وفى ايجاز فانه أعتمد على مسلمات معينة . ولقد فعل هذا مع الحاجة اكثر مما فعل مع الضغط لأن الأخير قابل للملاحظة فى معظم الحالات ، وهذا هو السبب فى اهتمام السلوكيين بهذه المثيرات البيئية . لقد كتب مورى قائلا « أن الحاجة عملية يفترض صدقها لكى تفسر حقائق موضوعية وذاتية معينة (1938, p. 54) فقد نرى افرادا يكافحون لتحقيق الامتياز فى عملهم المدرسى أو فى تنافسهم الرياضى ، وقد يخبروك بأنهم يحاولون دائما عمل افضل ما عندهم فى هذه الجهود . ومع ذلك فانك كما فى حالة المغناطيس الذى يؤدى الى انتظام برادة الحديد فى خطوط معينة لا تلاحظ فعلا القوة التى تسبب هذه الوقائع والاحداث ، وانما تلاحظ آثارها فحسب . ثم تستنبط أن هذه الآثار قد نتجت عن القوة المغناطيسية ، او عن حاجة الى الانجاز . ولقد ابتكرت الحاجة للانجاز لكى تفسر الوقائع الملاحظة . انها مجرد افتراض او مسلمة او هى تكشف عن حاجة الملاحظ الى الاعتقاد بأنه يفهم أسباب الوقائع والأحداث كما تكشف عن الوقائع ذاتها .

وهذا هو المأزق الذى يواجه جميع نظريات الدافعية . فمورى ليس هو الوحيد الذى يتصدى لهذه اشكلة ومورى اكثر صراحة فى هذه النقطة . اذ يبدو أحيانا كأنه غير قادر على اتخاذ قرار بما اذا كان ينبغى أن يكون علم الشخصية ، كالنقد الأدبى والتحليل النفسى والقياس العقلى او يختلف عنها . والسؤال الأهم هو هل يتجنب المسلمات والافتراضات حين يصف الثيمات ؟ أم يسلم بوجود حاجات ليتوصل الى اسباب السلوك ؟ وأيا كان المسار الذى يختاره مورى فانه لا يستطيع أن يتجنب النقد .

٢ — ان ما يبرز كثيمة بالنسبة لأحد القراء لقصة معينة قد لا يبدو كذلك عند آخر . أن الثيمة تبرز لان القارىء يدرك بعض التشابه بين سلسلة من الوقائع او صلة مشتركة تربط بينها . ولكن قارئا قد يرى تشابها بينما ولا يرى آخر شيئا . هل ترى اى تشابه على سبيل المثال فى الوقائع الآتيـة : —

(أ) لقد تعرض المفحوص للتبول اللاارادى المحرج عددا من المرات ، واحيانا فى المدرسة حتى بلغ الحادية عشرة من عمره .

(ب) وحتى اليوم وهو طالب بالجامعة يشعر بالنشوة حين يشعل نارا في سلة المهملات التي يستخدمها .

(جـ) انه يحاول بجد أن يكون مركزا للانتباه وان يصفق الآخرون له ويتملقوه .

هل هذه جميعا جوانب لثيمة واحدة ؟ اشك في أن معظم الناس يوافقون على ذلك ، ومع هذا فان هنرى مورى (1955/1981, p. 546) يرى أن الخيط المشترك الذى يربط بين هذه الوقائع التى تبدو غير متصلة واضح وضوح النهار . انه الايروطيقية التبولية .

وحين يطبق مورى هذا الاسلوب فى تحليل التيمات على قصص الحياة فان التيمات التى يتوصل اليها تحليلية نفسية على الأغلب . وعلى الرغم من وعده ايانا بانه يصور لنا الانسان باعتباره حيوانا اجتماعيا قادرا على التخيل على نحو افضل مما يفعله أصحاب التحليل النفسى ، الا انه يتوصل الى ثيمات كثيرا ما تبدو مبالغا فيها مثله فى ذلك مثل فرويد فى كثير من تفسيراته .

ويرى مورى أن كثيرا من القراء سوف يجدون مثل هذه التفسيرات مبالغا فيها ، ولكنه مع ذلك يقرر وفى اصرار على أن هناك وقائع حيوية فى حياة كل فرد (وان عليه أن يقرر لماذا هى حيوية وهامة) تسجل فى المخ ، ومن ثم فانها جاهزة ومهيأة لان يعاد تنشيطها بالضغط المناسب .

وهذه النقطة لا ترتبط بفكرة مورى عن الثيمة وانما بطريقة استخدامه لها وتطبيقه اياها . ان الطبيعة التحليلية النفسية السائدة للثيمات التى يستخلصها من دراسة الحيوات مشكلة معظم علماء النفس من دعاة التحليل النفسى . ونأمل الا يؤدى التحيز بالمعارضين للتحليل النفسى الى اغفال مزايا تحليل الثيمات عند مورى .

٣ — يلجأ مورى الى استخدام مصطلحات لا ضرورة لها ، وكتاباته تحتوى على عدد كبير من المصطلحات التى صكها لوصف مفاهيمه وهى مصطلحات ينفرد باستخدامها ومعانيها قد تكون غير واضحة ما لم ندرسها فى ضوء تعريف مورى لها . ويحتوى كتاب استقصاءات الشخصية على ثمان

صفحات تتناول هذه المصطلحات وتعريفاتها . وعلى سبيل المثال لقد وضع الكلمات الآتية فيما يتصل بتحليل الثيمات : —

thematic analysis, episode, thema, serial; serial program; schedules proceedings, prospection, ordination

وعلى الرغم من أن هذه المصطلحات توحى بأنه يستخدم لغة علمية ، الا أنها تبدو غير ضرورية . صحيح ان جميع منظرى الشخصية تقريبا يبتكرون بعض المصطلحات الجديدة ، وان كان قلة منهم هى التى تضع مصطلحات خاصة بهم بكثرة كما يفعل مورى . وفى بعض الحالات يشعر الدارس أن هناك اسبابا وجيهة لعمله هذا ، ولكنه فى حالات أخرى يشعر بأن هذا العمل غير مسوغ .

ولقد ارتبط هذا أيضا بتطويره المستمر لنظريته ، فكان يعدل احيانا مفهوما أو يتخلص من فكرة أو يقدم فكرة جديدة كلية وكان مورى يصر دائما على أن اى نظرية فى الشخصية ينبغى أن تكون قادرة على استيعاب الحقائق والخبرات الجديدة . ولعل عنوان احدث وصف لنظريته يدل على ذلك « مكونات نسق متطور فى علم الشخصية » .

Components of an Evoling Personological System

وهناك عناصر راسخة فى نظرية مورى وهى : اهتمامه العميق بالدافعية ، بما فى ذلك الدافعية اللاشعورية ، وايمانه العميق بأن السلوك الانسانى ينبغى أن ينظر اليه باعتباره عملية تفاعلية؛وبأن السلوك الانسانى غرضى وله هدف ، واصراره على الربط بين عمليات المخ والعمليات السيكولوجية ، واهتمامه بالطرق الوصفية والتصنيفية .

ولقد اتخذ موقفا وسطا فى الدافعية فلم يحاول تفسير السلوك الانسانى بدافع واحد أو عدد قليل من الدوافع كما نجد عند روجرز ، وماسلو ، وفرويد . وغيرهم ولم يحاول أن يسير فى ركاب من افترضوا أن عدد الدوافع بالغ الكثرة وأن كل فرد توجهه دوافع تبلغ من الاختلاف والتفرد عن بقية الأفراد حدا يتعذر معه تحديد الدوافع التى تنطبق على الكثيرين أو

بتعذر تصنيفها . وهو يرى أن ما يقرب من عشرين حاجة تكفى للتعبير عن سلوك معظم الناس ، ان لم يكن جميعهم .

ولقد تعرضت نظرية مورى لنقد مؤداه انها لا تزود الباحثين بمجموعة من القضايا التى يمكن أن تولد فروضا قابلة للاختبار . ولعله من المناسب أن تعتبر مفاهيمه ومسلماته نظرة عامة للسلوك تشكل اسلوب تناول مشكلات بحثية معينة فى مجال الشخصية . ولقد بذل اكثر مما بذله كثيرون فى هذا المجال فى بلورة وتحديد مجموعة من المتغيرات التى استخدمها ويمكن ان يستخدمها الباحثون على اختلافهم . ولقد ادى عمله الى دراسات مكثفة لدوافع معينة كالانجاز والانتماء .

ويرى النقاد انه على الرغم من أن مورى ناقش عملية التعلم ، الا انه لم يهتم اهتماما كافيا بالشروط النوعية أو المحددة لكيفيـة حدوث التعلم . وهكذا فانه لا يستطيع تفسير كيفية تشكل الدوافع وتغيرها وتطورها .

واخيرا فان التقدير النهائى لاسهامات هنرى مورى لا بد أن يأخذ فى الحسبان النظرية والرجل وبحوثه . وتبرز هذه النظرة الشمولية اصالة الرجل وحيويته فى مجال معقد كثير المتغيرات هو مجال الشخصية .

الفصل الثامن

جوردن البـورت

ولد البـورت فى مونتزوما بولاية انديانا بالولايات المتحـدة الامريكية فى نوفمبر ١٨٩٧ م . وكان أصغر الابناء لأب يعمل طبيبا ولام تعمل معلمة . يقول البورت فى تاريخه لحياته : ـــ

« كانت امى مدرسـة ولقد علمت ابناءها الشغف بالتساؤل الفلسفى ، ونقلت اليهم الاهتمام بالبحث والسعى للحصـول على اجابات دينيـة عن تساؤلات أساسية هامة . ولم يكن متوفرا لوالدى كطبيب امكانيات علاجية مناسبة لمرضاه . ولذلك فقد اقتضى الأمر أن يقيم المرضى والمرضات معنا فى نفس المنزل لعدة سنوات . وكان معنى هذا أن أصبح تقديم بعض الخدمات والمساعدات لهم جزءا من تدريبى المبـكر ومن تربيتى . ولم يكن أبى يؤمن بالعطلات للترويح عن النفس وكان يتبع قاعدته هو فى الحياة التى عبر عنها على النحو الآتى : لو أن كل شخص اجتهد على قدر استطاعته واخذ لقـاء اجتهاده الحد الأدنى من العائد المادى وهو ما يفى حاجات الاسرة ، فسوف تتوافر ثروة كافية ليتقاسمها الجميع . وهكذا فان جو الاسرة كان مشـبعا بالاجتهاد فى العمل والثقة والعطف » (1967, p.p. 4-5)

ولعل مثل هذه الخبرات التى حفلت بها بيئة البورت الاسرية هى التى دفعته الى الاهتمام طيلة حياته بصالح الانسـان ، وهى التى برزت فى اتجاهه الانسانى فى علم النفس .

وعلى الرغم من أن جوردن البورت ولد فى انديانا الا انه نما وكبر فى كليفلاند بولاية أوهايو حيث التحق بالمدارس العامة . ولقد التحق بجامعة هارفرد عام ١٩١٥ نتيجة لتاثير اخيه (فلويد Floyd) الذى اصبح عـالما نفسيا مشهورا وكان قد تخرج من جامعة هارفرد قبله بسنتين . ولقد اجتاز جوردن اختبار الالتحاق بصعوبة ، وكانت تقديراته الأولى ج ، د . ولكنه بذل جهدا هائلا وانهى عامه الجامعى بتقديرات أ (ممتاز) وتخرج من جامعة هارفرد عام ١٩١٩ م وكان تخصصه الرئيسى اقتصادا وفلسفة .

وبعد تخرجه لم يكن واثقا من مطامحه المهنية ، ولم يكن قد حدد العمل

الذى يريد أن يخصص حياته له ؛ لقد كان يبحث عن هويته . وقضى السنة الأولى بعد التخرج يدرس اللغة الانجليزية وعلم الاجتماع فى كلية روبرت Robert Collehe باستنانبول بتركيا ولقد استمتع بالتدريس استمتاعا دفعه الى قبول منحة دراسية من جامعة هارفرد للدراسات العليا فى علم النفس .

ولقد توقف البورت فى طريق عودته الى الولايات المتحدة الامريكية فى فينا لكى يزور أحد اخوته . وبينما هو فى هذه الزيارة مر بخبرة كان لها أثر عميق على توجيه النظرى فى دراسة الشخصية . لقد كتب الى فرويد رسالة يستأذنه فيها لزيارته ، وجاءه الرد بالموافقة . ولقد وصف البورت هذه الزيارة القصيرة لفرويد على النحو الآتى : —

« بعد أن دخلت غرفته الشهيرة ذات الجدران المائلة الى الحمرة ، وقد علق عليها صور للأحلام دعانى الى مكتبه الداخلى ، ولم يتحدث الى ، وانما جلس صامتا متوقعا منى أن أحدد هدفى من الزيارة . ولم أكن مهيئا لهذا الصمت ، وكان على أن افكر بسرعة لأعثر على موضوع مناسب للحوار .. ولقد حدثته عن ولد صغير يبلغ من العمر اربع سنوات أظهر خوفا مرضيا حادا من القذارة وظل يردد قائلا لامه ، لا أريد أن أجلس هناك ... لا تدعى ذلك الرجل القذر يجلس بجوارى ... ولقد كان كل شىء بالنسبة له قذر منتن . وكانت أمه ذات مظهر حسن ، مسيطرة ، وذات تصميم بحيث أنى اعتقدت بوجود علاقة واضحة بين السبب والنتيجة .

« وحين انهيت قصتى ثبت ناظريه على قائلا : هل كان هذا الولد الصغير انت ؟ » وقد ذهلت لهذه الاستجابة وشعرت بالاثم قليلا ، وحاولت تغيير الموضوع . ولقد كان سوء فهم فرويد لدوافعى مثيرا للاهتمام ، ولكنه أدى الى أن أبدأ خطا فكريا هو اننى ادركت انه قد اعتاد على الدفاعات العصابية وان دوافعى الظاهرة (وهى نوع من حب الاستطلاع والطموح الذى يتميز به الشباب) قد فاتته . ذلك انه لكى يحقق تقدما فى العلاج النفسى لا بد أن يخترق دفاعاتى ، ولكن ما حدث هو ان التقدم العلاجى فى هذه الحالة لم يكن الموضوع المناسب للموقف » (1968, p.p. 383-384)

ولقد تعلم البورت من هذه الخبرة ان من الممكن بالنسبة لعالم النفس

المتعمق ان يذهب فى تعمقه حدا يغفل معه حقائق اكثر اهمية . ولقد شعر البورت ان لديه اسبابا شعورية صادقة لزيارة فرويد واختار تلك القصة ، الامر الذى ادى الى انشغال فرويد بالبحث عن الحقيقة العميقة وراء هذا السلوك مما حاد به عن حقائق هامة . وسوف نرى ان البورت يعتقد ان افضل طريقة للكشف عن الدوافع الحقيقية للشخص هى عن طريق التقرير الذاتى اى بسؤاله هو . ولقد اظهر البورت خلال حياته كلها عدم ميله للتحليل النفسى .

ولقد عاد البورت الى جامعة هارفرد حيث حصل على درجة الماجستير عام ١٩٢١ ، ودكتوراه الفلسفة عام ١٩٢٢ وكان عمره ٢٤ عاما . وكان اول عمل علمى قام بنشره مشتركا مع اخيه فلويد وعنوانه « سمات الشخصية : تصنيفها وقياسها »

Personality Traits : Their Classfication and Measurement
(Allport & Allport 1921).

وكان عنوان رسالة الدكتوراه « دراسة تجريبية لسمات الشخصية ».
(An Experimental Study of Traits of Personality)

ولقد حصل على منحة دراسية مكنته من ان ينفق عاما دراسيا (١٩٢٢ — ١٩٢٣) فى جامعة برلين وجامعة هامبورج ، وان يقضى سنة دراسية (١٩٢٣ — ١٩٢٤) فى جامعة كمبردج بانجلترا . وقد عاد الى جامعة هارفرد عام ١٩٢٤ حيث قدم اول مقرر فى سيكلوجية الشخصية فى الولايات المتحدة الامريكية . وكان عنوانه « الشخصية جوانبها النفسية والاجتماعية »
(Personality : Its Psylological and Social Aspects)

ويبدو ان هذه الخبرة فى مجالات اكاديمية اجنبية مختلفة قد اسهمت فى زيادة اهتمامه بالشئون الدولية والذى يبدو جليا فيما شارك فيه البورت وقام به من انشطة خلال حياته المهنية ذات صبغة اخلاقية واجتماعية .

ولقد تزوج عام ١٩٢٥ ، وانجب طفلا اصبح فيما بعد طبيب اطفال وباستثناء اربع سنوات عملها فى كلية دارتموث من ١٩٢٦ — ١٩٣٠ م Dartmouth College قضى حياته المهنية كلها فى جامعة هارفرد وتوفى فى اكتوبر ١٩٦٧ عن عمر دون السبعين بشهر واحد .

ولقد شارك بالعضوية وبالرئاسة فى كثير من الجمعيات المهنية والعلمية ومن امثلتها رئاسته للجمعية النفسية الامريكية كما رأس تحرير مجلة علم نفس الشواذ وعلم النفس الاجتماعى . ويظهر تنوع جهوده العلميـة فى القضايا التى انشغل بها وظهرت فى كتب الفها وابحاث قام بها واختبارات صممها بمفرده حينا وبالاشتراك مع آخرين حينا آخر . فله دراسـات فى الحركة التعبيرية وكتب عن سيكولوجية الراديو وسيكولوجية الاشـاعة وطبيعة التعصب والفرد ودينه ، هذا فضلا عن كتاباته الكلاسيكية فى مجال الشخصية . وقد اشترك فى وضع اختبارين نفسيين ذاع صيتهما وكثر استخدامهما فى البحوث النفسية وهما السيطرة والخضوع The A-S Reachtion Study ودراسـة القيم Study of Values بالاشتراك مع فرنون ولندزى وقد نقله د . عطية هنا الى اللغة العربية .

ولقد كان البورت توفيقيا يأخذ الأفضل من نظريات عديدة فى الشخصية ومن نظريات متنوعة . وكان أول من نقد ما اعتبره اسوأ الجوانب فى تلك النظريات فلقد انتقد التحليل النفسى والسلوكية ؛ والبحوث التى اجريت على الحيوان واستهدفت الكشف عن معلومات تفيد الانسان وتصلح له . كما هاجم الأساليب الاحصائية فى دراسة الشخصية كالتحليل العاملى .

ولقـد اعتقد البورت بقوة أن المبادىء التى تحكم سـلوك الحيوانات الدنيا والعصابيين من البشر تختلف عن المبادىء التى تحكم سلوك الأسوياء والأصحاء منهم . وهكذا فان ما نتعلمه من دراسة احدى الفئتين قد لا يساعد فى فهم الفئة الأخرى ... « وبعض النظريات تستند الى دراسة المرضى والقلقين من الناس أو دراسة الفيران الحبيسة واليائسة . وقلة من النظريات هى التى اشتقت من دراسة الانسان السـوى الذى يكافح لا ليحافظ على حياته بل ليجعل الحياة جديرة بالعيش » (Allport 1955, p. 18)

ولقد حارب البورت اى وجهة نظر فى علم النفس تلقى بالغموض على فردية الانسان أو تحط من كرامته . واذا اردنا ان نحدد الفـكرة الرئيسية المسيطرة على جميع اعمال البورت العلمية والفكرية فانها بغير شك ابراز أهمية الفرد . ولقد ادت هذه الفكرة المحورية بالبورت الى ان يكون موضع هجوم ونقد لان موقفه مضاد لعلم النفس كعلم : لان عمل العلم التوصل الى

قوانين عامة تحكم جميع الانماط السلوكية . والعلم يهتم بما يصدق بصفة عامة ، ولكن البورت كان مهتما بما هو صادق على وجه التحديد والتخصيص.

ما هى الشخصية ؟

حينما نشر البورت كتابه عن الشخصية عام ١٩٣٧ م

Personality · A psyclological Interpretation

قدم فيه الشخصية كموضوع جديد بالدراسة . ولقد كان البورت منذ البداية معارضا للتحليل النفسى وللسلوكية . ولقد تأثر تنظيره المبكر فى الأساس بسيكولوجية الجشطلت التى التقى بها فى المانيا بعد تخرجه من جامعة هارفرد ، كما تأثر باتجاهاته الانسانية القوية التى نمت لديه وترسخت خلال طفولته . ونحن نعرف أن سيكوليجية الجشطلت اكدت على كلية الخبرة الشعورية وترابطها . وكان مما يزعجه قيام أى محاولة لتقسيم الخبرة بقصد دراستها باتقان اكبر . وهذا فضلا عن أن سيكولوجية الجشطلت تجاهلت اللاشعورية تجاهلا كاملا تقريبا. ولقد قرر البورت ان سيكوليجية الجشطلت هى نوع من علم النفس الذى كان وما ذزال فى شوق اليه ولكنه لم يكن يعرف بوجوده (1968, p. 387) والحق ان البورت لم يثق فى العلم كمصدر للمعرفة عن الشخصية وكان اكثر تجاوبا وارتياحا مع الأوصاف التقليدية للانسان التى وجدها فى الأدب والفلسفة وليس معنى هذا ان البورت تجاهل المعرفة التى كشفت عنها الطريقة العلمية ؛ ذلك انه من الواضح أنه لم يتجاهلها . وعلى اية حال فانه لم يرد أن تقيد الطريقة العملية جهوده فى فهم الشخصية . ولقد ادرك انه قد تراكمت معارف كثيرة غير علمية ونافعة عبر السنوات ؛ وانه من غير الحكمة عدم الافادة من هذه المعارف واستخدامها .

لقد اعتقد البورت اعتقادا راسخا ان نظرية الشخصية الجيدة ينبغى أن تتسق مع ما يقدمه الأدب الذى يستطيع أن يقدم اكثر أوصاف الشخصية قابلية للفهم . ومع ما تقدمه الفلسفة لانها اقدم مجال لدراسة الشخصية ، ومع ما تقدمه العلوم البيولوجية لان الانسان حيوان . ان هذا التصور من قبل البورت لا يعنى أن منهجه يتسم بالتفتح فحسب بل يمثل دعوة لنظرية توليفية مستمدة من يستطيعون الاسهام فى فهم الشخصية الانسانية على نحو افضل (L.J. Bischof 1970, p. 257)

ولعل تأثير نظرية الجشطلت وشترن عليه بدا فى عدم ثقته فى الطرق التحليلية المألوفة فى العلوم الطبيعية ، وفى اهتمامه الشديد بتفرد الفرد ، وثبات سلوكه ووحدته . كما ظهر تأثير وليم جيمس عليه فى اسلوبه الأدبى المتميز فى الكتابة وفى تناوله للسلوك الانسانى تناولا يتصف بسعة الافق والنظرة الانسانية . وفى رؤيته فى القدرة المطلقة للمناهج السيكولوجية على فهم السلوك الانسانى . بل ولعله تأثر أيضا بمكدوجال فى اهتمامه بالدوافع وادراكه لاهمية العوامل التكوينية ، واستخدامه لمفاهيم الذات والأنا . (هول ولندزى ترجمة فرج وآخرين ١٩٧١ : ص ٣٣٩ — ٢٤٠) .

وقد قدم البورت فى كتابه الذى صدر عام ١٩٣٧ عرضا لتاريخ كلمة شخصية مبتدئا بارتباطها بالكلمة الاغريقية (قناع) Persona . وأشار الى أن لهذه الكلمة فى الأصل أربعة معانى كما بين شيشرون Cicero هى : —

١ — الشخصية كما تبدو للآخرين وليس ما هى عليه فى الحقيقة وهى بهذا المعنى تتصل بالقناع .

٢ — الشخصية هى مجموعة الخصائص التى تمثل ما يكون عليه الفرد فى الحقيقة وهى بهذا المعنى تتصل بالممثل .

٣ — الشخصية هى الدور الذى يقوم به الفرد فى الحياة أيا كانت طبيعة هذا الدور هل هى مهنية أم سياسية أم اجتماعية .

٤ — الشخصية هى مجموعة الخصائص التى ترتبط بالمكانة الاجتماعية وما يحظى به الفرد من تقدير واهمية . وهى بهذا المعنى ترتبط بالمركز الذى يشغله الفرد فى حياته .

ثم درس خمسين تعريفا للشخصية ووضعها فى الفئات الآتية : —

(أ) التعريفات التى تتصل بالجذور التاريخية للمصطلح .

(ب) التعريفات اللاهوتية .

(ج) التعريفات الفلسفية .

(د) التعريفات الفقهية .

(هـ) التعريفات الاجتماعية .

(و) تعريفات المظهر الخارجى .

(ز) التعريفات النفسية .

وخلص بعد مراجعته وفحصه للتعريفات الخمسين للشخصية الى تعريفه المشهور « الشخصية هى التنظيم الدينامى داخل الفرد للأجهزة النفسية الفيزيقية التى تحدد للفرد تكيفه الفريد مع بيئته » (1937, p. 48)

وقد ادخل على هذا التعريف عام ١٩٦١ تعديلا فتخلص فى تعريفه السابق من العبارة « التى تحدد للفرد تكيفه الفريد مع بيئته » واثبت فى موضعها « التى تحدد للفرد طابعه المميز فى السلوك والتفكير » (p. 28) ولما كان تعريف البورت للشخصية يلخص معظم مفاهيمه الأساسية فان علينا أن نفحص مكونات التعريف بدقة وعناية .

التنظيم الدينامى : Dynamic Organization

التنظيم الدينامى يبعد تصورنا للشخصية عن أن يكون مجرد مجموعة اجزاء . والتنظيم ضرورى لتفسير نمو الشخصية وبنائها . والخلل فيه معناه الانحرافات والشذوذ وعدم التكامل . والتنظيم الدينامى يشير الى حقيقة هى ان الشخصية ولو انها دائما منظمة الا انها متغيرة باستمرار . والشخصية من وجهة نظر البورت لم تكن مطلقا كائنا وانما هى تتسم بالصيرورة وعلى الرغم من وجود قدر كاف من التشابه بين الناس للمحافظة على هويتهم من من خبرة الى خرى ، الا انهم بمعنى من المعانى لا يمكن أن يبقوا على ما هم عليه قبل خبرة معينة وبعدها . ولقد استعار البورت هذه الفكرة من الفيلسوف الاغريقى القديم هريقليطس الذى قال « لا شىء كائن ، لأن كل شىء فى صيرورة » وقال « انك لا تنزل النهر الواحد مرتين » وذلك بسبب التجدد المستمر لمياه النهر . ويصدق هذا على الشخصية فلها تنظيم ولها استمرارية داخل الفرد ، ولكنها تتغير دائما لتصير شيئا مختلفا .

الأجهزة النفسية الفيزيقية Psychophysical Systems

ان احتواء التعريف على الأجهزة النفسية الفيزيقية او الجسمية يذكرنا بأن الشخصية ليست عقلا خالصا وليست جسما واعصابا أو نواحي فيزيقية صرفة ، ذلك أن تنظيمها واجهزتها تتضمن عمل كل من العقل والجسم في وحدة لا انفصام لها .

واحتواء التعريف على كلمة الأجهزة يعنى وجود نظام من العناصر المتفاعلة في تبادل كالعادات والسمات واساليب السلوك التى تشكل نشاطنا وتحدده .

تحـــــدد Determine

يرى البورت أن الشخصية ليست تجريدا او خيالا ، وانما هى موجودة فعلا . « فالشخصية شيء وتفعل شيئا . ان الشخصية هى ما يكمن وراء الأفعال المحددة وداخل الفرد » (1937, p. 18) ويعتقد البورت أن الشخص ليس ببساطة مستجيبا سالبا ازاء البيئة . وانما يتولد سلوك الشخص من الداخل نتيجة لبنية الشخصية .

الطابع المميز فى السلوك والتفكير
Characteristic Behavior and Tought

لقد نقح البورت تعريفه للشخصية فى عام ١٩٦١ فاستبعد العبارة « التى تحدد للفرد تكيفه الفريد مع بيئته » ووضع مكانها « التى تحدد للفرد طابعه المميز فى السلوك والتفكير » .وقد فعل هذا لاعتقاده بأن العبارة الأولى اكدت على معنى البقاء وبالتالى اشباع الحاجات البيولوجية . ولكن التعديل الجديد تناول جميع انماط السلوك والتفكير سواء ما اتصل منها بالتوافق مع البيئة ، أو ما لم يتصل بهذا التوافق.ذلك ان احلام الفرد عن المستقبل على سبيل المثال لها من الأهمية ما لاشباع دافع الجوع ، ولكن علاقتها ضئيلة بالبقاء البيولوجى .

ولقد اكدت الصياغتان للتعريف على اهمية التفرد فى الشخصية ففى

تعريف ١٩٣٧ نجد كلمة « الفريد Unique » وفى تعريف ١٩٦١ نجد كلمة « المميز Characteristic » ولقد رأينا ان اهتمام البورت بدراسة الافراد اكبر من اهتمامه بدراسة القوانين التى تحكم السلوك الانسانى ، وأن هذا الاهتمام يسود جميع اعمال البورت العلمية . وهو لا يمل القول « لا يتشابه شخصان » وعلى هذا فان الطريقة الوحيدة لنتعلم وندرس فردا هى بدراسة الفرد بعينه .

ويميز البورت بين المصطلحات الأربع الآتية : الشخصية Personality والخلق character والمزاج temperament والنمط type .

الخلــــــق :

لقد اغلقت هذه الكلمة البورت لانها تضمنت حكما خلقيا على الشخص، كان نقول خلق هذا الفرد حسن وخلق ذلك الفرد سيء . والخلق فى رأيه هو الشخصية مقيمة ، والشخصية خلق غير مقيم . (1961, p. 32)

المــــــزاج :

يشير البورت الى المزاج والذكاء والجسم باعتبارها المواد الخام التى تتشكل منها الشخصية . وهى جميعا تتحدد وراثيا ويصف المزاج ويعرفه على النحو الآتى : « يشير المزاج الى تلك الظواهر التى تميز طبيعة الفــــرد الانفعالية ، والتى تشتمل على قابليته للاستثارة الانفعالية وقوة استجابته العــادية وسرعتها ونوعية حالته المزاجية الســائدة ، وجميع الخصائص المميزة لتقلب هذه الحالة المزاجية وشدتها . وتعتبر هذه الظواهر معتمدة على التكوين الجبلى وبالتالى فانها من حيث المنشأ وراثية الى حد كبير » (1961, p. 34)

النمــــــط :

النمط فئة يمكن أن يصنف فيها شخص شخصا آخر . اى اننا نستخدم كلمة نمط حين نصنف الاخرين . فالانماط اذن طرق لتصنيف الناس ووضعهم فى فئات . فاذا كان الشخص يتصرف على نحو عدوانى دائما ، فقد نقول انه

من النمط العدوانى ، أى أن سلوكه يلائم هذه الفئة ، أما الشخصية فهى داخل الشخص تدفعه الى أن يسلك بطرق معينة . ونستطيع ان نقول أن الشخصية تولد العناصر السلوكية التى يمكن أن نصنفها بالأنماط او الطرز .

محكات نظرية الشخصية الجيدة :

لقد وصف البورت عام ١٩٦٠ م خمس خصائص اعتقد أن اية نظرية جيدة فى الشخصية ينبغى أن تتصف بها وهى كما يأتى : ـــ

١ ـــ أن النظرية الجيدة هى التى ترى أن الشخصية متضمنة داخل الشخص فالنظريات التى تفسر الشخصية فى ضوء الأدوار المختلفة التى تؤديها أو على أساس الأنماط السلوكية التى تستثيرها الظــروف البيئية نظرية قاصرة . وبعبـــارة أخرى ينبغى أن تفهم الشخصية وأن تفسر على أساس الميكنزمات الداخلية أكثر من تفسيرها وفهمها فى ضـــوء الميكنزمات الخارجية وواضح أن نظرية البورت تستوفى هذا المحك او الشرط ، وهذا ليس غريبا .

٢ ـــ النظرية الجيدة تنظر الى الشخص باعتباره مليئا بمتغيرات تسهم فى أفعاله . ان هذه العبارة اذا أضيفت اليها النقطة السابقة تظهر احتقار البورت للسلوكيين الذين افترضوا لأسباب منهجية ان الانسان كائن حـــى فارغ . وقد رأى علماء نفس المثير الاستجابة أن الطريق السليم لدراســـة السلوك الانسانى هو القيام بتحليل وظيفى للمثيرات وظروفها والاستجابات لها . ولقد تفاخر هؤلاء العلماء من أمثال سكنر لأنهم درسوا الانسان ككائن حى فارغ . ولقد شعر البورت بطبيعة الحال أن هذا الموقف غير انســـانى وغير مستساغ . وكتب قائلا « ان اى نظرية للشخصية تتظاهر بالكفـــاءة ينبغى أن تكون ديناميه ، ولكى تكون دينامية ينبغى ان تسلم بوجود كائـــن حى ممتلىء على نحو حسن ». (Allport, 1960, p. 26) ويلاحظ ان نظريـــــة البورت تحقق هذا الشرط من شروط النظرية الجيدة .

٣ ـــ النظرية الجيدة تبحث عن دوافع السلوك فى الحاضر بدلا من البحث عنها فى الماضى . وهنا نلاحظ ان البورت يعبر عن ســـخطه على

نظرية التحليل النفسى التى تبحث عن دوافع الراشدين فى خبرات الطفولة. ووفقا لما يراه البورت قد يكون العصابيون سجناء ماضيهم وقد تكون طرق التحليل النفسى مفيدة فى معالجتهم ، ولكن دوافع الراشــدين الناضجين الأصحاء موجودة فى الحاضر . وفضلا عن ذلك فان الأصحاء الاســوياء الراشدين على وعى بدوافعهم ويمكن أن يصفوها بدقة اذا طلب منهم ذلك .

«وحين نشرع فى دراسة دوافع شخص ، فاننا نحاول أن نتوصل الى ما يحاول هذا الشخص عمله فى حياته — بما فى ذلك بطبيعة الحال ما يحاول تجنبه وما يحاول أن يكون عليه. وانا لا ارى اى سبب يمنعنا من وجوب بدء بحثنا بأسئلة توجه اليه ليقدم لنا الاجابات كما يراها (Allport, 1960; p. 101)

وسوف نرى عند مناقشتنا للاستقلال الوظيفى أن البورت نظر الى دافعية الراشد باعتبارها منفصلة عن الخبرات المبكرة .

٤ — ينبغى أن تكون وحدات القياس التى تستخدمها نظرية الشخصية الجيـــدة قادرة على أن تســـفر عن تركيب حى "living synthesis" ويرى البورت اننا لا ينبغى أن نضيع على الاطلاق سلامة الشخصية ككل . ذلك أن الانســان اكثر من مجموعة من الدرجات الاختبارية ، أو الأفعال المنعكسة الشرطية . مهما كانت وحدات القياس التى تستخدم فى وصف شخص ، فانها ينبغى أن تكون قادرة على وصف شخصية كلية دينامية .

ان نقول احمـــد خليل حصل على تقدير يضـــعه عند المرتبة المئينية الثمانين فى متغير الذكورة — الانوثة ، وانه يقع عند المرتبة المئينية الثلاثين فى الحاجة للانجــــاز . ويقع عند المتوسط فى الانطـــواء — الانبســـاط ، لا يســاعدنا هذا القول على فهم شخصيته الا مساعدة متواضـــعة . ولو اضفنا الى هذه الأبعاد تقديراته فى أبعاد أخرى كثيرة فان شخصيته كنمط تبدو صعبة الفهم والدراســة من قبل عالم النفس الذى يحاول تشخيصها ، لان الشخصـــية اكبر وأعمق من مجموع أجزائها .

ان نظرية البورت لم يغب عنها أن الشخص كل ؛ وان وحدة القياس التى يمكن من فهم الشخصية هى السمة .

٥ — سوف تفسر النظرية الجيدة الوعى بالذات تفسيرا سليما .

ان الانسان هو الحيوان الوحيد القادر على ادراك وعيه . وهذه الحقيقة ينبغى ان تدخل فى الاعتبار عند تفسير الشخصية وفهمها فهما سليما . وسوف نحاول ان نعرض لمحاولة البورت لمعالجة هذه المشكلة الصعبة عند تناول مفهوم الجوهر .

وواضح ان نظرية البورت تستوفى هذه المحكات الخمسة التى حددها كشروط للنظرية الجيدة فى الشخصية غير أن هناك منظرين آخرين لهم محكاتهم التى لا تستوفيها نظرية البورت .

مفهوم البورت عن السمة :

لقد رأينا أن البورت يعتقد ان النظرية الجيدة فى الشخصية هى التى تستخدم وحدات قياس قادرة على ان تسفر عن تركيب حى living synthesis ولقد كانت هذه الوحدة عند البورت السمة trait . ولكى يتوصل الى تحديد السمات المختلفة التى قد يحوزها الناس قام البورت وادبرت odbert عام ١٩٣٦ م بفحص ١٧٩٥٣ صفة استخدمت وما تزال تستخدم فى وصف افراد الانسان وتحديد خصائصهم، وصنفت فى أربع فئات فتوزعت بين الاستعدادات الحقيقية ، والأنشطة الراهنة ، والمصطلحات التقويمية والمجازية ، واسماء اخرى و مرادفات للسمات . غير ان البورت لا يسوى بالتأكيد بين السمات والاسماء ، لان السمات من وجهة نظره تكوينات بيولوجية فيزيقية حقيقية . ويقرر البورت عام ١٩٣٧ م « ان السمة .. لها وجود اكثر من مجرد الوجود الاسمى، فهى مستقلة عن الملاحظة وهى موجودة هنالك بالفعل . ولا يعنى ذلك ان كل اسم لسمة يتضمن بالضرورة سمة ، بل يعنى ان وراء التعارض بين الحكام وبعيدا عن اخطاء الملاحظة الامبيريقية واختلافاتها لا يوجد ما هو اصدق من التكوينات العقلية فى كل شخصية لتفسير اتساق سلوكها » (p. 289)

ويعرف البورت السمة بانها « بنية عصبية نفسية لها القدرة على استخلاص المثيرات المتكافئة وظيفيا وعلى المبادأة فى التوجيه المستمر

لاشكال متكافئة (على نحو له معنى متسق) من السلوك التوافقى والتعبيرى » (1961, p. 347)

والسمات تفسر الاتساق فى السلوك الانسانى ، لانه لا يوجد اثنان من البشر يمتلكان نفس السمات تماما وكل منهما يواجه الخبرات البيئية على نحو مختلف . فالشخص الذى يحوز سمة الود سوف يستجيب الى الغريب على نحو يختلف عن استجابة الشخص الذى يحوز سمة التشكك فى الآخرين والمثير فى كلتا الحالتين واحد ولكن الاستجابات مختلفة بسبب اختلاف السمات أو كما يقول البورت « ان النار التى تذيب الزبد هى نفسها التى تجمد البيض » (1937, p. 102)

وسمات البشر تنظم الخبرات التى يتعرضون لها ، وذلك لانهم يواجهون العالم على أساس سماتهم ، فاذا كان الناس فى أساسهم عدوانيين ، فانهم سوف يظهرون هذا العدوان فى مواقف كثيرة متنوعة ومتفاوتة. وسوف توجه السمات سلوكهم لان الناس يستطيعون الاستجابة للعالم على أساس سماتهم . وهكذا فان السمات تنشىء السلوك وتوجهه .

وواضح أن السمات لا يمكن ملاحظتها على نحو مباشر وبالتالى فلا بد أن نستنتج وجودها . ويقترح البورت المحكات الآتية لافتراض وجود السمة : —

١ — تواتر تبنى الشخص لنمط معين من التكيف .

٢ — مدى المواقف التى يتبنى فيها الشخص نفس المنوال أو الاسلوب فى الفعل .

٣ — شدة ردود افعاله فى المحافظة على نمط السلوك المفضل .

« ان الحدوث المكرر للأفعال التى لها نفس المغزى (تكافؤ الاستجابة) تالية لمدى قابل للتحديد من المثيرات التى لها نفس المغزى الشخصى (تكافؤ المثيرات) هو الذى يجعل من الضرورى استنتاج وجود السمات والاستعدادات الشخصية personal dispositions وهذه النزعات ليست

نشطة فيجميع الأوقات ولكنها ثابتة ومثابرة حتى حينتكون كامنة ولها عتبات حسية منخفضة نسبيا ويسهل استثارتها . (1961, p. 374).

السمات ليست عادات Traits are not Habits

ذلك أن العادات أكثر تحديدا من السمات . وعلى سبيل المثال فانه قد يتوافر لدى فرد معين مجموعة من العادات ، مثل السواك قبل كل صلاة ، وارتداء ملابس نظيفة فى الصباح وتمشيط شعره ، وغسل يديه قبل الاكل وبعده وقص أظافره . غير أن هذا الفرد لديه هذه العادات لان لديه سمة النظافة . وبعبارة أخرى فان السمة عادات على مستوى أكثر تعقيدا وهى أكثر عمومية من العادة لانها تجمع عدة عادات تنتظم وتتسق معا . وينبغى أن يكون واضحا انه قد تظهر سمات متعارضة لدى الشخص الواحد كأن يكون نظيفا ومهملا اى انه قد تصدر عنه أفعال غير متسقة وتكون لديه عادات متضاربة . وواضح أن السمة لها القدرة على اثارة السلوك وكفه واختيار النمط السلوكى المناسب من بين عدة بدائل متاحة . وليس للعادات القدرة على السيطرة على السمات . ولكن السمات قد تحمل الفرد على اكتساب عادات جديدة متسقة معها .

السمات ليست اتجاهات نفسية Traits are not Attitudes

الاتجاهات النفسية كالعادات أكثر تحديدا ونوعية من السمات . فالشخص قد يكون لديه اتجاه نحو شخص آخر أو مؤسسة أو جماعة ، أما السمة فهى أكثر عمومية من الاتجاه . وعلى سبيل المثال اذا كان الشخص عدوانيا فى الأساس فانه يسلك بعدوان نحو الغرباء والمعارف ، ونحو الحيوانات وازاء القضايا العالمية وما شابه ذلك . والتمييز الثانى بين الاتجاهات النفسية والسمات يتلخص فى أن الاتجاهات النفسية عادة تتضمن التقويم ، أى ان الاتجاهات عادة ما تكون مع شىء أو ضده ، اى انها اما ان تكون موجبة أو سالبة ، وتتضمن تقبل شىء أو نبذه . اما السمات فانها مسئولة عن جميع الأنماط السلوكية والجوانب الادراكية أو المعرفية سواء تضمنت تقويما أم لم تتضمنه .

السمات ليست أنماط Traits are not Types

يميز البورت بين السمة والنمط بمقدار اقتراب كل منهما من الفرد . فالانماط تكوينات نموذجية يضعها الملاحظ ويستطيع أن يحدد مدى التطابق بينها وبين الفرد ، ولكن قد يكون ذلك على أساس التضحية بهويته المتفردة . والسمة تعبر عن تفرد الشخص أما النمط فيقلل من هذا التفرد . وترتيبا على ذلك فان الأنماط فيما يرى البورت تمييزات بعيدة الشبه عن الواقع ، بينما السمات انعكاسات حقيقية لما هو موجود بالفعل . (هول ولندزى ، ص ٣٤٨) .

أنواع السمات :

يميز البورت بين السمات الفردية individual traits والسمات المشتركة common traits والسمات الفردية هى تلك التى يمتلكها فرد معين والسمات المشتركة هى تلك التى يشارك فيها عدد من الأفراد .

ويمكن وصف أى جماعة عن طريق تحديد سماتها . فيمكن على سبيل المثال ان نقول عن جماعة انها ودودة وعن اخرى أنها عدوانية وعن ثالثة انها ذكية . وبالمثل يمكن أن نصف أى فرد بواسطة سماته ، فنصفه بأنه ودود أو عدوانى أو ذكى . وحين تستخدم السمات لوصف جماعة نقول انها سمات مشتركة ، وحين تستخدم لوصف فرد نقول أنها سمات فردية . وعلى الرغم من ان البورت أدرك وجود هذين النوعين من السمات الا انه شعر بقوة انه عند التنظير فى مجال الشخصية ينبغى ان يركز المنظر على السمات الفـــــردية .

ولقد استعار البورت مصطلحين من الفيلسوف وندلباند W. Windelband وهما « الطريقة الايديوجرافية » أو الدراسة الفردية idiographic method والطريقة الناموسية او الدراسة الجمعية nomothetic m. . والمقصود بالدراسة الايديوجرافية دراسة حالة واحدة دراسة مكثفة والبورت يفضلها على دراسة جماعات من الأفراد وتحليل المتوسطات . ولقد شعر البورت أن المتوسطات ليست الا مجرد تجريدات ، ولا تنطبق على أى حالة فردية

على نحو دقيق. وبعبارة اخرى لقد شعر البورت ان الطريقة الوحيدة لنتعلم ونعرف شخصا معينا هو أن ندرس ذلك الشخص ، لانه لا يوجد شخصان لهما نفس المجموعة من السمات بنفس الصيغة الكلية .

ولقد شعر البورت فيما بعد ، بعد أن تطورت نظريته ان استخدام نفس المصطلح لوصف الخصائص الجماعية والخصائص الفردية ادى الى الخلط . ولذلك فقد احتفظ بالمصطلح سمات مشتركة ليصف بها خصائص الجماعات وغير المصطلح سمة فردية ليصبح الاستعداد الشخصي . اما وقد قرر دراسة الاستعدادات الشخصية فانه قد بدا واضحا انه ليس لجميع الاستعدادات الشخصية نفس التاثير على الشخصية ، ولذلك فقد ميز بين الاستعدادات الأصلية Cardinal dispositions الاستعدادات المركزية Centeral dispositions والاستعدادات الثانوية Secondary dispositions

الاستعداد الأصلى أو السمة الأصلية :

هو استعداد مسبق وعام للسلوك . وله السيادة بحيث لا تستطيع الا نشاطات قليلة أن تتجنب تأثيره على نحو مباشر او غير مباشر ، ولا يمكن لمثل هذا الاستعداد او السمة ان تبقى مختفية فترة طويلة من الزمن ، ويعرف بها الفرد ويصبح مشهورا بها . فحين يفكر الفرد فى مجنون ليلى فانه يتصور شخصا رومانسيا او حين يفكر فى حاتم الطائى فانه يتصور شخصا يسيطر الكرم على جميع تصرفاته وواضح ان السمات الاصلية يمكن ملاحظتها فى عدد صغير من الناس .

الاستعداد المركزى او السمة المركزية :

فكر فى شخص تعرفه معرفة وثيقة وتصور انه قد طلب منك ان تكتب له خطاب توصية بأمانة . سجل الخصائص التى سوف تتضمنها هذا الخطاب . ان هذه الكلمات التى اثبتها تصف استعدادات الشخص المركزية او سماته المركزية وتلخص نواحى الاتساق فى سلوكه . وقد يكون من امثلة هذه السمات المركزية الابتكار ، والمثابرة ، والنظام والأناقة .

ويعتقد البورت أن كل شخص يمتلك عددا قليلا من هذه السمات المركزية «وان علم النفس حين يتوصل الى طرق تشخيصية مناسبة لاكتشاف الخطوط الأساسية التى تنتظم على أساسها شخصية معينة (الاستعدادات الشخصية) فقد يتضح أن عدد السمات المركزية يتفاوت ما بين خمس سمات وعشر » . (1961, p. 367)

الاستعداد الثانوى أو السمة الثانوية :

تنطبق السمة الثانوية على مدى أكثر تحديدا من المثيرات عن السمة الأصلية أو السمة المركزية . ان السمات الثانوية قريبة من العادات والاتجاهات ولكنها ما تزال أكثر عمومية منهما . وقد تشتمل هذه على تفضيل الفرد لانواع معينة من الملابس والأطعمة . وهكذا فان السمة الثانوية أقل اهمية فى وصف الشخصية وأكثر تركزا من حيث الاستجابات التى تنشئها والمثيرات التى تلائمها .

وهناك فروق كبيرة بين السمات من حيث درجة تأثيرها الدافعى على الفرد . أى أن بعض السمات أكثر دفعا للفرد من غيرها . فالسمات تتفاوت فى توجيه السلوك وفى دفعه . ومن المعقول ان يسبق عمل السمة مثير خارجى ، أو حالة داخلية معينة.والفرد يبحث بنشاط عن المثيرات التى تتلاءم مع ممارسة السمة فالشخص الذى يتميز بسمة الحرص لا ينتظر الموقف الذى يلائم التعبير عن تلك السمة ولكنه يخلقها . (هول ولندزى ، ص ٣٥٢) .

وتميل السمة الى ان يكون لها مركز تمارس حوله تأثيرها . ولكن السلوك الصادر عنها يتأثر فى الوقت ذاته بالسمات الأخرى . ويحكم التداخل بين السمات الفردية ممارستها لوظائفها . ولعل هذا التداخل هو المسئول عن صعوبة تصنيف السمات . واذا كان لدى الفرد سمات متعددة ومتداخلة تعمل عملها فى نفس الوقت فمن المتوقع الا يكون الاتساق كاملا بينها . (هول ولندزى ، ص ٣٥٢) .

نمو الشخصية :

لقد راينا ان البورت عرف الشخصية كتنظيم دينامى . وقد اعتقد أن الشخصية تتالف من بنيات بيولوجية وسيكولوجية كالاستعدادات الشخصية او السمات . واذا كانت جميع جوانب الشخصية مستمرة ومنظمة ، فان ذلك يعنى وجود فاعل ينظمها . ولقد أطلق على هذا الفاعل فى القديم الروح ، ثم سمى فيما بعد الذات أو الانا . ولقد راى البورت أن هـذه المصطلحات غامضة واطلق على منظم الشخصية الجوهر The proprium ويشتمل الجوهر على جميع الحقائق عن الشخصية التى تجعله فريدا وقد عرف البـورت الجوهر على النحو الآتى : —

« تشتمل الشخصية على هذه العادات والمهارات والأطـر المرجعية والمسائل الواقعية والقيم الثقافية التى يندر أن تكون دافئة وهامة بل وقد لا تكون كذلك على الاطلاق . ولكن الشخصية تشتمل ايضا على ما هو دافىء وهام ، اى على جميع جوانب حياتنا التى نعتبرها خاصة بنا ؛ والتى اقترح فى الوقت الحاضر أن اسميها جوهرا . ويشتمل الجوهر على جميع جوانب الشخصية التى تحقق الوحدة الداخلية . (1955, p. 40)

وهذا التنظيم الداخلى والوعى بالذات او بالنفس لا يكون موجودا عند الميلاد ، ولكنه ينمو ببطء مع الزمن . ولقد اعتقد البورت ان قيام جوهـر الشخصية بوظائفه على نحو تام يميز المرحلة الاخيرة من مراحل النمو الثمانية المتتابعة التى تبدأ عند الميلاد وتستمر حتى الرشد .

١ — الاحساس بالذات الجسمية (السنة الأولى)

The Sense of the Bodily me

تتالف الذات الجسمية فيما يبدو من تيارات من الاحساسـات تنبعث من داخل الفرد ، من الأحشـاء والعضلات والأعصـاب والمفاصــل وغير ذلك من أجزاء الجسم الأخرى ونحن نخبر هذا التيار الحسى عادة على نحو غامض ، وكثيرا ما لا نشعر به بالمرة . ويحدث ان نجد متعة فى التدريب الجسمى وأن نشعر باللذة او الألم الحسى . ويبدو ان الطفل لا يعرف ان هذه الخبرات

خبراته هو فى البداية ، ولكنها أساس ضرورى لاحساسه بذاته فالرضيع الذى يبكى مما يخايفه دون أن يعرف مصدره على التحديد ، تزداد قدرته على تحديد مكانه وادراك ان هذا الضيق والقلق ينتمى اليه (البورت ١٩٥٥ ص ٧٧ — ٧٨) . ولا يكون للاحساسات الداخلية أثر فى تكوين الذات ما لم تتكرر ؛ كما أن الاحساس بالذات ينمو من الاحباطات المتكررة التى تصدر عن العالم الخارجى ومن الخبرات التى يتعرض لها الطفل . (غنيم ١٨٣ — ١٨٥) .

٢ — الاحساس بهوية الذات (السنة الثانية)

The Sense of Self - identity

يبدو أن هذا الاحساس ينمو تدريجيا ، جزئيا نتيجة لما يرتديه الطفل من ملبس ولما يطلق عليه من اسم ولما يميزه عن البيئة التى تحيط به. والتفاعل الاجتماعى له أهميته فى هذا الاحساس فأعمال الآخرين التى يتكيف معها الطفل تكيفا متميزا هى التى تجبره على أن يدرك انه ليس هو الآخر بل كائنا حيا مستقلا . ويبدو أن الهوية الشخصية كما يدركها الطفل غير مستقرة حتى يبلغ سن الرابعة أو الخامسة .

٣ — الاحساس بتقدير الذات (السنة الثالثة من العمر)

The Sense of Self - esteem

يحاول الطفل فى هذه المرحلة ان يعمل بعض الأعمال بنفسه كتناول الأشياء واللعب ، والمشى فى ارجاء البيت لاستكشاف ما فيه وغير ذلك مما يناسبه فى هذا العمر ؛ فاذا واجه عائقا شعر بأن هذه الاعاقة موجهة لتقديره لذاته لانها تشعره بضعفه ولذلك ينتابه الشعور بالغضب . ويميل الطفل فى هذه المرحلة الى مخالفة أوامر الكبار والى كثرة استخدامه لكلمة « لا » فيما يتصل بطعامه وملابسه . ان الطفل فى هذه المرحلة يشعر بالاعتزاز حين يتعلم عمل الأشياء معتمدا على نفسه . ان الاطفال فى هذه المرحلة يسعون الى الاستقلال عن اشراف الكبار (غنيم : ص ١٨٦ — ١٨٧) .

٤ — الاحساس بامتداد الذات (السنة الرابعة)

The Sense of Self - extension

ان الجوانب الثلاث التى عرضنا لها وهى الاحساس بالجسم وهوية الذات وتقديرها جوانب مبكرة فى الشخصية نسبيا وتغلب عليها الصبغة البيولوجية ولكن التعلم سرعان ما يؤدى الى تقدير الطفل لما يملكه ويحبه من اشياء ، وينبغى أن تكون اشياء لها اهميتها عند الطفل . فالطفل الذى يتوحد مع أبيه يوسع احساسه بذاته ، وهو يفعل شيئا من هذا القبيل حين يحب قطته أو يتعلق بدميته . أى أن ذات الطفل تمتد فى هذه المرحلة لتشتمل على الأشياء الخارجية الوثيقة الصلة به .

٥ — بزوغ صورة الذات (من الرابعة الى السادسة)

The Emergence of Self - image

ينمى الأطفال فى هذه المرحلة ضميرا يكون بمثابة الاطار المرجعى لذاته الخيرة ولذاته السيئة . ذلك انه عن طريق التفاعل مع الكبار ومع الابوين يستطيع أن يقارن بين سلوكة الفعلى وتصرفاته وما هو متوقع منه ، فهو طفل كثير الحركة ووالداه يريدانه اقل حركة ، وهو عالى الصوت ووالداه يريدانه خفيض الصوت . أى أن لدى الأطفال فى هذه المرحلة ذاتا واقعية وذاتا مثالية اذا استخدمنا لغة كارين هورنى Horney . وخلال هذه المرحلة يبدأ الأطفال فى صياغة مرامى مستقبلية لانفسهم .

(B.R. Hergenhahn 1980, p. 155)

٦ — نمو الذات المنطقية العاقلة (من السادسة الى الثانية عشرة)

The Emergence of the Self as a Rational Coper

فى هذه المرحلة يتبين الأطفال ان التفكير وسيلة للوصول الى الحلول الصحيحة لما يواجهونه من مشكلات فى حياتهم وللتكيف السليم . اى انهم يوفقون بين متطلبات الذات ومقتضيات الواقع . وقد يخفقون فى حل بعض المشكلات فيلجأون الى ابداء المعاذير والتبريرات حفاظا على الذات .

٧ — بزوغ الجوهر المميز المكافح (من الثانية عشرة الى المراهقة)

The Emergence of Propriate Striving

ما أن تدخل الشخصية في مرحلة امتداد الآنا وتنمية صورة الذات ونمو الذات المنطقية العاقلة حتى يصبح من الضرورى افتراض دوافع ذات مستوى مختلف تمكس كفاحات موحدة ممتدة مميزة .

ان الكفاح الموحد يميز نفسه عن الأشكال الأخرى للدافعية بكونه مهما الت به الصراعات يعمل على توحيد الشخصية وهناك من الأدلة ما يبين أن حياة المرضى اعقليين تتميز بفقدان الأجهزة الدفاعية المتجانســـة . حيث تسيطر على الفرد دوافع منفصلة ووسوسات قهرية أو رياح الظروف فينقد توحده الذى يتحقق حين يعمل الفرد على الابقاء على الاتجاهات الهـامة للكفاح . ان وجود اهداف بعيدة المدى تعتبر مركزية لوجود الانســـان الشخصى ، وتميز الانسان عن الحيوان ، والراشد عن الطفل ، وفى كثير من الاحيان تميز الشخصية السليمة عن المريضة .(نمو الشخصية ص ٩١) .

وغنى عن البيان ان تحقيق الأهداف البعيدة المدى يحتاج الى نضج فى الشخصية وتكامل قد لا يتوافر لدى المراهقين كافة ، فقـد لا يكون لدى بعضهم أهداف واضحة متبلورة . وهؤلاء على الأغلب ذوو شخصيات غير ناضجة ، واحساسهم بذاتهم المميزة ما يزال قاصرا .

٨ — بزوغ الذات العارفة (الرشد)

The Emergence of the Self as Knower

وهذه هى المرحلة الاخيرة من مراحل النمو فيها تمى الذات الجوانب السبعة السابقة وتوحدها وتتسامى بها . وبعبارة اخرى فان الذات كعارفة تؤلف بين هذه الوظائف المميزة جميعا ولفظ الذات ممتدة مميزة أو جوهر Prorium يشير الى هذه الجوانب الثمانية المختلفة للذات .

ان الوظيفة المعرفية اساسية وهامة بالنسبة للذات لاننا لا نعـرف اشياء فحسب بل اننا نعرف ونتعرف على الملامح التجريبية لذاتنا الموحدة

المميزة . اننى انا الذى لدى احساسات جسمية . وانا الذى الاحظ هويتى من يوم الى آخر ، وانا الذى الاحظ وافكر فى توكيد ذاتى وامتدادها وفيما أبديه من تبريرات ، كما ارقب اعتماباتى وكفاحى ؛ وهكذا أفكر فى وظائفى الخاصة الموحدة المميزة . واكاد ادرك وحدتها الاساسية واشعر بارتباطها الوثيق على نحو ما بالوظيفة العارفة ذاتها . (البورت : نمو الشخصية : ص ٩٥) .

الدوافـــــع :

يرى البورت أن اكثر نظريات الدوافع تقوم على فرض اساسى مشترك هو أن الفرد يتجه الى التخلص من حالة الاثارة واستعادة التوازن ، اى ان السلوك يعمل على خفض التوتر ، وان هذا التوتر له اصوله فى اختلال التوازن العضوى ، وكلما ازدادت حدة الاختلال ازدادت الحاجة الى خفض التوتر . ونحن نتعلم اساليب لانتقاص التوتر باقل قدر من الجهد أو الطاقة ، فاذا حققنا هذا الانتقاص للتوتر بنجاح ملنا الى اعادة نفس النمط من السلوك الخافض للتوتر عندما يختل توازننا الحيوى . وبعض النظريات تؤكد على الجانب السلبى اى انها ترى ان الدوافـــع تستهدف خفض التوتر ، وتجنب الألم ، بينما تؤكد نظريات أخرى على الجانب الموجب اى ان الدوافع تسعى للحصول على اللذة ، ويتشابه دعاة التحليل النفسى مع دعاة السلوكية فى انهم جميعا يرون ان السلوك يسعى الى الاشباع والحصول على اللذة .

والحق اننا نستهدف تحقيق التوازن فيما يتصل بالحاجة الى الهـــواء والى الطعام . . . الخ من الحاجات الفسيولوجية ولكننا ايضا نسعى الى التنوع والتغيير . والنمو لا يتحقق الا بالتغيير . والطريقة التى تبدو ملائمة لخفض التوتر قد لا تصلح للمشاركة فى الكفاح الموحد المميز . والخاصيـــة المركزية للكفاح الموحد المميز دقة الهدف وبعده عن التحقيق . فالأب المخلص يظل مهتما دوما بابنه والمعتنق للديمقراطية يظل يتخذها نبراسا لـــه طـــول حياته فى علاقاته الانسانية ويظل العالم بطبيعة التزاماته يخلق لنفسه اسئلة تتزايد ولا تتناقص . والحق أن مقياس نضجنا العقلى كما راى احـــــد الفلاسفة ، هو قدرتنا على أن نشعر باشباع أو برضى يتناقص تدريجيا فيما

يتعلق بما لدينا من اجابات عن مشكلات تتزايد اهميتها تدريجيا . (البورت : نمو الشخصية ص ص ١١٣ — ١١٦) .

وهكذا يمكن القول أن الدوافع نوعان : دوافع خفض ، ودوافع نمو الاولى تتطلب خفض التوتر والثانية تتطلب الابقاء عليه للاهتمام بأهداف بعيدة . وهكذا تتميز صيرورة الانسان ونموه عن نمو الحيوان وصيرورته ، ويختلف نمو الراشد عن نمو الطفل . ودوافع النمو تعنى أن المثل العليا تكتسب مترامنة مع عملية النمو .

الاستقلال الوظيفى : Functional Autonomy

يرى البورت أن هناك أربعة شروط لنظرية الدافعية المناسبة : —

١ — انها ينبغى أن تراعى الطبيعة المعاصرة للدوافع . وكما اتضح مما سبق فان البورت لا يعتقد ان الطفل هو أب الرجل كما ذهب الى ذلك أصحاب التحليل النفسى . ووفقا لآراء البورت لكى يكون الدافع دافعا ينبغى أن يوجد فى الحاضر ، ومعنى هذا أن مسار الدوافع لا يتحدد نتيجة للجذور التاريخية ، ولا للأهداف المبكرة ، وانما يتحدد بالأهداف الراهنة .

٢ — ينبغى أن تسمح بوجود عدة انواع من الدوافع .لقد شعر البورت أن انتقاص الدوافع وردها الى عامل واحد كاختزال الحافز أو الرغبة فى السيطرة ما هو الا نوع من الحمق ذلك ان الدوافع تبلغ من الاختلاف فى النمط درجة تجعل من الصعب أن نكتشف أصلها المشترك . (1961, p. 221)

هل اعداد مصيدة للفيران ووضعها فى بيت احدنا تعبير عن غريزة الموت عنده ؟ وهل الرغبة فى أن يصبح الفرد جراحا اساسها اندماج الحاجة الى الانجاز مع الحاجة الى السيطرة ؟ واذا تمسكنا بتعدد الدوافع فاننا لا نستطيع ان نقنع او نرضى عن النظريات التى تستخدم الفأر والطفل والعصابى نموذجا لدافعية الراشد . ونحن لا نستطيع ان نستخدم نموذجا دافعيا واحدا اذا أردنا ان نفهم دوافع الانسان السوى .

٣ — ينبغى ان تراعى اهمية العمليات المعرفية . لقد كان من المستحيل

بالنسبة لالبورت أن يفهم دوافع شخص فهما حقيقيا دون أن يعرف خططه وقيمه ومقاصده . ولقد شعر أن أفضل طريقة لفهم بنية شخصية فرد معين أن نسأله : ما الذى تريد أن تعمله خلال خمس سنوات من الآن ؟ ولعل البورت من أبرز المنظرين فى مجال دراسة الشخصية الذين يؤكدون أهمية العمليات المعرفية فى فهم الدوافع .

ان كثيرا من المنظرين ينظرون الى التفكير والتخطيط والقصد كأدوات تساعد على اشباع الحوافز والحاجات أو الغرائز . وبدلا من الفصل بين الرغبة والمعرفة يقترح البورت أن ندمجهما معا فى دافع واحد هو القصد ، اننا نستطيع أن نتعلم عن الفرد حين نعرف الى أين يقصد أكثر بكثير مما لو عرفنا أين كان . أن مفهوم القصد يحقق عدة اصلاحات ضرورية فى نظرية الدوافع لانه يحقق تكاملا بين الدافعية والتفكير ،ويؤكد على الطبيعة المعاصرة للشخصية ويدل على التوجه نحو المستقبل ، هذا فضلا عن ان التصميم أو العزم والتصميم يبعدنا عن مفهوم انقاص التوتر ويقربنا من العمل على الحفاظ على التوتر حتى نبلغ الأهداف المنشودة .

ينبغى أن نراعى أن كل شخص لديه نمط من الدافعية يتسم بالتفرد . واذا كان لا يوجد شخصان لهما نفس الصيغة الاجمالية من السمات ، فان هذا يصدق بالنسبة للصيغة الاجمالية للدوافع . ولقد اعتقد البورت ان السمات تنشىء السلوك وتخلقه ، ولذلك يمكن مساواتها بالدوافع . ولقد طرح البورت السؤال التالى : ما هى العلاقة بين وحدات الدافعية ووحدات الشخصية ؟ واجاب قائلا « اقترح أن تكون جميع وحدات الدافعية فى نفس الوقت وحدات شخصية » (1960, p. 118) والعكس ليس صحيحا .

ولقد قدم لنا البورت مفهوما دافعيا شعر بأنه يفى بالشروط الاربعة السابقة وهو الاستقلال الوظيفى « ويقرر هذا المبدأ ببساطة ان أى نشاط معين أو شكل من أشكال السلوك قد يصبح غاية أو هدفا فى حد ذاته ، برغم حقيقة أنه قد بدىء فيه أصلا لبعض الأسباب الأخرى . وبرغم أن أى سلوك ، مركبا كان أو بسيطا قد يكون تابعا أصلا من توترات عضوية أو جزئية فانه قد يكون فى مقدوره اثبات نفسه على الدوام فى غياب أى تدعيم بيولوجى » (هول ولندزى (الترجمة العربية) ٣٥٤ — ٣٥٥) .

والاستقلال الوظيفى وهو على الأغلب اكثر مفاهيم البورت النفسية شيوعا يعنى ببساطة ان الاسباب التى تدفع الراشد الآن الى الانغماس فى بعض أشكال السلوك ليست نفس الأسباب التى أحدثته فى البداية . وبعبارة أخرى فان الدوافع الماضية لا ترتبط وظيفيا بالدوافع الحاضرة ويقدم لنا البورت المثال التالى : « فالتلميذ الذى يختار ميدانا للدراسة فى الكلية لانه مطلوب منه أن يدرسه ، ولان ذلك يدخل السرور على والديه ، أو لان مقرراته الدراسية تطرح فى وقت مناسب قد يجد نفسه فى النهاية منغمسا فيه طيلة حياته . وقد تضيع الدوافع الأصلية كلية . ان ما كان وسيلة لغاية يصبح غاية فى ذاته » (1961, p. 235)

لقد شعر البورت أنه حين تصبح الدوافع جزءا من الذات الممتدة المميزة ، فان الفرد يسعى لاشباعها لذاتها وليس لحصوله على تشجيع خارجى او مكافأة . ان مثل هذه الدوافع تدعم نفسها لانها أصبحت جزءا من الشخص . والقول بأن الأصحاء من الراشدين يكافحون لتحقيق اهدافهم بقصد الحصول على التعزيز قول يدعو الى السخرية ، فلو فكرنا فى باستير ، هل كان السعى للحصول على جائزة أو للحصول على طعام أو نوم أو أسرة أو توفير ما يكفل سلامته الصحية هو اساس اخلاصه لعمله وبذله لذلك الجهد الهائل ؟ ان الدارس لحياته يتضح له انه لم يلق بالا لكل هذه العوامل لفترات طويلة من الزمن ، ناسيا نفسه فى حرارة البحث العلمى . فنجد نفس الولع والحماس فى تاريخ العظماء الذى لم يلقوا فى حياتهم الا القليل من التقدير والمكافأة على عملهم .

ولقد ميز البورت بين نوعين من الاستقلال الوظيفى :

١ — الاستقلال الوظيفى المداوم أو المستمر
Perseverative Functional autonomy

ويشير الى انشطة متكررة ينغمس فيها الفرد على نحو آلى ، وكانت تخدم فى الماضى غرضا وتحققه ولكنها لم تعد تفعل ذلك . وهذه الانشطة تحدث دون ان تلقى اثابة وهى مستقلة عن الماضى ولكنها انشطة قليلة الأهمية . ومن امثلة ذلك الشخص الذى احيل الى التقاعد ومع ذلك يظل يصحو الساعة السادسة صباحا كل يوم .

٢ — الاستقلال الوظيفي الجوهري

Propriate Functional autonomy

ويشير الى ميول الفرد وقيمه ومراميه واتجاهاته وعواطفه . ويرى ألبورت أن هذا النوع من الاستقلال الوظيفي محكوم بثلاثة مبادىء هي : —

(أ) مبدأ تنظيم مستوى الطاقة

The Principle of Organizing the Energy level

يقرر هذا المبدأ أن الفرد عندما لا يكون في حاجة الى الاهتمام بأسباب البقاء والتكيف المبكر في الحياة ، فانه يتوافر لديه قدر ملحوظ من الطاقة . ولما كانت هذه الطاقة فائضة عن متطلبات التوافق الأساسي ، فانه يمكن تحويلها الى الكفاح المميز الممتد نحو تحقيق المرامي المستقبلية مثلا .

(ب) مبدأ الاتقان والكفاءة The Principle of Mastery and Competence

هناك حاجة فطرية لدى الراشدين الاصحاء ليزيدوا في كفاءاتهم وفاعليتهم وليطمحوا الى اتقان أعظم . وبعبارة اخرى فان الاصحاء وفقا لما يراه البورت في حاجة الى أن يزداد تحسنهم في اشياء اكثر فأكثر . وهذا مثال آخر للأخذ بخلق الدافع بدلا من الأخذ باختزال الدافع .

(جـ) مبدأ التنميط المتميز الجوهري The principle of propriate patterning

ان الذات المميزة الممتدة هي الاطار المرجعي الذي يحدد ما يسعى الانسان لتحقيقه في الحياة وما ينبذ . وهذا معناه ، انه على الرغم من أن الدوافع تصبح مستقلة وظيفيا عن الماضي ، الا انها لا تصبح مستقلة عن الذات المميزة الممتدة . وبعبارة اخرى ينبغي ان تتسق جميع الدوافع مع الذات ككل . وهذا يؤكد اتساق الشخصية وتكاملها .

ولا تحدث جميع العناصر السلوكية بطبيعة الحال نتيجة لدوافع مستقلة وظيفيا . ذلك ان قدرا كبيرا من السلوك الانساني يستثار نتيجة للحوافز

البيولوجية ، والأفعال المنعكسة والتعزيز والعادة . أى أن الفرد لا بد أن يتبع دوافعه وحاجاته البيولوجية الى الهواء والنوم والطعام والشراب والاخراج . ولديه مجمعة من الأفعال المنعكسة وهى استجابات آلية لا تقبل الا تعديلات طفيفة فى ظروف معينة . ولديه مجموعة من العادات التى تعتبر أنظمة وسيلية تعمل فى خدمة الدوافع وهى ليست دوافع فى ذاتها . هذا فضلا عن ان أنواع السلوك التى تتطلب تعزيزا أوليا تخرج من نطاق ما هو مستقل وظيفيا (غنيم : ص ٦٦٣ — ٦٦٤) ولقد أدرك البورت هذا ولكنه شعر أن السلوك الذى يخضع لسيطرة الدوافع المستقلة وظيفيا هو السلوك الذى له طابع انسانى بدرجة أكبر . ومن هنا يجب ان يكون محور اهتمام عالم النفس الذى يدرس الشخصية الانسانية .

التعـــــلم :

لقد أكد البورت على اهمية التعلم باعتباره عاملا من عوامل نمو الشخصية . ولقد أدرك أن التعلم متضمن فى الشخصية باعتباره شكلا من اشكال الدافعية . فتحقيق الذات يساعد على تقدم الانسان نحو أهدافه . وعلى الرغم من ان الحتمية الآلية ، وتحقيق الذات يبدوان طريقين متناقضين . الا أن الانسان يتعلم عمل اشياء وتكوين شخصية بسبب هذين العاملين . ولقد قصـــد البورت بحديثه عن الحتمية الآلية ان يشير الى نظريـــات المثير — الاستجابة ، والاشتراط ، والعزيز ، فى مجـــال التعلم . وأراد بحديثه عن تحقيق الذات أو الصيرورة التقدم نحو المرامى والأهداف . فالانسان يتعلم ان يكون لديه شخصية ، وهو يفعل ذلك من خلال التمايز والتكامل .

ولقد استخدم البورت اللفظ جوهر proprium استخداما مكثفا باعتباره مصدر التعلم عن الذات والتوصل الى الشخصية . ان هذا الجوهر يمثل جوانب الشخصية التى تشكل معا فردية شخص معين وتضمن وحدته . أى ان هذا الفرد يسعى لتحقيق أهداف لينمى ما يريد ان يكون عليه ، وهو لا ينتظر بالضرورة لكى تبلور الظروف مرامى وأهدافا صـــالحة . ان الشخصية تخلق الظروف وتبحث عن الملابسات فى الحيـــاة التى تـــلائم أغراضها وتتسق معها . (I..J. Bischof, p. 296)

شخصية الراشد السليمة :

لم تكن نظرية البورت كما هو واضح ربيبة التحليل النفسي . ولم يعن البورت بالعلاج النفسي ولم يهتم بالمضطربين انفعاليا . ولقد شعر بقوة أن المبادىء التى تحكم الشخصية السليمة للراشد لا يمكن أن نتوصل اليها من خلال دراسة الحيوانات والأطفال والعصابيين، ولا بالنظر الى ماضى الفرد وتحليله . ويرى البورت ان الفرق بين الشخص العصابى والشخص السوى يتلخص فى ان دوافع الأول تقع فى الماضى بينما دوافع الأخير فى المستقبل .

ان اهتمام البورت بدراسة الأصحاء من البشر بدلا من دراسة العصابيين قريب مما نجد عند ماسلو الذى شعر بأن الاهتمام الزائد لعلماء النفس بالأفراد المضطربين انفعاليا كان عائقا حال دون فهم الأصحاء والبارزين . ولقد حاول ماسلو تصحيح هذا الموقف بدراسة حيوات اناس حققوا ذواتهم . وانتهى من هذه الدراسة الى قائمة من الخصائص لهؤلاء الأفراد شبيهة بقائمة الخصائص الآتية التى شعر البورت أنها تميز الشخصية الناضجة السوية : —

١ — القدرة على تحقيق امتداد الذات

The Capacity for Self - extension

ويعنى ذلك ان حياة الفرد لا ينبغى أن تنحصر فى نطاق محدود وذلك بالانغماس فى الانشطة الضرورية لاشباع حاجاته الأساسية وواجباته المحدودة المباشرة . ذلك أن الأصحاء الناضجين يشاركون فى احداث ووقائع منوعة وعريضة فلهم اصدقاء كثيرون وهوايات وانشطة فى مجالات حياتية عديدة ، دينية وثقافية وعلمية .. الخ . ينبغى ان يكون للشخص الناضج اهتمامات حقيقية فى مجالات الحياة المختلفة غير اهتماماته وممتلكاته المادية . ان تركيز اهتمام الفرد الكلى على جسمه ودوافعه ومقاصده معناه أن يعيش أقرب الى الحيوان أو الطفل منه الى الانسان . ويتضمن هذا الامتداد للذات توجها نحو المستقبل وتخطيطا لتحقيق الآمال المعقودة عليه .

٢ — القدرة على التفاعلات الانسانية الدافئة

The Capacity for Warm Human Interactions

ان الاصحاء من الراشدين قادرون على تكوين علاقات وثيقة وحميمة مع الآخرين دون ان يتملكهم حقد أو غيرة . مثل هؤلاء الأشخاص يتميزون بالعطف كما يتضح من تقبلهم للفروق الأساسية بين الناس واختلافهم عنهم فى القيم والمعتقدات .

٣ — تتميز بالأمن الانفعالى وتقبل الذات

Demonstrates Emotional Security & Self - acceptance

يتميز الاسوياء من الراشدين بالسماحة التى تلـزم ليتقبلوا ويتحملوا الصراعات والاحباطات التى لا يمكن تجنبها فى الحياة . كما أن لديهم صورة موجبة عن انفسهم . ويقابل هذا ما نجده عند الشخص الأقل نضجا الذى تمتلىء نفسه بالاشفاق على الذات ويتميز بصورة سلبية عن نفسه .

٤ — تتميز بادراكات واقعية Demonatrates Realistic Perceptions

ان الاصحاء من الراشدين يرون الأشياء على ما هى عليه ؛ وليس على ما يأملون ان تكون عليه . ومثل هؤلاء الأفراد يظهرون تعقلا حين يقدرون موقفا من المواقف وحين يعملون على التكيف معه ، ولذلك فانهم يقدرون على التصدى لمشكلات الحياة . انهم يعلمون الى اين هم ذاهبون وكيف يبلغون هدفهم .

٥ — تظهر الموضوعية نحو الذات

Demonstrates Self - objectification

ان الاصحاء من الراشدين لديهم صورة صحيحة ودقيقة عن نواحى قوتهم ونواحى قصورهم . انهم يفهمون الفرق بين ذواتهم الحقيقية وذواتهم المثالية . ويعرفون الفرق بين ما يعتقدونه عن انفسهم وما يعتقده الآخرون عنهم . ويرى البورت ان هناك مكونين اساسيين لتلك الخاصية وهمـــا الاستبصار والمرح humor ويقصد بالاستبصار قدرة الفرد على فهم نفسه ،

ويشتمل الاحساس بالفكاهة وروح المرح على القدرة على الاستمتاع والضحك في المواقف المناسبة لذلك والمعتادة ، بل ويتعدى ذلك الى القدرة على الضحك عند اكتشاف التناقضات والسخافات التي تتعلق بالذات . ان هذه الروح تعنى أن الفرد قادر على أن يضحك على ما يعتز به بما في ذلك ذاته .، ومعروف أن الأفراد غير الواثقين من أنفسهم لا يستمتعون بالنكات التي توجه لهم ولآرائهم ويشعرون بعدم أمن شديد من جراء ذلك .

٦ — الشخصية الصحية لديها فلسفة موحدة الحياة

Demonstrates a Unifying Philosophy of Life

ان حياة الأصحاء من الراشدين مرتبة وموجهة نحو بعض المرامى المنتقاه.ولدى كل شخص شيء خاص جدا يعيش لاجله او مقصد هام يكافح لبلوغه .

ان البورت يشبه يونج واريكسون حيث يهتم اهتماما كبيرا بالدين وأهمية الدين لا تتحقق الا في الرشد . ان البورت يعتقد أن جميع الراشدين الأصحاء لديهم حاجة الى توجه موحد ، وعلى الرغم من ان هذا التوجه عادة ما يكون دينيا في طبيعته الا انه ليس في حاجة الى ان يكون كذلك .

« لا يمكن أن تعرف الشخصية الدينية الناضجة على اساس مصادرها التجريبية العديدة ، فهي ليست عملية اعتماد على الأسرة وتكرار لحياتها » وليست مجرد نمط ثقافي ، وهي ليست ببساطة امنا من خوف،ولا هي بكليتها مذهبا عقليا من مذاهب الاعتقاد ، فالعاطفة الدينية مركب من هذه العوامل وعوامل أخرى عديدة ، تكون جميعها اتجاها نفسيا شاملا وظيفته ربط الفرد بالوجود بأجمعه ارتباطا له معنى » (نمو الشخصية : ص ١٥٤) .

« واذا تحدثنا حديثا سيكولوجيا ينبغي أن نبرز التماثل الوثيق الذي يوجد بين التوجه الديني وجميع الأطر العقلية العليا التي تؤثر في مسار الصيرورة . وكل انسان سواء أكان ذا نزعة دينية أم لم يكن كذلك له افتراضاته القبلية النهائية . وهو يرى انه لا يستطيع ان يحيا حياته بدونها » وهذه الافتراضات القبلية ايديولوجيات ، أو فلسفات ، او افكار او حتى

تضمينات عن الحياة لها تأثيرها الضاغط الخلاق على جميع ألوان السلوك التابعة لها (ويمكن أن نقول على جميع أنواع سلوك الانسان) »

(Allport, 1955, p.p. 95-96)

وقد رأى البورت أن التوجه الديني جزء من شخصية الراشد الصحية وهو يختلف فى ذلك عن أصحاب التحليل النفسى الذين راوا غير ذلك .

البحوث وطرق البحث :

لقد فضل البورت المنهج الايديوجرافى (دراسة الحالات الفردية) على المنهج الناموسى أى الجمعى ومع ذلك فان معظم دراساته تندرج فى النوع الأخير . يقول البورت « سوف يصبح علم النفس أكثر علمية أى اقدر على التنبؤ حين يعرف كيف يقيم نزعات مفردة بجميع ما تحويه من تعقــد فى الجوهر ، وحين يعرف كيف ينبىء بطريقة معينة .» ويدعم نفس الاتجاه حين يقول فى موضع آخر : طالما اقتصر علم النفس فى تناوله على الشموليات وليس الخصوصيات فانه لن يتناول الكثير وبخاصة الشخصية الانسانية . (هول ولندزى ، ترجمة فرج وآخرين ، ص ٣٦٤) .

ان هذا التأكيد على تفرد كل شخص يلزم الباحث باختيار مناهج البحث التى لا تخفى تلك الفردية ، والتى تقدر على الكشف عن السمات الفردية لانها تحدد السلوك . والسمات هى الوحدات الحقيقية للشخصية التى تميز الشخص المفرد .

ولعل اساليب المزاوجة بالطريقة التى اخذ بها البورت وفرنون ١٩٣٣ فى دراستهما للسلوك التعبيرى من افضل المناهج التى تبرز الفردية . لان هذه الطريقة تعنى أن يفحص الباحث العلاقات دون أن يختصر البيانات الى وحدات تحليلية بغية المقارنة ، بحيث يمكن ان نقارن تاريخ الحياة بالانتاج الفنى . ولعل ظهور اسلوب Q للتصنيف على يد ستيفنس ١٩٥٣ والبحث فى الارتباطات بين السمات داخل الفرد الواحد Intra - individual الذى قام به احد تلاميذ البورت وهو ا.ل. بالدوين ١٩٤٢ ، ١٩٥٠ يمثل تطورات منهجية تتيح للباحث دراسة الحالة الفردية بكفاءة أكبر عن ذى قبل (هول ولندزى : ٣٦٥) .

المقاييس المباشرة وغير المباشرة للشخصية .

يتلخص موقف البورت فى هذا المجال فى النقاط الآتية : —

١ — الشخص المتكامل الواعى بدوافعه لا يفصح عن نفسه فى الاختبار الاسقاطى وأن هذا الافصاح يحدث بدرجة اكبر عند العصابى الذى يخفى مخاوفه ويكبت كراهيته .

٢ — ان الطرق المباشرة فى دراسة الشخصية وغير المباشرة تسفر عن طرق متسقة بالنسبة للفرد السوى .

٣ — أن الطرق المباشرة تقدم صورة عن بنية الفرد الدافعية اكثر اكتمالا مما تعطيه الطرق غير المباشرة هذا فضلا عن بساطة الطرق الاولى (هول ولندزى : ص ٣٦٧) .

التنبؤات العلميـة :

ما مدى قابلية نظرية البورت عن الفرد للاستخدام وما مدى فائدتها ؟ وما هى البحوث التى اثارتها وادت اليها ؟ ان الاجابة اقرب الى ان تكـون بالنفى . هل معنى هذا أن هذه النظرية لا قيمة لها . الاجابة اميـل الى أن تكون بالنفى أيضا ولو أن الأمر مرهون بمعنى القيمة هنا .

لقد ذهب مادى Maddi فى كتاب Wepman and Heine الى القول بأن نظرية البورت ونظرية هنرى مورى لم يحققا النتائج المعقودة عليهما من حيث قابليتهما للاستخدام كاطار للبحوث العلمية ، هذا على الرغم من أن كلا من النظريتين أثرت فى فكر علماء نفس آخرين . ولقد انتهى الى هذا بعد أن قام ببحث مستفيض ودراسة للتراث السيكولوجى والبحوث التى اجريت فى مجال الشخصية وقرر على التحديد أن هناك ندرة فى البحوث التى صممت لاختبار صحة تنبؤات معينة اشتقت من هاتين النظريتين ؛ ولكن مادى مع ذلك يقرر انهما يمثلان جهدا أصيلا فى مجال التنظير للشخصية . وفى نفس المصدر يقول ويمان وهين « انه يحتمل أن يكون مجال علم النفس فى الوقت الحاضر متسع جدا ومعقد جدا بحيث يسمح بنوع التفسير العلمى المستبصر

والتأمل الذى يميز كتابات البورت وموری . واذا كانا يمثلان آخر دعاة بناء النظرية الشاملة التى تميز النصف الثانى من القــرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، فقد أحدثا تغييرا ستكون الخسارة فيه أكبر من الكسب وفى النهاية يرى مادى أن النظرية قد تفيد فى اثارة فكر الآخرين وتحملهم على أجزاء البحوث . ولكن هذه القيمة الاثارية لا تكون هامة ومشروعة ما لم يكن لها اسهام محدد باق لكى نفهم علم النفس باعتباره علما امبيريقيا وما لم يكن للنظرية قابلية سليمة للاستخدام وما لم نبرهن على أن لها مصـــداقية امبريقية ملحوظة. ويبدو ان نظرية البورت لا تفى بمتطلب القابلية للاستخدام وان كانت لها قوة التأثير .

واذا كان تواتر الاشارة الى النظرية فى كتب الشخصية محكاً لقيمتها وتأثيرها ، فان البورت يحوز قصب السبق . ولقد قام بيشوف L.J. Bishof بفحص ٢٤ كتابا فى الشخصية فوجد أنها جميعا تحتوى اشارات لنظـــرية البورت لا تقل عن شطر فى الكتاب الواحد .

ويبدو ان هناك صعوبة فى ترجمة افكار البورت وتجسيمها فى بحوث منهجية معاصرة . وتتفاوت اسباب ذلك بين ما هو جوهرى وما هو هامشى . لقد أكد البورت على الطريقة الايديوجرافية ودراسة الحالة وهذا المجـــال لا ييسر التحليل الاحصائى للبيانات وبالتالى لا يجد مجالا للنشر فى المجلات العلمية فى سهولة . ولقد اهتم البورت بدراسة الأســـوياء ، والأســـوياء لا يمثلون الموضـــوع المفضل للبحث لدى كثير من علماء النفس ، كما انه كان انتكتيكيا أو انتقائيا وخاصة الجزء الأخير من حياته المهنية الأمـــر الذى اثار احباط كثير من علماء النفس . ولقد كتب البورت شأنه شأن مورى بكثرة عن قيمة المفاهيم الدينية للفرد ودينامياتها ، وهذا المجال لا يثير اهتمام علمـــاء النفس ذوى الاتجاه التجريبى . ولعل البورت نفسه اسهم فى اخفاقه فى توليد افكار قابلة للبحث ؛ ولعل عنوان مقاله عام ١٩٦٤ يتسق مع هـــذه الفكرة « ثمار الانتقائية : مرة أم حلوة ؟ » . . . ان المسألة المثارة ليست هى: أين تقع الديناميات الأولية للحياة الانسـانية ؟ هل يعانى مريضـــنا من عدم توازن كيميائى حيوى أم من فقدان لاحترام الذات لا يستطيع تحمله ؟ قد يصدق أى من البديلين. ولكن العلم يتيسر له أن يعالج المشكلة عند المستوى الحيوى الكيميائى حيث يسهل ادراك العلاقة بين السبب والنتيجة .

ولعل البورت قد وجه قدرا كبيرا من البحوث على الرغم من أن قليلا منها يرتبط على نحو مباشر بنظريته وينبثق منها. ففكرته عن جوهر الشخصية وتأكيدها لكفاحها المميز الممتد يرتبط بالبحوث التى اجريت عن الاحساس بالجسم أو هوية الذات ، وتقديرها وامتدادها والتناول العقلانى لمشكلات الحياة، وصورة الذات، وأى دراسة او فحص لاى عدد من مجلة المستخلصات النفسية سوف يتبين ضخامة حجم البحوث التى تجرى فى هذه المجالات . ولكن يندر أن يعزى الفضل فيها الى تاثير نظرية البورت عن فردية الشخصية الانسانية .

ومقياس دراسة القيم اداة جديرة بالتقدير لانها استخدمت فى مجموعة كبيرة من الأبحاث وما يزال المقياس فى طبعته الثالثة عام ١٩٦٠ يستند الى الأنماط الستة عند سبرانجر وهى النمط النظرى والاقتصادى والجمالى والاجتماعى والسياسى والدينى .

لا يمكن القول ان البورت لم يكن على وعى بتحليل الشخصية وتقديرها. والحق أنه تناول هذه المسالة فى كتابه « نمط الشخصية ونموها » Pattern and Grohth in Personality وحدد احد عشر اساسا لدراسة الشخصية وهى : —

١ — التشخيص الجبلى والفسيولوجى .

٢ — الوضع الثقافى والعضوية والدور .

٣ — الوثائق الشخصية ودراسة الحالة .

٤ — تقدير الذات .

٥ — تحليل السلوك .

٦ — مقاييس التقدير المتدرجة .

٧ — الاختبارات والمقاييس .

٨ — الاساليب الاستاطية .

٩ — تحليل العمق .

١٠— السلوك التعبيرى .

١١— الاجراءات الاجمالية .

وينتهى البورت الى القول بانه لا توجد طريقة واحدة ووحيدة لتشخيص الشخصية . ويرى مادى Maddi فى كتابه عن نظريات الشخصية عام ١٩٦٨م أن الدراسات التى اجريت على محكات النضج وتقدير الذات ، وروح الدعابة والحركات التعبيرية تاثرت بفكر البورت وأن هذا يصدق ايضا على عمل ماكليلاند عن تمايز الدوافع والسمات .

وقد يضاف الى ما سبق خمسة مقترحات ممكنة فى هذا المجال : —

١ — اكد البورت عام ١٩٦٤ على أن الشخص يتقدم خلال حياته فى مراحل نمو متدرجة مشابهة للمراحل الثمانية عند اريكسون . فما هى العلاقة بين هاتين النظريتين ؟

٢ — فى ضوء عدم الاستقرار المعاصر فى انحاء مختلفة من العالم ، اليس من المناسب أن نفيد من كثير من المفاهيم التى قدمها لنا البورت عن التعصب ؟

٣ — هل ما يزال ما توصل اليه البورت وبرونر وجاندورف حين درسوا عينات ممن وقعوا ضحايا للاضطهاد النازى صادقا وهو « ان التغير الاجتماعى المأسوى يخفق فى تغيير اساليب التعبير الأساسية فى الشخصية » وهل يصدق هذا على النيتكنج وعلى المواطنين الفيتناميين وعلى الفلسطينيين . وعلى غيرهم من الناس فى انحاء العالم الذين تحملوا فترات طويلة من المعاناة والعنف ؟

٤ — كان البورت يطلب فى الصفوف التى يقوم بتدريسها فى الدراسات العليا بجامعة هارفرد من طلابه ان يقوموا بتحليل « رسائل من جني »

تحليلا يستند الى احدى نظريات الشخصية . اى على اساس التحليل النفسى عند فرويد ، او عند ادلر او عند يونج . فى هذا الاطار النظرى ما مدى قيمة الطريقة الايديوجرافية فى دراسة ما كتبه الأفـراد من رسائل او يوميات ... الخ ؟ وهل هذا العمل جدير بما يبذل فيه من جهـد .

٥ — وعلى الرغم من ان دراسة الحركات التعبيرية قد اصبحت جزءا من تاريخ علم النفس فيما يبدو ، فان بعض الباحثين ومنهم Turner ١٩٦٣ تيرنر قد وجد فى بحث للدكتوراه ان الحركات الجسمية (الركبـة ، والذراع ، والقـدم) لها قيم تنبـؤية اعلى من معظم اسـتخبارات الشخصية . وعلى الرغم من اننا جميعا نحكم احدنا على الآخر على اساس حركاته التعبيرية الا ان علم النفس المعاصر اعتبر هذا ماضيا ، ولعله من المناسب أن تعود مرة اخرى لدراسة هذا المجال وان نفيد مما عمله البورت وفرنون بهذا الصدد عام ١٩٣٣ .

(L.J. Bishof 1970, p.p: 315 - 318)

تقويم نظرية البورت فى الشخصية :

يمكن فى مجال تقـويم البـورت فى الشخصـية ان نبرز ايجابياتها وسلبياتها . ومن أهم ايجابيات هذه النظرية ما يأتى : —

١ — تعتبر نظرية البورت بداية حقيقية للنظريات الانسانية فى الشخصية لانها اكدت على التفرد فى الشخصية . ولقد اعتقد البورت ان الدوافع الانسـانية ليست بيولوجيـة فحسب فى طبيعتها ، وان الناس لديهم توجه نحو المستقبل ، وان علم النفس ينبغى ان يكـون له توجهاته الاجتماعية .

٢ — ان فكر البورت يحتل مكانة هامة فى التنظير النفسى لانه يؤكد على مفاهيم ومشكلات لم تلق ما تستحق من عناية من قبل المنظرين النفسيين المعاصرين .

٣ — لالبورت تأثيره البارز فى اعادة الاهتمام بمفهوم الآنا والذات وذلك لانه وضع هذا المفهوم فى سياقه التاريخى ، كما أبان الضرورة الوظيفية لاستخدام هذا المفهوم لفهم السلوك الانسانى السوى المعقد .

٤ — انه اكد على أهمية المحددات الشعورية للسلوك ودافع عن الطرق المباشرة لدراسة الدوافع والشخصية .

٥ — كان لالبورت تأثيره الواضح فى التقبل المعاصر لاعتبار الدراسة الفردية وتاريخ الحياة ودراسة الوثائق الشخصية من الأعمال العلمية ، وقد نشر بعضا من هذه الدراسات فى مجلة علم نفس الشواذ وعلم النفس الاجتماعى التى رأس تحريرها .
Journal of Abnormal and Social Psychology

٦ — تأكيد البورت على الاهتمام بالمستقبل وعلى دراسة الحاضر واستبعاد الماضى نسبيا ، اعاد الى البحث النفسى قدرا من التوازن بسبب انتشار التحليل النفسى وعظم تأثيره فى الاهتمام بالخبرات الماضية فى حياة الفرد .

ومن أهم سلبيات نظرية البورت والتى اثارت النقاد ما يأتى : —

١ — لقد تعرض للنقد باعتباره غير علمى من حيث المنهج ، ذلك أن جميع العلوم تحاول الكشف عن القوانين العامة واستخدام الطرق الناموسية أو الجماعيه وتأكيد البورت عى الطريقة الايديوجرافية ودراسة الحالة الفردية دراسة مكثفة تبدو غير علمية . هذا فضلا عن وجود عدد من العلماء المعاصرين الذين يعتقدون أن الفردية يمكن تفسيرها فى ضوء مبادىء عامة مناسبة .

٢ — ان فكرة البورت عن عدم الاستمرارية بين الحيوان والانسان وبين الطفل والراشد وبين السوى والشاذ مرفوضة من أغلب علماء النفس الذين استعاروا كثيرا من المفاهيم التى كشفت عنها دراسة الحيوان والطفل والشاذ وأفادوا منها فى دراسة الانسان الراشد والسوى .

٣ — ان اهتمام البورت بالدوافع المقبولة اجتماعيا والشعورية ؛ وتقليله من اهمية الحاجات البيولوجية واللاشعورية جعله فى موقف مخالف لما أسفرت عنه دراسات التحليل النفسى وما حققته من تقبل وذيوع فى الدوائر العلمية .

٤ — اهتم البورت بالعوامل الداخلية المسببة للسلوك أكثر من اهتمامه بالعوامل الخارجية . ومن هنا راى عدد من علماء النفس المعاصرين أن نظرية البورت تركز على تبادلية العلاقات فى السلوك ، ولا تلقى بالا الى تبادلية العلاقات بين السلوك والمواقف البيئية اى انه لم يهتم اهتماما كافيا بالمحددات الاجتماعية الحضارية للسلوك .

٥ — أن نظرية البورت قد تعرضت لنقد مؤداه انها لم تولد فروضا يمكن وضعها موضع التحقيق اثباتا ورفضا ؛ وهذه خاصية من خصائص النظرية الجيدة . اى انها لم تقدم لنا مجموعة من الأبعاد التى يمكن على اساسها دراسة الشخصية ، والمنهج الايديوجرافى بمعنى أن نبدأ من جديد عند دراسة كل حالة .

٦ — ولعل مفهوم الاستقلال الوظيفى من اكثر المفاهيم العلمية تعرضا للنقد ذلك لانه من المقبول لدى اغلبية علماء النفس انه لكى نفهم شخصية فرد ما لا بد أن نحدد علاقة شخصيته كراشد بخبراته المبكرة . وقد ذهب البورت الى أن مثل هذه العلاقة غير موجودة . ورأى أن دافعية السلوك توجد فى الحاضر وليس فى الماضى .ولقد هوجمت هذه الفكرة بسبب صعوبة تناولها تجريبيا .

وفى الختام لا يسعنا الا ان نقول انه ليس من شك فى ان نظرية البورت أسهمت فى ظهور علم النفس الانسانى المعاصر ، الذى اهتم بكرامة الانسان وبخلق الظروف الاجتماعية المثلى لنموه ويتضح هذا من عبارة البورت « أن علم النفس يعبر عن حقيقة حين يتناول التفرد ، اننا ندرس الانسان على اكمل نحو حين ندرسه كفرد . انه اكثر من حزمة من العادات وأكثر من نقطة التقاء بين ابعاد مجردة ، وهو اكثر من أن يكون ممثلا لنوعه ،

وموا طنا فى دولة وحركة وسط حركات الجنس البشرى . انه يتسامى على هذا كله . فالفرد يكافح لتحقيق التكامل ونشدان الكمال . وقد وجد وما يزال فى ظل جميع اشكال الحياة الاجتماعية — وهى أشكال منوعة من مجتمعات قبلية الى اقطاعية الى رأسمالية الى شيوعية . ولا يوجـد مجتمع يبقى متماسكا لفترة طويلة ما لم يخدم الانسان ويظهر احترامه له ، ويكافح الفرد الآن حتى فى ظل القمع ، آملا دائما ومخططا لديمقراطية أكثر كمـالا حيث تقدر كرامة كل شخصية ونموها على جميع ما عدا ذلك .

(Allport 1961, p. 573)

الفصل التاسع

ريموند ب كاتل

ولد ريموند فى ستافورد شاير بانجلترا عام ١٩٠٥م Staffordshire ويذكر أن طفولته كانت سعيدة ، ومليئة بالحيوية والنشاط فارتاد الكهوف ومارس السباحة والابحار. ويذكر أنه نشأ بينه وبين أخيه الذى يكبره بثلاث سنوات قدر كبير من التنافس . وحين اشتركت انجلترا فى الحرب العالمية الأولى كان كاتل قد بلغ التاسعة من عمره . وكان لهذا تأثير أساسى على حياته . وذلك ان رؤيته لمئات الجنود الجرحى يعالجون فى منزل تحول الى مستشفى قريب من مسكنه علمته أن الحياة يمكن أن تكون قصيرة وأن المرء ينبغى أن ينجز أكبر قدر يستطيعه من الانجازات خلال حياته وهذا الاحساس بالحماس للعمل والاقبال عليه كان يميز كاتل خلال حياته الأكاديمية .

ولقد التحق بجامعة لندن وهو فى السادسة عشرة من عمره حيث درس الكيمياء. وتخرج فى التاسعة عشرة من عمره حائزا على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف وكان ذلك عام ١٩٢٤ م . ولقد تزايد اهتمام كاتل خلال هذه السنوات بالمشكلات الاجتماعية ؛ كما تزايد وعيه بأن خلفيته فى العلوم الطبيعية لم تهيؤه لمعالجة تلك المشكلات . ولقد أدى به هذا الى الالتحاق بمدرسة الدراسات العليا فى علم النفس فى جامعة لندن حيث حصل على درجة الماجستير ودكتوراه الفلسفة . ولقد عمل خلال تلك الفترة مع شارلز سبيرمان عالم النفس والاحصائى المشهور والذى ابتكر التحليل العاملى فى تحليل نتائج دراساته فى الشخصية على نحو مكثف .

وبعد ان حصل كاتل على درجة الدكتوراه وجد صعوبة فى العثور على عمل يتناسب مع اعداده الأكاديمى والمهنى ؛ فقبل القيام بعدد من الأعمال الهامشية . عمل محاضرا فى جامعة اكستر فى انجلترا فى الفترة ما بين ١٩٢٨ — ١٩٣١ م . وعمل مديرا للعيادة النفسية فى لايستر بانجلترا فى الفترة من ١٩٣٢ — ١٩٣٧ م . ولقد دعاه ادوارد ل . ثورنديك عام ١٩٣٧ للحضور الى الولايات المتحدة الامريكية ليصبح باحثا مشاركا فى جامعة كولمبيا . ولقد قبل كاتل دعوة ثورنديك وهو يذكر ان عامه الأول فى نيويورك كان مقبضا ، وقد شعر بالحنين الى انجلترا .

ومنذ عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٤١ شغل وظيفة استاذ كرسى ستانلى هول لعلم النفس التكوينى فى جامعة كلارك فى وركستر ماساشوستس . ثم انتقل الى جامعة هارفرد عام ١٩٤١ وظل يحاضر بها حتى عام ١٩٤٤ م .

ولم يفقد كاتل حماسه بعد تخرجه من الجامعـــة فى تطبيق التحليل العاملى فى دراسة الشخصية . وفى سن الاربعين عام ١٩٤٥ عرض على كاتل وظيفة استاذ باحث فى جامعة الينوى ومديرا لمعمل الشخصية وتحليل الجماعة . ولقد كان انتاج كاتل العلمى فى هذه الفتـرة من عام ١٩٤٥ — ١٩٧٣ م انتاجا ضخما لا يصدقه عقل .

ولقد تزوج كاتل مونيكا روجرز فى اول ديسمبر ١٩٣٠ ، وانجب منها ابنا اصبح جراحا فيما بعد . وتركته زوجته بعد سنوات قليلة بسبب فقرهما! ولانه كرس حياته لعمله ، وتزوج مرة اخرى فى ٢ أبريل ١٩٤٦ وانجب من زوجته الثانية اربعة اطفال .

ولقد ذكرنا من قبل ان كاتل اعتقد منذ وقت مبكر من حياته ان المـــرء ينبغى أن يعمل بجد ولا يضيع وقته . ولقد نشر كاتل ما يزيد على ثلاثمائة مقال وعشرين كتابا ؛ وهذا معناه انه كان ينشر فى المتوسط كتابا او مقالا كل شهرين فى الخمسين سنة الأخيرة . والأمر لا يتوقف عند كم انتاجه ، ذلك أن الكيف لا يقل عن الكم . ولقد حقق نتيجة لعمله فى جامعة الينوى وفى معمل الشـــخصية وتحليل الجماعة شـــهرة عالميـــة كصاحب نظرية فى الشخصية .

وفى عام ١٩٥٣ كتب كاتل مقالا فى سيكولوجية الباحث فحصل على جائزة من اكاديمية نيويورك للعلم ، كما حصل على منحة دارون للبحـــوث التكوينية . ويتضح من المقالات والأبحاث التى نشرها فى المجلات العلمية الامريكية والبريطانيـــة والاسترالية واليابانية والهنـــدية والافريقية ان مجال اهتماماته العلمية متسع ومتنوع .

وفى عام ١٩٧٣ اسس معهد البحـــوث فى الخلق وتحقيق الذات فى بولدر كولارادو ليواصل عمله العلمى .

Institute For Research on Morality and Self - realization in Boulder, Colorado .

السلوك الانسانى :

ان هدف علم النفس ونظرية الشخصية هو صياغة القوانين التى تمكننا من التنبؤ بالسلوك فى ظل ظروف كثيرة . وتعريف كاتل للشخصية يقوم على التنبؤ « الشخصية هى تلك التى تتيح لنا تنبؤا بما سوف يعمله الشخص فى موقف معين »

(personality : A systemtic, Theoretical and Factual Study, 1950, p. 2)

ويؤكد كاتل على أن هناك متغيرات دافعية كثيرة ينبغى أن نحددها ونوضحها بعناية . وهو يدرك أن نظرية الشخصية ما تزال انتقالية اى فى مرحلة التكوين . وهو يعتقد ان أصحاب نظريات الشخصية المعاصرين قد أهملوا الجوانب الوراثية فى الشخصية الانسانية . وهو يؤكد فى بناء الشخصية على أهمية الخلفية البيولوجية والمحددات الاجتماعية . ولقد نما اهتمام كاتل بنظرية الشخصية وديناميتها من خلال البحوث المستمرة التى قام بها وما أسفرت عنه من نتائج ولم يصدر عن تفكير تأملى أرائكى .

ويشعر كاتل بقوة أنه اذا لم يكن فى الامكان قياس الشخصية تجريبيا والتعبير عن ذلك كميا فاننا ينبغى أن نطلق على ما نتوصل اليه فلسفة أو فنا ؛ ولا يمكن أن نطلق عليه نظرية فى الشخصية . وهو لا يقصد بالتجريب هنا تجريبا باستخدام اجهزة ومعدات معملية ، وقد بين ذلك فى ندوة عقدت فى كنتكى عام ١٩٥٤ م The Kentucky Symposium, 1954 (p. 109)

فقال « اننا ندع الوقائع تحدث فى الحياة ثم نعالج بالدقة الاحصائية ما لا نستطيع معالجته بالضبط التجريبى الصارم » وفى نفس الندوة يجادل مبينا أن علم النفس ينبغى ان يجيب على الاسئلة الصغيرة اولا قبل ان يحاول الاجابة على الاسئلة الشاملة . وقد تكون العيادة النفسية هى افضل مكان لدراسة الشخصية ، ولكنها ليست افضل مكان للتحقق من صحة الفروض التى تتنبأ بتغير السلوك ؛ لان طرقها ضعيفة ولا تلتزم بضبط المتغيرات فى القياس ولا بالتحليل الاحصائى الحاذق . وهناك فرق فى نظرية الشخصية بين ما هو مقبول اجتماعيا وما هو محترم علميا . وهكذا فان التغير الذى قد يطرأ على الشخص خلال العلاج قد يكون مقبولا تماما من قبل المجتمع ولكنه مع ذلك لا يمكن البرهنة عليه بأى ثبات علمى . وكاتل يتبنى موقفا قوامه :

الدراسة المركزة للشخصية والتى ينبغى أن تتم فى مواقف الحياة ، وبعد جمع الحقائق والبيانات ينبغى أن تعالج احصائيا وليس فلسفيا .

وقد كتب كاتل عام ١٩٥٧ مقالا عن « قائمة عامة أو فهرس للعوامل النفسية » A Universal Index For Psychological Factors

ودعى فى هذا المقال الى البحث عن رموز مقننة لوصف البيانات النفسية حتى نتوصل الى تحديد للمفاهيم وتطويرها . ويمكن أن تضع هذه القائمة لجنة تحدد معايير للبحث الدولى ، وأن تنشر هذه المعايير بحيث تتيح لكل دارس للعوامل المشتركة فى الشخصية أن يعمل مستخدما لهذا الاطار . ولقد اقلقت هذه الرغبة وهذا الحماس والسعى للوصول الى لغة مشتركة بعض الباحثين فى هذا المجال وخاصة ان كاتل نفسه استخدم فى البداية حروفا لتسمية بعض العوامل التى توصل اليها فى دراساته ، ثم مضى فى العشرين سنة الأخيرة الى بلورة مفاهيمه وتسميتها ، ثم تغيير هذه التسمية مرة ثانية .

بناء الشخصية :

يرى كاتل ان السمات هى وحدات بناء الشخصية. والسمة أهم مفهوم فى نظريته ولقد كرس معظم بحوثه التحليلية العاملية للبحث عن سمات الشخصية . ولقد كشفت هذه البحوث عن عدة فئات للسمات سوف نتناولها فيما يأتى : —

السمات الفريدة والسمات المشتركة

Unique Traits and Common Traits

يتفق كاتل مع جوردن البورت فى أن هناك سمات مشتركة يشارك فيها الأفراد جميعا أو جميع أعضاء بيئة اجتماعية معينة . وهناك سمات فريدة لا تتوافر الا لدى فرد معين ولا يمكن أن توجد لدى اى فرد آخر . بل أن قوة السمة تختلف عند نفس الشخص من وقت لآخر . والتحليل العاملى الذى يقوم على قياس كثير من المتغيرات وحساب معاملات الارتباط بينها يسمى التحليل العاملى للمتغيرات R - technique ، أما التحليل العاملى الذى

يتتبع قوة عدة سمات خلال فترة زمنية لدى نفس الفرد فيطلق عليه التحليل العاملى للشخص الواحد P - technique

سمات السطح وسمات المصدر Surface Traits and Source Traits

هناك نوعان أساسيان من السمات وهما سمات المصدر وسمات السطح . وسمات السطح هى تجمعات من الوقائع السلوكية الملاحظة وهى وصفية واقل استقرار وبالتالى فهى أقل اهمية من وجهة نظر كاتل . ومن ناحية أخرى فان سمات المصدر هى المؤثرات الحقيقية التى تساعد فى تحديد السلوك الانسانى وتفسيره . وسمات المصدر مستقرة وهامة جدا وهى المادة الأساسية التى ينبغى على علم نفس الشخصية أن يدرسها .

سمات السطح هى مجموعة من الملاحظات المرتبطة وعلى سبيل المثال فان الأشخاص ذوى التعليم النظامى الأكثر قد يذهبون لمشاهدة الافلام السينمائية اكثر ممن دونهم فى التعليم النظامى . ان هذه الملاحظة سطحية أى انها لا تفسر متغيرا من متغيرات الشخصية . انها عبارة عن خاصيتين من نوع ما ترتبط احداهما بالأخرى وارتباط هاتين الخاصيتين يمكن أن يكون له اسباب عديدة . أما سمات المصدر فهى اسباب السلوك . انها تشكل أهم جزء فى بنية شخصية الفرد وهى مسئولة فى النهاية عن جميع العناصر المتسقة فى سلوك الفرد وهكذا فان كل سمة سطحية مسببة ومعلولة لسمة أو اكثر من سمات المصدر ، وسمة المصدر يمكن أن تؤثر فى عدة سمات سطحية .

والبحث عن سمات المصدر عند كاتل يبدأ بقياس كل شىء يستطيع المرء أن يقيسه لدى مجموعة كبيرة من الناس ، ثم يحسب معامل الارتباط بين هذه القياسات وتحلل هذه الارتباطات . والتحليل العنقودى Cluster analysis لها يزودنا بمعلومات عن سمات المصدر .

وثمة طريقة اخرى لوصف الفرق بين سمات المصدر وسمات السطح وهى ان نقول ان الأخيرة دائما ما تكون مظاهر للأولى . ويمكن اعتبار سمات المصدر عناصر الشخصية من حيث ان كل ما نعمله يتاثر بها . وينتهى كاتل

الى القول بأن جميع الافراد يمتلكون نفس سمات المصدر ولكنهم يحوزونها بدرجات مختلفة . وعلى سبيل المثال فان جميع الناس لديهم ذكاء (سمة مصدر) ولكنهم لا يمتلكون نفس القدر من الذكاء . وتؤثر قوة سمة المصدر هذه لدى فرد معين فى كثير من الأشياء التى تتعلق به . فهى تؤثر على سبيل المثال فيما يقرأ وفيمن يتخذ من الاصدقاء وفى العمل الذى يتكسب منه عيشته وفى اتجاهه نحو التعليم الجامعى . وجميع هذه المظاهر الخارجية لسمة المصدر (الذكاء) هى سمات سطح ويمكن ان نسوق مثالا آخر يتعلق بالجـوع . فجميع ما يعمله الشخص كاستجابة للجوع كذهابه الى المتجر وشراء الطعام والعودة الى البيت واعداد الطعام وتناوله وهى كلها عناصر سلوكية قابلة للملاحظة وتتصل بتناول الطعام تمثل سمات سطح ، بينما حافز الجوع الذى سببها جميعا يمثل سمة مصدر . غير ان امثلتنا مضللة الى حد ما ، لانه يصعب أن نجد شيئا يعمله شخص يمكن أن يكون مسببا بسمة مصدرية واحدة .

وننتقل الآن الى اسهام من اهم اسهامات كاتل واكثرها صعوبة وتعقيدا فى مجال نظرية الشخصية . ان القائمة الآتية وهى قائمة سمات مصدرية هى نتيجة لقدر هائل من التحليل العاملى لبيانات جمعت عن الشخصية خلال خمس وعشرين عاما . واحدى صعوبات معالجة هذه المادة،أن كاتل لم يسمى السمات فى المبدأ بل ميزها باستخدام حروف ابجدية وذلك لانه شعر بأن اللغة لا تجيد التعبير عن المفاهيم السيكولوجية التى توصل اليها من التحليل العاملى لاداء الانسان . وعبر السنوات وضع لهذه السمات المصدرية اسماء وتعرض للنقد فعدل الاسماء تدريجيا لتصبح من التسميات المألوفة .

ولم يتوقف كاتل عند ادائه الماضى بل استمر فى استخراج سمات مصدرية جديدة باستخدام تحليل عاملى واستخراج عوامل من المرتبة الثانية والثالثة . وعليك ان تتأمل السمات الأربع الأخيرة التى اطلق عليها FQ 1, FQ 2, FQ 3, FQ 4. ولقد اطلقت على هذه اسماءنيما بعد . ويطلق كاتل على سمات المصدر العوامل الأولية فى الشخصية وباستثناءات قليلة فان هذه العوامل ثنائية القطب . ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ ان كثيرا من المنظرين فى مجال الشخصية استخدموا مفاهيم ثنائية ولعل الاستثناء نجده عندما تشلدن وهورنى اللذين استخدما مفاهيم ثلاثية .

قلنا أن كاتل انتهى بعد بحوث مستفيضة وخلال سنوات طويلة الى قائمة من السمات المصدرية وعددها ١٦ سمة . ويمكن أن نقارن بين الناس على أساسها . ولقد وضع كاتل مع سوندرز وستايس Saunders & Stice اختباره المشهور : « اختبار عوامل الشخصية للراشدين Sixteen Personality Factor Questionnaire (16 PF) بحيث يقيس سمات المصدر الست عشرة التى كشفت عنها البحوث . ولقد استخدمت نتائج هذا الاختبار فى المقارنة بين مجموعات كبيرة ومنوعة . ولقد استخدم هذا الاختبار على نطاق واسع للتنبؤ بالنجاح المهنى والأكاديمى .

ويتعرض من يقرأ كتابات كاتل ويحاول تتبع العوامل الأولية للشخصية للخلط فهو يطلق عليها اسماء مألوفة كالذكاء ، وأحيانا يعطيها رقما U. I 16 وهكذا . وعندما قرر كاتل أن يرقم العوامل فى عام ١٩٥٧ م وفقا لما أسماه الفهرس العام أو العالمى The Universai Index ، كان أحد علماء النفس قد استخدم الأرقام الخمس عشرة الأولى فبدأ كاتل بالرقم ١٦ وما بعده .

وصف الأبعاد الست عشرة

العامل A (U.I. 16)

— الانطلاق أو السيكوثيميا	مقابل	— الشيزوثيميا
محب للناس،سهل المعاشرة		منعزل ، ناقد
اجتماعى ، صريح		بارد باعتدال — غير صريح

العامل B (U.i 17)

— الذكاء العام	مقابل	— الضعف العقلى
تفكير مجرد		تفكير عيانى
يقظ		غبى
صاحب خيال		جدب الخيال

العامل C (U.I. 18)

— الاتزان الانفعالي او قوة الأنا	مقابل	— عدم الاتزان الانفعالي
مستقر، يواجه الواقع، هادىء		أقل استقرارا
ناضج صبور		يسهل استثارته، غير صبور

العامل E (U.I. 19)

— السيطرة	مقابل	— الخضوع
مستقل ، عدواني		معتدل ، لطيف
عنيـــــد		مساير

العامل F (U.I. 20)

— الانبساط	مقابل	— الاكتئاب والانقباض
المبتهج ، الحيوي المندفع		رزين ، جاد
المتحمس		صموت

العامل G (U.I. 21)

— قوة الأنا الأعلى	مقابل	— نقص المعايير الداخلية
مثابر ، رصين		يتجنب القواعد
ملتزم بالقـــواعد		يشعر بالتزامات قليلة

العامل H (U.I. 22)

— المغامرة والاقدام	مقابل	— الجبن
جرىء اجتماعيا ، ليس		خجول ، منسحب ، جامد
لديه كف تلقائي		

العامل I (U.I. 23)

— الطراوة	مقابل	— صلابة العود
حساس انفعاليا ، مكتمل		النضج الصلب ، والاكتفاء
محمى حماية زائدة		الذاتي والواقعية

العامل L (U.I. 24)

- الميل الى الارتياب والشك في الآخرين	مقابل	- الاسترخاء الداخلي
معتد برأيه		الايثار المتسم بالثقة في الآخرين
يصعب خداعه		متوافق ، متحرر من الغيرة

العامل M (U.I. 25)

- مزاج اجتراري	مقابل	- واقعي
بوهيمي، مهمل للنواحي العملية		يقظ متمسك بالتقاليد مضبوط

العامل N (U.I. 26)

- الدهاء	مقابل	- السذاجة
عميق ، حذر		سطحي ، طبيعي
خبير بالحياة والناس ، ثاقب النظرة		عاطفي ، غر

العامل O (U.I: 27)

- الاستهداف للاثم	مقابل	- الثقة
عدم أمن متسم بالقلق		الثقة بالنفس
مكتئب ، منزعج		والصفاء والهدوء

العامل Q1 (U.I. 28)

- التحرر	مقابل	- المحافظة
ناقد ، متحرر ، محلل مفكر حر		يحترم الأفكار الثابتة

العامل Q2 (U.I. 29)

— الاكتفاء الذاتى والاستقلال مقابل — الافتقار الى التصرف الذاتى
يفضل قراراته،واسع الحيلة يساير الآخرين ويتبعهم

العامل Q3 (U.I. 30)

— قوة اعتبار الذات مقابل — ضعف اعتبار الذات
وارادة الضبط واستقرار الخلق
والانضباط الاجتماعى

العامل Q4 (U.I. 31)

— التوتر العصبى مقابل — عدم الاحباط ، والسكينة
والاحباط والاستثارة والبلادة

وبعض السمات المصدرية تتحدد وراثيا ويطلق عليها سمات المصدر الجبلية ، والبعض الآخر ينتج عن الخبرة ويطلق عليها السمات التى تشكلها البيئة اى أن الأولى تتحدد نتيجة للوراثة والثانية تتحدد نتيجة للبيئة والعوامل الثقافية .

سمات القدرة :

بعض سمات المصدر التى يمتلكها الشخص تحدد مدى فاعلية الشخص فى العمل نحو هدف مرغوب فيه،ويطلق على هذه السمات «سمات قدرة». ومن أهم هذه السمات الذكاء . ولقد ميز كاتل بين نوعين من الذكاء : المتبلور والسائل . وهو يعرف الذكاء السائل بأنه هذا الشكل من أشكال الذكاء العام الذى يرجع الى حد كبير الى الفطرة ، والذى يتوافق مع جميع أنواع المواد بغض النظر عن الخبرة السابقة ، اى ان هذا الذكاء المرن قدرة عقلية يتطلبها التكيف مع المواقف الجديدة . ويرجع بدرجة اكبر الى عامل الوراثة أكثر من الذكاء المتبلور.ويتوقف على الحالة الفسيولوجية العامة للفرد ويثبت نموه عادة فى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ويميل الى النقصان مع تقدم الفرد فى العمر .

ويعرف كاتل الذكاء المتبلور بأنه « عامل عام يظهر الى حد كبير فى نمط القدرات المتعلمة فى المدرسة ، ويمثل أثر التطبيق الماضى للذكاء السائل » ومقدار التعليم المدرسى وكثافته ويظهر فى اختبارات مثل المقاييس اللفظية والعددية . (1965, p. 369) ويعتمد الذكاء المتبلور على البيئة وهو معرض للتذبذب ، كما انه يعتمد على مقدار التدريب وعلى اهتمام الفرد بالبيانات والحقائق . ويشعر كاتل أن الذكاء المتبلور قد يزداد وينمو حتى سن الخامسة والعشرين أو الثلاثين وانه يثبت عند هذا السن . وقد يظهر زيادة منتظمة مع تقدم الفرد فى السن .

ويعتقد كاتل أن ذكاء الفرد يقدر فى معظم الأحـوال باعتباره الذكاء المتبلور وذلك باستخدام اختبارات الذكاء التقليدية . ولكى يصحح هـــذا الموقف وضع كاتل اختبار الذكاء العادل ثقافيا Culture - Fair Intellegence Test وقد صمم ليقيس الذكاء السائل .

ولقد اهتم كاتل منذ فترة طويلة منذ عام ١٩٥٣ بأثر الوراثة والبيئة على الذكاء ولقد فضل كاتل — اذا قورن بأيزنك الذى عمل على دراسة التوائم والمقارنة بين التوائم المتماثلة والتوائم الأخوية — تحليل التباين المتعدد حيث تناول متغيرات مستمرة فى دراسته للتوائم . وفى هذا النسق حاول أن يتوصل الى أربعة مكونات هى : —

— الفروق بين الأسر فى الوراثة .

— الفروق بين الأسر فى البيئة .

— الفروق بين الأخوة والأخوات داخل نفس الاسرة فى الوراثة .

— الفروق بين الأخوة والأخوات داخل نفس الاسرة فى البيئة .

وهكذا استخدم كاتل اسلوبا متطورا عما فعل أقرانه من العاملين فى مجال الشخصية .

ولقد أدت بحوث كاتل به الى الاعتقاد بأن ٨٠٪ من ذكاء الشخص يتحدد بالوراثة . وهو يشعر أن ما نسميه ذكاء ما هو الا استعداد عقلى

تحدد وراثيا بنسبة ٨٠٪ (وهو الذكاء السائل) وان ٢٠٪ من ذكاء الشخص تتحدد من خلال الخبرة والتحصيل (الذكاء المتبلور) غير أن الأخير هو الذى تقيسه عادة اختبارات الذكاء وليس الأول .

سمات المزاج :

وهى خصائص الشخص التى تتحدد وراثيا وتحدد أسلوبه العام وايقاعه . ان سمات المزاج تحدد السرعة التى بها يستجيب الفرد للموقف والطاقة والانفعال . انها تحدد مدى مثابرة الشخص واعتداله فى آداب سلوكه ، ومدى قابليته للاثارة فسمات المزاج اذن سمات جبلية مصدرية تحدد انفعالية الشخص .

سمات دينامية :

وبينما نجد ان السمات الأخرى هى وحدات بناء الشخصية ، فان السمات الدينامية تهيىء الشخص للحركة نحو بعض الأهداف وهى لذلك عناصر دافعية فى الشخصية ولقد حدد كاتل اربعة انواع من السمات الدينامية وهى الدفعة الفطرية ، وما بعد الدفعة الفطرية ، والعواطف والاتجاهات وسوف نتناول كلا منها على حدة .

الدفعات الفطرية : Ergs

الدفعة الفطرية تشبه الى حد كبير الغريزة . ان كلمة Erg جاءت اصلا من ميدان الفيزياء وهى فى أبسط تعريف لها « وحدة للطاقة » . وتعرف الدفعة الفطرية بأنها « استعداد فطرى نفسى جسمى يتيح لصاحبه اكتساب استجابية (انتباه وتعرف) لفئات معينة من الأشياء على نحو أيسر من اكتسابها بالنسبة لفئات اخرى ، كما يتيح له ان يخبر انفعالا معينا بالنسبة لها ، وأن يبدأ فى سلسلة من الأفعال تتوقف على نحو تام عند هدف معين اكثر من توقفها عند آخر مما يعزز السلوك المفضل للهدف المفضل »
(1950, 199)

واضح من التعريف السابق أن للدفعة الفطرية أربعة جوانب هى : ــ

١ ــ أنها تحدث ادراكا انتقائيا ، أى أنها تجعل الفرد ينتبه الى بعض الأشياء ولا ينتبه الى أخرى . فالشخص الجائع ينتبه الى الوقائع التى ترتبط بالطعام أكثر من انتباهه الى ما ليس كذلك .

٢ ــ أنها تثير استجابة انفعالية نحو أشياء معينة ففكرة تناول الطعام فكرة ســـــارة .

٣ ــ أنها تثير سلوكا موجها نحو هدف ، فالشخص الجائع ســوف يعمل ما يلزم من أعمال ليحصل على الطعام .

٤ ــ أنها تؤدى الى استجابة نهائية . أى أنه حين يحصل الجائع على طعام سوف يأكله .

ولقد كشفت بحوث كاتل عن احدى عشرة دفعة فطــرية هى الجنس والخوف والحماية الوالدية وتأكيد الذات وحب الاستطلاع ، والنزعة الى التجمع ، والجوع والغضب ، ولوم الذات ، الاشمئزاز ، وخضوع الذات . وكاتل يستخدم لفظ دفعة فطرية للتخلص من الخلط اللغوى بين الغــريزة والحافــز .

الدفعات المكتسبة أو ما بعد الدفعات الفطرية Metaergs

الدفعة المكتسبة سمة مصدر دينامية تشكلها البيئة . أى أنه فى حين تتشكل الدفعة الفطرية نتيجة لمحددات تكوينية ، تتشكل الدفعة المكتســبة نتيجة لعــوامل اجتماعية حضــارية . وتدخل فى هذه الفئــة الاتجاهات والعواطف . والعواطف هى : « بنيات سمات دينامية رئيسية مكتسبة تؤدى بأصحابها الى الانتباه الى موضوعات معينة أو فئات من الموضوعات ، وأن يشعر بها ويستجيب اليها بطريقة معينة » (1950, p. 161) ويعتقد كاتل أن العواطف تتركز عادة حول : المهنة ، والرياضــة ، والدين ، والوالدين ، والزوج والذات . والاتجاه النفسى أكثر تحديدا ولكنه مشتق من العاطفة ،

وهذه بدورها مشتقة من الدفعة الفطرية . والاتجاه النفسى كما يراه كاتل هو ميل الى الاستجابة بطريقة معينة فى موقف معين لشىء أو واقعة معينة. (1957, p. 444)

التبعيـــــة : Subsidiation

نتوقع من دراسة السمات المترابطة وجود هدف نهائى للفرد ، يتوصل اليه من خلال سلسلة من الأهداف التابعة أو الأداتية ، وتعد السمات التى تتصل بهدف أولى تابعة للسمات التى تتصل ببلوغ هدف نهائى . وهكذا يمكن التمييز بين الدفعة الفطرية والعاطفية والاتجاه بالرغم من كونها جميعا سمات دينامية من حيث ان الاتجاهات تابعة للعواطف والعواطف تابعة للدفعات الفطرية . ويقترح كاتل لتوضيح هذا التعقيد استخـــدام الشبكة الدينـــامية dynamic lattice ويمكن توضيحها برسم بيانى يبين الممرات التى تربط بين اتجاهات معينة من اليسار مثلا الى موضوعـــات معينة على مســـتوى العاطفة فى الوسط ونحو أهداف دفعات فطرية فى الطرف الآخر . وهكذا يمكن ان يكون الموضوع المعين تابعا لعدد من الدفعات الفطرية ، والعديـــد من الاتجاهات تابعة للموضوع . (Hergenhahn, pp. 173 - 181)

ويندر أن يشبع الفرد رغبته الفطرية على نحو مباشر ، اى انه يشبع هذه الدفعات الفطرية بطرق غير مباشرة . فقـــد ينمى الانســـان مهـــاراته ليحصـــل على عمل وذلـــك لكى يتزوج وينشىء أسرة ، أو ليعـــول اسرته الأصلية ويطلق كاتـــل على الاشباع غير المبـــاشر للدفعة الفطرية الدوران الطويل Long - circuiting ويمكن أن نرى ايضا أن كل عاطفة وظيفة لعدد من الدفعات الفطرية او تابعة لها . فالعاطفة نحو الزوجة تعكس فيما يبدو الجنس ، والنزعة الى التجمع ، والحماية وتاكيد الذات. ان الشبكة الدينامية تدل على ان الاتجاهات النفسية والعواطف والنزعات الفطرية يتفاعل بعضها مع البعض الآخر باستمرار وتعكس الظروف الحاضرة ، كما تعكس اهداف الفرد المستقبلية .

ولقد أمكن بحث البناء الدينامى الذى عرضنا لعناصره الاساســـية باستخدام ما حدث من تقدم فى القياس الموضوعى لقوة الدافعية . لقـــد

استطاع كاتل بقياسه للاتجاهات أن يبين باستخدام أدوات موضوعية وجود عوامل دافعية مصدرية واتجاهات ذرية تتبع هذا النمط . ففى ظل هذه الشروط أرغب بقوة أن أفعل هذا مع ذلك ، وهكذا فان كلا منهما يشتمل على خصائص الباعث أو الشروط الموقفية ، والكائن الحى ، والشدة التى يمكن قياسها ، والنشاط الموجه نحو الهدف ، وموضوعات الهدف .

وتستخدم الاختبارات الموضوعية الدافعية المبادىء التجريبية . ولقد درس كثير من الباحثين فى مجال الدافعية المفاهيم الأساسية التى توصل اليها كاتل ومن أمثلتها : المعلومات المتفاضلة ، والذاكرة الانتقائية ، والانشغال بالذات autism والاسقاط ، والادراك الانتقائى والانتباه الانتقائى . ولقد أمكن التوصل الى أكثر من ستين طريقة وأداة موضوعية درست دراسة مستفيضة تقيس التغير الظاهر الذى يطرأ على الفرد والذى يمكن أن يعزى الى المثيرات الباعثة التى يتعرض لها . وقد أظهر تحليل هذه القياسات أن الانماط الأساسية للتعبير عن الدافعية مطردة نسبيا ، بغض النظر عن الخصائص النوعية لموضوع الهدف . ولقد أمكن التوصل الى سبعة عوامل عند تحليل أدوات القياس التى تقيس بنفس الطريقة وتندرج فى الفئات الآتية : الهو ، والأنا ، والأنا الاعلى وبعض المكونات الأخرى لم ترد فى فكر فرويد . وغنى عن البيان أن التوصل الى اطار نظرى يتيح لنا قياس الدافعية على مستويات مختلفة له أهمية عملية ويضع نظرية كاتل واجراءاته فى مستوى مختلف عن مستوى القياسات الأخرى المستخدمة من قبل آخرين .

وكاتل يشير الى البيانات الدافعية التى ترتبط باتجاهات الهدف كعوامل دينامية . وهذا يعنى انها تتأثر بالضغوط البيئية والشروط الباعثة . وقائمة هذه الدفعات الفطرية والعواطف لن تبدو مختلفة كثيرا عن غرائز مكدوجال وحاجات موري والفرق الحقيقى نجده فى أن هذه الأبعاد قد تم اكتشافها أمبيريقيا ، وهى قابلة للقياس على نحو متكرر . فالدفعة الفطرية للمقاتلة التى نجدها لدى الراشدين والأطفال تسهم بدرجة كبيرة فى تباين اتجاهات مثل « أريد وطنى ان يهزم اعداءه » « أريد أن اضرب كل الأطفال الذين يخلقون لى المتاعب » ، « أريد أن اشاهد أفلاما اكثر عن العصابات وقطاع الطرق » .

وقد كشف التحليل العاملى عن ١٨ دفعة فطرية وعاطفة لدى الأطفال وثلاث عشرة لدى الراشدين. وتبدو الدفعات النطرية أساسية وأولية بدرجة أكبر وترتبط بدرجة أكبر بالأنشطة الفعلية المرتبطة بالهدف كتناول الطعام والنوم والعراك وهلم جرا. أما بنيات العاطفة فتتألف من اتجاهات لها نفس الهدف والموضوع والتى ثبتت فائدتها خلال فترة طويلة من الزمن لاشباع كثير من الدوافع الأولية المتفاوتة. وهذه الدوافع الأولية تشتمل على الدين والوطنية والمحبوب ، والذات والوالدين وهكذا فقد ربط البعض بين العواطف والوسائل ، وبين الدفعات الفطرية والحاجات الأساسية .

ويسهل الانغماس فى فوضى المصطلحات فى هذا المجال . وهذا هو السبب الذى دفع كاتل على نحو قصدى الى تحديد نسقه على نحو متمايز عن الآخرين مستهدفا أن تكون تصوراته منظمة وفى نسق. وهو يعتقد أن الدفعة الفطرية للحماية لو كانت تقيس نفس التباين الذى تقيسه الحاجة للعطف n. nurturance عند مورى لكان طريق العلم أيسر . غير أن هذا لا يصدق بالضرورة على قياس هذين المفهومين كل فى نسقه الخاص .

أن هذا العمل الأساسى فى الدافعية يفسح المجال للقياس . وهذا عمل جوهرى من متطلبات علم النفس الكلينيكى وعلم النفس الصناعى ، ذلك أن القياس فى مجالات الكبت والصراع والاتجاهات داخل الأسرة والاتجاهات المهنية كلها فى مراحل مختلفة من حيث النضج والتطور وصولا الى نسق . (Bischof, pp. 467-468)

الـــــذات :

ويعطى كاتل لمفهوم الذات مكانة هامة فى نسقه ، ويتحدث عن عاطفة الذات التى تضفى استقرارا على سمات المصدر كما تضفى عليها درجة عالية من التنظيم . وعلى ذلك فان قيام اى سمة مصدرية دينامية بعملها سوف يتطلب قدرا من المشاركة من عاطفة الذات . وسوف ترتبط درجة يسر تعبيرها عن نفسها بمدى اتساقها مع الذات وهناك بطبيعة الحال سمات تنفصل عن الذات ويغلب أن تعبر عن العصاب والحالات المرضية . وكاتل يتحدث عن ثلاثة جوانب فيما يتصل بالذات هى عاطفة الذات والذات الواقعية والذات

المثلية . والمقصود بعاطفة الذات اهتمام الفرد بذاته المتطورة ، ويقصد بالذات الواقعية الفرد كما يقر بذلك فى أكثر لحظـــاته منطقيـــة ، والذات المثالية هى الفرد كما يود أن يكون اذا توافرت له كل الأشـــــياء وكل السلطة . ولقد كان أمل كاتل فى بحوثه الكثيرة أن يدرس الشخصية الفريدة حين تلتقى وتواجه موقفا فريدا .

الــــــدور :

ويتناول كاتل مفهوم الدور ولعبه ويرى انه لغز على علم النفس أن يتصدى لحله . والسؤال الذى يطرحه هو : هل التغير فى الادراك الذى يولد تغـــيرا فى الفعل حين يبدأ الفــــرد فى أداء دوره يرجع الى تغـــير فى المؤشرات الموقفية أو الى تغير فى البنية الأساسية للشخصية ذاتهـــا . وهكذا فانه يقول : هل يرى الفرد فعلا الموقف مختلفا ؟ أم أن الفرد يغير فعلا موقف الدور ؟ وهو بصفة عامة ينتهى الى القول بأن هذين النوعين من التغير يحدثان ، ذلك أن القيام بالدور يغير الفرد كما أن الفرد يغير الدور .

معادلة التخصيص The Specification Equation

يهتم كاتل بالأسوياء من الناس فى الأساس . وهو مهتم بالقدرة على التنبؤ بالكيفية التى يستجيب بها الناس للمواقف المختلفة بقـــدر ملحوظ من الدقة . وكاتل يؤمن بالحتمية فى تنبؤاته . اى انه يعتقد أن السلوك وظيفة ونتيجة لعدد محدود من المتغيرات،واذا عرفنا هذه المتغيرات معرفة تامة فاننا نستطيع أن نتنبأ بالسلوك بدقة تامة . ولكن كاتل وغيره ممن يؤمنون بالحتمية يدركون انه لا يمكن معرفة جميع المتغيرات التى تؤثر فى الســـلوك ولذلك فان التنبؤ بالسلوك سيظل دائما احتمالى . ومتى ما ادركنا هذا فان كلمـــا ازدادت معرفتنا بالمتغيرات التى تؤثر فى السوك الانسانى ، ازدادت دقة تنبؤاتنا به . ويرى كاتل أن هذا يصدق أيضا فى مجال بحوث الشخصية ، فكلما أزدادت معرفتنا عن السمات المختلفة للشخص ، ازدادت قدرتنا عن التنبؤ بسلـــوكه .

ويمكن بصفة عامة ان نعبر رمزيا عن موقف كاتل فى هذه المسالة على

النحـو الآتى : اسـتجابة الشخص = وظيفة (الشخصـية والموقف)

$$R = F (P , S)$$

حيث .

R = استجابة الشخص .

P = شخصية .

S = الموقف .

وبعبـارة أخرى ان سلـوك الشخص مـا هو الا وظيفة او نتيجـة للشخصية والموقف الذى توجد فيه .

وواضح أن هذه المعادلة تبسيط زائد لوجهة نظر كاتل . لاننا اذا أردنا ان نتنبأ بدقة بـأداء الشخص ، فاننا لابد نحلل العناصر التى تدخـل فى الشخصية ، بتفصيل اكبر . ومعروف أن شخصية الفرد عند كاتل هى جميع السمات التى يمتلكها ذلك الفرد .وهكذا لا بد أن نضع فى المعادلة مقياسـا لكل سمة من سمات الشخصية . وسوف تتفاوت اهمية سمات الشخص من موقف الى آخر ، ولذلك لابد من تحديد وزن كل سمة فى كل موقف . ونطلق علـى هذا التحديد تشبع السمة بالعمل .وهناك ظروف مؤقتة قد تؤثر فى السلوك فى أوقات معينة بالاضافة الى السمات المستقرة . وعلى سبيل قـد يكون الشخص مريضـا أو متعبا . وبالمثل فان مواقف معينة قد تتطلب من الشـخص أن يلعب دورا ، وهذا الدور يؤثر فى السلوك تاثيرا كبيرا . ويطلق على هذه الحالات الجسمية المؤقتة كالتعب والمرض والقلق والأدوار الاجتماعية المطلوب أداؤها المتغيرات الموقفية Situational modulators لانها تغير التعبيرات السلوكية .

ويتضح الآن ان التنبؤ بسلوك شخص عمل معقد ، لاننا اذا اردنا ان نتنبأ بسلوك فرد معين فى موقف معين فانه ينبغى علينا ان نعرف سمات هذا الشخص ، ومدى أهميتها فى هذا الموقف المعين . وحالته الجسمية الراهنة، والادوار التى عليه أن يلعبها فى هذا الموقف . وتصبح المعادلة العامة التى سبق أن عرضنا لها اكثر تحديدا وتفصيلا ويسميها كاتل معادلة التخصيص .

$$Pj = sj_A A\cdots + sj_T T\cdots + sj_E E\cdots + sj_M M\cdots + sj_R R\cdots + sj_s S$$

حيث : —

Pj = الأداء فى الموقف

A = سمات القدرة .

T = سمات المزاج .

E = توترات الدفعة الفطرية الراهنة .

M = العواطف والاتجاهات .

R = الأدوار التى يتطلبها الموقف .

S = حاجات الجسم المؤقتة كالتعب والمرض والقلق .

Sj = الوزن أو التشبع Loading الذى يبين اهمية كل ما تقدم من مؤثرات فى الموقف

فاذا اردت أن تعرف كيف يستجيب الشخص الى موقف معين ، فعليك أن تكتب قائمة بسماته وأن تقدر وزن كل منها واهميتها بالنسبة للموقف . وعلى سبيل المثال فاذا كان الفرد يواجه موقفا يتطلب حلا ، فان سمة القدرة (الذكاء) سيكون لها وزن كبير . فاذا فعلنا هذا بالنسبة لكل سمات الشخص وادخلنا فى اعتبارنا المتغيرات الموقفية ، فاننا نستطيع أن نتنبأ بسلوك الشخص فى هذا الموقف بدرجة كبيرة .

(Hergenhahn, pp. 185-186)

نمو الشخصية :

من الممكن دراسة نمو الشخصية عند المستوى الوصفى القح وذلك بتحديد معالم التغير فى بناء الشخصية فى مراحل الحياة المختلفة . ويمكن ان يدرس النمو على المستوى النظرى فى ضوء المؤثرات الوراثية والمؤثرات البيئية فى هذا النمو ، وفى ضوء قوانين النضج والتعلم التى تصف التفاعل بينهما واثره فى تشكيل الفرد النامى ، ولقد قام كاتل بهذين العملين .

ولقد درس كاتل وأعوانه المزاج والسمات الدينامية وذلك باستخدام التحليل العاملى على مستوى الراشدين ومستوى الأطفال فى محاولة للتوصل الى أدوات قادرة على قياس نفس العوامل فى الأعمار المختلفة . وبصفة عامة لقد وجد كاتل عوامل متشابهة فى الأعمار المختلفة بين سن الرابعة وحتى الرشد ، كما وجد أن عدد العوامل فى الأعمار الأقل أصغر . وكما يعرف علماء النفس من الصعب التأكد من أن المقاييس التى تستهدف قياس نفس السمة فى الأعمار المختلفة تقيس نفس الشىء . وهى صعوبة تنشأ من أن المرء يعبر عن جانب من الشخصية عن طريق عناصر سلوكية مختلفة فى الأعمار المختلفة. ولقد اقترح كاتل للتغلب على هذه الصعوبة القيام بدراسات تتناول الجماعات العمرية البينية ، وهكذا قارن بين نتائج الراشدين ونتائج من بلغوا الحادية عشرة من اعمارهم ، وقد أجابت كل مجموعة منهما على صورة مختلفة من اختبار فى الشخصية ، ثم طبق الصورتين معا على عينة ثالثة ممن بلغوا السادسة عشرة من أعمارهم . وظهرت نتائج متكافئة الى حد ما ، أى ان المقارنات اسفرت عن تشابه فى بعض العوامل واختلاف فى البعض الآخر . رغم أن الاختبارين يتناولان نفس المجال بصفة عامة . ويبدو أن البحوث فى هذا الاتجاه تحمل على الأمل فى التوصل الى أدوات للقياس متكافئة تصلح للجماعات العمرية المختلفة . وهكذا يمكن أن نتعرف على الخطوط الحقيقية لاتجاهات النمو فى سمات الشخصية . ولقد ناقش كاتل الأدلة على وجود اتجاهات عمرية فى عوامل المزاج فبعضها يرتفع مع التقدم فى العمر من سن الحادية عشرة الى الثالثة والعشرين كالمغامرة H وقوة الأنا C وبعضها ينخفض مع التقدم فى العمر كالاستهداف للشعور بالاثم O والارتياب L .

وقد اتضح لكاتل من دراساته للآثار النسبية لكل من العوامل الوراثية والبيئية أن معاملات الارتباط بينهما سالبة على العموم . وقد فسر كاتل هذا بميل المؤثرات البيئية الى معارضة التعبير عن التباين الذى يعزى الى الوراثة على نحو نسقى ، كما يحدث حين يحاول الوالدان والمربون أن يشكلوا سلوك الأبناء على اختلافه ، بحيث تقل الفروق بينهم وبحيث يتسق سلوكهم مع معيار سلوكى معين وذلك بتشجيع الخجلين على مزيد من الاجتماعية والجرأة والجريئين على التخفف من الجراة بحيث يكونون اكثر خجلا وحياء .

التعـــــلم :

يميز كاتل بين ثلاثة أنواع من التعلم على الأقل تلعب أدوارا هامة فى نمو الشخصية . النوع الأول هو التعلم الشرطى الكلاسيكى وله اهمية فى ربط الاستجابات الانفعالية بالاشارات البيئية المنبهة Cues والنوع الثانى هو التعلم الشرطى الاجرائى وهو يربط بين الوسائل واشباع أهداف الدفعات الفطرية . ويلعب الاشراط الاجرائى دورا ملحوظا فى الشبكة الدينامية وهى التى تتألف من علاقات متبادلة وفقا لتسلسل التبعية كالعلاقة بين الوسائل والغايات وبين الاتجاهات والعواطف باعتبارها وســـائل لتحقيق أهـــداف الدفعات الفطرية . وثمة شكل آخر من اشكال التعلم الاجرائى يطلق عليه كاتل التعلم المجمع confluence والذى فيـــه يشبع السلوك أو الاتجاه النفسى أكثر من هدف فى وقت واحد . وهكذا يرتبط الهدف بأكثر من عاطفة ، وترتبط العاطفة بعدة دفعات فطرية مما يعطى للشبكية الدينامية خاصيتها البنائية .

والنوع الثالث من أنواع التعلم هو ما يسمى تعلم التكامل ، ويظهر فى أساسه باعتباره نوعا من أنواع التعلم الاجرائى المتطور . ويتعلم الفرد فى هذا النوع من التعلم أن يحقق أقصى أشباع كلى طويل المدى بالتعبير عن بعض دفعاته الفطرية فى أى لحظة وقمع أو كبت أو اعلاء دفعات فطرية أخرى . وتعلم التكامل جانب محورى أساسى فى تكـــوين عواطف الذات والأنا الأعلى .

وأفضل وصـــف لتعلم الشخصية من وجهة نظر كاتل هو أنه تغير كثير الابعاد يحدث استجابة لخبرة فى موقف كثير الابعاد . والطريقة لدراسة تعلم الشخصية امبيريقيا هى أن تستخدم اسلوب مسارات التكيف adjustment Path analysis وتبدأ الفرد بشيئين : يبـــدأ اولا بمعلومات عن تغيرات السمة التى تحدث لدى عدد من الناس كاستجـــابة لفترة من التوافقـــات الحيـــاتية العادية ، ويبدأ ثانيا بتحليل للمسارات الممكنة للتوافق كالنكوص والاعـــلاء واحلام اليقظة والأعراض العصابية التى يتخذها النـــاس استجـــابة لمواقف الصراع فى الحياة . فاذا كان الباحث يستطيع ان يحسب عـــدد اتخاذ كل

فرد من هؤلاء الأفراد لكل مسار من مسارات التوافق، فان من الممكن حل معادلة المصفوفة matrix Formula وصولا الى متوسط تأثير كل مسار على تغيير كل سمة من السمات . وهذا يثير الاهتمام من الناحية النظرية ، وله قيمته العملية ؛ ذلك أننا لو تعاملنا مع مجموعة أخرى من الأفراد مكافئة للأولى ، وتوافرت لدينا معلومات عن التغيرات التي طرأت على سماتهم نستطيع أن نقدر عدد مرات اتخاذ كل منهم لكل من مسارات التوافق المتاحة وذلك بحل المعادلة في الاتجاه العكسي .

ولقد قدم لنا كاتل في مرحلة مبكرة تحليلا نظريا لمسارات التوافق باعتبارها سلسلة من مفترقات الطرق الدينامية والتي يلقاها الفرد عندما يعبر من حافز معاق من الغضب البسيط الى الصراع والقلق الى تكوين أعراض عصابية . ويعتمد هذا التحليل النظري على افكار التحليل النفسي الى حد ملحوظ على الرغم من خصائصه الجديدة . ولعل طريقة تحليل مسارات التوافق تزودنا بطريقة لتقويم القيمة الامبيريقية لطبيعة مفترقات الطرق الدينامية (Hall and Lindzy 1970, p. p. 400-401)

ودراسات كاتل عن الذكاء السائل والمتبلور تظهر البعد النمائي ؛ ذلك أن الذكاء السائل يصل ذروته في سن السادسة عشرة ويبقى عند هذا المستوى ، ويحدث انخفاض قليل مع تقدم الفرد في العمر . أما الذكاء المتبلور فيزداد حتى سن الثلاثين وخاصة في مجال القدرة اللغوية . (وقد أشرنا الى ذلك من قبل) .

وقد اتضح من دراسات كاتل أن الانفعالية تتغير مع دورة الحياة وأن فترات الذروة تظهر في أوائل العشرينات حيث يكون الشخص منغمسا في ترسيخ مكانته الزواجية والاجتماعية والمهنية في المجتمع . وتدل بعض الشواهد على أن الانفعالية عند ربات البيوت تتزايد وهن يقتربن من أواسط العمر ؛ ويغلب عليهن في هذه الفترة انحسار دورهن كأمهات ، وحوالى الستين تقريبا تزداد مستويات الانفعالية لدى الرجال والنساء مقارنة بالسنوات السابقة .

وفيما يتصل بالمفهوم الفرويدي الأنا الأعلى ، وجد كاتل انه ينخفض الى

حد ما ، ما بين سن التاسعة والخامسة عشرة ، وتظهر مشاعر الاثم والتوترات الناشئة عن الحوافز غير المشبعة تزايدا فى سن المراهقة ثم انخفاضا ملحوظا بعد هذه الفترة .

السياق الاجتماعى :

اهتم كاتل بأثر الفرد فى المجتمع وبأثر المجتمع فى الفرد وخاصة فى مجال نمو الشخصية .

وفيما يلى اشارة الى قليل من الأمثلة من دراساته وفكره فى هذا المجال . وهكذا نجد أنه فى مجال الربط بين الجماعة الاجتماعية والأسرة وشخصية الفرد قدم لنا كاتل مفهوما جديدا هو شخصية الجماعة group Syntality والمقصود بكلمة Syntality الخصائص الاساسية للجماعة ككل التى تؤدى الى سلوك الجماعة سلوكا متسقا ، وبالتالى تتيح امكانية التنبؤ بأدائها.ولقد درس كاتل عامل شخصية الجماعة والضغوط الاجتماعية والثقافية من حيث تأثيرها على سلوك الفرد باستفاضة .

لقد شعر كاتل أنه طالما أن سلوك الأفراد يتحدد بانتمائهم الى الجماعات المختلفة فان من الأهمية بمكان أن نعرف أقصى ما نستطيع معرفته عن الجماعات التى ينتمى اليها الناس . واذا كان لفظ شخصية يلخص سمات الفرد فان لفظ Syntality يمثل سمات الجماعة . ولقد درس كاتل جماعات الأتراب والمدارس والأمم ... الخ . بنفس الطريقة التى درس بها الافراد . وقد اتضح له أن هناك ثلاثة طرق يمكن للمؤسسات الاجتماعية والجماعات ان تؤثر بها فى سلوك الفرد . الطريقة الأولى غرس القيم الاجتماعية غرسا مقيديا على نحو قصدى ، والطريقة الثانية هى تأثير العوامل الموقفية والايكولوجية على نحو غير مقصود فى الفرد من خلال ممارسات المجتمع ومؤسساته ، والطريقة الثالثة تنتج عن الانماط السلوكية التى تحددت نتيجة لتأثير الطريقة الأولى والثانية . وهذه الانماط قد تقتضى أن يعدل الفرد من شخصيته للتعبير عن الدوافع الهامة واشباعها .

وفيما يلى عدة نتائج توصل اليها كاتل من خلال بحوثه تدل على اهتمامه

ب الديناميات الاجتماعية فى تشكيل الشخصية : —

١ — هناك فروق فى قابلية الذكاء المتبلور والذكاء السائل للتغاير والتباين. ويبدو أن الذكاء المتبلور اقل قابلية للتغيير فى الثقافات التى يوجد بها انظمة مدرسية كما هو الحال بالنسبة لامريكا .

٢ — فى دراسة للأطفال اجريت فى هاواى ، وكان نصفهم من اصل يابانى وجد كاتل اتفاقا بين عوامل الشخصية الأولية لدى الأطفال جميعا سواء من كانوا من اصل أمريكى أو من كانوا من أصل يابانى .

٣ — بينت نتائج أخرى ان مواطنى الولايات المتحدة الامريكية يحصلون على درجات اقل فى النواحى الانفعالية عن الجماعات القومية اخرى. وقد كان متوسط درجات المواطنين الفرنسيين والأسيويين الهنود أعلى من درجات العينة الامريكية بمقدار الضعف . أما درجات الانفعالية عند الانجليز واليابانيين والايطاليين فقد وقعت بين درجات الفرنسيين ودرجات الامريكيين . وقد انتهى كاتل الى القول بانه على نحو تقريبى يبدو أن الذين يعيشون فى اقتصاد موجه وفى المجتمعات الشيوعية يحصلون على اعلى التقديرات فى النواحى الانفعالية .

٤ — وفى مقارنة بين عينة من طلاب الجامعة الانجليز وعينة من طلاب الجامعة الأمريكيين اتضح وجود قلق بمستوى أعلى لدى العينة الأخيرة عنها لدى العينة الانجليزية . كما اتضح أن الطلاب الانجليز لديهم قوة انا اكبر مما لدى الجماعة الامريكية . كما اظهرت الجماعة الأخيرة نموا اكبر فى الأنا الأعلى عن الجماعة الانجليزية . وأظهرت العوامل من المرتبة الثانية التى كشفت عنها الدراسة ان الطلاب الامريكيين اكثر حساسية من الناحية الانفعالية واكثر راديكالية من نظرائهم من الانجليز . ويبدو أن الفئة الأخيرة اقل قلقا واكثر محافظة .

٥ — ووجد كاتل أن الجماعات سواء اكانت صغيرة أو كبيرة حين تتاح لها فرصة الاختيار للعمل بقائد أو بدون قائد سرعان ما تقرر بعد خبرات قليلة أن تنتخب لها قائدا . ولم يكن اهتمام كاتل منصرفا الى طريقة

الاختيار ولا الى توقيته بل الى سوء طريقة الاختيار التى قامت بهـا الجماعة . لقد كان معظم القادة غير اكفاء بدرجة هائلة ومعرضين للأخطاء على نحو كبير .

وهكذا فان للجماعات التى تؤثر فى الناس سماتها ايضا ويمكن الكشف عن هذه السمات باستخدام التحليل العاملى كما نكشف عن سمات الفرد باستخدام نفس الاسلوب . ومتى اكتشفنا خصائص جماعة قومية فاننا نستطيع أن نعقد عددا هائلا من المقارنات وهذا اسهلم من اسهامات كاتل التى تستحق الاشادة بها .

ومن دراساته المعروفة دراسته مع بروبل وهارتمان Brewl & Hartman التى تناولت أربعين قطرا . وقد قام هؤلاء الباحثون بتقويم هذه الاقطار على ٧٢ متغيرا ثم حسبت معاملات الارتباط بين هذه المقاييس كلها ، وأخضعت النتائج للتحليل العاملى ووجد أن الفروق الأساسية بين هذه الأقطار يمكن تفسيرها باستخدام العوامل الأربعة الآتية : —

العامل (١) — الوفرة المستنيرة مقابل الفقر الضيق .

العامل (٢) — النظام النشط مقابل الجمود غير المتوافق .

العامل (٣) — الضغط الثقافى والتعقيد مقابل التعبير عن الدفعات الفطرية والمباشرة .

العامل (٤) — الحجم .

ولقد لخص كاتل افكاره عن العلاقة بين شخصية الفرد وشخصية الجماعة فى ٢٨ قضية عرضها فى مقال نشر عام ١٩٦١ م . وهو ينتهى من هذا العرض الى ان هذه العلاقة تتخللها متغيرات بناء الجماعة ، وقد ناقش الدور مناقشة مستفيضة باعتباره أحد هذه المتغيرات . ومن الأبعاد الفرعية لشخصية الجماعة التعاون ؛ وابعاد التعاون Synergy dimensions تماثل السمات الديناميه بالنسبة للفرد . وفضلا عن ذلك فانه يمكن كتابة معادلة تخصيص اتعاون الجماعة على اسلس اهتمامات اعضائها .

البحوث وطرق البحث :

لقد استخدم كاتل نوعين من أساليب التحليل العاملى . الاسلوب الأول هو التحليل العاملى للشخص P-technique وهو التحليل العاملى للبناء الفريد لشخص واحد ، وذلك بناء على كثير من القياسات التى تتم فى مناسبات كثيرة بالنسبة لمفحوص واحد . والاسلوب الثانى هو التحليل العاملى للمتغيرات R-technique ان التمييز الأول بينهما هو ان الاسلوب الأول أسلوب ذاتى يمكن أن يكشف عن التتابعات العلية ، بينما الاسلوب R أسلوب يتناول الوحدة المعيارية . وكاتل يبين أن الاستخدام الكلينيكى للاسلوب P لم تستقصى امكانياته فى الوقت الحاضر . والتحليل العاملى بالاسلوب الأخير يكشف عن حالات السلوك الانسانى ، بينما التحليل العاملى بالاسلوب R يكشف عن السمات المشتركة بين الناس .

ويستخدم كاتل فى قياسه للشخصية وحدتين : الوحدة المعيارية والوحدة الذاتية . وتتناول الوحدات المعيارية مقدار تفاوت وتباين الفرد عن غيره من الأفراد . والوحدة الذاتية تتناول مقدار تباين الفرد داخل نفسه وعلى سبيل المثال مقدار تباين القلق والحالات الدينامية الأخرى .

ولقد كرس كاتل جهده عبر سنوات طويلة للاسلوب التجريبى الكثير المتغيرات فى مقابل الاسلوب التجريبى ذى المتغيرين .

ويمكن القول أن الطرق التى تتناول متغيرات كثيرة تختلف عن الطرق التى تتناول متغيرين من حيث أن الأولى تعالج متغيرات كثيرة فى وقت واحد وتهتم بالنظر الى المظاهر الكلية متآنية وعلى نحو شمولى . وهى تختلف عنها من حيث أنها لا تتطلب معالجة لضبط المتغيرات تجريبيا وانما تتركها تعمل على نحو طبيعى . وتطور أساليب احصائية دقيقة تعزل وتحلل ما لا نستطيع عزله أو فصله بالضبط الفيزيقى الصارم . وهناك بطبيعة الحال مزايا وعيوب لكل من المنهجين .

ويختلف كاتل عن ايزنك وجيلفورد وزمرمان لان الأخيرين يفضلون تدوير المحاور أو العوامل المتعامدة وبالتالى فانهم يستخلصون عددا قليلا من

العوامل ، أما كاتل فيفضل استخراج أكبر عدد من العوامل ثم يدورها للحصول على أبسط تركيب للعوامل المماثلة . وقد دار جدل طويل عن أى هاتين الطريقتين أكثر كفاءة . فأيزنك مثلا حين يحلل بيانات دراساته عن الشخصية يستخرج عاملين أو ثلاث بينما يشعر كاتل أن من الضرورى استخراج ما بين ١٦، ٢١ عاملا من هذه البيانات، والعوامل من المرتبة الأولى First order Factor تتنبأ فى الأساس بالمحكات العيانية على نحو أفضل بينما العوامل العليا أو من المرتبة الثانية تسهم فى النظرية بدرجة أكبر . وتعتبر العوامل من المرتبة الثانية فئات وصفية عريضة ليس لها القوة التنبؤية لعوامل المرتبة الأولى ولكنها مع ذلك تسهم فى فهم الشخصية .

وبصفة عامة يجمع كاتل بياناته بثلاثة طرق. الطريقة الأولى هى سجل الحياة L - data والطريقة الثانية هى الاستخبارات Q - data والطريقة الثالثة هى الاختبارات الموضوعية T - data والبيانات من النوع الأول تستقى من السلوك الذى يحدث فى الحياة اليومية ومن أمثلتها عدد مرات التغيب عن العمل ، ونسبة الاحتكاكات الودية الى الاحتكاكات العدائية مع الآخرين ، ومقدار ما ينفق من مال على الترويح عن النفس ، وعدد الساعات التى تنقضى فى مشاهدة التلفزيون ، وعدد الجماعات التى ينتمى اليها الفرد ودرجاته الاكاديمية وهلم جرا . ويشترط فى الحصول عليها أن تتم عن طريق ملاحظين ومقدرين آخرين . ولا يستطيع الباحث أن يعتمد على تقرير المفحوص عما قام به. وكثيرا ما تستخدم كمحك للتأكد من دقة البيانات التى تجمع بالطريقتين الاخريين .

وطريقة الاستخبارات لا تشتمل على استخبارات الورق والقلم والتى يجاب عنها بنعم ولا فحسب، بل تشتمل أيضا على مقاييس الاتجاهات والميول والآراء كما تشتمل على المقابلة الشخصية . والخاصية الاساسية للبيانات التى تجمع بهذه الطريقة (Q - data) أنها تستقى من استجابات المفحوص التأملية والتى يعبر بها عن ذاته وهذه الخاصية تقلل من فائدتها لان المفحوص قد لا يعرف نفسه على الاطلاق، وحتى لو كان يعرف نفسه فقد يرى ألا يفصح عما يعرف . وبسبب هذا القصور فان كاتل يحذرنا وينبهنا الا اننا لا ينبغى أن نقبل هذه التقارير الذاتية على أنها تقارير دقيقة عن النواحى الداخلية

العقلية لدينا . وانما ينبغى أن نقبلها باعتبارها سلوكه اللفظى . وهكذا حين يقول الفرد أو يستجيب الى استخبار بانه خجول فان هذا لا يقبل باعتباره دليلا على خجله وانما يقبل باعتباره تقريرا ذاتيا عن نفسه .

والنـــوع الثالث من البيانات يستـــتقى من الاختبارات الموضـــوعية (T data) ويعرف الاختبار الموضوعى بانه الاختبار الذى فيه يقاس سلوك المنحوص لاستنباط الشخصـية دون أن يعى الفرد طريقة تأثير سلوكه على تفسير وفهم شخصيته . فالموضوعية اذن تتحقق حين يقاوم اختبار ما التشويه أو اى نوع من التزوير من قبل الفرد الذى يجيب عن الاختبار . ومن امثلة هذه الاختبارات — اختبار يونج لتداعى الكلمـــات ، واختبار بقع الحبـــــر لرورشاخ ، واختبار تفهم الموضوع لمورى . ولقد نشر كاتل اكثر من أربعمائة اختبار موضوعى اشتملت على الكتابة المعكوسة Backword writing وشطب الحروف Cancellation of Letters وتداعى الكلمات
Association of Emotional Wordds (Cottell & Warburton, 1967)

ولكى تكشف البيانات التى نجمعها عن أوصاف وتنبؤات دقيقة لا بد أن تكون متسقة مع نفسها عبر الزمن ؛ اى أن تكون ثابتة . ولكن الأنواع الثلاثة من البيانات تعانى من قدر من عدم الثبات ويرجع هذا جزئيا الى الاســـلوب الذى يستخدم فى جمعها فالمقياس غير الثابت لن يقيس المتغير الذى يستهدف قياسه على نحو متسق من وقت الى آخر . وقد يرجع عدم الثبات هذا جزئيا الى أن المتغير المقيس يتغير عبر الزمن . وكثير من المتغيرات السيكولوجية كسمات الشخصية لا تبقى ثابتة عبر الزمن . ولقد اطلق كاتل على درجة تغير خصائص الشخصية من وقت الى آخر تذبذب الوظيفة Function Fluctuation ، ويرجع هذا التغير الى تأثير المطالب البيئية والى المرض والقلق (1965, p. 370)

وهكذا يتضح اننا نقيس خصائص متغيرة كالتعب والاكتئاب والاستثارة والقلق . وهذه الحالات فيما يرى كاتل ينبغى الا نعتبرها ببساطة مصادر للخطأ وانما ينبغى أن نقيسها وان نفسح لها المجال عنـــد وصف الشخصية وعند التنبؤ بالسلوك .

ولقد استخدم كاتل هذه الأنواع الثلاثة من البيانات فى تحليله للشخصية. ولقد تبنى كاتل طريقة نظامية فى تناوله لبناء الشخصية واستخدم فى ذلك خمسة مداخل هى : —

١ — الوسائل الثلاث الممكنة للملاحظة التى سبق ان تناولناها وهى سجل الحياة ، والاستخبار والاختبار الموضوعى .

٢ — دراسات عبر المستويات العمرية من الطفولة المبكرة الى الشيخوخة .

٣ — دراسة العلاقات بين نتائج اسلوب التحليل العاملى الذاتى P ونتائج اسلوب التحليل العاملى المعيارى R .

٤ — دراسة الثقافات المختلفة وصولا الى بناء ثابت للشخصية ولديناميتها ، وذلك بدراسة جماعات امريكية واسترالية وفرنسية وايطالية ويابانية .

٥ — المنهج الكثير المتغيرات الذى يقتضى البحث عن العوامل كلها معا وتحديدها كالقدرة والمزاج والعوامل الدافعية .

ان درجة الشمول التى يبلغها كاتل فى جمعه لقياسات الشخصية قد نجده فى دراسة حاولت ان تقيس العمليات الفسيولوجية المتضمنة فى الانفعالية . ولقد قيست الانفعالية لدى المفحوصين من خلال تحليل البول ، وقياس ضغط كتابة الخط ، وزيادة معدل النبض عند وضع الذراع فى ماء مثلج ، والاستجابة لعناوين الصحف . ولقد قورنت هذه الاستجابات الفسيولوجية بقياسات للانفعالية استمدت من الاستخبارات . ولقد شعر كاتل أن المرء يستطيع ان يستخدم الاستخبارات والاختبارات الموضوعية وفقا للظروف . ولقد أسفرت هذه الدراسة عن بعض نتائج معارضة للرأى الشائع اذ اتضح أن معظم الناس ذوى الانفعالية العالية كان ضغط كتابتهم للخط خفيفا وأن هولاء الأشخاص كان لديهم توتر عضلى فى مؤخر الرقبة والكتف وتوتر أقل بكثير فى اقدامهم وأيديهم .

وفى النهاية ينبغى أن نسلم ان هذا الجزء لا يقدم الا عينة محدودة من منهجية كاتل . وسوف ننتقل الآن الى انواع الاختبارات التى استخدمها كاتل .

مع أعوانه فى السنوات الخمس وعشرين الماضية . ولقد استخدم كل اختبار فى جمع بيانات كثيرة وضعت موضع التحليل العاملى بل ولقد عدل الاختبار فى كثير من الحالات تعديلات كثيرة . ويعتقد كاتل أن البحث فى ديناميات الشخصية وبنائها ينبغى ان ينتهى الى التوصل الى ادوات سيكومترية قابلة للاستخدام يمكن استخدامها فى المواقف المدرسية وفى العيادات النفسية . وسوف نذكر ١٥ اختبارا فحسب من الاختبارات التى وضعها كاتل خلال عمله فى معهد اختبار الشخصية والقدرة

Institute For Personality and Ability Testing (IRAJT)

والاختبارات على النحو الآتى : —

1 — The 16 Personality Factor Questionnaires .

2 — The Junior - Senior High School Personality Questionnaire .

3 — The Children's Presonality Questionnaire

4 — TheEarly School Personality Questionnaire

5 — The Contact Personality Factor TesT .

6 — The Neuroticism Scale Questionnaire .

7 — Ipat Anxiety Questionnaire .

8 — The Ipat Parallel - From Anxiety Battery .

9 — The Objective - Anxiety Battery .

10 — The Objective - Analytic Personality TesT .

11 — The Ipat Humor Test of Personality.

12 — The Ipat Music Perference TesT of personality.

13 — The Motivation Analysis Test

14 — The Ssool Motivation Analysis TesT .

وقد وضع ايضا كاتل اختبار لقياس القدرة العقلية اسماه :

IPAT Culture Fair Intellegence Tests .

وله ثلاثة مقاييس : وقد نقل المقياس الثانى الى اللغة العربيــة الدكتوران أحمد عبد العزيز سلامة وعبد السلام عبد الغفار ، أما المقياس الثالث فقــد نقله الى العربية الدكتور فؤاد أبو حطب والدكتورة آمال صادق .

هذا ويتوافر باللغة العربية من اختبارات كاتل اختبارات ثلاث هى : ـــ

ـــ اختبار الشخصية للمرحلة الأولى .

اعداد د. عبد السلام عبد الغفار ، د. سيد غنيم .

ـــ اختبار الشخصية للمرحلة الاعدادية والثانوية .

اعداد د. عبد السلام عبد الغفار ، د. سيد غنيم .

ـــ اختبار عوامل الشخصية للراشدين .

اعداد د. عطية محمود هنا ، د. سيد غنيم ، د. عبد السلام عبد الغفار وقد نشرتها دار النهضة العــربية فى القاهــرة فى السنوات ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، ١٩٧٣ م على الترتيب .

ولقد تادى كاتل من خلال نشاطه البحثى المتدفق فى السنوات الأخيرة الى تطبيق نتائجه النظرية على المواقف العملية . ففى كتابه معنى العصابية والقلق وقياسهما Meaning and Mesurment of Neuroticism and Anxiety والذى كتبه مع I.H. Scheirer عاد الى اهتماماته الكلينيكية الأولى ليقــدم أساليب لقياس وتقدير العصابية والقلق ، وفى كتاب مشهور له « التحليل العلمى للشخصية » The Scientific Analysis of Personality يبين أن اسلوبه فى التحليل العاملى يمكن أن يطبــق فى علم النفس المهنى والتربوى والكلينيكى . واهتم على وجه الخصوص باختبار الشخصية لدى تلاميــذ المدارس وأطفــالها ، وبالعلاقة بين نظــرية الشخصية والمشكلات الاجتماعية العريضة المتضمنة فى العلاج النفسى والصحة النفسية .

(J.P. Chaplin & T.S. Krahiec p.p 575-576.).

المكانة الراهنة والتقويم :

ان نظــرية كاتل شـأنها شـــأن معظم نظـــريات الشـخصية قد لقيت استحسانا من بعض المفكرين ولقيت نقدا من البعض الآخر . فمن الناحيـــة الايجابية : —

— شعر الكثيرون أن قدرا كبيرا من البحوث التى اجريت فى مجال الشـخصية لم تتم على اساس علمى وان جهود كاتل تمثل اضـافة قيمة لاصطناعه للمنهج الكمى وللتحليل العاملى فى دراسة الشخصية ومتغيراتها .

— وليس من شـك فى أن كاتل كان باحثا مدققا فى مجال من اكثر مجالات علم النفس تعقيدا وهومجال الشـخصية . ولقد اقتضى تبنيه لمنهج التحليل العاملى أن يعرف مفاهيمه تعريفا واضحا .

— اذا كانت الشخصية معقدة ومركبة ، فان التحليل العاملى هو من اكثر اساليب الوصف والتحليل الكمى تقدما ، فهو اذن منهج مناسب ومتجانس مع موضوع الدراسـة . هـــذا فضلا عن تقدم تكنولوجيا الحاسب الآلى التى يمكن أن تساعد فى هذا المجال . وليس المهم ان نبحث عن النظرية الصحيحة تمـاما فى الشخصية لان كل النظريات معرضـة للنقد بغـــير استثناء وانما المهم أن نبحث عن نظريات تساعدنا معا على فهم هـــذه الظاهرة المعقدة والمركبة أى فهم الشخصية . وليس من شـك ان نظرية كاتل تلقى الضوء على بعض جوانب الشخصية التى تركها منظـــرون آخرون فى الظلمة .

— من النواحى الموجبة فى نظريات العوامل انه اذا توصلت هذه النظريات الى نتـــائج تتفق مع ما توصلت اليه النظـــريات الكلينيكية مع الاختلاف البائن فى منهجيهما ، أى انهما توصلا الى تحديد مجموعة متشابهة من المتغيرات والأبعاد للشخصية الانسانية فان هذا يزيد من ثقتنا بهـــذه النتائج ويقربنا من فهم السلوك .

ومن الناحية السلبية : —

— قول البورت أن نظريات العوامل تتوصل الى نظام من الحقائق المصطنعة التى ليس لها علاقة حقيقية بأى شخص بذاته . فهى اذن تشوه الحقيقة. أى أن الاعتماد على القياس الكمى والتحليل العاملى لا يناسب خصائص الانسان لانها أكثر خصوبة مما يمكن أن تبلغه هذه الأساليب فى طورها الراهن .

— ان ما يقدمه التحليل العاملى لا يزيد على ما يدخل فيه . فالقائم بالتحليل العاملى يعترض على الذاتية ويعمل على التخلص منها كلما واجهته ، ولكنه يتخير المقاييس والاختبارات التى تدخل فى مصفوفته الارتباطية وهذا الاختيار يتسم بقدر من الذاتية . ويصدق هذا النقد بوضوح حين يؤكد صاحب النظرية أن طريقة التحليل العاملى حين تطبق على أى مجموعة من المتغيرات تكفل التوصل الى أبعاد أساسية للشخصية . الا ان ذلك ليس هو موقف كثير من المحللين العامليين فطريقة تحليل المحك عند أيزنك تقتضى من الباحث أن يفترض أولا طبيعة العامل النفسى قبل البدء فى دراسته ، ومفهوم كاتل عن اختيار عينات من مجال محدد للشخصية يقدم لنا أساسا عقلانيا لطريقة أكثر اتساعا وشمولا .

— تتسرب الذاتية عند تسمية العوامل الناتجة عن التحليل العاملى ، لان الباحث كثيراً ما يلجأ الى خياله وبراعته ليصل الى عنوان شامل للعناصر المكونة للعامل وهى متنوعة . ومعنى هذا أنه يمكن أن يتم التحليل العاملى بعناية ودقة كبيرين ، ولكن استخراج العوامل وتفسيرها قد لا يتسم بنفس القدر من الدقة .

— ان الخلافات الكثيرة بين القائمين بالتحليل العاملى فيما يتصل بخطواته الحسابية أو التفسيرية تمثل هدفا للنقاد . واذا كانت هذه الطريقة على درجة عالية من الموضوعية ، والعقلانية ، فلماذا يختلف أكثر العاملين بها على طريقة سيرها . واذا كان هؤلاء على عظم درايتهم بالموضوع لا يتفقون ، فكيف يتفق حولها الأقل منهم دراية وعلما ؟ وفى الوقت الذى استطاع أصحاب التحليل العاملى أن يتغلبوا على عدد من المسائل

الهامة الخلافية بينهم ، الا انه ما تزال هناك مسائل تثير الخلاف والجدل كعدد العوامل التى ينبغى استخلاصها من مصفوفة ارتباطية معينة .

ـ شعر كثير من علماء النفس أن نظريات العوامل ليست نظريات على الاطلاق . انها تحدد ببساطة المتغيرات الهامة أو العوامل ولكنها لا تبين العملية النمائية او الارتقائية ، كما انها لا تزودنا بالافتراضات التفصيلية عن السلوك والتى تتيح لنا التنبؤ بالبيانات والمواد التى ليست فى متناول الملاحظة . وهذا النقد لا يصدق على موقف كاتل لانه يضع عوامله فى اطار نظرى ، ولانه اهتم بمتغيرات النمو وبعض التنبؤ .

ـ يبدو أن النقد لا مفر منه ، فان اتضح ان عوامل الشخصية التى توصل اليها المحلل العاملى تتفق تماما مع الملاحظات السابقة عن السلوك الانسانى فسيتهم بأنه يضيع جهده سدى ، واذا اختلفت عما هو معروف فسيتهم بأنه يزيد الموقف تعقيدا . ولقد بينت دراسة مفهومى سمات السطح وسمات المصدر عند كاتل أن القائم بالتحليل العاملى لا يتوقع بالضرورة اتفاق عوامله الوثيق مع نتائج الملاحظة البسيطة للسلوك . ولعل ما تسفر عنه جهود هؤلاء الباحثين من التوصل الى مزيد من النتائج التجريبية عن تلك العوامل يزيد من وضوح معنى المتغيرات النفسية التى يشيع استخدامها حاليا .

ـ وفى الختام نقول أن تأثيرات نظريات العوامل على الوضوح والتمسك بالمعايير السليمة للقياس يمثل اتجاها صحيا له تأثيره السليم فى مجال دراسة الشخصية . غير أن محتوى نظريات العوامل قد يكون اسهاما مستمرا وقد لا يكون فى مجال تطوير نظريات الشخصية فى المستقبل .
(هول ولندزى : ترجمة فرج وآخرين ١٩٧١ م ص ٥٣٢ ــ ٥٣٦) .

الفصل العاشر

ايـــزنك

ولد هانز ج ايزنك H.J. Eysenck في المانيـــا في مارس ١٩١٦ م من والداه من أسرة من أسر برلين التي عرفت بالليبرالية . ولقـــد ترك ايزنك ألمانيا عام ١٩٣٤ وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره وذلك كاحتجاج على الحكم النازي وقد تلقىتعليمه في مدارس بألمانيا وفرنسا وانجلترا . ولقـــد درس لفترة في جامعتي ديجون واكستر Dijon and Extre قبل حصوله على درجتي البكالوريوس في الآداب B.A ودكتوراه الفلسفة من الكلية الجامعية في لندن ١٩٤٠ م حيث حصل أيضا على دكتوراه في العلوم
Doctor of Science Degree

ولقد تزوج من مارجريت مالكولم داغيز عام ١٩٣٨ وأنجبا ابنا واحدا . وفي عام ١٩٥٠ م تزوج ايزنك من سيبيل روستال Sybil B.G. Rostal وأنجبا ثلاثة أبناء وبنت . وقد قام ايزنك بعدد كبير من الأبحاث العلمية ونشر أوراقا علمية كثيرة في المجلات المتخصصة مع زوجته سيبيل وقد عمل كعالم نفسي باحث رئيسي من ١٩٤٢ الى ١٩٤٦ في مستشفى ميل هيل Mill Hill H, وعمل قارئا في معهد الطب النفسي في جامعة لندن في الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٥٤ م.ولقد عمل استاذا زائرا في جامعة بنسلفانيا من ١٩٤٩الى١٩٥٠م. وكذلك عام ١٩٥٤ في جامعة كاليفورنيا ببريكلي . وعمل استاذا لعلم النفس في جامعة لندن (معهد الطب النفسي) وهو منصب شغله منذ عام ١٩٥٥ م. ولقد عمل مديرا لقسم علم النفس في مستشفى مودزلي ومستشفى بتلهم منذ عام ١٩٤٦ Maudsley and Bethlehem حيث انجز الكثير من بحوثه . ولقد تأثر في بحوثه بســبيرمان رائد التحليل العـــاملي ، وباســـهامات ثرستون L.L. Thurstone كما تأثر في فـــكره السيكولوجي بكارل يونج وارنست كريتشمر ، وافاد في كتاباته الأخيرة من الاتجاه السلوكي والشرطي عنـــد بافلوف وكلارك هل .

وايزنك رجل نشـــط جدا ، ويروح عن نفســـه بالمشي ولعب التنس والشطرنج وقراءة الروايات البوليسية وبقيادة السيارة في الريف الانجليزي

المجتمع. ولقد نشر أكثر من مائتين من البحوث والمقالات في مجلات علم النفس البريطانية والأمريكية والألمانية والفرنسية .

مقـــــدمة :

ان حجم العمل العلمي الذي قام به هانز ايزنك في مجال علم النفس هائل ويتناول موضوعات متنوعة . لقد درس وكتب في حين من الدهر أو في حين آخر عن الأنماط الجسمية ، وعن كتابة الخط ، وعن السلوك العصابي والذهاني ، وعن أثر الوراثة على التوائم والأخوة ، وعن العقاقير المهدئة أو المبطئة والمنشطة وعن الفكاهة وعن الجماليات ومجالات أخرى كثيرة . وفيما يلي استعراض لبعض عناوين كتبه التي تدل على التنوع وتدل على الخصوبة في الانتاج العلمي : —

— ابعاد الشخصية عام ١٩٤٧.

Dimensions of personality .

— الدراسة العلمية للشخصية ١٩٥٢.

Scientific study of personality.

— بناء الشخصية الانسانية ١٩٥٣.

The Structure of Human personality.

— ترجم بعنوان مشكلات علم النفس ١٩٦٤.

Uses and Abuses of Psychology.

— سيكولوجية السياسة ١٩٥٤.

The Psychology of Politics.

— ديناميات القلق والهستيريا ١٩٥٧.

The Dynamics of Anxiety and Hysteria .

— ما له معنى وما ليس له معنى في علم النفس

Sense and nonsense in psychology 1965.

— تجارب في الشخصية ١٩٦٠.

Experiments in personality .

— العلاج السلوكي والاعصبة ١٩٦٠.

Behavior Therapy and Neuroses (ed).

— علم سيكولوجية الشواذ ١٩٦١.
Handbook of Abnormal psychology (ed).

— تجارب على العقاقير ١٩٦٣.
Experiments With Drugs (ed)

— الجريمة والشخصية ١٩٦٤.
Crime and personality

— تجارب فى العلاج السلوكى ١٩٦٥.
Experiments in Behavior Therapy.

— أسباب وشفاء الأعصبة ١٩٦٥.
The Causes and cures of Neuroses (with s. Rachman).

— الحقيقة والوهم فى علم النفس ١٩٦٥
Fact and Fiction in psychology .

ترجمة د. قدرى حنفى ، د. رؤوف نظمى دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩.

— الأساس البيولوجى للشخصية ١٩٦٧
The Biological Basis of personality.

— بناء الشخصية وقياسها ١٩٦٩
The Structure and Measurement of Personality.

— بناء الشخصية الانسانية ١٩٧٠.
The Structure of Human Personality.

— دائرة معارف علم النفس ١٩٧٢.
Encyclopaedia of Psychology.

— قياس الذكاء ١٩٧٣
Measurement of Intelligence.

— الدراسة التجريبية للنظريات الفرويدية ١٩٧٣
Experimental Study of Freudian Theories.

— تواريخ حالة فى العلاج السلوكى ١٩٧٥
Case Histories in Behaviour Therapy.

— الذهانية كبعد من الشخصية ١٩٧٦
Psychoticism as a Dimension of Personality.

— نموذج للشخصية ١٩٨٠.

A Model for Personality .

وهانز ايزنك شخصية جدلية فقد هاجم الكثيرين فى مجال علم النفس ونقدهم ، كما هاجمه كثيرون ونقدوه . وهو يحتقر البحوث غير الامبيريقية .

ولقد ركز ايزنك نقده الأساسى فى الموضوعات الآتيـة : الاختبارات الاسقاطية والأطباء النفسيين ، وشلدن ، والصياغات غير العلمية فى علم النفس ، والعلاج النفسى وخاصة عمليات التحليل النفسى . ففى نقده لشلدن يقول عن نسقه انه « معقد فى غير ما ضرورة ، وخاطىء احصائيا ، وردىء فى أسلسه النظرى » .

ولقد نادى ايزنك بحماس وقوة لتأسيس العلاج النفسى على منهج علمى وتكرر هذا النداء . ورأى أن العلاج النفسى ليس علما بل هو نوع من الفن المفكك. وهو يرى أن العبارات المقبولة عن الشخصية ينبغى أن تترسخ علميا وانها اذا لم تترسخ فانها تدخل فى باب الأدب والفلسفة ونقد التحليل النفسى بشدة وقدم فى هذا النقد ستة اعتراضات عليه هى : —

١ — تعتمد نتائج التحليل النفسى على وقائع غير ثابتة : اى لا يوثق بها .

٢ — أن التحليل النفسى يسير حالة المريض الذى يتصدى لعلاجه نتيجة حكم قبلى وبذلك يمزج البيانات والمواد الخام بالتفسير التحليلى .

٣ — أن المحللين النفسيين يبالغون فى التعميم من نتائجهم .

٤ — يطبق المحللون النفسيون مبادئهم المشهورة على الظواهر الاجتماعية دون وجود برهان على قابليتها للتطبيق .

٥ — حيث تستخدم الفروض الفرويدية لكى توجه البحوث ، فاننـا كثيرا ما نجد أن هذه البحوث تنصح عن افكار قبلية بدلا من ان تكون اختبارا هاما للفرض .

٦ — أن مجادلات التحليل النفسى تفترض صحة ما تريد أن تقيم عليه الدليل

وبذلك موضــوع الجــدل (ايزنك : مشــكلات علم النفس ، ص ٢٥٦ — ٢٦٠) .

غير أن وايت Wyatt ذهب فى تعليقه على آراء ايزنك فى كتاب Perspectives in Personality Theory, p. 350 الى حد اتهامه لايزنك بأنه ولو أنه ضد التحليل النفسى ، الا أنه يعتمد عليه فى أفكاره الأصلية .

وايزنك شأنه شأن كاتل ينشر انتاجه العلمى عالميا ، ولقــد ترجمت أعماله فى المجلات العلمية الأجنبية ، ولقــد اعتقد البعض أنه فى وقت من الأوقات كان يتسابق مع كاتل فى نشر الأبحاث والمقالات . واستطاع ايزنك أن ينشر حوالى عشر أوراق فى السنة خلال الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٦٠ م . ولقد زار ايزنك كاتل فى معمله فى جامعة الينوى ويمكن اعتبار هذين المنظرين متشابهين بسبب اهتمامهما بالمنهج الاحصائى .

ولقد أعطى ايزنك للبحوث فى مجال الشخصية دفعة قوية بسبب جهوده الدؤبة للقيام ببحوث جيدة ، قابلة للاعادة . ويبدو أن هناك ميلا متزايدا لمتابعة أعماله العلمية وخاصة بين علماء النفس ذوى الاهتمام بالاساليب الاحصائية فى أمريكا وانجلترا ومصر وأجزاء أخرى من العالم . وتكثر الاشارة اليه فى كتب الشخصية .

ويعتبر ايزنك نفسه عالما نفسيا حذرا ، وليس على استعداد لان يصدر تعميمات أو حتى تقديرات عن الشخصية ما لم تكن فى حدود نتائج بحوث قابلة للاعادة ضبطت متغيراتها احصائيا .

غير أن هناك من الشواهد ما يدل على تناقص الاشارة الى أعمال ايزنك ففى أعداد ســابقة من مجلة المستخلصات النفســية Psychological Abstracts كان يفرد لايزنك عنوان مستقل فى الفهرس شأنه فى ذلك شأن فرويد . ولكن هذه الممارسة اختفت فى الأعداد الأخيرة ويصدق هــذا على المقال الذى كتبه أدلسن Adelson عن الشخصية فى : Annual Review of Psychology Vol, 20. 1969. والذى اشتمل على قائمة للمراجع مؤلفة من ٢١٠ بندا . ففى هذا المقال الذى لخص فيه ادلسن الاتجاهات العــامة فى مجال الشخصية لم يشر الى ايزنك .

الوصف النفسى الاحصائى للسلوك الانسانى :

يرى ايزنك ان الوقت مبكر جدا للقول باننا قد توصلنا الى نظـرية للشخصية لها معنى ومعقولة وقابلة للاختبار وقابلة للبحث . وهو لا يدعى ان عمله قد تادى به الى بلورة وتطوير نظرية كاملة فى الشخصية . وهو يشعر ايضا ان جميع العاملين فى هذا الميدان لم يبلغوا النضج فيما توصلوا اليه من صياغة لنظرية فى الشخصية ، وأن اعمالهم ما يزال بهـا كثير من نواحى القصور وذلك لانه يرى أن الحالة الراهنة لصياغة نظرية الشخصية بصفة عامة (وفى الاساس) وصفية ، ومثل هذه النظرية الوصفية لا تهتم بديناميات السلوك الانسانى بالقدر الكافى .

ومهما يكن من شىء ، فان ايزنك قد اصبح حديثا اكثر اهتماما بالجوانب الدينامية والعلية للسلوك ، كما يظهر بوضوح فى كتـابه الذى نشره عام ١٩٥٧ م وعنوانه « ديناميات القلق والهستيريا » الذى يشتمل على مفاهيمه عن نظرية التعلم وتطبيقها فى العلاج النفسى . ولقد حاول أن يضع طريقة عقلانية للتشخيص والعلاج تحل محل التحليل النفسى وهى العلاج السلوكى . وراى أن هذا جزء هام من نسقه .

ولقد تاثر ايزنك بطبولوجية يونج وتصنيفه للشخصية الى منطـوى ومنبسط كما تاثر باعمال كرتشمر وبالأبعاد الجبلية او الجسمية . وايزنك ضد كثرة مكونات الشخصية،ويفضل الاتجاه العملى المقتصد فى بناء الشخصية . ومهما يكن من شىء فلا بد من دعم النظرية ببحوث قابلة للاعادة. ان الحديث عن الانسـان ككل حديث غامض وفلسفى . وايزنك ليس ضد الفلسفة ولكنه يعتقد أن استخدام مصطلحات فلسفية لا ينبغى اعتباره علما ولا يلائم علم النفس . وهناك حاجة للبحث عن ابعاد الشخصية قبل بناء نظرية عنها . وعند العمل مع هذه الأبعاد ينبغى أن نستخدم التحليل العاملى ، حتى لو كان هذا التحليل العاملى ضعيفا ، لانه لا توجد طريقة اخرى قابلة للاستخدام ، ومن الضرورى أن نعبر عن الحقائق الأساسية فى العلوم السلوكية تعبـيرا كميـــا .

وايزنك يقصد فى دراساته للشخصية وللتنظير فيها أن يدرس اكبر

عدد من المتغيرات يمكن الحصول عليه من تقدير الفرد لذاته على مقياس متدرج ، وتقديرات الآخرين له وقياسات الجسم ، والقياسات الجلفانومترية، والبيانات البيوجرافية ، والبيانات التاريخية وتقارير الملاحظين له . وهى كلها بيانات ضرورية لملء صورة شخصية أى فرد ولتكملة ملامحها. وبالاضافة الى تضمين ايزنك لاكبر عدد من المتغيرات فى دراسته للشخصية يحاول دائما ان يحصل على محك او جماعة ضابطة لا تتوافر لديها هذه الخصائص ، أو انها تختلف من حيث درجة امتلاكها لهذه الصفات . وعندئذ يستطيع أن يقوم بالبحوث وترتيبا على ذلك ، فان ايزنك يعمل دائما على أن يدرس مجموعتين متقابلتين فى اى خاصـية فى الأمانة وعـدم الأمانة ، وفى الشـجاعة والجبن .... الخ .

ويمكن ان نرى فى ضوء ما سبق ان ايزنك يفضل العمل فى فريق وان يضيق مجال البيانات التى يدرسها باستخدام الطريقة الفرضية ـ الاستدلالية deductive hypothetico ، وهو يفضل ان يدرس الشخصية مستندا الى بنية فرضية ومستخدما الاختبار الاستدلالى والطرق الاحصائية لكى يتوصل الى موقف يمكن الدفاع عنه وباقل عدد من المكونات .

ويدور تعريف ايزنك للشخصية حول اربعة انماط سلوكية هى : المعرفى (الذكاء) والنزوعى (الخلق) والعاطفى (المزاج) والجسمى (الجبلة) وهكذا فان الشخصية هى « المجموع الكلى للأنماط السلوكية الفعلية والممكنة للكائن الحى كما تتحـدد بالوراثة والبيئة ، وهى تنشـأ وتنمو من خلال التفاعل الوظيفى للأجزاء المكونة التى تنتظم فيها هذه الأنماط السلوكية (Dimensions of Personality, p. 25) ولقد قبل ايزنك تعريف البورت المشهور فى كتابه الذى صدر عام ١٩٥٣ وهو « بناء الشخصية الانسانية » كما استخدم تعريف روباك Roback للشخصية عام ١٩٣٤ م وهـو « التنظيم المتكامل لجميع خصائص الفرد المعرفية والوجدانية والنزوعية والجسمية كما تظهر ذاتها فى تمايز مركز بالنسبة للآخرين » ويدخل فى تعريف الشخصية هذا عند ايزنك اعتقاده فى استمرارية السلوك واتصاله .

وفيما يتصل بالمفاضـلة بين المدخل الايديوجرافى (دراسـة الفرد)

والمدخل الناموسى (اكتشاف القوانين العامة للسلوك) فى دراسة الشخصية ، يفضل ايزنك المدخل الأخير ويرى أنه اذا أريد لدراسة الشخصية أن تكون علما فينبغى أن يكون المدخل المتبع هو المدخل الناموسى .
(Bischof, pp, 489-492)

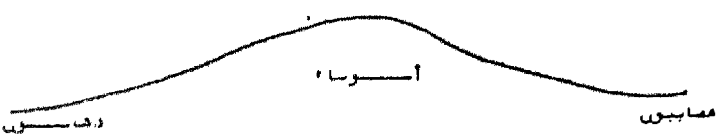
بناء الشخصية :

وبينما يؤكد كاتل على السمات يؤكد ايزنك على الأنماط . ولقد كان هدف كثير من أعماله العلمية التعرف على الأنماط وان ركزت بعض أعماله على وصف السمات .

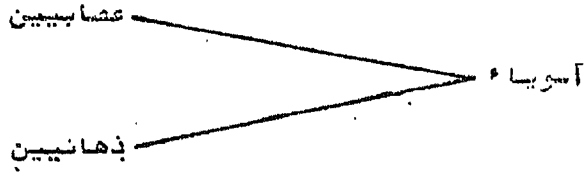
وهو يرى أن هناك ثلاثة أبعاد رئيسية للشخصية وهذه الأبعاد هى :ـــ

الانطواء (الأنا الأعلى)	Introversion	الانبساط (الهو)	Extraversion
العصابية	Neuroticism	اللاعصابية	Non - neuroticim
الذهانية	Psychoticism	اللاذهانية	Non - psychoticism

وفى معظم انساق الشخصية التى تتناول السلوك المنحرف ، قد يتخذ المفهوم العام صورة منحنى جاوس أو المنحنى الجرسى . وهكذا يتوزع المفحوصون بحيث يكون الأسوياء عند المركز بينما يشغل العصابيون والذهانيون الطرفين المتقابلين ويكون لدينا موقف كالآتى :ـــ



وهناك محاولات اخرى لتحديد الفروق بين الذهانيين والعصابيين والأسوياء ولقد افترضت هذه المحاولات وجود تصنيف ثنائى حيث يتفرع الأسوياء : أما الى عصابيين او الى ذهانيين .



ويقترح ايزنك بناء على هذه الخبرة المستفيضة والتجريب طريقة ثالثة أصيلة للنظر الى الفروق بين الأسوياء والعصابيين والذهانيين من الناس . وفيما يلى عرض تخطيطى مأخوذ بتعديل من المفاهيم المتعامدة التى اقترحها ايزنك فى كتابه « الدراسة العلمية للشخصية » ١٩٥٢ والتى عرضها فيما بعد فى كتاب « العمليات الادراكية فى المرض العقلى » ١٩٥٧ م ، الذى الفه مع جرانجر وبرنجلمان .

وهكذا تستطيع الشخصية الانسانية أن تتحرك من السلوك السوى الى السلوك العصابى ، ومن السلوك السوى الى السلوك الذهانى ، ومن السلوك السوى الى مزيج من الأنماط السلوكية الذهانية والعصابية . ويمكن أن تحدث الحركة من السلوك العصابى الى المجال الذهانى — العصابى ثم الى السلوك الذهانى مباشرة دون أن تدخل منطقة السلوك السوى. والحركة العكسية ممكنة بطبيعة الحال بصورة متساوية . ويشعر ايزنك ان الحالات المختلطة اى الذهانية العصابية اكثر من حيث حدوثها عن الأنماط السلوكية العصابية الصرفة أو الذهانية الصرفة. ورجحان وجود الحالات المختلطة يتفق مع الخبرة الكلينيكية .

السلوك الذهانى (ب)	مزيج من السلوك الذهانى والعصابى (جـ)
السلوك السوى (ا)	السلوك العصابى (د)

وتدل بيانات ايزنك على أن التصنيف الثنائى ، أى تصنيف الحالات على أساس أنها اما أن تكون كذا أو كيت قد انتهى ومضى الى غير رجعة . وان الأدق أن نضع الفرد فى الموضع أو المستوى الأقرب ملائمة مع ذاته الانفعالية الحقيقية واذا نظرنا الى التخطيط السابق فاننا نستطيع ان نرى ان الشخص (أ) سوى وان الشخص (ب) ذهانى ولكنه قريب من حدود النمط المختلط . وان الشخص (جـ) على الحدود الفاصلة لان يكون خليطا من الذهان والعصاب ولكنه أيضا قريب من الحدود الخارجية للسواء . وان (د) يقع الى يسار منطقة العصاب الحقيقى ومتوغل فيها . وينبغى أن نسلم بأن هذا ليس الا تخطيطا للظاهرة وليس الظاهرة الحقيقية الاجرائية . وهو على أى حال يصور تصويرا وثيقا العلاقات المتعامدة التى استخلصها ايزنك من دراساته التحليلية العاملية . ويشعر ايزنك أيضا أن الأبعاد الثلاثة السابقة للشخصية ليست الاحتمالات الوحيدة الممكنة وان البحوث التالية قد تكشف عن مزيد من هذه الامكانيات . وهو يثنى على مهارة كاتل فى الكشف عن مزيد من الأبعاد فى دراساته عن الشخصية .

ويمثل المتغير الأول الذى عزله ايزنك من دراساته التحليلية العاملية ، تعارضا ذا قطبين بين الانطواء والانبساط . وفيما يلى وصف للمنطوى وللمنبسط :

المنطـــــــوى :

« المنطوى الخالص هادىء ومترو ومتأمل ومغرم بالكتب اكثر من غيره من الناس ومحافظ ومتباعد ، الا بالنسبة لأصدقائه المقربين وهو يميل الى التخطيط مقدما ، أى انه ينظر قبل ان يخطو اى خطوة ويتشكك فى التصرف المندفع السريع ولا يحب الاستثارة ، ويأخذ شئون الحياة اليومية بالجدية المناسبة ، ويحب أسلوب الحياة الذى حسن تنظيمه ، ويخضع مشاعره للضبط الدقيق ، ويندر أن يسلك بأسلوب عدوانى ولا ينفعل بسهولة ويعتمد عليه ويميل الى التشاؤم ويعطى اهمية كبيرة للمعايير الأخلاقية » (ايزنك ، كراسة تعليمات قائمته ص ٥) .

وقد اتضح أيضـــا أن المنطويين يتم اشراطهم على نحـــو افضـــل من

المنبسطين بطريقة هل وبافلوف . ومعرضون من الناحية الجبلية لان ينموا امكانيات قوية للاستثارة وامكانيات ضعيفة للكف . وهم أسرع فى أعمال العد أو الحساب فى ظل الظروف الضاغطة البطيئة وابطأ حين تتغير الظروف بسرعة . ويعيدون انتاج الرسوم على نحو اسرع من المنبسطين ويتذكرونها لمدة أطول ، ويفرزون لعابا أكثر حين يستثارون بعصير الليمون وينامون عادة ساعات أقل من المرضى السيكايترين،وينامون ساعات أطول منهم اذا تناولوا مسكنا . ويحتمل أن يكونوا اكثر حساسية لعقاقير معينة ، ويصعب كفهم ، وهم أكثر تاثرا بالمنبهات ، ويستجيبون استجابات أقل من المعتاد للجرعات الصغيرة من العقاقير المسكنة ، ويحكمون على الفترات الزمنية بأنها أطول عند مقارنتهم بغيرهم . ويدخنون أقل من المنبسطين ولكنهم يفضلون الغليون، ويفضلون الصور الأقل فى اللون والأهدأ فى الظلال والأرق ، ويطلبون معلومات اكثر حين يواجهون مواقف جديدة . وهم اقل ميلا الى المقامرة ، ويرتبطون بالنمطين السوداوى والبلغمى عند أبقراط .

المنبسط :

« ان المنبسط الخالص شخص اجتماعى يحب الحفلات . وله أصدقاء كثيرون ويحتاج الى اناس حوله يتحدث معهم ولا يحب القراءة أو الدراسة منفردا ، ويسعى وراء الاستثارة ، ويتطوع لعمل أشياء ليس من المفروض أن يقوم بها ، ويتصرف بسرعة دون تروه وهو شخص مندفع على وجه العموم . وهو مغرم بعمل (المقالب) واجاباته حاضرة وهو يحب التغيير عادة ، ويأخذ الأمور ببساطة ، ومتفائل وغير مكترث ويحب الضحك والمرح ويفضل أن يكون دائم النشاط والحركة وان يقوم بأعمال مختلفة ، ويميل الى العدوان ، وينفعل بسرعة ، ويمكن القول بصفة عامة انه لا يسيطر على انفعالاته بدقة ولا يعتمد عليها احيانا » (نفس المرجع ص ٥) .

ويصعب اشراط المنبسطين بطرق هل وبافلوف ، وهم معرضون بحكم جبلتهم لتنمية امكانيات استثارة ضعيفة ، وكف قوى . ولا يميلون فى ظروف العمل الى الأعمال المتكررة ولديهم استعداد أكبر لاطفاء العناصر السلوكية المتعلمة ، وتشبعهم بالعمل أكبر من المنطوين ويظهرون تحسنا فى التذكر بعد

فترة الراحة ويتميزون بذاكرة اطول للأرقام ، ويستطيعون أن يمسكوا بأنفاسهم فترة أطول . وهم اقل تأثرا بالمثيرات ، ويستجيبون استجابات زائدة عن الحد للجرعات الصغيرة من العقاقير المهدئة ويحكمون على الفترات الزمنية بأنها اقصر اذا قورنوا بالمنطويين ، ويدخنون اكثر من المنطوين ويفضلون السجائر . ويفضلون الصور الاكثر الوانا واشراقا . ويميلون الى التركيز على التفاصيل عندما يواجهون مواقف جديدة . ويخاطرون بدرجة أكبر ويقامرون فى ظروف الخسارة اكثر من المنطوين ، ويرتبطون بالنمط الدموى والصفراوى عند أبقراط .

واذا كانت معظم مقاييس ايزنك التى استخدمها فى بحوثه تستوفى الشروط السيكومترية من ثبات وصدق .. الخ . فليس من شك فى أن النمطين اللذين استخلصهما من دراساته العاملية والتجريبية يمثلان نمطين مختلفين من البشر اختلافا يكاد يكون تاما . وفضلا عن وضوح اختلاف النمطين فقد استطاع ايزنك أن يقدم لنا وصفا موضوعيا خصبا لكل منهما يساعدنا على فهمهما . واسهام ايزنك الحقيقى فى هذه النقطة اذا قورن بسابقيه ممن عالجوا الأنماط بدأ بجالنيوس وأبقراط وصولا الى كرتشمر ويونج . أنه لم يكتف بالتفكير الآرائكى والتحليل العقلى والاستشهاد بأمثلة من الحياة اليومية وانما قام بعمل منهجى ونسقى وقدم لنا عددا كبيرا من المقاييس الفارقة بين النمطين والتى لها مغزاها النفسى . ويذهب ايزنك الى ان الهو تبدو لها السيادة لدى المنبسطين ، والآنا الأعلى لدى المنطويين . (هول ولندزى : ترجمة فرج وآخرين ، ص ٥٠١) .

العصـــــابية :

ان بعد العصابية يشبه فكرة عدم الاتزان الانفعالى . فالأفراد الذين يقعون عند طرف بعد العصابية يميلون الى التعرض للقلق ويسهل استثارتهم . ويحتمل أن يشكون من الصداع والأرق وفقدان الشهية . وعلى الرغم من انه يزداد احتمال تعرضهم للاضطرابات العصابية فى ظل الظروف الضاغطة المتكررة الا أن معظم الأفراد لا يواجهون الا مشكلات قليلة ويؤدون عملهم على نحو سليم ويقومون بدورهم الأسرى والمجتمعى على نحو مناسب .

والعصابية بنية أولية وليست مجرد زملة من الأعراض ، وهى مشتقة من استثارة الجهاز العصبى المستقل ، وسلوك العصابى ليس واضحا كالمنبسط ، والعصابيون اقل قدرة على الرؤية فى الظلام من الأسوياء وحين تعصب عيونهم لحجب الرؤية يتارجحون الى الأمام أكثر من الاسوياء . ومستوى حافزهم أعلى مما نجد عند الأسوياء .

والعصابية عامل ثنائى القطب يقابل بين مظاهر حسن التوافق والنضج أو الثبات الانفعالى وبين اختلال هذا التوافق . والعصابية ليست هى العصاب بل الاستعداد للاصابة به عند توفر شرط الانعصاب أى عندما يتعرض الانسان للضغوط والمواقف العصبية .

الذهانيـــة :

ويتميز الفرد الحاصل على درجة مرتفعة على هذا البعد بالخصائص الآتية : الذهانيون اقل طلاقة من الناحية اللغـوية ، وأداؤهم منخفض فى الرسم فى المرآة وفى اختبار الجمع المستمر ، وينتشع الكف ويتبـدد لديهم ببطء شديد ، وتركيزهم اقل وذاكرتهم أضعف ، وهم بطيئون جدا فى الأعمال العقلية والادراكية وهم قليلو الحركة وقد يبلغون حالة الاضطراب التخشبى ، وهم غير قادرين على التكيف مع التغير فى البيئة .

ولقد ربط ايزنك بعض الديناميات الأساسية فى الشخصية كما يراها مع ما قام به كل من بافلوف وهل من اعمال علمية ، وتوصل الى مسلمة عن الفروق الفردية تستند الى البنيات الجسمية المتضمنة فى عمل الروابط بين المثير والاستجابة فى الجهاز العصبى . وهكذا يرى أن الأفراد يختلفون فى ثلاثة خصائص : —

١ — يختلفون فى السرعة التى يتم بها الكف والاستثارة فى الجهاز العصبى

٢ — سرعة تبدد وتوزع الكف فى الجهاز العصبى .

٣ — قوة أو شدة الكف الناتج والانطفاء .

وقد أكد ايزنك على ميل المنطوين القوى وكذلك المنبسطين الى انماط سلوكية تميز كلا منهما وخاصة حين يتعرضون لمواقف ضـــاغطة ومقلقة ، وعندما يواجهون صعوبات لا يمكن التغلب عليها وفقا لتفسيراتهم . ولقد اكد ايزنك على كلمة ميل أو استعداد الأفراد predisposed او نزعتهم ولم يناقش الأنماط باعتبارها متمايزة غريزيا .

وقد يجد الدارس لمفهوم ايزنك عن الانطواء والنمط الاكتومرفى عند شلدن ، ولمفهومه عن الانبساط والنمط الميزومرفى قدرا كبيرا من التوازى فى فكر الرجلين ، ولعل بعض تلامذة علم النفس يدرسون هذه العلاقة .

ولعله يتضح للدارس الآن اثر طريقة ايزنك الفرضية الاستدلالية على عمله. ولقد درس ايزنك ظاهرات منوعة كالفروق بين الجنسين ، واختبارات القلق ، والآثار عبر الحضارية فى الشخصية ، وافراز اللعـــاب ، وتارجح الجسم كما أجرى تجارب على الحيوان وان دراساته وتجاربه صممت للكشف عن افكار قابلة للبحث وقد عمل هذا قبل أن يحاول التوصل الى فئات عريضة ومقولات غير مقولاته الأربع المعروفة وهى الانطواء ، الانبساط ، العصابية ، والذهانية. وفيما يلى نعرض ملخصا لنتائج دراسات ايزنك التحليلية التى قام بها خلال ما يقرب من ثلاثة عقود من النمط ، والسمة : ــ

عوامل ايزنك	عوامل الشخصية	المتغيرات السياسية المرتبطة بها
العامل العام (اهمية كبيرة)	النمـــط (كوكبة من السمات)	ايديولوجية
العامل الطائفى	الســـمات (عادات متسقة)	اتجـــــاه
العامل الخاص	استجابات معتادة (يتكرر حدوثها فى ظروف مشابهة)	راى معتاد
عامل الخطا	استجابات معينة (فعل واحد)	راى معين

واضح أن العمود الأول الى اليمين يشتمل على فئات ايزنك وهى مستقاة من التحليل العاملى . ولقد اكتشف ايزنك أربعة أنواع من العوامل من خلال ما قام به من تحليل عاملى لنتائج دراساته وتجاربه وهى : العامل العام ، والعامل الطائفى ، والعامل الخاص وعامل الخطأ . ولقد نتجت أنماط الشخصية عنده من عوامله العامة . وينبغى أن نتذكر أن انماط الشخصية هى : الانطواء — الانبساط ، والعصابية — واللاعصابية ، والذهانية — واللاذهانية . ونتجت السمات عن العوامل الطائفية . ويؤكد ايزنك على انه ينبغى أن تعرف السمات تعريفا اجرائيا ، وأن تكون قابلة للقياس . وقد وجد أن السمات هى عادات متسقة للسلوك تقريبية وأن العوامل الخاصة قد نتجت عن الاستجابات المعتادة وهى افعال سلوكية يتكرر حدوثها فى ظروف مشابهة . أما عوامل الخطأ وهى أقلها أهمية فتصدر عن الاستجابات الخاصة لاى فعل مفرد ولا يمكن استخدامها بدقة كبيرة فى مناقشة الشخصية أو نظرية الشخصية . (Bischof. pp. 495 - 499)

وتصور ايزنك للشخصية شبيه بتصور كاتل من حيث أن كليهما ينظر الى السلوك على أساس هرمى . فمن وجهة نظر ايزنك نجد عنده قاعدة التنظيم الهرمى الاستجابات النوعية التى يمكن ملاحظتها بالفعل . وفوق هذه مباشرة نجد الاستجابات المعتادة ، وفى المستوى التالى من الهرم نجد السمات وهى مماثلة لسمات المصدر عند كاتل ، وعند القمة نجد الانماط . فالأنماط عند ايزنك ابعاد اساسية للسلوك المستمر والمتصل اكثر من كونها فئات طبولوجية منفصلة . ولقد حدد ايزنك ثلاثة ابعاد او انماط اعتبرها وحدات أساسية للشخصية وهى العصابية ، والانبساط — الانطواء ، والذهانية .
(Feshback & Weimer, p. 321).

الذكـــاء :

ولقد دعم ايزنك فى مجال الذكاء النموذج ذا التنظيم الهرمى مثله فى ذلك مثل سابقيه من البريطانيين . فهناك عوامل أولية كالقدرة العددية والقدرة اللغوية والقدرة المكانية ، والطلاقة فى الكلمات والذاكرة الصماء والاستدلال، ولكن هذه يرتبط بعضها مع البعض الآخر لكى تكون عاملا عاما للذكاء . وعند

المستوى الأوسط من العمومية قد يكون من المفيد أن نميز بين العامل اللفظي والعامل غير اللفظي اى عامل الاداء . وهذا ما تقدمه لنا اختبارات وكسلر للذكاء . وهناك اتفاق عام بدرجة كبيرة بين المحللين العامليين على هذا الموقف .

ولقد كان تحليل ايزنك المفصل للأداء فى نسبة الذكاء بالتعاون مع فورنييه وهوايت (P.O. White & D.W. Feurneaux) قائما على تقسيم درجات اختبارات نسب الذكاء الى ثلاثة جوانب تتباين على نحو مستقل الى حد ما وهى : —

١ — سرعة الأداء العقلى ولها علاقة بمستوى الصعوبة ، ذلك انه كلما ارتفع هذا المستوى زاد الزمن المستغرق للأداء . وعندما ندرك مشكلة لأول مرة يبدأ فى المخ تتابع منتظم للوقائع ينتج عنه سلسلة من المحاولات للوصول الى الحل . ويستند مفهوم السرعة العقلية على المعدل الذى تعمل به أساليب التنظيم وتتفكك ويعاد تنسيقها .

٢ — الدقة فى الأداء وهى وظيفة لميكنزم مراجعة الخطأ . اى انه كلما تكونت فى المخ محاولة للحل فان صلاحيتها تختبر كاجابة للمشكلة الحقيقية موضع الاعتبار .

٣ — وتستمر عملية القيام بحلول تجريبية واختبارها حتى يتم التوصل الى حل صحيح أو حتى يؤدى نقص المثابرة الى تحويل الانتباه الى مشكلة اخرى .

ونسبة الذكاء تمثل اتحادا مفيدا لهذه المكونات الثلاث وهى السرعة والدقة والمثابرة . والاختبار الجيد للذكاء او مجموعة الاختبارات هى التى تزودنا بقياسات منفصلة لهذه الأبعاد . والاختبارات الجيدة تزيد من قدرتنا على التنبؤ بالنجاح فى الحياة العملية .

وقد ظهرت بعض الارتباطات بين هذه المكونات للذكاء وبين الشخصية . وقد وجد أحد أعوان ايزنك وهو بريرلى H. Brierley أن العصابيين يقدرون عامل السرعة تقديرا اقل قيمة من المتزنين . وان العصابيين المنطوين كانوا

أبطأ من العصابيين المنبسطين ، ولكن المجموعة الأخيرة كانت اقل دقة من المجموعة الأولى . وأن المثابرة لم تميز بين الجماعتين ولم تلعب أى دور فى السرعة الملاحظة وفى الفروق بين المنبسطين والمنطوين فى الدقة. والمعروف عن نسب قابلية هذه المكونات الثلاث للتأثر بالوراثة وبالتعديل قليل ومحدود حتى الآن . غير أنه يبدو أن من المعقول أن نقول ان الدقة والمثابرة قد يكونا اقل قابلية لتأثير التعلم والدافعية عن السرعة . ويلخص ايزنك موقفه فى هذه النقطة عام ١٩٧٣ فيما يتصل بقياس الذكاء على النحو التالى : —

« ان المدخل السيكومترى الصرف الذى ميز العمل الذى تم القيام به فى النصف قرن الماضى لا يكفى . ان ما نحتاج اليه هو مدخل تجريبى بدرجة اكبر ، ويتسق بدقة مع نمط العمل الذى تم على الاشتراط ، والادراك والتعلم اللغوى »

Wolman B., International Encyclopedia of Psychiatry, Psychology, Psychoanalysis & Neurology Vol Iv (pp. 246-427).

السلوك الاجتماعى :

لقد وسع ايزنك نسق الشخصية بحيث يصل الى السلوك الاجتماعى المعقد . فلقد اظهر ايزنك أن حصول فرد على درجات عالية فى عوامل الشخصية الثلاث وهى الانبساط ، والعصابية ، والذهانية ، وخاصة فى العامل الأخير يهيىء الفرد للسلوك الجانح والاجرامى .

ولقد درس وفحص كوكران Cochrane ١٩٧٤ الدراسات المتوافرة عن نظرية ايزنك والتى طبق فيها استخبارات على المساجين وعلى جماعات ضابطة وانتهى الى انه على الرغم من انه قد وجد أن المساجين بصفة عامة أعلى فى العصابية من الجماعات الضابطة الا انهم ليسوا أعلى منهم فى الانبساطية. والحق ان عددا من الدراسات قد بين أن المجرمين اكثر انطوائية من الجماعات الضابطة . ولقد حاول ايزنك عام ١٩٧٤ أن يفسر هذه النتائج غير المريحة فاقترح أن الاستخبارات المستخدمة (EPI & PEN) كانت تقيس مكون الاجتماعية بينما المكون الذى يتصل بالقابلية للاشتراط هو مكون الاندفاعية والنزق impculsivity . ولسوء الحظ فان الشواهد التى تدعم

صحة هذه العبارة فيما يتصل بالاشتراط قليلة . ويذهب كوكران الى ان هذه النظرية قد فقدت مصداقيتها فى صورتها الأصلية وان هذا يثير شكوكا جادة فيما يتصل بسلامة نظرية ايزنك العامة فى التطبيع الاجتماعى .

وقد اتضح فيما يتصل بالسلوك الجنسى أن المنبسطين يحيون حياة سعيدة نشطة ، وتتسم بالتباين فى الحياة الجنسية (عندما يقارنوا بالمنطوين) وان العصابيين يتميزون بطاقة غريزية عالية مع عوائق تكف الاشباع ، وان الذين يحصلون على درجات عالية فى الذهانية ينغمسون فى سلوك جنسى عابث وشاذ يندر أن يجدوا فيه اشباعا .

ولقد توصل ايزنك فى كتابه سيكولوجية السياسة ١٩٥٥ الى وجود عاملين اساسيين فى الاتجاهات النفسية هما : الراديكالية (التطرفية) مقابل المحافظة ، radicalism versus conservatism والصرامة العقلية مقابل الرقة العقلية toughmindedness versus tendermindedness فاصحاب الشخصية التسلطية كما تقاس بمقياس ف F - Scale يتميزون بالمحافظة وبالصرامة العقلية ، اما اعضاء الجماعات الشيوعية فيتميزون بالصرامة والراديكالية . وهكذا نجد ان الفاشيين والشيوعيين يختلفون على عامل الراديكالية المحافظة اختلافا كبيرا ولكنهم يتشابهون فى عامل الصرامة العقلية . ولقد كشفت البحوث اللاحقة عن ان عامل الراديكالية يستند الى حد كبير الى الاهتمامات الطبقية بينما يرتبط عامل الصرامة بالخصائص الذكرية فى الشخصية كالذهانية والعدوان .

ولعل اسهام ايزنك الرئيسى يمكن تلخيصه فى محاولته الربط بين علم الأحياء وعلم الاجتماع . وهو يتتبع سلسلة العلية فى طريق طويل من البنيات التشريحية والفسيولوجية الى المفاهيم النيرولوجية كالتنبه والتنشيط الى الفروق الفردية فى التعلم والاشتراط والادراك والعتبات الحسية وغيرها من الظاهرات المعملية . وهو ينظر الى هذه كلها كسوابق لمفهوم الشخصية، وهى مع مؤثرات بيئية معينة تحدد الانماط الظاهرة للانبساط والعصابية وهلم جرا التى تترصل اليها الاستخبارات . وفى جانب العواقب واذا اضفنا مؤثرات بيئية اخرى للمعادلة نجد ظاهرات اجتماعية مختلفة كالعصيان ،

والجريمة ، والقابلية للتعليم ، والسلوك الجنسى ، والاتجاهات السياسية ، كما نجد انماطا سلوكية اكثر تحديدا كالاستهدافة للحوادث ، والفكاهة والتفضيلات الجمالية والاختيار المهنى وانشطة قضاء وقت الفراغ. واستطاع ايزنك بربطه مفهوم الشخصية بالبيولوجيا من ناحية وبالسلوك الاجتماعى من ناحية اخرى (وكلاهما يمكن ملاحظته على نحو مباشر) ان يكسر الدائرة المغلقة التى يحصر فيها دعاة التحليل العاملى انفسهم حين يعتمدون فى دراساتهم على معاملات الارتباط بين متغيرات الاستخبارات .

الأساس البيولوجى للشخصية :

هناك شواهد كثيرة تدل على أن لنظرية ايزنك فى الشخصية أساس بيولوجى واضح . وحين يدرس الفرد أبحاث ايزنك وكتاباته يتضح له أن لجهاز الانسان العصبى مكانة فى نظريته وانه من مبادئها الأساسية .

ان الأسباب والعوامل المؤثرة فى نظرية ايزنك منغرسة على نحو راسخ فى علم الأحياء وهى معقدة تعقيدا كبيرا . فالشخصية لا تورث على نحو مباشر بل يرث الفرد على الأرجح نمطا معينا من الجهاز العصبى يجعله ميالا للنمو فى اتجاه معين . ويتحدد الشكل النهائى للشخصية نتيجة للتفاعل بين استعدادات الفرد البيولوجية والمؤثرات البيئية التى يتعرض لها فى حياته . والصيغة الأصلية لنظرية ايزنك تعتمد اعتمادا كبيرا على أعمال بافلوف وهل العلمية . وترتبط سهولة تكوين الفرد للاستجابات الشرطية وبقائها بالتوازن بين الاستثارة أو التنشيط والكف أو الكبح داخل الجهاز العصبى المركزى . ويسهل تعلم الروابط بين المثير والاستجابة حيث تتجمع استثارة سريعة وقوية فى الجهاز العصبى وميل الى أن يتم الكف على نحو بطىء وضعيف . والمنطوون يرثون مثل هذا النظام العصبى ، وهم بالتالى قادرون على الاشتراط السريع والقوى . أما المنبسطون فيكتسبون الاستجابات الشرطية على نحو بطىء وضعيف .

لقد اتضح ارتباط الأساس الفسيولوجى لهذا الفرق بين المنطوين والمنبسطين فى القابلية للاشتراط بوظائف الجهاز الشبكى المنشط Reticular Activity System (RAS) فى المخ .. والوظيفة الأساسية لهذا الجهاز

فيما يبدو هى فى المحافظة على أن يبقى الفرد فى الحالة المثلى او القصوى من حيث التنبه او اليقظة . وللجهاز الشبكى المنشط وظيفة اخرى بالاضافة الى التنشيط وهى الكف والكبح . ولم يستطع كلاريدج Claridge ان يجد عام ١٩٦٧ علاقة بسيطة بين مستويات الانبساط والعصابية والتنشيط او التنبه الفسيولوجى غير انه على اية حال وجد علاقة معقدة بين التنبــه او الاستثارة وموضع الفرد على هذين البعدين.وهكذا يبدو المنطوون العصابيون أكثر استثارة وتنبها اذا قورنوا بالأقل منهم فى الانطواء والعصابية .

وتتصل الانفعالية او العصابية باستجابية او ترجيع الجهــاز العصبى الاوتونومى فالأفراد الذين يتميزون بتقلب اكبر وتغير فى أجهزتهم العصبية الاوتونومية اكثر استعدادا للاستجابة بقوة للخبرات المخيفة وغير السارة ، وذلك بزيادة فى معدل نبضات القلب ، والتوتر العضلى ، ونشاط الغــدة العرقية وهلم جرا . اما الأفراد الذين يحصــلون على درجات عاليــة فى العصابية فيميلون الى ان تكون عتبتهم الحسية للاستثارة الانفعالية منخفضة. وسوف يؤدى هذا الى تنشيط اكثر تواترا لأجهزتهم العصبية الأوتونومية الذى تطلق بدورها الجهاز الشبكى المنشط ARAS وهكذا فان الجهــاز الشبكى المنشط سوف يكون فى حالة استثارة او تنبه بالنسبة للأفراد الذين يحصلون على درجات عالية على بعد العصابية فى احوال كثيرة.وهذا معناه ان هؤلاء الأفراد يغلب ان يشبهوا المنطوين الذين يتميزون بالتنبه والاستثارة اكثر من المنبسطين . (Peck & Whitlow 1975, pp. 71-73)

ويرتبط بما سبق أن العقاقير المسكنة تزيد من الكف اللحائى وتقلل من الاستثارة أو التنبه اللحائى وبالتالى تؤدى الى انماط سلوكية منبسطة . اما العقاقير المنبهة فتنقص الكف اللحائى وتزيد من الاستثارة او التنبه اللحائى وبهذه الطريقة تؤدى الى انماط سلوكية منطوية.والمفحوصون الذين يحصلون على درجة عاليــة جدا فى الانبســـاط (او الهستيريون) يتميزون بالزيادة السريعة فى الكف المركزى ويكون للعقاقير المنبهة تاثير ضعيف فيهم ؛ ولكنهم يستجيبون للمسكنات على نحو يظهر تغيرات واضحة فى الســلوك . اما الانطوائيون (او الديسثيميون) فيصدر عنهم السلوك العكسى ، فلديهم كف مركزى وهم اكثر حساسية للمنبهات ويتعاطون مقادير اكبر من المسكنات دون

أن يصدر عنهم الا القليل من التغير فى الأداء . (فوس ترجمة فؤاد ابو حطب ٣١٩ — ٣٢٠) .

ولقد توصل ايزنك من خلال دراسته للتوائم المتماثلة الى أن العصابية يمكن ان يكون لها أساس جبلى ، وأن تقوم على الوراثة . وباستخدام أدوات وضعها بنفســـه واختبارات لقياس العصابية وجد أن معامل الارتباط بين السلوك العصابى بين التوائم المتماثلة قد بلغ ٨٥ر. بينما بلغ معامل الارتباط هذا بين التوائم الأخوية ٢١ر. فقط . وهو يذهب الى القول أن العلاقات بين الوالدين واطفالهما قد تتحدد بالوراثة فعلا نتيجة للتأثير الكلى للبيئة .

ولكى يبلور ايزنك تفكيره فى هذا المجال كتب عام ١٩٦٧ كتابا بعنوان « الأساس البيولوجى للشخصـية » The Biological Basis of Personality واقترح فيه أن لبعض قوانين السلوك اساس بيولوجى كامل . وثمة بعدان متضمنان فى هذه النقطة . أحدهما يتناول الانفعالية والعصابية وعـــدم الاتزان . والثانى الانطواء — الانبساط . وكلاهما يتأثر بالعوامل الوراثية البيولوجية عند الانسان . وقد ضمن كتاباته التصنيف القديم الذى قـدمه أبقراط وجالينوس أى أنه قبل على نحو ما مفاهيم النمط السوداوى ، والنمط الدموى ، والنمط البلغمى ، والنمط الصفراوى وهى أنمـــاط ترتبط بالتكوين الجبلى للفــــرد . وهكذا نجد أن هنـــاك أسسا بيولوجية وراء المفـــاهيم السيكولوجية . وهناك علاقة بين البنية العضوية للانسان وقابليته للاشتراط، وانماط الأمراض التى قد يتعرض لها واستجاباته للعقاقير المختلفة .

التشخيص الطبى النفسى :

لقد هاجم ايزنك طرق التشخيص السائدة فى هذا المجال قائلا « فنحن اذن نتوصل الى صورة كئيبة حيث نستخدم اختبارات اختيرت على نحـــو تعسفى غير ثابتة ولا صادقة للتوصل الى تشخيص جزافى الى حد كبير غير صادق ولا ثابت منبت الصلة بطرق العلاج المستخدمة وهى طرق بدورها غير فعالة بالمرة » (1970, p. 171)

ولقد صدر هذا الهجوم على طريقة تصنيف الاضطرابات الطبيـــة

النفسية من جهات عديدة ، ولكن هجوم ايزنك كان أكثرها بناء واستمرارية ويستند الى قدر هائل من العمل التجريبى فى مجال قياس الشخصية وتقويمها وفى مجال التعلم بالنسبة للأسوياء . ويدعو ايزنك الى مدخل فى التشخيص السيكياترى يستند الى بعدين رئيسين هما العصابية والذهانية وكلاهما يشكل متغيرا متصلا من الشذوذ الشديد الى السواء . وقد ترسخت العصابية كبعد فى الشخصية السوية على أساس من الشواهد العامية ولكن الذهانية باعتبارها بعدا فى الشخصية السوية قد اهمل حتى وقت قريب . وعلى الرغم من ان كلاريدج Claridge وشابا Chappa (1973) قد وجدا شاهدا يدعم القول بأن الذهانية بعد من ابعاد الشخصية السوية ؛ الا انهما ايضا وجدا عددا من النواحى المتشابهة بين المفحوصين المنخفضين فى العصابية والمرتفعين فى الذهانية فى عدة مقاييس نفسية وفسيولوجية . وهما يقترحان انه بالنسبة لبعض الأفراد قد يعكس انخفاض الدرجات فى العصابية نوعا من التبلد الانفعالى الذى يرتبط بأشكال معينة من الشخصية الذهانية التى لا يقيسها مقياس الذهانية الذى وضعه ايزنك .

وفى اطار المجموعة العريضة من الاضطرابات العصابية يميز ايزنك بين الاضطرابات الديستيامية dysthymic (الاكتئاب والوساوس والمخاوف المرضية) والتى تتميز بارتفاع فى العصابية وفى الانطواء ، والهستيريين والسيكوباثيين الذين يتميزون بارتفاع فى العصابية والانبساط . ولقد أيدت عدة دراسات هذه التنبؤات بالنسبة للمجموعة الأولى ، أما الهستيريون فقد اتضح اختلافهم عما اقترحه ايزنك . ويبدو ان الهستيريين اقل الى حد ما من الديستياميين فى بعد العصابية وعاديين فى الانبساط . اى انهم يتميزون لا بارتفاع فى الانطواء ، ولا فى الانبساط .

وتعزى الاضطرابات الديستيامية الى اكتساب استجابات انفعالية شرطية (قلق متعلم وردود افعال خوف مكتسبة) لمثيرات حيادية عادية ، وهذه الاستجابات الشرطية والحركات ازاءها تشكل الاضطراب العصابى . والهستيريون بحكم انبساطيتهم النسبية اقل قابلية للاشتراط ، الا فى المواقف التى تشتمل على مثيرات قوية جدا . وتدعيما لهذه النظرة يذهب ايزنك الى أن الاستجابات وردود الافعال الهستيرية تحدث عادة فى المواقف الضاغطة

بجدا كما يحدث فى ميدان المعركة . وتعتبر الذهانية أيضا بعدا متصلا يتراوح ما بين السواء الى الشذوذ الشديد ، ويعتقد ايزنك أن التمييز السيكياترى التقليدى بين الفصامين وذهان الاكتئاب الدورى لم تدعمه الشواهد ، ولو أن الموقف ما زال غامضا . وحتى الآن لم يبذل ايزنك جهدا كبيرا فى الربط بين الذهانية والأساس البيولوجى للشخصية .

وعلى الرغم من أن النظرية قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالعلاج السلوكى للعصاب ، الا أن تأثيرها على الممارسة العلاجية كان ضئيلا جدا . ومن الممكن أن نشير الى شواهد عابرة عن التطبيقات المباشرة فى العلاج وأن معظم المعالجين السلوكيين لا يستخدمون مفاهيم الانبساطية والعصابية فى عملهم . وقد اشتقت عدة مقترحات تتصل بأسئلة مثل هل من الأفضل استخدام جلسات العلاج الطويلة أو القصيرة ؟ ولكنها لم تبحث تجريبيا فى الموقف الكلينيكى . ويساوى النقطة السابقة فى الأهمية دور مستويات الانبساطية والعصابية فى التنبؤ بنتائج اجراءات العلاج السلوكى . ولقد أدى نقص الشواهد فى هذا المجال الى ضياع أمل المعالجين السلوكيين الذين عقدوه على استخدام اختبارات الشخصية المقننة كمنبئات بالتحسن الناتج عن العلاج أو كمقاييس للتغير .

تنمية السلوك العصابى :

وفقا لما يراه ايزنك يمكن تصنيف كل الأعصبة باعتبارها ناتجة أما عن زيادة فى الاشتراط Overconditioning أو نقص فيه underconditioning ويطلق على الفئة الأولى النمط الأول Type I من الاضطراب ، ويطلق على الفئة الثانية من الأعصبة النمط الثانى Type II . وهناك ثلاثة خطوات فى اكتساب النمط الأول من الاضطرابات .

فى الخطوة الأولى يتعرض الشخص لحادثة صدمية واحدة أو لسلسلة من الحادثات الصدمية الفرعية مما يؤدى الى ردود افعال قوية غير شرطية انجذابية Sympathetic فى الجهاز العصبى المستقل . وقد تكفى ردود الأفعال هذه لاحداث خلل فى السلوك . ويتوقف هذا على شدة الصدمة أو فترة بقائها ؛ كما يتوقف على الاستجابة الفسيولوجية للفرد .

وفى الخطوة الثانية من نمو العصاب ترتبط الامارات الحيادية سابقا بمثيرات غير شرطية تنتزع ردود الأفعال الانفعالية العنيفة . ومن خلال ارتباط المثيرات الحيادية سابقا مع الاستثارة الاوتونومية ينتزع المثير الأصلى غير الشرطى (الصدمة) والمثيرات الشرطية (والتى كانت من قبل حيادية) السلوك الانفعالى غير المنتظم وغير المتوافق والذى كثيرا ما يميز العصابى . فاذا انتزعت الاستجابات الشرطية مرة أخرى دون الصدمة المرتبطة بها فان الاستجابات تنطفىء . وهكذا فبمواجهة المثيرات الشرطية دون المثيرات غير الشرطية التى ارتبطت بها تضعف قدرة المثيرات الشرطية على انتـــزاع الاستجابات الشرطية وينطفىء العصاب. ولما كان جميع العصابيين لا يظهرون تحسنا خلال مواجهة المثيرات التى تولد الخوف (وبالتالى تفسح المجـال للانطفاء) فاننا فى حاجة الى خطوة ثالثة لاكتساب السلوك العصابى .

وتتم الخطوة الثالثة حين يصدر الشخص استجابة تجنب وذلك برفضه مواجهة المثيرات التى تود الخوف عنده. ولما كان كل منا قادر على أن يتصور أو يتخيل الصدمة تصورا حيا ، فانه يستطيع أن يستعيد الظروف التى خلقت عصابة،وان يعزز باستمرار الصدمة الأصلية . وفضلا عن ذلك فانه من خلال المزاوجة بين الصدمة المتخيلة مع مثيرات أخرى غـير التى ارتبطت بها فى الأصل ، تزداد الامكانية لحدوث مثيرات شرطية اضافية وامتداد للسـلوك العصابى بغير حدود . ومن بين الزملات التى يصنفها ايزنك فى النمط الأول باعتبارها ناتجة عن زيادة فى الاشتراط حالات القلق وردود الأفعال للمخاوف المرضية ، والاضطرابات الوسواسية والقهرية . ومهما يكن من شىء فان الاضطرابات المهجورة من النمط الأول لا تحـدث كلهـا بسبب استجابات التجنب . ويبدو أن هنك مجموعة ثانيـة من النمط الأول من الاضطرابات تتكون من خلال الاخفاق فى انطـفاء المثيرات الشرطية (Eysenck 1973) ووفقا لما يراه ايزنك فان استعادة الخوف المرتبط بالمثـيرات الشرطية التى لا يتبعها تعزيز تثير خوفا اكبر وبالتالى تحدث تغذية راجعة موجبة . واثر الحضانة هذا كما يسمى يعزز المثير الشرطى وبالتالى يمنع انطفاء الاستجابة الشرطية .

ويمثل النمط الثانى من الاضطرابات الاخفاق فى اشراط العـــادات

المستحسنة اجتماعيا والتوافقية . وهنا يسلم ايزنك أنه حين ينغمس الطفل فى السلوك غير اللائق ، فانه يتلقى عقابا يتفاوت فى شدته من الأتراب والمعلمين أو الآباء مشروطا بالسلوك غير اللائق ومترتبا عليه . وهكذا يصبح السلوك غير اللائق المثير الشرطى ويصبح العقاب المثير غير الشرطى الذى يؤدى الى استجابات الألم والخوف . ومع تكرار اقتران السلوك غير اللائق مع العقاب،ترتبط استجابة القلق الشرطية والخوف على نحو مباشر بالسلوك غير اللائق . وارتباط الخوف والقلق بالسلوك غير اللائق تؤدى الى كفه . وهذا الكف يميل الى التعميم ليشمل الانماط السلوكية غير اللائقة الأخرى والتى يطلق عليها الآباء أنماط سيئة . وهكذا ففى النمو السوى ينشأ النسق الخلقى والذى نسميه ضميرا عن طريق الاشتراط الكلاسيكى وفى الاضطرابات من النمط الثانى ، يخفق الاشتراط وتظهر انماط سلوكية مختلفة مثل الكذب المتأصل والشخصية السوسيوباثية (التى تنحصر اضطراباتها فى مجال علاقاتها الاجتماعية ، والمعادية للمجتمع) والتبول اللاارادى الليلى.

وثمة نمط ثالث من الاضطرابات يعالجه ايزنك باعتباره فئة فرعية خاصة من النمط الثانى من الاضطرابات وينمو حين يعزز الفرد بسبب سلوكه غير اللائق كالفتشية وغيرها من الانحرافات الجنسية . (Wolman 1977)

التعلم والعلاج السلوكى :

الأعراض العصابية يتم تعلمها عن طريق عملية الاشتراط . فاذا أردنا التخلص من هذه الأعراض العصابية المكتسبة فلا بد أن نبحث عن الوسائل التى تساعد على حل الروابط الشرطية أو الاقتران السىء التوافق . وترتبط بعض خصائص الشخصية على نحو مباشر بالاشتراط . يختلف الأفراد فى سرعة اكتساب الاستجابات الشرطية ، كما يختلفون فى قوة هذه الاستجابات المعتادة ومقاومتها للتفكك ولقد اتضح لايزنك من خلال دراساته أن الاشخاص المنوطين يتميزون بسرعة اكتساب الاستجابات المعتادة وبقوتها ؛ أما المنبسطون فانهم ضعاف فى الاشتراط واكثر ميلا او استعدادا لفقدان الاستجابة الشرطية حيث لا تتوافر الاثابة ومعنى هذا أن الأشخاص العصابين تكوينيا والذين هم على درجة مرتفعة من الانطواء يكتسبون الأعراض الدالة على سوء التوافق أكثر من العصابيين المنبسطين .

وهكذا يشعر ايزنك بضرورة استخدام نظرية التعلم ليعيد بناء السلوك الانسانى لان اساليب العلاج النفسى سواء اكانت فرويدية أو فرويدية جديدة قد دخلت طريقا مسدودا ، رغم محاولاتها تحقيق أهدافها . ولما كانت الفرويدية غير متسقة ولا تستطيع توليد استنباطات قابلة للاختبار ، فانه قد آن الآوان لفحص السلوك الانسانى ومشتقاته فى الاطار الكامل لما تم عمله فى نظرية التعلم . وهو يستخدم النماذج النظرية عند بافلوف وثورنديك وتولمن وجثرى وهل ، كما انه يشيد بأعمال مورر وسبنس وخاصة واطسن. ويلخص ايزنك فكرته عن العلاقة بين الاشتراط والعصاب فيقول : « اننا متى ما وافقنا على أن التعلم والاشتراط اداة لتحديد الأنواع المختلفة من ردود الفعل التى تصدر استجابة للاثارة البيئية فاننا سنجد أن من الصعب جدا أن ننكر أن ردود الأفعال العصابية ردود افعال متعلمة كغيرها ، وينبغى أن تطيع قوانين التعلم » . (Behavior Therapy and Neuroses, p. 5)

لقد كان ايزنك يأمل فى التوصل الى تنبؤات افضل ومؤشرات افضل لفهم بناء الشخصية وديناميتها . والمفهوم الأساسى عند ايزنك فى هذا المجال كما بينا من قبل هو قابلية الكائن الحي للاشتراط . والتعلم عامل قوى ومؤثر فى الشخصية الانسانية فالفرد لا يتعلم أن تكون له شخصية فحسب، بل أنه حين يعاد بناؤها وتكوينها فان ذلك يتم وفقا لقوانين التعلم وخاصة تلك التى سلم بها بافلوف وهل .

واهتمام ايزنك بنظرية التعلم ودورها فى اعادة بناء الشخصية يظهر فى اسهامه فى نشر مجلة علمية بعنوان Behavior Research and Therapy

وقد بدأت فى الظهور عام ١٩٦٣ وهى مجلة دولية ومتعددة الحقول ويشارك فى تحريرها مورر ، وولب ويهتم ايزنك على وجه الخصوص بنظرية العاملين عند مورر والخاصة بتغيير السلوك .

وقد نشر ايزنك بعد أن قدم مفهوم العلاج السلوكى بخمس السنوات كتابا بعنوان « أسباب العصاب وعلاجاته » The Causes and Cures of neuroses وفى هذا الكتاب يحاول ايزنك وراشمان Rachman محاولة جادة ترجمة النتائج التجريبية الى تطبيقات كلينيكية ، معتمدا اعتمادا كبيرا

على نظرية الاشتراط . ولم تكن نقطة التركيز كيف أصبح الشخص على ما هو عليه ، وانما على كيف يقوم السلوك بوظيفته حاليا . ولقد قسم الاضطرابات الى مجموعتين ، تلك التى تم فيها تعلم عادات خاطئة على أساس الخوف الشرطى ، والتى لم يتم تعلم العادات القيمة فيهـا . أو أن العادات الخاطئة قد تعلمت اداتيا وليس لتجنب الخوف والمجموعة الأولى تتطلب اجراءات انطفاء أما الثانية فتتطلب تكوين الارتباطات بين المثير والاستجابة التى تنقصنا ، والعلاج لا يسعى الى تغيير السلوك المضطرب فحسب ، بل الى دعم تنمية الأنماط السلوكية الفعالة البديلة .

(Ford and Urban, 1967)

وترتيبا على ذلك فان ايزنك وراشمان يشعران أنه ينبغى على المعالج أن يصمم العلاج بحيث يلائم كل مريض أو عميل ولا يصمم بحيث يتلاءم جميع المرضى أو العملاء مع نسق فى العلاج بملامحه الشاملة . وعلى الرغم من أن نظرية التعلم عند البعض كما يعبر عنها العلاج السلوكى نسق شامل ، فان ايزنك يرى أن الاتجاه العام للعلاج السلوكى فردى بدرجة عالية . فكل عميل أو مريض يتطلب نموذجا فرديا يحلل فى اطاره مشكلاته الانفعالية .

البحوث المميزة وطرق البحث :

ان ايزنك مبتكر فى الطرق التى يستخدمها فى دراسته للشخصية الانسانية . وطرقه كثيرة ومنوعة ولكنها جميعا تتجه لدراسة العلاقة بين السلوك ، والانطواء — الانبساط ، والعصابية — السواء ، والذهانية — السواء . ولقد استخدم خلال سنوات طويلة طرقا منوعة لدراسة متغيرات كثيرة منها : اشراط جفن العين ، الاستجابة الجلفانية للمثير ، تقدير الذات على مقاييس متدرجة ، افراز اللعاب ، التدخين ، الرسم فى المرآة ، الرؤية فى الظلام ، القدرة على أرجحة الجسم ، النكات ، والرسوم الكاريكاتيرية ، ودراسة الخط ، والتنويم المغناطيسى وطرائق أخرى ، هذا فى مجال الانسان ، كما درس الحيوان أيضا . وهذه القائمة من الطرق تدل على مدى اتساع منهجه فى البحث .

وطريقة ايزنك الأساسية طريقة فرضية استدلالية ، أى أنه يضع

الفروض ثم يختبرها استدلاليا . وهو يرى أن النظرية الفرضية الاستدلالية تقوم على « الجهد العلمى الذى يحاول تخطى الامبيريقية الخالصة والاستقراء البسيط الى افتراض القوانين والنظريات العامة والاستدلال منها على كل من العواقب الملحوظة وغير الملحوظة بعد ... وتكمن القيمة التى يمكن ان تقدر بها النظرية فى التوصل الى مثل تلك الاستدلالات واختبارها،ومن خلال هذا النوع فحسب من الاجراءات التجريبية يمكن انجاز تلك التحسينات وتحقيق مزيد من التعقيد دون الاقلال من الدقة » (ايزنك ١٩٥٥ ص ٤٧) (هول ولندزى ترجمة فرج واعوانه ص ٥٠٤) .

ولقد جمع ايزنك بين طرق القياس النفسى وبين الاجراءات الكلينيكية، كما انه استخدم المقاييس التجريبية بغية التقليل من اخطار الذاتية مع مراعاة تطبيقها على اعداد كبيرة والاستعانة بالتحليل العاملى لتحاشى ضيق النظرة التى تميز التجريبيين يقول ايزنك « ينبغى أن ترتكز البحوث على اساس متسع قدر الامكان يشمل التقديرات والتقديرات الذاتية واختبارات السلوك الموضوعية والتقديرات البدنية والقياسات اللاارادية وغيرها من المقاييس الفسيولوجية المناسبة ، والسيرة الذاتية وغيرها من المعلومات التاريخية ، وكذلك بالتاكيد جميع انواع المعلومات الواقعية والموضوعية التى قد تستخدم لتدعيم الفروض موضع الفحص » (١٩٥٣ ، ص ٣١٩) . (المرجع السابق ص ٥٠٥) .

وايزنك مثله فى ذلك مثل كاتل وجيلفورد يفضل التحليل العاملى فى معالجته للبيانات التى يجمعها وهو يختلف عن كاتل ويقترب من جيلفورد من حيث انه يفضل أن يركز على المستويات العليا من التجريد حيث يتجاهل العوامل من المرتبة الأولى التى تظهر عند تحليل البيانات التى جمعها عن الشخصية . وهذا معناه أن ايزنك يستخلص عاملين او ثلاث فى حين أن كاتل يستخلص عشرين عاملا أو قد تزيد عن ذلك ويتوقف هذا على المواد الخام التى يستخدمها وهناك فرق أساسى بين هذين المنظرين ذلك ان كاتل يفضل محك التدوير وصولا الى تكوين بسيط وكثيرا ما يكون مثلا . وكاتل يشعر أنه بذلك يقترب من الطبيعة الحقيقية لبناء الشخصية . ويعتمد ايزنك

من ناحية أخرى على التدوير المتعامد على محكات خارجية أخرى . وهكذا يقول كلاين Klein

« ان نتيجة الفرق الأول تشرح لنا الفـــرق الثانى ، ذلك لانه لما كان التدوير الى تكـــوين بسيط يؤدى عادة الى عوامل من المرتبـــة الأولى مائلة ومترابطة ، فانه يمكن مرة أخرى أن نحللها عامليا للحصول على عوامل من المرتبة الثانية وهكذا ، حتى نصل الى عوامل من مرتبـــة أعلى وهى أما أن تكون غير مترابطة أو قليلة جدا بحيث لا تسمح بمزيد من التحليل العاملى . وهكذا فان الفرق الظاهر فى عدد العوامل ليس الا مجرد فرق فى المستوى والعاملان الأساسيان عند ايزنك هما العصابية ، والانطواء — الانبساط يظهران كعوامل من المرتبة الثانية فى تحليلات كاتل للبيانات اللفظية وهكذا يتطابق النظامان بالفعل » (Klein et al , 1967)

وخلال سنوات طويلة استمر ايزنك فى التثبت من صدق أفكاره وفى جمع بيانات باستخدام اختبارات قرطاسية سماها مقياس مودزلى للشخصية Maudsley Personality Inventory MPI . وقد تم التثبت المبدئى من صدق هذه الاداة فى الفترة من ١٩٥٩ الى ١٩٦٢ م . ولقد صممت هذه الاداة فى الأساس لقياس العصابية ، والانطواء — الانبساط.ولقد قام ايزنك بمساعدة زوجته سيبيل Sybil باعداد نسخة مطورة من هذه الأداة سماها EPI قائمة ايزنك للشخصية Eysenck Personality Inventory وتتألف من ٤٨ بندا (٢٤ منها تقيس عامل العصابية ، ٢٤ بندا أخرى تقيس عامل الانطواء — الانبساط) والمقياس الجديد يرتبط ارتباطا عاليا بالمقياس السابق ومع ذلك فانه يتميز عنه بما يأتى : —

(أ) ان القائمة EPI تتكون من صورتين متكافئتين مما يجعل فى الامكان اعادة التطبيق بعد معالجة تجريبية لاى فرد أو مجموعة من الأفراد دون أن تتدخل عوامل التذكر .

(ب) ان اسئلة القائمة MPI قد اعيدت صياغتها بعنـــاية بحيث يفهمها الأقل تعليما وذكاء .

(جـ) ان الارتباط بين الانبساط والعصابية على الاختبار القديم كان صغيرا ، ولكنه يقارب مستوى الدلالة الاحصائية ولكن هذا الارتباط اختفى فى القائمة الجديدة .

(د) ان الاختبار الجديد يحتوى على مقياس للكذب يمكن ان يستخدم للتخلص ممن يملن الى اختيار الاجابات المستحسنة اجتماعيا .

(هـ) تتوافر ادلة مباشرة على صدق الأداة EPI كأداة وصفية للمظاهر السلوكية للشخصية (ايزنك : كراسة تعليمات ، قائمته ص ٣) .

ويرى مؤلفا الاختبار أن المحك الصادق الوحيد لتقويم EPI , MPI هو القدرة على التنبؤ خارج الدائرة المغلقة للتحليل العاملى ، اى فى مجال التجارب العملية . وهكذا فانهما لا يريان انه يمكن قياس الشخصية على نحو تام باستخدام الاختبارات القرطاسية . وهذان المقياسان متشابهان من حيث انهما يصفان السلوك ولا يكشفان عن اسبابه . ويؤكد ايزنك على انه من الضرورى ان نحاول فهم الشخصية عند المستوى الوراثى ، الأمر الذى يتطلب التوصل الى نظريات تتناول البيئة ويمكن أن نلاحظ على اساسها العناصر الوصفية وان تختبر لنتثبت من صحة هذه العلاقة العلية بين العوامل الوراثية والأنماط السلوكية .

ان البحث العلمى منهجا وموضوعا هدفه فهم السلوك الانسانى والتنبؤ به فما الذى تقدمه نظرية ايزنك فى هذا المجال ؟

التنبؤ الشخصي :

قد يجيب الفرد على بعض اختبارات ايزنك اذا اراد ان يتنبا بسلوكه ، وهذه الاجابات وتصحيحها وتفسيرها تساعده على تقدير ذاته الفينومولوجية او الخبراتية . وهذا الاجراء لن يوافق عليه ايزنك من حيث المبدأ بدرجة كبيرة . وهكذا فاننا فى حيرة حين نقترح شيئا فيما يتصل بالتنبؤ الشخصى عند الفرد ولعل القارىء او الدارس نفسه يتوافر لديه قدر كبير من الاصالة والابتكار فى هذا الصدد كما يقول روجرز .

التنبؤ العلمى أو المعملى :

ان تنبؤ ايزنك بالسلوك الانسانى يقوم أساسا على المنهج الناموسى الذى يستخدمه فى تجاربه العلمية والتى بدأ يجربها من أواسط الأربعينات ولعل من الأفضل أن نعرض بعض نتائج باحثين آخرين تدعم نتائج ايزنك أو تعارضها . وسنعرض أولا خلاصة لعدد من الدراسات التى أسفرت عن نتائج تتسق مع نتائج دراسات وتجارب ايزنك فيما يأتى : —

١ — فى دراسة للشخصية والكلام لدى المنبسطين والمنطوين وجد أن المنبسطين يستخدمون فى أحاديثهم أصواتا أعلى وفترات صمت اقصر فى أنماطهم الكلامية وهذه النتيجة تدعم الى حد ما نظرية ايزنك .
(Ramasy, 1966)

٢ — درس جوتيسمان Gottsman ٣٤ من التوائم المتماثلة ، ٣٤ من التوائم الأخوية ، طبق عليهم اختبار الشخصية المتعدد الأوجه MMPI واختبار كاتل للمرحلة الثانوية Cattell's High School Personality Quiz كما استخدم عددا من المقاييس الأخرى المختلفة كعدد خطوط بصمات الأصابع والصور وفصائل الدم ، وحلل هذه البيانات عامليا وتوصل الى عامل من المرتبة الثانية للانطواء — الانبساط مما يعتبر تدعيما لنظرية ايزنك فيما يتصل بقابلية العوامل للوراثة .

٣ — وفى دراسة أخرى لم تستخدم مقاييس ايزنك استهدفت التثبت من صدق مقياس كاليفورنيا النفسى California Psychological Inventory واستخدمت اختبار كاتل للشخصية (١٦ عامل) مع تقديرات للسلوك اتضح أنه على الرغم من أن الارتباطات بين المقاييس الأربع وثلاثين لم تكن مرتفعة جدا ، الا انه ظهر على مستوى تحليل العوامل من المرتبة الثانية ما يدعم صدق وجود عاملين أساسيين فى الشخصية وهما الانبساط — الانطواء والعصابية (Mitchell, 1963)

٤ — لقد استمر ايزنك فى الهجوم على العلاج النفسى وطرائقه التقليدية باعتبار انها لا تحقق نتائج افضل مما يحدث لو تركت الأمور للصدفة .

وفى محاولة قام بها كيسلر Kiesler ليثبت بطلان البرء التلقائى ، توصل الى ما يقترب من تدعيم نتائج ايزنك فيما يتصل بالعلاج ، والى أن الأنماط التقليدية فى العمليات العلاجية أخفقت فى تحقيق أهدافها. (Kiesler, 1966)

٥ — ولقد قرر ايزنك أن تذكر المنبسطين يتحسن بعد فترات الراحة وبعد ممارسة متجمعة على نحو افضل من المنطوين وذلك بسبب ما تتصف به المجموعة الأولى من مستوى عال من الكف . ولقد ثبتت صحة هذه النتيجة . (Stor, 1963)

والدراسات السابقة ما هى الا قل من كثر يدعم نتائج بحوث ايزنك وأفكاره . غير أن هناك بحوثا اخرى وشواهد مستمرة من التجريب والبحث العلمى تنقض ما توصل اليه وما ذهب اليه ايزنك فى مجال الشخصية ومنها :

١ — تناقش انستازى طريقة تحليل المحك التى يستخدمها ايزنك فى بحوثه . وطبقا لهذه الطريقة يبدأ الباحث بفرض يتعلق بمتغير أو عامل معين ثم ينتقل الى اعداد مجموعة من المقاييس التى يفترض ارتباطها بهذا العامل الكامن . وبعد ذلك عليه أن يستخرج الدرجات التى تحصل عليهما مجموعتان متضادتان من حيث درجة هذا المتغير . اى انه ينبغى على الباحث أن يطبق المقاييس على عدد من المفحوصين بالطريقة التقليدية وأن يوفر جماعات المحك ، اى جماعات تحصل على درجات على هذا المتغير الفرضى تختلف اختلافا واضحا . ثم يحسب الارتباط بين كل اختبار فردى وبين الثنائى الذى يميز بين المجموعتين dichotomy وبذلك نحصل على مقياس لكل اختبار يوضح مدى ارتباطه بالتمييز الذى تشير اليه جماعات المحك ، اى مدى حساسية الاختبار لهذا المتغير على وجه الخصوص. (هول ولندزى : ترجمة فرج وآخرين . ص ٥٠٥) .

وهى فى مناقشتها لتحليل المحك فى كتابهـا الكلاسيكى القياس النفسى ١٩٦١ م Psychological Testing تشير الى ان الباحث فى اطار النسق الفرضى الاستدلالى يميل الى ان يتوصل الى ما يستهدفه

التوصل اليه واكتشافه . فاذا كان لديه فرض فانه يخطط الدراسة لكى يختبر ذلك الفرض . ولقد بدأ عمل ايزنك الأصلى بوصفه للجنود العصابيين ، وفى التقنيين النهائى لاختباريه : اختبار مودزلى وقائمة ايزنك أضاف بيانات مأخوذة من عشرة آلاف مفحـــوص آخرين الى ما لديه من بيانات . ولكن انســتازى تشــعر ان تتســيم الناس على أساس عاملين ، أى تقسيما ثنائيا عمل غير مشروع . ولن يدهشنا انك اذا وضعت قدرا قليلا من المعلومات فى التحليل العاملى نسوف تحصل على قدر قليل من المعلومات منه .

٢ — ان عمل سبنس ينقض ما ذهب اليــه ايزنك من أن الانبســاط — الإنطواء يرتبط بالقابلية للاشتراط والانطفاء .

٣ — على الرغم من تصدى الكثيرين لتنفيذ انتقادات ايزنك للعلاج النفسى ونتائجه الا أن من أبرزهم روزنزويج Rosenweig لانه قدم عرضا من أفضل العــروض التى تدلل على اهميــة العلاج النفسى للســلوك الانسانى .

٤ — لقد كتب آدامز Adams ست عشرة صفحة لنقض موقف ايزنك وفكره فى مجال الدافعية وتناقص الاحماء فى الاستجابة للعمل .
(Adams, 1961)

٥ — اعاد فرانكس تجربة لاشراط اغماضة العين باستخدام عينة صغيرة واسفرت نتائجها عما يناقض ما وصل اليه ايزنك ، كما بينت أن اسلوب الاستخبار اسلوب خاطىء من حيث ارتباطه باشراط اغماضة العين .
(Bischof, pp. 502-504)

٦ — ان من بين الانتقادات التى تعرض لها ايزنك فيما يتصل بعمله عن العقاقير وتاثيرها على الكف اللحائى ، ويحتمل ان يكون من اقواها ما قدمــه جريس فى كتاب « آفاق علم النفس » . حيث يقول : « ان العمل فى الوصول الى تنبؤ معين بالعلاقة بين الانسان والدواء والاختبار قد يعود الى سوء تصنيف أحد هذه العوامل او جميعها ، وخاصة اذا كان

التنبؤ يعتمد على استنتاجات تدور حول الأسس الفسيولوجية للظواهر النفسية ، ومواقع النشاط الذى تقوم به العقاقير والمراكز والمسارات التى تتعلق بأنواع الأداء المختلفة ومن بين هــذه النواحى الثلاث فان مواقع نشاط العقاقير والطرق التى تتخذها هى وحدها التى يمكن ان نستخدم معها ما يشبه الملاحظة المباشرة،وتؤكد الشواهد التى تتوافر لدينا أنه لا معنى لتصنيف العقاقير الى « منبهات » و « مسكنات » بالمعنى النيرولوجى رغم أن لهذا فائدته عند الحديث عن الســـلوك الكتلى . وحين يمكن تحديد وحدات السلوك — كأن تكون مثــلا فى صورة عدد القرارات التى يتم اتخاذها أو عدد الكلمات المنطوقة فى وحدة زمنية — يمكننا ان نحـــدد ما اذا كان العقار يــؤدى الى زيادة النتائج أو نقصها . ومن المؤكد أن العقار نفسه قد يــؤدى الى زيادة الناتج فى وحدة معينة ويؤدى الى نقصه فى وحدة أخرى متشابهة معها ظاهريا،ومن ذلك مثلا ان بعض المهدئات تؤدى الى اختزال بعض حركات التهيج وتستثير حركات اخرى لا ارادية » (فوس ، ترجمة : أبو حطب ، ص ٣٢٠) .

المكانة الراهنة والتقويم :

لقد كان الأمل كبيرا فى أن تثبت نظرية تحليلية عاملية تركــز على عدد قليل من العوامل من المرتبـــة الثانية جدارتها ومصداقيتها اذا قورنت بنظرية كنظرية كاتل للسمات ولكن هذا الأمل تعرض لعدد من المخيبات . ذلك ان القول بالطبيعة الوحدوية للبعدين الانبســـاط — الانطــواء ، والعصاب — السواء لم يثبت امام الشواهد التجريبية التى اشتقت فى الأصل من النظرية . ولقد تزايد اقتناع ايزنك باهمية بلورة بعد ثالث هو الذهانية فى الشخصية السوية وهناك من المؤشرات التى تلمح لبعد رابع . ومهما يكن من شىء فان استقلالية الأبعاد الواحد عن الآخر التى ادعاها ايزنك لم تظهرها البحوث دائما .

(Peck & Whitlow 1975, pp. 77)

ولقد تعرض موقف ايزنك القائل بأبعاد ثلاثة لنقد عنيف من الباحثين فى نفس المجال الذين حاولوا ابراز بناء الشخصية على مستوى العوامل

الأولية ، من أمثال ريموند كاتل وأعوانه. وهم يذهبون الى أن الشخصية الانسانية خصبة ومعقدة بحيث لا يمكن أن نصفها ولا أن نفهمها على أساس عاملين أو ثلاث وأن مثل هذا الفهم لا يساعد على التنبؤ بسلوك الفرد ويذهب كاتل الى اننا يمكن أن نميز بين العصابيين والأسوياء على أساس مجموعة من العوامل وليس على أساس اختلافهما بالنسبة لعامل واحد . ودراسات كاتل تؤكد على أن العصابية حالة معقدة موقفيا ومحددة نشوئيا،أى أن هذه الدراسات تؤكد نظرية للعصاب ذات عوامل متعددة وهذا يخالف ما توصل اليه ايزنك وما ينادى به (د . أحمد عبد الخالق ، ١٩٨٣ ، ص ١٥٥ — ١٥٦) .

— أن تنبؤات ايزنك عن العلاقة بين الانبساط والاشتراط أدخلته فى صراع نظرى مع بعض الباحثين الأمريكيين الذين يعملون فى اطار نظرية هل — سبنس الذى يرى أن الاشتراط يتصل بالحافز. ولقد وضع مقياس القلق الظاهر Manifest Anyiety Scale على يد تلامذة سبنس لقياس الحافز الذى ينبغى أن يتصل بظاهرات الاشتراط المختلفة. ولقد شكلت البحوث التى تناولت هذه العلاقة جزءا هاما من عمل سبنس المتأخر فى حياته . وكان تفسير سبنس معارضا لتفسير ايزنك فى هذه المسألة . لقد قرر سبنس أن معدل الاشتراط والانطفاء يرتبط بالحافز أو القلق . بينما رأى أيزنك (١٩٦٢) أن معدل الاشتراط والانطفاء يتناسب مع الانبساط — الانطواء وليس القلق. ونتيجة لهذا الخلاف فى الموقف النظرى قام سبنس ١٩٦٤م بتجارب قرر بعدها أنه لم يجد ارتباطا بين درجات الانبساط (عند ايزنك) ومعدل الاشتراط . وانما وجدا ارتباطا بين الدرجات على مقياس القلق الظاهر والدرجات على مقياس العصابية . وقام دافيدسن وبين وسلون عام ١٩٦٤ Davidson, Payne and Sloon

بتجربة فى محاولة لحسم هذا الخلاف وتوصلوا الى نتائج تدعم وتؤيد موقف سبنس وتناقض ما توصل اليه ايزنك من ملاحظات فيما يتصل بالاشتراط . ولقد حاول لوفيند Lovibond عام ١٩٦٤ بعد أن محص الجدال الدائر ، ثم الأدب السيكولوجى أن يوفق بين مدخل كل من سبنس وايزنك .

ـ ونظرية ايزنك فى أضعف مواقفها عند تناول عملية التطبيع الاجتماعى . ففى غيبة الشواهد والأدلة القاطعة الدالة على أن المنطوين يتعلمون بالاشتراط على نحو أسرع من المنبسطين، فايس لدينا سند قوى لاصدار تعميمات عريضة عن تنمية الأنماط السلوكية الاجتماعية لدى هاتين الجماعتين على أساس الاختلاف فى قابليتهما للاشتراط . وهذا يعرض ايضا محاولات ايزنك للربط بين السلوك الاجتماعى والعوامل البيولوجية للمزالق . هذا فضلا عن أن ايزنك يبالغ فى التأكيد على دور الاشتراط الكلاسيكى فى عملية التطبيع الاجتماعى ويهمل أهمية متغيرات التعلم الاجتماعى .

وفى ضوء الوضع الراهن للبحوث فى الشخصية من الطبيعى لنظرية واضحة المعالم كنظرية ايزنك أن تنقح وتراجع كلما ظهرت شواهد علمية جديدة تقتضى هذا التنقيح وما تزال النظرية مفيدة فى توليد تنبؤات قابلة للاختبار ، ولو انها لم تستطع أن تستوعب بعض ما كشفت عنه الشواهد التجريبية ، كما اتضح من بعض البحوث التى أسفرت عن نتائج تخالف النظرية . ومع ذلك فان نظرية ايزنك تزودنا بنموذج مفيد للفروق الهامة التى نجدها بين جماعات الأفراد . وتحتاج النظرية الى اهتمام اعظم بالمبادىء الأخرى وخاصة التعلم الاجتماعى والعوامل المعرفية الى جانب الذكاء ، قبل أن يتوقع أن يكون لها تطبيق اوسع يساعدنا على فهم السلوك الفردى .

ويبدو أننا فى الوقت الحاضر لا نستطيع أن ندافع بقوة عن اقتراحات ايزنك القائلة بانه ينبغى على الأطباء النفسيين وعلى المتخصصين فى التربية والمتخصصين فى رعاية الجانحين أن يقيموا توصياتهم فيما يتصل بالعلاج والتعلم والرعاية على أساس قياس الانبساط والعصابية والذهانية . وقد تفيد الاستخبارات التى وضعها ايزنك وتقدم عطاءها للباحثين فى مجال الشخصية ولكن قيمتها العملية سواء بالنسبة للجماعات أو للأفراد ما تزال فى حاجة الى البرهنة عليها . وعلى الرغم من هذه التحفظات يبدو أن أساسيات نظرية ايزنك مصدر مثمر وخصب يستمد منه الباحثون فى مجال الشخصية افكارا وفروضا ليواصلوا ابحاثهم .

واعل أفضل طريقة لتلخيص العمل العلمى والعملى الذى قام به ايزنك

ان نقتبس من مقال كلاين وزميلاه Klein, Barr & Wolitsky فى المجلة السنوية لتقويم علم النفس عام ١٩٦٧ .

Annual Review of Psychology, 1967, 18, 503

« كيف تقوم نظريات ايزنك اذن ، والكم الضخم من البحوث التى أثارته هذه النظريات ؟ ان هذه النظريات تمثل قفزة من مستويات أعلى فى العمل الى مستويات أعمق . ويبدو أن كثيرا من النتائج التى ظهرت فى التقارير العلمية وخاصة التى قدمها ايزنك وتلاميذه تؤيد هذه النظريات. غير أن هناك على أية حال كثير من النتائج المتضاربة التى كثيرا ما يغفلها دون تدقيق كاف . واوضح قصور هو ما ظهر فى الدراسات الفسيولوجية التى تعالج على نحو مباشر بدرجة أكبر المسائل التى يتصدى لدراستها . وقد تتحقق هذه فى المستقبل مع زيادة المعرفة فى هذا المجال . وتمثل دراسة العقاقير محاولة فى هذا الاتجاه . ومن الجوانب المشجعة بالنسبة لنا أن النتائج المتضاربة دفعت ايزنك لا الى توضيح مفاهيمه ، بل الى تقصى الأبعاد ذات العلاقة فى أعماله المعملية » .

الفصل الحادي عشر

سكنر B.F Skinner

ولد ب ف سكنر فى ٢٠ مارس ١٩٠٤ م . فى احدى مدن بنسلفانيا الصغيرة وكان أبوه يمارس المحاماة . ويذكر أنه أمضى سنواته المبكرة فى بيئة مستقرة تتسم بالدفء والمودة وان تعلمه كان موضع تقدير وكان يتلقى الاثابة على اجتهاده كلما استحقها . يقول عن نفسه : « لم يعاقبنى أبى قط عقابا جسيما ، وقد عوقبت مرة واحدة على يد أمى عقابا جسيما . لقد غسلت فمى بالصابون والماء لاننى استخدمت كلمة بذيئة . ولم يضيع والدى فرصة قط لكى يذكرنى بالعقاب الذى ينتظرنى اذا اصبحت ذا عقلية اجرامية . ولقد اصطحبنى ذات مرة الى سجن الأقليم ، كما اصطحبنى فى احدى العطلات الصيفية للاستماع الى محاضرة تصف الحياة فى سجن سنج سنج مع التوضيح بالشرائح الملونة . ونتيجة لذلك فانى أخاف الشرطة واشترى كثيرا من تذاكر حفلهم السنوى الراقص » (Skinner, 1967, pp. 390-391).

ولقد قضى سكنر وهو صبى ساعات كثيرة يصمم اشياء مختلفة وأدوات ويصنعها ، كالعربات ، والطائرات الورق ، والبنادق ونماذج الطائرات وما شابه ذلك . ولقد عمل سنوات فى تصميم آلة متحركة وأخفق فى ذلك . يقول : « بعض الأشياء التى صنعتها كان لها تأثير على السلوك الانسانى .. ففى كل صباح وبينما كنت اتناول طعام الافطار ذات مرة بدأت امى حملة لتعليمى أن أضع ثوبى على المشجب . وفى كل صباح واثناء تناولى طعام الافطار كانت تذهب الى حجرتى وتتبين أنى لم أعلق ثوبى فى موضعه وتنادى على لاسرع فى الصعود . ولقد استمرت تعمل هذا أسابيع . وعندما اصبحت الاثارة المنفردة لا يستطاع تحملها ، صنعت أداة ميكانيكية حلت مشكلتى . لخطاف خاص فى خزانة الملابس بغرفتى يتصل بخيط وبنظام للجذب بلافتة معلقة فوق باب غرفتى . وحينما يكون ثوب نومى فى مكانه على الخطاف تكون اللافتة فى موضع مرتفع فوق باب الغرفة ولا تعترض طريقى للخروج منها . وحينما يكون الثوب غير معلق تتدلى اللافتة فى منتصف مدخل الباب وقد كتب عليها « علق ثوبك على الخطاف » .

ولقد تكسب سكنر خلال دراسته فى المرحلة الثانوية بعض المال

بقيامه بأعمال متنوعة من قبيل العزف فى فرقة موسيقية واعداد لوحات اعلانات . ولقد بين فى كتاباته عن نفسه أنه أحب المدرسة وتعلم تعلما سليما من عدد قليل من المعلمين البارعين فى الأدب والرياضيات والعلوم الطبيعية .

ولقد حصل سكنر على درجة البكالوريوس فى الأدب الانجليزى عام ١٩٢٦ م من كلية هاميلتون Hamilton College فى ولاية نيويورك . وهو يلاحظ أنه فى الحقيقة لم يتوافق قط مع حياة التلمذة فبالاضافة الى خيبة أمله فى قصور اهتمامات زملائه من الطلاب فى النواحى العقلية والفكرية ، فانه ضاق ذرعا ببعض ما يتطلبه المنهج التعليمى . ولقد أدت مشاركته فى عدد من المواقف لاحراج بعض أعضاء هيئة التدريس المغرورين المتعالين الى تهديد عميد الكليه له بالفصل ، غير أنه سمح له بمواصلة التعليم حتى تخرج . ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن سكنر لم يدرس أيا من مقررات علم النفس فى المرحلة الجامعية الأولى .

وبعد تخرجه من الكلية عاد سكنر الى بيت الأسرة وكان فى ذلك الوقت فى سكرانتون Scranton فى ولاية بنسلفانيا . وحاول أن يتخذ الكتابة حرفة له . ولقد تلقى خطابا تشجيعيا من الشاعر المعروف روبرت فروست Robert Frost فهيأ مكانا مناسبا ليعكف فيه على ممارسة الكتابة ، ولكن النتيجة كانت مخيبة لآماله فتوقف عن المحاولة وانتقل الى مدينة نيويورك وكتب سكنر عن هذه الفترة قائلا : « لقد اخفقت ككاتب لانه لم يكن لدى شىء أقوله ، ولكنى لم استطع تقبل هذا التفسير . لا بد أن الأدب هو المخطىء ... فقد يصور الكاتب السلوك الانسانى تصويرا صحيحا ، ولكنه عندئذ لا يفهمه . وكان على أن أبقى مهتما بالسلوك الانسانى ولكن طريق الأدب قد أدى بى الى الاخفاق ، وكان على أن اتحول الى طريق العلم » .
(Skinner, 1967, p. 395)

ولقد التحق سكنر ببرنامج الدراسات العليا فى علم النفس وحصل على درجة دكتوراه الفلسفة عام ١٩٣١ وعمل لمدة خمس سنوات فى مدرسة الطب بجامعة هارفرد يجرى بحوثا على الجهاز العصبى للحيوانات . وبدأ عمله فى التدريس فى جامعة منسوتا عام ١٩٣٦ حيث درس مقدمة علم

النفس ، وعلم النفس التجريبى . وبقى هناك حتى عام ١٩٤٥ م . وقد لاحظ بفخر أن عددا من طلابه واصلوا الدراسات العليا فى علم النفس وأصبحوا من مشاهير علماء النفس السلوكيين .

ولقد نشر عام ١٩٣٨ كتابه سلوك الكائنات الحية The Behavior of Orgamism الذى أرسى مكانته كمنظر له وزنه فى مجال التعلم وكان أساسا لكتاباته التالية .

وفى عام ١٩٤٥ انتقل الى جامعة انديانا وأصبح رئيسا لقسم علم النفس بها حتى عام ١٩٤٨ حين عاد الى هارفرد ليبقى هناك بعد احالته الى التقاعد .

وفى عام ١٩٤٨ نشر رواية بعنوان Walden Two . وكانت وصفا لبيئة مثالية تقوم على المبادىء السلوكية للتعلم. ولقد حاول سكنر أن يعمم المبادىء التى استخلصها من تجاربه المعملية على المواقف الانسانية . ولقد أصبح الكتاب منذ ظهوره مثار جدال كبير وبيع منه ما يزيد على مليون ونصف من النسخ . ولقد كانت كتابته خبرة مثيرة . كتب سكنر يقول : « بصفة عامة فانى أكتب ببطء شديد ولقد استغرق ذلك دقيقتين عن كل كلمة كتبتها فى رسالتى وما يزال هذا هو معدلى ، أى اننى بعد عمل يستغرق ما بين ثلاث وأربع ساعات انتهى فى النهاية من كتابة مائة كلمة قابلة للنشر »
(1967 a, p. 403)

وكان هذا مخالفا لما حدث فى كتابته لروايته حيث كتب قائلا : « لقد كتبت اليوتوبيا فى سبعة أسابيع . لقد كنت اكتب فصلا قصيرا فى صباح واحد ... وكنت اكتب على الآلة الكاتبة مباشرة ... واعدل فى حالات قليلة ... ولقد كتبت بعض الأجزاء بانفعال شديد لم اخبره قط فى اى وقت آخر » (1979 a, pp. 297-298) ولقد كان واضحا بدرجة معقولة انها مغامرة فى علاج الذات حيث كنت أكافح للتوفيق بين جانبين من سلوكى يمثلهما بيرس Burris وفريزر Frazier (شخصيتان فى الرواية) . (1967 a, p. 403)

ولقد كتب سكنر سلسلة من الكتب بلورت موقفه الفكرى والايديولوجى

ووسعت اطار عمله الى آفاق واسعة بعيدا عن البدايات التجريبية ومن هذه الكتب : « العلم والسلوك ١٩٥٣ ، وتكنولوجيا التدريس ١٩٦٨ وما بعد الحرية والكرامة ١٩٧١ وتأملات فى السلوكية والمجتمع ١٩٧٨ . كما ارخ لحيـــــاته .

ولقد ادى ظهوره فى وسائل الأعلام الى المساعدة فى نشر أفكاره . هذا فضلا عن أن لمدرسته اتباع ومؤيدون وظهرت تطبيقات لأفكاره فى مجالات الحياة والعمل المختلفة .

مسلمات اساسية :

يسلم سكنر بثلاث مسلمات يشيع التسليم باثنتين منها فى علم النفس بصفة عامة والمسلمة الأولى : هى أن السلوك قانونى . بمعنى أن الباحث يحاول أن يكتشف النظام الذى تتبعه الوقائع السلوكية وما بينها من علاقات مطردة . والمسلمة الثانية : أن السلوك الانسانى يمكن التنبؤ به . فالعـــلم لا يكتفى بوصف الظواهر وانما لا بد أن يقدر على التنبؤ بوقوعها ، اى انه لا يتناول الماضى فحسب بل يمتد الى المستقبل . والمسلمة الثالثة : انه يمكن ضبط السلوك ، أى أننا نستطيع ان نتنبأ بأفعال الناس وتصرفاتهم بل وأن نسيطر عليها الى حد ما .

ويصر سكنر على أن التحليل الوظيفى للسلوك بتحديد علاقات الأسباب بالنتائج حيث تكون الأسباب هى المثيرات والحرمان وما الى ذلك مما يمكن السيطرة عليه سوف تكشف عن أن معظم اسباب الســـلوك موجودة فى السوابق من الأحداث التى تقع فى البيئة . وان ضبط هذه الوقائع يتيح لنا السيطرة على السلوك ولسنا فىحاجة الى تشريح الكائن الحى ولا أنستنتج عما يجرى داخله من وقائع .

انماط السلوك :

لم يهتم سكنر ببنية الشخصية ويرجع عدم اهتمامه ببنية الشخصية الى تأكيده على تغير الســلوك وتعديله وعلى كيفية حدوث هذا التغير ولتأكيده على ضبطه . وما هو قابل للضبط قابل للتغيير اصلا .

ولم ينكر سكنر وجود عناصر مشتركة بين الناس ، وعناصر ثابتة في طبيعتهم . الا انه اكد المرة تلو المرة على عدم جدوى التعمق في دراستها الا بما يتيح لنا ضبط العوامل والمؤثرات البيئية المرتبطة بها ، لانه من غير الممكن اخضاع العوامل التى تؤلف طبيعة الانسان للتجريب والضبط .

ان الشىء الذى يراه سكنر ذا بقاء نسبى فى الشخصية هو السلوك . وهو يقترح فئتين للسلوك « السلوك الاجرائى ، والسلوك الاستجابى » . والسلوك الاجرائى يصدر عن الكائن الحى ، أى أن الكائن الحى يقوم به فى غيبة مثير ينتزعه على نحو قسرى . فالشخص يستطيع أن يمشى خارجا من الباب والفأر يستطيع أن يجرى فى أحد ممرات المتاهة ، أى أن المثيرات البيئية لا ترغم الكائن الحى على سلوك معين لان السبب الرئيسى للسلوك موجود فى طبيعة الكائن الحى واستعداده العضوى . والسلوك الاجرائى هو السلوك الذى يحدث مرة ثم يتكرر نتيجة للتعزيز . اما السلوك الاستجابى فهو منتزع ، اى أن الكائن الحى يستجيب كنتيجة مباشرة لمثير معين . فالجائع يفرز اللعاب عندما يشم الطعام أو يراه . والشخص يومض جفنه اذا تعرضت العين لتيار هواء . وهذا النوع من الاستجابات التى تحدث لمثيرات معروفة يمكن ضبطها بالتنبؤ بها ولكنها لا تشكل الا جزءا صغيرا من السلوك الانسانى .

التباين فى شدة السلوك :

ان العوامل الدافعية للسلوك تثير اهتمام سكنر بدرجة اكبر من العوامل البنائية . وهو يلاحظ أن السلوك الواحد يتفاوت من حيث الشدة والتكرار فى نفس الوقت تقريبا ، فتناول الطعام لا يحدث دائما بنفس الشدة . ونحن نقول أن الشخص ليس جائعا أو انه جائع ، ونفترض مستوى للدافع ليفسر هذا التباين فى الاقبال على الطعام وتناوله . ويرى سكنر أن هذا ليس ضروريا ، بل أنه من الأمور المضللة أن نفترض وجود قوة داخلية منشطة ولا نستطيع أن نحدد شدة هذه القوة . ولا بد أن نعود الى المتغير البيئى مثل الفترة الزمنية التى أعقبت آخر مرة لتناوله الطعام . لماذا نشغل بالنا بحالة داخلية افتراضية وهى فى ذاتها تتوقف على التباين فى البيئة ؟ لماذا لا نتعامل مع المتغير البيئى مباشرة ونفسر السلوك على نحو مباشر ؟ بعبارة

اخرى أن القوة الدافعة ستنتهى بنا الى محاولة البحث عن العوامل البيئية التى يمكن أن تسيطر على هذه القوة .

وما يصدق على الدوافع يصدق على الانفعالات . فبدلا من أن نعالج الانفعالات كحالات داخلية غامضة يقترح سكنر أن نلاحظ العناصر السلوكية التى ترتبط بها . فسكنر يستخدم مدخلا وصفيا فى الأساس بالنسبة للانفعالات . وهو يبين أن انفعالا كالغضب يتضمن عناصر سلوكية مختلفة فى مناسبات متباينة بالنسبة للفرد الواحد فعندما نقول أن فلانا غضبان ، فاننا نعنى انه فى الأغلب سيؤذى الآخرين ويسبهم ويضربهم وفى الأقل سيساعدهم ويجاملهم ويحبهم .

التنبؤ بالسلوك وتغييره :

ينصرف اهتمام سكنر الرئيسى الى تغيير السلوك . وهو يرى أن فهم الشخصية يتحقق حين نلتفت الى نمو سلوك الانسان فى تفاعله المستمر مع البيئة وسكنر لا يقدم نظرية عن النمو ومراحله وانما يهتم بالتغير السلوكى .

مبادىء التعلم الشرطى :

ان اكثر الطرق فاعلية لتعديل السلوك وضبطه هى بتعزيزه . اى باتخاذ الخطوات التى تكفل زيادة او نقصان احتمال حدوث سلوك معين فى المستقبل . ولكى نفهم طريقة سكنر لا بد من أن نلم بنوعين من الاشتراط . الاشتراط الكلاسيكى والاشتراط الاجرائى. الأول يتعلق بالسلوك الاستجابى والثانى بالسلوك الاجرائى .

فى الاشتراط الكلاسيكى عند بافلوف يتم استبدال مثير بمثير « المثير الشرطى بالمثير غير الشرطى » وتبقى الاستجابة هى هى . وعلى الرغم من ان سكنر استوعب كثيرا من مبادىء بافلوف فى الاشتراط فى نسقه ، الا انه لا يعتقد ان جزءا كبيرا من السلوك الانسانى يتألف من افعال منعكسة بسيطة ، اى من استجابات شرطية على طريقة بافلوف . ذلك ان سكنر يرى أن معظم السلوك الانسانى الاجتماعى يقع فى الفئة الثانية وهى السلوك الاجرائى ، اى ان الاستجابات تصدر عن الانسان أو الكائن الحى على نحو

حر . ولما كان هذا النمط من السلوك يعني أن الكائن الحي نشط يعمل ويجري أفعالا على بيئته ، يضبط البيئة وتضبطه . فقد اطلق سكنر على هذه الاستجابات اجراءات operants . ويتحدد السلوك الاجرائي بوقائع تتبع الاستجابة ، أي أن الاستجابة يجيء بعدها ما يعقبها وطبيعتــه هي التي تعدل ميل الكائن الحي الى تكرار السلوك في المستقبل . وعلى سبيل المثال: ركوب الدراجة والعزف على البيانو ورمي الكرة وكتابة الفرد لاسمه أنماط استجابية اجرائية لانهــا تضبط بنتائجها ، أي بمــا يعقب أداءها . وهي استجابات متعلمة ارادية لا نستطيع أن نميز مثيرات ادت ايها . واذا كانت نتائج الاستجابة مواتية للفرد فان احتمال اصـــدارها في المستقبل يتزايد . وحين يحدث هذا نقول أن النتيجة معززة وأن الاستجابة الاجرائية قد تأثرت بالتعزيز وقد تم اشراطها . وتتحدد قوة المثير المعزز ايجابيا وتعرف بواسطة آثاره على تواتر الاستجابة التي سبقته مباشرة وتكرار حدوثها في المستقبل.

أما اذا كانت نتيجة الاستجابات غير مواتية أو غير معززة فان احتمال حدوث الاجراء يتناقص . وعلى سبيل المثال فانك سوف تتوقف عن الابتسام لشخص اذا كانت استجابته لبسمتك هي العبوس والتقطيب باستمرار .

التعزيز وتشكيل السلوك :

ان الشيء الهام هو الطريقة التي يتم بها التعزيز لان هذه الطريقة هي التي تؤثر في تناول السلوك بالتشكيل والتعديل ، فاذا استخدمنا التعزيز بدقة وعناية استطعنا تشكيل سلوك الكائن الحي وهكذا عن طريق عمليات التعلم الاجرائي يصدر الأنماط السلوكية المرغوب فيها . وهي أنماط سلوكية ما كان ليصدرها لو ترك لوسائله هو . ويتم التشكيل او التقريب المتتالي بتعزيز كل خطوة على الطريق تقرب الفرد من الأداء النهائي ، أي أننا نعزز الاســـتجابات التي تقترب من الهـــدف ولو جزئيا حتى نحصـــل على الأداء بالمستوى المطلوب .

جداول التعزيز :

يميز سكنر بين نوعين من التعزيز . الأول هو التعزيز المستمر ويقصد به تعزيز الاستجابة في كل مرة تصدر فيها . والثاني هو التعزيز المتقطع

ويقصد به تعزيز الاستجابة فى بعض مرات حدوثها دون البعض الآخر .
والنوع الأول يؤدى فى بداية التعلم الى معدلات مرتفعة من الاستجابة غير أنه يقل إصدار الاستجابة عندما تنقص حاجة الكائن الحى للمعزز كحاجته للطعام مثلا . والاستجابة التى تكتسب بالتعزيز المستمر أقل مقاومة للانطفاء من تلك التى تكتسب بالتعزيز المتقطع . ويتعذر توفير التعزيز المستمر فى مواقف الحياة الفعلية .

وقد تم التعزيز على أساس فترات زمنية ثابتة كأن يتم كل ثلاث دقائق أو ست دقائق وذلك بصرف النظر عن عدد استجابات الكائن الحى فى هذه الفترة . وقد اتضح أنه كلما نقصت الفترة الزمنية زاد معدل الاستجابة اثناء التعلم وزادت مقاومة الاستجابة للانطفاء .

أما تعزيز الفترة الزمنية المتغيرة فمعناه ان يقدم التعزيز بعد مضى فترة زمنية متفاوتة من آخر تعزيز ، أى أن الفترة قد تطول وقد تقصر ولكنها جميعها ذات متوسط محدد . فقد يختار المجرب متوسطا للفترة الزمنية مقداره ست دقائق الا أن الفترات الزمنية قد تتراوح ما بين دقيقة ولو جمعت مدد هذه الفترات الزمنية المستخدمة فى التجربة وقسمت على عدد الفترات لكان المتوسط الناتج ست دقائق . ويتميز الأداء فى ظل هذا الجدول بالاستقرار وهو اكثر مقاومة للانطفاء منه فى ظل الفترة الزمنية الثابتة .

وقد يستخدم جدول النسب الثابتة ، اى ان يقدم التعزيز لاول استجابة تصدر بعد عدد معين من الاستجابات يصدرها المفحوص من آخر مرة تلقى فيها تعزيزا . مثلا بعد صدور عشر استجابات وهذا النوع من التعزيز يؤدى الى زيادة معدل الاستجابة .

وقد يستخدم جدول النسب المتغيرة حيث يقدم التعزيز بعد اول استجابة تصدر بعد عدد متغير من الاستجابات يصدرها المفحوص من آخر مرة تعزيز . ويتفاوت هذا العدد حول متوسط معين . ومعدل الاستجابة فى ظل هذا الجدول أعلى من معدلها فى ظل جدول النسب الثابتة اذا تساوى المتوسطان . كما أن الاستجابة المكتسبة فى ظل الجدول الثانى .

والمعززات الأولية كالطعـــام والشراب تعمل عملهـــا فى التعزيز دون تدريب مسبق ، أما المعززات الثانوية فتعمل عملها بارتباطها بمعززات أولية بحيث تصبح نتيجة لهذا الارتباط ذات تأثير معزز .

وقد يكون المعزز موجبا وهو ذلك الذى يؤدى الى زيادة احتمال حدوث الاستجابة التى تبعد الألم . ففى الهرب تعزز الاستجابة لأنهـــا تنهـــى المثير المخيف .

ومن خلال تعميم المثير يتعلم الكائن الحى ان يصدر استجابة معينة فى المواقف التى تشبه الموقف الذى تعلم فيه الاستجابة ابتداء . أى أن الفـــرد ينهج عادة الى الاستجابة بحسب خبراته الماضية . ولوجـــود تشـــابه بين المواقف الجديدة والمواقف السابقة قد يحدث تعميم خاطىء . ويقصـــد بتمييز المثير ان الكائن الحى يتعلم عدم اصدار تلك الاستجابة .

ولقد طبق سكنر منهجه هذا على مشكلات عملية منوعة تنوعا كبيرا فى التعليم والاقتصاد وتدريب الحيوان وغير ذلك كثير .

(Hall & Lindzey, 1985, pp. 468-478)

(أبو حطب وآخر : ١٩٧٧ ، ص ص : ١٩٥ — ٢٠٣) .

بنـــــاء الشخصـــــية :

الجســـــم :

الجسم عند سكنر هو ذلك الذى يسلك ، ذلك ان سكنر يتناول الشخص كما لو كان صندوقا مغلقا وهو ليس فارغا بالتأكيد . ويؤكد السلوكيون على المدخلات والمخرجات لأنها جميعا قابلة للملاحظة . « وبدلا من افتراض حاجات قد تدفع الفرد الى نشاط معين ، يحاولون اكتشاف الوقائع التى تقـــوى احتمالات المستقبل والتى تحافظ على السلوك أو تغيره . وهكذا فانهم يبحثون عن الشروط التى تنظم السلوك بدلا من افتراض حاجات داخل الشخص » .

(Mischel, 1976, p. 62)

العلاقات الاجتماعية :

يهتم سكنر بالقوى التى تشكل الأفراد وتضبطهم من الخارج . وعلى الرغم من اهتمامه بالتفاعل الاجتماعى الا أنه لا يرى العلاقات الاجتماعية باعتبارها نشاطا متميزا ومختلفا عن غيره من النشاطات. فالسلوك الاجتماعى يتميز بأنه يتضمن أو يتطلب تفاعلا بين شخصين أو أكثر .

ولقد كرس سكنر جهدا كبيرا للسلوك اللفظى ولابراز دور البيئة اللفظية فى تشكيل السلوك وخاصة بالنسبة للنمو اللغوى المبكر وانماط سلوكية اخرى لدى الأطفال . والسلوك اللفظى عند سكنر يشتمل على التحدث والقراءة والكتابة ، اى انه اى نشاط يستخدم الكلمات . أما البيئة المحلية اللغوية فهى الناس بما فيهم أنت ، الذين يستجيبون للسلوك اللفظى للآخرين فى نفس البيئة . فالطفل على سبيل المثال يستجيب لوالديه وأخوته والأطفال الآخرين والمعلمين وهلم جرا . وهو يستجيب بتغيير انماط سلوكية مختلفة أو المحافظة عليها . وهذا الكلام معقول ولكن سكنر يمضى ليقول انه لا توجد متغيرات اخرى تتصل بالقضية ماعدا تاريخ الفرد واستعداده الوراثى والوقائع الخارجية فى البيئة المباشرة .

ان التعزيز الذى تتلقاه فى الموقف الاجتماعى يتوقف جزئيا على سلوكك وجزئيا على كيفية استجابة الآخرين لسلوكك . ففى المحادثة تقول شيئا ثم تتلقى تغذية راجعة ، والتغذية الراجعة التى تتلقاها تقوم على ما قلته فحسب بل وايضا على كيفية سلوك الشخص الآخر بعد سماعه لك . وعلى سبيل المثال قد تقول « نكتة » فيأخذها الآخر مأخذ الجد وينزعج فتعدل سلوكك قائلا « كنت أمزح معك » فيبدو على المخاطب الارتياح . وهكذا فاننا نعدل سلوكنا فى العلاقات بين الشخصية على اساس استجابات الآخرين وعلى اساس مدركاتنا . وهذه هى البيئة اللفظية الفاعلة .

الارادة :

يرى سكنر ان مفهوم الارادة يؤدى الى الخلط فى فهم السلوك وانه مفهوم غير واقعى . وهو يعرف الارادة والارادة الحرة وارادة القوة باعتبارها خيالات مفسرة غير قابلة للملاحظة . وان هذه الالفاظ تتضمن معنى داخليا

هاما فى تحديد الأفعال . ولكن سكنر يفضل أن يفترض أنه لا يوجد فعل حر « اننا حين نلاحظ هذا يحتمل أن نسقط فكرة المسئولية اسقاطا كاملا ومعه نظرية الارادة الحرة باعتبارها عاملا داخليا مسببا » (1953, p. 116)

وقد جلبت هذه الفكرة على سكنر نقدا عنيفا وظهرت بحوث كثيرة تتناول ما يسمى بوجهة الضبط ، أى من المسئول انا أم البيئة ؟ وترجح نتائج هذه البحوث الموقف القائل بأن اعتقاد المرء فى امكانية توجيه سلوكه عامل هام فى الشخصية السوية . وهناك سلوكيون بارزون يتحدثون عن الضبط الذاتى وعن الاحساس بالحرية باعتبارها أساسا هاما للتناول الناجح للسلوك .

العقـــــل :

ان وظيفة العقل هى أن يفكر الفرد فيما يعرفه وأن يستخدم هذه المعرفة . وهذه العبارة عديمة القيمة من وجهة نظر سكنر . انها لا تقدم لنا اى شىء قابل للملاحظة ولا تسمح بالتنبؤ بالسلوك . يقول : « كثيرا ما يعنى التفكير أن نسلك سلوكا ضعيفا . وقد يكون الضعف راجعا على سبيل المثال الى ضبط معيب للمثير » . فاذا عرض علينا شىء غير مألوف قد نقول : « اعتقد انه نوع من مفاتيح الربط » وكلمة « اعتقد » هنا مضادة لكلمة « اعرف » . ونحن نعبر عن الاحتمال الضعيف حين نقول « افكر فى الذهاب » بدلا من « انى ذاهب » أو « سأذهب » أو «أعلم انى سأذهب» .

وهناك استخدامات اكثر اهمية للكلمة . فقد نتساءل ونحن نلاحظ لعبة شطرنج ، ما الذى يفكر فيه اللاعب حين يحرك قطعة من قطعه ؟ وقد نقصد بذلك اننا نتساءل عن حركته التالية ، اى اننا نتساءل عن سلوكه الأولى أو الناقص . أن نقول « انه كان يفكر فى تحريك الرخ » يحتمل أن ذلك يعنى انه على وشك تحريكه . . . وتشير اللفظة عادة الى سلوك تام ولكنه يحدث بمقدار صغير جدا بحيث لا يمكن أن يستبينه الآخرون » (174, p. 103)

ويعرف سكنر المعرفة باعتبارها مستودع السلوك فالرجل يعرف جدول التكامل بمعنى انه فى ظل الظروف المناسبة سوف يسمعه ويقوم

بالابدال فى حل المسائل وهكذا وهو يعرف التاريخ بمعنى امتلاكه لمستودع آخر معقد (1953, pp. 408-409) فالمعرفة هى السلوك الذى يظهر ازاء مثير معين .

الذات ومعرفة الذات :

يرى سكنر أن لفظ الذات Self مفهوم خيالى مفسر « فاذا لم نستطع ان نظهر ونحدد المسئول عن سلوك الانسان فاننا نقول ان ذاته مسئولة عن ذلك « ولقد اتبع المبشرون الأوائل بالعلم الطبيعى هذه الممارسة نفسها ». ولكن لم يعد مقبولا القول بان الريح مسيرة باله الريح ايلوس Aeolus وان المطر يسقط بسبب اله المطر جوبتر بلفيوس Jupitor Pluvius أن هذه الممارسة تخفف قلقنا فيما يتصل بالظاهرة غير المفسرة ، وتبقى وتستمر لانها تحقق ذلك ... فمفهوم الذات ليس اساسيا فى تحليل السلوك » (1953, pp. 283-285)

وعلى الرغم من أن سكنر يمحص مستودع السلوك الذى يسمى معرفة الذات فانه يصف عدة حالات تكون معرفة الذات فيها قاصرة ، فقد لا يعرف الانسان انه عمل شيئا ... وقد لا يعرف أنه يعمل شيئا ... وقد لا يعرف أنه ينزع الى عمل شىء ... وقد لا يدرك المتغيرات التى يعتبر سلوكه وظيفة لهـا (1958, pp. 288-289) وهذه الحالات تثير اهتماما شديدا لدى غير السلوكيين لانها مظاهر لحالات داخلية (لعقد وعادات وكبت ومخاوف) ويسمى سكنر هذه الوقائع انماطا سلوكية لم يتوافر تعزيز ايجابى لملاحظتها أو تذكرها « والشىء الجوهرى أو الهام ليس ما اذا كان السلوك الذى يخفق فى ذكره الفرد قابل للملاحظة فعلا بالنسبة له ، وانما هل توافر له سبب لكى يلاحظه » (1953, p. 289) (Frager, pp. 302-308)

النمو :

على الرغم من أن نظريات التعلم قد نمت نتيجة للبحوث التى أجريت على الحيوانات ، الا انه قد بذلت جهود كبيرة لربط هذه النظريات بالنمو الانسانى والارتقاء. وهذا تطور طبيعى لان تنشئة الطفل فى الأساس عملية

تعلم. وفضلا عن ذلك فان الوالدين يحاولان من خلال تنشئة أطفالهما استخدام الاثابات المادية والسيكولوجية لتشكيل سلوكهم .

ووجهة نظر سكنر فى النمو تؤكد اهمية جداول التعزيز فى اكتساب السلوك وفى أدائه . ومع نمو الطفل يتم أشراط الاستجابات وتبقى تحت سيطرة شروط التعزيز البيئية . أن التأكيد ينصرف الى أنماط استجابية معينة من حيث تأثرها بمعززات بيئية معينة . ويصبح الأطفال أكثر اعتمادا على أنفسهم من خلال تعزيز الأفعال التى يصدرونها للعناية بأنفسهم سواء أكان ذلك فى تناول الطعام أو فى ارتداء الثياب . ان الطفل يتم تعزيزه مباشرة عندما يتم هذه الأفعال وذلك بمكافآت اجتماعية كالثناء . ويصبح الطفل مستقلا انفعاليا من خلال تنمية معدل مستقر من الاستجابة (أى استجابات تحدث على فترات منتظمة) يتطلب تعزيزا بين الحين والآخر . ويتعلم الطفل تحمل تأجيل الاشباع (التعزيز) وذلك بأن يوفر له الاشباع بعد فترة قصيرة فى بداية تعلمه ، ثم تتزايد فترات تأخير التعزيز تدريجيا . أى أن الفترة بين طلبه للشىء وتلبية ذلك الطلب تطول تدريجيا . وبعد فترة يسيطر أسلوب التأخير هذا على سلوكه عندئذ نستطيع أن نقول أن الطفل قد نمى القدرة على تحمل تأجيل الاشباع وتقبله (Pervin, pp. 345-346)

العلاج النفسى :

يصف سكنر العلاج باعتباره نوعا من الضبط له قوة وتأثير غير محدود . ويكون المعالج النفسى فى علاقته بالمريض على الأغلب مصدرا لقدر من الارتياح . وكل مساعدة يقدمها فى هذا المجال تصبح تعزيزا ايجابيا وبالتالى تزيد من تأثير المعالج .

ومن النتائج التى تترتب على نظرية سكنر التى تنكر وجود الذات ، أن هدف العلاج لا يمكن أن يكون شعورا أفضل لدى العميل أو توافقا أحسن او تحقيقا لاستبصار او فهم للذات . ان هدف العلاج النفسى من وجهة نظر السلوكى هو تعديل شكل العناصر السلوكية أو ترتيبها — أى منع العناصر السلوكية المرغوب عنها من تكرار الحدوث ، وان يزداد تواتر العناصر السلوكية المرغوب فيها . وحين ننظر الى العلاج السلوكى فى هذا الضوء

يمكن أن نقرر انه نجح فى معالجة المشكلات نجاحا يصعب على العلاج السيكودينامى أن يحققه .

ولقد قام راشمان وولسن عام ١٩٨٠ م Rachman & Wilson بمراجعة مكثفة للعلاج السلوكى وخلصا الى ان هذا النوع من العلاج تناول المجالات الآتية بعدد من الدراسات التى حسن تصميمها والتى اسفرت عن نتائج ايجابية : —

— الانحرافات الجنسية
— التدخين
— الصراع الزواجى
— البدانة
— اضطرابات الادمان
— الاضطرابات الذهانية
— ادمان المسكرات

وعلى الرغم من وجود عدة مداخل لممارسة العلاج السلوكى ، الا انه من الأمور المقبولة بصفة عامة القول بأن العلاج السلوكى يهتم اساسا بالأنماط السلوكية الفعلية ، ولا يهتم بالحاجات الداخلية والسوابق التاريخية . والعرض الذى يشكو منه المريض من وجهة نظر السلوكيين هو المرض ، وليس مظهرا له . فالعرض سواء اكان ادمانا للشراب ، أو لازمة عصبية فى الوجه ، اوخوفا من الحشد أو قرحة معدية يتم تناوله على نحو مباشر . ولا تستخدم الأعراض كمدخل للبحث عن الذكريات الماضية والكشف عنها .

ان المعالج بالنسبة للمريض مستمع لا يهدده وهذا يصدق على العلاج السيكودينامى . والمريض حر فى أن يعبر عن انماطه السلوكية التى لم يعبر عنها من قبل كالبكاء والمشاعر العدائية والتخييلات الجنسية . وعلى اية حال فان المعالج لا يهتم بتعزيز هذه التعبيرات . ان المعالج يهتم بتدريس الأنماط السلوكية والتدريب عليها وتعزيزها تلك التى تنافس العناصر السلوكية المقلقة او المعوقة والتى تؤدى الى التخلص منها . وعلى سبيل المثال فانه يمكن تعليم الاسترخاء على نحو تدريجى progressive rela ation ليبطل استجابات القلق وقد يستخدم التدريب التوكيدى assertive training. للتغلب على سلوك التهيب .

وتحدد العبارات الآتية طبيعة العلاج السلوكى وهى تبرز فى نفس الوقت نواحى التشابه بينه وبين الأشكال العلاجية الأخرى : ـــ

١ — يحاول العلاج السلوكى مساعدة الناس على أن يصبحوا قادرين على الاستجابة لمواقف الحياة بالطريقة التى يودون الاستجابة بها . وهذا يعنى تزايد تواتر العناصر السلوكية المرغوب فيها أو اتساع مداها ، وكذلك الأفكار والمشاعر المرغوب فيها ، وتناقص العناصر السلوكية غير المرغوب فيها أو حذفها وكذلك الأفكار والمشاعر المرغوب عنها .

٢ — لا يحاول العلاج السلوكى تغيير الجوهر الانفعالى للاتجاهات أو المشاعر داخل الشخصية .

٣ — المعالجون السلوكيون يرون أن العلاقة الايجابية ضرورية ، ولكنها شرط غير كاف للعلاج النفسى الفعال .

٤ — تعتبر شكاوى العميل هى المادة الصحيحة التى على المعالج السلوكى أن يركز عليها ؛ ولا تعتبر هذه الشكاوى أعراضا لمشكلة اخرى كامنة.

٥ — يفهم كل من المعالج والعميل فى العلاج السلوكى المشكلة المعروضة فهما واضحا على أساس السلوك الفعلى للعميل (أفعاله وأفكاره ومشاعره) وهما يقرران معا ويتفقان على الأهداف العلاجية مصاغة بطريقة يعرف كل من العميل والمعالج أنها تحققت حين تتحقق .

(Frager, 1984, pp. 308-310)

طرق البحث والبحوث المميزة :

تختلف تجارب سكنر وبحوثه عن الممارسات المعاصرة فى البحوث السيكولوجية من عدة وجوه نجملها فيما يأتى : ـــ

١ — يركز سكنر فى تجاربه على دراسة أبسط الوقائع السلوكية .

٢ — يصر على أن يضبط الظروف التجريبية ضبطا آليا .

٣ — يسجل استجابات المفحوصين تسجيلا آليا .

٤ — يقوم بدراسة مكثفة لحالة واحدة بدلا من دراسة مجموعات من الأفراد.

ويرى سكنر أن هدف عالم النفس هو أن يضبط السلوك لدى الفرد أما الباحثون الذين يدرسون جماعات كبيرة من الحيوانات فانهم لا يهتمون اهتماما كبيرا بالمتغيرات التى توضح موضع الضبط ، طالما أن أفراد التجربة موزعين توزيعا عشوائيا . وسكنر يعتقد أن هذه المتغيرات شأنها شأن أى متغيرات أخرى ينبغى أن تدرس بعناية ودقة . واذا كنا سنضبط السلوك فان علينا أن نتوصل الى تحديد هذه المتغيرات بحيث نستطيع ضبطها . ويرى سكنر أن الهدف ينبغى أن يكون ضبط السلوك فى الفرد الواحد . واستخدام عينة كبيرة من الأفراد فى التجربة فى رأيه اعتراف مبدئى بالاخفاق . فلو احتجب تأثير تناول المتغير المستقل بالزيادة والنقصان ، وظهرت تغيرات غير متسقة فان هذا يعنى أن الضبط التجريبى للمتغيرات غير دقيق . وعندئذ يرى سكنر ارجاء تناول المتغير المستقل الأصلى والاتجاه الى محاولة الكشف عن المتغيرات الدخيلة المسببة لهذه التغيرات غير المتسقة. ان مثل هذا الاستقصاء يساعد على فهم المتغيرات وضبطها، كما يساعد على استبعاد تأثير المتغيرات الدخيلة . ويوجه الباحث انتباهه بعد ذلك الى تأثير المتغير المستقل على المتغير التابع . (الشماع ، ص ٧٧ — ٧٨) .

والباحث على طريقة سكنر يتقدم عادة وفقا لهذه الخطوات : يدرب حمامة جائعة على نقر قرص ، ويحافظ على استمرارها فى الاستجابة وفقا لجدول تعزيز متغاير ، ويسجل معدلات الاستجابة هذه وهى تمثل الخط القاعدى لتواتر الاستجابات ويتميز بالاستقرار. ويلاحظ أن هناك قدرا ضئيلا من التذبذب فى سلوك الحمامة ، فيعمد الى متابعة هذه الآثار بحيث يردها الى ظرف يحتمل أنه لم يوضع موضع الضبط فى بيئة الحمامة وقد يكون هذا الظرف رائحة يحملها تيار من الهواء يمر فى الصندوق . ويقوم الباحث بتغيير هذا الشرط على نحو نسقى فاذا اتضح أن له أثره فى معدل النقر عند الحمامة فانه يكون قد توصل الى متغير آخر يتطلب ضبطا .

آثار العقاقير فى السلوك :

لقد ظهر أن منهج سكنر وصندوقه أداتان تثيران الاعجاب فى دراسة تأثير العقاقير المختلفة فى السلوك . وعلى سبيل المثال يمكن دراسة أثر

على الضغط على رافعة فى صندوق سكنر حتى تصل استجاباته الى سرعة معينة مستقرة ، أى حتى يستقر معدل الضغط . وعند هذه النقطة يعطى الفأر مقدارا معينا من العقار وقبل البدء فى دورة جديدة ، ويمكن خلال هذه الدورة قياس الزمن الذى بدأ عنده ظهور آثار العقار ، وطبيعة هذه الآثار ومدة استمرارها . ويتيح صندوق سكنر للباحث أن يدرس آثار العقار على الادراك والخوف واستجابات الاقدام والتجنب فى ظل ظروف حسن ضبطها. والحق أنه لم توجد حتى الآن طريقة للتجريب على الحيوان تفوق طريقة سكنر من حيث كفاءتها فى عزل جوانب معينة من السلوك ودراسة تأثير العقاقير المختلفة فيها .

ومن العقاقير التى درست على نحو مكثف بطريقة سكنر الكلور برومازين Chlorpromazine . وهو عقار مضاد للقلق يستخدم فى علاج الذهان وفى ظل تأثير هذا العقار ينخفض معدل ضغط الفأر على الرافعة فى صندوق سكنر ، حتى ولو كان الضغط يجنبه التعرض للصدمة الكهربائية . وقد نستنتج من هذه النتائج أن الكلور برومازين ينقص الخوف .ولقد افترض بصفة عامة أن هذا العقار الذى كثر استخدامه مع الشيزوفرينين له هذا الأثر . وعلى أية حال فقد ظهرت نفس النتيجة لدى الفئران التى تناولت العقار عندما كان الضغط على الرافعة مؤديا للحصول على الطعام . وهكذا يبدو أن هذا العقار يعمل كخافض أو مسكن عام وأنه ينقص جميع أنواع الاستجابات ولا يقتصر تأثيره على الاستجابة الناتجة عن الخوف .وقد اتضح أن النتائج بالنسبة لهذا العقار أكثر تعقيدا من هذا بكثير لان تأثيره يختلف باختلاف مقادير الجرعات . فالكميات القليلة جدا منه تزيد من معدلات الاستجابة على خلاف الكميات الكبيرة . وباستخدام طرق سكنر نستطيع أن نحدد وأن نكتشف مثل هذه التعقيدات قبل أن تحدث آثار ضارة غير مقصودة عند المرضى من بنى الانسان .

التدخلات السلوكية مع المرضى العقليين :

لقد توصل أيلون وازرن Ayllon & Azrin فى الستينات من هذا القرن الى ما أصبح يعرف بعد ذلك بالعملات الرمزية ؛ وهو أسلوب يقوم على

مبادىء الاشتراط الاجرائى . وقد صمم ليغير سلوك المرضى العقليين الذين اقاموا فى المستشفيات لفترات طويلة فى الاتجاه المرغوب فيه . ولقد كان التعزيز مشروطا وفى صورة نقود رمزية ، فاذا صدر عن المريض الاستجابات المرغوبة كاعتماده على نفسه فى ارتداء ملابسه او تناول طعامه ، وكلتمامه لواجباته وقيامه بما يكلف به من اعمال على نحو سليم يتلقى هذه العملات . ثم يتاح للمريض بعد ذلك أن يحول هذه النقود الرمزية الى معززات اولية ، اى الى اشياء يرغب فيها ويستمتع بها كالملابس الجديدة والتفاعل الاجتماعى وأدوات التجميل . ومشاهدة فيلم سينمائى ... الخ .

ولقد أصبحت اقتصاديات العملات الرمزية منذ ذلك الوقت وسيلة مستخدمة فى كثير من المواقف لتنمية المعاقين ، ولعلاج الأطفال المضطربين عقليا ، كما استخدمت فى تعديل سلوك الجانحين من الاحداث ، بل وفى تعديل سلوك الأسوياء . واثبت هذا الاسلوب نجاحه وجدواه فى اكتساب الانماط السلوكية المرغوب فيها . (Hall & Lindzey, 1985, pp. 481 - 483) (الشماع ، ١٩٧٧ ص ٧٥ — ٨٠) .

المكانة الراهنة والتقويم :

ان النظرية التى تستطيع أن تجيب عن كثير من الأسئلة الأساسية بمبدأ واحد نظرية اقتصادية بالتأكيد . ان وظيفة العلم ان نبسط ظواهر الطبيعة وأن نفسرها بعدد محدود من المبادىء الرئيسية ، وفقا لقانون الاقتصاد الذى يعرف بقانون مورجان نسبة الى لويد مورجان Lloyd Morgan اب علم نفس الحيوان ومؤداه انه كلما وجد تفسيران او اكثر جديران بالتصديق لظاهرة واحدة ، فان ابسطها واقلها تطلبا لمسلمات سابقة هو التفسير الصحيح على الأغلب . ولقد قبل علماء النفس وغيرهم من العلماء قانون مورجان .

وهذا المبدأ رغم روعته ، كثيرا ما يواجه صعوبات عند تطبيقه لانه لا يوجد محكات موضوعية لتحديد أبسط المبادىء او النظريات . وقد يكون من الصعب التمييز بين ما هو بسيط وما هو مبالغة فى التبسيط. ان الاقتصاد

جيد ولكن التبسيط الزائد ليس جيدا . ولقد اتهم سكنر بالتبسيط الزائد وقدم دفاعا جريئا عنه .

وبعض الناس يجون صعوبة فى تفسير السلوك الانسانى على أساس احتمالات التعزيز . وسكنر يتساءل ويتعجب : لماذا لا يجد الناس صعوبة فى التصديق بنظرية الجراثيم كأصل للمرض . انك لا تستطيع حتى أن ترى الجراثيم ومع ذلك فان الناس سرعان ما قبلوا التفسير البسيط بأن الجراثيم تسبب كل الامراض وتفسرها . والسؤال هو : هل يتنافى مع العقل بدرجة أكبر القول بأن احتمالات التعزيز تفسر السلوك كله .

نظرية سكنر دينامية . ان البيئة تقوى عناصر سلوكية معينة وتضعف أخرى ، أى أن ثمة عملية اختيار وانتقاء ، وهى تحدث فى كل لحظة من لحظات الحياة . ونظرية سكنر تركز على عملية التطور السلوكى هذه . وهى عملية دينامية **أى أنها** فى حركة دائمة . ان علماء نفس الشخصية لا يولون فكرة أن الشخصية عملية دينامية حظها من الرعاية.وسكنر سلوكى راديكالى يستبعد كل شىء ماعدا السلوك من مجال دراسته ولم يترك شيئا سوى العملية .

ان السلوك نفسه يتضمن فعلا،ولكن سكنر ليس مهتما كثيرا بالسلوك ذاته ، كاهتمامه بكيفية تغير السلوك . ان عملية تغير السلوك هى موضوع سكنر ، ولا يمكن القول أن هناك شيئا أكثر دينامية من هذا .

ويركز سكنر على معدل الاستجابة أكثر من تركيزه على ما يسميه طبوغرافية الاستجابة ، يعنى التزام سكنر بالتحليل الدينامى للسلوك . ان لغة ورق الرسم البيانى فى صندوق سكنر فى حركة دائمة . ولقد اهتم علماء النفس تقليديا بما يفعله الكائن الحى ، وبطبوغرافية السلوك ، الفأر ينحنى الى اليمين أو الى اليسار فى المتاهة التائية T ، والشخص الذى يستجيب الى اختبار الرورشاخ يرى فيلا يرتدى غطاء رأس مضحك ، من كل عشرة أطفال يشاهدون نموذجا عدوانيا يسلك تسع منهم بعد ذلك سلوكا عدوانيا. ان اعتراض سكنر على طبوغرافية السلوك وتجاهل معدل اصداره يقوم على أن المعرفة الطبوغرافية لا تؤدى الى علم يتنبأ بالسلوك ويضبطه. ان قوانين

السلوك لم تظهر حتى ادرك باحث ان النقطة الأساسية هى معدل السلوك وليس ما يفعله الكائن الحى ، بل ما مقدار تواتر الفعل الذى يقوم به . ان السلوك دينامى ، انه فعل وحركة وتغير . ومن المعقول ان نقول ان قوانين السلوك يمكن الكشف عنها بالتركيز على عملية التغير ، كما تظهر فى معدل تغير الاستجابة .

وسكنر ليس هو الوحيد من اصحاب النظريات الذى يهتم بالتطبيقات الكلينيكية لعمله ، ذلك ان جميع المعالجين النفسيين يستهدفون تحقيق نوع من التغيير فى الناس ، ولكن تعديل السلوك وهو من ثمار افكار سكنر يبدو منشغلا بدرجة اكبر بالتغيير عن أنواع العلاج الاخرى ، ولعل ذلك لان طريقة سكنر تركز على تحقيق تغيرات قابلة للملاحظة وواضحة ، ان تعديل السلوك مكرس لاحداث التغيير وهذا يؤيد القول بأن موقف سكنر موقف دينامى .

ان معظم نظريات الشخصية تدعى انها دينامية ، بل ان تسمية كثير منها تشتمل على كلمة دينامى . ولكن نظرية سكنر لا تدعى ذلك ولا تستخدم الكلمة ولعل ذلك يرجع الى أن هذه الكلمة ملزمة بتبنى اتجاه نظرى معين . ومع ذلك فان نظرية سكنر دينامية بأدق المعانى .

نظرية سكنر قابلة للتطبيق وللاختبار . ان النظرية التى تبين ان الاحتمالات البيئية وشروط التعزيز تضبط السلوك وتشكله يمكن البرهنة على صدقها أو عدم صدقها فى المعمل . ان المبادىء التى تم اكتشافها فى المعمل من خلال التجريب على الحيوانات فى صندوق سكنر يمكن تطبيقها فى الصف الدراسى ، أو فى العيادة النفسية ، ويمكن أن تحقق الأهداف التربوية والعلاجية . ونجاح هذه المبادىء فى هذه المواقع يعتبر اختبارا آخر لصدق النظرية .

ولنأخذ مثالا بسيطا جدا ولكنه يوضح تعديل السلوك وهو مثال مقتبس من العدد الأول من مجلة تحليل السلوك التطبيقى : Journal of Applied Behavior Analysis (Hall et al, 1968) المكان هو احد صفوف السنة الثالثة الابتدائية باحدى مدارس المدن . ومعظم التلاميذ من المحرومين ثقافيا . وموضوع التجربة طفل يدعى روبرت ، مشتت الذهن ومخل بنظام الصف ،

ولقد بينت الملاحظة الدقيقة أنه كان يدرس حوالى ٢٥ ٪ من زمن الدرس ، ويعمل على تشتيت انتباه زملائه بقية الوقت . وهذه الملاحظات الموضوعية لسلوك روبرت غير المألوف تحدد الخط القاعدى لسلوكه baseline وواضح أن نجاح أى برنامج فى تغيير السلوك يتحدد بملاحظة السلوك قبل البدء فى تنفيذ البرنامج وبعده . وقد استهدف البرنامج فى حالة روبرت تعديل سلوكه الدراسى . فكلما درس روبرت اهتمت المعلمة به وشجعته ومدحته ، وكلما توقف عن الدرس تجاهلته . ولم تكن المعلمة تفعل هذا من قبل لان سلوكه المخل بالنظام كان يثير سخطها وغضبها . ولقد كان لسلوك المعلم أثره على التلميذ يشبه ما يحدث للفأر فى صندوق سكنر حين يكتشف أن الحصول على كريات الطعام مشروط بالضغط على الرافعة . لقد ازداد سلوك روبرت فى الدرس من حوالى ٢٥ ٪ الى ٧٥ ٪ من وقت الدرس . ولقد بدا أن التعزيز كما يتمثل فى انتباه المعلمة للتلميذ يضبط سلوكه الدراسى . ولاختبار ما اذا كان تزايد سلوك روبرت الدراسى راجع الى تعزيز المعلمة لهذا السلوك ، توقفت المعلمة عن الثناء على سلوك روبرت الدراسى فى المرحلة التالية من التجربة وعادت الى معاملته كما تعودت أن تعامله من قبل خلال مرحلة الخط القاعدى . فتناقص معدله فى الاستذكار والدرس خلال هذه المرحلة حتى ولو لم ينخفض ليعود الى الخط القاعدى ، وهذا دليل مقنع بالتأكيد على أن التعزيز الذى توفره المعلمة هو السبب الأصلى لتزايد معدل الدرس كما حدث فى المرحلة السابقة . وفى المرحلة الرابعة تعود المعلمة الى برنامج تعزيزها لسلوك روبرت فى الدرس والاستذكار فيزداد معدل الدرس كما حدث فى المرحلة الثانية . وترتيبا على ذلك فانه لا شك فى أن احتمالات التعزيز وشروطه تضبط السلوك . فالنظرية لم تثبت صحتها تجريبيا فحسب ، بل انه قد تم حل مشكلة تعليمية وانفعالية بطريقة انسانية .

وواضح أن روبرت لم يتعرض لتهديد أو عقاب ولم تستخدم المعلمة معه القوة أو الشدة . لقد حصل بالضبط على ما يريده ، اهتمام المعلمة أو التفاتها اليه ، ولكن الحصول على هذا الاهتمام كان مشروطا بالسلوك السليم فى الصف وهو يشعر شعورا طيبا عما يجرى فى المدرسة ، فى موقف يتعلم فيه قدر كبير عما كان يتعلم من قبل . وحين حاول معلمون أن يضبطوا سلوكه بالتهديد بالعقاب ، كان يعتبر الذهاب الى المدرسة نوعا من العبودية ، أما

وقد تم ضبط سلوكه بتعزيز ايجابى فهو يشعر أنه يعمل ما يريد أن يعمله . إن العسل يجتذب عددا من الفراشات اكثر مما يجتذب الخل .

وتستخدم جميع تطبيقات نظرية سكنر العسل ولا تستخدم الخل . وسواء أكان العمل المطلوب اعادة تشكيل الثقافة كلها فى بيئة طوبائية او مجرد تعليم طفل متأخر عقليا استخدم أدوات المائدة فى تناول الطعام ، فان سكنر يصر على استخدام التعزيز الايجابى وتجنب المثيرات المنفرة وجميع انواع العقاب .

ينبغى تحليل السلوك غير المرغوب فيه للكشف عن الشروط التى تحكمه ، وتغيير تلك الشروط والاحتمالات بحيث لا يصدر هذا السلوك . وبعبارة أخرى ينبغى استبعاد المثيرات المميزة والا فان السلوك لن يلقى التعزيز وينبغى تجنب العقاب اذا كان ذلك ممكنا .

ان طوبائية سكنر هى عالم بغير عقاب . ولعل فكرته المفضلة هى ان الناس يتعلمون حين يثابوا افضل مما يتعلمون حين يعاقبوا ؛ وافضل شىء عن الآلة التعليمية او اى اداة تعلم مبرمج هى انها كالمدرس الخاص توفر للتلميذ تعزيزا مباشرا يجىء بعد الاستجابة ، وفضلا عن ذلك فان التلاميذ يندر أن يخبروا نتائج منفرة للاخفاق ، انهم يجيبون عن كل سؤال تقريبا اجابة صحيحة لان مستوى صعوبة الاسئلة يتزايد تدريجيا وتتوافر له مؤشرات وهاديات على نحو نسقى . ويلقى المتعلم اثابة من الآلات التعليمية على كل جزء يتعلمه من البرنامج . والمسافة بين كل خطوة واخرى صغيرة صغرا يكفى لكى يصعد الدرج التعليمى . ويصعد بعض الناس أسرع من البعض الآخر بطبيعة الحال ، ولكن البرنامج التعليمى اذا احسن تصميمه يتيح لكل فرد ان يتعلم ويتقدم ، وليس هناك تلميذ يرغب فى ان يبدا فى طريق الفشل . وكثيرا ما نسمع من التلاميذ فى مواقف التعليم « لا استطيع القيام بالعمل » ، « لا بد اننى غبى » سأتوقف عن المحاولة .

وفى ضوء جهود سكنر الواضحة لاستخدام نظريته لمساعدة الاطفال على التعلم وللتخفيف من تعاسة المرضى العقليين ولبناء مجتمع مثالى من الصعب أن نفهم ما تعرض له من اتهام ونقد من البعض الذين اعتبروه فاشيا.

ولعل ذلك يرجع جزئيا على الأقل الى اهتمامه بالآلات وصندوق سكنر المؤتمت automated . ويتشكك نقاده فى تناوله العقلانى لكل شيء ، انهم يرونه تحليليا ومتباعدا ومبالغا فى الحسابات.صحيح أن كتاباته لا تحمل قدرا كبيرا من الدفء والعاطفة ، ولا تفسح مجالا كبيرا فيما يبدو للانفعال أو الحدس . ومع ذلك فان السبب الرئيسى للتهجم عليه يرجع الى موقفه من الحتمية مقابل حرية الارادة وخاصة من قبل علماء النفس الانسانيين .

ومعظم علماء النفس الانسانيين يعلون من قدر وليم جيمس لانه من المدافعين عن حرية الارادة والقائلين بها . ولقد ابرز سكنر بوضوح منطقى انك لا تستطيع أن تتوصل الى علم يشتمل على حرية الارادة . لان الأشياء اذا كانت قانونية بالمعنى العلمى ، فينبغى أن تكون محتومة . ولا يمكن أن تكون معرضة لأهواء الارادة الحرة . ان الارادة الحرة تجعل التنبؤ العلمى مستحيلا كلية . كيف كان يمكن لنيوتن أن يكتشف قانون الجاذبية لو أن انتفاح بارادته الحرة قرر الا يسقط فى بعض الأحيان وانما أن يصعد ؟ اذا اردت علم النفس فانك لا تستطيع أن تضمنه حرية الارادة . ان العلم بطبيعته ينبغى أن يكون حتميا جبريا .

لقد اعترف جيمس أن المشكلة حيرته . لقد عرف حرية ارادته واعتقد مع ذلك بقوة فى امكانية قيمة علم النفس كعلم . وكان الحل الذى قدمه اذا أمكن اعتباره حلا هو أن يعيش مع التناقض،ولما كان جيمس غير منغمس على نحو مباشر فى التنبؤ بالسلوك فقد استطاع أن يتجاهل التناقض . ولكن سكنر كان حريصا على تطبيق عمله لحل مشكلات انسانية حقيقية ، ومن هنا كان عليه أن يتقبل الحتمية . ولو اكتفى سكنر وقنع بوصف الوظائف النفسية كما فعل جيمس ولم يحاول أن يجرى تجارب لتغيير السلوك لاستطاع أن يتجاهل التناقض . ولكن سكنر ليس فيلسوفا أرائكيا ، انه نشط فاعل مؤدى يعتقد أن النظريات لا معنى لها مالم توضع موضع التطبيق والاستخدام .

غير أن هذه النظرية لاتخلو من نواحى سلبية ومن اهمها : —

أن النظرية تقول بالحتمية . ان المسلمات المنهجية هى ما نسلم به عن

افضل طريقة لبحث مسألة من المسائل. والمسلمات والافتراضات الميتافيزيقية هى ما نسلم به عن طبيعة الواقع ، فاذا فكرنا فى العلم على انه شىء يهتم بالتنبؤ والضبط فان الحتمية ضرورية كمسلمة منهجية . ولا مجال لحرية الارادة ، ولكى نمارس العلم ينبغى ان نتمسك بقواعد الحتمية ، وبدون هذه القواعد لا نستطيع الاشتغال بالعلم .

وتنشأ المشكلة حين يخلط سكنر بين الاشتغال بالعلم والواقع . ان العلم يزودنا بمعرفة عن العلاقات الوظيفية ، اذا قمت بهذا العمل فانه يترتب عليه تلك النتيجة ، وسكنر يبدو انه يقدر هذا حين يقول ان هدفه هو التحليل الوظيفى للسلوك ، ولكن العلم لا يفسر طبيعة الأشياء ، وانما يفسر كيف تعمل الأشياء اى انه لا يفسر ما هى عليه . ولكى يفسر كيف تؤدى الاشياء عملها . ينبغى أن يسلم العلم بمسلمات معينة عن ماهية هذه الأشياء ليساعدنا على التفكير عن كيفية اداء الأشياء لعملها . وينبغى ان نبرز هذه النقطة . فحين يتم التثبت من صدق فروضك عن كيف تعمل الأشياء عملها ، لا ينبغى ان يكون هذا دليلا على صدق مسلماتك عن طبيعة الاشياء . ويبدو ان سكنر وقع فى هذا الخلط او ادى بقرائه ودارسيه الى هذا الخلط .

ويعترف سكنر ان لدى الناس خبرة ذاتية بحرية الارادة ، غير ان هذا مجرد وهم كما يقول ، لان التعزيز الايجابى للسلوك الاجرائى هو الذى يؤدى الى وهم حرية الارادة . ويختلف السلوك الاجرائى عن السلوك الانعكاسى من حيث ان الأول ليس مسببا بمثير مسبق واضح ، وليس كالسلوك المعزز سلبيا ، انه ليس محاولة للهروب من الالم ، ومن ثم فاننا نشعر اننا نؤدى السلوك الاجرائى لاننا نريد ذلك بمحض ارادتنا الحرة كما شعر بذلك روبرت ، شعر بأنه قرر ان يدرس بجد اكبر حين بدات المعلمة تولية اهتمامها ، ولما كان فى الامكان تجاهل المشاعر الذاتية تجاهلا تاما لاغراض التنبؤ والضبط فان سكنر يعتبرها وهما .

ان الامر الهام مما يقول سكنر هو ان الناس الذين نضبط سلوكهم بالتعزيز الموجب لا يحاولون الهرب او الهجوم المضاد . وفى ايجاز انهم سعداء بنصيبهم ويشعرون بأنهم احرار وكثير من نقاد سكنر يرون ان هذه

العبارات تثير صورا عن غدر الحكومة الاستبدادية فى مجتمع يقاد الناس فيه كالقطيع ويحيون حياته .

ولكن سكنر يمضى ليتحدث عن الضبط المضاد . ويبدو أن المضبوط يضبط ضابطيه ، فالحكومة تسيطر علينا وتضبطنا ولكننا بدورنا نضبطها ونسيطر عليها عن طريق الاقتراع والخطابات التى نرسلها الى المشرع ووسائل الاعلام ... الخ . وتسيطر علينا المؤسسات الاقتصادية الكبرى ، ولكننا أيضا نسيطر عليها عن طريق الاتحادات وجماعات المستهلكين والمؤسسات الحكومية المنظمة لانشطتها . ان الاستجابة لجميع الأفراد والمؤسسات التى تسعى للسيطرة علينا وضبطنا يتم من خلال ترسانة من الاجراءات المضادة لهذا الضبط تتفاوت من اطفاء الراديو والتلفزيون الى عدم الاستجابة لرنين التليفون ، الى تنظيم جماعات للمتابعة والتقويم والاحتجاج وقد يصل هذا أحيانا الى الهجمات الارهابية ، والاضرابات والابطاء فى العمل والاستقالة والهجرة كلها أمثلة واضحة لجهود الضبط المضاد . ان الهرب من المدرسة مثال لذلك ، وهناك آلاف من الأنماط السلوكية اللحظية التى تندرج فى فئة السلوك المضاد للضبط والتى ننغمس فيها كل يوم . واذا كنت استطيع أن انغمس فى الضبط المضاد فانى حر على الأقل بمقدار فهمى لمعنى كلمة الحرية .

وينبغى أن يؤمن سكنر عند بعض المستويات بحرية الارادة والا فلا معنى لان نبذل جهدا لمشاركته فى اقامة مجتمعات طوبائية . واذا كان الناس لا يمتلكون بعض الحرية ، فما معنى أن يتبنى سكنر استخدام مبادىء تعديل السلوك مع الذات لتحقيق الضبط الذاتى ؟ واذا كان الناس كالفئران فى صناديق التجارب فما معنى الكلام عن الضبط المضاد ؟

والناس بطبيعة الحال منضبوطون وهم أيضا أحرار . ان الانسان حر فى حدود وهذه الحدود نتيجة من الامكانيات الوراثية للفرد وعن الثقافة التى يعيش فيها والمرحلة التاريخية والخبرات النمائية وهلم جرا . ولا يستطيع احد أن يهرب من تأثير هذه العوامل المحدودة ومن ثم فلا يوجد شخص حر حرية مطلقة ، وكل فعل انسانى حر ومحتوم فى نفس الوقت . وليس ثمة فعل من افعالنا حر حرية كاملة أو محتوم حتمية كاملة (على الرغم من أن

بعض الأفعال أكثر تحررا من البعض الآخر) . وكل ما نفعله يقع فى موضع ما بين قطبى الحرية والضرورة . ولعل سكنر أقل معارضة لفكرة ان الناس أحرار عنه لفكرة عدم الحتمية السلوكية . وهو يستطيع ان يسترخى على أية حال . ان النظرة المبسطة تبسيطا زائدا والقائلة بأن الناس اما ان يكونوا أحرارا أو مجبرين نظرة ساذجة . ويعترض عليها سكنر وهذه القضية تحتاج الى اعمال الفكر والى جهد نظرى جاد وعميق .

ان كلمة ضبط كلمة قوية تعنى الحتمية المطلقة والآلية ، والحقيقة ان ما تحدث عنه سكنر هو التاثير ، واخياره لكلمة ضبط يثير الجدل وفيه قدر من التضليل ، فالمهندس يضبط الانسان الآلى robot ولكنه يؤثر فى انسان آخر اللهم الا اذا كنا نتحدث عن أنواع خمس من العلاقات التى لا يوجد فيها ضبط مضاد مؤثر وهى : رعاية صغار السن ، والمسنين ، والمسجونين ، والذهانيين والمتخلفين عقليا . فالكلمة الملائمة لموقف هؤلاء هى الضبط . أما العلاقات العادية بين الناس الذين يتقاربون أو يتساوون فيصدق عليها بدرجة أكبر ويلائمها كلمة التأثير .

والفرق بين علاقة الانداد والعلاقة بين السجان والسجين على سبيل المثال فرق فى السلطة والقوة . وحيث يوجد هذا الفرق فان لدى أحد الشخصين شىء ليس ميسرا ولا متاحا للشخص الآخر . فمن لديه موارد نادرة قادر على أن يجبر الآخر على أداء افعال معينة مقابل نصيب من هذه الموارد . والسؤال هو ما وجه الغرابة فى هذا ؟ اليس من الأبسط أن نقول أن السلوك مضبوط بواسطة احتمالات التعزيز البيئية وشروطه ؟ ما هى المسألة التى تحتاج الى تفسير ؟ اذا كان لديك ما يريده الناس فانك تستطيع أن تجعلهم يأتون ما تريد لكى يحصلوا على ما يريدون .

وطالما أن هناك اناسا فى العالم اكثر قوة وسلطة منك ، فان لديهم ما يقولون عن سلوكك . وطالما ان الناس لديهم ما تريد فان حريتك سوف تتعرض للقيود . واذا كان بحوزتهم ما تحتاجه بشدة كالافراج عن طفلك المختطف ، فانهم قادرون على ضبط سلوكك على نحو قابل للتنبؤ . وكلما ازدادت قوتهم وازدادت حاجتك الى ما يقدمون لقاء مسايرتهم كلما كان

سلوكك أكثر قابلية للتنبؤ . وسوف يعمل الناس ما عليهم عمله ليحصلوا على ما يريدون .

الدور فى التفكير . ومن الاعتراضات التى تساق بالنسبة لتعريف سكنر للتعزيز أنه دائرى . فسكنر لم يحدد المعزز تحديدا مطلقا مقدما ، أن نظريته تفترض أنه اذا زاد معدل الاستجابة فان المثير الذى يتبع تلك الاستجابة لا بد أنه قام بوظيفته كمعزز . بعبارة خرى اذا أردت أن تعرف ما يسبب التغيير السلوكى أو اكتساب الاستجابة فان الاجابة هى التعزيز . ولكنك اذا أردت أن تعرف ما هو التعزيز فان سكنر يقول لك هو « ما يزيد من معدل الاستجابة » . وهكذا نقع فى الدور كما يقول المناطقة : أى أن كل من الكلمتين يعرف على أساس الكلمة الأخرى ، وهذا لا يزيد استبصارتا وفهمنا للتغير السلوكى . وكأننا نقول أن تغير السلوك يسبب التغير فى السلوك . فالمعزز هو ما يعزز الاستجابات . وسكنر نفسه يبين هذا النوع من التفكير حين يقول « مع ذلك فان من الخطأ أن نقول أن سائلا يتدفق ببطء بسبب كثافته العالية . وهى حالة نستنتجها من سلوك السائل ثم نبدأ فى اعتبارها سببا » (Skinner, 1974, p. 161)

وفكرة التعزيز لا تؤدى الى تنبؤات بالسلوك فائقة . يستجيب سكنر لهذا النقد بابراز نجاحات المعالجين السلوكيين فى تعديل انماط سلوكية تفاعلية وخطرة تهدد الحياة . ولقد نجحت الأساليب السلوكية فى كثير من الحالات حيث اخفقت الطرق الأخرى فى تحقيق شفاء درامى . وسكنر يتحدى غير المقتنعين بجدله النظرى أن يعدلوا سلوكا بكفاءة كما تستطيع مبادئه أن تفعل . واذا كان سكنر بارعا فى تعديل السلوك حقا فاننا نتساءل ونعجب لماذا لا يعدل سلوك معارضيه على نحو مباشر بحيث يحملهم على تأييده والاتفاق معه ؟ والاجابة بطبيعة الحال هى : أنه لا تتوافر لديه سلطة أو قوة بالنسبة لهم .

وفى السجن ومستشفى الأمراض العقلية يكون مجتمع المؤسسة تحت اشراف مستمر ، ويكون الطعام والأمن الفيزيقى فى قبضة العاملين فيها وتحت سيطرتهم الأمر الذى يتيح ضبط سلوك المساجين والمرضى والتنبؤ بتغيرات

سلوكهم بكفاءة. والنقطة المثارة هنا هى : ان قدرة سكنر على التنبؤ بالسلوك وضبطه تتصل على نحو مباشر بحـالة الأسر التى يوجـد فيها المجتمع المستهدف ... والملمح البارز لصندوق سكنر ليس وجود رافعة يمكن من خلال ضغطها الحصول على الطعام لارتباطها بنظام يتحكم فى تقديمه ، وانما كون الفار فى صندوق لا يستطيع منه فكاكا . ففيران سكنر تسلك على نحو يمكن التنبؤ به لانها فى صناديق اى فى الأسر .

ويسلك الناس على نحو اكثر قابلية للتنبؤ حين يوجدون فى هـذه الظروف سواء اكانت الاقفاص حقيقية او وهمية وسـواء وضع فيها رغم ارادته ام بارادته . والنجاح المذهل لمعدلى السلوك فى عملهم مع المتاخرين عقليا لا يرجع الى انخفاض ذكائهم بمقدار مرجعه الى كونهم فى الاسر. ومرة اخرى نقول ان برامج تعديل السلوك قد نجحت وحققت نتائجها فى السجون ولكنها اخفقت خارج جدرانه عندما افرج عن المسجونين وعادوا الى بيئتهم . بل ان المرضى الذين لم يوضعوا فى غرف تغلق عليهم ، وانما لجأوا الى المعالجين السلوكيين طلبا للعون حتى يسيطروا على نهمهم او مخاوفهم غير العقلانية قد وضعوا انفسهم باراداتهم تحت سيطرة هؤلاء لقد وافقوا على ان يبقوا ساعات معينة فى عيادة المعالج كل اسبوع . والطفل الصغير الذى عرضنا حالته على حق حين اعتبر حجرة الدراسة شبيهة بالسجن لانه كان اسيرا رهن سلطة المعلمة. صحيح ان هذا الأسر لا يستطيع تفسير التغيرات التي طرات على سلوكه لأنها تعزى الى شروط التعزيز واحتمالاته . ومع ذلك فلا يمكن اعتبار الأسر عمل منهجي لضبط المتغيرات الدخيلة كما لو ان هذه المتغيرات الدخيلة ليست أكثر من مزعجات ثانوية . ومن وجهة نظر الضابطين والمسيطرين من المزعج ان يرفض المفحوصون البقاء فى الأسر ، ولكن هذا الأسر من وجهة نظر المجموعة الأخيرة اضرار بالحرية .

ان ما يقدمه سكنر هو تكنولوجيا محسـنة للتنبؤ بسـلوك الأسرى والسيطرة عليه والتعزيز الايجابى يعمل على نحو افضـل من العقاب . لانه لا يضيع جهدا فى الضبط المضاد . غير ان هذا معناه ان التعزيز لا يولد جهدا يكرس للهرب من الأسر والبحث عن تعزيز فى مكان آخر او للتمرد على سلطة

الضابط والاستيلاء عنوة على ما قدم له من قبل مقابل اصدار السلوك الذى حدده الضابط ووضعه شرطا للحصول على التعزيز .

وسكنر لا يقدم لنا طريقة متفوقة للتنبؤ بسلوك الذين يرتبطون ويتعاملون معنا على قدم المساواة (اى ممن ليسوا فى الأسر) وعلى سبيل المثال اذا استطعت أن أتنبأ بموضع الضربة التى سيوجهها لى منافسى فى لعبة التنس قبل حدوثها بجزء من الثانية ، فان موقفى فى اللعب سيكون أفضل . واذا كنت استطيع أن اتنبأ بسلوك بائع الأثاث الذى احاول الشراء منه من حيث تشبثه بالثمن المحدد أو تخفيضه فيما لو هددته بالانصراف . واذا كنت استطيع التنبؤ بسلوك رب العمل لمخالفته فى الرأى ومدى رغبته فى ذلك أو ضيقه به فاننى فى كل هذه الحالات ساكون فى وضع افضل فى التعامل معهم . وهذه هى المواقف التى أود ان أقدر على التنبؤ فيها بسلوك الآخرين . ولكن سكنر لا يستطيع أن يساعد فى هذه المواقف . ان التنبؤ فى هذه الأمور ممكن نظريا لانها كلها محددة وحتمية ولكن شروطها واحتمالاتها معقدة جدا بالنسبة لنا بحيث يصعب التنبؤ بها فى الوقت الحاضر ، وقد يكون ذلك ممكنا فى المستقبل .

ان هذه الأنماط السلوكية قابلة للتنبؤ نظريا عند سكنر لانه يسلم تسليما قبليا بأن جميع الأنماط السلوكية محددة وحتمية . وحين هوجمت نظريته اعتمد على قدرته على التنبؤ بالسلوك فى مواقف تم ضبطها محاولا ان يدعم وجهة نظره . وحين يقال له أن قدرا كبيرا من سلوك الانسان اليومى يتعدى قدراته على التنبؤ فانه يرد قائلا أن هذه مسالة غير هامة لان مثل هذا السلوك قابل للتنبؤ نظريا . واذا شعرت بأنك فى دائرة مفرغة فلك كل الحق لان سكنر يقول اذا كان السلوك قابلا للتنبؤ فانه ينبغى أن يكون محتوما ، واذا كان محتوما فانه قابل للتنبؤ نظريا . ويستطيع سكنر فى التحليل النهائى أن يخبرنا بما افترضه دون برهان أو دليل قبل أن تتدحرج كرية الطعام الأولى من فتحتها فى صندوقه الأول ، أى أن سكنر يعتقد فى امكانية قيام علم يتنبأ بالسلوك ويضبطه . (Scroogs 1985, pp. 200-209)

لقد طور سكنر ورسخ مدرسة اساسية من مدارس علم النفس . . فطبقت السلوكية فى العلاج النفسى وفى التعليم . وكان لأفكاره آثار بعيدة

المدى فى تعديل البرامج فى الجامعات والسجون والمستشفيات العقلية والعيادات النفسية والمدارس الابتدائية . بل وقد أقيمت عدة بيئات اجتماعية تجريبية فى محاولة لتحقيق بعض ما أورده فى كتابه Walden Two

ولقد وسع سكنر عمله واهتمامه فشمل مجالات العمل والاسرة وحجرة الدراسة واجتذب الكثير من المعجبين والنقاد . واحتقاره لأفكار الحرية والابتكار والذات وايمانه الذى لا يتزعزع بعالم تسوده القوى الخارجية مخيف ومقنع .

ولقد أفادت التربية من افكار سكنر عن طريق التعليم المبرمج والآلات التعليمية وادراك الحاجة الى تعريف الأهداف التعليمية سلوكيا . ويعتقد سكنر أيضا أن المدارس اذا سيطرت على السلوك على نحو ايجابى بدلا من السيطرة السلبية فانها لن تثير لدى التلاميذ سلوك التجنب والهروب الذى نلاحظه الآن على نحو ليس بالقليل .

ولا يستطيع من يسعى لفهم الانسان أن يتجاهل التحدى الذى عبر عنه ازاء الأفكار القديمة الراسخة . وبينما كان تصور فرويد للانسان على انه غريزى وعبد لأهوائه مثيرا للنقد ومدعاة للهجوم من قبل معاصريه ، كان اقتراح سكنر باننا تحت سيطرة القوى البيئية حولنا مقلقا لجيل نشأ على الاعجاب بالاستقلال واعلاء قيمة الحرية .

وفى ضوء كتاباته التى تعدت الاهتمام بالقضايا المعملية ، من الطبيعى أن نقرر أن عمل سكنر قد أصبحت له اهميته النظرية ، وينبغى ان ننظر اليه باعتباره فيلسوفا وباحثا يرى ان قضايا هامة يمكن ان تحل على اساس الشواهد الفعلية وليس على أساس التأملات المجردة . ولقد استطاع سكنر على أساس خلفيته العلمية والفلسفية أن يضع نسقا منهجيا لفهم السلوك الانسانى ، وهو منهج له اثره الملحوظ والواضح فى الممارسات الثقافية المعاصرة وفى الفكر المعاصر .

وفى محاولته لجعل الحياة اكثر قابلية للفهم قدم وجهة نظر عن الطبيعة الانسانية الجذابة من حيث دقة أحكامها ومن حيث كونها مباشرة

وصريحة ، ومن حيث نبذها للتأملات الميتافيزيقية . ووجهة نظره منغرسة بعمق فى المنهج العلمى المعاصر ، وتقدم لنا أملا فى فهم أنفسنا دون العودة الى الاستعانة بعوامل لا نفهمها .

وعلى الرغم من اننا اعتبرنا سكنر عالم نفسى نشأت افكاره الأساسية من نتائج التجارب المعملية التى أجراها على الفيران والحمام ، الا انه قد تعدى محدودية مثل هذه التجارب منذ وقت طويل . وحين كتب روايتـــه Walden Two استطاع أن يحقق نقلة هامة من كونه عالما منهجيا الى كونه مفكرا صاحب رأى يدعو الى علم سلوكى يستهدف خدمة الانسان . يقول سكنر عام ١٩٧٥ « اننى أعمل على أساس مسلم هو أنه بغير تحسن هائل فى فهمنا للسلوك الانسانى لن نستطيع أن نحول دون دمار طريقة حياتنـــا ودمار البشرية » (1975, p. 42) ولقـــد اثبتت بحوثه اهميتها فى علم النفس الاكاديمى ، ولكن تنظيره الاجتماعى هو الذى يدل على أنه سيحتل مكانة هامة فى الفكر المعاصر . لقد جعل من السلوكية قوة دينامية نشطة فى الفــكر المعــــــاصر .

الفصل الثاني عشر

دولارد وميللـر

ولد نيل أ ميللر فى ميلووكى Milwaukee من أعمال ولاية وسكنسن فى أغسطس ١٩٠٩ م وحصل على بكالوريوس العلوم من جامعة واشنطن عام ١٩٣١ م . ولقد درس فى تلك الفترة على يد عالم نفس بارز فى مجال التعلم هو ادوين جثرى . ثم حصل على الماجستير من جامعة ستانفورد عام ١٩٣٢ وعلى دكتوراه الفلسفة من جامعة ييل عام ١٩٣٥ م . وخلال بقائه فى ييل درس مع عالم نفس آخر له شهرته فى مجال التعلم أيضا هو كلارك ل. هل Clark L. Hull ولقد كان لهل تأثير أساسى فى نظرية ميللر عن الشخصية . لقد قام ميللر بتحقيق أحد أهداف هل فدرس موضوعا أثار اهتمامه ، فلقد كان يرغب فى أن يستكشف العلاقة بين نظريته فى التعلم ونظرية فرويد فى الشخصية الأمر الذى لم يحققه وقام به ميللر .

وبعد حصوله على الدكتوراه بفترة وجيزة ذهب الى أوربا وعمل زميلا متنقلا فى مجلس العلوم الاجتماعية ، ثم حلل نفسيا على يد هاينز هارتمان Heinz Hartman فى معهد فيينا للتحليل النفسى . ولقد شغل فى الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٤١ م عدة مناصب أكاديمية فى معهد ييل للعلاقات الانسانية وكانت على الترتيب ، مدرسا فأستاذا مساعدا فاستاذا مشاركا . ومن عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٤٦ أشرف على البحث النفسى فى القوات الجوية . وعاد فى عام ١٩٤٦ الى جامعة ييل واصبح استاذا لعلم النفس عام ١٩٥٢ حيث شغل كرسى جيمس رولاند أنجيل .

ولقد بقى ميللر فى جامعة ييل حتى عام ١٩٦٦ ثم انتقل الى جامعة روكفلر Rockefeller University وأصبح أستاذا لعلم النفس ورئيسا لمعمل علم النفس الفسيولوجى . ولقد كان ميللر خلال الستينات باحثا شجاعا حاول أن يطبق الطرق العلمية الدقيقة على الجوانب الذاتية من الخبرة الانسانية ، فدرس موضوعات كالصراع واللغة والحيل الدفاعية . وهذه الشجاعة والجرأة استمرت بعد ذلك فى محاولته الحديثة لاستكشاف الشروط التى يستطيع الأفراد أن يتعلموا فى ظلها ضبط بيئتهم الداخلية .

وتعتبر بحوثه الرائدة فى مجال التغذية الراجعة الحية bio-feed back اسهاما قيما فى مجال ادى الى اثارة البحوث وتنشيطها .

ولد جون دولارد John Dollard فى ميناشا Menasha بوسكنسن فى اغسطس عام ١٩٠٠ وحصل على بكالوريوس الآداب من جامعة وسكنسن عام ١٩٢٢ م . ثم حصل على درجة الماجستير عام ١٩٣٠ م . ودكتوراه الفلسفة عام ١٩٣١ م فى علم الاجتماع من جامعة شيكاغو . واصبح عام ١٩٣٢ استاذا مساعدا للانتربولوجيا فى جامعة ييل . واصبح فى السنة التالية استاذا مساعدا لعلم الاجتماع فى معهد العلاقات الانسانية الذى كان حديث الانشاء وقت ذاك فى ييل. ثم عمل عام ١٩٣٥ باحثا مشاركا فى نفس المعهد ، ورقى عام ١٩٤٨ م الى باحث مشارك واستاذ لعلم النفس . وقد بقى دولارد فى جامعة ييل حتى اصبح استاذا فخريا علم ١٩٦٩ م .

ودولارد استاذ موسوعى فى العلوم الاجتماعية ، فقد درس علم الانتربولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس ، وتدرب على التحليل النفسى فى معهد برلين . ولا تظهر معتقدات دولارد واهتماماته بتوحيد العلوم الاجتماعية فى كتاباته فحسب بل تظهر ايضا فى المناصب الاكاديمية المختلفة التى تقلدها فى العلوم الاجتماعية الثلاثة وفى نفس الجامعة . ولقد نشر عام ١٩٣٧ كتابه « الطائفية والطبقية فى مدينة جنوبية Caste and Class in a Southern Town وقد تناول فيه دور السود فى البيئة المحلية . وفى عام ١٩٤٠ نشر كتابا مع اليسون دافيز Allison Davis بعنوان « اطفال العبودية » Children of Bondage وخلال الحرب العالمية الثانية قام بدراسة تناولت السلوك العسكرى وحللته تحليلا نفسيا وادى هذا العمل الى نشر كتابين هما «التغلب على الخوف » Victory over Fear (1942) والخوف فى المعركة Fear in Battle (1943) ولقد نشر مقالا عن محكات تاريخ الحياة عام ١٩٣٦ م Criteria for a Life History . ونشر بالاشتراك مع فرانك اولد A. Auld واليس هوايت كتابا بعنوان « خطوات فى العلاج النفسى » ويتضمن وصفا تفصيليا لشخص اثناء العلاج .

وفى عام ١٩٣٩ نشر دولارد وميلر بالاشتراك مع دوب مورر وسيرز

Doob, Mowrer and Sears كتابا بعنوان الاحباط والعدوان Frustration and Aggression حاولوا فيه أن يحللوا الاحباط ونتائجه على أساس مبادىء التعلم . وبعد فترة وجيزة نشر ميللر ودولارد كتاب « التعلم الاجتماعى والمحاكاة » Social Learning and Imitation وفيه حللا عدة مشكلات سلوكية معقدة على أساس مبادىء التعلم . وفى عام ١٩٥٠ نشرا كتابا أصبح من الكتب الكلاسيية فى علم النفس هو « الشخصية والعلاج النفسى » فى ضوء التعلم والتفكير والثقافة

Personality and Psycotherapy : An Analysis in Terms of Learning, Thinking and Culture.

ان الجهود المشتركة لكل من دولارد وميللر خلقت اطارا يمكن على أساسه فهم الموضوعات النفسية المركبة كالشخصية والعلاج النفسى، فهما أكثر وضوحا عن ذى قبل . لقد استطاعا أن يؤلفا بين فكر فرويد وفكر هل وأن يخلقا من ذلك بنية نظرية أكثر شمولا ونفعا عما حققته نظرية فرويد ونظرية هل كل على حدة .

ولقد بينا فى مقدمة كتابهما عن الشخصية والعلاج النفسى أنه محاولة لوضع أساس أو قاعدة سيكولوجية لعلم عام للسلوك الانسانى. وأنه محاولة للتأليف بين ثلاثة اتجاهات علمية لكل منها تقاليده العظيمة واحد هذه الاتجاهات التحليل النفسى الذى أرسى مبادئه فرويد وتبعه كثيرون من تلاميذه الذين حاولوا استخدام هذه المبادىء والافادة منها فى العلاج النفسى . وأما ثانى هذه الاتجاهات فقد انبثق من أعمال بافلوف وثورنديك وهل وعدد آخر من علماء النفس التجريبين . الذين طبقوا المنهج العلمى الدقيق ، أى منهج العلوم الطبيعية فى دراسة مبادىء التعلم . وأما ثالث هذه الاتجاهات فيتمثل فى العلم الاجتماعى الحديث . وتتلخص أهميته فى قدرته على وصف الظروف الاجتماعية التى يتعلم فيها الناس . والهدف النهائى هو أن نصل حيوية علم النفس بدقة المنهج العلمى وبحقائق الثقافة. ويعتقد دولارد وميللر أن علم نفس من هذا النوع ينبغى أن يحتل مكانا أساسيا فى العلوم الاجتماعية وفى الانسانيات ؛ وان يغنينا عن أن يتقدم لنا كل اتجاه

من الاتجاهات الفكرية الثلاث مسلماته الخاصة عن الطبيعة الانسانية وعن الشخصية .

ويرجع تأكيد دولارد وميللر على اهمية مبادىء التعلم الى اعتقادهما بأن معظم السلوك متعلم . ولقد وضحا ذلك فى كتابهما عن التعلم الاجتماعى والمحاكاة (١٩٤١) والذى أهدياه الى كلارك هل . وبينا ان السلوك الانسانى متعلم ، وهو السلوك الذى يميز الانسان باعتباره كائنا حيا عقلانيا وعضوا فى امة معينة أو طبقة اجتماعية . ان هذا السلوك مكتسب وليس فطريا . ولكى نفهم فهما دقيقا اى عنصر من العناصر السلوكية — سواء أكان ذلك فى حياة الفرد أو حياة الجماعة — فان على الفرد أن يعرف المبادىء السيكولوجية اللازمة لتعلمه ، والظروف الاجتماعية التى يحدث التعلم فى ظلها . ولا يكفى أن نعرف هذه المبادىء وحدها او تلك الظروف لكى نتنبأ بالسلوك ، وانما ينبغى أن نعرف المبادىء والظروف معا . وعلم النفس يصف مبادىء التعلم ، بينما تصف العلوم الاجتماعية المختلفة ظروف التعلم وشروطه .

ودولارد وميلر لا يعتقدان بأن السلوك الظاهر وحده هو المكتسب او المتعلم ؛ ولكنهما يعتقدان ان العمليات المعقدة والمركبة ايضا مكتسبة كاللغة ، والكبت والابدال والصراع . ولما كانا يعتقدان ان اهم الانماط السلوكية متعلمة ؛ فانهما يذهبان ايضا الى أن فهم مبادىء التعلم اساسى اذا اردنا فهم السلوك الانسانى .

بنـاء الشخصية :

العادة هى وحدة بناء الشخصية ، وهى بيبسلسلة رابطة بين مثير واستجابة . وهى تمثل ما هو ثابت أو مستقر نسبيا فى الشخصية . غير أن مجموعة العادات والترتيب الذى تتخذه يتوقف على الوقائع الفريدة التى يخبرها الفرد . وفضلا عن ذلك فان هذه العادات مؤقتة ، فعادات اليوم قد تتغير نتيجة لخبرات الغد . وهى بهذا المعنى تكوين مؤقت وليس تكوينا ثابتا . ولا يحدد ميللر ودولارد مجموعة العادات التى قد تميز شخصا أو التى قد يشترك فيها مجموعة من الاشخاص . لقد انصب اهتمامهما على فهم عملية

التعلم ولم يتجه الى ما تم تعلمه أو اكتسابه . وقد اهتما بتحديد الظروف التى تؤدى الى تكوين العادات والى انحلالها أو استبدالها . وهما يلاحظان على أية حال ان فئة هامة من العادات تستثار بواسطة المثيرات اللفظية أو الكلمات سواء صدرت هذه المثيرات عن الشخص نفسه ام عن الآخر ، وان الاستجابات كثيرا ما تكون هى ايضا لفظية .

ويعتبر دولارد وميللر الدوافع الثانوية كالخوف من الجرس جزءا اساسيا مستقرا نسبيا من أجزاء الشخصية . وهذه الدوافع كثيرا ما تستمر على الرغم من الظروف التى يتوقعها الفرد والتى تؤدى الى انطفائها . والدوافع الأولية والروابط الفطرية بين المثير والاستجابة تسهم فى بناء الشخصية. والظاهرات الأخيرة على أية حال أقل مغزى من العادات والدوافع الثانوية لانها تحدد الجوانب المشتركة بين الناس ولا تحدد ما يميز الشخص ويجعله متفردا .

ديناميات الشخصية :

يهتم دولارد وميللر بالدافعية وهما لا يهتمان بوضع قائمة بالدوافع المختلفة أو بتصنيفها . لقد ركزا على دوافع معينة كالقلق وهما فى تحليلهما لهذه الدوافع وتتبع تطورها حاولا أن يوضحا العملية العامة التى تعمل بها جميع الدوافع .

والدوافع مثير يبلغ من الشدة درجة تكفى لدفع الفرد الى الفعل وعدد هذه المثيرات قليل وتعرف بالدوافع الأولية أو الموروثة وهى تتصل على الأغلب بالعمليات الفسيولوجية التى يؤدى اشباعها الى المحافظة على البقاء كالجوع والعطش . واهمية هذه الدوافع تتوقف على درجة شدتها . وعلى ما يتاح لها من فرص للاشباع . فاذا اتيح لدافع الجوع اشباع ، كلما اشتد لا يكون عاملا مهما فى سلوك صاحبه وتستند عملية التعلم على أساس تنمية الأساليب السلوكية التى تخفف حدة المثيرات الدافعة .

وتظهر لدى الانسان دوافع ثانوية كثيرة أو دوافع مكتسبة تستند الى الدوافع الأولية . وفى المجتمع المعاصر كثيرا ما لا تكون أهمية الدوافع الأولية

واضحة من الملاحظة العابرة للراشد الذى تم تطبيعه اجتماعيا . ان ما نراه بدلا من ذلك هو آثار الدوافع المكتسبة كالقلق والخجل والرغبة فى ارضاء الآخرين . ولا نرى بوضوح عمل الدوافع الأولية الا فى فترات الازمات وخلال عملية النمو .

نمـو الشخصية :

لكى نعرف كيف تنمو الشخصية ينبغى أن نعرف ما يولد الانسان مزودا به وهو الاستعدادات الأولية ، وان نعرف المبادىء التى يتعدل على اساسها ما نولد به وهى مبادىء التعلم ثم التنظيمات السلوكية الجديدة التى تنشأ عن هذه المادة الأوليـــة (الدوافع الثانوية والتنظيمات الهرمية المكتســبة للاستجابات) وان نعرف أيضا ما قد يحدث بين هذه التنظيمات من علاقات وئام وصراع وما ينشأ عنها من نتائج (العمليات اللاشعورية) .

فالوليد لديه عدد قليل من الأفعال المنعكسة المعينة وهى استجابات منفصلة لمثيرات معينة أو فئات من المثيرات ومن امثلتها ان لمسة على خـــده تجعله يدير رأسه فى اتجاه ذلك الخد . ولدى الوليد ايضا عدد من التنظيمات الهرمية الفطرية للاستجابة ، اى ان الوليد يصدر استجابات معينة بالنسبة لمثيرات خاصة قبل استجابات اخرى وعلى سبيل المثال يحاول الطفل الصغير أن يهرب من المثير المنفر قبل ان يصيح . ولدى الطفل مجموعة من الدوافع الأوليـــة أو المثيرات الداخلية القـــوية والملحة التى ترتبط عادة بعمليـــات فسيولوجية معروفة . وهذه الدوافع على سبيل المثال هى الجوع والعطش والألم — تدفع الكائن الحى أن يفعل ولكنها لا تحدد الأفعال النوعية او المعينة التى سيقوم بها .

وباستخدام هذه الامكانيات المحدودة ومبادىء التعلم يوضح لنا دولارد وميللر عددا من الظاهرات الهامة فى الشخصية من قبل : كيف يوسع ويمد الكائن الحى الاستجابات الأولية الى مواقف جديدة ، وكيف ينمى استجابات جديدة ؟ وكيف يحذف استجابات قديمة ؟ وكيف تشتق الدوافع الجـــديدة او الثانوية من الدوافع القديمة ؟ وكيف تحل التنظيمات الهرمية المتعلمة محل التنظيمات الهرمية الفطرية ؟

عمليـــة التعـــلم :

يرى ميللر ودولارد أن هناك أربعة مفاهيم أساسية فى عملية التعلم وهى : الدافع — الدليل — الاستجابة — التدعيم أو المكافأة .

الدليــــــل :

وهو مثير يوجه الاستجابة التى يصدرها الكائن الحى ، فالدافع يثير الفعل أو الاستجابة والدليل يحدد لها اتجاهها وهو يحدد متى تصدر الاستجابة وأين تصدر وأى الاستجابات تصدر . والذى يجعل من المثير دليلا اتصافه بصفة تجعله متميزا عن غيره. وقد يحدث هذا التميز على أساس صفة نوعية كأن يكون المثير سمعيا أو بصريا ، وقد يحدث هذا التميز على أساس درجة هذه الصفة النوعية شدة الصوت أو درجة اللون ، وقد تتميز المثيرات على أساس أنماطها فمجموعة من الحروف بترتيب معين تكون كلمة فاذا اتخذت ترتيبا آخر تكون كلمة أخرى . وقد يتخـــذ المثير معنى الدافع اذا ازدادت شـــــدته .

الاســــــتجابة :

تصدر الاستجابة بواسطة الدافع والأدلة الماثلة والتى تستهدف خفض هذا الدافع أو التخلص منه . وبعبارة أخرى فان الجوع دافع يدفع الفرد الى رؤية مطعم (دليل) ولا بد أن يدخله (اســــتجابة) حتى يمكن خفض الدافع بتناول الطعام وفى نظرية دولارد وميللر يمكن أن تكون الاستجابة ظاهرة ، أى أن تكون وسيلة مباشرة لخفض الدافع ، وقد تكون داخلية تستلزم التفكير والتخطيط والاستدلال مما ينقص الدافع فى النهاية .

وبعض الاستجابات أكثر فاعلية من استجابات أخرى فى خفض الدافع وهى التى ينبغى أن تصدر حين يظهر الدافع مرة أخرى . وينبغى تعلـــــم استجابات جديدة ازاء المواقف الجديدة ، وينبغى أن نثبط الاستجابات القديمة اذا لم تكن فعالة بأكبر قدر من الفاعلية . ان اعادة ترتيب احتمالات الاستجابة مع بزوغ ظروف جديدة أو مع تغير الظروف القديمة يسمى تعلما .

وتختلف الاستجابات من حيث احتمال صدورها بالنسبة لموقف معين ، ويسمى هذا التدرج فى احتمال الصدور بالتدرج الهرمى المبدئى واذا ظهر هذا التنظيم دون تعلم سمى بالتدرج أو التنظيم الهرمى الأولى او الفطرى وهو جزء من الاستعداد الموروث عند الكائن الحى ، ولكن الخبرة تعدل هذا التدرج وعندئذ يسمى بالتدرج أو التنظيم الهرمى المكتسب .

ان كل دليل يثير أو ينتزع عددا من الاستجابات فى وقت واحد تتفاوت من حيث احتمال حدوثها ويطلق هل على هذه الظاهرة التنظيم الهرمى للعادة، فحين يخبر الوليد الحديث تهيجا تصدر مجموعة من الاستجابات وفقا للتنظيم الهرمى الأولى لانه لم يحدث تعلم بعد . وهذا التدرج او التنظيم الهـرمى يتألف من مجموعة من الاستجابات التى تحددت وراثيا والتى تطلقها ظروف دافعية معينة ، فالوليد الجائع قد يكون فى البداية متململا ثم يصرخ ويتقيأ وهو يصرخ . لاحظ أن التنظيم الهرمى الأولى يوجد لفترة قصيرة جـدا من الزمن . ومع تعزيز استجابات معينة من التنظيم الهرمى يتغير وضعها فيه . ويطلق على الاستجابة التى يغلب احتمال حدوثها استجابة سائدة فى التنظيم وهى انجح الاستجابات فى تحقيق انقاص الدافع .

والتعلم يعيد تنظيم الاستجابات فى هرم العادة . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أنه اذا استطاعت استجابة سائدة فى التدرج أن تنقص دائمـا الدافع الموجود ، فانه لن يحدث تعلم قط . وعلى سبيل المثال اذا استطاعت الاستجابة الفطرية ، طرفة العين أن تبعد الجزئيات الشاردة عن العين فلن تكون هنك حاجة لتعلم غسلها .

التعـــزيز :

التعزيز عند دولارد وميللر يساوى انقاص الدافع أو خفضه . وكل مثير يؤدى الى انقاص الدافع معزز . وقد يكون المعزز اوليا وفى هذه الحالة فانه يشبع حاجة تتصل بالبقاء ، وقد يكون ثانويا . والمعزز الثانوى كما فى نظرية سكنر مثير حيادى فى الاصل اقترن على نحو منسق بمعزز اولى ، فالآن تصبح معززا ثانويا قويا لاقترانها بانقاص الدوافع الاولية .

واذا ادى دليل الى استجابة وادت الاستجابة الى التعزيز فان اقتران الدليل بالاستجابة سيقوى . واذا تكررت هذه العملية فاننا نستطيع أن نقول في آخر الأمر أن الكائن الحى قد اكتسب عادة قوية . ولكى يتعلم الفرد ينبغى ان يريد شيئا وان يلاحظ شيئا ، وان يعمل شيئا وان يحصل على شىء . وهذه العوامل اذا أردنا صياغتها بدقة هى : الدافع ، والدليل والاستجابة والمكافأة . (عماد اسماعيل ١٩٥٩ ، ٨٤ — ٨٦) .

الدوافع الثانوية وعملية التعلم :

هناك نوعان من الدوافع : الدوافع الأولية وهى التى تتحدد بيولوجيا ، والدوافع الثانوية وهى دوافع مكتسبة تتحدد ثقافيا . ومن الدوافع الثانوية الهامة الخوف ، واهميته واضحة بالنسبة للسلوك الانسانى المتوافق وغير المتوافق . ولكى نوضح كيف أصبح الخوف دافعا ثانويا مكتسبا ومشتقا من الألم نصف فى ايجاز تجربة أجراها ميللر ودولارد استهدفنا منها تحليل دافع الخوف. احضر الباحثان فارا ووضعاه فى صندوق يتألف من حجرتين : حجرة بيضاء واخرى سوداء ، ووضع الفار فى الحجرة البيضاء وعرضاه لصدمة كهربائية وتكرر ذلك عدة مرات . وكان يتاح للفار فى كل مرة الهرب الى الحجرة السوداء حيث لا يتعرض لصدمات . وبعد عدة محاولات من هذا الصنف أصبح وجود الفار فى الحجرة البيضاء مثيرا للخوف أى مثيرا لنفس الاستجابات التى كان يظهرها عندما كان يتعرض للصدمة الكهربائية هذا مع أن وجوده فى تلك الحجرة قبل البدء فى التجربة لم يكن له هذا الأثر. وعند هذه المرحلة من التجربة اتيح للفار ان يتعلم ادارة عجلة فى الباب الموصل بين الحجرتين. وقد تعلم الفار ذلك حتى على الرغم من عدم تعرضه لصدمات اضافية . ولقد ابدل ميللر العجلة بقضيب او رافعة ووجد أن الحيوان سرعان ما تعلم اطفاء استجابة ادارة العجلة التى لم تعد فعالة وتعلم الضغط على القضيب بدون صدمات كهربائية اضافية ، اى ان الحيوان نما استجابة خوف شرطية للحجرة البيضاء . واذا أردنا تفسير ما حدث للفار يمكن ان نقول أن اقتران الحجرة البيضاء (مثير شرطى) بالصدمة الكهربائية (مثير طبيعى) عددا من المرات ادى الى استجابة الخوف وكانت فى الأصل استجابة للصدمة

الكهربائية ولكنها اصبحت استجابة للحجرة البيضاء واصبح الخوف من الحجرة البيضاء دافعا متعلما يمكن انقاصه بتعلم الفأر ادارة عجلة الباب أو الضغط على الرافعة .

واهم نقطة بالنسبة لتجربة ميللر انها تبرهن على ان الخوف قد اصبح في ذاته دافعا يمكن انقاصه وان هذا يؤدي الى التعزيز . ولقد كان انقاص الخوف وليس الألم هو السبب في تعلم الحيوان لاستجابات ادارة العجلة أو الضغط على الرافعة . وهذا السلوك يقاوم الانطفاء مقاومة كبيرة لانه طالما أن الخوف موجود فان انقاصه يعزز الحيوان بدرجة كبيرة . لاحظ أن الحيوان في ظل هذه الظروف لا يبقى في الموقف فترة زمنية كافية لكي يتعلم أنه لن يتلقى أى صدمات اخرى وبالتالي يتخلص من استجابة الخوف . انه يواصل السلوك كما لو انه سوف يتلقى الصدمة مرة خرى اذا مكث في الموقف .

ويعتقد دولارد وميلر أن المخاوف المرضية والقلق واستجابات الخوف غير العقلانية الأخرى تنتج عن خبرات مشابهة على المستوى الانساني . ان هذا السلوك يبدو غير عقلاني للملاحظ لان تاريخ نموه ليس معروفا . والانسان يتعلم مخاوفه وقلقه على نفس النحو الذى تعلم به الفار الخوف في التجربة السابقة ، والطفل الصغير الذى يتكرر تعرضه للعقاب عند ضربه لاخته يتعلم الخوف من العدوان . والطفل الصغير الذى تقترن الوحدة عند بآلام الجوع ويتكرر هذا الموقف بالنسبة له قد يتعلم الخوف من الوحدة . ومن الممكن أن يؤدى العقاب الجسمى العنيف للسلوك الشبقي في الطفولة المبكرة بالفرد حين يكبر الى الانحراف في الأنشطة الجنسية وما يرتبط بها من افكار . وذلك لان التفكير فيها أو النزوع الى القيام بها يثير الخوف الذى ينقص نتيجة للهرب أو التجنب . وهذا الموقف يشبه موقف الفار في تجربة ميللر ، ان هذا الشخص لم يصبر فترة كافية ولم يتريث في الموقف المثير للقلق لكى يتعلم انه لن يتعرض للعقاب نتيجة لهذه الانشطة أو الأفكار . ان اطفاء استجابة الخوف مستحيلة في هذه الحالة وهذا يصدق على الفار وعلى الانسان على السواء . ان العمل الرئيسى للعلاج النفسي عند دولارد وميللر هو أن يوفر للمريض الموقف الذى يشجعه عى ان يخبر الأفكار المهددة دون ان يتعرض

العقاب . وبهذه الطريقة تتضاءل هذه الأفكار وتبطل . وهذا يشبه الى حد كبير ما كان فرويد يحاول عمله عندما استخدم التداعى الطليق وتحليل الأحلام ليكتشف الأفكار التى تعرضت للكبت .

تعميم المثـــــير :

اذا ارتبط مثير معين باستجابة معينة فان هذا المثير يثير تلك الاستجابة كلما حدث أو عرض ولا يقتصر الأمر على ذلك لان هناك مثيرات مشابهة لذلك المثير المعين ، وكلما ازداد هذا التشابه زاد ميل المثير لاثارة تلك الاستجابة التى ارتبطت بالمثير الأصلى . ويطلق على هذه الظاهرة تعميم المثير . ففى تجربة ميللر نتوقع أن يثار الخوف لدى الفأر نتيجة لوجوده بالحجرة البيضاء وكذلك لوجوده بحجرات رمادية اللون بدرجات مختلفة. غير انه كلما ازدادت الحجرة بياضا ازدادت استجابة الخوف ، لان الحجرة البيضـــاء هى التى ارتبطت بالآلم أصلا . أى ان استجابة الخوف تعمم على المثيرات الشبيهة بتلك التى تعلم الكائن الحى أن يخافها وكلما ازداد التشابه بين مثير جديد والمثير الأصلى كان أكثر اثارة للخوف .

وجميع الاستجابات المتعلمة تعمم على مثيرات اخرى . فاذا تعلم الطفل الخوف من الثعابين فانه يحتمل أن يخاف على الاقل فى البداية من الحبال . واذا كان المراهق يخاف من أبيه فانه يميل الى الخوف ممن يشبهه من الرجال، ومع مزيد من الخبرة يتعلم معظم الأسوياء أن يميزوا ، والتمييز عكس التعميم وهكذا يتعلم الطفل أن عليه أن يخاف من بعض الثعابين دون الأخـــرى والا يخاف من الحبال لانها آمنة . ويتعلم المراهق انه ينبغى عليه ان يخاف أباه فى بعض الظروف والا يخاف من يشبه أباه من الرجال لانهم ليسوا مصــــدر تهديد له . وهكذا فان التعميم يؤدى الى نزعة مبدئية لاستثارة الاستجابات المتعلمة بمدى عريض من المثيرات ، ولكن الخبرة اللاحقة تتيح للفرد أن يميز وبالتالى أن يستجيب للمثيرات استجابة انتقائيـــة . ويصـــدق هـــذا على الأسوياء ، أما العصابيون فانهم كثيرا ما يفقدون قدرتهم على التمييز وبالتالى يميلون الى المبالغة فى التعميم .

ويميز دولارد وميللر بين نوعين من التعميمات : التعميم الأولى والتعميم الثانوى . ويعتمد التعميم الأولى على التشابه الفيزيقى بين المثيرات وكلما ازداد التشابه بين المثيرين وتقاربا فى الخصائص الفيزيقية ازداد احتمال اثارتهما لنفس الاستجابة . والتعميم الأولى فطرى محكوم بجهاز الشخص الحسى.ويقوم التعميم الثانوى على العناوين اللفظية والتسميات وليس على التشابه الفيزيقى بين المثيرات وهكذا يستجيب الفرد لجميع الأفـراد الذين يسموا اصدقاء بنفس الطريقة كما يستجيب بطريقة واحدة لمن يسموا بالأعداء والخصوم . وبالمثل فان كلمة خطر تصدق على عدد كبير من المواقف الخطرة التى تميل الى اثارة انواع متشابهة من الاستجابات . والتعميم الثانوى هو ما يطلق عليـه دولارد وميللر المكافىء المكتسـب أو المتعلم learned equivalence وتتخلله اللغة . ومن المهم ان ندرك أن التعميم الثـانوى لا يقوم على الخصائص الفيزيقية ، وانه يمكن أن يؤثر تأثيرا مضادا للتعميم الأولى وذلك بتسمية واقعة طيبة واخرى سيئة على الرغم من تشـابههما فيزيقيـا .

العمليات العقلية العليا :

تتكون تفاعلات الفرد مع بيئته من نمطين . النمط الأول من التفاعل له اثر مباشر على البيئة بصفة علمة ويوجهه دليل واحد (من أمثلة ذلك ضغط قائد السيارة آليا على كلبحها حين يرى طفلا يندفع فى الطريق أمامه) والنمط الثانى من التفاعلات هو ذلك الذى يتضمن استجابات تنتج ادلة تؤدى أساسا الى استجابات اخرى وتهيىء لها الطريق.وهذا النوع من الاستجابات تتخلله عادة سلسلة من الوقائع الداخلية التى نسميها تداعى افكار أو خواطـر (كأن ترى متجرا للآلات ، وتتذكر انك فى حاجة الى آلة معينة . وتتذكر فى مقدار ما معك من نقود وما اذا كان يكفى لشرائها وتقرر دخول المتجر) .

واللغة مثال انسانى ممتاز للاستجابات التى تنتج ادلة ، فالكلمـات المنطوقة أو المكتوبة والأفكار والايماءات كلها استجابات من النوع الذى ينتج ادلة ويؤدى الى استجابات جديدة . وكثير من هذه الاستجابات تساعد على

التفاهم والتواصل مع الآخرين كما يحدث حين تطلب من جارك فى الصف أن يعيرك قلما .

ومن أهم وظائف الاستجابات التى تنتج أدلة وتـؤدى الى استجابات أخرى وظيفتان هما : التعميم والتمييز ، ذلك أننا حين نعنـون واقعتين أو حدثين بعنوان واحد فاننا نزيد من درجة التعميم بالنسبة لهذين الموقفين أو الدليلين ، كما يحدث حين نطلق على عاصفة توشك أن تهب ، وعلى محاضرة عامة عليك أن تلقيها بأنهما حدثان يملآن النفس رهبة ويثيران القلق مع أنهما مختلفان فيزيقيا . ان وصفنا لهما بكلمة مقلق تعنى أننا سوف نستجيب لهما على الأغلب بطريقة متشابهة . ومن ناحية أخرى اذا عنونا موقفين متشابهين باعتبارهما متمايزان ومختلفان كأن نقول غدا عشاء مع الأسرة وبعـد غد عشاء مع مدير الجامعة وضيوفها ، فأن سلوكنا قد يختلف فى المناسبتين .

ويتم التأكيد فى كل ثقافة على تعميمات وتمييزات أساسية وهامة عن طريق اللغة ومن أمثلة ذلك أن سكان جزيرة كوك Cook Islanders والذين يتأثرون فى حياتهم باقتصاديات جوز الهند تأثرا كبيرا يستخدمون ١٢ كلمة وعبارة مختلفة لوصف مراحل نضج ثمرة جوز الهند ووصف خصائصـها . ويصدق مثل هذا على الاسكيمو الذين تتوافر فى لغتهم خمسين كلمة مختلفة لخصائص الجليد وأنواعه .

ويؤكد دولارد وميللر تأكيدا كبيرا على دور اللغة فى الدافعيـة وفى الاثابة وفى التبصير . انهما يؤكدان على وجه الخصوص ويبرزان قـدرة الكلمات على اثارة الدوافع (فوصف أضرار التدخين ونتائجه تثير الخـوف لدى المدخنين) وقدرتها على التعزيز (كالاشادة بأحد الأبناء لانه أنجز عملا باتقان) وقد تفيد الكلمات فى تبصير الفرد بالعواقب وبأهمية الزمن فى حياته أى أننا نستطيع أن نعزز السلوك الحاضر بوصف لفظى لنتائجه المستقبلية (كأن نقول لأحد ابنائنا يوم الخميس : لو أنهيت واجباتك المدرسية اليـوم تستطيع أن تذهب للصيد غدا) .

وواضح أن التـدخل اللفظى فى مسلسـل : الدافع — الدليـل —

الاستجابة — التعزيز هو الذى يجعل السلوك الانسانى معقدا . وبغير الكلمات والأفكار يصعب ان نحافظ على قوة الدافعية عبر الزمن .

والاستدلال هو فى الاساس استبدال استجابات داخلية تصدر ادلة بأفعال ظاهرة وهو أسلوب اكثر كفاءة وفاعلية من معالجة المسائل وحلها بالمحاولة والخطأ الظاهرين . أن الاستدلال يختصر عملية الاختيار من بدائل لانه يمكننا من اختبارها عقليا دون تجريبها فعليا . ان الاستدلال ييسر التخطيط للأعمال المستقبلية . ان الاستجابات الاستباقية او الاستجابات التى تحدث مبكرا عما كان ينبغى لها فى المتتابعة الأصلية يمكن ان تحدث داخل الفرد بسهولة اكبر عن القيام بها فى الواقع وما يرتبط بها من افعال غير مفيدة . وعلى سبيل المثال فانك اذا خرجت من منزلك لشراء شىء من متجر قريب وتذكرت أن الطريق الذى تسلكه عادة مغلق وقيد الاصلاح عند نهايته، فانك تتحول الى طريق آخر بدلا من أن تقطع الطريق الأول الى نهايته وتعود ادراجك لتسلك طريقا آخر ، أى ان الاستجابات الداخلية المحدثة للأدلة (الأفكار) يمكن أن تبدأ بموقف الهدف وتعود راجعة لتحديد الاستجابة المناسبة للموقف . ان المحاولات والاخطاء المعرفية افضل من المحاولات والاخطاء الفيزيقية وهى اكثر منها كفاءة لان التفكير العقلى فى المسألة او المشكلة يتيح الاقتراب منها بوجهات نظر مختلفة او من زوايا متباينة ولا حاجة الى التقيد بتسلسل ثابت من الخطوات .

وحين تكون الاستجابات المنتجة للأدلة جزءا من حل لمسألة حاضرة ومباشرة فانه يطلق على هذه العملية استدلالا ؛ اما اذا كانت هذه الاستجابات موجهة لحل مشكلة مستقبلية فانه يطلق عليها تخطيطا .

السياق الاجتماعى :

يؤكد دولارد وميللر على انه لا يمكن فهم السلوك الانسانى الا بفهم السياق الثقافى الذى حدث فيه هذا السلوك . ويساعدنا علم نفس التعلم على فهم مبادىء التعلم وكيف يتم اكتساب العادات والدوافع الثانوية وكيف يتم التعميم والتمييز ... الخ . وهذه تساعد المتخصص فى العلوم الاجتماعية على أن يفسر على نحو نسقى الوقائع الثقافية الهامة . هذا من ناحية ومن

ناحية اخرى يساعد عالم الاجتماع وعالم الانتربولوجيا المنظر فى مجال التعلم على أن يوائم مبادىء التعلم والخبرات الانسانية الفعلية التى تشكل شروط التعلم . واذا أريد فهم النمو الانسانى فهما تاما فلا بد من الجمع بين مبادىء التعلم وشروطه .

ما هى الميكنزمات التى تنتقل بها الثقافة من جيل الى جيل ؟ لا بد أن يتم تعليم العادات الاجتماعية للأطفال على يد الكبار،ولا بد للأطفال أن يتعلموها ممن يكبرونهم سنا . وينبغى أن يتم هذا النقل للثقافة وفقا لقوانين التعلم . واذا كان المتخصصون فى علم الاجتماع والانتربولوجيا يجدون أن معرفة مبادىء التعلم لها قيمتها فى حل مشكلات فى ميدانهم ، انهم سوف يجدون أيضا أن التأكيد على الشروط التى يتم فيها التعلم لا يقل أهمية عن مبادىء التعلم .

ويعتقد دولارد وميلر أن مبادىء التعلم التى توصلا لها تنطبق على جميع الثقافات ، أى أنها صادقة عبر ثقافيا ٪ ولكنهما يعتقدان فى نفس الوقت أن أنماط الشخص السلوكية بخصائصها الدقيقة تتأثر تأثرا كبيرا بالمجتمع الذى تنتمى اليه .

مواقف التدريب الحرجة :

يشبه دولارد وميلر حالة الوليد بالذهان الانتقالى . فالدوافع الأولية القوية تدفعه الى الفعل ، ولا يتوافر لديه الا عدد قليل من الاستجابات التى تحقق التعزيز . والاستجابة السائدة فى هرم الاستجابات الفطرية نشاط عام قوى يلقى التعزيز أحيانا ولا يلقاه معظم الأحيان . ويتذبذب الوليد بين الألم الناشىء عن الدوافع القوية ونعيم الاشباع التام ، وهو يعجز عن اراحة نفسه بفكرة « سوف تحضر زجاجة اللبن حالا » ، لعدم قدرته على التخطيط والتفكير ولعدم ادراكه للزمن . ان العالم بالنسبة له مجموعة من الوقائع المختلة وذلك لان التخطيط يتطلب لغة وكلاما وكل ما يستطيع أن يتلفظ به هو الصراخ . وبينما نجد أن هذا العجز التام والدافع القوى يهيىء المسرح للتعلم ، الا أن هذه الظروف نفسها ملائمة لاكتساب صراعات عنيفة .

وطالما ان الاخفاق والصياح يتعززان ، فانه لا يمكن تعليم الطفل القيام

باستجابات جديدة . ان نجعل الطفل يتعلم استجابات جديدة معناه ان الاب يضعه بحيث يواجه معضلة تعلم a learning dilemma ، اى ان الاب ينبغى أن يمنع التعزيز عن الاستجابة السائدة بحيث يمكن لاستجابة اخرى اقل احتمالا من حيث الحدوث ان تصدر . أما متى يصبح الطفل مستعدا للمضى لتعلم استجابات جديدة ، فان ذلك لا يتحدد بنضجه فحسب ، ولكنه يتحدد بمقتضيات الثقافة . ويجدد مجتمعنا انماطا سلوكية مختلفة لكل عمر ، أى ان هناك انماطا سلوكية ملائمة للأطفال فى اعمار معينة وتتطلبها الثقافة منهم . فهناك وقت للفطام ، وآخر لضبط الاخراج وثالث لضبط المثانة . وهناك وقت تساعد الأم فيه طفلها على ارتداء حذائه ووقت آخر يعتمد فيه على نفسه . وحين يساير الطفل هذه التوقعات الوالدية التى تتدرج وفقا لعمره يلقى التعزيز لا بسبب هذه الاستجابة المحددة بل لكى يفى بهذا المطلب المناسب لسنه . ومتى تقبل الطفل هذه الأنماط السلوكية المتدرجة او الملائمة لعمره فان عليه أن يتعلم دافعا ثانويا هو ان يصبح كبيرا وناضجا . وعندئذ فاننا حين نعتبره طفلا فاننا نعاقبه وحين نطلق عليه شابا معناه اننا نعززه .

وفى مجال تدريب الطفل يحدد دولارد وميللر اربعة مواقف تتم فيها انواع من التعلم الهامة للشخصية . واول هذه المواقف موقف الجوع الذى يتيح للطفل كثيرا من الفرص للتعلم ، لانه موقف يواجه الطفل منذ الميلاد ويصبح شديدا عدة مرات فى اليوم. ان ما يتم تعلمه فى موقف التغذية يتوقف على الوقت الذى يتم فيه التغذية فى متتالية الجوع،فاذا اطعمنا طفلا صغيرا على نحو روتينى حينما يكون نشطا نشاطا عاليا او معتدلا فاننا نعزز استجابة المص ليس ذلك فحسب بل ونعزز ايضا مستوى النشاط ؛ اما اذا لم نطعم الطفل حتى يبلغ المراحل الأخيرة من المتتالية ، اى بعد ان يكون قد انهك فاننا نعزز عدم الاكتراث . ان مثل هذا التدريب قد يتم تعميمه ليشمل النشاط او السلبية فى مواجهة مثيرات دافع آخر .

وهناك خاصية أخرى هامة من خصائص الشخصية يمكن تعلمها فى موقف التغذية وهى الاتجاه النفسى نحو الآخرين ، فبمقدار حضور الام ووجودها وقت انتقاص دافع الجوع بمقدار ما يصبح وجودها معززا ثانويا

ودائعا للرغبة فى حضورها. ذلك أن هذا الحضور لا يجلب التعزيز فحسب، بل انه مع التعميم يكتسب الآخرون قيمة معززة ويسعى الفرد للتعامل معهم. هذا من الناحية الايجابية ، أما من الناحية السلبية فاذا سمح للطفل أن يبقى وحده فى حالة مؤلمة بسبب دافع الجوع الشديد فانه يتعلم الخوف من الوحدة والعزلة . وكذلك اذا صاحب موقف التغذية عقاب الأم ، قد يقترن الخوف بوجودها ويحدث تعميم يشمل الآخرين وخاصة حين يكون دافع الطفل قويا .

والموقف الحيوى الهام الثانى من مواقف التدريب هو تعلم عادات النظافة . وهذه العادات صعبة على وجه الخصوص بالنسبة للطفل لان الاستجابة لاسترخاء عضلات الشرج وعضلات المثانة فى وجود أمارات أو أدلة امتلاء الامعاء أو المثانة ترتبط بالخوف . ومتى حدث هذا سوف يستخدم انقاص دافع الخوف لتعزيز تدريب الطفل على التمييز بين الأماكن التى يؤدى انقاص الدافع فيها الى الاستمرار فى اثارة القلق ، والأماكن التى يمكن ان تحدث فيها هذه الاستجابات دون خوف وكيف يتم ذلك . واذا استجابت الأم استجابة سالبة لعجز الطفل عن ضبط أمعائه أو مثانته فقد لا يستطيع التمييز بين عدم تقبلها لما عمله وعدم تقبلها له . وعلى الرغم من أن من الضرورى تدريب الطفل على الاخراج ، الا أن الطريقة التى يتم بها هذا التدريب لها أثر عميق فى تكوين شخصية الطفل .

والموقف الحيوى الثالث هو التدريب الجنسى المبكر والذى يتركز فى جهود الطفل للاستمناء . واذا عاقبت الأم هذه الاستجابات سوف يصبح الدافع الجنسى وسلوك الاستمناء مثيرا للخوف وتدريب الطفل لكى يصبح خائفا من هذه المثيرات أو الادلة يمكن زيادته عندما نسمى هذا الدافع أو المثير والاستجابات المرتبطة به قذرة وفاحشة . ومثل هذا التدريب لسوء الحظ يمكن أن يؤدى على نحو طبيعى الى تعميم يشمل الفراش والمخاوف المرضية المتصلة بالنوم . واغلب الظن أن التحريمات المرتبطة بالمسائل الجنسية أكثر من التحريمات التى ترتبط بأى نوع آخر من النشاط وأن التشدد فى هذه المسألة جزء من أساليب التنشئة فى ثقافتنا . وترتيبا على ذلك فانه ليس غريبا أن تكون الصراعات الجنسية موضوعا شائعا فى عيادة التحليل النفسى . ان الدافع الجنسى فطرى ولكن الخوف من الافكار والأنشطة الجنسية متعلم ويتم تعلمه فى الطفولة .

والموقف الرابع يتناول صراعات الغضب والقلق. ان الاحباط لا مفر من التعرض له فى الطفولة وفى جميع الاعمار الأخرى ونحن نتعلم اكثر الاستجابات شيوعا للاحباط ، نتعلم العدوان . والسلوك العدوانى من قبل الأطفال فى ثقافتنا يقابل عادة برفض والدى أو بعقاب . ويوضع الأطفال فى صراع آخر من صراعات الاقدام — الاحجام ، أى أنهم يريدون ان يكونوا عدوانيين ولكنهم يكفون او يكبحون جماح هذه النزعة لخوفهم من العقاب . وقد يؤدى هذا الى السلبية بحيث يعجز الفرد عن التنافس الناجح فى المجتمع المعاصر .

العمليات اللاشعورية :

. تتسق نظرية دولارد وميللر تماما مع التحليل النفسى من حيث الاعتراف باهمية العوامل اللاشعورية ولكنهما يختلفان عن فرويد فى تفسيرهما لأصل هذه العوامل . ان دولارد وميللر يفسران العوامل اللاشعورية تفسيرا يقوم على اساس مبادىء التعلم وهما يقسمان محتويات اللاشعور الى قسمين : يضم القسم الأول ما لم يكن شعوريا قط ويضم القسم الثانى ما كان شعوريا ولكنه لم يعد كذلك . ان القسم الأول يشتمل على اشياء تعلمها الناس تعلما غير لفظى كتفاصيل المهارات الحركية من قبيل طريقة تعلم ارتقاء السلم ، وركوب الدراجة ... الخ . اما القسم الثانى فيضم ما ليس متاحا للشعور بسبب ما تعرض له من كبت .

اننا نتعلم ان نكبت او أن نتجنب افكارا معينة ونستبعد ذكريات خاصة كما نتعلم اى استجابة اخرى ، لان عدم التفكير فيما يخيفنا يؤدى الى انتقاص الخوف وبالتالى يؤدى الى التعزيز . وهكذا يصبح الكبت جزءا اساسيا فى حصيلتنا . اى ان استبعاد هذه الأفكار او الذكريات (الكبت) يؤدى الى خفض التوتر او انتقاص الدافع فتدعم استجابة الكبت على هذا الأساس . وفى البداية نفكر فى الفعل المخيف أو الواقعة المخيفة ونخبر الخوف ونتوقف عن التفكير فيه — وهكذا نتخلص من الخوف ونلقى تعزيزا على هذا الكبت . لان اى استجابة تؤدى الى استبعاد مثيرات الخوف تميل الى أن تعزز وتثبت . وفى نهاية الأمر تصبح استجابة عدم التفكير استباقية ، اى انها تحدث قبل أن نعيد تشكيل الفكرة المخيفة والكبت يمنع ايضا انطفاء الأفكار المخيفة لانه

يمنع استجابة الخوف من الحدوث واذا لم تحدث استجابة تم تعلمها — ثم حدثت فى غيبة التعزيز — فلا يمكن أن يحدث الاطفاء .

ان الميل الى الكبت يحدث مبكرا . وكثيرا ما يعاقب الأطفال لاستخدامهم كلمات محرمة أو حتى لمجرد القول بأنهم ينوون عمل شىء يمنعه الوالدان . وأحيانا يعاقبون لمجرد التفكير فى أشياء معينة ، وكثيرا ما يستنتج الوالدان من سلوك الأطفال أفكارهم المتمردة ويعاقبانهم قبل أن يقترفوا أشياء ممنوعة بفترة زمنية طويلة . ويمكن أن تؤدى هذه الخبرات وغيرها بالطفل الى التعميم من الفعل المعاقب الى فكرة الفعل وبالتالى تكبت الفكرة . ولحسن الحظ فان الناس كما يعممون يميزون ، فالطفل قد يتعلم أن من المعقول أن يفكر فى اشياء معينة حتى ولو كان القيام به خطأ .

ان الشعور هام جدا كما يقول دولارد وميلر لان العناوين والأسماء أساسية لعملية التعلم . والتعميم والتمييز يصبحان أكثر كفاءة باستخدام الرموز اللغوية . واذا لم نستطع أن نعنون الأشياء ونسميها فاننا سوف نضطر الى العمل عند مستوى فكرى بدائى ، وسوف نكون أكثر عيانية وأكثر ارتباطا بالمثير ، وسوف يصبح سلوكنا أقرب الى سلوك الطفل الوليد والحيوان حيث تكون اللغة لديهما غائبة تقريبا أو عند حدها الأدنى .

الصـــــــراع :

الصراع أحد مفاهيم فرويد التى درسها ميلر وتلامذته دراسة متعمقة . ولقد سبق أن درس ليفين (١٩٣٥) هذا المفهوم . ولقد أفاد ميلر من جهود فرويد وليفين على السواء . لقد تحدث فرويد عن أن الكائن الانسانى يرث طاقة غريزية (لبيدو) وأن هذه الطاقة تصطرع مع مطالب المجتمع والآنا الأعلى . ولكن دولارد وميلر يرون ان هذا الصراع مكتسب وانه يتم تعلمه فى الطفولة المبكرة اى فى السنوات الخمس الأولى من الحياة ، اى أن الطفل يكتسبه من والديه بسبب ممارستهما للطرق الخاصة فى التربية . لقد رأى فرويد أن الشخص ينجذب الى الشىء أو الموضوع ويصد بواسطته فى نفس الوقت . ولقد أطلق على هذا فيما بعد صراع الاقدام — الاحجام . وهو أحد أنواع ثلاثة درسها ميلر .

صراع الاقدام — الاقدام :

وينشأ هذا الصراع بين هدفين موجبين ، اى ان هذا الصراع ينشأ بين دافعين كلاهما يدفع الفرد الى الاقتراب من هدف معين . كما يحدث فى حالة الشخص الذى يريد أن يذهب الى المسرح مع اصدقائه او فى رحلة مع ابيه . وهذا النوع من الصراع يسهل حله باحراز احد الهدفين ، ثم الهدف الذى يليه كأن يذهب الى الرحلة مع ابيه ويؤجل مشاهدة المسرحية مع اصدقائه فى وقت آخر .

صراع الاحجام — الاحجام :

وهنا لا بد للفرد أن يتخير هدفا من هدفين سلبيين او بين دافعين كلاهما يدفعه فى نفس الوقت الى الابتعاد عن هدف معين كما فى حالة الطفل الذى يطلب منه شرب اللبن وهو يكرهه او يلقى عقابا من الأم . والتلميذ قد يكون عليه ان يحل واجب الحساب وهو يضيق به ذرعا او يحصل على درجات منخفضة . ويتسم هذا النوع من الصراع بخاصيتين احداهما التردد وصعوبة اتخاذ القرار والثانى الهرب . وقد يكون الهرب بترك الموقف الذى ادى الى الصراع ، أو بالهرب العقلى وذلك بالانشغال بافكار اخرى او باحلام اليقظة .

صراع الاقدام — الاحجام :

وهو صراع ينشأ بين دافعين يستثاران فى نفس الوقت وفى اتجاهين متضادين ويحدث ذلك حين ينجذب الفرد الى هدف ويصد عنه فى وقت واحد فالعمل قد يكون جذابا بسبب ارتفاع الأجر ولكنه قد يكون مملا . والشاب قد يتقدم لخطبة فتاة ولكنه يشعر فى نفس الوقت بالخوف والاضطراب والخجل .

وقد قام دولارد وميللر بدراسة وتحليل هذه الانواع الثلاثة من الصراع على اساس تجريبى فى اطار نظريتهما ، اى على اساس المبادىء الاساسية للتعلم ويورد ميللر النقاط الآتية باعتبارها اكثر خصائص صراع الاقدام — الاحجام وضوحا : —

(أ) النزعة الى الاقدام على الهدف تزداد قوة كلما اقترب الفرد منه ويسمى هذا مدرج الاقدام .

(ب) الميل الى تجنيب المثير المخيف يزداد شدة كلما اقترب الفرد منه ويسمى هذا مدرج الاحجام .

(جـ) يزداد معدل نزعات الاحجام بسرعة أكبر مع الاقتراب من الهدف عن معدل تزايد نزعة الاقدام .

(د) ان شدة النزعة الى الاقدام أو التجنب تتباين على نحو مباشر مع تباين الدافع الذى تقوم عليه .

(هـ) حين تتصارع استجابتان لا سبيل الى اتساقهما ، فان اقواهما هى التى تحدث .

وقد اجرى ميللر معظم بحوثه المكثفة على هـذا النوع من الصراع . والخلاصة انه كلما كان مدرج الاقدام أعلى من مدرج الاحجام فان الشخص سوف يقدم على الهدف،وبمجرد أن يصبح مدرج الاحجام أعلى سوف يتجنب الشخص الهدف . وعلى هذا فانه لما كان مدرج الاقدام يزداد ارتفاعا كلما ابتعد الفرد عن الهدف فسوف يكون لديه ميل قوى للاقدام . ومع اقدام الفرد على الهدف يزداد الميل الى الاحجام ويصبح أقوى تدريجيـا من الميل الى الاقدام ، وعند هذه النقطة سوف يتراجع الشخص عن الهدف.وهكذا نتوقع التذبذب والحيرة عند النقطة التى يتقاطع فيها المدرجان . ونحن نعرف جميعا أزواجا لديهم قدر من الشك عن العلاقة التى تربط بينهما ، فهما ينفصلان حينا ثم يعودان أحدهما الى الآخر حينا آخر ويعاودان الانفصال وهكذا ، وفى فترة الانفصال تكون الجوانب الايجابية من علاقتهما هى السائدة ، وهكذا فهما ينجذبان احدهما الى الآخر ومتى عادت العلاقة الى سابق عهدها يدركان الجوانب السلبية من العلاقة فيتجها الى الانفصال وهكذا .

العصاب وتكوين الأعراض العصابية :

يذهب دولارد وميللر الى ما ذهب اليه فرويد من افتراض أن الصراع أساسى فى السلوك العصابى وأن هذا الصراع لا شعورى ويتم تعلمه عادة فى الطفولة .

والعصاب مفهوم غامض.ويبدو أن العصابى لا يستطيع تحديد المقصود

بالعقلب بدقة ويصدق هذا أيضا على من يعيشــون معه ويخالطونه . ان العصابى قادر على الفعل وعلى التصرف ولكنه لا يجد متعة فيما يعمل . وقد يكون قادرا على العدوان ولكنه يبدو خنوعا معتدلا ، وقد يقدر على العطف ولكنه يكون باردا وغير متجاوب . ويدرك من يعيشون مع العصــابى انه لا يهتبل ما يتاح له من فرص لاشباع دوافعه. وعلى الرغم من صعوبة تعريف العصاب على نحو دقيق الا أن من الواضح ان العصابى تعس ، وانه غبى آزاء أشياء معينة تتصل بوجوده وكثيرا ما ينمى أعراضا جسمية لا تعدو ان تكون مظاهر لصراع مكبوت .

فاذا عوقب الأطفال عقابا عنيفا على انشطتهم الشبقية مثلا فســوف يتعلمون كبتها حين يصبحون كبارا ، وهــذا الكبت يتم بالنســبة للتصرفات وللأفكار . وسوف يعيش هؤلاء ولديهم دافع جنسى يدفعهم بشدة نحــو ما يشبعه ، ولديهم فى نفس الوقت خوف شديد من العقاب يمنعهم من هذا الاشباع ، وفى ظل هذه الظروف يتم كبت هذه الافكار عن النشاط الجنسى، ويبقى صراع الاقدام الاحجام قويا فى اللاشعور بحيث لا يمكن اســتخدام اللغة لوصفه وتحليله .

وبغير اللغة والتسمية السليمة لا تستطيع العمليات العقلية ان تعمل عملها . وحين يعاق عملها بالكبت لا يستطيع الشخص ان يواجه نفســـه بوسائل عقلية تلمسا لحل هذا الصراع . ولما كان العصابى لا يستطيع ان يساعد نفسه فلا بد أن يستعين بالآخرين ، هذا على الرغم من وجود الملايين الذين يعانون من اعصبتهم ولا يجدون مساعدة من الآخرين . والعصابى يبدو غبيا لانه عاجز عن استخدام عقله فى معالجة مشكلات معينة . انه يشعر أن شخصا ما ينبغى ان يساعده ، ولكنه لا يعرف كيف يطلب العون لانه لا يعرف مشكلته . انه يعانى ولكنه لا يستطيع أن يشرح او يفسر ما يعانى منــه . وهكذا نجد العصابى واقعا فى صراع لا يحتمل ولا يستطيع منه فكاكا صراع بين دوافع محبطة من ناحية وخوف من الاقدام على الاستجابات التى تشبع تلك الدوافع من ناحية اخرى .

ويتم تعلم الأعراض العصابية لانها تنقص الخوف او القلق . وهذه

الأعراض لا تحل المشكلة الأصلية شأنها فى ذلك شأن الكبت ولكنها تجعل الحياة محتملة مؤقتا . ان الأعراض لا تحل الصراع الأساسى الذى يعيشه الشخص ، انها استجابات تنقص الصراع وهى تنجح فى ذلك جزئيا . وحين يظهر عرض ناجح يلقى التعزيز لانه ينقص التعاسة العصابية ، وهكذا يتم تعلم العرض ويصبح عادة . ومن وظائف الأعراض انها تبعد العصابى عن المثيرات التى تنشط صراعه العصابى وتقويه . وهكذا فان قائد الطائرة الحربية الذى يدرك ان كارثة عسكرية توشك أن تلم به ، قد يبتعد عن أى طائرة تدخل فى مجال رؤيته ، وهو حين يقترب من الطائرة يرتفع قلقه وحين يبتعد عنها ينخفض قلقه . ويلقى هذا الاحجام والتجنب تعزيزا . ان هذا الخوف المرضى الذى يؤدى به الى سلوك التجنب أو الابتعاد هو الذى يؤلف عرضه . واذا لم يفهم الملاحظ من الخارج الموقف ككل فان سلوك التجنب هذا من قبل قائد الطائرة الحربية يبدو نشازا وشذوذا ، بل ويصعب فهمه وتفسيره .

العلاج النفسى :

اذا كان السلوك العصابى متعلما فان من الواجب أن نمحوه بنفس المبادىء التى تم تعلمه بها . والعلاج النفسى يهيىء مجموعة من الظروف أو الشروط التى فى ظلها يتم محو العادات العصابية والمعالج فى هذه الحالة معلم والمريض متعلم .

وعلى الرغم من وجود بعض الفروق فى اللغة الاصطلاحية فان دولارد وميللر يقترحان توفير ظروف علاجية تشيع فى طرق علاجية أخرى ذلك ان المعالج المتسامح من وجهة نظرهما والمشارك وجدانيا يشجع المريض على التداعى الحر أو الطليق وعلى أن يعبر عن مشاعره وكيف نمت وتطورت .

ويرى دولارد وميللر أن القلق والشعور بالاثم لا ينطفئان لدى الشخص الذى يسعى للعلاج لانه قد نما أساليب تؤدى الى تجنب استثارة هذه المشاعر ، وهكذا يحاول المعالج أن يهيىء الظروف التى تؤدى الى انطفاء هذه الانفعالات المقلقة ، ويشجع العميل على ان يعبر عن أفكاره ومشاعره الممنوعة وأن يخبر الخوف والشعور بالاثم الذى تثيره تلك الأفكار والمشاعر

وحدوث النتائج المخيفة فى موقف العلاج يؤدى الى انقاص الخوف والى عدم ممارسة الكبت وبدون تعزيز ينطفىء الخوف تدريجيا ويتلاشى .

ومع اضمحلال القلق والشعور بالاثم بالنسبة لهذه المشكلات يحدث تعميم لأثر الانطفاء ليشتمل على مشكلات اخرى مثيرة للقلق مما ييسر على الشخص مواجهتها . ويصبح الشخص اقدر تدريجيا على مواجهة الصراعات الرئيسية ومعانى الأعراض . ويشجع المعالج الشخص على أن يستخدم العناوين أو التسميات اللفظية التى تساعد على التمييز بين المخاوف الداخلية والوقائع او الحقائق الخارجية بين عالم الطفولة وعالم الراشدين . ان العنونة او التسمية وما ينتج عنها من استبصار تساعد المريض على الانغماس فى انشطة عقلية عليا تجعل السلوك المتوافق ممكنا .

وينبغى على العصابى أن يميز بجلاء ويتبين أن الصراعات والوان الكبت التى يعانى منها ليس لها ما يبررها فى ظل ظروف التعزيز الراهنة وعليه أن يتعلم أن الخبرات الماضية التى ادت الى خلق ما لديه من صراعات مختلفة عن الظروف الحالية وبذلك يجد فى نفسه الثقة على تجربة استجابات جديدة يمكن تعزيزها الأمر الذى يخفف من العصاب ويمحوه .

وعملية التمييز تساعد المريض على التخفف من شدة القلق الذى يمنعه من الاستجابة التى عرضته للعقاب فى الماضى وتم كفها واطفاؤها فى الموقف الحالى . ان عملية التمييز هذه تساعد المريض على ادراك اختلاف الموقف الحالى عن الماضى وهذان الاسمان ماضى وحاضر يساعدان على ادراك الفرق بين موقف خطر وآخر غير خطر مما يخفف من قلقه . ثم تعمم عملية التمييز هذه الى المواقف المشابهة .

فالعلاج النفسى كما يراه دولارد وميللر (وكذلك فرويد) عملية انطفاء تدريجى (تنفيس) تعتمد على التعميم لان الوقائع التى يناقشها المريض مع المعالج ينبغى ان تتصل على نحو ما بالشىء أو الشخص او الواقعة التى لها اهمية عند المريض.ويمكن القول ايضا ان التجنب يزاح وينقل الى موضوعات شبيهة بالموضوع الذى يتجنبه المريض اكبر قدر من التجنب وهكذا فان المريض الذى تعلم أن يخاف أمه (بغض النظر عن الأسباب التى ادت اصلا الى ذلك

الخوف) سوف يتجنب أولئك اللائي يشبهنها (تعميم اولى) او جميع الأمثلة (تعميم ثانوى) بل أنه قد يخاف خوفا معتدلا من النساء عامة وهكذا فان الصراع والانطفاء والتعميم والتمييز والابدال او الازاحة كلها اجزاء من العملية العلاجية .

والعلاج النفسى لا يتوقف بمجرد التنفيس عما هو مكبوت والتخفف منه والمريض عادة يكون قد قضى فترة طويلة من حياته مع هذه الأفكار والمشاعر المكبوتة ، وان من المستحيل تناول المادة المكبوتة على نحو فعال ، ولذلك فستكون هناك فجوات فى حياته حتى بعد علاجه نفسيا . فالشخص الذى عانى لفترات طويلة من خوفه من الأم والنساء ، او من كراهية شديدة لرؤساء فى العمل أيا كانت خصائصهم ، او من عدم قدرته على الاستمرار فى عمل من الأعمال يعيش منه سوف يحتاج الى قدر من الارشاد والتوجيه بعد العلاج حتى يتوافق مع متطلبات الحياة بعد علاج مشكلته والتخلص من الكف الذى عانى منه طويلا . وهذا التوجيه هام فى العمل العلاجى .

البحوث المميزة :

لقد قام ميللر ودولارد وتلاميذهما بقدر كبير من البحوث لاختبار فروض مشتقة من نظريتهما . ولتوضيح ذلك سوف نعرض لنوعين من هذه البحوث. والنوع الأول يتنـــاول مفهوما من مفاهيم التحليـــل النفسى وهو الابدال او الازاحة وارتباطه بتعميم المثير . والنوع الثانى يتناول الأسس الفسيولوجية للتعـــــلم .

دراســـة الابدال :

الابدال هو اعادة توجيه النزعات الغريزية الممنوعة من التعبيـــر اما بسبب وقائع خارجية او قيود يفرضها الفرد على نفسه . ويمكن ان يعمل الابدال كنوع من الدفاع عن الفرد ، فقد يخلف هذا الفرد من التعبيـــر عن غضبه فيقمعه او يكبته ، ثم يعبر عنه فى مواقف مختلفة . وعلى سبيل المثال فان المرأة تخاف أن توجه النقد أو التوبيخ لرئيسها فى العمل ، فتفعل ذلك

مع زوجها بعد عودتها الى البيت . لاحظ وجود استجابة ثابتة فى هذا النوع من الابدال — عادة الخوف — تتنافس مع الاستجابة الاصلية .

وهناك صورة اخرى من الابدال وهى الابدال التوافقى وفيه يتم اعلاء الطاقة النفسية التى لا يمكن استخدامها فى صيغتها الاصلية فيعاد توجيهها. فالشخص الذى تحول ظروفه دون الزواج واشباع حاجته الجنسية يبدل هذه الطاقة لتصبح دافعا للانجاز المبدع فيركز على ما يرسمه من لوحات أو ما يكتبه من شعر او قصة او ما يصممه ويبنيه من اجهزة . وهنا نلاحظ ان طاقة أحد الدوافع تزاح وتبدل لتصبح مسخرة لدافع اخر . اما فى النمط الأول من الابدال فتوجه طاقة نفس الدافع الى شىء او موضوع مختلف .

وقد حاول ميللر ويوجلسكى عام ١٩٤٨ دراسة النمط الأول من الابدال اى الازاحة فطبقا على مجموعة من الأولاد المشاركين فى معسكر صيفى استبيانا لتقدير اتجاهاتهم نحو المكسيكيين واليابانيين . ولم يكن هؤلاء الشباب يعرفون أنه ستضيع عليهم المشاركة فى مناسبة اجتماعية شعبية هامة . وبعد أن اتموا الاجابة عن الاستفتاء اخبرهم المجربان بما فاتهم ثم طلبا منهم الاجابة عن صيغة ثانية من الاستفتاء .

واتضح أن هؤلاء الأولاد عبروا عن اتجاهات سلبية نحو جماعات الأقلية بعد معرفتهم بما فاتهم اشد مما عبروا عنه قبل معرفتهم بذلك،اى قبل تعرضهم للاحباط . ولقد فسر الباحثان ذلك بان هذا الارتفاع فى الكراهية نحو جماعات الاقلية هو غضب مزاح أم تم ابداله ، وبدلا من أن يتجه الى الباحثين لانهما تسببا فى حرمانهم من المشاركة فى هذه المناسبة الاجتماعية الهامة تحول الى جماعات الاقلية . ويمكن القول بلغة المثير والاستجابة انه قد حدث تعميم،اى ان هؤلاء الشباب عمموا استجاباتهم ونقلوها من موضوع مثير (الباحثان اللذان تسببا فى احباطهم وهما غريبان عنهم) الى مثير آخر مشابه (اعضاء جماعات الأقلية وهم غرباء ايضا) .

تعلم الجهاز العصبى المستقل :

لقد اجرى ميللر بعض البحوث التى تضمنت تعلم الاعراض او السلوك العرضى واسفرت عن نتائج هامة.لقد اقترح ميللر عام ١٩٦٩ ان من المحتمل

أننا نتعلم الأعراض النفسية الفسيولوجية كما نتعلم أنواعا أخرى من الأعراض واذا كان هذا صحيحا فقد يصبح فى الامكان استخدام أساليب الاشتراط الاجرائى لخفض شدة هذه الأعراض كضغط الدم العالى ، سواء أكانت هذه الأعراض ناشئة عن عوامل سيكولوجية أو عوامل فسيولوجية. ولقد أسهمت هذه الأفكار والمقترحات فى تزايد الاهتمام بميدان التدريب على التغذية الراجعة الحيوية Biofeedback وذلك بأن نزود الشخص بمعلومات أو تغذية راجعة عن العملية الفسيولوجية ونعززه على تعديله لتلك العملية .

ولقد عمل ميلر على نحو متسق وبمثابرة لكى يبرهن على أن ما يتم اشراطه هو استجابة الجهاز العصبى المستقل Autonomic nervous system وأن الكشف عن هذه الحقيقة هام بالنسبة لنظرية التعلم .

ولقد كشفت البحوث التى أجراها باحثون آخرون عن أن بعض الناس يستطيعون فى الحقيقة أن يتعلموا ضبط معدلات نبض القلب وغيرها من العمليات المستقلة . وعلى أية حال فان هذه البحوث لم تظهر بشكل قاطع أن هذه الاجراءات يمكن استخدامها بنجاح مع جميع الناس . ولم تظهر فاعلية هذه الاجراءات فى علاج حالات مرضية فعلية . بل لقد وجد ميلر نفسه صعوبات فى اعادة بعض تجاربه للتثبت من صحة ما كشفت عنه من قبل من نتائج . ويبدو أن الحاجة ما تزال ماسة لمزيد من البحوث والتجارب فى هذا المجال الكثير المتغيرات .

المكانة الراهنة والتقويم :

ان نظرية ميلر ودولارد والبحوث التى أجرياها تتميز بعدة خصائص جيدة : —

— وضوح المفاهيم وارتباطها بفئات محددة من الوقائع الامبيريقية .

— يندر استخدامها لصياغات غامضة كالحدس لانهما يتشددان فى تعريف المصطلحات .

— بالرغم من هذه الدقة المنهجية فلم يترددا فى معالجة ظاهرات سلوكية معقدة معتمدين على مفاهيمهما المحددة .

— انهما يمثلان دعاة التعلم فى معالجة الشخصية ، وقد لقى هذا الجانب اهمالا من عدد كبير من نظريات الشخصية غير السلوكية .

— انهما اهتما بالمتغيرات الاجتماعية الثقافية اهتماما اكبر من اصحاب عدة نظريات عرضنا لتصوراتهم فى هذا الكتاب . هذا فضلا عن ان هذا الاهتمام ادى بعلماء الانتروبولوجيا الثقافية الى الافادة من هذه النظرية اكثر من كثير من النظريات الأخرى اذا استثنينا التحليل النفسى .

ومن النواحى الايجابية ان ميللر ودولارد استطاعا أن يفيدا من موقفين نظريين هامين وان يحققا تكاملا بينهما وبهذا وضعا نظرية اكثر قوة من اصليها.لقد استطاعا ان يحولا مفاهيم فرويد الى صيغ موضوعية اكثر قابلية للاختبار التجريبى عما كانت عليه من قبل وحللا بالتفصيل متغيرات الأعصبة والعملية العلاجية التى تلزم للتخلص من الصراع العصابى الذى يتعرض له الفرد عادة فى الطفولة . وكان لهما اسهاما متميزا فى تطوير العلاج السلوكى .

لقد قدم لنا دولارد وميللر معلومات مفيدة تساعدنا على علاج الأعصبة، وقد تصبح هذه المعلومات يوما ما مسئولة عن الوقاية منها وانقاص تواترها. واذا كان الأمر كذلك فان المرء لا بد أن يغفر لهما تفضيلهما اجراء بحوث على الحيوان ، وتبنيهما لنموذج حتمى عن الطبيعة الانسانية . وينبغى على اية حال أن نحكم على كل نظرية بفاعليتها النهائية وليس فى ضوء مسلماتها واصولها فحسب .

لقد قدم دولارد وميللر طريقة للعلاج النفسى تقوم على نظرية التعلم بالتعزيز وحققا كما قلنا نوعا من التكامل بين نظرية التعلم وبين الطريقة الكلينيكية فى العلاج بالتحليل النفسى وقد بينا كيف يمكن ان يتسق التحليل النفسى مع نظرية التعلم ، والتعزيز . ويمكن اعتبار مفهوم التعزيز بديلا عن مبدأ اللذة ، ومفهوم قوة الأنا يمكن ترجمته الى مفهوم العمليات العقلية العليا والمهارات والدوافع الثقافية المكتسبة . (باترسن ترجمة النقى : ص ٣٥٣ — ٣٥٤) .

غير أن نظرية التعزيز تبسط المسائل تبسيطا زائدا ، وتأخذ بفكرة أساسية هى أن السلوك الانسانى مجموعة من ردود الأفعال ازاء المثيرات الموقفية وتؤدى الى انقاص الدافع . وهذه النظرية تفيد من الدوافع الثانوية أو المكتسبة فى تفسير السلوك ولكنها لا توضح بالقدر الكافى طبيعة هذه الدوافع وكيف نمت عن الدوافع الأولية .

ولقد تعرض دولارد وميللر لنقد شديد بسبب اجرائهما تجارب على الفيران بغية تعميم نتائجها على الانسان ، وبسبب تأكيدهما الزائد على الدوافع الأولية كمحددات للسلوك ، واخفاقهما فى اعطاء مفهوم الذات مكانة فى نظريتهما وبالتأكيد المبالغ فيه للاشتراط والمثيرات البيئية واثرها على السلوك . لقد اعتبرا من دعاة الحتمية الجامدة ومن المؤكدين للخبرات الماضية ومن المنكرين لحرية الاختيار ومن المصورين للانسان باعتباره حيوانا ومن المقللين لأهمية الكفاح من أجل أهداف مستقبلية . (Hergenhahn, p. 261)

ولعل من أكثر الانتقادات شيوعا لنظرية المثير الاستجابة انها بسيطة وتصر على دراسة السلوك بطريقة ذرية تجزيئية . وتذهب النظريات الكلية الى أن المرء لا يأمل فى فهم السلوك الانسانى والتنبؤ به ما لم ينظر الى الكائن الحى باعتباره كلا يقوم بوظائفه وما لم ينظر الى الأنماط التى تتشكل بها هذه الأجزاء التى يفحصها دعاة المثير — الاستجابة فحصا ميكروسكوبيا. ويرد أصحاب نظرية المثير والاستجابة على هذا النقد قائلين انه ليس فى نظريتهم ما يقرر بأن المتغيرات التى درستها تعمل بمعزل بعضها عن بعض فالتفاعل بين هذه المتغيرات مأخوذ به فى هذه النظرية ولو لم تؤكده وكل ما تركز عليه هذه النظرية هو تحديد نتيجة هذا التفاعل تحديدا يتقبل الملاحظة . والقول بأهمية الكليات دون تحديد لمعناها موقف غامض يجعل هذه الكليات غير قابلة للدراسة العلمية .

وأصحاب نظريات التعلم منقسمون على أنفسهم حول مسألة أساسية هى هل يتبنون مفاهيما وفروضا وتأملات لا تنتمى الى خططهم الفكرى من قبيل الكبت والتداعى الحر والصراع والقلق وما يتصل بها وينتمى الى التحليل النفسى ؟ والدارس للفكر السيكولوجى فى مجال دراسة الشخصية سوف

يتبين أن من دعاة التعلم من يرفض الابتعاد عن مبادىء التعلم الى مثل هذا المتغيرات ومن هؤلاء سكنر وباندورا .

ونظرية المثير والاستجابة كانت هدفا لهجوم كثير من علماء النفس الذين يعتقدون أن الفهم السليم للسلوك الانسانى يقتضى التخلص من الجمود الناتج عن التشبث بالمنهج التجريبى للعلوم الطبيعية. انهم يشعرون انهم على الرغم من اعتمادهم على الملاحظات التى حسن ضبطها الا أن هذه الملاحظات لها صلة وثيقة بموضوع الدراسة . اما معظم دراسات المثير والاستجابة فتهتم بالسلوك البسيط وهو مدخل يلائم دراسة الحيوان ، ولكن التعميم من الحيوان الى الانسان يستند الى مسلم الاستمرارية بينهما وهو مسلم مشكوك فيه . ويرد أصحاب نظرية المثير والاستجابة على هذا النقد قائلين : أن التجارب المعملية لدراسة الحيوان ما هى الا خطوة على الطريق لفهم السلوك الانسانى . وان الحقائق التى تستخلص من دراسة الحيوان لا بد وأن تستكمل بحقائق تستقى من دراسة السلوك الانسانى . وان السلوك البسيط حين يفهم يساعد على فهم السلوك المعقد وبالتالى يجعلنا اقدر على فهم الظاهرة الأصلية (عماد اسماعيل ، ص ١٠١) .

الفصل الثالث عشر

البرت باندورا

ولد البرت باندورا Albert Bandura فى ديسمبر ١٩٢٥ فى أسرة من الفلاحين ذات أصل بولندى. وشب فى مدينة صغيرة تسمى مندير Mundarc فى البرتا بكندا. وتعلم بمدرستها الوحيدة وفى المرحلة الثانوية كان بالمدرسة مدرسان اثنان وعشرون تلميذا . ولا بد أن المناخ التعليمى لهذه المدرسة كان جيدا أو ان استعدادات هؤلاء الطلاب كانت متميزة لان معظم زملاء باندورا التحقوا بالجامعة وحققوا حياة مهنية ناجحة . وبعد أن تخرج من المدرسة الثانوية انفق عاما فى الاسكا يعمل فى تعبيد طريق الاسكا الرئيسى . ولقد اتاح له هذا العمل التفاعل مع عمال منوعين اظهر كثير منهم درجات من المرض النفسى . ويبدو أن هذه الخبرة هى التى بلورت اهتمامه بعلم النفس الكلينيكى .

ولقد التحق باندورا بجامعة برتيش كولومبيا فى فانكوفر University of British Colombia in Vancouver وحصل على درجة البكالوريوس فى الآداب عام ١٩٤٩ . ثم التحق بجامعة أيوا حيث حصل منها على درجة الماجستير ودكتوراه الفلسفة فى عامى ١٩٥١ ، ١٩٥٢ على الترتيب . ولقد كانت هذه الجامعة تؤكد وتهتم بنظرية التعلم . ولقد تتلمذ فيها على يد سبنس Spence الذى زامل كلارك هل فى جامعة ييل. ومعنى هذا أن تفكير باندورا فيما يبدو فى المرحلة الأولى قد تشكل وتأثر بتقاليد نظرية التعلم شأنه فى ذلك شأن دولارد وميللر على نحو غير مباشر . ولكنه تأثر مباشرة بكتاب ميللر ودولارد فى التعلم الاجتماعى والتقليد والذى نشر عام (١٩٤١) والذى كان حافزا له على عمله المبكر . وبعد حصوله على الدكتوراه عمل لمدة عام بمركز وشيتا للتوجيه Wichita Guidance Center ثم عمل فى قسم علم النفس فى جامعة ستانفورد حتى اصبح استاذا عام ١٩٦٤ م . وما زال يعمل بها حتى الآن .

وخلال عمله فى ستانفورد انغمس باندورا فى تطوير مدخله فى التعلم الاجتماعى كوسيلة لفهم السلوك الانسانى . ولقد كان وما يزال عالما معطاء

نشر عددا من الكتب المؤثرة ، واوراقا علمية كثيرة فى المجلات العلمية . ولقد الف اول كتابين بالاشتراك مع والترز R.H. Walters وهما عدوان المراهق الذى نشر علم ١٩٥٩ Adolescent Aggression والتعلم الاجتماعى ونمو الشخصية Social Learning and Personality Developmnct الذى نشر عام ١٩٦٣ م .ويعتبر كتابه « مبادىء تعديل السلوك » "Principles of Behavior Modification" الذى نشر عام ١٩٦٩ تلخيصا وتقويمـــا للمبادىء النفسية التى تحكم السلوك . ولقد نشر علم ١٩٧١ م وحدة تعليمية بعنوان التعلم الاجتماعى وهو معالجة مختصرة لهذه المبادىء . وفى كتابه « العدوان Aggression والذى نشر علم ١٩٧٣ م لخص وناقش النظرية والبحوث التى اجريت على محددات السلوك العــدوانى ، وبين كيف أن البحوث فى هذا الموضوع العام يمكن ان تســـاعدنا على فهم اصول هــذا السلوك ، وهو سلوك مؤذ وضار لنا وللآخرين دائما تقريبا . ويعرض لانواع المتغيرات المسئولة عن انقاص هذا السلوك والتخلص منـــه . وقد عرض باندورا فى أحدث كتبه «نظرية التعلم الاجتماعى "Social Learning Theory" الذى نشره علم ١٩٧٧ ، تلخيصا للتطورات النظرية والبحثية الحديثـــة فى نظـــريته .

ولقد حصل على عدة جوائز اعترافا باسهاماته فى علم النفس ، فمنح جائزة من رابطة علم النفس الأمريكية علم ١٩٧٢ م ، تمنح عادة للمبرزين فى مجالاتهم العلمية وحصل على جائزة اخرى من رابطة كاليفورنيا النفسية عام ١٩٧٣ م ، وانتخب رئيسا لرابطة علم النفس الامريكية عام ١٩٧٤ م .

المفاهيم والمبادىء الرئيسية

مسلمات عن التعلم الاجتماعى :

يرى باندورا أن السلوك لا ينتج عن القوى الداخلية فى الانســـــان وحدها ؛ ولا عن المؤثرات البيئية،وانما ينتج عن التفاعل المعقد بين العمليات الداخلية والمؤثرات الخارجية . وتقوم هذه العمليات الداخلية الى حد كبير على خبرات الفرد السابقة وتتصور باعتبارها أحداثا كامنة قابلة للقيـــاس

والمعالجة . أن هذه الأحداث الوسيطة يتم السيطرة عليها بواسطة الأحداث الخارجية المثيرة وهى بدورها تنظم الاستجابات الظاهرة . وهو يختلف عن سكنر لان الأخير رغم ادراكه أن التباين المصاحب للمثير — الاستجابة تتوسطه أحداث داخلية الا أنه يهملها مفضلا التفسيرات العلية التى تعتمد على احداث خارجية قابلة للتناول . ويؤكد باندورا تأكيدا خاصا على دور المحددات المعرفية للسلوك . وهكذا فانه لا يرى الاحداث المعرفية على أنها مجرد عمليات مصاحبة للاحداث كما يرى سكنر ، وانما يراها أسبابا فعلية للسلوك . ونظريته تحلل السلوك على أساس الحتمية التبادلية reciprocal determinism أى أن باندورا يعتقد أن الاحداث المعرفية والاحداث البيئية يؤثر كل منها فى الأخرى . فالناس لا يستجيبون ببساطة للاحداث البيئية ، وانما يخلقون على نحو نشط بيئاتهم ويعملون على تغييرها . والاحداث المعرفية تحدد ما يدرك من الاحداث البيئية وما لا يدرك وكيف تفسر وتنظم وكيف يتم التصرف معها .

ونحن عادة نمثل الاحداث الخارجية تمثيلا رمزيا وبعد ذلك نستخدم التمثيل اللفظى والتمثيل التخيلى لتوجيه سلوكنا . ونحن نحل أيضا مشكلات أو مسائل حلا رمزيا دون أن نلجأ الى سلوك المحاولة والخطأ الفعلى والظاهر ونحن نتبصر ونستشرق النتائج المحتملة لسلوكنا ونعدل أفعالنا وفقا لذلك . وهكذا فان عملياتنا العقلية تتيح لنا أن نسلك سلوكا مستبصرا ومتبصرا .

ولا ينبغى أن يضللنا باندورا بتأكيده على أهمية العمليات المعرفية فى تحليله للسلوك — أى أن يحملنا على الاعتقاد بأنه يتجاهل آثار التعزيز لان الأمر على عكس ذلك ؛ فالتعزيز يلعب دورا أساسيا فى نظريته ولكنه دور يتسق مع التوجه المعرفى ذلك الذى يتعدى وجهة النظر التى يقدمها كثير من منظرى التعلم التقليديين . فاسكنر على سبيل المثال يركز على التغيرات السلوكية التى تحدث نتيجة لخبراتنا المباشرة بالنتائج المكافئة والمعاقبة لأفعالنا . والاستجابات التى تبرهن على نجاحها تميل الى أن تتكرر ، أما التى تعاقب فتميل الى أن تكف . ويعتقد باندورا أن المعززات والمعاقبات لا تحقق تقوية أو اضعافا أوتوماتيكيا للسلوك . وأن التعزيز لا يفسر على نحو تام الطرق التى يتم بها اكتساب سلوكنا والمحافظة عليه وتغييره . وهو يرى

أن معظم سلوكنا لا يسيطر عليه التعزيز الخارجي المباشر. وكنتيجة للخبرات المبكرة نميل الى ان نتوقع ان انواعا معينة من السلوك سوف يكون لها اثار نرغب فيها ، وأن اخرى سوف تؤدي الى نتائج لا نريدها وان لمجموعة ثالثة تأثيرا ومغزى ضئيلا. وهكذا يتم تنظيم سلوكنا بواسطة النتائج المتوقعة الى حد كبير . وعلى سبيل المثال فاننا لا ننتظر حتى نتعرض لحادثة سيارة لكى نؤمن عليها . وانما نعتمد بدلا من ذلك على المعلومات التى نستقيها من الآخرين عن النتائج المحتملة لمثل هذه الكوارث ونتصرف وفقا لذلك . ونحن لا ننتظر حتى تهب عاصفة ثلجية لكى نحدد ما نرتديه حين يكون الجو قارس البرودة وفى بلد من طبيعته أن يتعرض لمثل هذه العواصف بين الحين والآخر فى الشتاء. ونستطيع ان نتخيل نتائج التهيؤ السيء أو عدم الاستعداد لما نتوقعه من نتائج وهذه الفكرة شبيهة بفكرة روتر التى يفضل تسميتها توقعا على تسميتها استباقا .

ويذهب باندورا الى ان السلوك يمكن اكتسابه دون استخدام للتعزيز الخارجى . فنحن نتعلم كثيرا من سلوكنا الذى نظهره من خلال تأثير القدوة أو المثل ، اننا ببساطة نلاحظ الآخرين يعملون ، ثم نكرر افعالهم . اى اننا نكتسب السلوك عن طريق التعلم بالملاحظة . ويرى باندورا اننا نحتذى النماذج البارزة فى حياتنا لعدة اسباب . ذلك ان البيئة مليئة بنتائج قد تؤدى الى الهلاك واستخدام اسلوب المحاولة والخطأ فى هذه الحالات يكون باهظ التكاليف . ونحن لا نعتمد على المحاولة والخطأ أو الخبرة المباشرة لتعليم الأطفال العوم وتعليم الناس قيادة السيارات أو الطائرات . فبعض الشرح والتعلم لا بد أن يتوافر قبل البدء فى الدروس . فضلا عن ذلك ، فقد يكون من المرهق والمزعج ان نحاول تنشئة النشء باستخدام التعزيز الانتقائى لانشطتهم . ولا شك أن تعليم الأطفال كثيرا من القواعد والتقاليد التى تشيع فى الثقافة والمجتمع بهذه الطريقة عمل صعب. ويمكن أن تختصر هذه العملية الى حد كبير بتزويدهم بالنماذج السليمة وعن طريق القدوة . وعلى الرغم من أن نظريات التعلم الأولى اهملت دور التعلم بالملاحظة فى محاولاتها لفهم السلوك الانسانى ، الا ان باندورا وغيره من دعاة التعلم الاجتماعى قد

اصلحوا من هذا القصور والقوا الضوء على طرق اكتساب السلوك والمحافظة عليه وتعديله عن طريق محاكاة النماذج .

نظـــام الذات :

يبتعد باندورا عن سلوكية سكنر المتطرفة حين يسلم بوجود نظـــام للذات ، يعمل عمله فى البيئة وفى السلوك . واذا كان السلوك وظيفة للبيئة وحدها ، فلا بد أن نتوقع أن يكون هناك تباين أكبر داخل الشخص واتساق أقل فى السلوك ، لانه يستجيب دوما لمثيرات بيئية تتفاوت تفـــاوتا كبيرا . وعلى الرغم من أن الشخصية متعلمة الى حد كبير ويمكن أن تكون معقـــدة ومتلونة ، الا أن بعض الاتساق فى الحديث وفى التعبير عن الذات وبعض السمات الشخصية يصعب تفسيرها على أساس الشروط البيئية وحدها . ولا بد أن نلتفت الى نواح أخرى كالقوى المعرفية من ذاكرة وتبصر لانها تحقق قدرا من الوحدة والاتساق فى الشخصية .

غير أن باندورا لا يتطرف فى الاتجاه الآخر ويقترح وجود قوة مستقلة داخل الشخص تشكل سلوكه بحيث يساير مفهوم ذاته . والحق أن باندورا يعتقد أن سلوك الفرد بصفة عامة أكثر تباينا عما يبدو عليه ، وأن من الخطأ الفادح أن نعزو أنماطا سلوكية مختلفة الى دافع مفرد او دافعين كالكفاح من أجل النجاح (أدلر) أو الجنس والعدوان (فرويد) لانه لو أن دافعا واحدا هو الذى ينظم السلوك فان الناس لا بد أن يكونوا أكثر اتساقا مما هم عليه . وعلى سبيل المثال فانه يتوقع من الشخص ذا الخلق الحميد الا يسلك قط سلوكا غير اخلاقى وهذا ما لا نجده فى دنيا الواقع فى حالات ليست بالقليلة . والشخص العدوانى على سبيل المثال ليس دائما عدوانيا لان البيئة لا تعزز السلوك العدوانى دائما . وتشكل خبرات الاثابة والعقاب الفارقة سلوك الفرد الى حد كبير .

ويستخدم باندورا لفظ نظام الذات Self - system بحرص . ان هـــذا المفهوم يشير الى البيانات المعرفية التى توفر ميكنزمات مرجعية والى مجموعة من الوظائف الفرعية للادراك والتقويم وتنظيم السلوك . وهـــذا يعنى أن الناس قادرون على ملاحظة سلوكهم وترميزه وتقويمه على أساس ذكريات

سلوكهم الماضى الذى لقى تعزيزا والذى لم يلق تعزيزا وكذلك على أساس عواقب أو نتائج مستقبلية متوقعة وباستخدام المعرفة كنقطة مرجعية . انهم يقدرون على هذا الأساس على ممارسة قدر من تنظيم الذات .

تنظيم الذات :

وعلى الرغم من أن الناس لا يملكون ذاتا مستقلة لها القدرة على تناول البيئة ومعالجتها بارادتهم ، فانهم قادرون الى حد ما على تنظيم الذات . فهم يستطيعون تناول بيئاتهم باستخدام التفكير التأملى ويتادون الى نتـــائج أفعالهم . وهذه النتائج تغزى تغزية راجعة الحتمية المتبادلة وتمكن الناس من تنظيم سلوكهم جزئيا . ولسلوك تنظيم الذات مكونات وهى : ملاحظـة الذات وعمليات الحكم واستجابة الذات .

ملاحظة الذات :

ان الملاحظة الذاتية للأداء هى المتطلب الأول لمراقبة ادائنا . وينبغى أن نقدر على مراقبة أدائنا حتى ولو كان الانتباه الذى نوليه له ليس بالضرورة كاملا أو حتى دقيقا . اننا نلاحظ أنفسنا ونحن نرسم لوحة . أو نلعب لعبة ، أو نجيب عن اختبار ، أو نؤدى عملا مهنيا .

عملية الحكم :

ا نملاحظة الذات وحدها لا توفر لنا أسـاسا كافيا لتنظيم سلوكنا ، اذ ينبغى أيضا ان نقوم اداءنا . وعملية الحكم هذه تسـاعد الناس على تنظيم سلوكهم عن طريق عملية التوسط المعرفى . ونحن نعى ذاتنا ونتأملها ، بل ونحكم على قيمة فعلنا على أساس المرامى والأهداف التى وضعناها لأنفسنا. وعلى نحو أكثر تحديدا تتوقف عملية الحكم على المعايير الشخصية والأداءات المرجعية وتقييم النشاط وعزو الأداء . فالمعايير الشخصية تتيح لنا ان نقوم اداءنا دون أن نقارنه بأداء الآخرين؛فاذا استطاع طفل فى العاشرة من عمره متأخر عقليا أن يربط حذاءه ، فقد يستحق على هذا العمل مكافأة.وقد لا يكون فى حاجة الى التقليل من قيمة انجازه بمقارنته بانجاز الأطفال الآخرين الذين سبقوه واتقنوا هذه المهارة فى وقت مبكر عنه . وفى سن أصـغر . ومن

أمثلة المعايير الشخصية الأخرى ، الشاب الذى يطمح فى تولى رئاسة الشركة ، ورجل الأعمال الذى يحرص على دفع جميع ما عليه من ضرائب . وتحديد المعايير الشخصية للسلوك على نحو مستقل عن المعايير الاجتماعية عنصر من عناصر عملية الحكم .

غير أن المعايير الشخصية مصدر محدود لعملية التقويم لاننا نقوم اداءتنا فى معظم الأنشطة بمقارنتها بمعيار مرجعى . فالطالب يقارن درجات اختباره بدرجات زملائه فى الصف ، وبالاضافة الى ذلك فاننا نستخدم مستوياتنا السابقة فى الانجاز كمرجع أساسى لتقويم أدائنا الحاضر . فقد يسأل الفرد نفسه : هل المسافة التى أقطعها سباحة فى الدقيقة أطول مما كانت عليه فى الشهر الماضى ؟ هل تحسنت قدرتى على التدريس بحيث اصبحت افضل مما كانت عليه من قبل ؟ وقد نحكم على أدائنا بمقارنته بأداء فرد آخر ، أخ أو أخت أو حتى منافس لا نحبه . وقد نقارنه بمعيار معين أو مستوى محدد .

وعملية الحكم تستند الى القيمة الاجمالية للنشاط بجانب استنادها الى المعايير الشخصية والمعايير المرجعية . فاذا كانت القدرة على غسل الأطباق ذات قيمة ضئيلة فان الشخص سوف يقضى وقتا قليلا وينفق جهدا محدودا فى العمل على تحسين هذه القدرة . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى اذا كان النجاح فى ادارة العمل أو الحصول على درجة جامعية أو مهنية له قيمة كبيرة فان الشخص سوف يقضى وقتا كبيرا وجهدا لكى يحقق النجاح فى هذه المجالات .

وتتفاوت الاستجابات الذاتية وتتباين ويتوقف هذا على كيفية حكمنا على أسباب سلوكنا . فاذا كنا نعتقد أن نجاحنا يرجع الى جهودنا ، فاننا نعتز بانجازاتنا ونميل الى العمل بجد أكبر لتحقيق مرامينا وأهدافنا . أما اذا كنا نعزو اداءنا الى عوامل خارجية فاننا لا نحقق منه اشباعا ذاتيا كبيرا ، ولا يزداد احتمال بذلنا لجهد كبير لتحقيق أهدافنا . وعلى العكس من ذلك اذا كنا نعتقد أننا مسئولون عن أخطائنا أو ادائنا غير السليم فاننا على استعداد اكبر للعمل على تنظيم الذات عما لو كانت نواحى قصورنا ومخاوفنا ترجع الى عوامل خارج نطاق سيطرتنا .

استجابة الذات :

والمكون الثالث والأخير من وظيفة تنظيم الذات هو استجابة الذات . أننا نستجيب ايجابيا او سلبيا لسلوكنا ويتوقف هذا على كيفية بلوغه او ارتقائه لمعاييرنا الشخصية . وتعزيز الذات لا يعتمد على حقيقة انه يلى الاستجابة مباشرة ، ذلك أن نتائج السلوك لا بد أن تمر من خلال الشخص ، أى أنه يتوسطها . ونحن نضع معايير للأداء فاذا حققناها نتيجة الى تنظيم سلوكنا بمكافآت صادرة عن الذات كالاعتزاز بعملنا والرضا عن الذات . اما اذا لم نرقى فى سلوكنا الى مستوى هذه المعايير فان النتيجة هى عدم رضا الذات ، أو نقدها . ان هذا المفهوم عن توسط الذات للنتائج يختلف اختلافا كبيرا عن نتائج السلوك التى تتحدد بيئيا . ويفترض باندورا اننا نعمل لكى نحصل على مكافآت ولكى نتجنب عقوبات وفقا لمعايير تنشئها الذات . وحتى حين تكون المكافآت محسوسة ، فانها كثيرا ما تكون مصحوبة بحوافز غير محسوسة تتوسطها الذات كالاحساس بالانجاز . فجائزة نوبل تتيح لمن يحصل عليها قدرا من المال ، ولكن قيمتها العظيمة هى ان معظم من يحصلون عليها لابد وأن يشعروا بالزهو وبالرضا عن الذات لأدائهم لاعمال ادت الى الحصول على هذه الجائزة .

خصائص تنظيم الذات :

لقد راينا ان السلوك الشخصى لا ينضبط بواسطة كيانات داخلية مستقلة كالأنا او الضمير ولا بالمحددات البيئية . وانما ينتظم السلوك بتفاعل بين الشخص والبيئة والسلوك السابق . وهكذا فان لدى الناس قدرة محدودة على تنظيم سلوكهم . فما هى العمليات التى تسهم فى تنظيم الذات ؟

اولا : كما لاحظنا من قبل الناس قادرون على مراقبة سلوكهم . وثانيا ، انهم قادرون على تقويم سلوكهم فى ضوء المرامى او الاهداف القريبة والبعيدة . فضلا عن ذلك ينبغى ان يملكوا بعض القدرة على تناول القوى الخارجية التى تغذى التفاعل المتبادل ، وان يقدروا على ادراك نتائج هذه العوامل الخارجية . فالسلوك ينشأ اذن عن التاثير المتبادل بين العوامل الخارجية والمتغيرات الشخصية .

العوامل الخارجية :

تؤثر العوامل الخارجية فى تنظيم الذات على الأقل على انحاء ثلاثة :ـ

أولا : انها تزودنا بمعيار لتقويم سلوكنا . ولا تنشأ المعايير على نحو سحرى من القوى الداخلية . لان العوامل البيئية تتفاعل مع المؤثرات الشخصية وتشكل معايير الفرد فى التقويم . فنحن نتعلم المبـادىء من الوالدين ومن المعلمين ، فنتعلم منهم قيمة السلوك الودود أو الأمين ... الخ وبالخبـرة المباشرة نتعلم أن الدفء والجفاف اكبر قيمة من البرودة والبلل ومن خـلال ملاحظة الآخرين ننمى عديدا من المعايير التى نقيم بها الاداء الذاتى وفى كل مثال من هذه الامثلة تؤثر العوامل الشخصية فى المعايير التى نتعلمها ، ولكن القوى البيئية تلعب دورا فى هذا المجال ايضا .

ثانيا : تساعد القوى الخارجية على تنظيم الذات لانها توفر وسـائل التعزيز . فالمكافآت النابعة من الذات ليست كافية دائما ، لاننا نحتاج أيضا الى حوافز تصدر عن العوامل الخارجية . فالفنان قد يحتاج الى تعزيز أكثر من الرضا عن الذات لكى يتم لوحة كبيرة أو تمثالا ضخما ، وسـوف يتلقى على الأغلب دعما من البيئة يمكنه من اتمام مثل هذه المشروعات الكبيرة التى تحتاج الى موارد مالية كثيرا ما لا تكون فى طاقته ، كما يحتاج التشجيع وثناء الآخرين فضلا عن مكافأته لنفسه بين الحين والحين . والحوافز التى تساعد على اتمام المشروعات الكبيرة التى تستغرق زمنا تصدر عادة عن البيئـة وكثيرا ما تتخذ صورة مكافآت جزئية مرهونة بتحقيق أهداف فرعية . وقد يكافىء الفنان نفسه بفنجان من القهوة بعد اتمام جزء صغير من اللوحة ، أو يعطى لنفسه فترة من الراحة يتمشى قليلا فى حديقة . واذا كافأ نفسه على أداء غير سليم يحتمل أن يتعرض لجزاءات من البيئة فقد يسخر أصدقاؤه من عمله ، أو يتناقص الدعم ، أو قد ينقد هو نفسه أداءه . وعندما لا يرقى الأداء لمستوى معايير الذات يميل الناس الى حجب المكافآت عن أنفسهم .

ثالثا : وثمة تأثير متبادل للعوامل الخارجية على وظائف تنظيم الذات ويتطلب أو يتضمن تنشيطا انتقائيا وابتعادا عن المؤثرات الذاتية الاستجابية . ويشير التنشيط الذاتى الى اعتقاد باندورا بانه لا توجـد قوة أوتوماتيكية

تنضبط الشخص من الداخل . وهو يفترض بدلا من ذلك أن تأثيرات تنظيم الذات تتم اذا نشطت ، وتتأثر طريقة اختيار الفرد لتنشيط وظيفة التنظيم الذاتي وتوقيتها بتقويم الذات وبالظروف البيئية . وحين يتضح أن مسارا معينا للفعل غير متسق مع مفهوم ذات الفرد وسوف يؤدى الى الاضرار بآخر فان عملية تنظيم الذات تنشط . فاذا اتضح أن الاعتداء على شخص آخر سوف يؤدى الى ايذاء ذلك الشخص فضلا عن تعرضه هو للسجن من جراء ذلك ، عندئذ يتيح التنشيط الانتقائي للفرد أن يختار سلوكا مختلفا . وحين تكون ملاءمة فعل الفرد ولياقته اكثر غموضا ، فانه يبعد معاييره التقويمية عن السلوك ».

وفصل السلوك او عزله عن نتائج تقويم الذات يقتضى استخدام العوامل البيئية أو المعرفية لتسويغ سلوك يستحق الشجب . ويمكن أن يتحقق هذا باربعة طرق : —

١ — يمكن ان يعاد تحديد السلوك وتعريفه .

٢ — يمكن تشويه الآثار الضارة لسلوك الفرد او تقليلها أو تجاهلها .

٣ — يمكن تقييم العلاقة بين افعال الفرد وآثارها بواسطة الابدال أو تمييع المسئولية .

٤ — يمكن تنحية الخصائص الانسانية عن الضحية بحيث يستحق اللوم .

ان استخدام الطريقة الأولى معناه أن السلوك الضار مسوغ بواسطة اعادة بناء الموضوع معرفيا ؛ وبالتالى فان هذه الطريقة تتيح لمرتكب الخطأ أن يهرب من المسئولية عن افعاله أو ان يقللها الى الحد الأدنى . ويمكن استخدام ثلاثة اساليب على الأقل تتيح الفرصة للناس ليتجنبوا المسئولية عن سلوكهم . الأول هو التبرير الخلقي حيث يصبح السلوك الجدير باللوم قابلا للدفاع عنه بل وقد يبدو سلوكا نبيلا . ومن امثلة ذلك الأب الذى يسعى للانتقام من قاتل ابنه ، متجاهلا القانون والأجهزة الشرعية ويعثر عليه ويرديه قتيلا . والطريقة الثانية للتخفف من المسئولية تكون باعادة تعريف السلوك

الخاطىء وذلك بالقيام بمقارنات بينه وبين مخالفات أسوأ يرتكبها الآخرون بحيث يبدو سلوك الفرد أفضل بكثير من مخالفات الآخرين . كأن يقارن من يختلس القليل من المال العام ليعالج أمه بمن يختلس الآلاف ليتسامر بها ، وكالتلميذ الذى يقذف نافذة المدرسة بالطوب فيحطم زجاجها ويدافع عن نفسه بأن التلاميذ الآخرين حطم كل منهم زجاج أكثر من نافذة . والاسلوب الثالث فى اعادة تعريف السلوك يكون باستخدام عناوين حسنة لأفعال شريرة ، فمقتل مئات الفلسطينيين هو لمحاربة الارهاب وسرقة الممتلكات الخاصة تسمى اعادة توزيع الثروة أو تأميما أو مصادرة ، والاعتداء العسكرى على دول مسالمة يطلق عليه ضربات وقائية ، أو ضربات تجهض العدوان .

واذا لم يكن فى الامكان عزل السلوك عن نتائج التقسويم الذاتى عن طريق التبرير الخلقى والمقارنة غير الموضوعية وتسمية الرذائل بغير مسمياتها فان الطريقة الثانية لهذا العزل تستخدم وتتطلب تشويه العلاقة بين السلوك وآثاره الضارة أو جعل هذه العلاقة غامضة . ويلاحظ باندورا أن هناك ثلاثة أساليب للقيام بهذا الفصل ذلك انه يمكن تقليل نتائج الأفعال الضارة الى حدها الأدنى وغض النظر عنها وتشويهها . ومن أمثلة تقليل النتائج ما نراه حين يكسر السائق الضوء الأحمر ويصدم أحد المشاة . وبينما يرقد المصدوم ينزف دما يقول السائق أنه لم يلحق به ضررا كبيرا وانه سيكون على ما يرام . والاسلوب الثانى أن يتجاهل الفرد اعماله ويغض الطرف عنها فلا يرى آثارها الضارة . ومن أمثلة ذلك انه يندر أن يشاهد رؤساء الدول وقادة الجيوش الدمار التام والموت الذى ينتج عن قراراتهم . وثالثا يمكن تشويه النتائج ، كأن يقول الأب الذى يضرب ابنه ضربا مبرحا بحيث يحدث فى جسمه آثارا باقية ، ان الطفل يحتاج الى هذا التأديب ليصبح رجلا .

والطريقة الثالثة لفض الاشتباك بين السلوك ونتائجه هى طريقة الابدال وتمييع المسئولية . فى الابدال تنقص نتائج الأفعال الى حدها الأدنى وذلك برد المسئولية الى مصدر خارجى فالمغتصب يلوم أمه لانها لم تغمره بحنانها وحبها . ومن المألوف أن يعزو الموظفون المدنيون مسئولية أفعالهم الى سلطة أعلى كأن يقولوا عندما تسوء الأمور « هذه ليست فكرتى »،« لقد

تطلب متى أن أفعل ذلك » ويرتبط بهذا الاسلوب تمييع المسئولية بإرجاعها الى البيروقراطية فتسمع عبارات من قبيل « هذه هى طريقة عمل الاشياء هنا » ، « ان هذه هى السياسة المتبعة » .

والطريقة الرابعة للفصل بين الانماط السلوكية ونتائجها السيئة تتطلب سلب الخصائص الانسانية من الضحية او القساء اللوم عليه . ففى أيام الحرب يرى العدو باعتباره ليس انسانا فلا يلام الفرد عندما يقتل جنود العدو فهم لا يختلفون عن البعوض والحشرات الضارة،وفى ازمنة مختلفة كان اليهود والعرب والسود والهنود الحمر والشحاذون وكبار السن والمجرمون ضحايا لمثل هذا الفصل فارتكبت ضدهم انواع الظلم وسلطت عليهم اعمال العنف وغير ذلك من اساليب سوء المعاملة على يد اناس عاديين لا يختلفون عن غيرهم من البشر ولكنهم يفعلون هذا لعزل الافعال الشريرة وابعادها . وحتى لا نسلب الضحايا خصائصهم الانسانية فاننا احيانا نلومهم على سلوكهم الخاطىء الذى يستوجب اللوم ؛ فهم ضحايا الاغتيال السياسى مثلا لانهم سعوا الى حتفهم بأنفسهم ، ومن امثلة ذلك ان العامل او الموظف قد يسرق من رئيسه أو من صاحب العمل ويقرر ان هذا الرئيس ييسر له السرقة لانه ليس على وعى بممتلكاته ولذلك فهو يستحق ما يجرى له .

وقد يرى القارىء بعض التشابه بين مفهوم باندورا عن العزل وفكرة فرويد عن الحيل الدفاعية . وهذا التشابه سطحى اكثر من كونه جوهريا . صحيح أن الشخص يجد الحماية من الظروف المقلقة وغير المريحة باستخدام هذه الأساليب التى يحددها باندورا وباستخدام الحيل الدفاعية ولكن الفروق بينهما أكثر من نواحى التشابه . فالحيل الدفاعية تعمل على نحو آلى ولاشعورى لحماية الآنا من القلق.اما اجراءات العزل او الفصل عند باندورا فليست لاشعورية ولا آلية وهى ذات صبغة معرفية . انها تحمى الشخص لا من المطالب الغريزية ولا من التهديدات الخارجية وانما تتيح له ان يقلل من مسئوليته فى موقف غامض وذلك بتسويغ سلوكه وبدون هذا التسويغ يكون السلوك غريبا بالنسبة لتقويم الذات .

المتغيرات الشخصية :

ان مسلم باندورا عن تنظيم الذات على أساس من التبادل بين العوامل الشخصية والبيئية يفترض وجود مؤثرات بيئية ووجـــود شخص نشط معرفيا . والتعزيز ليس أوتوماتيكيا ، والسـلوك لا يمكن أن نرجعـه الى البيولوجيا أو الى تاريخ الفرد . ان الناس منغمسين فى عمليات التعزيز .

وحتى حين تكون المؤثرات البيئية قوية ، فان التعـزيز ليس مؤكدا ويقينيا . ولقد قدم التاريخ لنا أمثلة يصعب تفسير سلوكها لاناس رفضوا المعززات أو تجنب مثيرات منفرة فى الحياة . لقد اختار غاندى أن يصوم عن الطعام لكى ينهى الحرب الأهلية فى الهند . ورفض هنرى مور أن يغير موقفه من معارضة هنرى الثامن ملك انجلترا رغم تعرضه لضرب العنق ورغم توسلات زوجته وابنته. ان تفضيله للشنق على التخلى عن معتقداته وأفكاره مثال يبين كيف تتفوق المعرفة أحيانا على المثيرات البيئية القوية .

فعالية الذات :

لقد توصل باندورا الى نظرية عن الفعالية بتحقيق توازن دقيـق بين مكونين أساسيين لبناء النظرية وهما التأمل الابداعى والملاحظة الدقيقـة (وهو يختلف عن فرويد ويونج وأدلر الذين بنوا نظرياتهم على ملاحظاتهم وخبراتهم الكلينيكية) . وباندورا يختلف أيضا عن دولارد وميللر وسـكنر لان نظرياتهم انبنت على دراسات وتجارب أجريت على الحيوان . اما نظرية باندورا عن فعالية الذات فتقوم على بيانات مستمدة بعناية من دراسـة الانسان . وهو يختلف عن ماسلو والبورت وبعض أصحاب نظريات الذات من حيث انه يندر أن تبتعد تأملاته عن بياناته ، وقد تكون متقدمة عليها خطوة واحدة وبعناية . وهذا الاجراء السليم علميا يزيد من احتمال أن اختبـار فروضه سوف يكشف عن نتائج موجبة ، وان النظرية سوف تولد فروضـا أخرى قابلة للاختبار .

تعريف فعالية الذات :

يسلم باندورا فى تصوره للحتمية التبادلية بوجود تفاعل وتأثر بين البيئة والسلوك والشخص . وفى اطار هذا التصور تشير فعالية الذات الى عامل الشخص . ولهذا العامل اثر قوى وهو ليس المحدد الوحيد للسلوك وانما يرتبط بالبيئة وبالسلوك السابق وبمتغيرات الشخصية الأخرى لاحداث السلوك :.

ما الذى يقصده باندورا بفاعلية الذات ؟ انه توقع الفرد بانه قادر على اداء السلوك الذى يحقق نتائج مرغوب فيها فى اى موقف معين . والذين يتمتعون بفعالية ذات عالية يعتقدون أنهم يقدرون على عمل شىء لتغيير وقائع البيئة ، اما الذين يتصفون بفعالية ذات منخفضة فانهم ينظرون الى انفسهم فى الاساس باعتبارهم عاجزين عن احداث سلوك له آثاره ونتائجه. ويعرف باندورا توقع الفعالية بانه « الاعتقاد بأن المرء يستطيع ان يصدر بنجاح السلوك المطلوب لتحقيق النتائج » .

ويميز باندورا بين توقعات الفعالية وتوقعات النتيجة . ان الفعالية تشير الى ثقة الفرد فى قدرته على اداء سلوك معين بينما توقعات النتيجة يشير الى تنبأ الفرد عن النتائج المحتملة لذلك السلوك . وعلى سبيل المثال فان طالب العمل قد يكون لديه ثقة فى انه سوف يؤدى اداء حسنا خلال المقابلة الشخصية ، وان لديه القدرة على ان يجيب عن اى سؤال ممكن ، وانه سيكون مسترخيا ومسيطرا على نفسه وسوف يظهر مستوى مناسبا من السلوك الودى. اى ان لديه مستوى عال من فعالية الذات بالنسبه لمقابلة صاحب العمل . ومع ذلك وبالرغم من ارتفاع توقعات الفعاليه فقد تكون توقعات النتيجة متدنية وذلك لاعتقاده بأن فرصته فى الحصول على الوظيفه ضئيلة. ويرجع هذا الى الظروف البيئية غير المواتية بسبب الكساد الاقتصادى والتنافس الشديد بين الكفاءات للحصول على وظيفة واحدة . وفضلا عن ذلك فان عوامل شخصية أخرى قد تؤثر تأثيرا سلبيا فى توقعات النتيجة كالعمر والجنس والطول والوزن والصحة الجسمية .

مصادر فعالية الذات :

تكتسب فعالية الذات وتنمى وتضعف بعامل او اكثر من العوامل الآتية : —

١ — الانجازات الأدائية .

٢ — الخبرات البديلة .

٣ — الاقناع اللفظى .

٤ — الاستثارة الانفعالية .

وفى كل طريقة من هذه الطرق تتم معالجة المعلومات عن ذات الفرد وعن البيئة معالجة معرفية كما يتم تناول ذكريات الخبرات السابقة مما يغير فعالية الذات المدركة . وبالاضافة الى هذه المصادر الأربعة فان فعالية الذات تتأثر بمعايير السلوك الداخلية .

واكثر هذه المصادر تأثيرا فى فعالية الذات ما يحققه أداء الشخص من انجازات،ذلك ان الاداء الناجح بصفة عامة يرفع توقعات الفاعلية بينما يؤدى الاخفاق الى خفضها . وهناك عدة لازمات لهذه العبارة العامة . وأولها أن النجاح فى الاداء يرفع فعالية الذات بما يتناسب مع صعوبة العمل . فلاعب التنس الماهر اذا فاز علىمنافس متفوق تزداد فعالية ذاته الأمر الذى لا يحدث اذا فاز على منافس ضعيف . ثانيا : الأعمال التى تنجز بنجاح من قبل الفرد اكثر فعالية من تلك التى يتمها بمساعدة الآخرين . ففى مجال الرياضة انجازات الفريق لا تزيد فعالية الشخص كانجازات الفرد . وثالثا : الاخفاق يؤدى على الأغلب الى انتقاص الفعالية حين نعرف اننا بذلنا أفضل ما لدينا من جهد. اما حين نخفق ونحن نحاول نصف محاولة فان ذلك لا يضر بالفعالية كما يحدث عندما لا نرقى للمستوى المطلوب مع بذلنا لاعظم جهودنا وأفضلها. والأداء الفاشل ايضا فى ظروف الاستثارة الانفعالية العالية لا يضر بفعالية الذات كالاخفاق فى أفضل الظروف . وعلى سبيل المثال قد يقول الفرد « انا اعرف انى رسبت فى الامتحان ؛ ولكنى كنت قلقا على صحة والدى فى ذلك

الوقت » وهذا ليس اعتذارا للاستهلاك العام — لان فعالية الذات تعتمد على تناول المعلومات ومعالجتها (سواء تم هذا على نحو دقيق ام لم يتم على هذا النحو) . واللازمة الثانية : ان الاخفاق بين الحين والآخر له تأثير قليل على فعالية الذات وخاصة عند اولئك الذين لديهم توقع مرتفع بصفة عامة . غير أن من لديهم فعالية ذات منخفضة يندر أن يرجعوا الفضل فى نجاحاتهم الى أنفسهم .

والمصدر الثانى للفعالية هو الخبرات البديلة . فملاحظة الاخرين وهم ينجحون يرفع فعالية الذات ، وملاحظة فرد آخر بنفس كفاءتك وهو يخفق فى عمل يميل الى خفض فعالية الذات ، وعندما يكون النموذج مختلفا عن الملاحظ تؤثر المثيرات البديلة ادنى تأثير على الفعالية . فاذا لاحظ رجل كبير السن خامل جبان شابا نشطا شجاعا يمشى بنجاح على حبل رفيع على ارتفاع شاهق فى سيرك فان ذلك بغير شك يؤثر تأثيرا ضئيلا على موقعات الفعالية اذا قام الرجل بهذا العمل الجرىء . وللخبرات البديلة اقوى تأثير حين تكون خبرة الناس السابقة بالنشاط قليلة ، فملاحظة لاعب كرة سلة متفوق وهو يحرز أهدافا اقل تأثيرا فى فعالية لاعب كرة سلة آخر متمرس ، اذا قورن بتأثيره على لاعب مستجد يلاحظه . ان آثار النمذجة بصفة عامة ليست فى قوة الأداء الشخصى من حيث تأثيرها فى رفع مستويات الفاعلية . وقد يكون لها آثار قوية فى انقاص الفاعلية ، فملاحظة سباح له نفس مستوى مهارتك وقدرتك وهو يخفق فى عبور نهر به تيارات شديدة معاكسة تقنعك بالاقلاع عن محاولة القيام بنفس العمل ، وقد يبقى تأثير هذه الخبرة مدة طويلة من الزمان لديك .

ويمكن اكتساب فعالية الذات من خلال الاقناع اللفظى . ويتسم هذا المصدر محدود ، ومع ذلك فان الاقناع اللفظى فى تلك الظروف المناسبة يمكن من رفع فعالية الذات وخفضها . ولكى يتحقق ذلك ينبغى أن يؤمن الشخص بالقائم بالاقناع والنصائح او التحذيرات التى تصدر عن شخص موثوق به لها تأثير اكبر فى فعالية الذات عن تلك التى تصدر عن شخص غير موثوق به . ثانيا : أن يكون النشاط الذى ينصح الفرد بأدائه فى حصيلة هذا الفرد السلوكية على نحو واقعى . وذلك انه لا يوجد اقناع لفظى يستطيع

ان يغير حكم شخص على فعاليته وقدرته على القيام بعمل يستحيل اداؤه فى ظل مقتضيات الموقف الفعلى .

ويفترض باندورا أن قوة الاقتراح ترتبط على نحو مباشر بمكانة المقنع المدركة وسلطته . والمكانة والسلطة ليستا متماثلتان . وعلى سبيل المثال فان الاقتراح الذى يقدمه المعالج النفسى لمريض لديه خوف مرضى من الارتقاء بالمصعد والذى يتلخص فى انه يستطيع ان يفعل ذلك حين يكون مزدحما يغلب أن يزيد من فعالية ذاته عما لو صدر نفس الاقتراح عن زوجته أو ابنته . غير أن هذا المعالج نفسه لو اخبر المريض بانه يستطيع أن يصلح جرسا كهربائيا فان ذلك لن يؤدى الى تحسين فى فعالية ذاته.ويكون الاقناع اللفظى اكثر فعالية حين يرتبط بالأداء الناجح . فعن طريق الاقناع قد تستطيع ان تحمل شخص على القيام بنشاط معين ، فاذا نجح الأداء فان هذا الانجاز مقرونا بمكافآت لفظية تالية تصدر عن المقنع تزيد من الفعالية فى المستقبل .

والمصدر الأخير للفعالية هو الاستثارة الانفعالية . فالانفعال الشديد يخفض الاداء عادة ، ولقد تعلم معظم الناس ان يحكموا على قدرتهم على تنفيذ عمل معين فى ضوء الاستثارة الانفعالية . فالذين يخبرون خوفا شديدا أو قلقا حادا يغلب أن تكون توقعات فاعليتهم منخفضة . فقد يجيد الممثل اداء دوره خلال التجارب الأولية السابقة على العرض ويحاول التمكن من هذا الدور لانه يعرف انه فى حاجة الى هذا الاتقان ليلة الافتتاح لان الخوف قد ينسيه الحوار اللازم لهذا الدور . ومعظم الناس يقدرون على الامساك بالثعبان اذا لم يسيطر عليهم الخوف ، ذلك أن هذا العمل يتطلب ان يمسك الفرد الثعبان بثبات واحكام من خلف راسه . ولكن معظمنا لا يستطيع ذلك لان الخوف يؤدى الى نقصان توقعاته الادائية.ولقد لاحظ المعالجون النفسيون منذ زمن طويل أن خفض القلق وزيادة الاسترخاء الجسمى يمكن ان ييسر الأداء . وأن معلومات الاستثارة ترتبط بعدة متغيرات ، أولها : مستوى الاستثارة ونحن نعرف عادة حالاتنا الانفعالية . وترتبط الاستثارة الانفعالية فى بعض المواقف بتزايد الاداء فقلق الممثل فى ليلة الافتتاح أن لم يكن شديدا يزيد من توقعات فاعليته.والمتغير الثانى هو الدافعية المدركة للاستثارة فاذا عرف الفرد ان الخوف امر واقعى ، فمن الطبيعى ان يعرف الفرد الذى يقود

سيارة فى طرق جبلية مكسوة بالجليد أن هذا العمل يثير خوفا عاديا ، ومثل هذا الخوف قد يرفع فعالية الشخص . غير انه حين يعرف أن من الغباء أن يخاف خوفا مرضيا من الأماكن المفتوحة او المغلقة فان الاستثارة الانفعالية عندئذ تميل الى انقاص الفاعلية . وأخيرا فان طبيعة العمل متغير آخر ، ذلك أن الاستثارة الانفعالية قد تيسر الاتمام الناجح للأعمال البسيطة ، ويغلب أن تعطل أداء الأنشطة المعقدة .

فاعلية الذات كمنبىء بالسلوك :

ان فاعلية الذات ليست مثيرا لضبط السلوك ولكنها احـد المؤثرات الذاتية فى سلوكنا . ومصدر الضبط لا يوجد فى المثير أو البيئة ولكنه يوجد فى التبادل الذى يحدث بين العوامل البيئية والسلوكية والشخصية . وفعالية الذات متغير شخصى هام حين ترتبط بأهداف معينة وبمعرفة الأداء فانها تسهم اسهاما هاما فى السلوك المستقبلى . ويعتقد باندورا ان الناس يحددون مستقبلهم ويشكلونه بالطريقة التى يسلكون بها وليس بمجرد التنبؤ بما سوف يحدث لهم فى موقف معين .

وباندورا ينتقد نظريات الذات كتلك التى قدمها كارل روجرز ، لانهـا تركز على مفهوم ذات مركب اكثر من تركيزها على كثير من المبادىء المحددة للذات ومفهوم فعالية الذات ليس مفهوما كليا . انه يختلف من موقف الى آخر ويتوقف اختلافه على الكفاءات المطلوبة للأنشطة المختلفة وعلى وجـود أو غيبة الآخرين وعلى الكفاءة المدركة لهؤلاء الآخرين وخاصة اذا كانوا منافسين وميل الشخص الى الالتفات الى الاخفاق فى الأداء اكثر من التفاته الى النجاح والى الحالات الفسيولوجية المصاحبة وخاصة القلق وعدم الاكتراث والتنوط . (Bandura, 1987)

ان الفعالية العالية والمنخفضة ترتبط مع بيئات متجاوبة وغير متجاوبة تؤدى الى متغيرات اربعة يمكن التنبؤ بها . فمتى تكون الفعالية عالية والبيئة متجاوبة يغلب أن تكون النتائج ناجحة . وحين ترتبط الفعالية المنخفضة مع بيئة متجاوبة قد يصبح الشخص مكتئبا حين يلاحظ أن الآخرين ينجحون فى أعمال صعبة جدا بالنسبة له . وحين يواجه الناس ذوو الفعالية العالية

مواقف بيئية غير متجاوبة فانهم يكيفون جهودهم ليغيروا البيئة وقد يستخدمون الاحتجاج والتنشيط الاجتماعى Social activism أو حتى القوة لاثارة التغير، غير انه اذا اخفقت جميع الجهود فانه يفترض انهم سوف يتركون هذا المسار ويتخذون مسارا جديدا أو يبحثون عن بيئة اكثر تجاوبا . واخيرا حين ترتبط فعالية الذات المنخفضة مع بيئة غير متجاوبة فثمة تنبؤ بعدم الاكتراث والاستسلام واليأس . وعلى سبيل المثال حين تصبح صعوبات تولى ادارة المؤسسة واضحة بالنسبة لأحد العاملين لديه فعالية ذات منخفضة فانه ينمى مشاعر الاستسلام والتقاعس والاخفاق فى تحويل الجهود البناءة نحو هدف مماثل .

وفضلا عن ذلك فان باندورا وزملاءه قد وضعوا فروضا واختبروها تتناول العلاقة بين الفاعلية وعدد من الأداءات وفى مجالات مختلفة، ومراجعة نتائج بحوثهم تكشف عن وجود شاهد على وجود علاقة بين ارتفاع الفاعلية وكل من مستوى الطاقة ، والمثابرة فى الأنشطة الصعبة والمهددة، والتغيرات السلوكية الموجبة اثناء العلاج ، واعادة التأهيل الايجابى لمرضى القلب ، ونقصان الاستثارة الانفعالية ، بما فى ذلك انقاص القلق والمخاوف المرضية المختلفة . ولقد اتضح أن هناك علاقة بين انخفاض فعالية الذات وانتكاس المدخنين بعد الامتناع عن التدخين ، وتجنب انشطة الاثراء .

ولقد قدم لنا باندورا بعض التأملات المثيرة للاهتمام عن الفعالية الجمعية Collective efficacy . والبحوث فى هذا المجال ما تزال قليلة، فقد ترتبط الفعالية القومية بأحداث لا يقدر المواطنون على السيطرة عليها مثل انتشار تأثير التكنولوجيا العالية ، والتغير الاجتماعى السريع ، والفروق بين جماعات السلطة والنفوذ التى لا يمكن التوفيق بينها . والأحداث التى تجرى فى أجزاء أخرى من العالم وقد يكون لها تأثير على من يعيشون فى مناطق بعيدة عنها . (Feist, 1985, pp. 268-280)

الدوافع :

الدوافع عند باندورا تكوين معرفى وله مصدران الأول : تمثيل للنتائج المستقبلية يستطيع توليد الدوافع الحالية للسلوك . أى أن توقع السلوك المستقبلى يدفع الفرد لان يسلك بطريقة او اخرى .

والثانى أن الناس يدفعون للأداء عند مستويات معينة عندما تتحدد المرامى والأهداف او مستويات الأداء المرغوب فيسه . ومن التجارب التى يقدمها لنا باندورا ان الاطفال الذين كان لديهم ضعف فى المهسارة فى مادة الرياضيات كانوا أكثر احتمالا لتحسين ادائهم حين وضعوا سلسلة من الأهداف الفرعية وكافحوا لتحقيقها بحيث يتأدون فى النهاية الى تقويم ذاتى مباشر عن مدى بعد الأهداف وما اذا كان بلوغها يتطلب زمنا اطول . وهكذا فان ادراك سلوكنا على نحو مباشر والتفكير فيه والحكم عليه يزودنا ببواعث ذاتية على المثابرة فى تحقيق مستويات سبق تحديدها .

ويرى باندورا كغيره من اصحاب نظريات التعلم ان التعزيز هو سبب التعلم . غير انه يضع حيثيات وشروطا لهذه العبارة على انحاء شتى . ذلك أننا نستطيع ان نتعلم بملاحظة شخص بدلا من ان نؤدى السلوك بانفسنا ؛ أى اننا نستطيع أن نتعلم بالتعزيز البديل ، بل ونستطيع ان نتعلم بغيـــر تعزيز . وخبراتنا للتعلم لا تؤدى دائما الى الأداء فالعنصر الهام كما يرى باندورا هو التوقع .

فالأداء لا يتم ولا يتحقق بالتعزيز فى ذاته بل بتوقع التعزيز . فملاحظتنا للطريقة التى يكافأ بها الآخرون ويعاقبوا ، ننمى لدينا توقعات معرفية عن النتائج السلوكية وعما ينبغى أن نفعله لتحقيق نتائج مرغوب فيها او لتجنب نتائج غير مرغوب فيها . وهكذا فان التعزيز يوجه الســـلوك اولا من خلال توقع حدوثه المستقبلى .

ونحن ننمى أيضا توقعات عن التعزيز المستقبلى من ملاحظة نتـــائج أنماط سلوكنا . وننمى المعايير الشخصية لسلوكنا عن طريق التفـــاعل مع الاباء والأتراب وغيرهم من القائمين على التربية والتعلم — أى اولئك الذين يكافئون ويعاقبون وهذه المعايير تعكس معايير هؤلاء المربين ثم نكافىء ونعاقب

سلوكنا بعد ذلك بموافقة الذات Self - approval او بنقدها Self - criticism على النحو الذى كافأنا به الآخرون وعاقبونا ، وهذا التوقع بموافقة الذات او عقابها هو الذى يوجه سلوكنا الى حد كبير. وبهذه الطريقة يحقق سلوكنا الاتساق ولا نغيره على نحو مستمر كلما تغير المثير الاجتماعى .

وتؤكد نظرية التعلم الاجتماعى عند باندورا على التعلم بالملاحظة . ويعتمد تعلم الأطفال والكبار بالملاحظة على ما يأتى : هل انتبه الملاحظ لما عمله النموذج وادركه ادراكا دقيقا ؟ وهل تذكره تذكرا صحيحا ؟ وهل نقل ما تذكره وهو مرمز وحوله الى استجابات جديدة ؟ وهل لدى الملاحظ دافع يكفى لأداء افعال النموذج ؟ هل يتوقع تعزيزا لهذا الأداء ؟

التعلم بالملاحظة — تنمية السلوك :

قدر كبير من التعلم من وجهة نظر باندورا يتم دون تعزيز فعلى . فى دراسة مشهورة قام بها باندورا وروس عام ١٩٦١ م . اتضح ان الأطفال لا يستطيعون ان يتعلموا استجابات جديدة بمجرد ملاحظتها فحسب ، بل وكذلك يستطيعون تعلم تلك الاستجابات دون أن تتاح لهم أنفسهم القيام بها ، وحتى دون أن يتلقى النموذج الذى لاحظوه أى تعزيز للاستجابة .

تعلم الاستجابة الجديدة :

لاحظت مجموعة من اطفال الحضانة كل على حدة نموذجا راشدا يقوم بسلسلة من الأفعال العدوانية الجسمية واللفظية معا نحو دمية مطاطية كبيرة منفوخة . ولاحظت مجموعة أخرى من الأطفال مرة اخرى واحدا واحدا نموذجا راشدا كان يجلس فى هدوء فى حجرة تجريبية دون أن ينتبه على نحو معين للبيئة من حوله . ثم عرض كل طفل لاحباط معتدل ووضع فى الحجرة وحده مع الدمية التى راها من قبل .

لقد مال سلوك كل مجموعة من الأطفال الى مسايرة سلوك النموذج الراشد الذى لاحظته . فالأطفال الذين لاحظوا الراشد وهو يسلك سلوكا عدوانيا نحو الدمية مالوا الى اداء افعال عدوانية نحوها بدرجة اكبر من أولئك الذين لاحظوا الراشد وهو يجلس فى هدوء واكبر من افراد المجموعة

الضابطة التى لم ترى النموذج الراشد والحق ان الاطفال الذين شاهدوا الراشد يجلس فى هدوء كانت استجاباتهم العدوانية اقل حتى من اطفال المجموعة الضابطة .

وتتيح المهارات المعرفية الرمزية للناس ان يحولوا ما تعلموه — او ان يربطوه بما لاحظوه فى عدد من المواقف — الى انماط جديدة من السلوك ، ويستطيعون عندئذ أن ينموا انماطا سلوكية جديدة مبتكرة بدلا من مجرد تقليد ما راوه . وعلى سبيل المثال فالولد الصغير قد يلاحظ انه حين تغضب أمه فانها تمتنع عن التعبير عن غضبها وتتكلم ببطء شديد وبصوت خفيض ، وقد يلاحظ ان اباه حين يغضب يبدى ملاحظات ناقدة وساخرة بصوت مرتفع . فحين يغضب هذا الولد قد يعبر عن نفسه بالجمع بين هذين النمطين من السلوك اللذين صدرا عن والديه فى نمط سلوكي خاص به . وهكذا قد يبكى اخته الصغيرة بالسخرية منها بصوت هادىء خفيض .

آثار اخرى للنمذجة :

قد يكون لنمذجة السلوك آثار اخرى غير تعلم سلوك جديد ومنها ما يأتى : —

اولا — قد يؤدى سلوك النموذج الى استدعاء استجابات موجودة اصلا فى حوزة الملاحظ او حصيلته . وهــذا النوع من التاثير محتمل حين يكون السلوك المنمذج مقبول اجتماعيا . وعلى سبيل المثال افترض ان مراهقا يقوم بقضاء الحاجات لجدته وقد لاحظ اثناء عمله هذا ان راشدا يساعد عجوزا على عبور الشارع . ان ملاحظة هذا النموذج قد تعزز ميل المراهق لأداء هذا النمط السلوكى فى المستقبل .

ثانيا — نماذج تؤدى عناصر سلوكية قد لا تكون فى حصيلة الملاحظ او قد تكون فى حصيلته وغير مقبولة اجتماعيا او منحرفة . ما تاثير هذه النماذج وانماطها السلوكية فى الملاحظين ؟ ان نزعة الملاحظين الى اداء سلوك معين قد تقوى وقد تضعف ويتوقف هذا على ما لقيه سلوك النموذج من اثابة او عقاب . فالأطفال الذين لاحظوا سلوكا عدوانيا لنموذج يكافا على نحو

متسق أظهروا درجة عالية من العدوان ، بينما الأطفال الذين رأوا نفس السلوك يعاقب على نحو متسق لم يقلدوا هذا السلوك العدوانى .

النمذجة الرمزية :

يوجد قدر كبير من النمذجة الرمزية فى المجتمع المعاصر بطبيعة الحال ، فالأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية تعرض أمثلة لا حصر لها من الانماط السلوكية التى تؤثر فى الملاحظين . والحق أن هذه مصادر خصبة للسلوك المنمذج . ولقد وجد باندورا وأعوانه (١٩٦٣) أن النماذج الحيــة والأفلام والرسوم المتحركة تتساوى من حيث احتمال دفعها للأطفال لتقليد الانمــاط السلوكية التى لاحظوها وشاهدوها .

عوامل هامة فى التعلم :

ان مشاهدة شخص يعمل عملا لا يؤدى بالمشـــاهدة بالضرورة الى تعلمه ، وقد يتعلمه ولكنه لا يؤديه فى الموقف المناسب . وثمة عامل هام فى التعلم هو الانتباه ، أى أن الملاحظ ينبغى أن ينتبه بدقة وعنـــاية الى الادلة التى يوفرها النموذج . ما الذى يدفع الشخص الى الانتباه لنموذج ؟ هناك عاملان أوليان هامان يدفعان الى هذا هما التعــزيز أو النتائج التى حققها سلوك النموذج ، وخصائص النموذج وخصائص الملاحظ .

فاذا كوفىء سلوك النموذج فان التقليد يزداد احتمال حدوثه عما لو عوقب السلوك . ولكن تقليد سلوك النموذج قد يحدث حتى ولو لم يلاحظ الملاحظ أن النموذج قد كوفىء على سلوكه . وهذا يحدث لان الملاحظ يرى النموذج متصفا بصفات موجبة مما يدل على نجاح أسلوبه فى الحياة وهكذا يعتقد أن النموذج قد كوفىء بصفة عامة .

وخصائص النموذج كالعمــر والمكانة الاجتماعيـــة والجنس والدفء والكفاءة صفات تتساوى فى أهميتها فى تحديد الدرجة التى سوف يقلد بها . ولقد وجد منلوف Menlove عام ١٩٦٧ على سبيل المثال أن الأطفال يــزداد احتمال تقليدهم لأترابهم على تقليدهم للراشدين . ولقد وجد باندورا ووالن Bandura and Whalen (1977) أن الاطفال يميلون الى تقليـــد النماذج ذات

المستويات والمعايير التى يمكن بلوغها عن تقليدهم للنماذج التى تضع لنفسها معايير عالية ابعد من أن يبلغها الأطفال .

وتحدد خصائص الملاحظ وخصائص النموذج عمليه التقليد . وعلى سبيل المثال فقد اتضح من احدى الدراسات ان الأطفال الاتكاليين بدرجة عالية يتأثرون بسلوك النموذج بدرجة اكبر ممن هم أقل من هذه السمة .

تعلم استجابة انفعالية :

وثمة نوع آخر من التعلم يثير الاهتمام وهو الاشراط الكلاسيكى البديل لاستجابة انفعالية . اى ان الملاحظ يتعلم أن يستجيب لانفعال معين فى موقف معين بملاحظة نموذج يستجيب بنفس الطريقة . ولتوضيح هذه النقطة نذكر ملخصا للتجربة التى قام بها باندورا وروسنتال Rosenthal عام ١٩٦٦م حيث قامت نماذج بتمثيل استجابات تألم . ولقد قيل للمفحوصين فى التجربة عن هذه النماذج انهم مفحوصون يشاركونهم فى التجربة.واتيح للمفحوصين أن يلاحظوا هذه النماذج ويشاهدوا استجاباتهم لسلسلة من ازيز الاجراس بطرق مختلفة تدل على ما يخبرون من الم . وقيل للملاحظين انه بعد كل ازيز يتعرض من يلاحظونهم (النماذج) لصدمة كهربائية شديدة (ولم يكن هذا صحيحا) .

وبعد هذه الجلسات المبدئية التى تلبع فيها المفحوصون ازيز الجرس ، والصدمة والالم بدأ الملاحظون انفسهم يظهرون استجابة انفعالية شرطية لأزيز الجرس حتى فى الجلسات التى تغيب عنها النماذج . هذا على الرغم من ان هؤلاء المفحوصون (الملاحظون) لم يخبروا قط على نحو مباشر المثير المؤلم الذى تعرض له النموذج افتراضا .

تغيير السلوك غير المرغوب فيه :

أن ادراك باندورا انه يمكن اكتساب الاستجابات الانفعالية بالطرق المباشرة وبالطرق البديلة عن طريق الملاحظة البسيطة ادى به الى افتراض أن مثل هذه الاستجابات يمكن ايضا فى ظل الظروف السليمة اطفاؤها بالطريقة المباشرة والطريقة البديلة وهكذا يستطيع الأفراد الذين لديهم مخاوف

غير واقعية أو مبالغ فيها أن يعادلوا هذه الاستجابات الانفعالية المبالغ فيها بملاحظة نماذج تتفاعل بغير خوف مع الموضوعات التى تخيفهم واذا حملنا هؤلاء الأفراد على ممارسة الأنماط السلوكية للنماذج تحت ارشادها يصبح من الممكن حذف هذه الاستجابات والتخلص منها .

ويناقش باندورا فى كتابه Principles of Behavior Modification « مبادىء تعديل السلوك » ، تعديل الأنماط السلوكية غير المرغوب فيها بواسطة أساليب تقوم على نظرية التعلم . ويصف دراسة هامة استخدمت اسلوبا من أساليب العلاج السلوكى يعرف بسلب الحساسية فى ظروف النمذجة (ويقتضى هذا الاسلوب حث الشخص على الاسترخاء ثم مساعدته على أن يتعلم تحمل موضوع يثير القلق) وتتألف عينة هذه الدراسة من عدد من المراهقين والراشدين الذين يعانون جميعا من مخاوف مرضية شديدة من الثعابين ، قسموا الى ثلاث مجموعات . المجموعة الأولى هى مجموعة سلب الحساسية ، وقد تمت مساعدة أفرادها على تحقيق حالة من الاسترخاء العميق ثم طلب الباحثون من المفحوصين أن يتخيلوا سلسلة من المناظر التى تتضمن ثعابين وأن يصوروا اندماجهم المتزايد مع هذه الزواحف . وعلى سبيل المثال قد يبدأ المفحوصون بتخيل انهم ينظرون الى لعبة على صورة ثعبان فى نافذة أحد المتاجر . وعندما يستطيعون تصور هذا المنظر دون أن يثير لديهم خوفا ، يطلب منهم أن يتخيلوا أو يتصوروا انهم يلعبون بهذه اللعبة. ثم يتخيلون انفسهم وهم ينظرون الى ثعبان حقيقى فى صندوق ، ثم يتخيلون لمسه وهم يلبسون قفازات . وهكذا حتى يستطيعوا تصور أنهم يمسكونه بأيديهم المجردة .

وتتألف المجموعة الثانية وهى مجموعة النمذجة الرمزية من افراد تمت مساعدتهم على تحقيق حالة من الاسترخاء العميق ثم شاهدوا فيلما يحتوى على نماذج تعاملت على نحو يزداد قربا مع ثعبان كبير . وفى المجموعة الثالثة وهى مجموعة النمذجة المشاركة لاحظ أفرادها نموذجا حيا يؤدى انماطا سلوكية مختلفة مع ثعبان حى . وقد كان يطلب بعد كل تفاعل من هذه التفاعلات من أفراد المجموعة الثلثة أن يؤدوا نفس الأنماط السلوكية التى شاهدوها،وكان ذلك يتم فى البداية بمساعدة النموذج ثم بعد ذلك بمفردهم.

ولقد طلب من جميع المفحوصين فى هذه التجربة قبل المعالجات المختلفة وبعدها ان يحاولوا ان يؤدوا سلسلة من الأعمال المتـدرجة التى تتضمن ثعابين حية . اما افراد المجموعة الرابعة وهى المجموعة الضابطة فقـد شاركوا فى جلستى الاختبار فحسب ، اى انهم لم يتعرضوا لاية معالجة بين الجلستين .

ولم تظهر المجموعة الضابطة فى الأساس اى تغير فى السلوك وأظهرت مجموعتا سلب الحساسية والنمذجة الرمزية تزايدا ملحوظا فى ميلهم بعـد المعالجة للاقتراب من الثعبان والتعامل معه . وكانت انجح المعالجات تلك التى اشتملت على نموذج مشارك ، اى تلك التى شـاهد فيها المفحوصون نموذجا فعليا ثم وجهوا للتعامل مع سلوك النموذج .

وواضح أن انتقاص الخوف ، والخبرة البـديلة غير كافيين لتحقيق احساس مناسب بالسيطرة الشخصية . اى انه ينبغى على الفرد ان يؤدى بنجاح فى موقف فعلى يتضمن الموضوع المخيف اذا اريد له ان يحقق هدفه . ويزداد احتمال محاولاتنا لاداء سلوك صعب أو سلوك جديد اذا اعتمدنا على جهدنا الذاتى وحققنا بعض النجاح فى ادائه ممـا نفعل اذا استطعنا ذلك بمساعدة خارجية .

ويوضح باندورا أن النموذج المشارك لا يتيح للشخص ان يؤدى الاعمال فعلا التى تؤدى الى الهدف المرغوب فيه . ان هذا الاسلوب يشتمل على وسائل مساعدة اخرى تشـجع الناس على المثابرة فى اداء العمل حتى يحسـوا بالاتقان والسيطرة . ان هذا يشتمل على ملاحظة نموذج ، واداء سلسلة من الأعمال المتدرجة على فترات زمنيـة وزعت بعناية ، ومسـاعدة النموذج ، والانتقاص التدريجى لهذه المساعدة حتى نتوقف بحيث يتزايد اعتماد الافراد تدريجيا على جهودهم . (Bandura, Jeffery and Wright, 1974)

ما الذى يحدث السلوك غير المرغوب فيه ؟ يتفق باندورا مع ايزنك على أن العلاج السلوكى ينقص على نحو فعال استجابات القلق . ولكنه لا يعتقد على اية حال أن العنصر السلوكى الذى يحدث استجابات خوف مبالغ فيها والذى يجب حذفه لكى يغير السلوك هو الضيق الانفعالى . وانمـا يرى

باندورا بدلا من ذلك أن المشكلة الأساسية هى اعتقاد الشخص بأنه لا يستطيع أن يعالج موقفا معينا على نحو فعال . أن التغيير الذى يحقق العلاج السلوكى ينتج عن تنمية الناس لاحساسهم بفاعلية الذات وهى التوقع بأنهم يستطيعون بجهودهم الشخصية أن يسيطروا على الموقف ويتقنون العمل الذى يتطلبه ، وأن يحققوا النتائج التى يريدونها . ولقد إتضح من خلال الدراسات العلمية أن زيادة فاعلية الذات تحقق التغير السلوكى المطلوب .

نمـــو الشخصية :

يرى باندورا أن خبرات التعلم الاجتماعى تلعب دورا هاما فى نمو سلوك الشخص وفى تعديله . فالانماط السلوكية الجديدة تكتسب حين يشاهد الطفل سلوك من يعنون به ويرعونه . وكثيرا ما يكافأ تقليد الطفل لأنماط سلوك الوالدين ، ولكنه يعاقب أحيانا . ويميل السلوك المثاب الى التكرار . وحين يؤدى فى حضرة الآخرين يتعزز ايجابيا . ونتيجة لذلك يتعلم الأطفال فى وقت مبكر من اعمارهم أن يسلكوا على شاكلة الأنماط السلوكية للنماذج الناجحة ، كما يتعلمون تجنب تقليد النماذج الفاشلة . ولسوء الحظ فان اكتساب الأشكال المعقدة من السلوك ليس بهذه البساطة ولا يحدث مباشرة . فكثيرا ما يتعرض الأطفال لنماذج متعددة تقدم لهم أنماطا سلوكية متصارعة الواحد مع الآخر . فقد يكافىء أحد الوالدين على سبيل المثال أبناءه حين يتحدثون أمام الضيوف بينما يعاقبهم الآخر على نفس السلوك . وحتى حين يكون الأب والأم على اتفاق فان هناك مربين آخرين كالمعلمين قد لا يتفقون مع ما يعلمه الوالدان وينقلون الى الأطفال هذا الاختلاف وقد يحاول الأتراب أن يلقنوا الأطفال تلقينا مختلفا . وهكذا فان تعزيز الأنماط السلوكية لا يتم على نحو متسق .

ومما يزيد الصورة تعقيدا أن السلوك لا يقلد تقليدا دقيقا ولا تاما . وينبغى أن يشكل بواسطة القائمين بالتطبيع الاجتماعى عن طريق مبادىء التقريب المتتابع التى كان سكنر من رواد القائلين بها . وتعليم الأطفال لآداب المائدة مثال واضح لضرورة تطبيق المعززات واستخدامها بطريقة تتسم

بالحذق وعلى انماط سلوكية منوعة لا تشبه فى البداية ما ينتهى اليه التعلم من اكتساب مجموعة معقدة من الأنماط السلوكية .

وبالاضافة الى التقليد والتقريب المتتابع فان باندورا يرى ان المحافظة على العناصر السلوكية التى فى حوزة الفــرد والتخلص منها يتوقف على استخدام جداول التعزيز المنوعة . وهو يرى على وجه الخصوص انه تتم المحافظة على السلوك من خلال تطبيق واستخدام جداول تعزيز يرتبط بعضها ببعض. ولتوضيح هذه النقطة يقدم لنا باندورا مثالا عن سعى الاطفال لجذب انتباه الآخرين . يقول : « فى تدريب الاطفال يشيع استخدام اكثر من جدول من جداول التعزيز معا . ولنأخذ مثالا هو سعى الأطفال الى جذب انتبــاه الآخرين . ويحاول معظم الأطفال الصغار مرات كثيرة فى اليــوم ان يثيروا استجابة العطف من قبل امهاتهم . وتستجيب الأم احيانا استجابة مباشرة ولكنها كثيرا ما تكون مشغولة . وفى فترات متباينة تكافىء الطفل فتنتبه اليه. وتميل كثير من الأمهات الى تجاهل الأشكال المعتدلة من سلوك السعى لجذب الانتباه ، ويملن الى الاستجابة حين يصبح هذا السلوك متواترا ومتسما بالشدة . ويمكن أن نتنبأ بان اطفال هؤلاء الامهات سوف ينشأون مثابرين فى سلوكهم الساعى لجذب الانتباه. اى ان نمطهم السلوكى سوف يحدث بنفس المعدلات وبالشدة التى كفلت من قبل تحقيق المكافأة . وقد يشك المرء فى ان معظم السلوك المثير للمشكلات قد تلقى اثابة من خلال جداول تعزيز مركبة بحيث أصبح متواترا وشديدا لما لقى من تعزيز. وهكذا نجد مثل هذا السلوك صامدا ويصعب التخلص منه ومحيرا للاباء. ولعل كثيرا من السلوك العدوانى يرجع الى استخدام جداول تكافىء الاستجابات ذات الاهميه الكبيرة ويمكن أن تكون هذه جذب الانتباه والبحث عن الطمأنينة وغيرها من الاستجابات الاتكالية ، ويمكن ان تكون كذلك من النوع الذى يغلب اعتباره عدوانا »

(Bandura & Walters, 1963, p. 7)

وهكذا يبدو ان المعززات توزع بطرق معقدة من قبل القائمين على عمليات التطبيع الاجتماعى . فضلا عن ان الاطفال يتعلمون فى مسارهم النمائى أن يستخدموا معززات لسلوكهم فى المواقف المختلفة. ويضعون اسسا معايير لمكافأة الذات وعقابها بطرق متنوعة . فعند بلوغ الاطفال مواقف السلوك

على يد والديهم وعلى يد آخرين ، ويكافأوا لاتباعها ويعاقبوا لمخالفتها والخروج عليها . وقد يتعلم الأطفال هذه المعايير من خلال الكتب التى يدرسونها والصحف التى يقرأونها والأفلام التى يشاهدونها والتلفزيون الذى يتابعونه والراديو الذى يسمعونه . وقد يتعلمونها عن طريق عمليات النمذجة .

فى أحدى الدراسات قامت مجموعة من الأطفال بالاشتراك فى لعبة البولنج المصغرة مع نماذج من الكبار ولاحظ افرادها النموذج أو القدوة وهو يكافىء نفسه بالحلوى حين يؤدى أداء ممتازا . وقامت مجموعة ثانية بالاشتراك فى نفس اللعبة غير أن افرادها لاحظوا النموذج وهو يكافىء نفسه على الأداء الضعيف.وبعد التعرض للنموذجين ترك الأطفال بمفردهم ليلعبوا دون وجود نماذج معهم . ولقد بينت النتائج أن الأطفال جنحوا الى أن يسلكوا وفق سلوك النموذج الذى شاهدوه . وعلى الرغم من انه قد اتيحت لمجموعتى الأطفال كميات كبيرة من الحلوى ، فان الذين لاحظوا مستويات أداء عالية كافأوا انفسهم باقتصاد وكافؤها حين بلغ اداؤهم مستوى المحك أو تعدوه ، أما الذين تعرضوا لنموذج ذى مستوى متدنى فقد كافأوا انفسهم بكثرة على ادائهم المتدنى . (Bandura & Kupers, 1964)

ولقد قام باحثان آخران بمحاولة تحديد آثار النماذج المتعددة على السلوك وباستخدام لعبة البولنج التى سبق ذكرها . قام الراشدون فى المرحلة الأولى بالالتزام بشروط أو معايير متشددة لمكافاة الذات (اى انهم كافأوا انفسهم لبلوغهم مستوى معين من الأداء ، واخبروا الأطفال بأن عليهم أن يعملوا بنفس الأسلوب) أو بشروط أو معايير متسامحة لمكافاة الذات (أى أنهم كافأوا انفسهم لاحرازهم أحد معدلين فى التهديف) . وفى المرحلة الثانية من البحث قام نموذج ثانى باللعب وكان يلتزم بالمعيار المتشدد الذى وضعه النموذج الأول أو كان يخالف ذلك بمكافاة نفسه على بلوغ المستوى المتدنى.وقد بينت النتائج أن الأطفال الذين دربوا على اساس المعيار المتشدد على يد الراشد الأول والذين رأوا النموذج الثانى يلتزم بذلك المستوى تمسكوا بالمعيار ، أى أنهم كافأوا انفسهم حين بلغوا المستوى المتشدد

فحسب . أما الأطفال الذين دربوا أولا على أساس المستوى المتشدد ولكنهم رأوا الراشد الثاني يخالف هذا المعيار كانوا أقل رغبة في التمسك بالمعيار المتشدد في غيبة النماذج . لقد كافأوا أنفسهم على احرازهم نتائج مختلفة . ولهذا البحث بعض المضامين التي يجب أن نقف عندها . انها تقترح علينا أو تبين لنا أن الوالدين والراشدين الآخرين الذين يفرضون قيودا سلوكية قاسية على الأطفال ولكنهم هم انفسهم لا يلتزمون بها في سلوكهم يغلب الا ينجحوا في تدريب وتنشئة اطفل بحيث يصبحون ملتزمين بالقواعد الاجتماعية . فليس من الصواب فيما يبدو استخدام المثل القديم « اعمل كما اقول ولا تعمل كما أعمل » لان هذا المبدا لا يؤدى الى غرس القيم الصحيحة عند الأطفال . وينبغى ان نرفع الشعار « أعمل كما اقول وكما افعل » .

ومن مضامين هذه الدراسة ايضا ما يتصل بالعلاقة بين معايير او مستويات التعلم وشعور الشخص بكفاءته . فاذا كانت المعايير او المستويات التى يتعلم قبولها عالية جدا ، ويندر بلوغها فقد يعانى الفرد من هذه الخبرات الضاغطة . وفى كل هذه الظروف يشعر الفرد بالقلق والالم والاكتئاب وجزء من هذه المأساة أن كثيرا من الناس الذين يأخذون بمثل هذه المعايير اكفاء نسبيا ، ولكنهم يعيشون فى كرب مستمر لانه من النادر بالنسبة لهم ان يرضوا عن افضل ما يبذلونه من جهد ، لانهم بعد هذا الجهد الكبير يرون اداءهم دون ما ينبغى أن يكون عليه . وقد لا يقبلون مكافاة الاخرين لهم او ثناؤهم عليهم . وفى مثل هذه الأحوال لا يكون للتعزيز الخارجي الا تاثير ضئيل على سلوكهم .

واخيرا على الرغم من أن باندورا يؤكد على اهمية التعلم بالملاحظة والتعلم الاجرائى وتعزيز الذات ، الا انه لا يهتم بنفس القدر بالمحددات البيولوجية للسلوك . وهو بطبيعة الحال يدرك ان العوامل الجبلية تؤثر لا محالة فى طبيعة تاريخ التعلم الاجتماعى للفرد يقول باندورا :

« ان المعالجات الاجتماعية قد يكون لها تأثير ضئيل فى بعض الخصائص البيولوجية للفرد كنمط جسمه وملامح وجهه . ومع ذلك ففى مجتمعنا الذى يعلى من قيمة امتلاك خصائص جسمية معينة : قد يتأثر تكرار المعززات الاجتماعية جزئيا بمدى الوفاء بهذه المثل العليا المتقاسمة . ففى أمريكا حيث نجد ان المكافآت الاجتماعية والشهرة تخلع على أصحاب القدرات

والأجسام الرياضية، فان من المتوقع بالنسبة للشباب الصغار والذين تنقصهم القوة العضلية والمهارة أو الذين يتصفون بخصائص انثوية أن يخفقوا فى الحصول على معززات ايجابية من أترابهم . وبالمثل فان الانثى التى لا تبلغ مستويات الجمال التى يحددها المجتمع سوف تحصل على الأغلب على تعزيز ايجابى قليل وخاصة من الرجال وذلك اذا قورنت بالأنثى التى تمتلك الخصائص المعززة اجتماعيا . فالانثى الرقيقة الصغيرة الحجم تلقى الاعجاب فى الثقافة الامريكية . وقد تلقى تعزيزا أقل من ثقافات اخرى بل وقد تجد معاملة تتسم بالمضايقة فى تلك الثقافات التى بها قصور فى أساليب توفير العمالة » . (Bandura & Walters, 1963, pp. 26-27)

فالعوامل الجبلية لها تأثير غير مباشر فى النمو ، ليس ذلك فحسب بل أن العوامل البيوكيمائية لها اثر مماثل. وعلى الرغم من ادراك دور البيولوجيا فى نمو الشخصية الا انه قلل من اهميتها فى نظريته لانه يرى أن المعرفة المتوافرة لدينا عن طرق تأثير البيولوجيا فى الادراك محدودة . وترتيبا على ذلك فانه يرى أن من الأجدى أن ندرس دور متغيرات التعلم الاجتماعى فى نمو الشخصية . (Rayckman 1985, pp. 372-375)

العـــلاج النفسى :

ان الانحراف السلوكى من وجهة نظر باندورا لا يرجع الى ضعف فى الخلق أو الى سيطرة دافع واحد على الفرد أو الى خبرات طفلية تعسة . وانما ينشأ هذا الانحراف على اساس مبادىء التعلم الاجتماعى . ويبقى أو يستمر لانه يؤدى وظيفة معينة . ويصعب تحقيق تغير السلوك عن طريق العلاج لانه يتطلب حذف الأنماط السلوكية التى ارتبطت بظروف مشبعة أى ارتبطت بالتعزيز . فالتدخين والنهم لهما آثار ايجابية فى البداية ، وما يترتب عليهما من آثار منفرة لا يكفى لاحداث سلوك التجنب .

ان الهدف النهائى للعلاج أن يقوم الفرد بتنظيم نفسه ، ولتحقيق هذه الغاية لا يقوم المعالج باستخدام استراتيجيات صممت لاحداث التغير السلوكى فحسب بل استراتيجيات تحدث التغيير وتحافظ عليه . ان التأكيد يوجه الى

الانجازات الادائية وليس الى علاج المرضى أو تيسير انجازات غامضة كتحقيق الذات .

ويرى باندورا ان هناك ثلاثة مستويات لانجاز العلاج . المستوى الأول هو الحث على التغيير واحداثه . واذا اريد ان يكون للعلاج اى درجة من الفاعلية ، فلا بد أن يستثير بعض التغير فى السلوك . وعلى سبيل المثال اذا امكن اطفاء استجابة خوف للأماكن المرتفعة ، فان الشخص الذى كان لديه مثل هذا الخوف المرضى من قبل يستطيع ان يرقى سلما يبلغ ارتفاعه عشرين قدما . وهكذا نستطيع ان نتبين ان تغيرا طرا على سلوكه. والمستوى الثانى من الانجاز العلاجى هو التعميم . فالشخص الذى كان يخاف من الأماكن العالية لا يستطيع ان يصعد السلم فحسب بل يعمم هذا السلوك ليشمل مواقف اخرى . وهذا المستوى اكثر فاعلية من مجرد حدوث التغير انه يتيح للشخص أن يستقل الطائرات وان ينظر من خلال نوافذ المبانى العالية . وتحدث بعض أنواع العلاج التغير أو تستحثه وتيسر التعميم غير انه قد تضيع آثار العلاج بمضى الزمن ويعيد الفرد اكتساب السلوك المخل بوظيفته . ويصدق هذا على وجه الخصوص بالنسبة لاطفاء العادات التى تسىء الى التوافق كالتدخين والنهم فى تناول الطعام . واكثر انواع العلاج فاعلية هو ذلك الذى يبلغ المستوى الثالث وهو المحافظة على السلوك الوظيفى الذى اكتسبه الفرد .

ولما كان السلوك الذى يؤدى الى خلل وظيفى ينتج عن حتمية تبادلية فان الاحتمال القائم بحدوث سلوك معين يتفاوت تفاوتا كبيرا فى المواقف البيئية المختلفة وبتفاوت الأشخاص والأزمنة . ان التصور العريض لكل من السلوك غير المتوافق والعلاج يتيح لنا تنوعا فى الاساليب العلاجية والاستراتيجيات . والمحك الأول لاى مدخل هو ان هذا المدخل يحقق تغيرا فى السلوك وبعد ذلك تبرز اهمية التعميم والمحافظة على التغير . ويصبح التعميم والمحافظة على التغير هدفين هامين . ويقترح باندورا مداخل عدة اساسية للعلاج ومن بينها اسلوب النمذجة البديلة أو الصريحة . ومما يساعد على اطفاء القلق وانقاص الخوف ملاحظة نماذج حية أو مصورة فى افلام وهى تؤدى انشطة مهددة. وقد يتيح انقاص القلق والخوف للملاحظ أن يؤدى بعض

هذه الأنشطة . والمدخل الثانى هو النمذجة المعرفية أو الضمنية . وهــذه الطريقة فى العلاج تعنى ان يدرب المفحوصون على ان يتصوروا نماذج تؤدى الأنماط السلوكية المخيفة . والنمذجة الصريحة أو الضمنية استراتيجيتان من اكثر الاستراتيجيات العلاجية فاعلية حين ترتبطان بمداخل ذات توجه ادائى.
(Feist 1985, pp. 288-289)

طرق البحث والبحوث المميزة :

ترتبط نظرية باندورا ارتباطا وثيقا بالبحوث ولقد لخصنا طرفا منها . وسوف نتناول هنا فى ايجاز شديد أسلوبه فى البحث .

ان باندورا لا يستخدم تحليل الاحلام ولا التداعى الحر ولا اى اسلوب آخر مما يستخدمه الديناميون للكشف عن خفايا النفس الانسانية ويبدو انه ايضا لا يهتم على وجه الخصوص باستخدام استخبارات الشخصية لقياس متغيراتها ؛ وان لم يستبعد استخدام بعض هذه الأدوات التى تتميز بالثبات والصدق حين يجد ذلك مساعدا له على فهم السلوك كاستخدامه لمقياس روتر . Rotter's Internal - Extrenal Scale

ويكرس باندورا جهده للكشف عن خصائص مشكلات واقعية يتناولها بالدراسة فى المعمل . ولقد استطاع فى هذا الموقف أن يدرس ظاهـرات كالعدوان والمخاوف المرضية ؛ واستطاع ان يحقق الشفاء لبعض المرضى من النوبات القلبية وان يساعد الأطفال على اكتساب المهارات فى الرياضيات . وعلى الرغم من أن عمله قد يبدو فى بعض الأوقات منصرفا الى البرهنة على صحة فكرة نظرية أكثر منه الى معرفة وفهم الظاهرة موضع الاستقصاء والفحص . الا أن هدف باندورا هو أن يزودنا بإطار تصورى موحد يمكن أن يضم اشكالا منوعة عن التأثير الذى يعدل السلوك . وليس من شك فى أن المهارات والفاعلية الذاتية التى تضمن الاستخدام الأمثل للقدرات مطلوبة للأداء الناجح فى اى نشاط .

ولقد اثارت نظرية باندورا عن التعلم الاجتماعى قدرا كبيرا من البحوث أسفرت عن نتائج وكشفت عن شواهد دعمت مفاهيمها ومبادئها الأساسية . ولقد تركزت معظم البحوث على التثبت من صدق دور التعلم بالملاحظة فى

اكتساب السلوك الانسانى وفى المحافظة عليه وفى تعديله . وهذه البحوث طورت معرفتنا عن كيفية تأثير النماذج الوالدية وممارستها فى النمو الاجتماعى للأطفال ، وكيف نكتسب اللغة وعمليات التفكير وكيف يمكن استخدام تعزيز الذات فى علاج أنواع مختلفة من المشكلات النفسية . ولقد قام باندورا بدراسات كثيرة تبين اهمية التعلم بالملاحظة فى اكتساب السلوك العدوانى وفى تعديله. أن هذه الدراسات والبحوث تدل بوضوح على أن لنظرية باندورا اساس امبيريقى وأن من المعقول ان تزدهر البحوث وتستمر فى اطار هذه النظرية .

ان باندورا فى الاساس يستخدم الطريقة الاستقرائية . ويضع فروضا قابلة للاختبار مشتقة من نظريته العامة ثم يجمع بيانات من افراد وجماعات ليتثبت من صدق نظريته . والطريقة المنهجية التى يستخدمها فى دراسته للتعلم بالملاحظة تقضى أن يلاحظ المفحوص سلوك نموذج ثم يختبر فيما بعد بقصد تحديد انماطه السلوكية عندما يوضع فى موقف مماثل للموقف الذى لاحظ فيه النموذج أو القدوة من قبل . ولقد بذل باندورا جهودا مضنية لكى يوفر الموقف التجريبى نفس الشروط أو الظروف التى توجد فى البيئة الاجتماعية الحقيقية . ولقد درس باندورا عينات من جميع الأعمار بدءا من سن ما قبل المدرسة وحتى سن الرشد . وهذا من العوامل التى تتيح لنتائجه الامبيريقية مزيدا من القابلية لتمتد وتعمم وتشمل العالم الواقعى . ولقد اجريت هذه الدراسات التى تناولت عمليات التعلم بالملاحظة وغيرها فى السلوك الانسانى على اساس منهجى جيد الاحكام ومع الالتزام بتقاليد علم النفس الاجتماعى التجريبى .

ولقد أخذ باندورا بمدخل تحليلى مصغر فى اجراء البحوث والدراسات. أن هذا المدخل يتضمن أو يتطلب التقدير والقياس التفصيلى بحيث يمكن دراسة مدى التطابق بين الادراك الذاتى والسلوك عبر الزمن .

ويرى باندورا أنه من الضرورى بالنسبة لكل خطوة من خطوات اداء العمل وخلال الجهود التجريبية ان نبذل الجهد لقياس الوسائط المعرفية والتى كثيرا ما تكون عمليات معرفية . أن استراتيجية باندورا البحثية هى أن يتابع التغيرات عبر الزمن ، أى أن يقدر العملية ولا يكتفى بتقدير الهدف النهائى .

ويذهب بعض النقاد الى أن نظرية باندورا تواجه صعوبة فى محاولاتها لتفسير كيف تؤثر المتغيرات المعرفية المختلفة فى السلوك ، بل ويرون أن مثل هذه التكوينات المعرفية غير ضرورية لتفسير السلوك .

ومهما يكن من شىء ، فان أبحاث باندورا المعملية تعكس ولاءاته المبكرة لعلم النفس التجريبى ولنظرية التعلم . غير أن تدريبه كعالم نفس اكلينيكى كثيرا ما تأدت به الى استخدام أنماط سلوكية ومواقف يشيع وجودها فى الموقف الكلينيكى. ولقد اهتم باندورا اهتماما كبيرا بموضوعات تتضمن أفكارا مثل فاعلية الذات ، والنمذجة والتعلم بالملاحظة . وجهوده فى دراسة هذه الأفكار وغيرها كانت موجهة كلها الى فهم شروط التعلم التى على أساسها يغير الناس سلوكهم ، ويكتسبون سلوكا جديدا . ومن المجالات التى اهتم بها مع أعوانه التقليد ، والتوحد ، والتعزيز الاجتماعى وتعزيز الذات .

المكانة الراهنة والتقويم :

من مزايا هذه النظرية ما يأتى : —

— أن فكرة التعلم بالملاحظة تتسق مع الخبرة والمنطق وقد قدم لنا فرويد نفس الفكرة عندما تحدث عن التوحد أو التقمص ، كما أن فكرة بياجية عن التعلم بالملاحظة لها نفس نكهة فكرة باندورا ، كما أن تصور وليم جيمس عن التعلم لا بد وانه اثر فى أن يجىء فكر باندورا غرضيا .

— من المعقول أن نتعلم بملاحظة شخص آخر وتقليده . الم يولد الأطفال مقلدون ؟ وفضلا عن ذلك فاننا نعرف أننا نستطيع أن نتعلم دون تعزيز .

— فكرة باندورا عن التعلم بالملاحظة مفيدة فى العلاج النفسى وفى الارشاد النفسى وفى كثير من المواقف التعليمية والتدريسية . وقد لا تبرهن قابلية النظرية للتطبيق على مصداقته النظرية ، ولكنها تقيم الدليل على قيمتها .

— يتشكك باندورا فى التسليم بأى فكرة فى نظريته ما لم تثبت مصداقيتها تجريبيا وتعتبر تجاربه نماذج جيدة من حيث التصميم وضبط المتغيرات .

وفضلا عن ذلك فانه يجرى تجاربه على الناس فى مواقف شبيهة بمواقف الحياة وليس فى مواقف تجريبية مصطنعة . والشواهد المتوافرة على دعم نظرية باندورا كثيرة فثمة اختبارات امبيرقية لا حصر لها لنظريته والنتائج حتى الآن مشجعة . وعلى سبيل المثال لقد كشفت الدراسات التى أجريت على التعلم بالملاحظة عن اهمية النمذجة فى قولبة السلوك والمحافظة عليه وتغييره . وعلى الرغم من ان معظم هـذه البحوث قد استخدمت النمـذجة للتخلص من المخـاوف ومن القلق والاضطرابات السلوكية ، الا ان مبادىء قولبة السلوك قد طبقت فى دراسة الأنماط السلوكية غير العصابية . بالاضافة الى انه امكن اشتقاق اسـاليب علاجيـة سلوكية اخـرى من نظـرية التعلم الاجتماعى واستخدامها استخداما ناجحا فى معالجة مشكلات عديدة . وبصفة عامة يتوافـر الصدق الامبيريقى لموقف باندورا النظرى .

— ان فكر باندورا الأساسى له مضامين ديمقراطية . ذلك ان تأكيده الشديد على الاتجاه البيئى (مقابل الاتجاه الوراثى) يعنى انه متفائل عن امكانية استعادة الصحة لكل شخصية مبيئسة . انها فلسفة مساواة مع ايمان عميق بالتربية .

ومن عيوب هذه النظرية ما يأتى : —

— ان فكرته الأساسية لا تفسر حقيقة الظواهر السلوكية . فمفاهيم مثل النمذجة والمشاركة البديلة ما هى الا عناوين للظـاهرات ولا تفسر تلك الظاهرات . كما ان القدرة على التنبؤ عن شىء لا يعنى اننا نفهمه . فقد يستطيع باندورا ان يخبرك بالظروف التى يحتمل ان يحدث التقليد فيها ، ولكنه لا يخبرك قط بالأسباب التى تحملنا على التقليد .

— ان فكـرة باندورا الأساسـية لا تصلح اساسـا لنظرية شـاملة فى الشخصية . فباندورا ليس لديه تصور عميق عن الدافعية . ولا يفسر لنا لماذا يجد الناس اشياء معينة معززة . كما انه ليس لديه نظرية فى النمو تبين لنا كيف ينمو التعلم بالملاحظة وينضج . وليس لديه تصور عن بناء الشخصية لانه يكره مدخل السمات لان السمات المقـدرة لا تتنبىء

بالسلوك على نحو فعال كالعوامل الموقفية . والنظريات السيكودينامية من وجهة نظره التي لا يمكن البرهنة على صحتها امبيريقيا قاصرة في قدرتها التنبؤية . ويبدو انه يشعر بصفة عامة ان الأفكار الخاصة ببنية الشخصية غير ضرورية ، وخاصة انه مهتم بالتنبؤ بالسلوك وبتغييره . ونحن نعجب أين نجد الشخص في نظرية باندورا . ان مجموع افكار باندورا اذا جمعت معا لا تؤلف شخصا كاملا . ففكرة باندورا الأساسية لا تصلح أساسا لنظرية شاملة في الشخصية ، وانما تصلح في احسن الحالات أن تكون اساسا لنظرية مجزأة في الشخصية . اى ان نظرية باندورا ليست نظرية شاملة كنظرية فرويد وانما هي نظرية مصغرة . فهي لا تجيب عن جميع الاسئلة التي يمكن ان نثيرها عن الشخصية .

— على الرغم من جهود باندورا في التاكيد لنا بأن معدلى السلوك لا يتحكمون في الناس ولا يسيطرون عليهم كما يتحكم الفرد فيما يجرى على مسرح العرائس بتحريك الخيوط التي يمسكها الا ان نظرية باندورا حتمية . انها نظرية تستهدف التنبؤ بالسلوك وضبطه ولا تفسح المجال لحرية الارادة . فوفقا لباندورا اذا كان في الامكان أن نعرف تاريخ التعلم الاجتماعي الكلي للفرد حتى اللحظة الراهنة فاننا نستطيع ان نتنبأ بفعله الآتي بيقين مطلق . فأين المجال لحرية الارادة اذا كان هناك فعل تال ولا شيء غيره بالنسبة لهذا الشخص ذى التاريخ المحدد من التعلم الاجتماعي .

— وعلى الرغم من أن القيمة التطبيقية لنظرية التعلم الاجتماعي عالية في مجال المرض النفسي ، حيث ان مبادىء التعلم الاجتماعي قد استخدمت بنجاح في علاج مشكلات سلوكية منوعة الا ان ثمة مشكلتان يحولان دون ان تكون للنظرية قيمة تطبيقية بارزة . المشكلة الأولى تتصل بمدى استقرار وثبات التغيرات السلوكية التي تنتج عن العلاج بها . ذلك أن معظم الدراسات بينت ان اثار العلاج السلوكي مؤقتة . وباندورا معنى بهذه المشكلة ؛ وهناك باحثون آخرون يجرون بحوثا للتغلب على هذه المشكلة .

والمشكلة الثانية هى نقصان الشواهد الراسخة الدالة على قابلية الآثار العلاجية للتعميم اى قابليتها لان تتعدى المواقف المعملية الى المواقف الطبيعية . اى اننا اذا انقصنا عدوان الشخص عن طريق استخدام النمذجة فى موقف كلينيكى ، هل يسلك هذا الشخص على نفس النحو اى سلوكا اقل عدوانية فى علاقته بمن يتعامل معهم فى حياته اليومية ؟ ان البحوث المتوافرة والتى تتصدى لهذه المشكلة ما تزال قليلة . ويبدو واضحا أن بعض الباحثين بدأ يولون هذه التقنية اهتمامهم .

وليس من شك فى ان بحوث باندورا فى مجال العدوان قد زادت من فهمنا لأصول هذا السلوك ، وزودتنا باستبصارات بالطرق التى يمكن بواسطتها تعديل هذا السلوك وضبطه . ولسوء الحظ فان محصلين هذه النتائج لم تستخدم استخداما تاما من قبل المؤسسات والأجهزة التعليمية والتدريبية والاصلاحية ومن قبل واضعى السياسات ، هذا على الرغم من محاولات باندورا المستمرة وزملائه لنقل هذه المعلومات ونشرها واحداث التغييرات التى تتسق معها . وبصفة عامة يبدو من المعقول ان نقرر أن نظرية باندورا قد قدمت لنا حلولا جديدة لمشكلات هامة ، ولكن قيمتها التطبيقية ينبغى أن تتزايد بروزا ووضوحا .

الفصل الرابع عشر

كيرت ليفين

ولد كيرت ليفين فى موجيلنو Mogilno فى بولندا عام ١٨٩٠ م وكان ترتيبه الثانى فى اسرة لها اطفال اربعة . وعلى الرغم من ان ابـا ليفين كان قائدا فى المجتمع المحلى ، وكان يعمل بالزارعة ويملك متجـرا الا انه انتقل مع أسرته الى برلين عندما بلغ كيرت الخامسة عشرة من عمره وذلك حتى يوفر لابنائه تعليما افضل .

وبعد ان اتم كيرت تعليمه الثانوى التحق بجامعة برلين حيث درس علم النفس على يد عالم نفسى تجريبى مشهور آنذاك هو كارل ستمبف K. Stumpf وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩١٤ م وخدم فى الجيش الالمانى خلال الحرب العالمية الأولى اربع سنوات . وحين عاد الى برلين انضم الى هيئة التدريس بالمعهد السيكولوجى وبقى هنالك عـدة سنوات . وفى عام ١٩٢٦ عين استاذا للفلسفة وعلم النفس واستمر بهذا المنصب حتى عام ١٩٣٣ . وفى تلك الفترة تزوج وكان ذلك عام ١٩٢٨م وانجب اربعة اطفال . وعندما تولى هتلر حكم المانيا ، كان ليفين استاذا زائرا فى جامعة ستانفورد ، فعاد الى المانيا فترة قصيرة ليصحب أسرته لتقيم معه فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد عمل استاذا لعلم نفس الطفل فى جامعة كورنل فى الفترة مابين ١٩٣٣ ، ١٩٣٥ م . واصبح استاذا لعلم النفس بجامعة أيوا فى مركز رعاية الطفل حيث قام بعمل علمى رائد هو ومجموعة من طلاب الدراسات العليا فى مجال بحوث الفعل ودراسة ديناميات الجماعة .

وقد انتقل عام ١٩٤٥ مع مجموعة من طلابه الى معهد ماسـا شوستس للتكنولوجيا ، حيث أسس مركزا لبحوث ديناميات الجماعـة وكان أول مدير له . واستمر يعمل به حتى وفاته فى ١٢ فبراير ١٩٤٧ وكان فى السادسة والخمسين من عمره .

وخلال ثلاثين عاما من النشاط العلمى تغيرت اهتمامات ليفين وتنوعت

موضوعات بحوثه عدة مرات. لقد اهتم فى البداية بدراسة العمليات المعرفية فى التعلم والادراك وتحليلها ، وبدينامايات الدافعية الفردية والانفعال ثم بالعمليات البين شخصية من ثواب وعقاب وصراع وتأثير اجتماعى . وقام فى المرحلة التالية من حياته العملية ببحوث عن ظاهرات جماعية كالقيادة والجو الاجتماعى ومعايير الجماعة والقيم واثار عديدا من البحوث فى هذا المجال . وفى النهاية عمد الى فحص القيود الاجتماعية التى فرضتها التكنولوجيا والاقتصاد والقانون والسياسة على الجماعات . وعلى الرغم من تغير اهتماماته ونموها ، الا انه التزم دائما بفكرة نظرية اساسية وهى انه لكى يمثل بأمانة تعقيد الواقع وموافقة المعاينة فان ذلك يقتضى اختراق الحدود التقليدية للعلوم الاجتماعية وعدم حصر المفكر لفكره وتحديده لانتباهه وقصره على عدد محدود من المتغيرات .

ولقد ظهرت للنظرية التى تأخذ بهذا المنظور تسميات مختلفة على يد ليفين وعلى يد آخرين وهى « النظرية الدينامية » ، « وعلم النفس الطبولوجى » ، « ونظرية المجال » وكان ليفين يفضل فى نهاية الأمر التسمية الأخيرة . ويقصد بذلك فى ايجاز أن الاحداث والوقائع تحدد بقوى مؤثرة فى المجال المباشر وليس بقوى تؤثر فيها عن بعد . ويمكن أن تعتبر نظرية المجال طريقة لتحليل العلاقات العلية ولبناء التكوينات العلمية ، أى نظرية عن بناء النظرية وما بعد النظرية . وفى نفس الوقت فان نظرية ليفين عن المجال هى مجموعة من التكوينات تم تطويرها من خلال البحث الامبيريقى لوصف الظاهرات النفسية والاجتماعية وتفسيرها .

وسنتناول فى هذا الفصل نظرية ليفين فى بناء الشخصية ودينامياتها ونموها ، كما سنتناول بعض امثلة قليلة للبحوث التى اجريت فى اطار هذه النظرية وارتبطت بها . وننهى الفصل بتقويم النظرية .

بناء الشخصية :

يطلق ليفين على المجال النفسى لنظريته حيز الحياة Life space وحيز حياة الشخص هو المجموع الكلى للوقائع التى تؤثر فى سلوكه فى لحظة معينة . وقد يشتمل حيز حياة الشخص على سبيل المثال على ادراكه لنفسه

فى بيئته الفيزيقية والاجتماعية وعلى حاجاته ورغباته ومقاصده وذكرياته عن وقائع ماضية معينة وتخيلاته لوقائع مستقبلية واى انفعالات يشعر بهـــا وهلم جرا .

ولنتأمل على سبيل المثال حيز الحياة بالنسبة لشاب يجلس فى صف دراسى باحدى الكليات فى صباح احد أيام الربيع . ان حيز حياته قد يشتمل على احساس عام بهويته وبما يجرى فى الصف وبجلسته فيه . ومن الملامح البارزة فى حيز حياته الاستاذ الذى يلقى درسا عن تاريخ أوربا وهـــو لا يصغى لما يقوله فى هذه اللحظة ، أن حيز حياته لا يشـــتمل على تمييزات منفصلة تتصل بما يلقى عن تاريخ اوربا وهذا ما سوف يتضح فى الاختبار فى الاسبوع القادم . وقد يشتمل حيز الحياة فتانا على وقائع متخيلة تتصـــل بمباريات كرة القدم بالجامعة ، وبالمباراة التى ستجرى بعد ظهر اليوم وقد يتخيل نفسه مسجلا لهدف فى هذه المباراة .

ان حيز الحياة بالنسبة لاى شخص فى لحظة معينة ينقسم الى مناطق فالاستاذ فى المثال السابق يمثل احدى هذه المناطق ، ومباراة كرة القـــدم تمثل منطقة اخرى ، والشاب نفسه يمثل منطقة ثالثة فى حيز الحياة وهذه المناطق قد تنقسم بدورها الى مناطق فرعية .

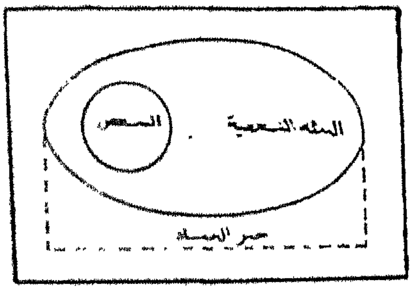
ان المدخل الرياضى الذى يستخدمه ليفين لمعالجة حيز الحياة يقوم على فرع من فروع الرياضيات يعرف بالطبولوجيا . وهذا الفرع يركز على العلاقات بين الأشياء ، والعلاقات بين الجزء والكل والاتصالات القائمة بين المجالات المكانية وهلم جرا بدلا من أن يركز على الحجم والشكل . وهكذا فبدراسة هذه الرسوم البيانية ينبغى أن يركز القارىء على الروابط بين المناطق وعلى الاتصالات بينها بدلا من ان يركز على الأشكال والأبعاد التى تستخدم لتمثيل هذه المناطق . ومن اكثر التقسيمات الأساسية فى حيز الحياة تقسيمه الى شخص وبيئة سيكولوجية (شكل ١ — ١٤) وسوف نتناول كل قسم من هذه الأقسام فيما يأتى : —

الشخص : يمثل ليفين الشخص عادة بدائرة مغلقة ، مبينا ان الشخص وحده منفصلة عن كل شىء آخر فى العالم ، ومع ذلك فهو مشـــمول فى

العالم . ووضع الدائرة فى شكل بيضاوى اكبر يبين أن الشخص متمايز عن حيز الحياة ، وداخل فيه : ذلك الحيز الذى يشمل كل ما يوجد داخل هذا الشكل البيضاوى .

(شكل ١ — ١٤)

يوضح أن حيز الحياة يتألف من شخص وبيئته السيكولوجية

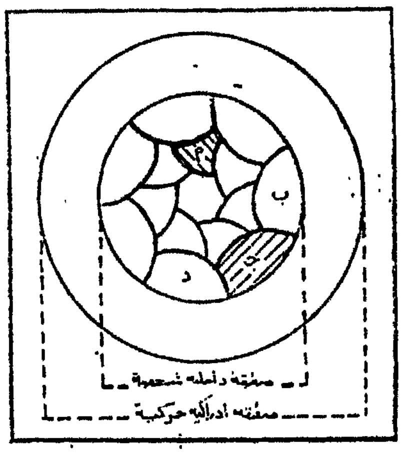


والشخص ليس منفصلا عن البيئة فحسب بل هو متمايز متفاضل داخل نفسه ويرى ليفين أن الشخص ينقسم الى منطقتين اساسيتين : المنطقة الادراكية — الحركية وهى الجزء الخارجى الطرفى فى الدائرة ؛ والمنطقة الداخلية الشخصية وتمثل الجوانب الدافعية وتقع فى المركز . ومعنى هذا ان المنطقة الادراكية الحركية تحيط بالمنطقة الداخلية الشخصية بحيث لا تتيح لها فرصة الاتصال بالحدود التى تفصل الشخص عن البيئة . والنظام الادراكى الحركى غير موضح التكوين ، غير انه عندما يكون اتجاه التأثير من البيئة الى الشخص فان المنطقة المحيطة بالمجال الشخصى تمثل الادراك . وعندما ينعكس اتجاه التأثير فان نفس المنطقة تمثل الحركة .

لاحظ ان الشكل (٢ — ١٤) يستخدم خطوطا ثقيلة وخطوطا خفيفة لتوضيح الحدود بين الخلايا والمناطق الفرعية للمنطقة الشخصية الداخلية . ومن الخصائص الهامة لخط الحدود قابليته للاختراق أو للنفاذ . والسهولة النسبية التى يمكن للمناطق على جانبى الخط ان تؤثر احداها فى الاخرى وتتصل بها . ان الشكل (٢ — ١٤) يبين لنا ان الخلايا كلها ليست ميسرة ومتاحة للأخرى بالتساوى . وعلى سبيل المثال فان الخلية (د) والخلية (ج)

تمثل حاجتين لدى هذا الشخص احداهما للانجاز الاكاديمى والاخرى للاشباع الجنسى وهما مستقلتان الواحدة عن الاخرى . ولكن المنطقة (ج) ، والمنطقة (ب) تمثلان الحاجة للعطف والحب وتتفاعل كل منهما مع الأخرى تفاعلا مشتركا والاتصال بينهما وثيق . وتمثل الخلية (أ) الخوف من الأماكن العالية وهى منعزلة او منفصلة عن بقية نظام الشخص الدافعى .

شكل ٢، ١٤ يوضح ان الشخص ينقسم الى منطقة داخلية شخصية - وأن هذه تنقسم الى خلايا وأن الخطوط الثقيلة تعنى استقلالية الخلية أو انعزالها - والى منطقة ادراكية حركية



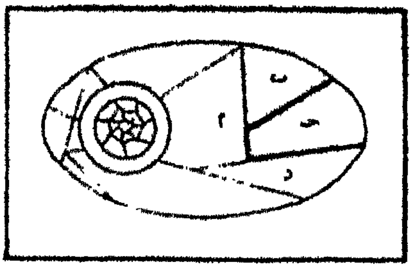
البيئة السيكولوجية : تمثل البيئة السيكولوجية بشكل بيضاوى يحيط بالدائرة التى تمثل الشخص . والمساحة الموجودة داخل الشكل البيضاوى وخارج الدائرة هى البيئة السيكولوجية ، والمساحة الكلية داخل الشكل البيضاوى تؤلف كما قلنا حيز الحياة (الشكل ١ — ١٤) .

ويبين الشكل (٣ — ١٤) البيئة السيكولوجية وهى مقسمة الى مناطق وليس هناك فرق بين تفاضل البيئة وتفاضل الشخص . ولا يلزم ان نفرق بين انواع مختلفة من مناطق البيئة لانها لا تحتوى على ما يمكن مقارنته

بالمنطقة الادراكية الحركية والمنطقة الداخلية الشخصية . ويلاحظ من دراسة الشكل أن بعض الحدود قابلة للاختراق أو النفاذ (خطوط رفيعـــة) وأن البعض الآخر خطوط ثقيلة مما يدل على عدم قابليتها للاختراق أو النفاذ . ومعنى هذا ان بعض المناطق من عوالمنا يمكن أن تؤثر فى الأخرى والبعض الآخر لا يحدث هذا التاثير . وعلى سبيل المثال فان المنطقة (جـ) تمثل اسرة الشخص وهى ليست متاحة للمناطق (أ) ، (ب) ، (د) ،التى تمثل انشطة يمكن أن يقوم بها الشخص مع أصدقائه .

(شكل ٣ — ١٤)

يوضح أن البيئة السيكولوجية مقسمة الى مناطق



حيز الحياة : من أشهر معادلات ليفين المعادلة $B = F (P,E)$

أى أن السلوك وظيفة لكل من الشخص والبيئة أو انه وظيفه لحيز الحياة . ويتألف حيز الحياة من الشخص بالاضافة الى البيئة السيكولوجية . وهو يشتمل على كل شىء ينبغى أن يعرفة اذا أريد أن يفهم الســلوك المباشر للشخص .

ماذا عن البيئة الخارجية بالنسبة لحيز حياة الشخص ، اى العالم كما يوجد فيزيقيا أو كما يدرك بواسطة الآخرين ؟ لكى نفهم حيز الحياة ذاته فهما كاملا ، فاننا فى حاجة الى ان نفهم العلاقات بينه وبين ما يسميه ليفين الغلاف الغريب Foreign hull .

أن الأشياء التى توجد والوقائع التى تحدث فى الغلاف الغريب يمكن أن تؤثر فى البيئة السيكولوجية ، وبالمثل فان سلوك الشخص يمكن أن يحدث تغيرا فى العالم الفيزيقى وبسبب هذا التأثير المتبادل فان الخط الفاصل أو الحد بين الغلاف الغريب والبيئة السيكولوجية عادة ما يكون قابلا للنفاذ والاختراق .

ان مفهوم قابلية الحدود الفاصلة للنفاذ بين حيز الحياة والعالم الخارجى هام فى نظرية ليفين لانه يعنى أن التنبؤ البعيد المدى بالسلوك على أساس معرفة حيز الحياة الراهن غير ممكن عادة . أى أنه من غير الممكن التنبؤ بسلوك الشخص اعتمادا على الالمام بالقوانين النفسية وحدها . لان بعض ما يحدث فى العالم الخارجى يمكن أن يغير المسار الكلى للوقائع فى حيز الحياة كلقاء بالصدفة ، أو حديث تليفونى غير متوقع أو أى واقعة أخرى . ويستطيع عالم النفس فى أحسن الأحوال أن يفهم حيز حياة الفرد الحالى ، ومضامينه من الطريقة التى يسلك بها ويتصرف هنا والآن . أما التنبؤ بالأفعال المستقبلية فيتطلب التنبؤ بالوقائع فى الغلاف الغريب،وهذا يقتضى استخدام قوانين الفيزياء وعلم الاجتماع ومعرفة حيز حياة الآخرين وقد لا يكون هذا متاحا أو ميسرا .

مناطق حيز الحياة :

هناك مناطق كثيرة فى حيز الحياة ، كما أن هناك وقائع سيكولوجية منفصلة فى أى لحظة زمنية . وعلى سبيل المثل اذا كان الشعور بالجوع هو الواقعة الوحيدة فى الوقت الحاضر بالنسبة لشخص معين ، فان المنطقة الداخلية الشخصية لديه سيكون بها خلية واحدة . مخصصة للجوع ، ولكن افترض أن شخصا ولنسمه جاسم يتوقع مقدم صديق ليتعشى معه . فان البيئة السيكولوجية لجاسم سوف تحتوى على منطقة لتناول العشاء وأخرى لصحبة الصديق ، ومنطقة لقيادة السيارة التى سوف يستخدمها . وخلال تناول العشاء قد يناقش الصديقان مشروعا بحثيا ، وصراعا يجرى بين احدهما واحد الزملاء بالكلية ، وكتابا قراه الصديق عن التغير الاجتماعى والصراع القيمى ؛ وأخبار انصهار المفاعل الذرى الروسى وما أحدثه من

تلوث واضرار . والآن فان مناطق حيز الحياة لدى كل من جلسم وصديقه قد اتسعت وامتدت ولا بد لخلايا الشخص من أن تشتمل على خلية للجوع واخرى للتفاعل الاجتماعي وثالثة للحاجة للانجاز ، ورابعة للتنافس والقوة وخامسة للاهتمامات الفكرية وسادسة للخوف .

وتشغل كل خلية أو منطقة من حيز الحياة واقعة مستقلة . ويرى ليفين أن الواقعة يمكن أن تكون أى شيء نحسه ونستنبطه ، فالعطش والكرسي يمكن الاحساس بهما وقد لا نستطيع ادراك الواقعة على نحو مباشر وانما يمكن استنتاجها . وقد تكون الواقعة امبيريقية ، وظاهرية ، وفرضية ودينامية . ويطلق على وقائع المنطقة الداخلية الشخصية حاجات ، أما وقائع البيئة السيكولوجية فلها خاصية دينامية ، فهى ذات تكافؤ ايجابى أو سلبى . وتحتل كل حاجة خلية منفصلة فى المنطقة الداخلية الشخصية ويحتل كل شيء له تكافؤ ايجابى او سلبى منطقة منفصلة فى البيئة السيكولوجية . والحدث هو ما ينتج عن تفاعل بين واقعتين او اكثر ، اى خليتين او منطقتين أو اكثر . وعلى سبيل المثال حين يتحرك شخص من منطقة الى اخرى فى حيز الحياة ، فان هذا يمثل حدثا لانه يتضمن ثلاث وقائع — منطقة البدء ، ومنطقة المقصد والشخص المتحرك .

كيف تؤثر المناطق الواحدة فى الأخرى ؟

حين تؤثر خلية داخلية شخصية فى الأخرى يقال انها تتواصل معها . وعلى أية حال فان التغيرات فى البيئة السيكولوجية كثيرا ما تحدث بواسطه حركة الشخص من منطقة الى أخرى . ويبرز ليفين ويؤكد على أن الشخص وجدة وان عناصر الشخص متصلة ، أى يتصل الواحد بالأخرى ومتلامسة . الا انه لا يمكن القول انها تتحرك من منطقة الى اخرى ، ولكن الشخص نفسه يتحرك من منطقة اهتمام وميل أو نشاط الى منطقة أخرى .

والحركة قد تكون فيزيقية وقد تكون تغيرا فى بؤرة الاهتمام . والحق أن كثيرا من التحركات التى تثير اهتمام عالم النفس تتعلق بالتعديلات التى تطرأ على بؤرة العمليات الادراكية والانتباهية .

تذكر الطالب الذى يصغى لمحاضرة لا تثير اهتمامه بالقدر الكافى . ان هذا الطالب قد لا يكون موجودا فى منطقة الصف الدراسى فى حيز حياته فى لحظة معينة ، وقد يكون عائشا فى منطقة كرة القدم فى بيئته السيكولوجية يمارس لعب الكرة عقليا . فاذا تحدث اليه جاره عن حفل موسيقى سيقام فى اليوم التالى فقد يتحرك باهتمامه الى منطقة الموسيقى . والحق انه قد لا يقضى الا زمنا ضئيلا جدا فى منطقة حجرة الدراسة خلال ساعة بأكملها ، حتى ساعة الدرس .

ان الاتصال والتحرك حدثان لانهما يتضمنان تفاعلا بين واقعتين أو أكثر . وثمة ثلاثة مبادىء تحكم اشتقاق الاحداث . الأول مبدأ الصلة والذى ينص على ان الحدث ينشأ عن التفاعل بين واقعتين أو أكثر . والمبدأ الثانى هو مبدأ العيانية والذى يقرر ان الوقائع التى توجد فعلا فى حيز الحياة هى التى يمكن ان يكون لها تأثير اما الوقائع المحتملة او وقائع الغلاف الغريب فانها لا تحدث احداثا سلوكية ما لم تؤثر فى حيز الحياة . والمبدأ الثالث هو مبدأ التزامن ويقرر أن الوقائع الحاضرة وحدها هى التى يمكن أن تؤدى الى السلوك الحاضر اما الوقائع الماضية كوقائع الطفولة المبكرة فلا يمكن ان تؤدى الى السلوك الحاضر ما لم يتاح لها المحافظة على وجودها . وعلى الرغم من ان الوقائع الفعلية للماضى او الوقائع المحتملة فى المستقبل لا يمكن ان تحدد السلوك الحالى ، الا أن اتجاهاتنا ومشاعرنا وافكارنا عن الماضى وعن المستقبل جزء من حيز حياتنا فى الحاضر وقد تؤثر فى سلوكنا تأثيرا كبيرا . وهكذا فان حيز الحياة ينبغى أن يكون قابلا لتمثيل الماضى والمستقبل السيكولوجى .

مستويات الواقع :

وفقا لمفهوم ليفين عن مستويات الواقع ، يتألف الواقع من تحركات فعلية ، ويتألف اللاواقع من تحركات متخيلة . وفضلا عن ذلك فهناك درجات مختلفة من الواقعية ومن اللاواقعية . وعلى سبيل المثل قد يغير الشخص عمله ، أو يحل مسألة ، أو يخطط لمشروع جديد او لرحلة أو يحلم احلام يقظة تدور حول تقلده لمنصب مدير المؤسسة أو الشركة التى يعمل فيها . ان كل

نشـــاط من هـــذه الانشطة يقع فى مســـتوى مختلف من مستويات الواقع فالتخطيط لشىء أو التفكير فيه يقع فى منزلة بين منزلتين احداهما يحتلهـــا الاداء الواقعى والآخر يحتلها التخيل الصرف البعيد عن الواقع .

ان مفهوم الواقع واللاواقع ينطبق على الشخصية كمـــا ينطبق على البيئة السيكولوجية . وعلى سبيل المثال فان خلية داخلية شخصية قد تؤثر فى منطقة حركة وتدفع صاحبها الى القيـــام بعمل ، او قد تفعل ذلك على مستوى التخيل . وهكذا قد يقول الشخص الى آخر بصوت مرتفع ما ينوى عمله ، أو قد يفكر لنفسه او يحلم احلام يقظة عن قيامه بهذا التعبير .

ديناميات الشخصية :

ان التمثيلات البنائية لحيز الحياة تبين لنا كيف يبدو حيز الحياة هذا فى لحظة زمنية معينة ، ولكنها لا تدلنا على كيف يبدو الشخص حين يبـــدأ فى السلوك اى انها لا تفسر لنا السلوك فى موقف فعلى . ولكى نفهم السلوك فاننا فى حاجة الى مفاهيم دينامية .

ـ الطاقة والتوتر والحاجة :

يرى ليفين ان الشخص نظام معقد من الطاقة وان الطاقة التى تؤدى عملا نفسيا تسمى طاقة نفسية . فما الذى يوجد الطاقة ويخلقها ؟ ان ازدياد التوتر فى جزء من النظام (الشخص) بالنسبة لبقية اجزائه يؤدى الى عدم التوازن ، فيحاول النظام توزيع التوتر بالتســاوى بين اجزائه المختلفة فتتولد طاقة نفسية . وحين ينجح النظام فى اســـتعادة التوازن ، اى ان التوتر يتساوى داخل النظام كله يتوقف توليد الطاقة ويركن النظام الى الراحة .

ـ التـــــــوتر :

التوتر فى نظرية المجال عند ليفين حالة يكون عليها نظام بالقياس الى الأنظمة التى تحيط به والتوتر فى الشخص يشير الى حالة خليـــة شخصية داخلية بالقياس لحالات الخلايا الاخرى الداخلية الشخصية .

والتوتر عند ليفين له خاصيتان هامتان : الخاصية الاولى انه يميل الى

التوزع بالتساوى ، أى أن حالة التوتر فى منطقة ما أو نظام ما تميل الى معادلة نفسها بكمية التوتر فى المناطق أو النظم المجاورة . أى انه اذا كان النظام (أ) فى حالة من التوتر عالية والنظام (ب) ، (ج) ، (د)،وهى مجاورة (أ) فى حالة توتر منخفض ، فان التوتر يميل الى أن ينتقل من (أ) الى (ب) ، (ج) ، (د) بحيث تصبح الأنظمة الأربعة فى درجة متساوية من حيث التوتر .

وهناك خاصية ثانية هامة للتوتر وهى ميله الى احداث ضغط على حدود النظام الذى يحتويه وحدود المنطقة التى يوجد فيها ، فاذا كانت هذه الحدود قابلة للاختراق والنفاذ فان التوتر يتدفق الى الأنظمة الأخرى ، أما اذا كانت غير قابلة للنفاذ ، أى كانت تتميز بالصلابة فان ذلك يعوق الانتشار وتدفق التوتر .

ما الذى يجعل التوتر يزداد فى منطقة معينة ؟ استثارة الحاجة وقد تكون الحاجة حالة فسيولوجية كالجوع والعطش أو الجنس . وقد تكون رغبة فى عمل أو فى قدر من المال ، وقد تكون قصدا لعمل شىء كاتمام عمل أو المحافظة على موعد والحاجة عند ليفين مساوية لمصطلحات كالدافع والرغبة والحافز .

ويرى ليفين أن هناك من الحاجات بمقدار ما يوجد من رغبات نوعية قابلة للتمييز ، فقد يكون لدى الفرد حاجة للجنس ، أو حاجة لنوع نادر من الطعام وقد يكون لديه حاجة لان يسمع الحركة الثالثة من سيمفونية معينة . ولم يحاول ليفين أن يضع ثبتا بجميع الحاجات ولا أن يرد الحاجات النفسية الى حاجة واحدة . لقد شعر أن معرفتنا محدودة جدا عن الحاجات بحيث يتعذر أن نضع لها نسقا وترتيبا على نحو ما . وهو يرى أن الحاجات التى توجد حاليا لدى الفرد والتى تؤثر فى الموقف الحاضر هى الحاجات الهامة وحدها وعلى سبيل المثال فان كل فرد قادر على أن يشعر بالجوع ، ولكن لا ينبغى أن تدخل هذه الحاجة فى الاعتبار الا حين تكون الحاجة للطعام مقلقة لتوازن الشخص .

وثمة مجموعة من العلاقات الممكنة بين الحاجات ومنها الابدال .

فقد يريد الشخص مثلا ان يشاهد برنامجا تلفزيونيا ويريد ايضا أن

يقرأ كتابا ، وبعد مشاهدة البرنامج قد يشعر بعدم الرغبة فى قراءة الكتاب، عندئذ نقول ان نشاطا ابدل بنشاط آخر بحيث ادى الى التخفف من التوتر فى النظامين .

والاندماج Fusion نمط آخر من انماط العلاقات بين الحاجات ، لان السلوك فى اى موقف معين ينتج عادة من ائتلاف مجموعة من الحاجات ، ولقد اطلق ليفين على الحاجة التى تشتق من هذا الاندماج حاجة مشـتقة derived n. فالشاب الذى يرغب فى دراسة الطب قد يشتق حاجته هذه من الحاجة الى الشهرة ومن الحاجة الى المال . وقد تظل الحاجة المشتقة معتمدة على مصادرها وقد تستقل عنها فنجد الشاب بعد التحاقه بكلية الطب يواصل الدراسة لتحقيق الشهرة والغنى ، ولكنه ايضـا قد يصبح مهتما بالطب وشغوفا به دون الاستمرار فى اعتماد هـذه الحاجة على حاجات اخـرى .

وهناك نوع ثالث من العلاقة بين الحاجات ويتمثل فى سيطرة حاجـة على أخرى ، فاذا كان لدى الشخص حاجة قوية للقيام برحلة بحرية حول العالم ، فلكى يشبع هذه الحاجة يقصد الى اقتصاد بعض المال . وتقـديم طلب لرئيسه فى العمل طلبا لأجازة ، ويشترى بعض الملابس الجديدة ويقوم بالتجهيزات الضرورية . فالحاجة للقيام برحلة بحرية حول العالم تسيطر على مقاصده التى تتصل بالرحلة . وهذه المقاصد المحكومة بحاجة تسيطر عليها تعمل كما لو كانت هى نفسها حاجات ولذلك يطلق عليها اشـبـاه الحاجات . وهكذا تشكل الحاجة المسيطرة وما يتبعها من مقاصد واشـباه حاجات نسقا من الحاجات منظما يعتمد بعضه على بعض
(Arndt, pp. 128-129)

اشباه الحاجات Quasi - needs

وهى مقاصد نوعية كثيرا ما تشكلها العوامل الاجتماعية . والحاجات النوعية للجنس وللون معين من الطعام ولسماع الحركة الثالثة من سيمفونية معينة امثلة لأشباه الحاجات ، تطورت عن تفاعلات الناس بعضهم بالبعض الآخر ، وتفاعلهم مع جوانب من الثقافة التى يعيشون فيها .

وتتغير الحاجات نتيجة لتأثير كثير من الجماعات الاجتماعية الصغيرة والكبيرة التى ينتمى اليها الطفل أو يريد أن ينتمى اليها او لا يريد أن ينتمى اليها . ومما يؤثر فى الحاجات المستثارة اجتماعيا ويتداخل معها نصائح الآباء ، أو مطالبهم والحاح الأتراب . ان الثقافة التى ننمو فيها تؤثر عمليا فى كل حاجة من حاجاتنا وفى جميع سلوكنا .

الفعل :

لقد راينا كيف ينشأ التوتر وكيف يؤثر فى الأنظمة المختلفة داخل الشخص . وقد نخمن انه حين تتراكم ضغوط التوتر على احد الحدود بين منطقة داخلية لدى الشخص ومناطق حركية لديه فان فعلا ينتج عن ذلك . ولكن ليفين يرى أن الفعل الموجه لا يحدث لاننا فى حاجة الى مفهومين آخرين لربط الدافعية فى المجال الداخلى الشخصى مع سلوك غرضى فى البيئة السيكولوجية وهما التكافؤ والقوة الموجهة .

التكافؤ : Valence

هو قيمة منطقة معينة فى البيئة السيكولوجية عند شخص معين . فالمنطقة ذات التكافؤ الموجب هى تلك التى تحتوى على موضوع يهدف اليه الشخص ويؤدى الى انقاص التوتر . وعلى سبيل المثال فان المنطقة التى تشتمل على طعام تكون ذات تكافؤ موجب بالنسبة للشخص الجائع . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان الشخص الذى يخاف من الكلاب ، يكون للمنطقة التى تشتمل على كلب تكافؤ سالب بالنسبة له ، اى انها تزيد التوتر لدى هذا الشخص .

وتتحدد التكافؤات فى الأساس بواسطة الحاجات ، اى أن قيمة الطعام تتوقف على درجة جوع الفرد . ومهما يكن من شىء فان العوامل الأخرى تؤثر فى التكافؤات ايضا . وعلى سبيل المثال فان أطعمة معينة قد يكون لها حتى بالنسبة للشخص الجائع تكافؤ سلبى اذا كان لا يميل اليها . ولما كان وجود نظام متوتر لا يكفى لحدوث التحرك فقد قدم لنا ليفين مفهوم القوة الموجهة .

القوة الموجهة :

يتحرك الشخص أو يعمل حين توجد قوة ذات شدة تكفى للتأثير عليه . ويستعير ليفين من مجال الفيزياء والرياضيات مصطلحا يطلقه على هذه القوة هو القوة الموجهة a vector . والقوى الموجهة هى قوى سيكولوجية تؤثر على الشخص وتحركه فى اتجاه معين .

واتجاه القوة وشدتها وظيفة للتكافؤات الموجبة والسالبة لمنطقة أو اكثر فى البيئة السيكولوجية . فاذا كانت احدى المناطق فى هذه البيئة ذات تكافؤ موجب (تحتوى على الطعام المرغوب فيه) فان القوة الموجهة التى تشير الى اتجاه تلك المنطقة سوف تؤثر على الشخص . واذا كانت هناك منطقة اخرى ذات تكافؤ سالب (اى تحتوى على كلب مخيف) فان قوة موجهة اخرى تؤثر على الشخص وتدفعه بعيدا عن تلك المنطقة . واذا وجدت قوى موجهة أخرى عديدة فى المثل السابق ذى التكافؤ الموجب ، اى اذا كان الشخص متعبا وجائعا والطعام يحتاج الى اعداد ؛ او ان على الشخص ان يحضر اجتماعا مهما ولديه وقت ليتوقف ليتناول الغذاء فى مطعم ، فان الحركة الناتجة سوف تكون نتيجة لكل هذه القوى الموجهة . وهذه المواقف كثيرا ما تتضمن صراعات نفسية وهو موضوع أجرى عليه ليفين بحوثا امبيريقية واضاف اليه ميللر ودولارد مزيدا من البحوث كما رأيت من قبل .

التحـــــرك :

حينما تحدثنا عن التحرك فى الجزء الخاص ببناء الشخصية ، لاحظنا أن مفهوم ليفين عن التحرك يشير الى الحركة النفسية اكثر مما يشير الى الحركة الفيزيقية . اى يشير الى تحول من نقطة يركز عليها انتباهه وفكره الى نقطة اخرى . ولتوضيح مفهوم ليفين عن التحرك سوف نستخدم مثالا من سلوك يتضمن حركة نفسية وفيزيقية .

افترض أن طفلا نظر من نافذة متجر فرأى صنوفا من الحلوى ورغب فى الحصول على شيء منها . ان مرأى الحلوى يثير لدى الطفل حاجة وهذه

الحاجة تحدث ثلاثة أشياء : انها تطلق طاقة ، وهذه تثير توترا فى المنطقة الداخلية الشخصية — نظام الحاجة الى الحلوى ، وتنتج تكافؤا للمنطقة التى توجد بها الحلوى ، وتخلق قوة موجهة تدفع الطفل فى اتجاه الحلوى ».

واذا كان الطفل يستطيع ببساطة أن يدخل المتجر ويشترى الحلوى فان القوة الموجهة سوف تدفعه ليخترق الحد القابل للنفاذ ليصل الى منطقة الحلوى ذات التكافؤ الموجب . أما اذا كان الطفل بغير نقود ، عندئذ يصبح الحد الفاصل بينه وبين الحلوى غير قابل للاختراق ، ويستطيع أن يقترب من موضع الحلوى الى أقصى حد ممكن ولكنه لا يستطيع الحصول عليها .

والآن افترض أن الطفل قرر أن يطلب من أبيه نقودا لشراء الحلوى ، ان قصد الحصول على المال من الأب شبه حاجة ، فاذا حصل على ما أراد فانه يبلغ الحلوى عن طريق أبيه ، ولكن افترض أن الأب رفض الطلب ، عندئذ قد يقرر الطفل أن يبحث عن صديق يقرضه النقود المطلوبة . والحد الذى لا يقبل الاختراق حول الأب بسبب رفضه تقديم المال يوقف مسار الطفل ويدفعه الى مسار آخر يؤدى الى حد قابل للاختراق يوصل الى الصديق الذى لديه استعداد لاقراض الطفل النقود المطلوبة ومن هناك يبلغ الحلوى .

اعادة بناء البيئة :

ان البيئة السيكولوجية مفهوم سائل جدا . ولما كانت ديناميات البيئة يمكن أن تحقق تغيرا بثلاثة طرق مختلفة فان المجال منفسح لامكانيات التعديل. وقد تتغير المنطقة كميا فيتزايد تكافؤها الموجب أو السالب . وقد تتغير كيفيا من الايجاب الى السلب أو بالعكس. وقد تظهر مناطق جديدة وتختفى مناطق قديمة. وقد تتغير القوى الموجهة فى الشدة أو فى الاتجاه أو فى كليهما. وقد تتغير الحدود من القوة والصلابة الى الضعف والمرونة وقد تظهر أو تختفى بتغير المناطق .

ان كل تحرك يغير حيز الحياة على نحو ما. وعليك أن تتذكر أن التحرك يمكن أن يكون سيكولوجيا أو فيزيقيا ، ففى مثال الطفل والحلوى كان التحرك

نحو الأب ونحو الصديق ونحو المتجر كلها تحركات فيزيقية . ولكن تفكير الطفل فى كيفية الحصول على الحلوى ولجوئه الى الصديق بدلا من الأب كوسيلة للحصول على الحلوى تحركات ذات طبيعة معرفية .

ومتى توافرت طرق كثيرة لاعادة بناء البيئة فان هذا يعنى ان ليفين يؤكد على الجانب الدينامى فى تصوره للشخصية . وينبغى ان يدرك كل رسم توضيحى باعتباره تمثيلا لاطار من فيلم . ولكى نمثل سلوك شخص خلال مساره اليومى قد نرسم مئات كثيرة من الرسوم التوضيحية .

المحافظة على التوازن :

تعتبر المحافظة على حالة التوازن عند الشخص هدفا لجميع العمليات السيكولوجية . ويؤدى تراكم التوتر فى خلية داخلية شخصية الى عدد من الأحداث . ذلك انه حين يوجد حد لا يستطيع ان يقاوم ما يتعرض له من ضغط بالنسبة لهذه المنطقة قد تنفذ الطاقة الى منطقة الحركة وتؤدى الى سلوك تهيجى . كأن يتعرض الشخص لنوبة انفعال او غضب عنيف . أما اذا كان الحد بين المنطقة الداخلية الشخصية ومنطقة الحركة قابلا للنفاذ بطريقة معقولة فان التوتر قد يتسرب تدريجيا ويظهر فى شكل نشاط قلق .

والتحرك المناسب فى البيئة السيكولوجية من اكثر الطرق فاعلية فى استعادة التوازن . وهو الذى يؤدى بالشخص الى هدف مشبع . غير انه يمكن انتقاص التوتر واستعادة التوازن بتحرك بديل . . . تحرك يشبع حاجة أخرى تخفف التوتر عن نظام الحاجة الاولى . وعلى سبيل المثال اذا كنت غاضبا جدا من شيء ولكنك لا تستطيع ان تعبر عن غضبك حتى لا تفصل من العمل ، فقد تعبر عن حاجة تتصل بالحاجة الاولى — وهى الحاجة الى الانغماس فى عمل فيزيقى عنيف . كأن تسبح فى الماء عددا من الأشواط المتتالية .

واخيرا فانه يمكن انتقاص التوتر الى حد ما بواسطة التحرك التخيلى الصرف . وتستطيع ان تكتسب نوعا من الاشباع المدمل عن طريق الانغماس فى احلام يقظة تتخيل فيها انك صرت الى ما تريد أن تكون عليه او انك تفعل ما يحقق رغباتك .

ولا ينبغى أن نعتقد على أية حال أن العودة الى التوازن تعنى أن الشخص يحتمل أن يحقق تسوية بين جميع التوترات التى تسود المنطقة الشخصية الداخلية . ويوضح ليفين أنه فى النظم المعقدة، لا يقصد باستعادة التوازن فقدان التوتر وانما يقصد تحقيق توازن بين التوترات الداخلية . وسوف نرى فى الجزء التالى أن من الخصائص الأساسية للنمو السيكولوجى خلق نوع من البناء الداخلى الذى يضمن البناء السيكولوجى لتوترات متوازنة، وليس تحقيق بناء داخلى متحرر من التوترات .

نمو الشخصية :

ان نظرية ليفين فى نمو الشخصية نظرية سيكولوجية صرفة ونتيجة لذلك فانه حين يناقش النمو فانه لا يتناول مسألة شغلت معظم المنظرين الآخرين وهى الطبع والتطبع . ولم يرفض ليفين الدور الذى تلعبه الوراثة والنضج فى نمو الفرد وارتقائه كما انه لم يذهب الى ان آثارهما لا مغزى لها . وانما شعر أن علم النفس قد ركز تركيزا شديدا على النواحى النمطية للنمو وأنه أهمل النمو السيكولوجى عبر الزمن ، أى فى حيز حياة الفرد .

والنمو من وجهة نظر ليفين عيانى ومستمر والمقاييس العمرية ومراحل النمو لا تساعدنا على فهم النمو السيكولوجى . وان مفاهيم مثل التمايز والتنظيم والتكامل أكثر فائدة فى وصف التغير السلوكى .

التغير السلوكى :

يرى ليفين أن عددا من التغيرات السلوكية الهامة تحدث أثناء النمو، وأن أنشطتنا المنوعة وانفعالاتنا وحاجاتنا وعلاقاتنا تتزايد مع التقدم فى السن . وهذا التنوع قد يبدأ فى التناقص فى وقت متأخر من الحياة . وفضلا عن ذلك فاننا مع نمونا نكتسب حرية فى الحركة ، وامتدادا فى الزمن . وأن الأطفال الصغار أبناء الحاضر الى حد كبير ومع تزايد نضجهم يبدأون فى التفكير فى الماضى والتخطيط للمستقبل وبالتالى يستوعبون فى حيز حياتهم الحالى منظورا زمنيا أطول من أن يكون دقائق معدودة أو ساعة أو بعض ساعة ، أو يوما أو بعض يوم .

ومع التقدم فى العمر يظهر الفرد شواهد على عدد من التغيرات الهامة فى التنظيم . وعلى سبيل المثال فان الطفل الصغير يستطيع ان يحافظ على علاقته مع طفل واحد فى كل حين،ولكن الطفل الأكبر سنا او الراشد يستطيع أن يتفاعل مع الناس فى جماعات . والسلوك ايضا يصبح ذا تنظيم هرمى، فبينما يستطيع الطفل الصغير أن يلعب بالمكعبات دون هدف واضح محدد فان الطفل الأكبر سنا قد يرى ان مثل هذا اللعب اداة ووسيلة للحصول على موافقة الكبار ورضاهم ، أو للتنافس بنجاح مع طفل آخر .

وقد يصبح السلوك ايضا اكثر تعقيدا ، فالأطفال الصغار عامة يعملون شيئا واحدا فى الوقت الواحد ويسهل تشتيت انتباهم ولذلك فانهم كثيرا ما يخفقون فى العودة الى العمل اذا قوطعوا وانتقلوا الى نشاط آخر . اما الطفل الأكبر سنا فانه يستطيع أن يرسم فى الوقت الذى يتحدث فيه الى صديق ، ويقطع نشاطه ليقوم بمهمة لابيه ثم يستأنف الرسم ، ويجيب على التليفون ويستمر فى الرسم وهكذا .

ونحن نعرف ان سلوك الوليد يتضمن عادة استجابات موزعة على الجسم كله ويطلق ليفين على هذا النشاط الكتلى اعتماد بينى بسيط ، اى ان انظمة التوتر لدى الطفل الصغير تبادلية . اى انه مهما كان مصدر التوتر — جوعا أو عطشا أو بللا أو خوفا — فان التوتر ينتشر على نحو متساو فى الكائن الحى كله مما يؤدى الى نشاط كتلى .

ومع تزايد النضج يجىء الاعتماد البينى التنظيمى Organizational interdependence حيث تصبح الافعال المستقلة منظمه تنظيما هرميا ، والأنشطة المنفصلة او الحاجات متكاملة ومجمعة فى اكلال اكبر . فبناء بيت على سبيل المثال يتطلب من الشخص ان يجمع بين عدد من الانشطة مما : كوضع خطة ، وجمع المواد ، والقيام بأعمال النجارة والاشراف على ما يقوم به زملاء اللعب من اعمال وهلم جرا .

وفى النهاية مع بلوغنا النضج تتحسن قدرتنا على التمييز بين الواقع والخيال ، وتزداد الواقعية فى الادراك على وجه الخصوص فى مجال العلاقات الاجتماعية . وعلى سبيل المثال فان الطفل الصغير قد يرى سلوك

الآخرين الى حد كبير فى ضوء رغباته هو وحاجاته . أما الطفل الاكبر فيفهم على نحو واقعى أن لدى الآخرين خططا واهدافا خاصة بهم تؤثر فى سلوكهم.

ان الميل المتزايد الى الاقتصاد فى أفعالنا كما يرى ليفين دليل على النضج والكفاح لتحقيق أقصى نتائج بأقل جهد فى اى عمل يتطلب تشكيل حياتنا بما يتلاءم مع الخصائص الواقعية للبيئة الخارجية الفيزيقية والاجتماعية ومثل هذا السلوك يكون عادة سلوك الراشدين اكثر من كونه سلوك الأطفال.

التمايز والتكامل :

لقد وجد ليفين أنه يحتمل الا نستطيع تطبيق ابسط المبادىء الطبولوجية على الوليد الجديد وذلك بسبب القصور فى نمو مجاله الادراكى . ولذلك ينبغى أن نبدأ بالرضيع لان حيز الحياة يمثل الوقائع الممكنة الكلية . وهذا الكل محدود جدا بالنسبة للرضيع . ومن هنا فاننا نتوقع تمايزا قليلا جدا فى البيئة السيكولوجية وفى منطقة الشخص . والرضيع لكونه أيضا لم يفصل نفسه كلية ادراكيا عما يحيط به ، فانه لا توجد منطقة شخصية محددة فى حيز الحياة. وبسبب القصور فى التمايز داخل منطقة الشخص ، فان التوترات التى تنشأ فى نسق الشخص الداخلى تنتشر بسرعة وبسهولة فى مناطق أخرى بما فى ذلك المنطقة الادراكية الحركية. وتنتشر التوترات بسرعة وتنتقل الى النشاط الحركى. وهذه التوترات محددات قوية لطريقة الوليد فى ادراك العالم . ولا يتوافر للوليد منفذ يتيح له الاقتراب من المستويات المختلفة من الواقع ولذلك فانه يعيش فى الأساس فى مستوى اللاواقع نسبيا .

ان التمايز مفهوم من مفاهيم ليفين الأساسية وهو يفيد فى تفسير التنوع المتزايد فى السلوك ، وحرية الحركة المرتبطة بالقدرة على القيام بأشياء مختلفة وكثيرة ، وامتداد الزمن ، والتمييز بين ما هو واقعى وما ليس كذلك . ويعرف ليفين التمايز باعتباره تزايدا فى عدد أجزاء الكل . ويتضاعف عدد المناطق أو الخلايا فى المجال الداخلى الشخصى مع التقدم فى العمر . ويتزايد أيضا عدد المناطق فى البيئة السيكولوجية مع هذا التقدم .

وفى تعلمنا للتمييز بين الواقع واللاواقع فاننا نتعلم أن نميز لا بين

الحقيقة والخيال فحسب ، بل وكذلك بين الدرجات المختلفة من الممكن والمحتمل . وهكذا فبينما نجد ان الطفل الصغير قد يدرك ببساطة ان الام موجودة هنا أو ليست موجودة ، فان الطفل الأكبر سنا قد يفهم ان الام لن تعود الى البيت الا فى وقت متأخر لانها تدرس دروسا مسائية يوم الأربعاء . أو انها سوف تعود بعد قليل لانها سوف تمر على جارتها وهى عائدة من المدرسة .

ومع تزايد التمايز تنشأ كثير من الحدود ، وبصفة عامه فان قوة الحدود تتزايد مع العمر وهذا يفسر تناقص القابلية للتشتت مع التقدم فى العمر ، ونمو القدرة على الانغماس فى انماط سلوكية معقدة . والطفل معرض بدرجة اكبر للتاثر بالبيئة اكثر من الراشد ، ويستطيع بناء على ذلك ان يتخلص من التوتر بسهولة اكبر وعلى نحو مباشر .

ويمكن ان يفسر التمايز وتزايد الانفصال بين المناطق كثيرا من التغيرات الملاحظة فى السلوك ، ولكنهما لا يستطيعان تفسير تزايد السلوك من حيث التنظيم والتكامل مع التقدم فى العمر . والحق ان هذا التمايز والانفصال يقترح علينا عكس ما سبق . ان مفهوم الاعتماد البينى التنظيمى الذى ذكرناه من قبل يفسر لنا كيف تصبح المناطق المختلفة للشخص والبيئة منظمة على نحو هرمى بحيث تعمل معا وتنتج سلوكا متكاملا على الرغم من تزايد استقلالها الذاتى . ان القابلية للتبادل السهل بين المناطق ، اى من منطقة الى اخرى تختفى ويظهر تنظيم هرمى كامل من العلاقات السائدة والتابعة ، حيث تحكم المنطقة (أ) المنطقة (ب) وتحكم المنطقة (ب) المنطقة (ج) ، وتحكم (ج ، د) وهكذا . وعلى سبيل المثال قد يلعب الطفل الصغير بدمية ببساطه ، كى يضرب بها الأشياء اما الطفل الاكبر سنا فقد يلعب بالدمى لعبا يتطلب تنظيما هرميا معقدا للأهداف الفرعية . فقد يجعل الاب يذهب الى المكتب ، وتلبس الأم اطفالها ملابسهم . وقد يشتمل ارتداء الملابس على اهداف فرعية مثل الباس محمد والباس جاد ملابسهما وقد يتضمن الباس محمد اهدافا فرعية لانه يلبس قميصا وسروالا وحذاء . وارتداء الحذاء قد يتطلب البحث عنه وهكذا . وكل هدف من هذه الاهداف الفرعية يتطلب مقاصد او اشباه حاجات

مؤقتة والتنسيق بينها يحقق هدفا اعلى ويفى بالأهداف الفرعية التى تندرج تحتــــــه .

طرق البحث والبحوث المميزة :

لقد قام ليفين بكثير من الدراسات ، وصمم اختبارات امبيريقية لكثير من فروضه الأساسية . ولعل أعظم اسهاماته تتجلى فى تأثيره فى تلاميذه وزملائه ، بل وفى اجيال علماء النفس ممن جاءوا بعده. ويرى ريفيرا Rivera (١٩٧٦) أن اعظم افكار ليفين كانت تبرز خلال تفاعلاته مع الآخرين الذين يشترك معهم فى نقاش مكثف يستغرق أحيانا ساعات كثيرة ، لقد كان المبدع للنظريات والأفكار التى توضح موضع البحث والتى ظهرت وانعكست فى أعمال كثير من الباحثين .

ولن نوفى ليفين حقه فى هذا المجال لانه اجرى بحوثا فى كثــير من المجالات ولان نظريته أثارت بحوثا منوعة . ولقد بدات المجموعة الأولى من بحوثه بنقد تجريبى للعمل العلمى الذى قام به آش Asch عام ١٩١٠ م على تداعى الروابط associative bonds فى عملية التذكر . ولقد تعدى ليفين مفاهيمه البنائية عن التذكر الى افكار مثل القصد فى الاســترجاع وتوقع الاحداث . ولقد قام كل من اوفزيانكينا Ovsiankina عام ١٩٢٨ وزيجارنك Zeigrnik عام ١٩٢٧ بتجارب بينت أن الميل لتذكر الأعمال غير التامة اقوى من الميل لتذكر الأعمال التامة . وأن هناك قوى تعمل عملها لاستئناف الأنشطة الناقصة واكمالها .

وهذه البحوث التى تناولت مقاطعة العمل ، والقوى التى تعمل على استئناف الأعمال واتمامها أدت على نحو مباشر الى برنامج آخر من برامج البحث يمثل تناولا تجريبيا مبكرا للدافعية ولقد استهدف البحث أن يكتشف ما اذا كان اتمام عمل مختلف عن العمل الذى قوطع يمكن أن يؤدى الى انقاص الميل الى استئنافه . وبعبارة أخرى هل يمكن ان يحل عمل محل عمل آخر . ولقد قامت كيت لسنر Kate Lissner عام ١٩٣٣ وهى احدى تلميذات ليفين بتجربة عن ابدال العمل . درست تأثير تشابه العمل الثانى مع العمل الأول على التواصل بين نظامين للتوتر . وأبانت انه كلما ازداد التشابه بين العملين

زادت فاعلية الابدال وقل تواتر أو تكرار الاستئناف التلقائى للعمل الأول . وبينت لسنر أيضا أن المجرب اذا ابرز الفروق بين العملين وهو يقدم تعليمات التجربة (اى اكد على أن العمل الثانى يختلف عن العمل الأول) فانه يزداد احتمال استئناف الأطفال للعمل الأصلى عما لو لم يؤكد المجرب على هذا الاختلاف بين العملين . ويبدو أن تعليمات المجرب تزيد من صلابة الحد الفاصل بين المناطق الشخصية الداخلية التى تتطابق مع المقصدين . ولقد بحثت لسنر أيضا متغير صعوبة العمل ووجدت ان العمل البديل اذا كان أسهل من العمل الأول تقل فاعليته كبديل عما لو كان اكثر صعوبة . ويبدو ان أداء عمل سهل يتضمن انتقاصا اقل للتوتر وبالتالى يكون اقل فاعلية فى انتقاص ما تبقى من توتر بقى نتيجة لمقاطعة العمل الأول .

ولقد وجد ماهلر Mahler انه كلما ازدادت درجة واقعية العمل الثانى زادت قيمته كبديل للعمل الأول . فاذا قوطع الأطفال اثناء رسمهم لصورة ثم اتيح لهم أن يتحدثوا عن طريقتهم لاتمامها فان احتمال عودتهم التلقائية لاتمام هذا العمل تقل عما تفعله مجموعة اخرى من الأطفال قوطعوا اثناء الرسم وطلب اليهم أن يتخيلوا طريقة اتمامهم له . ويبدو انه كلما ازدادت درجة واقعية العمل الثانى ازداد التفاعل بين نظامى التوتر للعملين .

ولقد استخدم كوبكه Kopke ابدال العمل كاجراء لاختبار فرض معين من فروض ليفين المشتقة من نظريته فى الشخصية . فقد اعتقد ليفين ان الحدود بين خلايا الغلاف الشخصى الداخلى لضعاف العقول اكثر صلابة مما نجد لدى الأسوياء من الأطفال . فاذا كان هذا الفرض صحيحا فان الأطفال المتأخرين عقليا يميلون الى ابدال الأعمال بتكرار اقل عن الاسوياء وقد ايدت النتائج التى اسفرت عنها تجربة كوبكه صحة هذا الفرض . فحين طلب من الأطفال المتأخرين عقليا ان يرسموا صورة قطة على ورقة حمراء ثم قوطعوا قبل اتمام العمل واتيح لهم ان يرسموا القطة على ورقة خضراء ثم اتيح لهم بعد اتمام العمل الثانى استئناف العمل الأول اختلف المتأخرون عن الأسوياء من حيث أن الأول كانوا يعودون جميعا تقريبا الى استئناف العمل الأول الأمر الذى لا نجده بين الأسوياء .

ولقد أدى اهتمام ليفين بالديناميات الداخلية للدافعية الى أن يبادىء

بالقيام بسلسلة اخرى من البحوث التى اجريت على عملية التشبع السيكولوجى . ولقد اكتشف كارستن Karsten ١٩٢٨ وتلامذة آخرون لليفين من امثال كونين Kounin ١٩٤١، وسيشور وبافيلاس Seashore & Bavelas ان الزمن المستغرق لبلوغ مرحلة التشبع بالعمل تتوقف على المعنى الشامل لسياق النشاط ، وعلى الحالة الفسيولوجية للشخص وعلى درجة جمود الأنظمة السيكولوجية البينشخصية .

وثمة مجموعة اخرى من الدراسات الهامة لديناميات الدوافع وهى التى تناولت بالدرس الاحباط والنكوص . ومرة اخرى نجد أن خطة ليفين البحثية قد قام بها فى الأساس آخرون . ولقد تألف عمل دمبو Dembo المبدئى فى برلين ١٩٣١ من دراسات تقوم على الملاحظة الدقيقة لأعراض التوتر الانفعالى كما تقارن بأعراض توتر حل المشكلة او القيام بالعمل الذى يحدث حين يكلف الأشخاص بأعمال يستحيل انجازها . ولقد اشتملت الأعراض التى لوحظت على الغضب والعدوان والنكوص والابدال والهروب من الواقع ولقد توصلت الدراسات اللاحقة التى قام بها باركر ودمبو وليفين الى وجود علاقات هامة بين الاحباط والنكوص الفكرى كما يقاس بمستوى النمو الذى يتميز به النشاط اللاعب قبل التعرض للاحباط وبعده .

وتجاربه هو وتلاميذه عن مستوى الطموح والعوامل التى تؤثر فيه وعن اتخاذ القرار والتخلص من الصراع ، وعن الادراك الاجتماعى ، والقيم الاجتماعية والتأثير الاجتماعى والتعاون والتنافس وكيفية تغير القيم الثقافية واهتمامه بنظرية التغير والفعل الاجتماعى المبنى على التخطيط ، وتأثير معايير الجماعة على الارتياح تدل على تنوع اهتماماته وخصوبة افكاره وقدرته على تصميم البحوث الامبيريقية التى تتناول افكارا يصعب تناولها تجريبيا .

واسهامات ليفين المشهورة فى علم النفس الاجتماعى وديناميات الجماعة غنية عن البيان : كدراساته عن أنواع القيادات والاجواء الاجتماعية وتأثيرها على الانتاجية ، والتوافق . ونكتفى بهذا التلخيص السريع لجهوده البحثية لننتقل الى تقويم النظرية .

المكانة الراهنة والتقويم :

تقويم النظرية معناه ابراز نواحي القوة ونواحي الضعف بها ولنبدأ بأهم الانتقادات التي وجهت للنظرية ، اى نواحي ضعفها : —

١ — لا يقدم لنا التصوير الطبولوجي للمفاهيم السيكولوجية ، أى باستخدام الدوائر والأشكال البيضاوية والأسهم والخطوط جديدا عن السلوك الانساني وعن الشخصية التي يحاول تفسيرها. أن نظرية ليفين تصف الوقائع بعد حدوثها ولا تساعد على التنبؤ . ولعل ذلك يرجع الى انه لا يتوافر لها وسائل لقياس التكافؤات والقوى الموجهة والعوائق . أن القوى في المجال يمكن أن تستنبط فحسب حيث تحدث فعلا مما يجعل النظرية معرضة للدور والدور باطل كما يقول المناطقة .

٢ — أن نظرية ليفين تتجاهل البيئة الموضوعية لانها لا توضح لنا كيف تحدث البيئة الخارجية تغييرا في حيز الحياة ، وهذا يعني أن نظرية ليفين اسيرة الذاتية . ولكن يبدو ان ليفين وتلامذته حين يقومون ببحث علمي يحددون المتغيرات المستقلة والاثيرات الصادرة عن البيئة كما يفعل الباحثون التجريبيون الآخرون سواء بسواء .

٣ — لا يهتم ليفين بتاريخ الفرد الماضي عند دراسته لانه يؤكد على مبدأ التزامن ، ولكن المتأمل لأعمال ليفين وتلامذته يجد انهم كمجاليين يهتمون بالخبرات السابقة وبالمشكلات النمائية ولكنهم يهتمون بها طالما أن لها أثرها واستمرارها في الحاضر .

٤ — استخدم ليفين المفاهيم الفيزيقية والرياضية استخداما سيئا . لان هذه المفاهيم وما يرتبط بها من لغة مكتته من ان يتظاهر بأنه يقدم نموذجا رياضيا للسلوك يساعد على التنبؤ وهو أمر لم تحققه النظرية . هذا فضلا عن أن هذا النموذج لا يساعد على توليد الفروض واشتقاقها مما يمكن وضعه موضع الاختبار والتحقيق الأمر الذى يثرى النظرية .

وتتمثل نواحي قوة النظرية فيما يأتي : —

— انها أثارت الجدل وما تزال تثيره وهذا دليل على حيويتها . ويتسق مع

هذا ان عددا ليس بالقليل من تلامذته يواصلون العمل الذى بداه ليفين فى جامعة متشيجان ويجرون بحوثا عن ديناميات الجماعة .

— اتجه اهتمام ليفين الى تطبيق نظريته فى مجال العلوم الاجتماعية واهتم ببحوث الفعل ، ولكن نظريته فى الشخصية لم يطرأ عليها التطور المتوقع. ولعل مما يقلل من هذا النقد أن مصطلحاتها كالتكافؤ ونظام التوتر والعائق وحيز الحياة والقوة الموجهة اصبحت من مفاهيم علم النفس العام .

— ان الدراسات العلمية التى اجريت فى اطار نظرية المجـــال وجهت مزيدا من الاهتمام لتأثير العوامل غير السيكولوجية على حيز الحياة . فنجد مثلا باركر ورايت (١٩٥١) يدرسان فى جامعة كانســـاس التنبؤ النفسى اى يقومون ببحث عن الايكولوجيا النفسية يستهدف وصف ظروف ســلوك جميع الأطفال فى مدينة صغيرة بوسط غرب أمريكا .

— ان البحوث التى أجريت عن الابدال ومستوى الطموح والآثار الناتجة عن مقاطعة أعمال التعلم على التذكر ، وبحوث الصراع والنكوص وديناميات الجماعة تدل على قدرة ليفين على تصميم تجارب لدراسة ظاهرات لم يستطع التحليل النفســى أن يتناولها على اساس تجريبى ، وانما تناولها على اســاس كلينيكى تأملى .

— اعادت نظرية ليفين لعلم النفس توازنه الذى فقده على يد السلوكيين . لان نظرية ليفين احيت مفهوم الانسان باعتباره مجالا معقدا من القـــوى النفسـية له قدرة على الاختيار ولديه حاجات ومقاصد وآمال ومطامح .

— ادت نظرية ليفين وأفكاره الى اجراء بحوث فى ظـــروف طبيعية على الأطفال فى لعبهم ، والمراهقين فى نشاطهم فى جماعات ذات اجـــواء متباينة، وعلى عمال فى مصانعهم ، وعلى ربات بيوت فى اختيارهن لانواع اللحوم وغير ذلك كثير . ولقد كفل هذا لنظرية ليفين وفكرة الشـــيوع والانتشار .

— ويتمثل تأثير تفكير ليفين فى الفكر السيكولوجى المعاصر فى نظـــرية اتكنسون عن دافعية الانجاز ، ذلك ان هذه النظرية تمثل امتدادا لمستوى

الطموح تفصيلا له . ولقد استخدم كانترل Cantril مناهج بحث مستوى الطموح فى دراساته الشاملة للاهتمامات الانســـــانية . وافاد روكتس Roakeach فى بحوثه عن العقل المغلق والعقل المنفتح من مفاهيم ليفين . فالعقل المغلق اقل تمايزا من العقل المتفتح . ويفيد فستنجر فى نظريته عن التنافر المعرفى من فكرة ليفين عن أن الموقف قبل اتخاذ القرار يختلف عنه بعد اتخاذه .

وهكذا فان قدرة النظرية على توجيه البحث بصرف النظر عما تذهب اليه من انها نموذج رياضى تسوغ المكانة التى تحتلها نظرية المجال فى علم النفس المعاصر . (هول ولندزى ، ترجمة فرج ، ٣٢٦ — ٣٢٣) .

الفصل الخامس عشر

جورج كيلى

ولد جورج كيلى فى مزرعة قريبة من بيرث فى ولاية كانساس فى ٢٨ أبريل ١٩٠٥ م . وكان طفلا وحيدا . وقد درب والده ليكون قسا مشيخيا ، غير أنه لسوء صحته ترك الكهنوت وعمل بالزراعة. وفى عام ١٩٠٩ استطاع هذا الأب أن يعد عربة استخدمها لنقل الاسرة الى كلورادو حيث حصلوا على قطعة أرض من القطع التى كانت توزع مجانا على المستوطنين . ولكنهم عادوا الى مزرعتهم فى كانساس على أية حال حين عجزوا عن استخراج ماء يكفى لريها . ويبدو أن كيلى لم يفقد روح الريادة التى تعلمها من خبراته المبكرة هذه . ولقد ظل رجلا عمليا جدا خلال حياته ، وكان اهتمامه الملح بأى فكرة أو أداة مرهون بفائدتها ، فاذا ثبتت هذه الفائدة تبناها والا فلا وقت لديه لها. وفضلا عن ذلك فلقد تأثر تأثرا شديدا بمعتقدات والديه الدينية العميقة وظل عضوا دينيا نشطا .

ولقد تلقى كيلى تعليمه المبكر فى مدرسة من فصل واحد ، هذا فضلا عن تعاليم والديه له . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أرسل الى ويشيتا Wichita حيث التحق بأربع مدارس ثانوية مختلفة . وبعد أن بلغ الثالثة عشرة لم يستقر فى البيت الا نادرا وعند تخرجه من المدرسة الثانوية التحق بجامعة الاصدقاء بويشيتا Friends University وهى مدرسة للكويكرز. وبعد ثلاثة أعوام انتقل الى كلية بارك Park College حيث حصل على درجة البكالوريوس فى الفيزياء والرياضيات عام ١٩٢٦ م .

ولقد كانت خطة كيلى الأصلية أن يدرس الهندسة ، ولكنه قرر أن مثل هذه المهنة لن تسمح له أن يعالج المشكلات الاجتماعية التى تزايد اهتمامه بها . ونتيجة لذلك الاهتمام التحق ببرنامج لدراسة الماجستير فى جامعة كانساس وكان تخصصه الرئيسى فى هذه الدراسة علم الاجتماع التربوى وتخصصه الفرعى العلاقات العمالية . وقد درس للحصول على هذه الدرجة طريقة العمال فى مدينة كانساس فى قضاء وقت فراغهم .. وحصل على درجة الماجستير عام ١٩٢٨ م .

وفى عام ١٩٢٩ حصل كيلى على منحة دراسية مكنته من أن يقضى عاما فى جامعة ادنبره فى اسكتلندا حيث عمل مع السير جودفرى طومسون Godvery Thomson ولقد كان الأخير مسئولا الى حد كبير عن تنمية اهتمام كيلى بعلم النفس . وفى عام ١٩٣٠ م حصل كيلى على درجة فى التربية من جامعة ادنبره ، واتم رسالته تحت اشراف طومسون . وكانت عن التنبؤ بالنجاح فى التدريس .

وعندما عاد الى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٣٠ بدأ يدرس علم النفس فى جامعة ولاية ايوا حيث حصل على درجة دكتوراه الفلسفة عام ١٩٣١ . وكانت رسالته عن العوامل المشتركة فى نواحى العجز فى الحديث والقراءة . وبعد يومين من تخرجه تزوج جلاديس طومسون وأنجبا طفلين .

ولقد بدات حياة كيلى الاكاديمية فى كلية فورت هيز فى ولاية كانساس Fort Hays Kansas State College فى منتصف فترة الكساد وسرعان ما تعلم أن اهتمامه بعلم النفس الفسيولوجى الذى درسه فى جامعة ولاية ايوا لن يفيده كثيرا فى ظل الظروف الحالية . لقد لاحظ ان الذين يتعامل معهم لا يعرفون ماذا يعملون بحياتهم — لقد اختلط عليهم الأمر . وهكذا تحول اهتمام كيلى الى علم النفس الكلينيكى ، وكانت الحاجة ماسة له . ولقد اتضح أن لكيلى ميزة بهذا الصدد لانه لم يدرب رسميا على أسلوب كلينيكى معين . ولقد اعطته هذه الميزة الى جانب طبيعته العملية مرونة فى تجريب طرق مختلفة فى معالجة المشكلات الانفعالية واحتفظ بما ثبتت صلاحيته ؛ وتخلص مما ثبت فشله . وكان كيلى قد سمع بفرويد بطبيعة الحال ؛ وجرب بعض افكاره ولكنه وجدها فى الأساس غير فعالة .

وخلال الاعوام الثلاثة عشر (١٩٣١ — ١٩٤٣) التى اقامها كيلى فى فورت هيز انشا عيادات متنقلة لخدمة المدارس العامة فى الولاية . ولقد اتاحت هذه الخدمة لكيلى ولتلامذته خبرة بمشكلات سيكولوجية متنوعة . وخلال هذه الفترة توصل كيلى الى ملاحظتين كان لهما تاثير عميق على نظريته فيما بعد ، لقد وجد كيلى اولا انه حتى لو قدم تفسيرا منطرفا لمشكلة عند عميل ، فان هذا العميل يتقبله ويتحسن عادة . وبعبارة أخرى فان كيلى لاحظ

أن أى شىء يدفع العملاء الى النظر الى مشكلاتهم على نحو مختلف يؤدى الى تحسين الموقف . وأن المنطق والصحة فيما يبدو علاقتهما ضئيلة بهذا .

وقد لاحظ كيلى ثانيا أن شكوى المدرس من تلميذه كثيرا ما تقول عن المدرس اكثر مما تقول عن التلميذ . ان المشكلة كانت فى الطريقة التى يرى بها المدرس الأشياء ، ولم تكن المشكلة فى وجود بعض الوقائع الموضوعية التى يمكن لكل فرد أن يخبرها . ومثل هذه الملاحظات هى التى حملت كيلى على أن يضع أجرأ نظرية فى الشخصية منذ نظرية فرويد .

وفى بداية الحرب العالمية الثانية كان كيلى مسئولا عن برنامج لتدريب الطيارين المدنيين . ولقد التحق بعد ذلك بالأسطول ليعمل عالم نفس فى مكتب الطب والجراحة فى واشنطن د.س . وأثناء وجوده فى الخدمة طور نوعية علم النفس الاكلينيكى وفاعليته فى القوات المسلحة ، وظل نشطا فى عدد من برامج الحكومة التى تتصل بعلم النفس الكلينيكي حتى وفاته .

وفى عام ١٩٤٥ عندما انتهت الحرب عين استاذا مشاركا فى جامعة ميرلاند حيث بقى لمدة عام.وفى عام ١٩٤٦ اصبح استاذا لعلم النفس ورئيسا لقسم علم النفس الكلينيكى فى جامعة ولاية أوهايو . وعلى الرغم من أن القسم كان صغيرا جدا ، الا أن كيلى استطاع مع جوليان ب روتر أن يطورا برنامجا فى علم النفس الكلينيكى اعتبره كثيرون افضل برنامج فى القطر . وخلال الفترة التى قضاها كيلى فى ولاية أوهايو والتى تبلغ تسعة عشر عاما نتج نظريته فى الشخصية واختبرها .

وقد حصل كيلى خلال عام ١٩٦٠/١٩٦١ وزوجته على منحة اتاحت له أن يطوف حول العالم يحاضر عن العلاقة بين نظريته والمشكلات الدولية المختلفة . ولقد حملتهما هذه الرحلة الى مدريد ولندن واوسلو وكوبنهاجن وبراج ووارسو وموسكو ومنطقة الكاريبى وجنوب أمريكا . ولقد كانت هذه مغامرة بالنسبة لانسان لم يبعد كثيرا عن كانساس .

وقد ترك كيلى ولاية أوهايو عام ١٩٦٥ ليقبل وظيفة فى جامعة برنديز Brandeis University ومات فى ٦ مارس ١٩٦٧ وقد بلغ عمره ٦٢ عاما.

وقد كتب كيلى القليل . ونجد العرض الأساسى لنظريته فى كتاب من مجلدين له وعنوانه The Psychology of Pensonal Constructs (1953)

وأهم دعاة هذه النظرية فى الوقت الحاضر عالم النفس البريطانى دونالد بانستر Donald Bannister ؛ وتلميذ سابق لكيلى هو لى سيكرست Lee Sechrest

موقف نظرية كيلى بين النظريات الأخرى :

لقد بدأ كيلى عمله كعالم نفس كلينيكى بدون ان يتلقى اى تدريب كلينيكى، وبعبارة اخرى فانه لم يتلق غرسا عقيديا فى اى مدرسة من مدارس الفكر النفسى . لقد واجه كيلى اناسا لديهم مشكلات ؛ ولما كان خالى الوفاض من المهارات الكلينيكية فانه قد ابتكر اساليبه الخاصة به هو ؛ ولم يكن لديه من يرشده ، ولم يتخرج من قسم له اتجاه فلسفى معين ؛ ولم يكن قط محاطا بمجموعة من الزملاء اثروا فيه ليتخذ وجهة معينة . فاذا شابهت نظرية كيلى أى نظرية أخرى فان هذا ليس خطؤه ، انه محض مصادفة . وسوف نرى أن كيلى اعتقد أن شخصية الشخص الراهنة ليست فى حاجة الى ان ترتبط بماضيه . وهو يعتقد بأن هذه الفكرة تصدق على نظريات الشخصية، أى ان النظرية لكى تكون صادقة ينبغى الا تكون قد اشتقت وتولدت من النظريات الأخرى الموجودة من قبل . ونظرية كيلى فى الشخصية يحتمل أن تكون مستقلة عن المواقف النظرية الأخرى الى اكبر درجة ممكنة . ولقد اشار بعض الباحثين الى وجود تشابه بين نظريته والنظريات الاخرى التى سبقته ولكنه لم يلق بالا الى اقوالهم ولم يقف عندها كثيرا .

ومع ذلك فان نظرية كيلى يمكن تصنيفها بطرق معينة . اولا كيلى فينومنولوجى ويعتقد الفنومنولوجيون بأن الخبرة الشعورية البكر ينبغى أن تكون مركز اهتمام علم النفس . ولا ينبغى ان نهتم بمن أين صدرت هذه الخبرات؛ذلك لان الشىء المهم الذى علينا ان ندرسه كما يعتقد الفنومنولوجى هو خبرات الشخص الشعورية كفرد دون أن نقسمها الى مكونات وأجزاء أو نحاول أن نحدد أصلها .

ويمكن أن تعتبر نظرية كيلى معرفية لانه يؤكد على الوقائع العقلية ، وهى ليست نظرية سلوكية لانه لم يؤكد على السلوك وعلى علاقته العلية بالبيئة ولا تدخل فى اطار التحليل النفسى لانه لا يؤكد على أهمية الحيل الدفاعية أو الخبرة المبكرة فى تحديد شخصية الراشد ، وهى ليست نظرية سمات لانه لم يحاول أن يصنف الأفراد على اساس سماتهم . انها نظرية معرفية لانها تؤكد على طريقة رؤية الأفراد أو نظرة الأفراد للواقع وطريقتهم فى التفكير فيه .

ويمكن ايضا أن تعتبر نظرية كيلى وجودية لانها تؤكد على المستقبل بدلا من تأكيدها على الماضى ، ولانها تفترض أن الناس جميعا احرار فى اختيار قدرهم . وبصفة عامة فان الوجودية تفترض أن الناس احرار ذوو توجه نحو المستقبل ، وأن مشاعرهم الذاتية وخبرتهم الشخصية هامة جدا وأنهم يهتمون بمعنى الحياة . ويعتقد الوجوديون أيضا انه طالما أن الناس احرار ، فأنهم مسئولون عن اقدارهم . وبصفة عامة يفحص الوجوديون مشكلات الوجود الانسانى ، وعبارة جان بول سارتر المشهورة : « الانسان هو ما يريد أن يكون » (1956, p. 291) تلخص موقف كيلى والموقف الوجودى .

واخيرا فان نظرية كيلى يمكن اعتبارها نظرية انسانية لانها تؤكد على قدرة الناس المبدعة . وتقلل من أهمية الوراثة والبيئة فى تحديد الشخصية والانسانيون عادة متفائلون فى نظرتهم الى الانسان ويؤكدون على قدرته على حل المشكلات التى يسببها الانسان فى المقام الأول . وهناك علاقة قرابة وثيقة بين الوجودية والانسانية وتداخل بين الفلسفتين . وكلاهما يؤمن بأن البحوث التى تجرى على الحيوان وسيلة لا معنى لها لدراسة الانسان وفهمه .

ويمكن أن تعتبر نظرية كيلى فنومنولوجية لانها تركز على الخبرة الذاتية البكر ، وهى معرفية لانها تؤكد على دراسة الوقائع العقلية ، وهى وجودية لانها تؤكد على المستقبل وعلى قدرة الناس على اختيار اقدارهم ، وانسانية لانها متفائلة حيث تؤكد على قدرات الانسان المبدعة التى يمكن أن توجه لحل مشكلات الفرد والمشكلات السوسيولوجية .

الانسان عالم مبتدئ :

يذهب كيلى (1955, p.p. 4-5) الى ان العلم ما هو الا صقل للغايات والاجراءات التى يعيش بها كل منا حياته . واغراض العلم هى التنبؤ بالوقائع وتغييرها وفهمها . وهذه الغايات والمقاصد ليست غايات العالم وحده بل هى غايات ومقاصد كل انسان . فنحن جميعا نتنبأ بالمستقبل ولدينا توقعات معينة ونضع خططا تستند الى ذلك . ونحن جميعا نحاول ان نضبط الأحداث والوقائع فى حياتنا ونغيرها ونرتبا ونفهمها .

ولا تتفق مقاصد الانسان والعالم فحسب بل يتفقان أيضا فى الأساليب لتحقيق تلك المقاصد . فينظر العالم الى الوقائع التى تتاح له بمساعدة التجريدات وهى تكويناته العلمية Constructs ونظرياته الاكثر احكاما وتفصيلا . وبالمثل يحاول كل انسان أن يعالج عالمه من خلال تناوله لأفكار ومبادىء وفلسفات للحياة . وليس من شك فى أن وسائل الانسان فى التصور لا تتخذ الصيغة الشكلية التى نجدها عند العالم . بل وفى كثير من من الحالات لا يعبر عنها وهى خاصة بالشخص الذى يستخدمها . ولقد طور العلم طرائق كل انسان وذلك بتحديده للأغراض وبتصميمه لتفاصيل نظرياته .

والعالم لا يغزل تكويناته لينسج منها نظريات . انه يختبر كفاءتها التنبؤية وذلك من خلال صياغة الفروض ، وتصميم البحوث وتنفيذها . وكذلك يختبر الانسان تصوراته عن العالم ، ولكنه يفعل ذلك بدقة اقل من الباحث العلمى وبطريقة غير شكلية . وكثيرا ما تكون اختبارات الانسان لآرائه وتوقعاته مثقلة بالاطناب والاسهاب. انه يقع فى دائرة لا تنتهى لتحقيق الذات وفقا للنبوءة. فاذا قلنا ان انسانا لديه اعتقاد راسخ بان جاره يكرهه. ان هذا الفرد اذا اقتنع بهذا ، فان احتمال ان يتحقق هذا كبير جدا وذلك لان سلوك الانسان نحو جاره ليس بمعزل عن آرائه ومعتقداته . انه يسلك بطريقة تتسق مع توقعه عن كيفية استجابة جاره ، وذلك بدلا من ان يخضع هذه التوقعات لاختبار غير متحيز فى دنيا الواقع . ولكى يتجنب هذه المصيدة، فان الباحث العلمى المحنك يحدد اجراءات متقنة ومفصلة لكى يضمن الا تؤثر

آراءه فى نتائج بحثه . ان الاجراءات قد صممت للتخلص من التحيزات للآمال وعدم تأثيرها فى تنفيذ البحث . ان الطريقة العلمية ما هى الا نسخة منقحة ومدققة من محاولات كل انسان ليتصدى لعالمه . وكيلى يرى أن كل انسان ما هو الا عالم مبتدىء .

الشخص ليس عبدا لماضيه :

اعتقد كيلى وهو في هذا يتسق مع كثير من النظريات الادراكيــة ان النظر الى ماضى الفرد كمحدد لسلوكه فى الحاضر والمستقبل قول مضلل . فالماضى كما حدث فعلا ليس محددا للسلوك ، وانما الذى يحدده هو كيفية نظر الفرد الى ماضيه وكيفية تصوره له . ولقد اعتقد كيلى ان الشخص ليس ضحية لتاريخ حياته ولكنه يمكن أن يكون عبدا لتفسيره له (1955, p. 208)

غير أنه حتى تفسير الفرد للوقائع الماضية قد لا يتصل بســلوكه فى الحاضر والمستقبل . فالتكوينات والتصورات التى يفسر بها الفرد وقائع ماضيه معينة قد تكون رصيدا مغلقا ولا يمكن اختراقه بحيث لا يمكن اســتخدامه لتشكيل بنية الحاضر أو المستقبل .

وعلى الرغم من ان سيكولوجية التكوينات الشخصية عند كيلى معارضة للتاريخ من الناحية النظرية ، الا أن هذا لا يعنى انه غير مهتم بتاريخ الفرد . وكثيرا ما يكون من الصعب ان نتحقق بالتجربة والاختبار من الطريقة الحالية لادراك الانســان للعالم . ومن هنـــا يصبح من الضرورى منهجيا أن ندرس الطرق التى استخدمها بنجاح فى النظر الى حياته بحيث يستطيع أن يستنتج منها آراءه ونظراته التى تؤثر فى حاضره . وهكذا فانه يمكن القول ان كيلى يستخدم التاريخ استخداما سليما وصحيحا . (W.B. Arndt, Jr, p. 60)

الانسان يسعى للتنبؤ :

لقد راينا ان الانسان عالم مبتدىء ، وان العالم والانسان لديهما دافع لكى يصبح كل منهما قادرا على التنبؤ بالوقائع . ويترتب على ذلك أن التوقع عند كيلى هو الواقع الاساسى عند الانســان . وسلوكنا يتضمن سواء أكان بسيطا ام معقدا ما يترتب عليه من نتائج فحين ندير مفتاح الاشــعال فى

السيارة نتوقع أن يبدأ محرك السيارة فى العمل. وحين يحيينا شخص نعتبره صديقا ونتوقع لقاء وديا . واذا رأينا انفسنا محاطين بمالم معساد ، فاننسا نتنبأ بأننا معرضين لخطر الأذى . ويصوغ العالم تصورات وتكوينات لتمكنه من التنبؤ بالوقائع فى اطار نظريته . كذلك يسعى الانسان لاستشراف الوقائع فى عالمه الشخصى . ولا يتنبأ العلم ولا الانسان بالوقائع الحقيقية لمجرد التنبؤ ، انه يفعل هذا ليبحر ويمضى بفاعلية الى المستقبل
(1955, p: 49)

ان توقع الاحداث مسألة مركزية وهامسة فى سيكولوجية كيلى عن التكوينات الشخصية . ولذلك يعتبرها مسلمة اساسية ويقسول : « ان العمليات التى يقوم بها الشخص تتخذ مساراتها وقنواتها على اساس الطرق التى يتوقع بها الاحداث » (1955, p. 46) اى ان الطرق التى يستبق بهسا الشخص الأحداث تحدد نشاطه وهذه المسلمة تشكل الافتراض الأساسى الذى تقوم عليه نظريته . ونستطيع بطبيعة الحال أن نتشكك فى مصداقية هذه العبارة أو أى عبارة أخرى ، ولكنه بمجرد ان يثير قضية الصدق هـذه لا تبقى المسلمة مسلمة ، وانما تصبح فرضا يوضع موضع الاختبار ليثبت صدقه أو خطؤه . ان المسلمة تصح ليس بوضعها موضع الاختبار للتثبت من صدقها ، وانما بتحديد فائدة البنية النظرية التى تقوم عليها وصدقها .

ولقد صيغت بقية نظرية كيلى فى ١١ لازمة . واللازمات عبارات تتبع المسلمة وتكملها ، ولازمات كيلى توضح مسلمته الأساسية .

والسؤال المباشر الملح الذى يلى هذه المسلمة الاساسية هو : كيف يتوقع الفرد الأحداث ويتنبأ بها ؟ وهذا السؤال تجيب عنه لازمة الانشاء . ان الشخص يتوقع الاحداث بتفسير اعادتها « وعلى الرغم من انه لا توجد واقعة فى حياتنا تتكرر كما هى بالضبط ، الا اننا نستطيع ان ندرك او نتبين موضوعات تتكرر وتتواتر . وعلى الرغم من ان كل يوم فى حياتنا يختلف عن غيره من الأيام ، وكل شهر يختلف عن غيره من الشهور وكل سنة تختلف عن السنوات الأخرى، الا أن هناك جوانب معينة من الوقائع اليومية سوف تتكرر غدا وبعد غد . وعلى أساس تفسير هذه الجوانب المتكررة من الوقائع نحدد توقعاتنا . وليس هناك مناسبتين متطابقتين بالنسبة لادارة محرك السيارة ،

ولكننا مع ذلك نتوقع أن يدور المحرك ونسمع صوت دورانه على اســاس الجوانب التى تتكــرر . ولا تتكرر اى تحية من صديق كما هى تماما ، ومع ذلك فنحن نتنبأ باللقاءات الودية معه بتفسيرنا للجوانب المتكررة فى هــذه المواقف . وهكذا نتوقع الوقائع والاحداث بتفسير تلك الجوانب التى تتكرر. وتحدد العمليات قنواتها ومسـاراتها على أساس هذه التوقعات فالفرد اذن يقف فى الحاضر محاولا الربط بين جوانب من ماضيه وتوقعات من مستقبله.

ولازمة الاختيار توضح الغرض من التوقع ومقصده . وتقول هــذه اللازمة « يختار الشخص لنفسه بديلا من البدائل التى تتيحها تكويناته الثنائية وتصوراته والتى من خلالها يتوقع امكانية اعظم للتوسع فى نظامه وتحديده »، (1955, p. 64) وهنا كما هو الحال فى اى موضع فى نظرية كيلى من المفيد ان ننظر الى الانسان كعالم مبتدىء . وكما تتالف نظرية العالم من مجموعة من المفاهيم ، كذلك تسترشد عمليات التفســير عند الانســان بشبكة من تكويناته وتصوراته . ويسعى العالم والانسان الى ان يطــور قدرته على التنبؤ بالوقائع المستقبلية ولكن السؤال هو : لماذا يبدو لنا ان عددا من الأفراد يصرون على التمسك بالاختيارات الخاطئة فى حياتهم . لماذا يظهر الموظف الذى يسعى للترقية اتجاها عدائيا نحو رئيسه ؟ ولماذا يهمل الطالب الجامعى ذو الاستعداد الجيد فى دراسته حتى ولو كان على حافة الرســوب ؟ ان اجابة كيلى هى أننا لا نبحث عن اللذة ولا نسعى للحصول على مكافاة فى الحياة ، وانما نبحث ونسعى لتحسين قدرتنا على التنبؤ . فالموظف يرى بديلين امامه هما : اما العداء والخصومة او الخضوع والمسايرة . انه يقدر العداء والخصومة لانه يعرف ما يتوقع حين يعبر عن العداء نحو رئيسه . اما اختياره للخضــوع فانه يعنى أن يعيش فى شك وفى غير يقين والطالب قد بنى حياته على اساس مسلمة هى انه غبى وليس ذكيا . وهو يعــرف ماذا يتوقع حين يدرك نفسه على نه غبى او بليد حتى ولو لم يحب التفكير فى نفسه بهذه الطريقة . ولا يعرف الا الله ماذا يمكن أن يحدث لو اختار أن يفكر فى نفسه على أنه ذكى .

وهناك طريقان يؤديان الى زيادة القدرة على التنبؤ بالوقائع المستقبلية بدقة وهما : التعريف والتحديد ، والتوسع والامتداد . فقد يحدد الفــرد

ويعرف فى محاولة ليستوثق ويتيقن او يوسع آفاته ويمدها ليزيد من فهمه وهكذا فان التحديد أو التعريف والتوسع او الامتداد وكذلك الأمن والمغامرة يؤديان الى نفس الغاية والى توقع وتنبؤ افضل بالمستقبل .

وفى بعض الاحيان ينبغى على العالم والانسان ان يحددا على نحو أدق تكويناتهما وتصوراتهما ولكنهما فى وقت آخر قد يوسعان ويمدان نستيهما ليصلا الى عوالم اخرى ، وبالتالى يزيدان من مدى الملاءمة والموافقة والراحة range of convenience . ان الامتداد والتوسع فى نسق التكوينات الشخصية عندئذ يماثل التعميم فى النظرية . ولكننا اذا اردنا ان نتنبأ على نحو صحيح بالوقائع سواء اكانت على اساس مدى عريض او ضيق فان ذلك يتطلب تعريف التكوينات فى النسق الشخصى كما تعرف المصطلحات النظرية تعريفا اجرائيا ، بحيث يمكن ان تؤدى الى فروض قابلة للاختبار.وهكذا فان المقصد الأولى للانسان هو أن يستهدف التنبؤ بالوقائع المستقبلية على نحو صحيح ولكى يفعل هـذا فانه يبحث عن تعـريف او تحديد نسـقه من التكوينات وتوسيعه .

وعلى سبيل المثال ، فان الفرد يستطيع ان يختـار العيش فى ظل ظروف مستقرة لسنوات كثيرة ؛ اى ان يعيش فى نفس البيت ونفس المنطقة السكنية والمدارس ومع نفس الاصدقاء وبالتالى ينشىء لنفسه نسقا تكوينيا او تصوريا يوفر له يقينا مطلقا تقريبا ، او يستطيع ان يضع نفسه فى مواقف متغيرة دائما لا يتوافر لديه عنها تكوينات . وبعبارة أخرى فان الشخص قد يتوافر لديه قدر كبير من التاكد اذا اكد على تحديد نسقه التصورى ، أو قدر كبير من عدم التاكد اذا اكد على اتلوسع فى هذا النسق . ويبدو واضحا أن اختيار موقف وسط بين هذين الطرفين افضل الحلول .

ولنضرب مثالا لتوضيح اللازمة السابقة « اذا راى الفرد حيوانا متوحشا يقترب منه بسرعة ، فان التصور او التكوين خطر — آمن قد يكون مفيدا اذا استخدمه لتفسير الموقف . وواقعة التعرض للهجوم تقع فى مدى الملائمة لهذا التصور . وفضلا عن ذلك فان فكرة شدة الخطر ستكون ملائمة على وجه الخصوص لهذا التصور . وفى هذا الموقف سوف يستخدم الفرد التكوين

خطر — آمن وسوف تحتل فكرة الخطر الشديد البؤرة فى هـذا المدى من الملاءمة وتصورات أو تكوينات جو حسن ، أو جو ردىء ، أو تحرر سياسى — محافظة تبدو غير ملاءمة للموقف . اى أن مدى الملاءمة للتكوينين الأخيرين لا يتضمن الموقف الذى نتحدث عنه .

وكما يلاحظ فيما سبق فان لازمة الاختيار ليست فى حاجة الى مفاهيم مثل المكافأة والتعزيز واللذة والاختزال . فالانسان لا يبحث عن المكافآت او اللذة وانما يكافح باحثا عن حلول لمشكلة التنبؤ بالمستقبل وعداء الموظف واهمال الطالب لم يسفرا عن مكافأة ؛ وانما تأديا الى الالم والتعاسة . وبينما شعر كل منهما بالتعاسة الا انهما كانا متأكدين من المستقبل .

ان مفتاح موقف كيلى فى استخدام مفهوم الطاقة نجده فى كلمة عمليات Processes التى يستخدمها فى مسلمته الأساسية،ذلك أن مسارات عمليات الفرد تتحدد سيكولوجيا من خلال الطرق التى يتوقع بها الاحداث . لقد رات نظرية التكوينات الشخصية أن تبدأ بكائن حى نشط وقد صيغت المسلمة الأساسية بحيث لا توجد ضرورة لتفسير كيفية تحرك الكائن الحى نفسيا . فالكائن الحى ابتداء لديه عمليات تعفيه من البحث عن مصدر لنشاطه او دافع يحركه .

ان بعض أصحاب نظريات الشخصية يبدأون تفكيرهم فى الانسان كما يفعل الفيزيائيون الذين يبدأون تفكيرهم بمادة جامدة او جوهر جامد وبالتالى فلا بد أن يبحثوا عن مفهوم كالطاقة يفسر حركة الكائن الحى ونشاطه ، إنما وقد بدأ كيلى بكائن حى نشط فان السؤال الأول هو : كيف تتخذ هذه العمليات مساراتها ؟ وليس ما هو اصل هذه العمليات ومصدرها ؟

(W.B. Arndt, Jr. p.p: 174-176)

التكوينات ونسقها :

ان وحدات بناء الشخصية عند كيلى هى التكوينات أو التصورات وهى « التنوات التى تتبعها وتمضى فيها عمليات الفرد العقليـة » وهى الأدوات التى تستخدم للتنبؤ بالوقائع ، وهى تقابل المفاهيم التى يستخدمها العـالم لتنظيم البيانات ولعمل التنبؤات . ولقد راى كيلى اننا لكى نفهم بنيـة

الشخصية ، فانه ينبغى أن نكتشف طبيعة التكوينات الشخصية والاسلوب الذى نظمت به فى نسق الفرد .

دعنا نأخذ ثلاثة أفراد : مريم ، وجميلة ، ورقية . ومن المسلمة الأساسية نعرف أن عملياتنا العقلية موجهة فيما يتصل بهؤلاء البنات بجهد التنبؤ بسلوكهن . ولقد تعلمنا من لازمة التكوين اننا نتنبأ بسلوكهن فى ضوء تفسيرنا للجوانب المتكررة منه ، فمريم وجميلة تتشابهان من حيث انهما ودودتان نحونا . ولكن هذه العبارة الأخيرة ناقصة لان القول بأن شيئين يتشابهان فى ناحية يتضمن ايضا انهما مختلفان فى ناحية اخرى . وينبغى أن يضاف الى هذه العبارة القطب الآخر والطرف المقابل لكلمة ودود ، والتشابه فى جانب من سلوك مريم وجميلة والذى يتكرر لا معنى له ما لم يميز سلوكهما عن سلوك شخص آخر واحد على الأقل ففى مقابل طريقة مريم وجميلة فى السلوك نحونا ، نجد رقية التى كان سلوكها عدائيا نحونا المرة بعد المرة . والآن فان لدينا تكوينا شخصيا Personal - construct هو ودود — عدائى . فمريم وجميلة ودودتان ورقية عدائية . وهكذا فان احدى طرق تعريف أو تحديد التكوين الشخصى أن تقول حين تفسر شيئين انهما متشابهان فى جانب ومختلفان فى جانب آخر (1955, p. 105) وهذه الثنائية أو وجود قطبين ،اى طبيعة التشابه — الاختلاف للتكوينات الشخصية نجدها فى صياغة كيلى للازمة الثنائية Dichotomy Corollary « يتألف نسق الشخص التكوينى من عدد محدود من التكوينات الثنائية أو ذات القطبين » (1955, p: 59)

ومن هذا التصور أو التكوين الشخصى الخاص ودى — عدائى نتادى الى انه لكى يكون الفرد غير ودود لا بد ان يكون عدائيا . ولكن هل من المعقول أن نقول أن الأشياء غير الودية وهى كثيرة فى العالم تكون عندئذ عدائية ؟ فقطعة من الخيط واطار سيارة وما الى ذلك ليست ودودة ، ولكن هل يصدق عليها أنها عدائية ؟ الاجابة هى بالنفى لان التصور أو التكوين الشخصى ودود — عدائى شأنه شأن التكوينات الشخصية جميعا يتصل ويتعلق فحسب بمجموعة محدودة من الوقائع . وهذا الجانب من التكوينات الشخصية يوصف رسميا فى لازمة المدى « التكوين مريح فى التنبؤ ، أو فى توقع مدى محدود

من الوقائع فحسب » (1955, p. 68) وان قطعة الخيط ، واطار السيارة خارج المدى الميسر للتكوين ودود — عدائى ، طالما أن التكوين لا يساعد على التنبؤ بالاحداث التى تتضمن الخيط والاطار .

ولقد تعلمنا من لازمة القطبين أن النسق التكوينى للفرد يتألف من عدد محدود من التكوينات كما تعلمنا من لازمة المدى أن لكل تكوين مدى محدود من الملاءمة . والمشكلة التالية التى علينا أن نعالجها هى كيف ننظم هذا العدد المحدود من التكوينات فى نسق الشخص . وهذا السؤال هو النقطة الاساسية فى لازمة التنظيم . يتميز كل شخص بأنه سعيا للملاءمة فى التنبؤ بالاحداث ، يضع نسقا تكوينيا ، أو تصوريا يحتوى على علاقات مرئية بين التكوينات . (1955, p. 56) والفكرة هنا أن تكوينا قد يندرج تحت آخر باعتباره احد عناصره وهو بدوره يؤدى الى انقاص عدم الاتساق الى حده الادنى فى النسق التكوينى . (1955, p. 57)

ولناخذ تصورين فى نسق الشخص الانسانى : حسن — ردىء ، ذكى — غبى . اذا كانت العلاقة بين هذين التصورين علاقة ترتيب فأن أحدهما يسود والآخر ينضوى تحته . فاذا كان التكوين السائد هو حسن — ردىء فان جميع الوقائع الذكية ستكون حسنة ، وجميع الوقائع الغبية ستكون سيئة او رديئة . أما اذا كان التكوين ذكى — غبى هو السائد فان جميع الاشياء الحسنة او الخيرة ستكون ذكية ، وجميع الأشياء السيئة ستكون غبيــــة .

ان دراسة نظرية كيلى تدل على أن للوقائع وجود فعلى منفصل عن الشخص ولكنها لا تكتسب اهميتها ما لم يتم بتفسيرها . وعملية التفسير تعنى تصنيف وقائع معينة معا لانها متشابهة فيما بينها ولانهـا مختلفة عن اخرى . وهناك طرق كثيرة ممكنة لترتيب الوقائع فى فئات متشابهة ومختلفة ولكن كيلى يخفق فى تفسير الاسباب التى تدفع الناس الى ان يفسروا ويتصوروا وفقا لخطط معينة . واذا عالج كيلى السؤال الذى يتصل بسبب اختلاف اتجاهات الناس فان عليه أن ينظر فى تواريخ خبراتهم البيئيـــة واختلافها . أى انهم يتصورون على هذا النحو او ذاك بسبب اشخاص لهم اهميتهم علموهم ذلك . او بسبب نمو طبيعى نلتج عن نـوع الوقائع التى

اشتملت عليها خبرتهم . ويبـــدو أن كيلى متحفظ فى هـــذا المجال ولا يبين بالقدر الكافى .

ان عملية التفسير تؤدى الى تكوين أو تصور . والتصور فكرة لهـــا طبيعة ثنائية مثل حسن — ردىء ، ولكى يتكون التصـــور عليك ان تدرك تشابها بين شيئين واختلافهما عن ثالث . ومن خـــلال الخبرة بالوقائع ينمى الفرد تصورات أو تكوينات كثيرة ولكنها لا تبقى منفصلة وانما تنتظم فى نسق تصورى او تكوينى ويميل هذا التنظيم الى ان يكون هرميا فى طبيعته ، ولو أن كيلى لا يوضح أسس هذا التنظيم الهرمى بالقدر الكافى .

وكيلى لا يوضح لنا فى نظريته الخطوط التى يحدث على اساسها تفسير الوقائع وتكوين التصورات ولو انه كان يستطيع أن يفعل ذلك ويظل متسقا مع فكره لو ركز على المحددات البيئية للتفسير وليس من الغريب اذن ألا نجد فى أى موضع من كتابات كيلى قائمة بأنماط التصورات وطـــرزها . وكان يستطيع أن يقدم لنا تحديدا لمحتوى الشخصية وذلك بوصفه لانواع التصورات التى يتوقع أن يجدها فى اشخاص لهم تواريخ معينة من التفاعل مع البيئة . وهذه نقطة قصور فى نظرية كيلى تقلل من الفهم للشخصية وتحـــول دون قدرتنا على التنبؤ بالسلوك.وهى نظرية تتخذ من فكرة التنبؤ هذه محورا لها.

صحيح أننا متى التقينا بالشخص نستطيع ان نحدد ما لديه من تصورات ويتم ذلك باستخدام اختبار ذخيرة الدور . وهذا الاختبار يتطلب ان يقـــوم المفحوص بتحديد اسماء الأشـخاص ذوى الاهمية فى حياته كالاب والام . . . الخ . ثم يطلب منه أن يحكم عليهم فى ثنائيات متشابهة ويقـــارنها بشخص مختلف . وبتحليل وتلخيص هذه الأحكام التصنيفية نستطيع ان نحدد عدد التصورات التى تؤلف نسق المفحوص ومحتواها .

استخدام التكوينات واتساقها :

وحين يفضل الناس قطبا من قطبى التصور أو التكوين على آخر فى توقعهم للمستقبل فانهم يقومون باختيار مدروس والسؤال الهام من الناحية النظرية الذى ينبغى ان يطرح هنا هو : ما هو الأساس الذى يحدد هـــذا

الاختيار ؟ وبدلا من أن يؤكد كيلى على أن هذا الاختيار قائم على ما ثبتت صحته فى الماضى نجده يقول « أن الشخص يختار لنفسه البديل — فى تصور ثنائى — الذى يتوقع من خلاله أعظم امكانية لامتداد نسقه وتحديده ».
(Kelly, 1955, p. 64)

واذا كان هدفك فى الحياة هو التنبؤ والضبط فينبغى أن تهتم باحكام واتقان النسق التصورى الذى يتوقف عليه نجاح مقصدك . ولكن ثمة غموض فى هذه النقطة ينبثق من وجود استراتيجيتين تستطيع احداهما أن تنجح فى التنبؤ بالوقائع . ان أوضح طريقة ان نطور نسقا تصوريا يؤدى عمله بنجاح بالنسبة لمجموعة من الوقائع وان نضيق عالم الخبرة ونقصره على هذه الوقائع وما يشابهها بحيث يقل احتمال الخطأ فى التوقع أو تقل صعوبته . وأقل الطرق وضوحا للنجاح فى التنبؤ الصحيح أن نطور نسقا تصوريا شاملا وصادقا بحيث لا يلزم بالضرورة تضيق الامكانيات الخبراتية ، لانه فى الواقع يمكن التنبؤ على نحو صحيح بأى حدث أو واقعة .

والقراءة المتأنية لكيلى توضح انه يدرك وجود استراتيجيتين احداهما محافظة والاخرى مغامرة ، ولكنه لا يقدم لنا اساسا عقلانيا نظريا للأسباب التى تؤدى الى تفضيل احداهما على الأخرى ، ولا التوقيت المناسب لذلك . ولقد كتب سيكرست Seckrest (1963) وهو تلميذ من تلامذة كيلى مفسرا ومحللا لموقفه فقال : « حين يشعر الشخص بالأمن وبالقدرة على التنبؤ بالوقائع على نحو صحيح فانه يختار ما يتيح لنسقه الاتساع وزيادة الامكانيات حتى ولو كان ذلك بالمخاطرة بالوقوع فى الخطأ . ولكن سوف يلى ذلك فترة من المراجعة والتماسك حيث يختار الشخص اختيارات تقلل من التعرض للخطأ ولكنها تؤيد النسق » .

ان كيلى يخفق فى تحديد الخطوط التى تتخذها عمليات التفسير والتكوين عند الشخص وفى تحديد محتوى التكوينات والأساس الذى فى ضوئه تستخدم هذه التكوينات على نحو مغامر او محافظ . واصحاب النظريات الأخرى الذين يستخدمون مفاهيم كالصراع والاشباع حين يفسرون مواقف الاختيار بين بدائل ، يميلون الى افتراض اثر محدد للغرائز أو الامكانيات

الفطرية ، او الانفعالات او الدوافع و الصراعات الانفعالية . ومن الطبيعى ان ندرك ان موقف كيلى متسق مع نفسه لانه يؤكد على الطبيعة المتعلمـــة للشخصية ولانه متحرر فى موقفه الفكرى من الافتراضات الدافعية او اللاذة. ان ما يحاول الانسان ان يفعله هو ان يتنبا ويضبط . لا ان يعبر عن طبيعة داخلية او مجموعة من الحاجات او يستمتع بلذة .

ولو انتقلنا الى تحديد الفعل فاننا نجد ان موقف كيلى فيه اكثر غموضا من موقفه بالنسبة للتنبؤ . ويبدو ان موقف كيلى هو ان الفعل مكمل او امتداد للتوقع والتنبؤ . فاذا ادى بك التكوين او التصور الى ان توقع لقاء وديا مع صديق ، فانه ينبغى عليك ان تسلك بما يتسق مع هذا التوقع ، ولكن العالم حين يكون لديه فرض ويعمل على اختباره فان هذا الاختبار يتطلب افعالا صممت للتثبت من صدق الفرض او خطئه . ولو عممنا النموذج العلمى فاننا نتوقع الا يسلك الشخص بما يتسق مع التنبؤ وانما بما يضمن اختبار صحة الفرض او خطئه .

ان استراتيجية الاختبار تتطلب اتجاها موضوعيا خلوا من العواطف نحو الحياة ، وهذا الاتجاه يبدو جزءا لا يتجزا من مسلمات كيلى الاساسية . فاذا كان الغرض من الحياة ان تتنبا بالخبرة على نحو صحيح وان نضبطها والخبر مؤلفة من وقائع توجد على نحو مستقل عنك ، فانه ينبغى ان تقضى كل وقتك وانت تختبر توقعاتك ، لكى يتسق نسقك التصورى مع الوقائع والحقيقة .

ويتشكك برونر (١٩٥٦) فى موقف كيلى وصحته ، يقول : « اننى لا اعتقد انه حين يغضب بعض الناس او يحبون او يلهون ، فانهم لن يلقوا بالا على الاطلاق ، ولن يهتموا بنسقهم التصورى كله » . وينقد برونر عدم رغبة كيلى فى التسليم بان للانفعالات تاثيرا فى افعالنا وتوقعاتنا .

الوقائع والتوقعات المدركة والثقافة :

ان الوقائع التى تقوم عليها الحقائق لا تحدث وعليها اسماء تحـــدد ولاءاتها وتميز ارتباطاتها بمؤسسة معينة او قسم خاص.وهكذا فانه لا يوجد

وقائع بيولوجية أو سيكولوجية ، لان الواقعة الواحدة يمكن تفسيرها بعدد من الطرق . فالتصور أو التكوين البيولوجى أو السيكولوجى أو السوسيولوجى وفقا لما يراه كيلى يمكن أن يلائم اى واقعة تتضمن سلوكا انسانيا . وكمثال يوضح هذه النقطة فلننظر الى واقعة انسان يضغط على زر فى آلة للاقتراع أو الانتخاب . هـذه الواقعة فى ذاتها ليست بيولوجيـة ولا سيكولوجية ولا سوسيولوجية ولا سياسية ولا اقتصادية . غير أنه يمكن تفسيرها بواسطة تصورات أو تكوينات تندرج تحت اى من هذه العلوم . وكل منها يسـتخدم تكوينات لها مدى محدود من الملاءمة .

وتفسير واقعة على أساس بيولوجى ليس له معنى اعمق ولا أدق من تفسيرها على أساس سيكولوجى . ومثل هذا يقال عن التفسير السيكولوجى اذا قورن بتفسير على أساس آخر . ذلك أن المصطلحات تتوقف على اهتمام الملاحظ واغراضه ، وفضلا عن ذلك فان مجموعة من التكوينات البيولوجية لا تفسر ما هو سيكولوجى على نحو افضل من تفسير التكوينات السيكولوجية لما هو بيولوجى . ولقد اختار كيلى فى دراسته للشخصية أن يقدم لنا نظرية سيكولوجية تستخدم تكوينات سيكولوجية لها مدى من الملاءمة محدود بما يتناوله علم النفس .

وقد لاحظ كيلى أن هناك ثلاثة تفسيرات عامة لمفهوم ثقافة Culture فالبعض يستخدم المصطلح ليشير الى مجموعة من الأفراد الذين نشئوا فى نفس المجتمع ، ولهم بيئات متشابهة ، وبالتالى يسلكون سلوكا متشابها . وهذه النظرة تعنى أن البيئة شديدة القوة والتأثير فى تحديد الشخصية والتأثير فى الفرد . والمدخل البيئى للثقافة تمثله عادة النظريات السلوكية فى التعلم مثل نظرية دولارد وميلر .

والتفسير الثانى ينظر الى الثقافة على أساس التشابه فى التوقعات بين أعضاء الجماعة . وهذه التوقعـات مثيرات متميزة تعمل كأمارات فى تحديد الاستجابات وزمان وقوعها . فتوقع الجماعة أن نتناول الطعام من الاناء الى الفم باستخدام الشوكة أو الملعقة امارة لتحديد سلوك تناول الطعام وآدابه . وهذا أيضا تفسير بيئى للثقافة طالما أن توقعات الآخرين ترى على أنها ضوابط للسلوك .

والتفسير الثالث يعتبر نواحى التشابه الثقافى بين الأشخاص تشابها فى التوقعات المدركة . وهنا ينصرف التأكيد على مدركات الفرد بدلا من انصرافه الى البيئة . وهذا التفسير يتسق مع المسلمة الأساسية لكيلى التى تفترض أن عمليات الشخص النفسية تتخذ مساراتها وقنواتها على أساس الطريقة التى نتوقع بها الأحداث والوقائع والتشابه الثقافى لا يعزى الى التشابه فى النظرة فحسب ، بل يتحدد أيضا بمجموعة مشتركة من التوقعات أو الاستباقات تتعلق بتوقعات الآخرين .

ونحن نعرف من لازمة كيلى الخاصة بالفردية أن الاشخاص يختلف الواحد منهم عن الآخر فى نسقه التصورى . ولكن هذا النسق لو اختلف عند فرد اختلافا تاما عما لدى جميع الأشخاص الآخرين لكان معنى ذلك عدم امكانية وجود تواصل بين الناس وعدم قيام المجتمع ، اى اننا لا يمكن أن نتنبأ بوجود مجتمع أو بوجود علاقة انسجام ووئام بين فردين لو اعتمدنا على لازمة الفردية . ومن هنا نحن فى حاجة الى لازمتين اضافيتين لكى نفسر نواحى التشابه بين الناس. ان اختلاف الناس الواحد عن الآخر فى تصورهم للوقائع لا يعنى أن نسق الفرد يختلف اختلافا تاما عن نسق كل فرد آخر . ذلك أن التداخل بين التكوينات الشخصية أو التصورات يحدث كما يحدث عند أصحاب نظريات الشخصية الذين يستخدمون بعض المفاهيم المشتركة. وهذا يتضح فى لازمة الاشتراكية Commonality Corollary التى تقرر أنه « بمقدار ما يستخدم شخص تصورا لخبرة يشابه ما يستخدمه آخر ، تتشابه عملياته النفسية مع العمليات النفسية لدى الشخص الآخر » (1955, p. 90) أن كيلى يؤكد على أنه ليست الخبرات المشتركة هى التى تحدث التشابه بين الناس ، وانما تفسيرهم للخبرات بطريقة مشابهة . فقد يتاح لفردين خبرات فيزيقية واحدة ولكن التفسير يختلف . وبالمثل من المعقول أن ينتج نسقان تصوريان متشابهان عن مجموعتين مختلفتين من الخبرات الفيزيقية ، اى أن يسلك شخصان على نفس النحو مع أن كلا منهما قد تعرض لمثيرات ظاهرية مختلفة . ان أساس الفعل المتشابه يكمن فى تشابه تصورنا للوقائع وليس فى تماثلها .

ولكن اشتراكية التكوينات التى تستتبع تشابها فى العمليات النفسية

لا تكفى لتفسير وجود الثقافة او حتى لفهم شخص آخر . ان تكوين علاقات بناءة مع الآخرين لا يتطلب ان ننظر الى العالم كما ينظرون تماما ، ولكن ينبغى أن نقدر على رؤية طريقتهم فى النظر الى العالم وكيفيتها . وحين يتبع سلوكنا ادراكنا لكيفية تفكير الآخرين ، فاننا عندئذ نقوم بدور فى علاقة مع الآخرين . وهــذا يجد تعبيرا رسميا فى لازمته الاجتماعيــة Sociality Corollary والتى تقرر « بمقدار ما يفسر الشخص التصور لدى الشخص الآخر بمقدار امكانية قيامه بدور فى عملية اجتماعية تتضمن الشخص الآخر ». (1955, p. 95)

والدور هو « عملية نفسية تقوم على ماينشئه لاعب الدور من جوانب الاتساق التصورية لأولئك الذين يحاول ان يشاركهم فى مشروع اجتماعى». (1955, p. 97) ان الادوار التى نقــوم بها فى الاتصـــال بالآخـــرين ليست مجرد اقنعة نضعها ونخلعها كلما جاءت فرصة مناسبة . ان هذه التكوينات او التصورات التى من خلالها نرى علاقتنا بتوقعـــات الآخرين وتفكيرهم تشكل جوهر شخصيتنا (W.B. Arndt, Jr, p.p. 230- 232)

والدور هو نمط من السلوك يتبع فهم الشخص لكيفية تفكير الآخرين الذين يرتبطون به فى عمله . اى ان لعب الدور هو العمل بما يتفق مـــع توقعات الآخرين ، ولكى يلعب الفرد دوره ينبغى عليه ان يفهم علـــى الأقل نسق تكوينات الشخص ، فاذا اراد فرد ان يلعب دور الزوج بالنسبة لزوجته فينبغى ان يفهم توقعاتها القائمة على تصور الزوج ثم يعمل على هذا الأساس . ويطلق كيلى على فهمنا لوجهة نظــر الشخص الآخــر وتوقعاته تصـــور الدور a role Construct ، اما كيف يعمل فى ضوء هذا الفهم فيسمى دورا .

ان هذه هى فكرة كيلى الأساسية فى السلوك الاجتماعى . فهو يقرر اننا لو أردنا أن ننغمس فى تفاعلات بناءة مع الآخرين ، فينبغى اولا ان نحدد كيف يرى الآخرون الأشياء ثم ندخل مدركاتهم فى الاعتبار حين نتعامل معهم . وأعمق نوع من التفاعلات الاجتماعية هو ذلك الذى يحدث حين يكون لعب الدور متبـــادلا .

الادراك والمعرفة :

ان موقف كيلى من طبيعة الواقع واضح فى عبارته التى يقـــــول فيها : « نحن نفترض ان العالم فى الحقيقة موجود وأن الانسان يقترب تدريجيا من فهمه » (1955, p. 6) والواقع ليس وهما وسرابا ، وليس مختلقا عن خيال الانسان ، وليس ببساطة مايوافق الانسان على كينونته ويفهم الانسان الواقع حين ينجح فى التوصل الى أنساق تصورية افضل يطبقها عليه . ان الكون ليس استاتيكيا ، انه يتغير دائما فى علاقته بذاته . والكون موجود ومستمر فى الوجود ، وهكذا يمكن قياسه على اساس البعد الزمنى والى حد ما ، لدى كل فرد تصوره عن الواقع يستند الـى توقعه للأحداث الواقعية ، ولكن جميع التصورات تقاربات للكون الحقيقى وليست نسخة منه .

ونحن ندرك عالم الحقائق من خلال التصورات التى وضعناها للتنبـؤ بالوقائع فى الكون . ولم يكن كيلى فى حاجة الى ان يقدم لنا تفسيرا خاصا للادراك لانه قد تحقق على شكل تصور . ويمكن القول أن نظرية كيلى كلها نظرية فى الادراك بالفعل . فحين يدرك الفرد فانه يطبق تصـــوراته على الاحداث فى الواقع . والاسقاط ليس حالة خاصة من حالات الادراك ، لان الواقع أن الادراك كله يتضمن اسقاطا ، لان الادراك يقوم على تصور الانسان للواقع .

وكيلى لا يعالج التعلم كمجموعة خاصة من الوقائع شأنه فى ذلك شأن الادراك . وانما هو يتصوره على أساس انه تعديلات فى التصـــورات أو التكوينات الشخصية . ونحن نعرف من مسلمته الأساسية أن هدف عملياتنا النفسية هو أن نتنبأ بالوقائع ونستبقها . ويترتب على ذلك أن الشخص قد يغير تشكيله للوقائع ليحسن ويطور صدق توقعاته . ويشتق من المســلمة الأساسية لازمة الخبرة ونصها : « ان نسق الشخص التصورى يتغير بتغير تفسيره للوقائع المتكررة » . وهكذا يعرف كيلى التعلم باعتباره تعديلا فى السلوك ناتجا عن الخبرة . ولما كان سلوك الفرد يتحدد بنسقه التكوينى أو التصورى فالتعلم تعديل لنسق الشخص التصورى الذى يرجع الى تفسيره

للجوانب المتكررة من الوقائع والمقصد النهائى لهذا النسق التكوينى هو أنه يمكن الشخص من ان يتنبأ بالوقائع على نحو صحيح . واذا كان النسق التصورى لا يحقق هذا المقصد ، فقد يغيره الشخص (أى يتعلم) باعادة تفسير الوقائع المتكررة . واذا ثبت صدق نسق الفرد التكوينى لاتفاقه ومطابقته للتوقعات والنتائج التى يدركها فانه من غير المتوقع أن يغيره .

وفى ضوء مضمون لازمة الخبرة أصبحت المفاهيم التى ترتبط بالتعلم فى نظريات أخرى غير ضرورية . وهكذا يحل التوقع والتنبؤ الصادق محل مفاهيم كالرضا والمكافأة والتعزيز واللذة وخفض الحافز . وفى ضوء هذه الفكرة لم يعد المعالج يستطيع وكذلك الموجه النفسى أن يتجاهل النسق التصورى الذى كونه الفرد ، لاننا من خلال تفسيرنا الصحيح لنسقه نستطيع أن نفهم الوقائع التى سوف تؤدى الى التثبت من مصداقية تصور ذلك الفرد . وقد يرفض العميل بغباء أن يتنازل عن التصورات التى عرضها المعالج على أنها مازوكية . لماذا يبحث العميل عن الألم ، ولماذا لا يغير فهمه لما ينفعل من سلوكه ؟ الاجابة ببساطة لان التصورات أو التكوينات المرتبطة بالسلوك المازوكى تتيح له ان يتنبأ على نحو صحيح بالوقائع ، اى أن هذه التصورات أثبتت صحتها مرارا وانه قد تم تعلمها .

ونحن لا نغير انساقنا التصورية فى ضوء الخبرة فحسب . وقد لا يقتنع المنظر بتوصله الى تفسير كيفية حدوث التعلم اذ ينبغى عليه ان يحدد الشروط التى فى ظلها لا يحدث التعلم . اى اننا لا بد أن نضع حدودا على لازمة الخبرة . ولازمة التعديل تعالج هذه النقطة ونصها ، أن التغير فى نسق الفرد التصورى محدود بقابلية التصورات للاختراق تلك التى تقع المتغيرات فى مدى ملاءمتها . ان التصور عرضة للتغير بالخبرة بمقدار قابليته للاختراق. والتصور قابل للاختراق اذا أمكن ان يحل محله تصور آخر يتغير بسهولة . أما التصور الذى لا يقبل الاختراق فلا يمكن ان يحل محله تصور آخر بسهولة.

وعلى سبيل المثال تصور الفرد عن الناس بأنهم طيبون وسيئون قد يتحدد على أساس افراد معينين فالناس الطيبون هم أصدقاؤه المقربون والناس السيئون هم جميع الناس خارج دائرة الصداقة . ان هذا الفرد ليس متفتحا للخبرة ، وذلك لان أحد قطبى التصور هذا لا يمكن اختراقه .

وهكذا اذا التقى هذا الفرد بفرد آخر يتميز بمجموعة من الخصائص التى تدعو الى الاعجاب فانه يصعب عليه أن يتمثل هذا الجديد فى تصوره لانه لا يمكن اختراقه .

أى ان هناك قيدا آخر على لازمة الخبرة بواسطة لازمة التعديل . وهو مدى ملاءمة التصور موضع النظر . ذلك ان الخبرة لا تفعل شيئا لتعديل التصور اذا حدثت خارج مدى ملاءمة هذا التصور . فاذا لم يدرج الفرد موضوعيته تحت تصور الناس طيبون — سيئون فان خبراته بالموضوعية لن تغير هذا التصور . وهكذا فان التصور يتحدد بقابليته للاختراق ، وبكون الخبرات التى تجلب له التغيير فى مدى ملاءمة الموضوع .

وواضح انه كلما زاد عدد التصورات أو التكوينات القابلة للاختراق لدى الشخص كان فى موقف افضل من حيث قدرته على توسعة وتحديد نسقه التصورى عمن يقل عنده هذا النوع من التصورات . ويمكن ان نصف الشخص الأول بأنه متفتح العقل ، ونصف الثانى بأنه مغلق العقل .

أن الفكرة الأساسية عند كيلى هى أن هناك وقائع حقيقية ، وأن العمل الأساسى للحياة هو التنبؤ بها على نحو صحيح وضبطها . ويترتب على ذلك أن التكوينات تكون مفيدة فحسب حين تسمح بالتنبؤ الصحيح بالوقائع . اما حين تحول دون التنبؤ الصحيح فانها تتغير ثم تختبر التنبؤات الجديدة .

وحين يحدث قصور فى الاتساق، أى انه حين تناقض الوقائع التوقعات يخبر الشخص القلق . وتعريف القلق هو : « الوعى بأن الوقائع التى تواجه الفرد تقع خارج مدى ملاءمة نسقه التصورى او التكوينى » ومن هذا التعريف يتضح أن محتوى التوقعات والأحداث ليس له علاقة باثارة القلق ، وانما عدم الملاءمة بينهما او عدم الاتساق هو الذى يؤدى الى القلق .

وقد نتصور أن القلق ينتج عن التعارضات ذات المغزى والكبيرة بين الوقائع والتوقعات . ولكن الحقيقة ان كيلى يرى ان اى تعارض وتضارب بين التوقع وما يحدث يؤدى الى القلق حتى ولو كان خطأ فى مسألة جمع .

ولا يوجد فى نظرية كيلى ما يساعدنا على فهم الملل وهو حالة من حالات عدم الراحة .

وليس فى نظرية كيلى غرائز او دفاعات أو عوامل شعورية تتدخل فى عملية المحاولة والخطأ التى يحاول بها الفرد أن يرى العالم على نحو صحيح. والجوانب الوحيدة التى تتدخل فى المحاولة والخطأ التى يحاول بها الفرد ان يعرف العالم ويراه على نحو صحيح . هى الشعور بالاثم guilt والكراهية hoslility والكراهية هى « الجهد المستمر لانتزاع شاهد على مصداقية نوع من التنبؤ الاجتماعى الذى ادركه الفرد على انه خطأ » . والشعور بالاثم هو « الوعى بارتحال الذات عن البنية الأساسية لدورها » . أى هو الشعور الذى نشعر به حين نفعل بما يتناقض مع التنبؤات بسلوكنا. وهذان المفهومان غير طبيعيين فى النظرية ليس بسبب صعوبة ادراك معناهما ، وانما لانه يصعب ربطهما ببنية النظرية. انهما يطفوان ضد تيار بنية نظرية متسقة تتغير فيها التكوينات عندما لا تتيح تنبؤا صحيحا. ولا يوجد فى موضع ما من النظرية باستثناء فكرة الكراهية طريقة تمكننا من أن نتوقع ان شخصا سوف يحتفظ بتكوين غير صادق عندما يواجه شاهدا على عدم مصداقيته . ولا يوجد موضع ما فى النظرية باستثناء فكرة الشعور بالاثم يشير الى افكار مثل الذات والى وجودها مستقلة عن النسق التكوينى للفرد . ويبدو كما لو أن كيلى اراد بتقديم هذين المفهومين ان يقدم بعض التنازلات لطرق التفكير الشائعة والطبيعية فى النظريات التى تتبنى نماذج الحياة باعتبارها عملية غير عقلانية.

مستويات الوعى المعرفى :

ان ما هو شعورى فى سيكولوجية كيلى عن التصورات او التكوينات الشخصية هو ما يعبر عنه رمزيا باستخدام الكلمات . وتتفاوت تصوراتنا بالدرجة التى نستطيع بها أن نصفها وصفا سليما باستخدام الكلمات ويترتب على هذا التفاوت وجود مستويات للشعور أو للوعى المعرفى . فالتعريف التام لبعض التصورات ممكن ؛ اما بالنسبة للتصورات الأخرى فاننا نستطيع فقط ان نستحضر كلمة حين نعبر عنها رمزيا . وهناك بعض الوقائع التى تقع خارج مدى ملاءمة تصوراتنا . وهناك أوقات ينبغى ان نقول فيها « ليس لدى

الكلمات التى أعبر بها عن أفكارى وأصفها ».وهكذا يمكن أن نرتب تصوراتنا على أساس مقياس متدرج للوعى المعرفى .

وهنا يبرز كيلى بعض أخطار الاتجاه الدوجماطيقى الناموسى الذى يطبق على الأفراد . فالعميل الذى يراجع معالجا له هذا التوجه الناموسى قد لا يفصح له عن نزعات أو عقد معينة ، ولكن الأخير قد يفترض توافرها وأن العميل لا يعبر عنها لفظيا لانها موجودة فى لا شعوره . ماذا يحدث حين لا يرى العميل ذات يوم أن سلوكه عدائى ، بينما تكون عداوته واضحة للمعالج ؟ وفى اليوم التالى يفسر كثير من سلوكه على انه عدائى ؟ يجيب كيلى أن العميل لا يفسر العالم كما يفسره المعالج ، وانما يفسره على نحو مختلف. وعمل المعالج لا أن يكشف ما يعتقد بوجوده من قبل بل أن يحاول ان يفهم النسق الذى انشأه العميل.والآن وبعد عدة جلسات حين يفسر العميل سلوكه كما يفسره المعالج ، فان كيلى لا يدعى أن كل ما كان مكبوتا قد افرج عنه . ان هذا لا يعنى بالتأيد أن اللاشعور مفهوم غير أساسى فى الشخصية ، وانما يعنى انه ينبغى استحضاره بحرص وباحترام للفردية ولمصداقية العميل .

ويقترح كيلى عدم القدرة على التعبير عن بعض الوقائع رمزيا . وهى التكوينات قبل اللفظية والمغمورة والمعلقة . والتكوينات او التصورات قبل اللفظية تتكون قبل اكتساب اللغة ولا يعبر عنها رمزيا عادة لان الكلمات لم تكن ميسرة عند تكوينها . فاذا عبر عنها رمزيا فقد تكون هذه الكلمات قشرة لفظية . ومن الفروض المأمونة أن تعتبر العلاقة الرئيسية الموجودة بين الطفل والراشد قبل اكتساب اللغة علاقة اتكال وان هذه التكوينات قبل اللفظية تشير الى هذه العلاقات الاتكالية .

والغمر أو الحجب طريقة اخرى تمنع التكوين من الوصول الى الوعى المعرفى . فيقال أن احد طرفى التصور او التكوين مغمور عندما يكون اقل توافرا للترميز عن الطرف الآخر . ولنأخذ الفرد الذى يرى أن كل الناس كانوا دائما طيبين معه . أن الطرف الآخر للتكوين — وهو عدم طيبة الآخرين معه والذى نعرف بوجوده لان التكوين ذا قطبين — ليس ميسرا له . انه مغمور محجوب . وعمل المعالج أن ينشىء مع العميل بديلا من البدائل التى

تلائم الطرف المغمور. ان عليهما أن يملآ معا الفراغ فى العبارة : « وكل انسان كان طيبا معى دائما ما عدا ... »

وهناك طريقة أخرى تؤدى الى عدم التعبير الرمزى عن التصور أو التكوين وذلك حين ينبذ هذا التصور لعدم اتساقه مع النسق الكلى الذى يستخدمه الشخص . ان هذا التصور قد تعرض للتعليق . وكمثال للتعليق يقدم لنا كيلى حالة المريض الذى خبر مشكلات التنافس فى البيت ، والذى كشف أثناء العلاج عن عودة خوفه الشديد من الماء . وهو يذكر بوضوح الظروف التى اكتسب فيها هذا الخوف . فهو كطفل كاد أن يغرق فى برميل من الماء . قد يكون هذا التفسير للخوف المرضى من الماء كافيا ومرضيا لبعض المعالجين كدولارد وميلر ، الا أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لكيلى . وبعد مزيد من الاستقصاء ، تذكر المريض انه قبيل واقعة برميل ماء المطر كان قد أوقع أخاه الأصغر وطرحه أرضا ، بينما قالت أمه أنه لو الحق بأخيه اذى فان الله سوف يعاقبه جزاء ما يصنع ، وكاستجابة لتهديد الأم ضرب المريض أخاه . وبعد أن سقط فى برميل الماء حدث تعليق لتكوين أو تصور « التنافس بين الاخوة » ومع التنافس فى الموقف الأسرى فى الوقت الحالى ظهر الخوف من الماء على السطح كأحد عناصر تكوين التنافس .
(W.B. Arndt, Jr. p. 340).

العلاج النفسى :

وفقا لما يراه كيلى،المرضى العصابيون أشبه ما يكون بالعلماء السيئين، ذلك أنهم يستمرون فى القيام بنفس التنبؤات فى غيبة الخبرات التى تثبت صدقها . وبعبارة أخرى فان النسق التصورى للعصابى لا ينبىء على نحو سليم بالوقائع المستقبلية ، وبالتالى فانه لا يمكنه أن يتجنب القلق . ان ما يحتاجه هو نسق من التصورات أو التكوينات ملائم . والعلاج النفسى يستهدف مساعدة هذا الشخص على ان يطور نسقه التصورى . وهو يتيح للفرد الفرصة ليفحص نسقه التصورى ويعيد صياغته . وبعبارة أخرى فان العلاج النفسى يدرب الناس لكي يصبحوا علماء على نحو أفضل .

ولما كان من الواجب أن يتناول العلاج النفسى تصـــورات العميل أو تكويناته ، فان على المعالج ان يكتشف أولا هذه التصـورات . ولقد وضع كيلى اختبار ذخيرة تصورات الدور لكى يحدد التصـورات أو التكوينات التى يستخدمها العميل لكى يلائم بين الأشـخاص المختلفين وبين حياته . ومن الصيغ الشـائعة للاختبار ما هو وارد فيما يلى . وعلى القارىء ان يجيب عن الاختبار بنفسه لكى يتوصل الى معرفة نسقه التصورى .

والخطوة الأولى فى تطبيق هذا الاختبار ان نطلب من العميل أن يملاء الجزء المرقم من ١ — ٢٢ فى ورقة الاجابة بأسماء ٢٢ شخصـا يتصلون بحياته وذلك فى الفراغات بجوار الجدول . وبعد ان يسجل العميل الاسماء يطلب منه ان يقارن بينها فى ثلاثيات . والاسماء الثلاثة التى عليه أن يقارن بينها مبينة بالدوائر فى الشكل (١٥ — ١) وعلى سبيل المثال فان المقارنة الأولى تكون بين الاسماء التى تظهر فى المسافات ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ . والمقارنة الثانية بين الأفراد الذين تظهر اسماؤهم فى المسافات أو الخانات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ . وهكذا . ويطلب من العميل ان يختار الكلمة أو العبـارة التى تصف كيف يتشــــابه اثنان من كل ثلاثى ، وكيف يختلف الثالث عن الاثنين الآخرين . والطريقة التى يتشابه بها شخصان تسجل اسفل كلمة تكوين (تصــــور) ، والطريقة التى يختلفان فيها عن الشـخص الثالث تسجل اسفل العنـــــوان (المقابل) Contrast ويوضع الحرف (×) فى دائرة الشخصين المتشابهين وتترك دائرة الشـخص المختلف فارغة . والشـكل (١٥ — ٢) يوضح ورقة اجابة سجلت فيها اجابة جزئية .

رقم المسافة الخالية : —

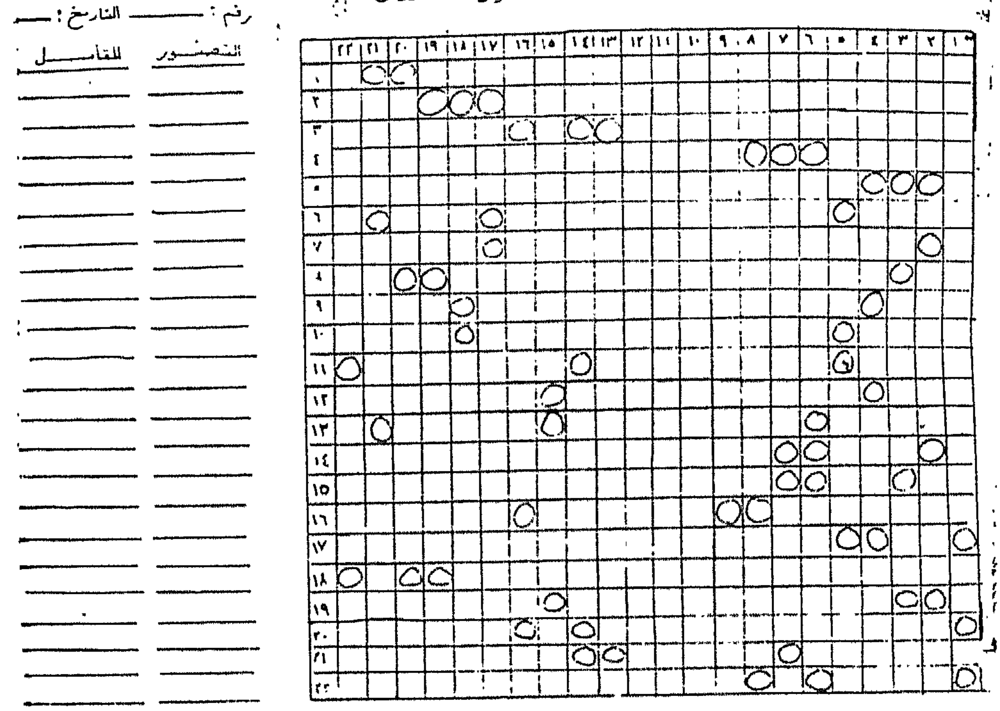
١ — اسم العميل الذى يجيب عن الاختبار .

٢ — الاسم الأول للأم أو لزوجة الأب .

٣ — الاسم الأول للأب أو لزوج الأم .

٤ — الأخ الأقرب اليك فى العمر ، واذا لم يوجد فاسم صبى عمره قريب من عمرك أقرب ما يكون للأخ .

شكل (١٥ ـ ١) ورقة اجابة اختبار كيلى لذخيرة تصورات الدور



٥ ـ الأخت الأقرب اليك فى العمر ، واذا لم توجد فبنت اقرب اليك فى العمر واشبه ما تكون بأختك .

٦ ـ زوجتك أو زوجك ، واذا لم تكن متزوجا فاقرب صديقة او صديق من الجنس الآخر .

٧ ـ أقرب صديق من الجنس الآخر بعد الشخص الوارد فى البند ٦ .

٨ ـ أقرب صديق لك من نفس الجنس .

٩ ـ شخص كان أقرب صديق لك ولم يعد كذلك .

١٠ ـ قائد دينى على سبيل المثال امام مسجد او واعظ انت على استعداد أن تناقش معه مشاعرك فيما يتصل بالدين .

١١ — طبيبك .

١٢ — الجار الذى تعرفه على افضل نحو .

١٣ — شخص تعرفت الآن انه لا يحبك .

١٤ — شخص تشعر بالشفقة نحوه وتود لو تساعده .

١٥ — شخص تشعر معه انك غير مرتاح الى اقصى حد .

١٦ — شخص تعرفت عليه من مدة قصيرة تود لو تعرفه على نحو افضل .

١٧ — المعلم الذى اثر فيك الى اقصى حد عندما كنت فى سن المراهقة .

١٨ — المعلم الذى اختلفت معه اكبر اختلاف .

١٩ — الموظف أو المشرف الذى عملت معه او تحت رئاسته بينما كنت تشعر بتعرضك للضغوط .

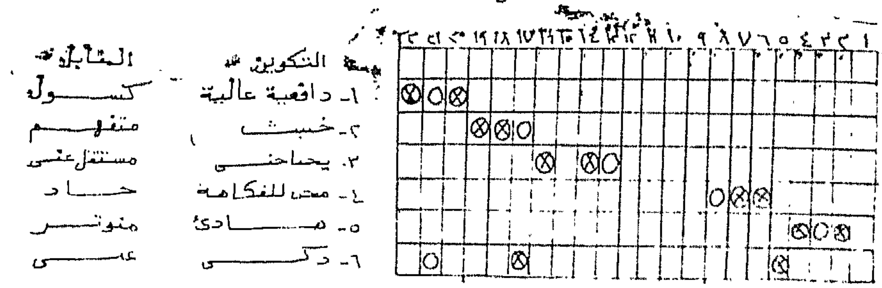
٢٠ — انجح شخص تعرفه شخصيا .

٢١ — اسعد شخص تعرفه شخصيا .

٢٢ — افضل الناس خلقا تعرفه شخصيا .

ويمكن أن نرى من الشكل (١٥ — ٢) ان العميل شعر بأن الفردين ٢٠ ، ٢٢ لديهما دافعية عالية ولكن الفرد ٢١ كان كسولا ؛ وان الفردين ١٨ ، ١٩ خبيثين بينما الفرد ١٧ كان متفهما وهكذا .

شكل (١٥-٢)



مثال لورقة اجابة اختبار REP وقد اجاب المفحوص اجابة جزئية عنه والمطلوب منه القيام باثنتين وعشرين مقارنة بدلا من الست الموضحة .

وبتحليل أداء العميل على الاختبار يستطيع المعالج أن يجيب عن عدد من الاسئلة عن نسق العميل التصورى . وعلى سبيل المثال : ما هى التصورات أو التكوينات المستخدمة ؟ وما هى الجوانب التى يؤكد عليها عند الناس ؟ وهل يؤكد على الجوانب الجسمية أو الخصائص الاجتماعية ؟ ومن هم الأشخاص الذين أدركوا على أنهم متشابهين ومن هم المختلفون عن العميل ؟ وهل يتوافر لدى العميل عدد كبير من التصورات أم أن لديه عددا قليلا منها ؟

ما مدى صدق هذا الاختبار ؟ ان الاجابة تعتمد على من تسأل . ان هذا الاختبار ليس الا اداة واحدة استخدمها كيلى لكى يفهم النسق التصورى لعملائه . وكانت الأداة الأخرى التى استخدمها أن يسأل العملاء عن أنفسهم . ولقد تبنى كيلى ما سماه اتجاها ساذجا يتسم بسرعة التصديق لعملائه . وبعبارة اخرى لقد شعر ان المعلومات التى يزودونه بها عن أنفسهم يمكن الوثوق بها . « فاذا لم نكن تعرف ما هو خطأ فى العميل ، اسأله ، فقد يخبرك » .

ومما يتسق مع اتجاهه هذا ، ان كيلى كثيرا ما كان يطلب من عملائه أن يكتبوا وصفا مختصرا لانفسهم وذلك فى ضوء تعليمات سنشير اليها عند الحديث عن طرق البحث . والهدف من هذا الوصف المختصر أن يساعد

المعالج على أن يرى كيف يفسر العملاء أنفسهم وتفاعلاتهم مع العالم ومع غيرهم من الناس .

علاج الدور الثابت Fixed - role Therapy

لقد اعتقد كيلى أن احد الطرق التى تؤدى بالعملاء الى استكشاف الطرق المختلفة لتفسير الأشياء أن نطلب منهم أن يتظاهروا بأنهم اناس مختلفون . وفى هذا النوع من العلاج — علاج الدور الثابت — يقدم المعالج للعميل وصفا مختصرا لشخصية ويطلب منه أن يمثلها كما يقوم الممثل بدور فى مسرحية . ولكى ييسر عليه تنمية التصورات الجديدة ، فان الشخصية التى يطلب من العميل أن يلعبها مختلفة تماما عن شخصيته . ويطلب كيلى من العميل أن يجرب هذه الشخصية الجديدة كما لو انه سيرتدى حلة جديدة . وفى ظل هذه الظروف يصبح المعالج الممثل « السنيد » ولقد بين كيلى أن واجب المعالج أن يقوى ويسند العميل أو الممثل الذى يتعثر باستمرار فى السطور التى ينطق بها وحين يخلط فى دوره . (1955, p. 399)

ويلعب العميل دوره لمدة اسبوعين تقريبا ويعيش خلالهما كما لو كان الشخص الذى يلعب دوره فى المسرحية . وخلال هذه الفترة يستجيب الممثل للعميل كما لو كان شريكه ويقدم له تشجيعا وخبرات تثبت صدق التصورات الجديدة التى يقوم العميل بتجريبها . وينبغى أن يقدم المعالج للعميل تشجيعا كافيا ليتغلب على التهديد المتضمن فى التخلى عن تكويناته او تصوراته الجوهرية وتنمية تصورات جديدة .

« ان ما أقوله هو : « ليس المهم ما يكون عليه الشخص . وانما ما يجرؤ وما يغامر على أن يعمله من نفسه . ولكى يقفز هذه القفزة لا بد أن يعمل اكثر من مجرد الافصاح عن نفسه . ينبغى أن يخاطر بقدر معين من الخلط ، ثم بمجرد أن يفعل هذا ان يلقى بنظرة على نوع مختلف من ... . فانه فى حاجة الى أن يجد طريقة للتغلب على لحظة التهديد التى تسلمه . لا هذه هى اللحظة التى يتساءل فيها حقيقة عما كان عليه وعما ... .
(Kelly 1955, p. 165)

ونحن نرى أن كيلى يحافظ على نظريته المعرفية فى العلاج النفسى .. فالمشكلات الانفعالية مشكلات ادراكية . ولكى يحل المشكلة الادراكية ، ينبغى أن يكون الانسان بحيث يستطيع أن ينظر الى الأشياء نظــرة مختلفة . ان العلاج النفسى عملية يشجع بواسطتها العميل على أن ينظر الى الأشـــياء نظرة مختلفة بينما يحاول المعالج أن يقلل من القلق وهو يعمل هذا .

ان كيلى يقترح علينا أن العصابيين قد فقدوا القدرة على التظاهر وأن المعالج يحاول أن يساعدهم على استعادة هذه القدرة . ان الافراد الأصحاء يتظاهرون طول الوقت . ويرى كيلى أن العلماء النابهين وكتـــاب الرواية والقصة المبدعون يفعلون نفس الشىء ، انهم يتوهمون .

البحوث العلمية والطرق :

ان الطريقة الرئيسية للملاحظة عند كيلى طريقة مباشرة وتتم بالحديث مع المفحوص خلال المقابلة الشخصية . وهو يوصى بما يأتى : « اذا لم تكن تعرف مشكلة العميل فسله عنها فقد يخبر لكبما تريد » (1955, p. 201) وباستخدام طريقة المقـــابلة جمع بيانات قيمة من مفحوصين وعمـــلاء كانوا يترددون على مركز جامعى للارشـــاد النفسى .

واتجاه كيلى الذى يتسم بسرعة التصديق لما يقوله المفحوصون لا يعنى أن رواياتهم لحدث أو واقعة سوف تتفق دائما مع الطريقة التى يرى بهـــا الآخرون نفس الحدث او الواقعة . ذلك أن الروايات عن نفس الواقعة كثيرا ما تختلف باختلاف الراوى . وقد يدلى الفرد بأكاذيب مقصودة . وسرعة التصديق هذه معناها ان المرأ ينبغى عليه أن يحترم ما يقـــوله المفحوص . وحين تختلف روايته أو تقريره عن واقعة وعما حدث فعلا ؛ فلا ينبغى أن نستبعد أقواله ؛ وانما ينبغى أن نفحص الروايتين جنبا الى جنب .

ولقد وجد كيلى أن من المفيد بالاضافة الى استخدام المقابلة الشخصية أن يطلب من عملائه أن يكتبوا وصفا مجملا لخلقهم . والعميل حين يفعل هذا يشجع على تجنب السرد الزمنى وتجنب كتـــابة سلسلة من الاعترافات أو مجموعة من الشكاوى . وتتحدد طبيعة الوصف المحتملة فى ضوء ما يزود به

العميل من تعليمات وسوف نلاحظ ان هذه العمليات تحث على الموضـوعية وتقلل من التهديد وتتيح للعميل حرية التعبير وهى على النحو الاتى : —

« اريد منك ان تكتب وصفا مختصرا لخلق فلان كما لو كان الشخصية الرئيسية فى مسرحية . اكتبها كما لو أنها مكتوبة من قبل صديق عرفه معرفة وثيقة وبتعاطف شديد،معرفة افضل من اى شخص آخر كان يمكن أن يعرفه حقيقة . تأكد من انك تكتب الوصف باستخدام ضمير الغائب وعلى سـبيل المثال ابدأ بالقول « فلان ...... » (1955, p. 323)

والهدف من هذا الوصف المختصر أن تعرف كيف يتصور الشخص ذلك الجزء من عالمه الذى ينبغى أن تكون علاقته به محددة .

ولكى يتوصل كيلى الى التصورات التى من خـلالها يرى المفحوص الآخرين وضع اختبارا سماه اختبار حصيلة تصورات الدور Role Construct Repertory TesT وهذا الاختبار من الناحية المنهجية ما هو الا اختبار على شاكلة اختبارات تكوين المفاهيم كذلك الذى وضعه فيجوتسكى Vigotsky ولكنه بدلا من أن يطلب من المفحوص ان يصنف الأشكال يطلب منه ان يصنف الناس ، فيعرض عليه ما بين ١٥ ، ٢٠ مجموعة من الأسماء تتألف كل واحدة منها من ثلاثة أسماء ، ويطلب منه ان يحدد نواحى التشـابه بين اثنين منهم وكيف يختلفـان عن الثالث . وهكذا فبالنسـبة لمجموعة الأم — الأخت — الخطيب — قد تستجيب المفحوصة قائلة : ان الأم والأخت تتشابهان من حيث أنهما تبالغان فى النقد ، ويختلفان عن الخطيب الذى يتسم سلوكه بالود . وقد تستجيب لمجموعة الأم — الأب رئيسة العمل ، وترى ان الأم ورئيسة العمل عصبيتان ، اما الأب فهو متسامح هادىء . بأى الطرق ترى هـذه الفتاة الآخرين ؟ انها ترى أمها مبالغة فى النقد . وفى العصبية . وبصفة عامة انها ترى الآخرين اما كودودين أو ناقدين لاذعين . ومتسـامحين هادئين او متوترين . وبهذه الطريقة استطاع كيلى ان يحدد الاحداثيات التى يتحرك الفرد فى ضوئها فى علاقاته مع الآخرين .

ولقد انتقد كيلى الاختبار النفسى المقنن لان اختبارات الشخصية المقننة تقيس خصائص وفقا لرؤى واضع الاختبار . ان المفحوص مضطر لان يستجيب

تصور واضع الاختبار للشخصية ، ولا يستطيع الباحث بهذه الطريقة أن يتوصل ولا أن يتحقق من طريقة رؤية المفحوص للعالم ، وانما يستطيع أن يعرف من خلال ذلك مدى موافقته على تقييم واضعى الاختبار للعالم . ان هذه الطريقة لا تزودنا بمعلومات عن كيفية رؤية الشخص للأشياء ، وانما تزودنا بمعلومات عن مدى وفائه أو اقترابه من الشكل الذى يحدده الاختبار أو الطراز الذى يمثله . ان الاختبار غير الواضح البنية يتيح للشخص أن يعبر عن تصوره للعالم بدرجة أكبر من الاختبار المقنن وعليك أن تتذكر أن العميل الذى يجيب عن اختبار كيلى REP هو الذى يقدم تصوراته عن الآخرين ولا يجبر على الاختيار من قائمة من التصورات سبق تحديدها . وعند تحليل نتائج الاختبار REP ، لا تقارن استجابات العميل باستجابات الآخرين ، ولكن الذى يقارن هو تصوره لشخص بتصوره لآخر . وبهذا المعنى تكون الاختبارات الاسقاطية اكثر موضوعية من الاختبارات ذات البنية المحددة ، وذلك لان النوع الأول يزودنا بمعلومات اكثر عن موضوع الاختبار — أى عن العميل .

وعندما نظر كيلى الى الاختبارات النفسية فى الموقف الكلينيكى (1955, p.p. 204-206) اقترح خمس وظائف على الاختبار أن يؤديها وهى :

١ — ينبغى أن يحدد مشكلات العميل بألفاظ قابلة للاستخدام . فبالاضافة الى ارتباط الاختبار بمحك خارجى ، ينبغى أن تساعد نتائج الاختبار المعالج على أن يتناول على نحو فعال مشكلات العميل . ولم يكن كيلى مهتما بتصنيف العميل فى فئة طبنفسية تتسق مع مشكلته . ولما كان عمل المعالج ان يتناول مشكلات العميل ، فينبغى أن يكشف الاختبار عن معلومات دينامية لا استاتيكية .

٢ — ينبغى أن يحدد المسارات التى من الممكن للعميل ان يتحرك فيها ليتغير .

٣ — ينبغى أن يزودنا بفروض يمكن اختبارها فى الموقف الكلينيكى . ولا يتوقع من الاختبار أن يزودنا بكلمة نهائية أو بصورة كاملة عن حاضر العميل ومستقبله ؛ ولكن من المتوقع أن يساعد المعالج على أن يصوغ اجابات مقترحة لمشكلات العميل المميزة .

٤ — ينبغى ان يكون مفيدا فى الكشف عن امكانيات العميل التى تستخدم او يمكن ان تستخدم من قبله. وكثيرا ما تستخدم الاختبارات لتصف ما هو خطأ او ما ليس فى موضعه، بينما يتم تجاهل خصائص العميل الموجبة.

٥ — ينبغى ان يساعد فى التعرف على مشكلات العميل التى قد تغفل بغير ذلك . وكثير من العملاء أما غير مريدين او عاجزين عن الكشف عن نقاط الضعف . والاختبار المفيد ينبغى أن يحقق ذلك .

البحـــوث :

لقد بين بيرى عام ١٩٦١ Bieri باستخدام اختبـــار كيلى لذخـــيرة تصورات الدور ان الناس يختلفون فى عدد التصورات الثنائية المتاحة لهم . ولكن هذه الفروق فى التعقيد السيكولوجى والتمايز ليس لها اهمية بالنسبة لموقف كيلى . وقد يكون لها هذه الأهمية فى النظريات التى تهتم بالفــروق الفردية وبالشخصية الطرفية كما هو الحال فى علم النفس الوجودى وعند جوردن البورت .

ولقد قام سيكرست Sechrest عام ١٩٦٨م بدراسة عملية من النوع الاستقرائى اكثر منها من نوع دراسات اختبار الفروض حيث درس عينتين من طالبات التمريض بلغ حجمها ٥٧ ، ٦٧ فردا على الترتيب . ولقد اجابت كل منهن على اختبار كيلى وعلى اختبار منسوتا للشخصية المتعدد الاوجه MMPI وعلى اداة سوسيومترية تحدد من خلالها مدى دماثة كل عضوة من عضوات الجماعة . ولقد بين سيكرست أن التكوينات الشخصية — ذكى ، غير ذكى — قلق ، غير قلق — ودود ، غير ودود — كانت اكثر شيوعا فى الجماعة . وحاول أن يحدد ما اذا كانت التصورات الشخصية التى يستخدمها الفرد تعبر عن حقائق وجوده بمعنى من المعانى . وهذا الفرض ولو انه ليس مشتقا على نحو مباشر من نظرية كيلى الا انه متسق مع تأكيده العام على نوع المحاولة والخطأ العقلانى المطلوب للبحث عن افضل اسس للسير فى الحياة . ولقد توافر لسيكرست درجة عن قدرة كل مفحوص اللغوية مستقاة من تطبيق اختبار ACET American Council on Education Test (وهو اختبار ذكاء) ولقد حاول الباحث أن يقيم هذه الدرجات فى مقابل التصور ذكاء — لا ذكاء .

ثم ربط بين تقدير للقلق مستق من اختبار منسوتا (مقياس السيكاثينيا)
والتصور قلق — غير قلق ، وربط بين التصور ودى — غير ودى وعدد الاختيارات السوسيومترية التى نالتها العضوة فى الجماعة . والنتائج مبينة فى الجدول (١ — ١٥) . ومنه يتضح أن المفحوصات ذوات الذكاء المعتدل يحتمل أن يستخدمن التصور ذكى — غير ذكى بتكرار اكبر عن المفحوصات ذوات الذكاء العالى . وفى أدنى مستوى لا يوجد فرق ، وأن المفحوصات اللاتى يستخدمن قلق — غير قلق يغلب أن يكن ذوات قلق مرتفع أو قلق منخفض على مقياس منسوتا للشخصية المتعددة الأوجه . ولكن نتائج الطرف المتدنى من المقياس فى العينة الأولى لم تظهر فى العينة الثانية وأوثق نتيجة نتأدى اليها من هذه الدراسة ، أن المفحوصات ذوات القلق العالى يستخدمن قلق — غير قلق كتصور ، وبالمثل فان المفحوصات اللاتى يستخدمن التصور ودى — غير ودى فى نسقهم يحظون بعدد كبير من الاختيارات السوسيومترية باعتبارهن اكثر العضوات دماثة . وهذه الدراسة تقدم لنا دليلا على التطابق بين تفسير الشخص للعالم وطريقة سلوكه فيه . وليس فى الامكان على أية حال ان نحدد أيهما يسبق الآخر . وهذا على الرغم من ان استخدام متغيرات غير قابلة للتأثير مثل الذكاء تقترح علينا ان التصورات تتبع الملامح الموضوعية للخبرة ، الا أن هذا الاستنباط ليس مقنعا بالنسبة للقلق وشهرة الشخص أو دماثته .

جدول (١٥ — ١م)

يبين العلاقات بين التكوينات الشخصية ومتغيرات الشخصية التى تتفق معها

المتغيرات التى تقيسها الاختبارات	الدرجة	الفئة (١) ن = ٥٧ لا يستخدم	الفئة (١) ن = ٥٧ يستخدم	الفئة (٢) ن = ٦٧ لا يستخدم	الفئة (٢) ن = ٦٧ يستخدم
		ذكى — غير ذكى			
A C E الفترة اللغوية	٧٠ +	١٥	٤	١٦	٩
	٦٠ — ٦٩	٦	١١	٨	١٤
	٥٩ فأقل	١٢	٩	١٠	١٠
	مربع كا	٧ر٠٢ دال عند ٠٥ر٠		٣ر٥٧ دال عند ٠٢ر٠	
		قلق — غير قلق			
M M PI درجة مقياس السيكاتنيا	٢٠ +	٢	١٣	٢	١٢
	١٠ — ١٩	١٥	١٥	١٨	٢١
	٩ فأقل	١	٩	٧	٧
	مربع كا	٨ر٦٦ دال عند ٠٢ر٠		٥ر٠٣ دال عند ١ر٠	
		ودى — غير ودى			
عدد الاختيارات السوسيومترية	١٠ +	٦	٢٢	٥	٢٥
	٩ فأقل	١٤	٥	١٥	٢٢
	مربع كا	٤ر٥٢ دال عند ٠٥ر٠		٤ر٥٢ دال عند ٠٥ر٠	

ومع هذا فانه ينبغى القيام بمزيد من البحوث فى هذا المجال . ولعل البحوث التى قام بها آدمز وغبر Adams - Webber عن مدى مصداقية الأشكال المختلفة لاختبار كيلى عن ذخيرة تصورات الدور فى القدرة التمييزية توحى

بأن هنالك اهتماما متزايدا بدراسة التكوينات الشخصية. ولقد استخدم جيرتن Guertin عام ١٩٧٣ الحاسب الآلى لتحليل بيانات تصف الأشخاص المهمين فى حياة المفحوص مستخدما تصوراته كمتغيرات ولقد كشف التحليل العاملى عن عوامل شخصية وأخرى ثقافية وثالثة تتصل بالناس .

المكانة الراهنة والتقويم :

بدأ كيلى ممارسته لعلم النفس الكلينيكى دون أن يتلقى تدريبا نظاميا فى مدرسة نفسية معينة ، ومع ذلك فقد انتهى به الأمر الى وضع نظرية فريدة فى الشخصية والى التوصل الى اجراءات فعالة للعلاج النفسى . ولقد اعتقد كيلى أن الحقيقة هى فى الأساس طريقة النظر الى الأشياء . وهذه الفكرة حررته من معتقدات الماضى ، واتاحت له مرونة فى تجريب أفكاره .

ومن الانتقادات الشائعة لنظرية كيلى تجاهله لمجال الانفعالات الانسانية ، وأنه من الصعب التنبؤ بسلوك الفرد باستخدام نظريته ، وانه لم يهتم بالبحث عن أصول التكوينات أو التصورات الشخصية ، اى انه لا يفسر لنا لماذا يختار بعض الأشخاص الأمن والحذر ، ويختار آخرون المغامرة والمخاطرة . ولا يفسر لنا لماذا يختلف شخصان فى تفسير خبرة فيزيقية واحدة ، كما أن اساليبه العلاجية لا تصلح الا لعلاج الراشدين الأذكياء والذين يتعرضون لمشكلات انفعالية غير حادة .

وهذه الانتقادات لا ينبغى ان تثبط همم طلاب العلم ذلك انه لا توجد نظرية فى الشخصية لم تتعرض لنقد صادق .

ان اتجاه كيلى فى تناول الشخصية يتميز بعقلانية ومن هنا فانه تعرض لنقد شديد لان مجال نظريات الشخصية تسوده النظرة الى الانسان باعتباره كائنا حيا عاطفيا غريزيا . ولكن هذا الفارق الواضح بين اتجاهه واتجاه الآخرين فى تصور الشخصية يجعله جديرا بالدراسة . هذا فضلا عن أن معالجته للشخصية معالجة تكاد تكون مستفيضة وشاملة وانها تقوم على تفكير متأمل .

ويستطيع كيلى أن يدعم جدله المنطقى بالدليل الامبيريقى . وعلماء النفس الذين يجرون بحوثا فى مجال الشخصية حساسون لامكانية تعرض قياساتهم لاثر الاشتهائية الاجتماعية . والحق انك لو القيت على مجموعة من المفحوصين عددا من الاسئلة عن انفسهم ؛ فسوف يميلون الى اختيار الاجابة المستحسنة اجتماعيا،او للاجابة على النحو الذى يريده عالم النفس.وواضح ايضا أنهم يهتمون اهتماما شديدا بالغرض من القياس وبنتيجة مشاركتهم فى البحث.وأفضل طريقة للتغلب على هذين العاملين بحيث لا يحدد المفحوصون اهداف البحث،ولا يتخيرون الاجابات المستحسنة اجتماعيا أن نضع اختبارات بطريقة تحول دون ظهور اثر هذين المتغيرين . وقد نجح كيلى فى هذا والادلة الامبيريقية المتوافرة تدعم صحة ما ذهب اليه كيلى .(Maddi : p. 144)

الفصل السادس عشر

كارل روجرز

ولد كارل روجرز فى يناير ١٩٠٢ فى اوك بارك احدى ضواحى شيكاغو بولاية الينوى ، وكان ترتيبه الرابع بين ستة أطفال . وكان والده مهندسا مدنيا ناجحا . ومقاولا ومن هنا فان روجرز لم يواجه مشكلات اقتصادية فى حياته المبكرة . ولقد وصف روجرز نفسه قائلا انه « الطفل الأوسط فى اسرة كبيرة الحجم ، علاقات اعضائها وثيقة ، يحترم فيها الاجتهاد فى العمل والاتجاهات الدينية المحافظة بدرجة متساوية » (1959, p. 186) ولقد عمل والداه على اثنائه عن تكوين صداقات خارج البيت لانهم كانوا يرون أن الأفراد خارج الأسرة ينغمسون فى أنشطة موضع شك وريبة .

يقول روجرز « أعتقد أن الاتجاهات نحو الأشخاص خارج اسرتنا الكبيرة يمكن تلخيص اساسياتها بالطريقة الآتية : الأشخاص الآخرون يسلكون بطرق مشكوك فيها لا توافق عليها أسرتنا ، فكثير منهم يلعب الورق ، ويذهب الى دور السينما ، ويدخن ويشرب وينغمس فى انشطة أخرى غير قابلة للذكر . ولهذا فأفضل شىء يعمل هو ان نتسامح معهم ، لانهم قد لا يعرفون افضل من هذا ، وان نبتعد عن اى تواصل وثيق معهم وأن نحيا حياتنا داخل الأسرة » (1973, p. 3)

ونتيجة لهذا الاتجاه نحو الآخرين خارج نطاق الأسرة ، قضى روجرز قدرا كبيرا من الوقت مع نفسه ، وقرأ كل ما استطاعت يداه أن تقع عليه بما فى ذلك دوائر المعارف والقاموس . وحين بلغ الثانية عشرة من عمره انتقلت اسرته الى مزرعة تبعد مسافة ثلاثين ميلا عن شيكاغو . وفى هذه المرحلة بدا اهتمام روجرز بالعلومينمو ويتطور ، وذلك لان آباه أصر على أن تدار المزرعة على اسس علمية ، فقرأ روجرز عن كثير من التجارب الزراعية ، كما زاد ميله واهتمامه بأنواع من العتة والسوس فسادها وربابها . وهذا الاهتمام بالعلوم لم يترك روجرز على الاطلاق اى انه لازمه طوال حياته على الرغم من انه عمل فى مجال من اكثر مجالات علم النفس بعدا عن الموضوعية .

وقد استمر ميل روجرز الى العزلة طوال دراسته بالمدرسة الثانوية ، وكان طالبا ممتازا حصل على التقدير (أ) باستمرار ، وكان اهتمامه الأساسى منصرفا الى دراسة اللغة الانجليزية والعلوم .

وفى عام ١٩١٩ م التحق روجرز بجامعة وسكنسن ، وهى الجامعة التى تعلم فيها والده من قبل بل وتعلم فيها ايضا اخوان له واخت ، ولقد اختار ان يدرس فى مجال الزراعة . وكان روجرز يشارك بهمة فى اعمال الكنيسة وانشطتها فى السنوات الأولى بالجامعة . وفى عام ١٩٢٢ م اختير كواحد من بين عشرة طلاب جامعيين ليحضروا مؤتمرا مسيحيا عالميا ببكين بالصين . وكان لهذه الرحلة التى استغرقت ستة شهور اثرها العميق فى روجرز . وبعد أن تفاعل واختلط مع أناس من ثقافات مختلفة وديانات متباينة كتب الى والديه معلنا استقلاله عن وجهة نظرهم المحافظة فى الدين. وعند عودته الى جامعة وسكنسن غير تخصصه الرئيسى من الزراعة الى التاريخ وحصل على بكالوريوس فى الآداب عام ١٩٢٤ م .

وبعد تخرجه تزوج من هيلين اليوت — رغم معارضة والديه — وانجبا طفلين. وقد اهتم روجرز فى هذه الفترة بمساعدة الأفراد على حل مشكلاتهم. ولقد تزايد شكه فى ان مذهبه الدينى المسيحى افضل اداة لمساعدة الفرد على التخلص من مشكلته . ولقد انتقل روجرز الى جامعة كولومبيا لدراسة علم النفس التربوى وعلم النفس الكلينيكى ، وحصل على درجة الماجستير عام ١٩٢٨ م ودرجة دكتوراه الفلسفة عام ١٩٣١ م . وكانت رسالته عن قياس تكيف الشخصية لدى الأطفال .

وخلال عمل روجرز للحصول على درجة الدكتوراه اشتغل كعالم نفس فى قسم دراسة الطفل فى جمعية حماية الأطفال من القسوة فى روشستر بنيويورك وذلك لمدة عام . ولقد اتيح له فى هذا العمل بعض الخبرات التى اثرت تأثيرا عظيما فى نظريته فى الشخصية فيما بعد كما اثرت فى طريقته فى العلاج النفسى . ولقد تعلم اولا : ان طريقة التحليل النفسى التى سيطرت على اعضاء القسم الذى يعمل فيه غير فعالة ولا مؤثرة فى كثير من الحالات ؛ وتعلم ثانيا : ان الطرائق المتبعة فى العلاج النفسى التى درسها فى كولومبيا وتلك التى درسها فى قسم دراسة الطفل مختلفة اختلافا

كبيرا ، هذا فضلا عن أنه تعلم أن الثقاة فى العلاج النفسى والأعلام فيه لا يستطيعون الاتفاق على أفضل طريقة لعلاج الشخص المضطرب فى كثير من الحالات . وتعلم ثالثا : أن البحث والسعى لفهم المشكلة والاستبصار كثيرا ما قوبل بالاحباط . ولقد وصف روجرز أحد المواقف التى شعر فيها أن نبذ الأم لابنها كان السبب فى سلوكه الجانح . ولقد حاول جاهدا أن يشرك الأم فى فهم الحالة ولكنه أخفق . يقول « وفى النهاية كففت عن المحاولة ، اخبرتها باننا فيما يبدو قد حاولنا ولكننا فشلنا . . . . ووافقت على ما اقول . وهكذا أنهينا المقابلة وتصافحنا وسارت الى باب المكتب ثم استدارت وسألته « هل تقوم بارشاد الكبار نفسيا هنا ؟ وعندما اجبت عن سؤالها بالايجاب قالت « حسنا اننى فى حاجة الى بعض المساعدة » وعادت فجلست على الكرسى الذى تركته وبدأت تعبر فى تدفق عن يأسها حول زواجها وعن احساسها بالفشل ، وكان هذا مختلفا تماما على تاريخ الحالة الذى أدلت به الى من قبل ولقد بدأ العلاج النفسى الحقيقى عندئذ .

ولقد كانت هذه واقعة واحدة من بين عدد من الوقائع التى ساعدتنى على أن أدرك حقيقة — ثبتت على نحو تام فيما بعد — وهى أن العميل وحده هو الذى يعرف ما يؤذيه ، والى أى الاتجاهات يذهب ، وما هى المشكلات المهلمة ، وما هى الخبرات التى دفنت دفنا عميقا . ولقد بدأ يخطر على ذهنى إنى سوف احسن عملى لو اعتمدت على العميل لتحديد اتجاه التحرك فى عملية العلاج » (Rogers 1961, p.p: 11 - 12)

ولقد الف روجرز اول كتبه عندما كان يعمل فى قسم دراسة الطفل وكان عنوانه : The Clinical Treatment fo the Problem Child

العلاج الكلينيكى للطفل المشكل (١٩٣٩) . وفى عام ١٩٤٠ انتقل روجرز من العمل الكلينيكى الى العمل الاكاديمى حين قبل وظيفة فى علم النفس الكلينيكى فى جامعة ولاية اوهايو . وبدأ روجرز يصوغ طريقته فى العلاج النفسى ويختبرها .

وفى عام ١٩٤٢ نشر كتابه المشهور الآن : « الارشاد والعلاج النفسى : مفاهيم جديدة فى الممارسة »

Counseling and Psychotherapy : Newer Concepts in Practice

وقد رأى كثيرون فى هذا النوع من الارشاد والعلاج النفسى البديل الأساسى للتحليل النفسي . وكان الناشر مترددا فى نشر الكتاب خشية الا يباع منه الفان وهو عدد النسخ الذي يحول دون الخسارة . ولقد بيع من هذا الكتاب حتى عام ١٩٦١ ما يزيد عن سبعين الف نسخة ، وما يزال هناك اقبال على شرائه .

وفى عام ١٩٤٥ ترك روجرز ولاية اوهايو ليصبح استاذا لعلم النفس بجامعة شيكاغو ومديرا للارشاد النفسى بها . وخلال هذه المدة نشر الكتاب الذى يعتبره الكثيرون اهم كتبه : « العلاج المتمركز حول العميل : الممارسة الحالية والمضامين النظرية »

Client - centered therapy : Its Current Practice, Implications and Theory (1951)

وفى عام ١٩٥٧ ترك روجرز جامعة شيكاغو ليعود الى جامعة وسكنسن حيث احتل مركزين هما : استاذ علم النفس واستاذ الطب النفسى . وفى عام ١٩٦٣ م استقال من منصبه ليصبح عضوا فى المعهد الغربى للعلوم السلوكية .

Western Behavioral Sciences Institute (WBSI) in La olla, California

فى كاليفورنيا . وفى علم ١٩٦٨ ترك روجرز وعدة اعضاء آخرين من ذوى الاتجاه الانسانى هذا المركز ليؤسسوا مركزا لدراسات الشخص فى نفس المكان وما يزال روجرز يعمل فى هذا المركز حتى الآن .

ولقد اقترنت كثير من تنقلات روجرز بتحول فى اهتماماته واساليبه وفلسفته . ففي نقلته الأخيرة اكد على اهتمامه بالفرد من حيث خبرته بالعالم الذى يعيش فيه . ويقرر روجرز فى عمل علمى حديث نشر له عام ١٩٧٢ « اننا مهتمون اهتماما عميقا بالأشخاص ولكننا نجد الطرائق التقليدية تثنينا عن ذلك لانها تدرس الأشخاص كما لو كانوا اشياء موضع بحث »(1972, p. 67) ويعكف روجرز حاليا على دراسة عدد من الانشطة الجماعية التى تساعد الفرد على تنمية ذاته كالتدريب على الحساسية ، وهو مهتم اساسا بالكشف عن الشروط والملابسات التى يستطيع شخص ما فى ظلها أن ينمى امكانياته تنمية

شاملة . ووفقا لما يراه روجرز أن أهم مصدر لدى الأفراد وفى داخلهم هو ميلهم الى تحقيق الذات . وسوف نتناول ذلك فيما بعد .

النزعة الى تحقيق الذات :

يسلم روجرز بوجود دافع رئيسى واحد يسميه النزعة الى تحقيق الذات « ان لدى الكائن الحى نزعة اساسية واحدة تكافح ليحقق الكائن الحى الذى يعيش للخبرة ذاته ويحافظ على بقائها ويزيد من قيمتها . وهناك مصدر رئيسى واحد للطاقة فى الكائن الحى الانسانى ، وان هذه الطاقة وظيفة الكائن الحى ككل وليس لجزء منه ، ويحتمل أن افضل تصور له أن نتصوره كنزعة نحو الكمال والتحقيق ونحو المحافظة على الكائن الحى وزيادة قيمته »
(Rogers, 1963. p. 6)

ويرى روجرز أن الناس جميعا شأنهم فى ذلك شأن الكائنات الحية العضوية لديهم حاجة فطرية للبقاء وللنمو ولتقوية النفس.ان جميع الدوافع البيولوجية تندرج تحت النزعة الى تحقيق الذات ، لانه لا بد من اشباعها لكى يستمر الكائن الحى فى نموه الايجابى . وهذه الدفعة الى الامام للحياة تستمر على الرغم من العقبات.وعلى سبيل المثال الست ترى الأطفال الذين يبدأون فى تعلم المشى ، يحاولون رغم تعثرهم وانتكاساتهم أثناء المشى ، ويعمدون الى المضى فى التعلم حتى يصلوا الى مستوى رفيع من التآزر والمهارة فى حركات المشى ؟ وثمة أمثلة كثيرة لافراد يعيشون فى ظل ظروف حياتية قاسية ولكنهم لا يكافحون من أجل البقاء فحسب ، بل يعملون على تحسين حياتهم .

وقد يثار السؤال : الى اى وجهة تتحرك النزعة الى تحقيق الذات ونحو أى هدف ؟ واجابة روجرز تدل على أن نظرته للطبيعة الانسانية تخالف نظرة فرويد . فالأخير يرى ان للناس جميعا نفس الحاجات والدوافع شأنهم فى ذلك شأن الحيوان . وعلى هذا فلا بد أن يضبط المجتمع نزعاتهم لاشباع دوافعهم الجنسية والعدوانية . اما روجرز فيرى أن الناس خيرين فى الأساس ولذلك فانهم ليسوا فى حاجة الى ضبط اجتماعى . بل أنه يعتقد أن محاولة ضبط الانسان هى التى تجعله يسلك سلوكا سيئا . ونظرة روجرز

هذه الى الطبيعة الانسانية تجعله واحدا من دعاة الاتجاه الانسانى فى علم النفس « ان تعاطفى ضئيل مع المفهوم الشائع بأن الانسان فى أساسه غير عقلانى ، وأن نزعاته اذا لم تتم السيطرة عليها فسوف تؤدى الى تدمير غيره وتدميره هو أيضا . ان سلوك الانسان عقلانى ورائع ويتحرك فى تعقيد بالغ الدقة والنظام نحو الأهداف التى يحاول تكوينه العضوى الوصول اليها »
(Rogers, 1961, p.p. 194 - 195)

ويدرك روجرز بطبيعة الحال أن الأفراد يتصرفون فى بعض الأحيان بطرق غير ملائمة ، ولكنه يذهب الى أن مثل هذه التصرفات لا تتسق مع الطبيعة الانسانية انها تنشأ من الخوف والأساليب الدفاعية . « وانا على وعى تام بأن الأفراد نتيجة لخوفهم الداخلى ولدفاعاتهم قد يسلكون بل ويسلكون فعلا بطرق قاسية على نحو غير معقول ومدمرة تدميرا مفزعا ، وغير ناضجة ونكوصية ، ومضادة للمجتمع ومؤذية . غير انه من اكثر الخبرات التى لدى انعاشا وتنشيطا العمل مع مثل هؤلاء الأفراد واكتشاف اتجاهاتهم الايجابية القوية فى أعمق المستويات وهى تماثل ما يتوافر لدينا .
(Rogers, 1961; p: 27).

ان الميل الى تحقيق الذات هو قوة دافعة لدى كل فرد فى حد ذاته ، تدفعه الى أن يتمايز ويزداد استقلالا ، والى أن يصبح اكثر التزاما واحساسا بالمسئولية من الناحية الاجتماعية . وسوف نتناول أهداف النزعة الى تحقيق الذات بمزيد من الايضاح حين نتناول خصائص الذين يؤدون وظائفهم على أكمل وجه .

ان جميع خبرات الكائن الحى تتعرض للتقويم باستخدام النزعة الى تحقيق الذات كاطار مرجعى . ويطلق روجرز على هذه الطريقة من طرق التقويم لخبرات الفرد عملية التقويم العضوية organismic valuing process أما الخبرات المضادة للنزعة الى تحقيق الذات فهى غير مرضيه ، وبالتالى فان الفرد يتجنبها وينهيها . ان عملية التقييم العضوية اذن تخلق نظاما للتغذية الرجعية يتيح للفرد أن ينسق خبراته وميله نحو تحقيق الذات .
(Hergenhahn, pp. 304-306)

المجال الظاهرياتي وتكوين مفهوم الذات :

يرى روجرز أن الناس جميعا يعيشون فى عالمهم الذاتى والذى يمكن معرفته بمعنى كامل فحسب من خلال ذواتهم . ان هذا الواقع الفنومنولوجى وليس الواقع الفيزيقى هو الذى يحدد سلوك الناس . وبعبارة أخرى فان طريقة رؤية الناس للأشياء هى الواقع الوحيد بالنسبة لهم . وهذا الواقع الخاص يتفق بدرجات مختلفة مع الواقع الفيزيقى ، ويتوقف هذا على الفرد. وهذا الواقع الذاتى الفنومنولوجى هو الذى يحاول المعالج أن يفهمه وهناك قدر كبير من التشابه فى هذه النقطة بين نظرية روجرز ونظرية كيلى . انهما يؤكدان على التفسير الذاتى الفردى للخبرة ، ولذلك يطلق عليهما فنومنولوجيان . والفرق الأساسى بينهما يقع فى الميل الى تحقيق الذات فالنقطة الأساسية عند كيلى هى ان الأفراد يحاولون باستمرار تجريب تكوينات جديدة new constructs لكى يتوصلوا الى افضل مجموعة من التكوينات تمكنهم من التنبؤ بالمستقبل . ولا يوجد عند كيلى حالة محددة فطريا يتطور نحوها جميع البشر ، وانما يبتكر كل فرد شخصيته ، بدلا من أن تتحدد ملامحها الأساسية وراثيا .

ويميز روجرز بين الخبرة والوعى . ان الخبرة هى كل ما يدور داخل بنية الكائن الحى فى اى لحظة ، وهى متوافرة بالامكان للوعى . وحين يعبر عن هذه الخبرات الممكنة بالرمز تدخل الوعى وتصبح جزءا من مجال الشخص الفنومنولوجى . والرموز التى تستخدم كأداة لادخال الخبرات الى الوعى هى الكلمات عادة ، ولكنها لا تكون بالضرورة كلمات ، ذلك ان الرموز يمكن أن تكون صورا بصرية وصورا سمعية . والتمييز بين الخبرة والوعى هام لان هناك شروطا معينة تؤدى بالفرد الى انكار خبرات معينة او تشويهها ، وبالتالى منعها من دخول وعيه .

ويلخص روجرز (1959, p. 222) هذه النقاط حين يصف الخصائص التى يعتقد أن الطفل الانسانى الصغير يمتلكها على النحو الآتى : —

١ — ان ما يدركه الأطفال هو واقعهم وبالتالى فانهم الوحيدون الذين

يستطيعون أن يعوا واقعهم ولا يستطيع أى شخص آخر أن يدرك اطارهم المرجعى الداخلى .

٢ — يولد جميع الأطفال ولديهم نزعة الى تحقيق الذات .

٣ — يحاول الأطفال اشباع حاجاتهم لتحقيق الذات وبالتالى فان سلوكهم موجه نحو هدف .

٤ — يسلك الأطفال فى تفاعلاتهم مع البيئة ككل منظم، أى أن كل ما يفعلونه يتصل بعضه بالبعض الآخر .

٥ — يستخدم الأطفال عملية تقييم عضوية خاصة بهم كاطار مرجعى لتقييم خبراتهم . وتقييم تلك الخبرات التى تدرك على انها متفقة مع نزعتهم لتحقيق ذاتهم تقييما موجبا . أما الخبرات التى تدرك على انها مضادة لنزعتهم هذه فتقييم تقييما سلبيا .

٦ — يبحث الأطفال عن الخبرات التى تيسر تحقيق الذات ويحافظون عليها ويتجنبون الخبرات التى تعوق ذلك التحقيق .

ويعتبر بزوغ مفهوم الذات أهم حدث منذ الميلاد وبعده . ويتكون من خلال تفاعل الفرد مع بيئته . والتفاعل الهام الذى يؤدى الى تكوين مفهوم الذات هو ذلك الذى يتضمن طريقة تقويم الآخرين للطفل . أى ان الخبرات الذاتية المرتبطة بتلقى التقدير الموجب من الآخرين ذوى الأهمية تتمثل وتستوعب فى مفهوم الذات ، بينما تلقى الخبرات الذاتية التى تقيم تقييما سالبا والتى ترتبط بغيبة التقدير الاجتماعى الموجب النكران من وعى الفرد. فمفهوم الذات اذن هو الى حد كبير مرآة وانعكاس لتقييمات الآخرين خلال الطفولة . (Hergenhahn, pp. 306-307)

وصف روجرز للشخصية :

يقدم لنا روجرز اثنين وعشرين قضية عن تصوره للشخصية الانسانية . وعلى الرغم من ان كل قضية من هذه القضايا واضحة بذاتها كما صاغها

روجرز ألا أنه قد يكون من المفيد أحيانا اضافة بعض العبارات التى تساعد على توضيحها : —

١ — « يوجد كل فرد فى عالم دائم التغير من الخبرة ، وهو فى مركز هذا العالم » أى اننا نعيش فى عالمنا الخاص الذى يتألف من خبرات فى عالم لا يبقى على حاله من يوم الى آخر . ان هذه النظرة تؤكد على أهمية الاستبطان ، وقد تكون الخبرة شعورية أو قبل شعورية . فحين تكون الخبرة شعورية فانها تتصل بعالم الرموز ، وعالم الفرد لا يمكن أن يعرف بمعنى أصيل وكامل الا للفرد نفسه . وقد لا يتوصل الفرد الى هذه المعرفة بالذات ولو ان لديه الاستعداد لذلك .

وعلى أساس هذه القضية يعتبر الشخص افضل مصدر للمعلومات عن نفسه . وتعبر عباراته عن الخبرة الداخلية وترمز لها ، ومن هنا فان عالم النفس لا يستطيع أن يعرف ما يدور فى عالم عميله الخاص الا بالاصغاء لما يقوله . وان موقف العلاج المتمركز حول العميل يؤكد على أهمية توفير التسامح والتقبل غير المشروط لكل ما يقوله العميل حتى يوفر جوا مواتيا يتيح له التعبير عن ذاته تعبيرا حرا صريحا .

٢ — يستجيب الكائن الحى للمجال كما يخبره ويدركه « ان المجال المدرك بالنسبة للفرد هو الحقيقة والواقع . وقد يكون هذا الواقع بالنسبة للفيلسوف مجردا ، ولكنه بالنسبة للفرد الذى يخبره واقع يختبره ويتقبله من خلال جهازه الادراكى . وحين يتوافر للفرد جهاز ادراكى متسق مع نفسه فانه يتوافر لديه درجة من القابلية للتنبؤ يستطيع أن يعتمد عليها .

٣ — « يستجيب الكائن الحى للمجال الظاهرياتى ككل منظم » ويشعر روجرز أن ثمة خاصية اساسية لحياة الفرد وهى ميله نحو اصدار استجابات منظمة او كلية يوجهها الهدف أو المرمى . وهو لا يستطيع أن يتقبل تفسير السلوك على اساس من المثير والاستجابة » .

٤ — للكائن الحى نزعة واحدة اساسية وهى أن يكافح لتحقيق الكائن الحى الذى يحيا الخبرة ليحافظ على نفسه ويزيد من قيمتها » ولا يتاح للفرد

ان يحقق ذاته ما لم يستطيع تمييز مسارات السلوك التى تؤدى الى التقدم ، وعليه أن يعرف قبل ان يختار ما يناسب تحقيق ذاته حتى يختار مسار النمو ويتجنب النكوص .

٥ — « ان السلوك فى اساسه محاولة موجهة نحو هدف ، يقوم بها الكائن الحى لاشباع حاجاته كما يخبرها فى المجال كما يدركه » وجميع الحاجات فى اساسها يتصل بعضها بالبعض الاخر . وفضلا عن ذلك فان جميع استجابات الكائن الحى لا تكون للواقع كما يراه الاخرون ، ولكنها تكون للواقع المدرك من قبل الفرد . ويشعر روجرز شأنه فى ذلك شأن البورت أن الدافعية توجد فى الأساس فى الحاضر . ولا يوجد سلوك الا ذلك الذى يحدث ليشبع حاجة حاضرة .

٦ — « الانفعال يصاحب السلوك الموجه نحو هدف وييسره » . ويقصد بالانفعال ذلك النوع الذى يرتبط بالبحث ولا يقصد به ما يرتبط بالجوانب الاستهلاكية للسلوك ، وان تتصل شدة الانفعال بالمغـزى المدرك للسلوك ، ليحافظ على الكائن الحى ويزيد قيمته . وتحاول الشخصية أن تحقق تكاملا بين نوعين من الانفعالات ، الانفعالات المثيرة غير السارة ، والانفعالات الهادئة المشبعة.ويحدد الادراك شدة الاستجابة الانفعالية .

٧ — « ان افضل موقع لفهم السلوك هو من خلال الاطار المرجعى الداخلى للفرد نفسه » ان ما يبدو سلوكا غريبا مفرغا من المعنى عند ملاحظ معين قد يكون سلوكا فرضيا هادفا عند الفرد ، وهناك صعوبات كبيرة ومآخذ عند محاولة التوصل الى الشعور المستبطن لأى شخص . وبما ان هناك جوانب من حياتنا تشابه جوانب حياة الشخص الآخر فقد نستطيع ان نستنتج السلوك الاستبطانى . غير ان التصورات القبلية أو المشتقة لدينا قد تحطم القدرة على فهم الشخص الآخر وسبرغوره.

وتقدير الفرد عن نفسه قد لا يقدم لنا صورة كاملة عن شخصيته تكشف كل محددات سلوكه وذلك لمواجهته احدى العقبات الاتيه : —

(أ) أنه يعى اسباب سلوكه ولكنه يعجز عن التعبير عنها .

(ب) الا يعى الفرد جميع خبراته فيكون من المحال التعبير عنهـا للآخرين ونقلها .

(جـ) أن يعى خبراته ويجبر على التعبير عنها فيعمد الى التمويه .

وعلى ذلك فان استخدام التقرير الذاتى هو افضل المداخل لفهم شخصية الفرد وسلوكه من خلال اطاره المرجعى الذاتى فى الموقف المشجع للعلاج المتمركز حول العميل (هول ولندزى — فرج : ٦١٧).

٨ — « يتمايز جزء من المجال الادراكى الكلى على نحو تدريجى ليصير الذات » ويرى روجرز أن من الصعب جدا أن ندرس كيفية نمو الذات وتطورها . واننا لم نحقق كثيرا من التقدم فى هذا المجال . والذات هى وعى الفرد بوجوده ونشاطه ، وهى كموضوع مجموع الخبرات التى تنسب الى ضمير المتكلم .

٩ — « تتكون بنية الذات نتيجة للتفاعل مع البيئة وخاصة التفاعل التقويمى مع الآخرين » . والذات نمط منظم مرن ولكنها نمط تصورى متسق من مدركات خصائصى أنا وعلاقاتى بالاضافة الى القيم المرتبطة بهذه التطورات » .

يتعلم الطفل التمييز بين ذاته والبيئة التى يعيش فيها فيدرك أن بعض الأشياء تخصه ، وأن البعض الآخر يخص بيئته ، ويبدأ فى تكوين تصور عن نفسه ، وتتخذ بعض خبراته خاصية موجبة فيحبها ، ويتخذ البعض الآخر خاصية سالبة فلا يحبها ، ويقوم بناء الذات لديه على وعيه بذاته كشكل بارز على أرضية من البيئة والآخر .

١٠ — « القيم المرتبطة بالخبرات، والقيم التى تشكل جزءا من بنية الذات تكون فى بعض الحالات قيم خبرها الكائن الحى مباشرة ، وفى بعض الحالات الأخرى قيم يتشربها أو يأخذها عن الآخرين ولكنها مدركة بشكل مشوه كما لو أنه خبرها على نحو مباشر » وللخبرات قيم ، وهذه القيم قد تدرك وتكتسب من الآخرين وتشوه ، ولكن مهما كان مصدرها فانهـا تصدر عن الخبرات . ويستمتع الطفل فى القيام بأنشطة منوعة يثاب

على بعضها من الوالدين ويعاقب على البعض الآخر . وبعطى الطفل حين يعاقب على فعل او نشاط يجده مصدر متعة له فينشأ صراع بين الحصول على اللذة وتجنب الالم ، مما يضطره الى مراجعة صورة ذاته وما لديه من قيم أو تؤدى هذه المراجعة الى تشويه قيمه ومشاعره .

١١ــ « مع حدوث الخبرات فى حياة الفرد فانها اما ان » : ـــ

(ا) يعبر عنها رمزيا وتدرك وتنظم فى علاقة ما مع الذات .

(ب) أو يتم تجاهلها لعدم وجود علاقة مدركة مع بنية الذات .

(جـ) أو تنكر الصورة الرمزية بالنسبة لها وتشوه لانها لا تتسق مع بنية الذات .

ان الادراك انتقائى ، واساس الانتقاء هو مدى اتساق الخبرة مع صورة الذات لدى الفرد فى اثناء عملية الادراك . وانكار الخبرة معناه تزييف الواقع سواء اكان ذلك بالقول بعدم وجوده أو بادراكه فى صورة مشوهة . فقد ينكر الفرد مشاعره العدوانية لانها تخالف صورته المسالمة الودودة وفى هذه الحالة يعبر عن مشاعره باسقاطها على الآخرين ، وعن طريق تصوير رمزى مشوه (هول لندزى ــ فرج ٦٢٠).

١٢ــ « تتسق معظم طرائق السلوك التى يأخذ بها الكائن الحى مع مفهومه لنفسه » ومعنى ذلك أن افضل طريقة لتعديل السلوك هى البدء بتغيير مفهوم الفرد عن نفسه . وتأمل الذات بطبيعة الحال المحافظة على السلوك الذى يتسق مع صورتها عن نفسها .

١٣ــ « قد يصدر السلوك فى بعض الحالات عن خبرات وحاجات عضوية لم تصل الى مستوى التعبير الرمزى » وفعل هذا السلوك قد لا يكون متسقا مع بنية الذات : غير انه فى مثل هذه الحالات لا يكون السلوك مملوكا للفرد . ذلك ان السلوك الذى لا يسيطر عليه الفرد يعتبر غير منتمى للذات . وكثيرا ما يقول الفرد حين يصدر عنه مثل هذا السلوك حين يسأل عنه « لم اكن فى طورى » أو « لقد فعلته رغما عنى » أو « ليس هذا من طبعى » .

١٤ — « يوجد سوء التوافق النفسى حين ينكر الكائن الحى وعيه بخبرات حسية وحشوية لها مغزاها . ويؤدي هذا بدوره الى عدم التعبير عنها رمزيا وانتظامها فى جشطلت بنية الذات . وحين يوجد هذا الموقف قد يحدث توتر نفسى أساسى أو تتوافر امكانيـــة حدوثه » ولا تستطيع الشخصية أن تحقق ذاتها ما لم تكن الخبرات صادقة اى تعبيرا حقيقيا عن الذات الحقيقية .

١٥ — « يوجد التوافق النفسى حين يكون مفهوم الذات بحيث تتمثل جميع خبرات الكائن الحى الحسية والحشوية فى علاقة متسقة مع مفهوم الذات ويكون هذا التمثل على المستوى الرمزى » عندئذ ينخفض التوتر ويتوافر لدى الشخصية شعور جديد عن ذاتها .

١٦ — « قد تدرك اى خبرة لا تتسق مع بنية الذات او تنظيمها كتهديد وكلما كثرت هذه المدركات زاد الجمود فى تنظيم بنية الذات لكى تحافظ على نفسها » وتنكر الذات عادة هذه الخبرات التى تهددها فيزداد ابتعادها عن واقع الكائن الحى مما يتطلب دفاعات أكثر للمحافظة على صورة زائفة تصر الذات على التشبث بها .

١٧ — « فى ظل ظروف معينة تتضمن غيابا تاما لأى تهديد لبنيـــة الذات ، يمكن أن تدرك خبرات لا تتسق معها وتفحص ، وتراجع بنية الذات لكى تستوعب هذه الخبرات وتشملها » .

١٨ — « حين يدرك الفرد جميع خبراته الحسية والحشوية ويتقبلها فى نظام واحد متسق ومتكامل ، يصبح عندئذ بالضرورة أكثر فهما للآخرين وتقبلا لهم كأفراد منفصلين » وحين تنمى الشخصية مفهوما للذات متسقا ، فانها تقدر كنتيجة طبيعية لذلك على تكوين علاقة شخصية طيبة متبادلة مع الآخرين .

١٩ — « مع ادراك الفرد لمزيد من خبراته العضوية وتقبله لها فى بنية الذات يجد انه يستبدل نظامه القيمى الحالى — الذى يقوم على ما يستدمجه من الآخرين والذى تعرض لتشويه رمزى — بعملية تقييم عضـــوية مستمرة » ومع زيادة ثقة الفرد فى عملية التقييم يجد النظام القديم غير

ضروري ولم يعد يهدده . وكلمة نظام تحمل معنى الثبات . بينما كلمة عملية تدل على التغيير ؛ والتوافق السليم يتطلب من الفــرد ان يقيم خبراته على نحو مستمر وان يعدل في بنيـــة قيمه حين يكون ذلك ضروريا للتكيف . والسؤال وهو ما يثيره روجرز هل تسفر عمليـــة التقييم المستمرة لخبرات الفرد عن فوضى اجتماعية ؟ ويجيب بالنفى لان الناس جميعا لهم نفس الحاجات وسوف يتمسكون بدرجة عالية من الاتفاق في القيم . (هول ولندزى — فرج ٦٢٣ — ٦٢٤) .

والقضايا الثلاث التالية وردت في عرض روجرز لتصور متطـــور لنظريته في كتاب صدر عام ١٩٥٩ وهو

Psychology . A study of Science , Vol III

والذى راس تحـــريره كوخ S. Koch وقد لا تكـــون صـــــياغتها بالدقة التى صاغ بها روجرز القضايا التسع عشرة الســـابقة والتى قدمها عام ١٩٥١ م .

٢٠— تتناول هذه القضية رغبة الشخصية في التقدير الاجتماعي . ففي بعض الأحيان تهيمن رغبة الفرد في أن يكون على صواب وان يكون جديرا بالثناء والتقدير من قبل الآخرين في مجتمعه على قيمه الذاتية العضوية . اى انه حين يكون من الأهمية بمكان للشخصية أن تعتبر جديرة بالاعتبار من قبل الآخرين ، فان ذلك قد يهيمن ويســـيطر على وظائف الذات العضوية الداخلية وديناميانه الباطنية .

٢١— ولقد تبين روجرز وجود رغبة قوية لتقدير الذات self - esteem موازية للرغبة في التقدير الاجتماعي . ولما كانت هذه الحاجة تنمو مع الخبـــرة فمن الممكن للشخصية ان تتجاهل ضغوط المجتمع الذى ولد لديه الرغبة في التقدير الاجتماعي .

٢٢— ونتيجة لقوى ورغبات ومطالب التقدير الاجتماعي وتقدير الذات تنمو لدى الفرد اتجاه قوامه اعتبار الذات وجدارتها بمساعده على مواجهة مواقف الحياة اليومية الصعبة وهكذا فان شعوره بانه جدير بتحقيق...

يساعده على تقوية رغبته فى تقدير الذات وقدرته على الحصول على الشعور بالتقدير الاجتماعى .

الخبرة والرمز والمعرفة :

عرف روجرز « الخبرة بأنها جميع ما يجرى داخل الكائن الحى فى أى لحظة ويمكن اتاحته للوعى » (1959, p. 197) ان ما نخبـــره فى لحظة ما يشتمل على ما نعيه فى تلك اللحظة وإن لم يقتصر عليه . ففى أى لحظـــة زمنية تؤثر كثير من المثيرات والاحساسات العضوية فى الكائن الحى ، ومنها تتألف خبرته ، واطاره المرجعى الداخلى فى تلك اللحظة . ويدخل فى هذا على سبيل المثال احســاسات الجوع سواء أكان الفرد على وعى بها أو سواء كان انغماسه فى العمل حائلا دون ذلك . والوقائع الماضية جزء من خبرة الفرد اذا كانت نشطة ولها تأثيرها وقت ادراك الخبرة . غير أن النشــاط الكهربائى الكيميائى للجهاز العصبى ولبعض الأعضاء الداخلية كالبنكرياس لا يمكن أن يضمن فى الخبرة لانه من غير الممكن اتاحته للوعى .

والواقع بالنسبة للفرد هو خبرته لان هذه الخبرة هى التى تحـــدد سلوكه . ولهذا فبغض النظر عن درجة سوء تغذية الفرد فانه ما لم يخبر احســاسات الجوع فهو فى الحقيقة ليس جائعا . ولم يحاول روجرز أن يحدد ما هى الحقيقة أو ما هو الواقع فى الحقيقة لانه رأى أن هذا السؤال غير هام لفهم السلوك الانسانى . ولقد رأى انه يمكن تعريف الواقع أو الحقيقـــة للأغراض الاجتماعية بأنها الوقائع التى يتفق عليها الناس فى ثقافة معينة . وهكذا فاذا اتفق الآن على أن السماء تمطر فهذا واقع وحقيقة . ولكن روجرز كان ينبغى أن يقول ان الواقع بالنسبة للفرد هو عالمه الخاص الذى يتألف من خبراته التى يعيها .

وحين ترتبط رموز كالكلمات بالخبرة ، يمكن القول أن الفرد يعى خبرته فالخاصية المحددة للخبرة هى امكانية اتاحتها للوعى . أى ان الخبـــرة هى ما يمكن التعبير عنه رمزيا . والرموز الشـائعة هى الكلمات غير أن هناك أنماطا أخرى من الرموز كالصور البصرية والصور السمعية وتتميز الخبـــرة المرمزة عن الخبرة غير المرمزة فى أن الترميز يتيح للفـــرد أن يتناول عناصر

خبرته من حيث علاقتها الواحد بالآخر وأن يسقط نفسه فى مواقف جديدة وأن يفترض فروضا من نوع اذا حدث كذا فان النتيجة هى كيت وذلك بالنسبة للخبرات المستقبلية (1951, pp. 144-145)

ويستخدم روجرز لفظ ادراك باعتباره مرادفا للوعى والتعبير الرمزى تقريبا والادراك فرض أو تعبير رمزى — فى صيغة اذا حدث كذا فانه يترتب عليه كيت — يعيه الفرد ويستند الى المثيرات التى تؤثر فيه . فانا اعى ان تليفونى يدق وأقول ضمنيا لنفسى « اذا كان التليفون يدق ، فانه سوف يتوقف لو رفعت سماعته » واختبر صحة هذا الفرض برفع السماعة . وادرك صوت المتحدث على انه صوت صديقى س ؛ ولكى اتحقق من صحة هذا الانطباع أرد عليه قائلا : كيف حالك يافلان . ثم اكتشف فى هذه المرة ان ادراكى لم يكن صحيحا لان الصوت ينتمى الى شخص آخر غير صديقى وهذا يصدق على جميع الادراكات فكأنها مقدمة للفعل وفرض للاختبار (1959, p. 199)

ويمكن أن يكون للمثير اثر حتى ولو لم يتم التعبير عنه فى صورة رمزية فى الوعى . اى ان الكائن الحى قد يدرك معنى المثير ادراكا قبل شعورى Subceive اى دون أن يعى ذلك . (1959, p. 200)

وتشبيه الادراك بالفرض يتيح للفرد التمييز بين الادراكات الصحيحة وغير الصحيحة فالفرض يوضع موضع التحقيق باختباره فنثبت صحته أو خطؤه.وتوهم المريض الذهانى بأن المسحوق الأحمر الذى وضع على الطعام سم ادراك غير صحيح لانه سوف يثبت خطأ التنبؤ « اذا تناولت الطعام سوف أموت » وبطبيعة الحال طالما انه سيسلك وفق ادراكه فانه سوف يرفض التحقق من صحة هذا التنبؤ او خطئه . وبالتالى فانه لا يمكن دحض هذا الفرض .

ولا تختلف الادراكات من حيث درجة دقتها وصحتها فحسب ، وانما تتفاوت على بعد آخر هو التضيق والاتساع intensionality - extensionality فالفرد الذى يتأثر بالتضيق يدرك « على أساس شروط مطلقة أو غير مشروطة ويعمم تعميما زائدا ويخضع فى ذلك لمفهوم أو معتقد ويحقق فى تحديد مثال

وزمان معينين لاستجاباته . ويخلط بين الحقيقة والتقويم ويعتمد على التجريدات بدلا من اعتماده على اختبار الواقع » (1959, p. 205)

وفي الادراك الممتد تدرك الخبرة على أساس شروط تمايزها . وفي ضوء حدودها ؛ وهناك وعي بموقع الحقائق من المكان والزمان . وعلى الرغم من أن الحقائق هي التي تسود وتسيطر الا أنها تقوم بطرق كثيرة . وهناك أيضا وعي بالمستويات المختلفة للتجريدات والاستنتاجات . وهذه تختبر في ضوء الواقع . (1959, p. 202)

فحين يسأل الشخص الذي يتميز بادراك ضيق عن أسباب الاضطرابات التي يحدثها مجموعة من العاملين في معسكر ، فانه قد يجيب ببساطة « يرجع ذلك الى مجموعة من المتطرفين الذين لا يصلحون لشيء والذين يريدون كل شيء في مقابل لا شيء » أما الشخص الذي يتميز بادراك متفتح فانه سوف يستجيب قائلا . لا أستطيع ان أجيب عن السؤال أولا لانى لا أعرف جميع حقائق الموقف ؛ وثانيا لان هناك أسبابا كثيرة تؤدي الى مثل هذه الظاهرة. وتحديد ما ينطبق فيها على هذه الواقعة يقتضي الدراسة .

واكثر الخبرات والادراكات والمعارف اهمية ومغزى هي تلك التي تتعلق بنا وبالآخرين . ويميز روجرز في هذا المجال بين ثلاثة طرق للمعرفة (١) طريقة لمعرفة الذات وطريقتين لمعرفة الآخرين . فالخبرات المتساوقة والمتاحة لوعي الفرد تؤلف اطاره المرجعي الداخلي . وهذا هو عالم الفرد الخاص الذاتي ، وهو عالم لا يستطيع معرفته على نحو تام الا هو . وبمقدار وعي الفرد باطاره المرجعي الداخلي يقال أن لديه معرفة ذاتية .

والطريقتان الأخريان التي يمكن أن استخدامهما لمعرفة الشخص الآخر هما طريقة المشاركة الوجدانية ، وطريقة الاطار المرجعي الخارجي . ويقصد بالمعرفة بالمشاركة الوجدانية عند روجرز ان ندرك اطار الشخص الآخر المرجعي الداخلي اي أن نعرف مدركاته ومعانيه ومشاعره . ان المشاركة الوجدانية تعني انك تعرف الشخص الآخر كما لو كنت أنت هو . وكلمة كما لو كنت هامة لهذا النوع من المعرفة ؛ لانها تعني أنك في الوقت الذي تعرف شخصا آخر معرفة دقيقة مازلت تحتفظ بهويتك . وبغير عبارة

كما لو كنت فانك لا تشارك الآخر وجدانيا ؛ وانما تتوحد معه . وحين تدرك شخصا آخر من خلال اطارك المرجعى الداخلى فلديك معرفة بالآخر من خلال اطار مرجعى خارجى بالنسبة له . وهكذا فانك تدرك بهذه المعرفة الموضوعية الآخر كشىء وكموضوع شبيه بك ولكنك تفعل هذا من خلال اطارك أنت وهو اطار خارجى بالنسبة للشخص الآخر المدرك .

والمعرفة الذاتية يمكن اختبار صحتها فى ضوء الاطار المرجعى الداخلى كما يحدث حين تقول لنفسك « هل أريد فعلا أن اعمل ذلك ؟ » ويمكن اختبار صحة المعرفة الوجدانية عن طريق الشخص الذى تشاركه هذه الوجدانيات وذلك حين تسأله « هل تشعر أن كل شىء يسير فى الاتجاه الخاطىء وأن النقد قد حطمك ؟ » أما التثبت من صحة المعرفة الموضوعية للشخص الآخر فيتم بمراجعة الآخرين ، وليس بمراجعة الفرد نفسه . وهكذا فان القائم بتشخيص حالة قد يقول « سوف أتبين ما اذا كان زملائى يتفقون معى فى التشخيص الذى توصلت اليه بالنسبة لهذه الحالة أم لا ؟ » وجميع طرق المعرفة هذه مفيدة غير أن لكل منها مواضعه المحددة . وينشأ الخلط فقط حين نخفق فى تحديد أى هذه الطرق هو ما نعنيه .

ولقد اقترح روجرز علينا مدخلا ادراكيا (1951, pp. 142-146) للتعلم . فراى أن التعلم يؤدى الى تمايز متزايد فى المجال الادراكى . ولا يقصد بهذا التمايز تجزئة المجال الادراكى الى وحدات اصغر . وانما يقصد به اختيار عنصر ادراكى لم يلحظ من قبل والتركيز عليه . واذا نظم المجال الادراكى تنظيما يتسم بالتقييد أى على صورة فئات جامدة فلن يكون التعلم سهلا . ولكن الفرد حين يدرك المجال الادراكى على نحو متسع متفتح فان هذا معناه أن المجال الادراكى سيتألف من عناصر مفككة أو قابلة للتغيير ويسهل فى هذه الحالة فصلها والالتفات اليها جميعا .

ولما كانت النزعة الى تحقيق الذات اساس كل تعلم والدافع اليه . فان العناصر التى يدركها الفرد باعتبارها ذات صلة ببقائه وتحسنه هى التى يتعلمها تعلما ذا مغزى . ويمكن تعلم الأشياء التى ليس لها مغزى تعلما آليا صما ، ولكن التعلم ذا المغزى ليس مجرد اكتساب جزئيات وحقائق واستجابات . انه ذلك التعلم الذى يستغرق الشخص كله ؛ وهو تعلم حقيقى

وحيوى ، وهو تعلم أعمق من الاكتساب العقلى للمعرفة ، وكثيرا ما يجد الفرد أن من الصعب عليه أن يتوصل الى صورة عقلية واضحة لهـذا التعلم ذى المستوى العميق . (1953; pp: 85-88) (1969b, pp. 3-5)

والنزعة الى تحقيق الذات تدفع الى الابداع والابتكار ولقد عرف روجرز الابتكار بأنه « بزوغ منتج يتميز بنمط جديد من العلاقات فى أعمالنا ، ناتج عن تفرد الفرد من ناحية وعن المواد التى يستخدمها والوقائع التى يواجهها والناس الذين يعايشهم فى حياته من ناحية أخرى (1954 b, p. 350) ووفقا لهذا التعريف فان نتاج الابتكار ينبغى أن يبزغ فى فعل ظاهر وبالتالى ينبغى أن يكون قابلا للملاحظة ، فاللحن الذى يدور فى رأســك يكون جديدا ، ولكن لا يمكن اعتباره مبتكرا ما لم يبرز فى انتاج يمكن ملاحظته . وقد يكون هذا المنتج جديدا 'new' ، ولكن هذا لا يكفى اذ ينبغى أن يكون طريفا novel وبينما نجد أن المنتج المبتكر يحمل علامة الفرد وطابعه ، الا أنه يتحدد فى ضوء شخصية الفرد وفى ضوء المواد التى استخدمها وعمل بهـــا . ولكى يكون الفرد مبتكرا عليه أن يعى خبرته وأن يدرك العالم ادراكا متفتحا ، وأن يقدر على القيام بتقييماته على أساس اطاره المرجعى الداخلى والا يعتمد على أحكام الآخرين ، وفى النهاية ينبغى أن يكون لديه مهارة فى معالجة عناصر خبرته معالجة رمزية (1954 b, p.p. 349-355)

العلاج النفسى :

نتجت أفكار روجرز عن الشخصية عن ممارساته العلاجية . ولقد تطورت نظريته فى الشخصية نتيجة لمحاولاته فى فهم المبادىء التى أثبتت فائدتها فى العمليات العلاجية .

لقد تغير وصف العملية العلاجية الذى قدمه لنا روجرز عبر السنوات فلقد أشار الى طريقته فى العلاج فى البداية على انها الطريقة غير المباشرة nondirective وتؤكد على قدرة العملاء على حل مشكلاتهم متى ما توافر لهم المناخ السليم ، ثم أطلق روجرز بعد ذلك على أسلوبه فى العلاج « العلاج المتمركز حول العميل "Client-centered therapy" وقد أصبح العلاج النفسى الآن محاولة متمركزة حول الانسان ... انغماسا عميقا من قبل كل من العميل

والمعالج ... وبدلا من أن يوفر المعالج النفسى المناخ الذى يتيح للعملاء أن يروا على نحو تدريجى وبوضوح اكبر طبيعة مشكلاتهم كما كان الحال فى مرحلة مبكرة ، فان عمل المعالج الآن هو أن يحاول على نحو نشط أن يفهم المجال الفنومنولوجى للعملاء أو اطارهم المرجعى الداخلى . وتسمى المرحلة التالية مرحلة الخبرة experiential stage وخلال هذه المرحلة تطور فكر روجرز واصبح المعالج حرا كالعميل . والآن فان للمشاعر الشخصية العميقة لكل من المعالج والعميل أهمية متساوية ، وتعتبر العملية العلاجية كفاحا لوضع هذه المشاعر فى كلمات .

ولقد سميت المرحلة الحالية من تفكير روجرز مرحلة التمركز حول الشخص person - centered stage . وخلال هذه المرحلة اتسعت نظريته فشملت مجالات كثيرة ابعد من مجال العلاج النفسى ؛ ومن هذه المجالات مجال التربية ، والزواج والأسرة وجماعات المواجهة ومشكلات جماعات الأقلية والعلاقات الدولية ومهما يكن من شىء فان روجرز يشعر ان اتساع مجال التطبيق وعظمه بالنسبة لنظريته ليس هو أهم القضايا فى المرحلة الراهنة ، وانما الأهم التأكيد على الشخص بدلا من أن ننظر اليه على انه مجرد عميل أو تلميذ .

« فالتحول الى التأكيد على التمركز حول الشخص اعمق فى مغزاه من اتساع مجال تطبيقات النظرية . ان هذا التحول يحاول أن يؤكد على ان الفرد هو وحدة جميع التفاعلات كشخص وكائنية وككينونة ، وليس على أساس هوية دور معين يقوم به عميلا أو تلميذا أو معلما أو معالجا . ان التغيير فى التسمية انما هو تعبير عن التعقد التام لكل شخص ، انه يبين ان كل فرد أكبر من مجموع الأجزاء التى يتألف منها »

(Holdstock & Rogers, 1927, p. 129)

وعلى الرغم من التغيرات التى طرأت على تفكير روجرز عبر السنوات الا أنه بقيت مكونات اساسية من نظريته بدون تغيير . وهذه المكونات هى اهمية النزعة الى تحقيق الذات ، واهمية عملية التقييم العضوية كاطار مرجعى ليعيش الفرد حياته ، واهمية الاعتبار الموجب غير المشروط فى السماح للشخص لكى يعيش حياة غنية ممتلئة .

ويلخص روجرز الشروط التى يشعر أنها ضرورية للعلاج الفعال
(1959, p. 213)

— ينبغى أن يكون العميل والمعالج فى اتصال واحتكاك ، أى أن يكون لكل منهما تأثير فى المجال الفنومنولوجى للآخر .

١ — ينبغى أن يكون العميل فى حالة عدم اتفاق ، وبالتالى قابل للتأثر أو معرض للقلق .

١ — نيبغى أن يوفر المعالج للعميل تقديرا موجبا غير مشروط
unconditional positive regard

٤ — ينبغى أن يسعى المعالج لفهم شعورى للعميل فى اطاره المرجعى الداخلى .

ه — ينبغى ان يدرك العميل أن المعالج يوفر له تقديرا واحتراما موجبا غير مشروط ليفهم اطاره المرجعى الداخلى فهما شعوريا .

فاذا توافرت هذه الشروط الضرورية للعلاج الفعال فان من المتوقع ان نلاحظ التغيرات الآتية فى العميل : —

١ — سوف يعبر العملاء عن مشاعرهم ازاء حياتهم بحرية اكبر .

٢ — يصبح العملاء اكثر دقة فى وصفهم لخبراتهم وللوقائع حولهم .

٣ — سوف يبدأ العملاء فى اكتشاف عدم الاتفاق بين مفهوم الذات وخبرات معينة .

٤ — سوف يشعر العملاء بأنهم مهددين حين يخبرون عدم الاتفاق ، ولكن الاعتبار الموجب غير المشروط من قبل المعالج يتيح لهم أن يمضوا فى تناول الخبرات غير المتفقة دون تشويهها أو انكارها .

٥ — سوف يقدر العملاء على التعبير الرمزى الدقيق عن مشاعرهم التى انكروها فى الماضى او شوهوها وعلى الوعى بها .

٦ — ويعاد تنظيم مفاهيم العملاء عن ذواتهم ، وهكذا يصبحون قادرين على تضمين هذه الخبرات فى وعيهم وقد تعرضت للانكار من قبل .

٧ — ومع استمرار العلاج يتزايد الاتفاق بين مفاهيم العملاء عن ذواتهم وبين خبراتهم . أى أن الذات الآن تتمثل كثيرا من الخبرات التى كانت تهددها من قبل ، ومع شعور العملاء بنقصان تهديد الخبرة تقل دفاعاتهم .

٨ — ومع استمرار العلاج نجد العملاء يشعرون بأنهم هم انفسهم وعلى نحو متزايد موئل التقويم فى حياتهم .

٩ — ويكون العلاج ناجحا اذا قومت خبرات العميل فى النهاية على اساس عملية التقييم العضوية وليس على أساس شروط الجدارة والقيمة .

١٠— ويصبح كل هذا ممكنا نتيجة لادراك العملاء لاحترام المعالج غير المشروط لهم وجهوده التى يبذلها لفهم طريقة رؤيتهم للأشياء .

ان العميل من خلال العلاج النفسى يبدأ فى اسقاط الواجهات الزائفة أو الاقنعة أو التخلى عن الأدوار التى واجه الحياة بها ، انه يحاول فيما يبدو الكشف عن شىء أساسى بدرجة أكبر ، شىء أكثر صدقا مع نفسه .
(1961, p. 109)

ويؤكد روجرز اعتقاده بالخيرية الفطرية للناس حين يصف ما يحدث نتيجة للعلاج النفسى قائلا :

« يصبح الفرد فى العلاج كائنا حيا انسانيا،حائزا لكل الخصب والغنى الذى يتضمنه هذا المعنى . انه قادر على نحو واقعى على أن ينضبط نفسه ، كما أن رغباته قد طبعت اجتماعيا ولا سبيل الى افسادها ولا يوجد وحش داخل الانسان ، وانما يوجد انسان داخل الانسان . وقد استطعنا أن نطلق سراحه » (1953, p. 67)

فالعلاج اذن صمم للتخلص من عدم الاتفاق بين الخبرة والذات . وحين يعيش الانسان وفقا لعملية التقييم العضوية الخاصة به ، وليس على اساس

شروط ومتطلبات الجدارة فانه لا يحتاج الى دفاعات الانكار والتشـــــوية ويصبح الفرد عندئذ انسانا يؤدى وظائفه على نحو مكتمل .

وقد انبثق من هذه الفلسفة الأساسية عند روجرز آراءه عن التداعى الحر وعن استخدام الاختبارات النفسية التشخيصية ودراسة الحالة كعينات للعلاج . ولقـــد اعتقد روجرز (١٩٥١) أن التداعى الحـــــر والاختبارات التشخيصية وتاريخ الحالة تعوق العلاج النفسى لانها تضع العميل فى موقف اتكالى وتضع المعالج فى موضع السلطة والخبرة . ان التداعى الحر يحمل فى طياته معنى اتكالية العميل لانه يتحرر من المسئولية الشخصية حين يترك لعقله العنان بتنقل من فكرة الى أخرى وفى أى اتجاه . ان الاختبار ودراسة تاريخ الحالة ينقل للعميل انطباعا بأن المعالج يعرف كل شىء عنه ، وأن كل ما يمكن للعميل أن يقوم به هو أن يتبع توجيهات المعالج للتخلص من مشكلته.
(W.B. Arndt, JR, p. 86)

وينبغى أن يكون هناك تمييز واضح بين استخدام الاختبارات النفسية فى الموقف العلاجى ، واستخدامها فى الموقف البحثى . صحيح أن العملاء الذين يعالجون بطـــريقة التمركز حول العميل يجيبون عن اختبارات تطبق عليهم ؛ ولكن كموضوعات بحث ؛ وليس لتـــزويد المعــــالج بمعلومات عن شخصياتهم ومشكلاتهم .

خصائص الشخص الذى يقوم بوظائفه على نحو تام :

ان الشخص الذى يقوم بوظائفه بكل ما فى الكلمة من معنى لا يكون فى حالة استاتيكية ، وانما يكون فى حالة صيرورة ، فهو يتحرك نحو المعرفة التامة بنفسه وبمدى خبراته الكامل . وفيما يلى نورد الخصائص العشر لهذا النوع من الأشخاص مع التمثيل لبعضها : —

١ — انه متفتح لجميع خبراته . وهو ليس فى حاجة الى أن ينكر شيئا مغبة التهديد وليس فى حاجة ان يتخذ موقف الدفاع بالنسبة لخبراته .

٢ — وبناء على ذلك فان خبرته كلها قادرة على أن تجد تعبيرا رمزيا لهـــا وفيما يلى قول عميل يتحدث الى معالجه يوضح هذه النقطة .

العميل :لا يبدو لى أن فى الامكان بالنسبة لأى فرد أن يربط بين جميع التغيرات التى نشعر بها . ولكننى بالتأكيد شعرت حديثا بأن لدى احترام اكبر لتكوينى الجسمى ونظرة أكثر موضوعية نحوه. اقصد أنى لا اتوقع الكثير من نفسى . وسوف ابين كيفية حدوث هذا . اشعر بأننى تعودت فى الماضى أن احارب تعبا معينا كنت اشعر به بعد تناول العشاء حسنا ؛ انى اشعر الآن باننى حقا متعب وبدرجة معقولة ولست مسببا لهذا التعب — اى اننى فسيولوجيا أقل نشاطا وليس اكثر من ذلك . ويبدو اننى كنت دائما انتقد تعبى وارفضه .

المعالج : اذن انت تتقبل تعبك وتتركه يتخذ مساره ، وحين تشعر بالتعب لا تقف من نفسك موقف الناقد له . (1954 a, p. 116)

٣ — سوف يبلغ التعبير الرمزى درجة من الدقة بمقدار ما تسمح به الخبرة دون حاجة الى تشويه الادراك والخبرة .

٤ — ولما كانت خبراته الذاتية تجد لنفسها تعبيرا رمزيا دقيقا ، فان مفهومه عن نفسه سوف يتطابق مع خبرته .

٥ — ان قدرته على الادراك والخبرة الممتدة المتسعة ، ونقصان الدفاعية يجعل مفهوم ذاته ذا بنية مرنة يتمثل كل خبرة جديدة يواجهها .

٦ — وسوف يتوافر لدى الفرد وجهة تقويم داخلية Internal locus of Evaluation ولقد وصف احد العملاء هذا الشعور قائلا :

العميل : نحن لا نستطيع ان نقوم قيمنا معتمدين على اى مصدر خارجى من الكون — علينا أن نتقبلها ثم نقومها من خلال جهازنا العصبى ، أى أن نقول ان طريقة معينة للحياة افضل من اخرى . وبالطبع فان بعض الناس يحاولون تبريرها بالقول بأنها افضل لان الانجيل يقول هذا ، وهلم جرا . ولكننا فى التحليل النهائى نقوم طرقا مختلفة للحياة — انها جيدة لاننا نشعر بأنها طيبة بالنسبة لنا ، وأن هذا هو كل ما يتعلق بالموضوع .

المعالج : هذا صحيح . (1942. p.p. 367-368)

٧ — عدم الشعور بأن خبرة ذاتية معينة جديرة باعتبـار الذات عن خبرة أخرى . ان الشخص الذى يقوم بوظـائفه على نحـو تام ليس لديه شروط للجدارة .

٨ — سوف يقدر على تقدير وتذوق تفرد كل موقف جديد ، وسوف يعالجه على نحو مبتكر وفقا لميله نحو تحقيق قدراته .

٩ — سوف يرشد سلوك الفرد بمعيار عملية التقييم العضوية الخاصة به ، أى انه سيحكم على خبرته وسلوكه فى ضوء مدى اشبـاعها لدافعه لتحقيق الذات .

١٠ — سوف يقدر على فهم الآخرين وتقبلهم وسوف يعيش معهم فى أقصى وئـام .

« وقد لاحظ روجرز وجود تشابه بين مفهومه عن الشخص الذى يؤدى وظائفه على اكمل وجه ، ومفهوم ماسلو عن الشخص الذى يحقق ذاته . فالشخص الذى يؤدى وظائفه على نحو تام يثق فى مشاعره ويعتبر افعاله موجبة وبناءة . ولما كان متفتحا ازاء خبرته فانه شخص عقلانى بدرجة كبيرة . وسلوكه قانونى وموجه نحو تحقيق ذاته . غير أن سلوكه على أية حال غير قابل للتنبؤ تماما ، وليس معرضا للضبط الخارجى لانه موجـه من الداخل وليس موجها من الخارج . ان مثل هذا الشخص حر فى اختيار مسـار العمل الذى يتسق على افضل نحو مع تقوية ذاته ككائن حى »
(W.B. Arndt, Jr; 455-457)

البحوث وطرق البحث :

لقد قرر كارل روجرز فى عام ١٩٥٥ انه واجه صعوبة كبيرة فى التوفيق بين اهتمامه بالناس كمعالج نفسى وتصوره للدراسة العلمية لهم . لقد حاول روجرز كمعالج نفسى أن يفهم عملاءه ؛ ولم يستطيع ان ينظر اليهم كموضوعات عليه ان يتابعها ويدرسها . ولقد حاول بدلا من ذلك أن يفهمهم بشروطهم ،

وأن يفهمهم وهو متعاطف معهم . وبيانات روجرز كمعالج تتألف من استجاباته لخبرات عميله الانفعالية . وهو يقدمها له على مستوى المشاعر والعواطف، أما روجرز كباحث فقد رأى أنه من غير المسموح بأن ينظر الى مثل هذه البيانات كشاهد ودليل علمى . ان الباحث ينظر الى المفحوص كشىء يوضع موضع الدراسة وليس كشخص يفهم بتعاطف . فالعميل كعميل شخص علينا أن نفهمه ، والعميل كمفحوص فى بحث علمى موضوع علينا ان نقيمه . ولم يستطع روجرز لفترة من الزمان أن يوفق بين هاتين النظرتين .

ولقد قرر أن هذه الفجوة التى شعر بوجودها بين الناس والعلم لهـا جذورها فى تصوره الخاطىء عن العلم باعتباره يختلف عن الناس . ولكنه تحقق فيما بعد بأنه لا يمكن الفصل بين العلم والنـاس ، وان الفهم العلمى لا يختلف عن الفهم الذاتى . ولقد اكتشف روجرز انه لا يوجد علم هناك فى الخارج ، وانما يوجد أناس يبحثون فى العلم ويشتغلون به . ولا يصبح العالم مهتما بحل مشكلة معينة من خلال الاجراءات العلمية . وانما هو يريد أن يتناول مشكلة لانها تهمه كشخص وهو ينغمس كلية فى المشكلة ويشعر بها بوجوده الكلى . ان العالم لا يرضى ولا يقنع بمجرد تحديد مجال المشكلة وبمقترحات لحلها . انه يريد أن يختبر أفكاره فى ضوء الواقع . ولكى يقوم بهذا فانه يستخدم المنهج العلمى . وهو يختبر فروضه حتى لا يتعرض لخداع من أفكاره فالمنهج العلمى اذن هو اداة يستخدمها الناس ليشحذوا خبراتهم ومدركاتهم ولكى يتيحوا لافكارهم غير الغامضة نسبيا ولخبراتهم أن تنتقل الى الآخرين وتصل اليهم . ان ما ينتج عن اختبار صحة او خطأ افكار الناس وفى ضوء الواقع ليس مجموعة من الحقائق التى ثبتت صحتها دون اى ظل من الشك . ان نتائج العلم معتقدات تقريبية يتمسك بها مجموعة من الأشـخاص على نحو ذاتى .

وهكذا فان البدء فى البحث العلمى ومنهجه ونتائجه ليست مسائل مستقلة عن الناس ولا معارضة لهم، وانما العلم هو طريق يستخدمه الناس ليساعدهم على أن يخبروا الوقائع التى تهمهم ويفهموها .

« فالعلم شأنه شأن العلاج وجوانب الحياة الأخرى متجذر فى خبرة

الشخص الذاتية المباشرة ويقوم عليها . انه ينبثق من الخبرة العضوية الكلية الداخلية والتى يمكن توصيلها ونقلها للآخرين على نحو جزئى وغير تام . أنه مرحلة من مراحل الحياة أو العيش الذاتى »

(W.B. Arndt, Jr : 12) (1955, 222)

الفهم والتنبؤ :

التنبؤ من وجهة نظر روجرز هدف لا يمكن بلوغه فعلا لاننا لا نستطيع ان نتوصل الى الاطار المرجعى الكامل للشخص الآخر . غير أن هناك قدرا معينا من الكفاءة فى التنبؤ فيما يتصل بالعلاج النفسى . وتعتمد القابلية للتنبؤ على درجة الاستبصار الذاتى التى يقدر على بلوغها العميل خلال جلسات العلاج . وكلما ازداد استبصار الذات كلما كانت الدلالات المبشرة بتكيف جيد أفضل .

ولقد وجد روجرز أن التنبؤ بالنجاح بالنسبة له كمعالج يعتمد أساسا على استيعاب الاتجاهات والاجراءات وليس على استخدام الأدوات والأساليب . ويرى روجرز أن هناك ستة مجالات يكون التنبؤ فيها ممكنا : —

١ — نحن نعرف كيف نهيىء الظروف أو الشروط التى فى ظلها يصدر أفراد كثيرون احكاما صادقة مع انها معارضة للبيانات التى تتوافر لهم عن طريق حواسهم . ولعل تجربة آش عن تأثير الجماعة على ادراك الأفراد مثال لهذه الفكرة ، ذلك انه حين يساق شخص الى الاعتقاد بأن كل افراد المجموعة التى هو احد اعضائها يرى أن الخط (أ) اطول من الخط (ب) فانه يكون لديه الميل القوى الى الأخذ بهذا الحكم رغم اعتقاده الحقيقى بأن احساساته تخالف هذا الحكم .

٢ — نحن نعرف كيف نغير آراء فرد فى اتجاه معين نختاره ، دون أن يعى قط المثيرات التى غيرت رايه . فلو عرضنا صورة ثابتة غير معبرة لانسان ، وطلبنا من المفحوصين أن يلاحظوا ما يحدث من تغيير فى تعبير الصورة . ثم قرنا هذا بعرض كلمة غاضب او سعيد على الشاشة بين الحين والحين ولفترات قصيرة جدا بحيث تكون دون مستوى وعى المفحوصين Subliminal level فان هذا يؤدى الى ميل المفوصين الى

رؤية الوجه على أنه أكثر غضبا أو أكثر سعادة .

٣ — نحن نستطيع أن نتنبأ بما اذا كان الأفراد يميلون الى التعصب أو لا يميلون اليه من طريقة ادراكهم لحركة بقعة ضوئية فى غرفة مظلمة. فالأكثر تعصبا كانوا يرون حركة اقل ممن دونهم فى التعصب ، وكانوا اميل الى مسايرة احكام الآخرين .

٤ — نحن نعرف الاتجاهات النفسية التى حين يقدمها المرشد النفسى أو المعالج للعميل ، فانها تكون متبوعة عادة بتغيرات معينة بناءة فى شخصيته وسلوكه .

فالمعالج اذا وفر مناخا يتيح درجة اكبر من الانفتاح للخبرات ، مناخا يرى العميل قادرا ذا جدارة ، مناخا يوفر للعميل التقبل والتشجيع بدون شروط او تحفظات . مناخا يكون المعالج فيه متفهما ومدركا ادراكا متعاطفا لعالم العميل الخاص من المشاعر والاتجاهات ، اذا حدث هذا فان العميل يصبح اكثر واقعية فى ادراكه لذاته ، واكثر ثقة فيها وتوجيها لها ، واكثر قدرة على تقييم نفسه على نحو ايجابى ، واقل ميلا الى انكار أو تشويه خبراته ، واكثر اقترابا من الشخص السليم المتكامل .

٥ — نحن نعرف كيف تزود الحيوانات بخبرة اكثر اشباعا تتألف كلية من استثارة كهربية . لقد تبين اولدز انه حين ادخل اقطابا كهربية دقيقة فى منطقة الحاجز Septal area بالمخ لدى الفيران فى تجربة معملية قام بها . أن الفيران كانت تميل الى الضغط على الرافعة لكى تحدث تيارا كهربيا يصل الى هذا الجزء من المخ وكانت تفعل هذا حتى تصل الى مرحلة الانهاك غالبا . وكانت الفيران تفضل هذا النشاط على اى نشاط آخر . ولن نتأمل فيما اذا كانت هذه النتيجة تصدق على الانسان أم لا تصدق عليه .

٦ — نحن نعرف كيف نوفر الظروف النفسية التى تحدث هلوسات واضحة واستجابات شاذة أخرى عند الفرد السوى فى حالة يقظته . فقد اتضح من بحوث أجريت بجامعة ماكجيل Mcgill انه اذا تعرضت

جميع قنوات الاستثارة الحسية للتعطيل ، نتج عن ذلك استجابات غير سوية وهاوسات .

ولقد بين روجرز أن هذه الصورة التى قدم بعض جوانبها تبعث على الخوف وهو يشعر أن معظم علماء النفس وعلماء المجتمع لم يفكروا الا قليلا فيم يقصد بالتنبؤ بالسلوك الانسانى وضبطه وهناك أربع خطوات تمكن الانسان من أن يسيطر على انسان آخر وهى : —

اولا — اختيار الأهداف .

ثانيا — استخدام الطريقة العلمية فى الضبط التجريبى .

ثالثا — توافر السلطة التى تمكن من توفير الظروف واستخدام الطرق العلمية .

رابعا — تعريض الأفراد للطرق والشروط السابقة .

وقد التحق روجرز بالمعهد الغربى للعلوم السلوكية فى كاليفورنيا وانغمس فى خبرات جماعية كالتدريب على الحساسية وجماعات (T) وغيرها وهو متحمس لهذه الجهود ولكنه يدرك الحاجة لدراسة العمليات التى تحدث داخل مثل هذه الأنشطة الجماعية والتى يمكن أن تسفر عن قضايا نظرية يمكن اختبارها امبيريقيا .

وكثير من علماء النفس يدرسون مفهوم الذات على أساس نظرية روجرز . ولقد تراوحت الأبحاث فى هذا المجال من التحليل العاملى الى التثبت من صدق اختبارات مفهوم الذات الى تحليل البنية الأساسية لنظريات الذات نفسها .

ولقد اجريت بحوث عن صورة الذات لدى الفصاميين . وقد اتضح أن صورة الذات ليست وظيفة بسيطة لسوء التكيف . ولقد تم نشر نتائج دراسة استغرقت ست سنوات واجريت على عينة من الفصاميين وذلك تحت قيادة روجرز وهو فى جامعة وسكنسن .

(L. J. Bischof, p.p. 345-346) (Rogers, 1967 c)

أسلوب كيو فى تصنيف البطاقات : The Q - sort Technique

من أهم النقاط المثيرة للاهتمام عند روجرز تأكيده على أهمية المجال الفنومنولوجى الذاتى الكلى للفرد من ناحية وعلى أهمية المنهج العلمى من ناحية أخرى . يقول روجرز :

« فالعلاج خبرة استطيع ان ادع نفسى فيها لتمضى بطريقة ذاتيــة . والبحث خبرة استطيع فيها أن أقف بعيدا ، وأن أحاول النظر الى خبــرة ذاتية حقيقية بموضوعية ، وأن أطبق طرق العلم الأنيقة لتحديد ما اذا كنت قد خدعت نفسى . لقد نما الاعتقاد والاقتناع داخلى باننا سوف نكتشف قوانين الشخصية والسلوك التى لها مغزاها بالنسبة للتقدم الانسانى أو بالنسبة للفهم الانسانى كقانون الجاذبية وقوانين الديناميكا الحرارية »

(Rogers 1961, p. 14)

والتأكيد على الطريقة العلمية ليس هو الفيصل الذى يميز نظــرية روجرز عن نظريات سكنر ودولارد وميلر وامثالها بل الفيصل هو ما نجده فى اصرار روجرز على أن يوجه البحث العلمى لدراسة الخبرة الفنومنولوجية بدلا من توجيهه لدراسة السلوك الظاهر .

وكمعالج له ميل ونزعة علمية لم يستطع روجرز أن يتقبل ويصــــدق التغيرات التى يفترض حدوثها خلال العلاج أو التغيرات التى بدا وظهر أنها حدثت نتيجة له . وانما حاول شأنه فى ذلك شأن أى عالم جيد أن يجد طريقة لقياس مقدار التغير الذى طرأ على العميل نتيجة للعلاج . وكان الأسلوب الذى وجد روجرز انه اكثر الأســـاليب نفعا ذلك الذى وضــــعه ستيفنسن William Stephenson وهو زميل لروجرز فى جامعة شيكاغو واطلق على هذا الاسلوب اسلوب كيو التصنيفى .

ويمكن أن يطبق هذا الاسلوب بطرق عديدة مختلفة ، ولكنها جميــعا تستخدم نفس المفاهيم والمسلمات وهى : ـــ

أولا : من المفترض أن العميل يستطيع أن يصف نفسه بدقة ويطلق على هذا الوصف « الذات الواقعية » .

ثانيا : من المفترض أن الشخص يستطيع أن يصف بعض الخصائص التى يود أن يمتلكها أو يتصف بها ولكنهـا لا تتوافر لديه الآن ويطلق على مجموعها الذات المثالية ideal self . وحين يبدأ العلاج يكون هناك تعارض كبير بين ذات الشخص الواقعية وذاته المثالية .

وتتم اجراءات تطبيق اسلوب كيو التصنيفى على النحو الآتى : —

١ — يزود المفحوص بمـائة بطاقة تحتـوى كل واحدة منهـا على عبارة كالعبارات الآتية :

— أنا ذكى — كثيرا ما أشعر بالذل

— لدى شعور باليأس — أستطيع عادة أن اقرر شيئا وأن اتمسك به.

— احتقر نفسى — أعبر عن انفعالاتى بسهولة

— لدى اتجاه موجب نحو نفسى .

٢ — ويطلب من العميل أن يختار العبارات التى تصف ما هو عليه أفضل وصف وهذا هو التصنيف لخصائص الذات الواقعية . ولتيسير التحليل الاحصائى لنتائج تصنيف البطاقات يطلب من العميل أن يصنف البطاقات بطريقة تؤدى الى توزيع تكرارى اعتيادى لها . ويتم ذلك بأن يطلب من العميل أن يضع البطاقات ويوزعها فى تسع مجموعات . وهى مرتبة بحيث تتحدد البطاقات التى تحمل الصفات التى تشبه العميل أعظم شبه فى طرف ، ويوضع فى الطرف الآخر البطاقات التى يقل انطباقها عليه الى اقصى حد ، أما العبارات التى توضع فى الوسط فهى التى تعبر عن السمات التى لا يستطيع العميل ان يقرر ما اذا كانت تنطبق عليه أم لا تنطبق . انها العبارات الحيادية . ويوضح الجـدول (١ — ١٦) عدد البطاقات التى وضعها أحد العملاء فى كل مجموعة .

٣ — ثم يطلب من المفحوص أن يصنف البطاقات مرة أخـرى بحيث يصف الشخص الذى يود أن يكون على مثاله . وهذا هو التصنيف المثالى .

الجدول (١ — ١٦)

يوضح توزيع البطاقات التى صنفها احد العملاء لوصف نفسه

	تشبهنى بأقل درجة			لا أعرف			تشبهنى بأعظم درجة		
رقم المجموعة	صفر	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
عدد البطاقات (العدد الكلى ١٠٠)	١	٤	١١	٢١	٢٦	٢١	١١	٤	١

وهذا الاجراء يتيح للمعالج النفسى ان يفحص عددا من خصائص العملية العلاجية . ويستطيع أن يفحص العلاقة بين الذات الواقعية والذات المثالية عند بداية العلاج وفى منتصفه وفى نهايته . والطريقة الشائعة للتعبير الكمى عن هذه المتغيرات هى باستخدام معامل الارتباط .

ولقد قدم لنا روجرز (١٩٥٤) معاملات الارتباط الآنية بين تصنيف العبارات التى تصف الذات الواقعية لأحد العملاء قبل العلاج وتصنيفه فى عدة نقاط خلال عملية العلاج : —

— بعد الجلسة السابعة ٥٠ر٠

— بعد الجلسة الخامسة والعشرين ٧١ر٠

— بعد العلاج ٣٩ر٠

— بعد ١٢ شهرا من انتهاء العلاج ٣٠ر٠

ومعاملات الارتباط السابقة تبين أن مفهوم الذات للعميل يتزايد اختلافه كلما تقدم فى العلاج عن مفهومه لذاته عند بداية العلاج . كما ان روجرز

حسب معاملات الارتباط بين تقديرات مفهوم الذات الواقعية وتقديرات مفهوم الذات المثالية فى عدة مراحل من العلاج وحصل على المعاملات الآتية : —

— قبل العلاج ٣٦ر٠

— بعد الجلسة السابعة ٣٩ر٠

— بعد الجلسة الخامسة والعشرين ٤١ر٠

— بعد العـــــلاج ٦٧ر٠

— بعد ١٢ شهرا من العلاج ٧٩ر٠

ومعاملات الارتباط السابقة تبين بوضوح أن مفهوم الذات يتزايد تشابهه مع الذات المثالية مع التقدم فى العلاج ، مع استمرار هذا التشابه بعد انتهاء العلاج . وبعبارة اخرى لقد اقترب العميل أو مفهوم ذاته من مفهـــوم ذات الشخص المثالى كما يراه وذلك على نحو تدريجى . وواضح من البيـــانات السابقة أن العلاج حقق الأمل المعقود عليه من وجهة نظر روجرز .
(Hergenhahn, pp. 315 - 317)

ولقد استخدم عدة باحثين آخرين هذا الاسلوب لتقويم فاعلية العلاج ، وعلى سبيل المثال فان بتلر وهيج Butler and Haigh وجـــدا عام ١٩٥٤ أن متوسط معامل الارتباط بين تقديرات الذات الواقعية وتقديرات الذات المثالية لخمس وعشرين حالة كان —١٠ر قبل العلاج ، وبلغ ٣١ر٠ بعد العلاج وهذا يوضح حدوث تغير دال احصائيا فى الذات الواقعية فى اتجـــــاه الذات المثاليـــــة .

وبالاضافة الى أن روجرز من أوائل المعالجين الذين قاسوا فعلا فاعلية العلاج . فانه أول من سجل جلسات العلاج بالصوت والصورة . وقد فعل هذا بموافقة العميل : حتى لا يعتمد على الذاكرة حين يقـــوم ما حـــدث فى الجلسة . وفضلا عن ذلك فان التسجيل والتصوير مكنا من التحليل الدقيق لنواحى مثل الايماءات الفيزيقية واساليب التحدث المميزة باعتبارها مؤشرات تدل على مدى معاناة العميل من القلق والضغط .

وقد يبدو ان هناك تناقضا ظاهريا فيما عمله روجرز ذلك انه اصر على أن الطريقة الوحيدة لمعرفة الشخص هى أن يحاول فهمه عالمـه الخاص ، عالمه الذاتى ، وفى نفس الوقت هو الذى قدم الكثير لتنشيط التقويم العلمى للعملية العلاجية .

تحليل المحتوى :

تعتمد هذه الطريقة على تصنيف تعبيرات العميل اللفظية التى تسجل فى الجلسات العلاجية فى مجموعة من الفئات . وقد قام ريمى احد تلامذة روجرز عام ١٩٤٨ بتحليل للتغيرات الأساسية التى تطرأ على الاشارات الى الذات اثناء العلاج .

وقد صنف الاستجابات فى الفئات الآتية : —

- الاشارات الايجابية الى الذات .
- الاشارات السلبية الى الذات .
- الاشارات المتناقضة الى الذات .
- الاشارات الغامضة الى الذات .
- الاشارات الى موضوعات واشخاص خارجيين .
- اسـئلة .

وصنفت الاشارات الواردة فى تسجيلات ١٤ حالة تمت مقابلتها فى جلسات تراوحت ما بين جلستين وعشرين جلسة . ولقد اتضح من تحليل النتائج ان العملاء يصدرون عددا كبيرا من الاشارات السالبة فى بداية العلاج ومع تقدمهم يظهرون التذبذب فى تأييد الذات والاشارات المتناقضة . وفى نهاية العلاج تزداد الاشارات الموجبة .

كما اتضح من عدة بحوث ان الشخص الذى يصبح اكثر تقبلا لنفسه يصبح اكثر تقبلا للآخرين ايضا . اى ان الشخص اذا احسن الظن بنفسه وكان راضيا عنها فالأرجح أن يحسن الظن بالآخرين ويرضى عنهم .

المكانة الراهنة والتقويم :

— لم يكن لأحد بعد فرويد تأثير فى العلاج النفسى يفوق تأثير كارل روجرز ولقد كان لمدخله الانسانى الايجابى فى الارشاد النفسى والعلاج وما يزال اثر كبير فى التطبيقات التربوية وفى مجال الصناعة والادارة . ويبدو أن هناك ثلاثة أسباب لهذا الذيوع والانتشار وهى : —

١ — انه مدخل فعال لفهم الانسان وقد حقق نتائج ملموسة .

٢ — انه لا يتطلب تدريبا طويلا مرهقا كما هو الحال فى مجال التحليل النفسى .

٣ — انه ينظر الى الطبيعة الانسانية نظرة ايجابية متفائلة .

— وكان من بين انجازات روجرز ايضا انه استطاع اكثر من أى معالج آخر فيما نعلم اخضاع العلاج النفسى ونتائجه للفحص العلمى والدراسة . فباستخدام اسلوب كيو التصنيفى Q-sort استطاع روجرز وزملاؤه وتلامذته أن يكشفوا عن نزعة الانسان الى الاتفاق والانسجام كوظيفة من وظائف العلاج النفسى وكان هذا عملا جيدا .

— ومع ذلك فقد تعرضت نظرية روجرز للنقد شأنها فى ذلك شأن اى نظرية اخرى . وفيما يلى اهم الانتقادات التى وجهت اليه : —

(أ) تجاهله للاشعور بعد ان برهن التحليل النفسى على اهميتـه وحقق قدرا من النجاح .

(ب) رفضه استخدام فئات تشخيصية مثل العصاب والذهان اثنـــاء ممارساته العلاجية وهى مفاهيم شـــاع استخدامها بين المعالجين النفسيين على اختلاف اتجاهاتهم .

(ج) ان نظرته الى الطبيعة الانسانية بسيطة وهو لا يستطيع أن يفسر لماذا يؤدى بعض الناس وظائفهم على اكمل وجه دون أن يجـدوا اعتبارا لذاتهم موجبا وغير مشروط .

(د) انه يعتمد اعتمادا مكثفا على التقارير الذاتيـــة ومعروف أن ثباتها منخفض ولا يمكن الوثوق بها ، ولا يرجع هذا الى تعمد المريض خداع المعالج وانما يرجع الى انه لا يعرف بعض جوانب نفسه .

(هـ) وهو يتجاهل حقيقة هى أن فى الامكان أن يتغير الشخص لفظيـا ولا يتغير سلوكيا ، اى أن تصنيف الفرد للعبارات باسلوب كيو قد يتغير نتيجة للعلاج ، وتبقى مشكلته السلوكية فى دنيا الواقع .

— وواضح ان موقف روجرز يختلف عن موقف دعاة التحليـــل النفسى من التقارير النفسية للمرضى موضع العلاج . فاصحاب التحليـــل النفسى يفسرون ما يقوله المريض تفسيرا لا يستند الى قيمتـــه الظاهرة . انهم يتعدون المحتوى الظاهر لما يقوله المريض بحثا عن المحتـــوى الكامن فى محاولة للتوصل الى اعماق الشخصية . وهذا المحتوى الكامن لا شعورى يتم التوصل اليه بالاستنتاج وليس عن طريق الملاحظـــة المباشرة . اما روجرز فيرى امكانية الافادة من التقارير الذاتية للمريض كمصدر لمعرفة شخصيته ولا حاجة الى القيام بعمليات تحليل متعمقة وشـــاقة للاحلام ولأعماق الشخص ، فالشخص هو ما يقوله عن نفسه .

— ولقد افاد روجرز فى بحوثه العلمية من وسائل متنوعة ولم يقصر جهوده على فحص التقارير الظاهرياتية عن الذات رغم اتساقها بدرجة اكبر مع اتجاهه النظرى . وقد ادت صياغة روجرز لنظرية الذات الى افســاح مجال خصب ومتسع لبحوث كثيرة . فنظريته خصبة معطاءة .

— وحتى لو سلمنا ببعض هذه الانتقادات السلبية فان الاغلبية سوف توافق على أن روجرز ساعد على توضيح جانب من الطبيعة الانسانية كان غامضـا من قبل . لقد اسهم فى تنمية القوة الثالثة فى علم النفس والتى يتزايد تأثيرها بين القوتين الأخريين السلوكيين ودعاة التحليل النفسى . وهذه القوة الثالثة تسمى علم النفس الانسانى لانها تؤكد على خيرية الطبيعة الانسانية ، وتهتم بتهيئة الظروف والشروط التى تتيح للناس ان يحققوا امكانياتهم واستعداداتهم على اكمل وجه . وواضح ان هـــذه الاهتمامات تظهر فى كتابات روجرز كلها .

الفصل السابع عشر

ابراهام ماسلو

ولد ابراهام ماسلو فى أول ابريل ١٩٠٨ فى بروكلين بنيويورك . كتب ماسلو عن نفسه « لقد كان من العجيب الا أكون ذهانيا فى ضوء طفولتى . لقد كنت الى حد ما شبيها بأول زنجى التحق بمدرسة كلها من البيض . ولقد كنت وحيدا منعزلا غير سعيد . ولقد كبرت ونموت فى المكتبات وبين الكتب وبغير أصدقاء » (1968, p. 37)

بدأ ماسلو يدرس القانون بالجامعة تحت تأثير ضغط والديه عليه ، ولكنه بعد أسبوعين قرر أن ميوله تجد اشباعاتها فى مجال آخر . ولقد ترك مدينته ليدرس موضوعات متنوعة أولا فى جامعة كورنل ، وبعد عامين انتقل الى جامعة وسكنسن حيث حصل على درجة البكالوريوس فى الآداب عام ١٩٣٠ م والماجستير فى الآداب عام ١٩٣١ م ودكتوراه الفلسفة عام ١٩٣٤م .

وقد تزوج قبيل التحاقه بجامعة وسكنسن بصديقة طفولته برثا جودمان Bertha Goodman وانجبا طفلين . ويذهب ماسلو الى أن حياته لم تبدأ حقيقة الا بعد أن تزوج وانتقل الى وسكنسن ، وكان قد بلغ من العمر عشرين عاما وقد كانت برثا حينئذ فى التاسعة عشرة من عمرها .

ويبدو من الغريب الآن ، أن ماسلو قرر أن يدرس علم النفس حين اكتشف سلوكية واطسن J.B. Watson ويصف ما تعرض له من اثارة نتيجة لاكتشافه هذا قائلا « لقد اكتشفت واطسن واقتنعت بالسلوكية . ولقد كانت بركانا من الاثارة بالنسبة لى .... وقد جاءت برثا لتقلنى بالسيارة ووجدتنى أرقص فى الشارع الخامس فى نيويورك بحماس مما اخجلها ، ولكنى كنت منفعلا بشدة بتفكير واطسن وبرنامجه . لقد كان فكرا جميلا . وكنت واثقا من انه يقدم لى دربا اسير عليه ، طريقا قادرا على أن يحل مشكلة بعد اخرى من المشكلات التى تحيرنى ، طريقا يغير العالم (1968, p. 37) .

لقد انتهى هذا الولع والشغف بالسلوكية حين انجب طفله الأول وقد كتب يقول « لقد غيرنى طفلنا الأول كعالم نفس . لقد ادى الى ان تبدو

السلوكية التى كنت متحمسا لها حمقاء ، ولم أعد أطبق منهما . لقد كان هذا بمثابة قصف الرعد الذى حسم الموقف . . . ولقد ذهلت نتيجة لاحساسى بانى فى الحقيقة لم أكن مسيطرا على ما يجرى وبسبب غموض ذلك . ولقد شعرت بصغرى وضعفى أمام هذا كله . واستطيع ان اقول ان اى فرد لديه طفل لا يستطيع ان يكون سلوكيا » (Maslow 1968, p. 55)

ولقد درس ماسلو اثناء وجوده فى جامعة وسكنسن تحت اشراف هارى هارلو Harry Harlow ، وهو من مشاهير علمــاء النفس التجريبيين الآن ، وكان فى ذلك الوقت يطور معملا لدراسة سلوك القردة . وكانت رسـالة ماسلو تدور حول ظاهرة ارساء السيطرة والسلطة فى مملكة القردة . وقد لاحظ أن السيطرة تنتج عن نوع من الثقة الداخلية او الاحساس بالسيطرة اكثر مما تنتج من خلال العدوان الجسمى .

وبعد حصوله على الدكتوراه عام ١٩٣٤ عاد الى نيويورك الى جامعة كولمبيا حيث حصل على زمالة دراسية من مؤسســة كارنيجى ثم انتقل الى كلية بروكلين Brooklyn Colleg حيث بقى بها حتى عام ١٩٥١ م . وخلال سنوات كثيرة من هذه الفترة (الى جانب ادارته لمصنع للبراميل تملكه الاسرة من ١٩٤٧ الى ١٩٤٩ م) وسع بحوثه عن السيطرة بحيث شملت الانسان . ووجد أن الافراد ذوى السيطرة العالية يميلون الى ان يكونوا غير تقليديين واقل تدينا ومنبسطين ويميلون ايضــا الى الا يكونوا قلقين غيــورين او مصابين .

ووجد ماسلو أن الاناث اللائى يتميزن بســيطرة عالية ينجــذبن الى الذكور ذوى السيطرة العالية الذين وصــفوا بأنهم على درجة عاليــة فى الذكورة ، والثقة فى النفس وعلى درجة معقولة من العدوان والثقــة فيما يريدون القدرة على الحصول عليه ، وهم متفوقون بصــفة عامة فى معظم الاشياء (1942, p. 126) اما الاناث المنخفضات فى السيطرة فانهن ينجذبن من ناحية اخرى الى الذكور العطــوفين الودودين الرقيقين المخلصين والذين يظهرون حبا للأطفال .

وواضح من عمل ماسلو المبكر انه كان مهتما بدراسة عينات من البشر

الأصحاء غير العاديين المسيطرين . ولقد كان عليه أن يخطو خطوة قصيرة من هذه الاهتمامات المبكرة لينتقل الى الاهتمام بالبارزين والمشهورين من البشر، ولقد شجع على هذه الخطوة فى تطور اهتمامات ماسلو مأساة الحرب العالمية الثانية ووقوعها وكان ماسلو فى نيويورك فى نهايات الثلاثينات من هذا القرن وبدايات الأربعينات حين بدأت أفضل العقول الأوربية تفـد على الولايات المتحدة الامريكية فى محاولة للهروب من المانيا النازية . وكان من بين هؤلاء الفرد آدلر ، وماكس فرتيمر ، وكارين هورنى ، واريك فروم فسعى اليهم وتعلم منهم .

وكان من بين الذين أثروا فى ماسلو أقوى تأثير فى هـذه الفترة رث بندكت وهى من علماء الانثروبولوجيا الامريكيين المرموقين .والحق أن أعجاب ماسلو العميق بكل من ماكس فرتيمر ورث بندكت هو الذى أثار اهتمامه فى النهاية بدراسة أفراد حققوا ذواتهم .ويصف ماسلو جهوده لفهم هذين العالمين وكيف تطورت لتصبح العمل الذى شغل حياته .

« أن بحوثى فى تحقيق الذات لم تخطط لتكون بحوثا ولم تبدأ كبحوث انما بدأت كمجهود لشاب مفكر يحاول أن يفهم اثنين من معلميه أحبهم وأعجب بهم وكانا مدهشين جدا . وكان ذلك نوعا من الاخلاص العقلى العالى . ولم أكن استطيع أن أقنع بمجرد الاعجاب بهما وحاولت أن أفهم لماذا يختلف هذان الشخصان عن بقية البشر فى العالم . وكان هذان الشخصان رث بندكت .. وماكس فرتيمر .لقد كان معلمى بعد مجيئى حاملا دكتوراه الفلسفة من الغرب الى مدينة نيويورك ، وكانا انسانين بارزين شهيرين . ولم يكن تدريبى فى علم النفس يؤهلنى على الاطلاق لفهمهما . لقد بديا لى كمـا لو لم يكونا من البشر ، أى كما لو أنهما اكثر من ذلك . ولقد بدأ بحثى كنشاط غير علمى أو قبل علمى . لقد كتبت أوصافا وملاحظات عن ماكس فرتيمر وعن رث بندكت وحاولت أن افهمهما وأن اكتب عنهما فى مجلتى . لقد كنت أتحدث عن نوع من الأشخاص وليس عن فردين لا يمكن المقارنة بين أحدهما والآخر . ولقـد شعرت ببهجة عجيبة ، ولقد حاولت أن اتبين هل يمكن العثور على هـذا النمط فى مكان آخر ، ولقد وجدته فى مواضع أخرى فى أشخاص الواحد بعد الآخر .

ولو استخدمنا المعايير العادية للبحث العملى : اى البحث المنضبط المحبوك ، فان هذا ببساطة لا يعتبر بحثا على الاطلاق . (1971, p.p. 41-42)

وعندما ذهب ماسلو عام ١٩٥١ الى جامعة برانديز Brandeis University كان قد كرس جهده كله لدراسة الأصحاء نفسيا من الأفراد، وخلال هذه السنوات برز ماسلو كقائد للحركة الانسانية فى علم النفس ولقد مكث فى تلك الجامعة حتى عام ١٩٦٩ م . وفى هذا الوقت اصبح زميلا مقيما فى مؤسسة خيرية فى كاليفورنيا هى :
Laughlin Charitable Foundation in California

وخلال هذه الفترة اهتم ماسلو بتنمية الحساسية من خلال الجماعات ، وكان احد مؤسسى معهد ايسالن فى كاليفورنيا Esalen Institute of Californin وقد وافاه اجله فى ٨ يونيو ١٩٧٠ م .

وعلى الرغم من ان عددا من اصحاب نظريات الشخصية يندرجون فى فئة اصحاب الاتجاه الانسانى (على سبيل المثال البورت وروجرز) الا ان ماسلو كان المتحدث باسم علم النفسى الانسانى . ولقد قام بهذا بحماس شديد كما لو كان يدافع عن عقيدة .

القوة الثالثة فى علم النفس :

لاحظنا من قبل ان ماسلو شعر ان تدريبه وتكوينه فى علم النفس لم يؤهله لفهم الخصائص الايجابية فى الأفراد الذين اعتبرهم بارزين ومرموقين. فدعاة التحليل النفسى حين نظروا الى الانسان باعتباره ضحية لغرائز حيوانية ولصراعات أثارتها الحضارة فى نفسه انما كانوا يحدثونا عن جانب واحد من جوانب الحقيقة . وبالمثل فان السلوكيين الذين نظروا الى الانسان باعتباره كائنا حيا شكلت البيئة سلوكه لم يلقوا الا ضوءا محدودا على غوامض الوجود الانسانى . ولقد اعتقد ماسلو فى الحقيقة ان علم النفس ركز على الجوانب المظلمة والسلبية والمريضة والحيوانية من الانسان . وبتاكيده على دراسة العجزة من الافراد ادى الى وجود علم نفس عاجز كسيح . « ولقد اصبح من الواضح تدريجيا ان دراسة غير الناضجين وغير

الأصحاء والمقعدين والمعـاقين يمكن أن تؤدى الى علم نفس كسيح والى فلسفة كسيحة » . (Maslow 1970, p. 180)

ولقد كان ماسلو يأمل أن يلتفت علم النفس الانسـانى الى الجوانب الموجبة من الناس ، وأن يوفر المعلومات التى يمكن أن تستخدم لصياغة نظرية كاملة عن الدافعية الانسانية ، نظرية يمكن أن تشتمل على الجوانب الموجبة والجوانب السالبة من الطبيعة الانسانية . « وأن الصحة لا تعنى ببساطة غياب المرض كما انها ليست ضده . فأى نظرية فى الدافعية تستحق الاهتمام ينبغى أن تعالج أعلى قدرات الانسان السليم والقوى كما تتناول المناورات الدفاعية التى تستخدمها الأرواح المعاقة المعقدة » (Maslow 1970, p. 33)

لقد شعر ماسلو أن المدخل العلمى المألوف الذى يعتمد على الاختزال والتحليل reductive - analytic approach والذى يرد الانسان الى مجموعة من العادات أو الصراعات يغض الطرف عن جوهر الطبيعة الانسـانية وأن المنهـج الكلى — التحليلى holistic - analytic approach الذى يدرس الانسان باعتباره كلا يفكر ويشعر يحتمل أن يؤدى ويسفر عن نتائج صادقة. واذا كان من غير الممكن استخدام الاساليب العلمية المعيارية لدراسة الشخص ككل ، فعلينا أن نتخلص منها وأن نضع الأساليب التى يمكن استخدامها . ان فهم الانسان هو الأمر الهام ، واذا لم تساعدنا الاجراءات العلمية التقليدية للتوصل الى هذا الفهم ، فان هذا يعنى أنها سيئة . ولقد رأى ماسلو أن بعض العلماء منشغلين بالطريقة الاختزالية التحليلية لانها حيلة دفاعية حتى لا يعرفوا طبيعتهم . وبعبارة أخرى فان بعض العلماء باسم الدقة العلمية والصراحة يعزلون انفسهم عن الجوانب الشاعرية والرومانسية والرقيقة والروحية عند الآخرين من الناس ؛ اى أن هؤلاء العلماء يجعلون الناس اقل جمالا مما هم عليه وأقل مثارا للاعجاب والرهبة .
(Hergenhahn, pp. 332-333)

ان الفرق الأساسى بين هذين المدخلين أو المنهجين يتلخص فى أن المنهج الاختزالى التحليلى ينظر الى الوقائع فى مجال الدراسة باعتبارها وحدات منفصلة اما المنهج الكلى التحليلى فينظر الى هذه الوقائع باعتبارها اجزاء فى كل . ويترتب على ذلك ما يأتى : —

١ — انه عند تفسير الظاهرة يبحث المنهج الاول عن العناصر التى تتالف منها فاذا كان لدينا طفل يعانى من التاتاة فان الباحث وفقا لهذا المنهج يبدا بحثه بتحديد معدل حدوث التاتاة والعوامل التى تؤثر فى هذا المعدل واجزاء الكلام التى يتاتىء فيها الطفل . اما اصحاب المنهج الثانى فيبداون بدراسة مبدئية للكل ، ولسياق الظاهرة ثم ينتقلون بعد ذلك للتحليل . فقد يحاولون فهم الطفل الذى يتأتىء بالبحث عن علاقاته ببيئته ، بالوالدين ، والاخوة ، وزملائه وبدراسة العلاقة الدينامية بين التاتاة والشخصية ككل . وبعد دراسة حياة الطفل كلها ينتقلون الى المرحلة التحليلية .

٢ — والخطوة التالية التى يقوم بها دعاة المنهج الاختزالى التحليلى هى تصنيف عناصر الظاهرة فى فئات على اساس ان هذه العناصر مستقلة الواحد منها عن الآخر . ومعنى ذلك ان لا ينسدرج العنصر فى فئتين والتصنيف على اساس مجموعة من الفئات الثنائية يخلف المنهج الكلى التحليلى . ان التصنيف الثنائى يفصل الجزء عن جزء آخر وقد يخدمان وظيفة واحدة؛وقد يعزل جزءا عن الكل الذى ينتمى اليه فيشوه الاجزاء والكل على السواء . ان استبعاد عضو من اسرة يحطم نمط التفاعل السائد فيها ويغير العلاقات الاسرية الباقية كلها . ان الأجداد ، والآباء والأطفال واقاربهم ليسوا عناصر مستقلة ولا يمكن تصنيفهم تصنيفا له معنى فى فئات منفصلة .

٣ — ومما يميز المنهجين أن المنهج الاختزالى التحليلى يرى فئتين منفصلتين من الوقائع فى هذا الكون العلل والمعلولات ، او الاسباب والنتائج . ودعاة هذا المنهج يطرحون اسئلة مثل : ما نوع التفاعل بين الوالدين والطفل الذى يسبب عند الاخير التعرض للشدزوفرينيا ؟ هل لقسوة اساليب التدريب على النظافة اثر فى النمو الخلقى ؟ ولكن دعاه المنهج الثانى الذى تبناه ماسلو يرفضون فكرة السبب والمسبب . وذلك لانهم يرون الوقائع يتصل بعضها بالبعض الاخر اتصالا ديناميكيا بطريقة تجعل نفس الوقائع اسبابا ونتائج فى نفس الوقت . ويصبح السؤال : « هل النقص فى تقدير الذات يؤدى الى الشعور بعدم الامن ، ام ان

الشعور بعدم الأمن يؤدى الى نقصان فى تقدير الذات ؟ سؤالا مختلفا يصاغ على النحو التالى . ما هى ديناميات العلاقات بين عدم الأمن وتقدير الذات ؟ » (W.B. Arndt, Jr 1974, p.p. 14-16)

كان هدف ماسلو أن يصبح علم النفس أكثر اكتمالا وتوازنا بحيث يركز على الفرد الذى تجاهله عبر السنين ، الفرد السليم الذى يقوم بوظائفه على نحو كامل . ولقد اصبح هذا الجهد يمثل القوة الثالثة فى علم النفس باعتبار التحليل النفسى والسلوكية هما القوتان الآخريان .

ولقد اسس ماسلو علم ١٩٦٢ م مع عدد من علماء النفس الآخرين (ومنهم كارل روجرز) من ذوى التوجه الانسانى ، الرابطة الامريكية لعلم النفس الانسانى التى عملت وفقا للمبادىء الآتية : —

١ — ينبغى أن يكون الموضوع الأساسى الذى يدرسه علم النفس الشخص باعتباره يخبر الوقائع والأحداث .

٢ — ينبغى الاهتمام بموضوعات الاختيار والابتكار وتحقيق الذات بدلا من الاهتمام بالاختزال الآلى .

٣ — ينبغى أن ندرس المشكلات الشخصية والاجتماعية ذات المغزى والمغزى هنا هى الكلمة الهامة وليست الموضوعية .

٤ — ينبغى أن يكون الاهتمام الرئيسى لعلم النفس هو كرامة الانسان وتقدمه .

وعلم النفس الانسانى يرى أن هذه المبادىء وما ينتج عن اتباعها سوف تؤدى الى نقصان فى التنبؤ وفى السيطرة على سلوك الانسان ، والى زيادة فى معرفة الذات .

« اذا امكن أن يقال أن للعلم الانسانى أى مرامى ابعد من مجرد الافتتان بغموض الانسان والاستمتاع به ، فان هذه سوف تستهدف تخليص الانسان من الضوابط الخارجية وجعله اقل قابلية للتنبؤ من قبل الملاحظ (اى تجعله

أكثر تدررا وأعظم ابتكارية واشد قدرة على التصميم النابع من داخله) حتى ولو ترتب على ذلك ان يصبح اقل قابلية للتنبؤ بالنسبة لنفسه » .

(Maslow 1966, p. 40)

الفـــــــردية :

يرى ماسلو ان عالم النفس الذى يدرس الشخصية قد يقـــــوم بذلك بطريقة الكاتب الكفء الذى يصنف ويرتب الانسابير ، أو بطريقة الفنـــــان الصادق . فاذا عمل بالطريقة الأولى فانه يهتم بتصنيف الوقائع وتسميتها كما يفعل أصحاب المنهج الاختزالى التحليلى . ولن يحتاج الى دراسة اعمق متى ما صنف الواقعة وسماها . اما حين يدرس الشخصية كفنان فانه يركز على الجوانب الفريدة ويهتم بها كما يهتم بالخصائص المشتركة . فكل انسان يشبه الآخرين فى بعض النواحى ، ولكنــــه يتميز ويختلف عنهم فى نواحى اخرى . ولا ينبغى التضحية بالنواحى الاخيرة سعيا وراء الانتظام والاطراد .

(1970, p p. 203 - 204)

وكثير من علم النفس الامريكى يستمد رؤيته من العلوم الفيزيقيـــــة الكلاسيكية بمعنى ان يدرس الافراد بغية التوصل الى نواحى التشـــــابه ، ويميل الى اعتبار نواحى الاختلاف اخطاء قياس . وان يبتكر فئات يصنف فيها الافراد بدلا من ان يعطى الفرد ما يستحقه من تقدير كما لو كان فئة بمفرده . وان هذه التجريدات الناموسية والتعميمات مفيدة اذا ساعدتنا على اعطاء التفرد حقه أى اذا كانت بمثابة الارضية أو الخلفية التى يبرز عليها الشكل . وينبغى أن نقدر على معرفة الفرد وفهمه فى تفرده الرائع . واذا عجزت مناهجنا الحاضرة عن اعطاء الفردية ما تستحق من اهتمام لفهمها وتفسيرها فان من الواجب تنحيتها جانبا والعمل على اكتشاف طرائق جديدة للمعرفة والبحث .

(1968, p. 13)

التنظيم الهرمى للحاجات :

ان اساس فكر ماسلو هو نظريته فى الدافعية . وهو يرى ان لدى الانسان عدد من الحاجات الفطرية . ولقد فضل ماسلو استخدام كلمــــــة

instinctoid على كلمة instinctive فى وصفه للحاجات ليبرز الفرق بين الارث البيولوجى لدينا والارث البيولوجى لدى الحيوانات الدنيا . يقول ماسلو « هذا الجوهر الداخلى حتى ولو كان ذا اصل بيولوجى غريزى الا انه ضعيف أكثر من كونه قويا بمعنى معين ، ويسهل التغلب عليه وقمعه أو كبته بل ويمكن حتى وأده على نحو مستمر . فالناس لم يعد لديهم غرائز بالمعنى الحيوانى ، اى غرائز قوية ، واصوات داخلية لا نخطئها تبين لنا بغير تردد ماذا نفعل ومتى واين وكيف ومع من . ان كل ما بقى لدينا هو آثار الغريزة وبقاياها . وفضلا عن ذلك فهى ضعيفة ، غير مباشرة ، رقيقة يسهل أن نغرقها بالتعلم وبالتوقعات الثقافية وبالخوف وبعدم الموافقة ...... الخ .
(Maslow, 1968, p. 191)

افترض ماسلو أن حاجاتنا مرتبة ترتيبا هرميا على أساس قوتها . وعلى الرغم من أن جميع الحاجات فطرية ، فان بعضها أقوى من البعض الآخر . وكلما انخفضت الحاجة فى التنظيم الهرمى كانت أكثر قوة ، وكلما ارتفعت فى التنظيم كانت اضعف وكانت مميزة للانسان بدرجة أكبر . والحاجات الدنيا أو الاساسية فى التنظيم الهرمى تماثل تلك التى تمتلكها الحيوانات الدنيا الأخرى . ولا يوجد حيوان آخر باستثناء الانسان يملك الحاجات العليا .

ولقد لخص ماسلو الفروق بين الحاجات العليا والحاجات الدنيا عام ١٩٧٠ فيما يأتى : —

١ — كلما ارتفعت الحاجة كان ظهورها متأخرا فى عملية التطور .

٢ — الحاجات العليا تحدث متأخرة نسبيا فى نمو الفرد . وبعض الحاجات العليا لن تظهر حتى يبلغ الانسان أواسط عمره وقد لا تظهر لديه على الاطلاق .

٣ — للحاجات العليا علاقة بالبقاء اقل من تلك التى للحاجات الدنيا وهذه العلاقة غير مباشرة بدرجة اكبر ، واقل ارتباطا بالاشباع وهكذا فانها اقل الحاحا .

٤ — على الرغم من ان الحاجات العليا لا تتصل اتصالا مباشرا بالبقاء ، الا

أن اشباعها مرغوب فيه بدرجة أكبر من اشباع الحاجات الدنيا .
فاشباع الحاجات العليا يؤدى الى سعادة اعمق ، وراحة بال ، وحياة باطنية اخصب .

٥ — تتطلب الحاجات العليا شروطا مسبقة اكثر من الحاجات الدنيا حتى تبزغ وحتى تشبع ، وهى تتطلب ظروفا بيئية افضل لتؤدى وظيفتها .

ومع تسلق الفرد لهذا التنظيم الهرمى للحاجات تقل حيوانيته وتزداد انسانيته . ويتقدم الشخص من مستوى حاجة الى المستوى التالى باشباع مجموعة الحاجات التى تخص المستوى الأول فى التنظيم الهرمى . وسوف تتضح هذه النقطة بدرجة اكبر حين نناقش المستويات الخمسة للحاجات فى هذا التنظيم الهرمى .

١ — الحاجات الفسيولوجية Phisiological needs

وهى الحاجات التى ترتبط ارتباطا مباشرا بالبقاء والتى تشارك فيها الحيوانات الأخرى . وتشتمل هذه على الحاجة للطعام والماء والجنس والاخراج والنوم . واذا لم تشبع واحدة من هذه الحاجات الفسيولوجية فانها تسيطر سيطرة تامة على حياة الفرد .

« يمكن أن تعرف المدينة المثالية Utopia عند الرجل الذى اضناه الجوع والذى ازمن معه بانها ببساطة المكان الذى يتوافر فيه الطعام . وهو يميل الى الاعتقاد بانه لو ضمن فحسب الحصول على طعام بقية حياته . فانه سوف يكون سعيدا تماما ولن يحتاج الى شىء اكثر من ذلك . وتميل الحياة ذاتها الى أن تعرف على اساس تناول الطعام . وسوف يعتبر كل ما عدا ذلك غير ذى اهمية . وقد تنحى الحرية والحب ومشاعر الجماعة فى البيئة المحلية ، والاحترام والفلسفة باعتبارها زخارف زائفة لا فائدة منها طالما انها جميعا لا تستطيع أن تملاء المعدة . ويمكن أن نقول عن هذا الرجل انه يعيش بالخبز وحده » . (Maslow, 1970, p. 37)

وواضح أن مثل هذه الحاجات هامة جدا وانه ينبغى الاشفاق الينا على انه فيما يرى ماسلو : لقد غالى علم النفس بالتاكيد على اهمية مثل هذه

الحاجات فى تحديد سلوك الانسان فى المجتمع الحديث . وهذه الحاجات يسهل اشباعها . والسؤال الحقيقى الذى اثاره ماسلو هو « ماذا يحدث بعد اشباع الحاجات الفسيولوجية ؟ » « حقا أن الانسان يعيش بالخبز وحده — حيث لا يوجد خبز » ولكن ماذا يحدث لرغبات الانســـان حين يتوافر الخبز ويمتلىء بطنه دوما ؟ » . (Maslow, 1970; p: 38) وكانت اجابة ماسلو أن مجموعة الحاجات عند المستوى الثانى تسيطر عليه عندئذ . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن ماسلو لم يشعر أن مجموعة من الحاجات لا بد ان تشبع كلية قبل أن يتحرر الفرد ليعالج المستوى التالى . ولكنه شعر ان مجموعة من الحاجات لا بد أن تشبع على نحو متبق واشباعا اساسيا . وبعبـــارة أخرى فان الشخص قد يتعرض بين الحين والآخر للجوع أو العطش ويظل مع ذلك قادرا على أن يعمل على اشباع الحاجات العليا ، ولا يخضع حياته للجوع والعطش .

٢ — حاجات الأمن Safety needs

حين تشبع الحاجات الفسيولوجية على نحو مرضى تبزغ أو تظهر حاجات الأمن كدوافع مسيطرة . وهذه تشتمل على الحاجة الى البنية والنظام والأمن والقابلية للتنبؤ . والهدف الأول للشخص الذى يعمل عند هذا المستوى هو أن ينقص الشك ويتخلص من الريبة وعدم اليقين فى حياته . ويبدو أن هذه الحاجات تعمل عملها بوضوح عند الأطفال الذين يخافون خوفا شديدا حين يواجهون الوقائع الجديدة (التى لا يمكن التنبؤ بها) واشباع حاجات الأمن تؤكد للفرد أنه يعيش فى بيئة متحررة من الخطر .

٣ — حاجات الانتماء والحب Belongingness and Love Needs

متى ما اشبعت الحاجات الفسيولوجية وحاجات الأمن اشباعا أساسيا فان الفرد يدفع بالحاجة الى التواد . والناس فى حاجة الى ان يكونوا موضع حب وأن يحبوا . واذا لم تشبع هذه الحاجات فان الشخص يشعر بالوحدة والخواء . ولقد اعتقد ماسلو أن الاخفاق فى اشباع الحاجات عند هذا المستوى مشكلة أساسية لدى الامريكيين فى العصر الحاضر . ويوضح ويشرح الأسباب التى تدفع كثيرا من الناس الى البحث عن الطب النفسى والمشـــاركة فى

جماعات التدريب على الحساسية . ويصف ماسلو الشخص الذى يمثل هذه الفئة قائلا « انه مدفوع بجوع لايشبع للاحتكاك والصداقة الحميمة والانتماء والحاجة الى ان يتغلب على المشاعر الدائمة . مشاعر الاغتراب والوحدة والغربة والعزلة التى سادت نتيجة للحراك . ولتحطم الجماعات التقليدية وابعثرة الأسر ، وللفجوة بين الاجيال،وللتحضر المستمر ولاختفاء علاقة الوجه للوجه التى سادت القرية » (1970, p. 44)

٤ — حاجات التقــــدير Esteem Needs

لو ان شخصا كان محظــوظا بالقـــدر الكافى بحيث يشــبع حاجاته الفسيولوجية وحاجته الى الأمن والانتماء والحب ، فان الحاجة للتقدير سوف تسيطر على حياته . وهذه المجموعة من الحاجات تتطلب تقديرا من الاخرين وهذا التقدير يؤدى الى خلق مشاعر لدى الفرد بانه متقبل وذو مكانة وشهرة والى تقديره لذاته الذى يؤدى بدوره الى مشاعر الكفاءة والثقة والسداد . وهذان النوعان من المشاعر ينتجان عادة من الانغماس فى الأنشـطة التى تعتبر نافعة اجتماعيا . والقصور فى اشباع حاجات التقدير يؤدى الى تثبيط الهمم ومشاعر القصور .

٥ — تحقيق الذات Self - actualization

اذا اشبعت الحاجات الدنيا اشباعا مناسبا فان الشخص يصبح فى موقف يمكنه من ان يكون احد الافراد القلائل الذين يحققون ذواتهم ، « والأصحاء من الناس اشبعوا حاجاتهم الاساسية للأمن والانتماء والحب والاحترام وتقدير الذات ؛ وتتوجه دوافعهم فى الاساس الى تحقيق الذات ؛ ويقصد بتحقيق الذات التحقيق المستمر لامكانيات الفرد وقدراته ومواهبه باعتبار ذلك تحقيقا لرسالة واداء لها « او تلبية لدعوة او قدر او مصير او مهنة » ومعرفة تامة بطبيعة الشخص وتقبله لها ، وكاتجاه لا يتوقف نحو الوحدة والتكامل والتعاون داخل الشخص) (Maslow 1968, p. 25)

فالموسيقى يؤلف مقطوعات موسيقية ، والفنان يرسم لوحات،والشاعر يقرض الشعر ، اذا راد فى النهاية ان يكون فى سلام ووئام مع نفسه .

وما يستطيع الانسان ان يكونه ينبغى أن يصير اليه . وهذه الحاجة هى التى يمكن أن نطلق عليها تحقيق الذات (Maslow, 1945, p. 91) وسوف نتحدث عن خصائص هؤلاء الذين حققوا ذواتهم فيما بعد .

وينبغى أن نلاحظ أن ماسلو اعتقد أنه مع اشباع مجموعات الحاجات يتقدم الفرد صاعدا فى التنظيم الهرمى ، غير أنه مهما كانت المسافة التى تقدمها وقطعها،اذا احبطت حاجة أدنى لفترة طويلة من الزمن ، فانه سينكفىء الى ذلك المستوى فى التنظيم الهرمى الذى يلائم تلك الحاجة وسوف يبقى هناك حتى تشبع تلك الحاجة.وهكذا فانه مهما كان ما حققه الفرد فى حياته، اذا اعيق اشباع الحاجة الى الطعام فجاة ، فان هذه الحاجة سوف تسيطر على حياته مرة أخرى .

الرغبة فى المعرفة والفهم The Desire to Know and Understand

شعر ماسلو أن الرغبة فى المعرفة والفهم كانت مرتبطة باشـــباع الحاجات الأساسية وما زالت . وبعبارة أخرى فان المعرفة والفهم اداتان تستخدمان لحل المشكلات والتغلب على العقبات وبالتالى اتاحة الفرص لاشباع الحاجات الأساسية .

فاذا تذكرنا أن القدرات المعرفية (الادراكية والفكرية والتعلم) هى مجموعة من ادوات التكيف ولها بين وظائف أخرى وظيفة اشـــباع حاجاتنا الأساسية ؛ فانه من الواضح أن أى خطر يهددها ، أو حرمان منها أو اعاقة لاستخدامها الحر ينبغى أيضا أن يكون مهددا للحاجات الأساسية نفسها . ان هذه العبارة حل جزئى للمشكلات العامة لحب الاستطلاع ، والبحث عن المعرفة والحقيقة والحكمة والرغبة الملحة المستمرة دوما ولمعرفة الخفـــايا الكونية وحل الغازها.وتهدد السرية والرقابة وعدم الامانة واعاقة الاتصال جميع الحاجات الأساسية .

الحاجات الجمالية The Aesthetic Needs

وهذه هى الحاجة الى اشياء كالنظام والتماثل والغلق والبنية واتمـــام الفعل التى نراها لدى الراشدين ونكاد نراها شائعة ايضا لدى الأطفال.ولقد

تشعر ماسلو ان هنك شواهد تدل على وجود هذه الحاجات فى كل ثقافة مهما رجعنا الى الوراء فى مراحل تطور الانسان حتى ولو رجعنا الى انسان الكهوف .

وعلى الرغم من ان الحاجات الفسيولوجية وحاجات الأمن والحب والانتماء ، وحاجات التقدير والحاجة الى تحقيق الذات تؤلف تنظيما هرميا ، وان الحاجة الى المعرفة والفهم ترتبط وظيفيا باشباع جميع الحاجات السابقة ، الا ان صلة الحاجات الجمالية بهرم الحاجات ليست واضحة . وثمة امران واضحان تماما على اية حال وهما : ان ماسلو اعتقد اولا بفطرية الحاجات الجمالية ، وثانيا انها تعبر عن نفسها اكمل تعريفا لدى الأفراد الذين يحققون ذواتهم . (Hergenhahn, pp. 334-337).

ان القول بأن جميع الأنماط السلوكية لها دوافعها ادت بكثير من اصحاب النظريات فى مجال الشخصية الى طرق مسدودة . وهذه الفكرة لها جذورها فى الخلط بين الدافعية والحتمية . وهكذا ففى حين اننا لا نستطيع أن ننكر أن جميع الأنماط السلوكية لها اسبابها وعواملها التى تؤدى الى حدوثها ، الا أن هذا لا يعنى بالضرورة أن لجميع الأنماط السلوكية دوافعها . فالحتمية ليست مرادفا للدافعية . ويذهب ماسلو الى ان هذا الخلط بدا عند فرويد الذى حاول أن يربط بين جميع الأنماط السلوكية بما فى ذلك الاعراض المرضية والأحلام وبين الدوافع الغريزية . ولقد أدى الاستقصاء الذى قام به فرويد بحثا عن الدافع وراء الاحلام المزعجة الى افتراض غريزة الموت . ويمكن تصحيح هذا الخطأ اذا اعتبرنا بعض الانماط السلوكية غير مدفوعة وهى الأنماط السلوكية التعبيرية .

ولقد ميز ماسلو متبعا فى ذلك خطوات ادلر والبورت بين السلوك الذى يتصدى للمشكلات Coping behavior والسلوك التعبيرى . ولقد أشار الى فروق بين هذين النوعين من السلوك نورد فيما يأتى اهمها : —

١ — سلوك التصدى غرضى لانه يحاول تغيير البيئة ، اما السلوك التعبيرى فغير غرضى ؛ ويغلب الا تثيره دوافع وهو لا يستهدف تحقيق شىء معين على وجه التحديد .

٢ — سلوك التصدى يكون عادة متعلما ويعكس آثار الثقافة التى يعيش فيها الفردوالموقف المباشر الذى يوجد فيه ، فى حين أن السلوك التعبيرى كثيرا ما لا يكون متعلما ويتحدد فى الأساس نتيجة لحالة الشخص .

٣ — سلوك التصدى يتطلب عادة بذل الجهد ويسهل السيطرة عليه وكفه او قمعه ، أما السلوك التعبيرى فيحدث بغير جهد ويصعب السيطرة عليه وقد تكون هذه السيطرة محالة .

ومعنى هذا ان سلوك التصدى سلوك تحدده الحاجة ويستهدف حل مشكلة كالسعى الى المطعم لتناول الطعام أو الانضمام الى ناد لتصبح عضوا منتميا الى جماعة لها مكانة اجتماعية عالية . أما السلوك التعبيرى فيتحدد بحالة الشخص فهو يبتسم على سبيل المثال حين يكون سعيدا ، ويبكى حين يكون حزينا ويكتب قصيدة ليعبر عن مشاعره وانفعالاته . أما سلوك التصدى فيمكن فهمه وتفسيره باستخدام مفاهيم كالحاجة والاشباع والتنظيم الهرمى ، اما محددات السلوك التعبيرى فينبغى البحث عنها فى موضع آخر .

ولقد وجد ماسلو (110 - 109 1970, p. 233; 1968, p.p)انه لا يستطيع ان يطبق النظرية الدافعية التى تقوم على سلوك التصدى على سلوك الأفراد الذين يحققون ذواتهم . فاذا استخدم مفهوم الدافعية وطبقه على المحققين لذواتهم فان هذا المفهوم لا يمكن أن يكون معناه حالة من الحرمان ، بل يجب تغيير المفهوم وتوسعته . وذلك لان الذين يحققون ذواتهم لا يكافحون للحصول على شىء . انهم يكبرون وينمون ويرتقون . انهم لا يعدون للحياة بل يحيون ويعيشون فعلا . ان سلوك الذين يحققون ذواتهم ليس مدفوعا بدوافع نقص وقصور (D - motivation) بل مدفوعا بدوافع كينونة (D - motivation) وينبغى على أصحاب نظريات الدوافع أن يبدوا من مفهومهم للدافعية بحيث يقدر على تفسير السلوك التعبيرى وتحقيق الذات .

(W.B. Arndt, Jr 1974, p. 154)

وحدة بناء الشخصية :

وحدة بناء الشخصية عند ماسلو هى الزملة Syndrome وقد عرفها بأنها « مركب منظم من الخصائص الظاهرة التنوع (عناصر سلوكية ، وأفكار ونزعات للفعل ومدركات . . . الخ) التى لها وحدة مشتركة » (1954, p. 32) فالفرد الذى ينخفض لديه تقدير الذات قد ينغمس فى أفعال وأفكار ومدركات تبدو فى ظاهرها منفصلة ولا رابط بينها بالمرة ؛ ولكن الدراسة والتعمق تكشف على علاقة دينامية بينها وبين محاولته استعادة تقديره لذاته .

وفيما يأتى بعض خصائص زملة الشخصية التى حددها ماسلو : —

١ — ان اجزاء الزملة يحل بعضها محل البعض الآخر اى انها قابلة للتبادل ؛ فاذا بذل الفرد جهدا لينال الحظوة عند رئيسه فى العمل وذلك لاشباع حاجته الى الأمن ولم يفلح فانه يستطيع ان يلجأ الى عدد من المسارات الأخرى لتوفير الأمن النفسى لذاته .

٢ — تتميز الزملة بخاصية الدائرية من حيث التأثير والتأثر . اى ان الجزء لا يؤثر فى الآخر بالمعنى الاختزالى التحليلى ، وانما تتصل هذه الأجزاء كلها اتصالا ديناميا . فالخوف من الآخرين ليس ببساطة سببا للعداء نحوهم ، كما أن العداء نحوهم ليس سببا للخوف منهم . ان هذين الجزءين من الزملة سببان ونتيجتان الواحد منهما للآخر اى ان كل منهما يتصل بالآخر اتصالا ديناميا .

٣ — الزملة تقاوم التغيير ، وتميل الى المحافظة على نفسها ، وان تعيد ترسيخ نفسها بعد التغيير غير ان الزملة حين تتغير فانها تفعل ذلك ككل وليس جزئيا لانها وحدة وجشطلت . والتغير المميز الذى يحدث للزملة هو ميلها واتجاهها الى مزيد من الاتساق . وهكذا فان الشخص غير الآمن يميل الى يصبح غير آمن فى جوانب حياتية متزايدة .

ان الزملات تتغير فى بعدين : المستوى والنوعية . فالمستوى او الشدة تتغير ارتفاعا وانخفاضا ، والنوعية تتغير فى ضوء الفروق فى المحتوى

الموحد للزملة . وقد وجد ماسلو ارتباطا بين تقدير الذات والأمن بلغ ٣٠ر٠ ٪ كما هو واضح من الجدول الآتى هناك علاقة محددة بين المستوى والنوعية . وانه على الرغم من ان الزملات المختلفة لا ترتبط ارتباطا عاليا احصائيا ، فان هذا لا يعنى ان العلاقة بينها ضئيلة . ومستويات الزملة لا تتغير معا تغيرا كبيرا ولكن الواحد منها يتصل بالتأكيد بالأخرى لانها اجزاء لنفس الكل وهو الشخص .

جدول (١ — ١٧)

يبين العلاقة بين مستوى الزملة ونوعيتها

الشخص	تقدير الذات	الأمن	السلوك
ا	عالى	عالى	قوة شخصية وحب علاقة رحمة للآخرين وحماية لهم
ب	عالى	منخفض	كره واحتقار وخوف من الآخرين يستخدم القوة لايذاء الآخرين والسيطرة عليهم

(IbId, pp. 195-196)

الجبلة والثقافة :

ذهب ماسلو الى ان جميع حاجات الانسان الاساسية ذات اصل فطرى . ولذلك فان من المتوقع الا تختلف هذه الحاجات من ثقافة الى اخرى . واذا ركزنا على دراسة الحالات المرضية ، او قمنا بمقارنات عبر حضارية على المستوى الظاهر فقد تبدو لنا الحاجات النفسية مختلفة باختلاف الثقافة ؛ اما اذا درسنا الشخصيات السوية او الافراد الاصحاء وتعمقنا الدراسة فاننا لن نجد اختلافا فى الحاجات من انسان الى آخر ؛ ومن ثقافة الى اخرى والحق ان الثقافة تؤثر فى سلوكنا المتصدى لحل المشكلات ؛ اى انها تؤثر فى الوسائل التى نتبعها لاشباع حاجاتنا ؛ الا ان هذه الحاجات نفسها اى الغايات لا تختلف اختلافا كبيرا من ثقافة الى اخرى . والطبيعة الانسانية

ليست عجينة قابلة للتشكيل التام ، ومن هنا فان الثقافة لا تستطيع تشكيل الشخصية على نحو مطلق والمجتمع الجيد هو الذى ييسر نمو الشخصية ويساعد عليه بدلا من أن يكف هذا النمو ويعوقه .

ولقد رفض ماسلو الفكرة القائلة بأن الانسان والثقافة أعداء بالضرورة وأن الوظيفة الأساسية للحضارة هى ترويض النزعات الأساسية وتهذيبها . أن هذا المفهوم الخاطىء عن العلاقة بين الانسان والثقافة تعكس الميل الشائع الى التفكير الثنائى أى التفكير على اساس وجود قوتين متعارضتين . ويرتبط بهذه الفكرة الخاطئة القول بأن طبيعة الانسان انه حيوان متوحش وأن ما يتسق مع الثقافة ينبغى أن يكون خيرا وما يختلف عنها ينبغى أن يكون شرا . وترتيبا على ذلك فان الانسان المثالى هو الذى يحسن توافقه وتكيفه، الانسان الذى تخلص من طبيعته أو طوعها ليصير على مثل الصورة التى يمليها المجتمع ويحددها . ولكن ماسلو يتساءل ما الذى يتكيف معه الانسان ؟ أن المجرم قد يتكيف مع قوانين عالم الجريمة وقواعدها ، والجانح قد يتكيف ويلتزم بقواعد العصابة أو الشلة المنحرفة التى ينتمى اليها . ان القول بأن الثقافة على صواب والانسان على خطأ لا يمكن الدفاع عنه ولقد صور هـ.ج ويلز H.G Wells هذه الفكرة تصويرا رائعا فى كتابه The Valley of the Blind « وادى الأعمى » حيث يقع انسان مبصر فى مجتمع العميان ويعتبرونه سيء التكيف .

ويرى ماسلو أن اهتمامات الانسان واهتمامات الثقافة يمكن التوفيق بينها . وأننا لا بد أن نبذل مزيدا من الجهد والتأكيد على أن الثقافة مصدر لاشباع الحاجات أكثر من كونها مشكلة للشخصية . ان الثقافة لا ينبغى أن تكف النمو والارتقاء ، والثقافة الجيدة هى التى تيسر النمو والارتقاء وتساعد عليهما .

لقد أعتقد ماسلو أن حاجات الانسان خيرة وليست سيئة (كما اعتقد الفرويديون) ولذلك فانه ينبغى التشجيع على اشباعها بدلا من العمل على قمعها .

وفكر ماسلو فى نوع المدينة الفاضلة التى يمكن أن ننشأ لو أن مائة

اسرة سوية نزحت الى جزيرة مجهولة حيث يستطيعون أن يحددوا مصيرهم. ولقد أطلق ماسلو على هذه المدينة الفاضلة كلمة Eupsychia ايوبسكيا أى بلد العقل الجيد وفى هذا البلد أو المدينة يتوافر التعاون التام فى العمل .

ما نوع التربية التى يختارونها ؟ وما نوع النظام الاقتصادى والحياة الجنسية والدين الذى ينشدونه ؟

« انا لست متأكدا جدا بالنسبة لبعض المسائل — وخاصة بالنسبة للنظام الاقتصادى ولكنى متأكد من المسائل الأخرى . واحدى هذه المسائل أن هذه الجماعة سوف تكون الى حد كبير وبالتأكيد جماعة تقوم على التعاون الطوعى دون سلطة anarchiac group ومتوجهة نحو الطبيعة وذات ثقافة محبة ، حيث يتوافر للناس بما فى ذلك الشباب حرية اختيار اكبر عما تعودنا عليه ، وحيث تحترم الحاجات الأساسية وما بعدها اكثر مما هو حادث فى مجتمعنا ، ولن يضايق الناس بعضهم بعضا كثيرا كما نفعل ، وسوف يميلون بدرجة اقل للضغوط على جيرانهم فى الآراء والديانات والفلسفات او الأذواق فى الملابس او الطعام أو الفن أو النساء . وفى ايجاز ان سكان هذه المدينة سوف يميلون الى أن يكونوا تايزميين غير متحمين انفسهم على غيرهم مشبعين لحاجاتهم الأساسية (كلما كان ذلك ممكنا) وسوف يحبطون فى ظروف معينة لن أحاول وصفها ، وسوف يكونون اكثر امانة الواحد منهم مع الآخر عما نحن عليه هنا ، وسوف يسمحون للناس بالاختيار الحر اينما كان ذلك ممكنا . وسوف يكونون اقل ميلا للضبط والعنف والاحتقار عما نحن عليه . وفى ظل هذه الظروف سوف تظهر التكوينات العميقة للطبيعة الانسانية بسهولة أعظم » (Maslow, 1970, p.p. 277 - 278)

ولقد ذهب ماسلو عام ١٩٦٢ الى احدى الشركات الصناعية Non Linear Systems Inc ليعمل كزميل زائر ولقد أسفرت خبراته فى هذه الشركة عن كتابه عن الادارة المثالية Eupschion Management وكانت الرسالة الأساسية التى اراد ان ينقلها الكتاب الى القارىء : « اذا كانت الادارة الصناعية اكثر وعيا بحاجات الانسان ودراية بما يشبعها فان العامل يزداد صحة وكذلك الصناعة . وان الظروف التى عرضنا لها من قبل او توافرت

للعمل لاتاحت للفرد تحقيق ذاته واتاحت للمؤسسة الثراء والصحة ، ويصدق هذا على كم الانتاج ونوعه وعلى الخدمات التى توفرها المؤسسة » (Maslow, 1971, p. 237) ان الادارة المثالية من وجهة نظره هى محاولة لخلق موقف عمل ييسر اشباع الحاجات الانسانية . وينبغى أن يكون واضحا ان ماسلو اعتقد أن الصناعة ستزدهر اذا اصبحت اكثر انسانية ، ليس ذلك فحسب بل أن المجتمع كله سيتطور ويزدهر على نحو أفضل .

الادراك والمعرفة : Perception and Cognition

ان طريقة انتباه الفرد وادراكه تتوقف على مستوى حاجاته . ويميز ماسلو بين نوعين من الانتباه والادراك احدهما يتأثر بدافعية القصور والآخر يرتبط بدافعية الكينونة .

ووظيفة النوع الأول من الادراك ان يصل الاشياء الموجودة فى البيئة بحاجاتنا . ولما كان الاشباع يصدر عن البيئة ، فان من الضرورى أن ننتبه اليها من حيث صلتها بنا ، وان نحصل على معلومات دقيقة عن الواقع وهذا النوع من الادراك ضرورى ولكن الفرد عادة حين يقوم به . فانه يصنف المدركات ويسميها شأنه فى ذلك شأن كاتب الأضابير . فالخبز للأكل ، والكلاب خطرة ، والأشجار مصدر للأخشاب وهذا النوع من الادراك يناسب الطريقة الاختزالية التحليلية فى العلم . والمبدأ الاساسى للتصنيف فى هذا النوع من الادراك هو قدرة الموضوع على اشباع الحاجات .

ولكن العالم ملىء بالأشياء الساحرة الخلابة التى يغفلها هذا النوع من الادراك . أما النوع الثانى وهو ادراك الكينونة فهو الادراك الصادق الذى يستكشف العالم ويتناوله ويستمتع به ويقبل عليه ويحبه . ان المسلم يرى بعينى فنان . وينتقل الانتباه بحرية باحثا عن الشىء ذاته وما هو متفرد وايديوجرافى ، ومدركا له .

وتحدد ظروف الحرمان والكينونة اساليب التعلم والمعرفة كما تحدد الادراك ففى ظل دافعية النقص والقصور تكون المعرفة للخدمة والتعلم استرجاعا. وهدف هذا النوع من التعلم تكوين العادات التى تكرر الاستجابات

التى نجحت فى اشباع الحاجات . والعادات بالتأكيد تساعد على التوافق ولكنها أيضا رجعية تقاوم التوافق الجديد . وطالما أن مواقف الحياة لا تتغير تظل العادات فعالة ولكنها تؤدى الى سوء التوافق عندما تتغير المواقف .

ان معرفة اشباع الحاجات D - cognition ترتبط ارتباطا وثيقا بالتعلم الاسترجاعى . وفيه تصنف المشكلات واساليب حلها كما تصنف الحلول . وتصنف المشكلة الحاضرة فى فئة سبق تحديدها كما يحدث عند استخدام المدخل التاكسونومى فى التشخيص فى الطب النفسى . فالخطوة الأولى أن تحدد مشكلة المريض ، فهى اما عضوية أو وظيفية ، وأما أن تكون ذهانية أو عصابية أو اضطراب فى الخلق . وتطبق الأساليب المعتادة والنمطية والمحفوظة لحل المشكلة . ويتوافر لدى الشخص والمعالج مجموعة من الحلول الجاهزة كما يحدث فى التبرير حيث ينفق وقت أطول لتسويغ النتيجة الماضية اكثر مما ينفق للبحث عن نتيجة عميقة .

ان التعلم والتفكير يختلفان تماما فى ظروف الكينونة . فنظريات التعلم الاسترجاعى التى تستند الى دافعية النقص والحاجة لها فائدة قليلة واستخدام ضئيل فى سيكولوجية الكينونة ، وفى حياة المحققين لذواتهم . ان ماسلو يكمل تعلم العادات بتعلم الخلق حيث تؤدى خبرة الى تغيير الشخص كله ، لا أن تغير جزءا من سلوكه . اننا لا نتعلم أخذ قطعة من الحلوى من صندوقها وحسب ، اننا نتعلم الأمانة ، وتقديم المساعدة لجارنا حين يحتاجها ، بل ونتعلم ايضا حسن الجوار .

تختلف معرفة الكينونة او الادراك الموجه للكينونة عن ادراك الحاجة ومعرفتها فى النوع او الكيف . انها تشير الى حالة من الادراك اكثر سلبية ، انها تتضمن أو تقتضى أن يدع الفرد نفسه لكى يبلغه الآخرون ويصلون اليه او يتأثر بما هناك بحيث يصبح الادراك اكثر خصوبة وغناء .

وكمثال للفرق بين دافعية النقص او الحاجة ودافعية الكينونة استخدم ماسلو مفهوم الحب . لقد ميز بين حب الحاجة وحب الكينونة . الأول يثيره ويدفعه نقص اشباع الحاجة الى الحب والانتماء . والانسان فى مثل هذه الحالة يسعى للحب كالشخص الجائع الذى يناضل للحصول على الطعام .

وهذا الحب أنانى أثر لانه حين يتم الحصول عليه يشبع النقص الشخصى . ويقابل هذا حب الكينونة . ولقد قدم لنا ماسلو ثبتا بخصائص هذا النوع من الحب نورده فيما يأتى : —

١ — حب الكينونة ليس حب تملك .

٢ — حب الكينونة لا يصل حد التشبع ، ويمكن الاستمتاع به الى مالا نهاية انه عادة يزداد قوة بدلا من ان يختفى ، وحب الحاجة يمكن أن يبلغ التشبع .

٣ — وخبرة حب الكينونة كثيرا ما توصف بأن لها نفس الاثر كالخبرة الصوفية والخبرة الجمالية .

٤ — حب الكينونة له أثر علاجى عميق ومتسع .

٥ — حب الكينونة خبرة اغنى وأسمى وقيمتها اكبر من حب الحاجة .

٦ — هناك حد أدنى من القلق والعداوة فى حب الكينونة .

٧ — الذين يتوافر لديهم حب الكينونة اكثر استقلالية الواحد عن الآخر ، واقل غيرة ، واقل حاجة واكثر اهتماما واكثر استقلالية عمن يتوافر لديهم الحب الآخر وهم اكثر شغفا بمساعدة الآخر نحو تحقيق الذات واكثر تفاخرا بانتصارات الآخر .

٨ — ان حب الكينونة يجعل الادراك الثاقب والصادق للآخر ممكنا .

٩ — حب الكينونة يتيح للشريك أن ينمو لانه يتيح له تقبل الذات والشعور بالجدارة بالحب ، ويحتمل أن النمو الانسانى التام لا يمكن أن يحدث بغير حب كينونة .

ان قيم الكينونة التى راى ماسلو انها تسيطر على الذين يحققون ذواتهم تشتمل على الصدق والخيرية والجمال والوحدة الكلية ، والبعد عن التفكير الثنائى ، والحيوية والتفرد والاتقان والاتمام والعدالة والنظام والبساطة والغنى والشمول ، والاكتفاء الذاتى واكتمال المعنى . واذا لم يعبر الفرد عن

هذه القيم يحدث حرمان مرضى ، وهذه القيم ليست مرتبة ترتيبا هرميا ولذلك فلها قيم متساوية ، ولكن بعضها يؤثر فى البعض الآخر . وانه لكى يحقق الفرد ذاته حقا فانه فى حاجة الى أن يعبر عن هذه القيم جميعا .

« ولدى انطباع غير مؤكد بأن القيمة الكينونية تتحدد تحديدا كاملا وتعرف تعريفا سليما بقيم الكينونة الأخرى برمتها . أى انه لكى تعرف أو تحدد الحق تحديدا وتعريفا كاملا ينبغى أن يكون الحق جميلا وكاملا وعادلا وبسيطا ومرتبا ومشروعا وشاملا وواحدا وأن يتسامى على الثنائية ، وأن يكون بغير مجهود وممتعا ... ان الامر يبدو لو كان لقيم الكينونة وحدة ، وأن كل قيمة مفردة هى جانب من هذا الكل » .

وعلى الرغم من أن قيم الكينونة حاجات عليا وسامية الا انها ما تزال حاجات وما دامت كذلك فينبغى أن تشبع اذا اردنا للشخص أن يخبر صحة نفسية كاملة . والاخفاق فى اشباع هذا النوع من الحاجات يؤدى الى ما يسميه ماسلو ميتاباثولوجى . « ما بعد المرض » .

ان لحظات معرفة الكينونة المكثفة تحدث مشاعر البهجة ولقد أطلق ماسلو على هذه المشاعر الصوفية والشاملة خبرات الذروة peak experiences وسوف نتحدث عنها حين نتناول خصائص الذين يحققون ذواتهم .

النمو :

الوليد ليس صفحة بيضاء . فكل وليد يجىء الى هذا العلم وله طبيعته ، وله امكانياته الأساسية الداخلية . ان لديه امكانات موروثة وجبلية ومواهب ومزاج وحاجات . ويصف ماسلو هذه الطبيعة الداخلية بأن لها جذورها الغريزية instinctoid وهذه الخاصية أميل الى الضعف منها الى القوة ويسهل التغلب عليها وكفها وقمعها من البيئات التى تكف النمو . وهذه الطبيعة الداخلية ليست سيئة ولكنها اما أن تكون حيادية أو خيرة .

والنمو الصحى المشبع للطفل وتطوره لا يصدر من خارج . انه ليس

ببساطة استجابات لمتطلبات بيئته . أن الوليد أو الطفل لا يدفع الى أمام . وانما يختار الطفل السليم أن ينمو وهو يسأم من مص الأصابع والبحث عن خبرات جديدة فى تناول الطعام . أنه لا يفطم وانما يفطم نفسه وهذا يصدق على النمو والارتقاء فى جميع المجالات (1968, p.p. 55 - 59)

وليس معنى هذا ببساطة ان النمو يتحقق بغير خوف أو الم فكل خطوة الى الامام تعنى ترك ما هو آمن وبسيط ومألوف . وبينما تكون كل خطوة الى الامام مغامرة ، فانها تتطلب الشجاعة فى مواجهة الألم والاخطار الممكنة التى يحملها المستقبل فى طياته ، ومع ذلك فان الطفل ينمو على الرغم من الالم وليس بسببه .

الضمير :

اعتقد ماسلو أن مفهوم الانسان باعتباره ذا جانب حيوانى سىء ، أو باعتباره صفحة بيضاء عند ميلاده قد اديا الى القول بأن الضمير ينبغى ان يفرض عليه من الخارج وذلك بسبب الخوف من العقاب . وهكذا نجد عند فرويد أن الأنا الأعلى هى تمثل الطفل لنواهى الوالدين خوفا من الخصاء . وأن الاخفاق فى طاعة اوامر الضمير يؤدى الى الخوف من العقاب ، والاحساس بالاثم ولكن السؤال هو : ما نوع الضمير الناتج عن التهديدات الخارجية ؟ وماذا لو أن الأب كان سيكوباثيا ، أو متسلطا جامدا ؟ وموقف ماسلو كعادته فى المسائل النظرية الاخرى يعتبر وجهة نظر فرويد لا تمثل الا نصف الحقيقة. ذلك ان ماسلو يقترح بالاضافة الى هذا الجانب من الضمير الذى ينتج عن المؤثرات الخارجية ، جانبا آخر ينبع من الداخل ومن الذات . وفى ضوء ادراك الطبيعة الداخلية يقتضى الضمير الحقيقى أن نكون صادقين مع أنفسنا ومع امكانياتنا ومواهبنا وحاجاتنا الاساسية . ويقول ماسلو : « ان الطبيعة الانسانية تحمل فى داخلها الاجابة عن الاسئلة ، كيف اكون خيرا ؟ كيف أكون سعيدا ؟ كيف أكون مثمرا ومنتجا ؟ ان طبيعتنا الحية تخبرنا بما نريد (وبالتالى بما له قيمة) وتمرضنا حين نحرم من هذا القيم والاخفاق فى تحقيق الطبيعة الاساسية، اى أن نرقى (1954, p.p. 152-153) فى عيشنا الى ما نستطيع أن نكونه يؤدى الى شعور لا مبرر له بخيانة الذات ، ورفضها ، والى شعور حقيقى بالاثم » .

ان الذين يحققون طبيعتهم الداخلية يعملون ما هو خير لانفسهم وللآخرين من منطلق الحب ، وليس من منطلق الخوف ، انهم يعملون ما هو خير لانهم يريدون عمله ، وليس لان عليهم أن يعملوه . انهم يسعون لتحقيق القيم العالية قيم الكنونة ، قيم الحق والكمال والعدل والجمال ، لان هذا السعى وهذا العمل يثيبهم فى ذاته لا لانهم يتوقعون مكافآت خارجية . ان الذين يحققون ذواتهم حين يشعرون بالاثم فانما يشعرون به بسبب نواحى القصور فى انفسهم التى لا تقبل التحسين والتطوير أو بسبب وجود هذه النواحى فى النوع الانسانى الذى ينتمون اليه . (1970, p. 157)

خصائص الذين يحققون ذواتهم :

لاحظنا من قبل أن اهتمام ماسلو بالذين يحققون ذواتهم بدأ حين شعر باعجاب عظيم باستاذين من اساتذته هما رث بندكت وماكس فرتيمر . وبعد أن اكتشف ان هناك جوانب كثيرة مشتركة بين هذين العالمين بدأ يبحث عن آخرين تتوافر فيهم هذه الصفات نفسها . لقد بحث عن افراد يعملون فيما يبدو بقدرتهم الكاملة ، اى افراد يعملون افضل ما يقدرون على عمله . ولقد وجد مثل هؤلاء الأفراد بين طلابه ومعارفه كما وجدهم بين الشخصيات التاريخية المعروفة ولقد حدد مجموعة من هؤلاء فى النهاية ليقوم بدراستها بتفصيل اكبر . وتالفت هذه المجموعة من ٤٨ شخصا ، ينقسمون الى ثلاث فئات ، الفئة الأولى : تتالف من ١٢ شخصا يحتمل انهم يحققون ذاتهم فعلا والفئة الثانية وتتالف من ١٠ اشخاص وهم يحققون ذاتهم تحقيقا جزئيا . والفئة الثالثة وتتالف من ٢٦ شخصا ويمكن أن يحققوا أنفسهم . ولقد ضمن الفئة الأولى عددا ممن حققوا ذاتهم : ايشنتين ، وروزفلت ، ووليم جيمس ، والدس هكسلى وسبينوزا ولنكولن وجفرسن .

ولقد ادرك ماسلو بوضوح أن بحثه عمن يحققون انفسهم ليس علميا ، وانه يمكن أن يتعرض للنقد على مستويات عديدة . ولكنه اندهش لما توصل اليه بحيث انه شعر باضطراره الى أن يشارك الآخرين فى ملاحظاته قائلا « هذه الدراسة ... غير مألوفة على انحاء مختلفة . فهى لم تخطط لتكون بحثا عاديا . ولم تكن مغامرة اجتماعية . وانما كانت مغامرة خاصة ، فقد

حملنى عليها حب استطلاع ذاتى واتجهت نحو حل مشكلات شخصية وخلقية وعلمية مختلفة . وقد حاولت أن اقنع نفسى وأن أعلمها بدلا من أن ابرهن للآخرين أو اثبت لهم شيئا » .

وعلى غير ما هو متوقع تماما ، على أية حال ، لقد اثبتت هذه الدراسات أنها مثيرة لى ومعلمة ، وانها مليئة بالمضامين المثيرة ، وانه يبدو أن من العدل أن أكتب تقريرا من نوع ما عنها ليقراه الآخرون على الرغم من نواحى القصور المنهجية بها . (Maslow, 1970, p. 149)

ولقد قارن ماسلو طريقته فى جمع البيانات عن الأفراد الذين يحققون ذواتهم بالتطور التدريجى للانطباع الكلى لصديق أو أحد المعارف . وبعبارة أخرى لقد كان الانطباع نتيجة لعدد كبير من الملاحظات غير الشكلية فى ظل ظروف منوعة متباينة تباينا كبيرا ، ولم يكن نتيجة ملاحظات مضبوطة فى ظل ظروف مختبرية . هذا بالاضافة الى أن نتائجه استندت الى دراسة مجموعة أو عينة صغيرة من الأفراد . وقد ترتب على هذا تعرض عمل ماسلو الى نقد مستفيض .

ولقد انتهى ماسلو من بحثه الى أن الذين يحققون ذاتهم يظهرون الخصائص الآتية : —

١ — **انهم يدركون الواقع ادراكا صحيحا وتاما** . ومدركاتهم لا تتخذ لونا بسبب حاجات معينة أو حيل دفاعية . وبعبارة أخرى ان ادراكهم للعالم يتميز بأنه ادراك كينونة وليس ادراك حاجة او نقص .

٢ — **انهم يظهرون تقبلا اعظم من غيرهم لانفسهم وللآخرين وللطبيعة بصفة عامة** . ان الذين يحققون ذواتهم يتقبلون الأشياء على ما بها من خير وما بها من سوء . انهم لا ينكرون الجوانب السلبية فى أى فرد أو أى شىء . انهم أكثر تسامحا مع الأشياء والأفراد كما هى ، وكما هم .

٣ — **انهم يتميزون بالتلقائية والبساطة والطبيعية** . الذين يحققون ذواتهم صادقون مع مشاعرهم ، وما يشعرون به فى الحقيقة يعبرون عنه

قولا وعملا . وهم لا يختبئون وراء قناع ، ولا يتصرفون وفقا للأدوار الاجتماعية . انهم صادقون مع أنفسهم .

٤ — **انهم يميلون الى الاهتمام بالمشـــكلات وليس الاهتمام بأنفســهم** . الذين يحققون أنفسهم يلتزمون عادة بانجاز ما يتصدون له من عمل لتحقيق هدف أو دفاع عن قضية أو خـدمة رسالة ، ويوجهون معظم طاقاتهم لهذا . ويقابل هذا الانشغال بالذات الذى كثيرا ما نجده فيمن لا يحققون ذواتهم .

٥ — **انهم يتميزون بنوع من الانعزال والحاجة الى الخصوصية** . لما كان الذين يحققون ذواتهم يعتمدون على قيمهم ومشاعرهم فى توجيــه حياتهم ، فانهم عادة لا يحتاجون الى احتكاك مستمر مع الآخرين .

« كثيرا ما يكون من الممكن بالنسبة لهم أن يظلوا فوق المعــركة هادئين ، لا يثير اضطرابهم ما يثير اضطرابا شديدا عند الآخرين . وهم يجدون أن من اليسير عليهم أن يتقدموا ويتأخروا وهم هادئين فى سكينة ، وهكذا يصبح من الممكن بالنسبة لهم أن يتقبلوا ما يتعرضون له شخصيا من سوء حظ دون أن يستجيبوا لذلك بعنف كما ينفعل الشخص العادى . ويبدو أنهم قادرون على الاحتفاظ بكرامتهم حتى فى ظروف ومواقف غير مبجلة . ولعل ذلك ينتج جزئيا من ميلهم للتمسك بتفسيرهم للموقف أكثر من اعتمادهم على ما يشـــعر به الآخرون فى هذه المسألة وما يفكرون بشأنها . وهذا التحفظ قد يلقى بظلاله ويظهر فى صورة تقشف وابتعاد » (Maslow, 1970, p. 160)

٦ — **وهم مستقلون ذاتيا وبالتالى يميلون الى الاستقلال عن بيئتهم وثقافتهم** . ولما كان المحققون لذواتهم مدفوعين بدوافع كينونة أكثر من كونهـــم مدفوعين بدوافع حاجة وقصور فانهم أكثر اتكالا على عالمهم الداخلى منهم على عالمهم الخارجى .

« أن المدفوعين بدوافع الحاجة والقصور ينبغى أن يتـــوافر حولهم أناس آخرون . لان معظم اشباعات حاجاتهم (للحب والأمن والاحترام

والشهرة والانتماء) تجيء من اناس آخرين . ولكن المدفوعين بدوافع الكينونة أو بدوافع النمو قد يقيدهم وجـود الآخرين ويعوقهم . ان محددات الرضا أو الاشباع والحيـاة الخيرة تنبع من داخل الفـرد بالنسبة لهم ولا تصـدر عن المجتمع . لقد صاروا من القـوة بحيث يستغنون عن رأى الآخرين الجيد فيهم ، أو حتى عن عاطفتهم وحبهم . أن المكانة الاجتماعية ودرجات الشرف والمكافآت والشعبية والشهرة والصحة التى يمكن ان يحرزوها تقل اهميتها بالنسبة لهم عن النمـو الداخلى وتطوير الذات وارتقائها » (Maslow, 1970; p. 162)

٧ — **انهم يظهرون تذوقا مستمرا ومتجددا** . ان المحققين لذواتهم يجدون متعة متجددة فى خبراتهم ، فكل وليد وكل شروق جميل بالنسبة لهم كانهم يرونه لأول مرة . والزواج مثير بالنسبة لهم بعد اربعين سـنة كما كان عند بدايته. وبصفة عامة يجد هؤلاء الأفراد الهاما عظيما ومتعة وجدانية فى خبرات الحياة اليومية الأساسية .

٨ — **تتوافر لهم خبرات الأوج أو الذروة أو خبرات صوفية** . لقد اعتقـد ماسلو ان لدى جميع الناس من الامكانيات ما يتيح لهم أن يخبروا الذروة او الأوج ، ولكن المحققين لذواتهم هم وحدهم الذين يتمتعون بهـذا النوع من الخبرات كاملا ، لانها لا تهددهم وبالتالى فانهم لا يكفون هذه الخبرة ولا يدافعون عن التمتع بها . وبصفة عامة تعتبر خبرات الذروة احتضان لقيم الكينونية .

« أنه الشعور بالآفاق غير المحدودة المنفسحة ، والشعور بأن الفرد اكثر قوة واكثر ضعفا فى آن واحد عما كان عليه الفرد من قبل فى اى وقت مضى ، والشعور ببهجة عظيمة ورهبة ودهشة وفقدان التموضع فى الزمان والمكان مع الاعتقاد فى النهاية بأن شيئا هاما جـدا وقيما جدا قد حدث بحيث يتحول الفرد ويتقوى الى حد ما حتى فى الحياة اليومية من خلال هذه الخبرات » (Maslow, 1970, p. 164)

وينتهى ماسلو الى القول بأن بعض المحققين لذواتهم يعتلون الذروة ويبلغون الأوج اكثر من البعض الآخر . وتميل الفئة التى لا تبلغ هذه

الدرجة الى أن تكون عملية وتميل الفئة الأخرى الى أن تكون أكثر شاعرية ومتوجهة نحو الجمال ومتسامية ومتصوفة .

٩ — **انهم يميلون الى التوحد مع الانسانية كلها** • ان اهتمامات المحققين لذواتهم بالآخرين لا تقتصر على أصدقائهم وأسرتهم بل تمتد وتتسع لتشمل الناس جميعا فى جميع الثقافات فى العالم كله. ان هذا الشعور بالأخوة يمتد ايضا الى أفراد آخرين عدوانيين لا يراعون الآخرين وأنانيين . ولدى المحققين لانفسهم رغبة حقيقية لمساعدة الجنس البشرى .

١٠— **انهم ينمون علاقات بين شخصية عميقة مع عدد قليل من الأفراد** . المحققون لذواتهم يصطفون أصدقاءهم من بين من على شاكلتهم وصداقاتهم عميقة . فصداقاتهم قليلة فى العدد ولكنها عميقة وخصبة .

١١— **انهم يميلون الى تقبل القيم الديمقراطية**. المحققون لذواتهم لايستجيبون للأفراد الآخرين على أساس الجنس أو المكانة أو الدين . وهم يودون أى فرد له خلق مناسب بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية والتربية والمعتقد السياسى والجنس أو اللون . والحقيقة أنه كثيرا ما يبدو كما لو أنهم ليسوا على وعى بهذه الفروق وهى فروق واضحة جدا للشخص المتوسط وهامة جدا . (Maslow, 1920; p. 167)

١٢— **أن لديهم احساس خلقى قوى** • على الرغم من أن أفكار المحققين لذواتهم عن الصواب والخطأ كثيرا ما لا تكون تقليدية ؛ فانهم مع ذلك يعرفون دائما تقريبا المضامين الخلقية لأفعالهم .

١٣— **أن لديهم روح دعابة نامية وغير عدوانية** • ان المحققين لذواتهم يميلون الى أن يدركوا الجانب الظريف والفكه من الأشياء الخلصة بهم والتى قد يراها الآخرون محطة ومؤذية للمشاعر . أى أنهم أميل الى الضحك من انفسهم أو من الانسان بصفة عامة .

١٤— **أنهم مبتكرون** • لقد وجد ماسلو هذه السمة فى جميع المحققين لانفسهم

انها خاصية تميز بصفة عامة جميع الذين درسوا أو لوحظوا من هذه الفئة . ولا يوجد استثناء .

« ان الابتكار أو الابداع لا يبدو لدى بعض الأفراد فى الصورة المألوفة فى تأليف الكتب ووضع الموسيقى وانتاج الأشياء الفنية ولكنه قد يبدو فى صورة أكثر تواضعا . ان الأمر كما لو أن هذا النمط الخاص من الابتكار باعتباره تعبيرا عن شخصية سليمة مسقط على العالم او يمس كل نشاط ينغمس فيه الشخص . وبهذا المعنى يمكن أن يكون هناك صانعو احذية أو نجارين أو كتبه مبتكرين » (Maslow, 1970, pp. 170-171) ولا غرابة فى أن تتميز هذه الفئة لانهم أكثر تفتحا للخبرة واكثر تلقائية فى مشاعرهم .والابتكارية تتصل اتصالا مباشرا بدوافع الكينونة .

١٥ـ **انهم يقاومون الاجتياح الثقافى** . فالمحققون لذواتهم يميلون الى المغايرة لا المسايرة لانهم موجهين من الداخل . واذا كان المعيار الثقافى مضادا لقيمهم الشخصية فانهم لن يلتزموا به .

الخصائص السلبية للذين يحققون انفسهم :

معظم الناس يعتبرون هذه الخصائص الخمس عشرة موجبة ، ولكن ماسلو يريد أن يوضح أن الذين يحققون انفسهم لن يبلغوا الكمال . « فالأفراد موضع الدراسة يظهرون كثيرا من اخطاء البشر ، لديهم عادات سخيفة متلافة لا تفكير فيها . ويمكن أن يكون هؤلاء مملين عنيدين يثيرون ضيق الآخرين . وهم ليسوا متحررين من غرور سطحى وتحيز وعجب بالنسبة لانتاجهم وأسرهم وأصدقائهم وأطفالهم . ونوبات الغضب ليست نادرة » (Maslow, 1970; p. 175) وعلى سبيل المثال فان احد مفحوصيه حين وجد صديقا له لم يكن مخلصا له ، قطع صلته به دون أثر من ندم . ولكونهم اقل اعتمادا على البيئة ومقاومة للاجتياح الثقافى فانهم يسلكون احيانا بطريقة قد تصل حد الوقاحة ، أى انهم قد لا يتسمون بمجاملة الآخرين فى سلوكهم أحيانا .

لماذا لا يشيع تحقيق الذات ؟

اذا كان الميل الى تحقيق الذات فطريا ، فلماذا لا يحقق كل راشد ناضج ذاته اذن ؟ ان ماسلو يقدر أن الذين يحققون ذواتهم من الراشدين الناضجين يقدرون بواحد فى المائة . ويفسر هذه الحقيقة على النحو الآتى : —

١ — لما كان تحقيق الذات على رأس التنظيم الهرمى للحاجات فهو اذن أضعف هذه الحاجات ويسهل اعاقته . « ان هذه الطبيعة الداخلية ليست قوية ومسيطرة ، انها لا تشبه غرائز الحيوانات ، انها ضعيفة ورقيقة ولطيفة ويسهل أن تتغلب عليها العادة والضغط الثقافى والاتجاهات الخاطئة نحوها » (Maslow, 1968, p. 4)

٢ — معظم الناس يخافون التوصل الى معرفة النفس التى يتطلبها تحقيق الذات . ان هذه المعرفة تتطلب الاستغناء عما هو معروف والدخول فى الشك وما ليس يقينيا . « اننا نخاف معرفة أنفسنا أكثر من خوفنا أى نوع آخر من المعرفة ، تلك المعرفة التى قد تغير تقديرنا لذاتنا وصورتنا عنها . . . وبينما يحب الناس المعرفة ويبحثون عنها — لان لديهم حب استطلاع — فانهم فى نفس الوقت يخافونها . وكلما اقتربت هذه المعرفة مما هو شخصى ، ازداد خوفنا منها » (Maslow, 1966; p. 16)

٣ — يمكن أن تقمع البيئة الثقافية ميل الفرد نحو تحقيق ذاته لانها تفرض معايير معينة على قطاعات من المجتمع السكانى . وعلى سبيل المثال فان تعريف الرجولة فى ثقافتنا قد تمنع الطفل الذكر من تنمية سمات مثل المشاركة الوجدانية والشفقة والرقة وهى كلها تميز الفرد الذى حقق ذاته .

٤ — ولكى يحقق الفرد ذاته ينبغى ان يختار النمو على الأمان . ولقد لاحظ ماسلو ان الأطفال الذين نشأوا فى بيوت دافئة آمنة ودودة يغلب ان يختاروا خبرات تؤدى الى نموهم الشخصى وذلك بدرجة اكبر من الأطفال الذين ينشأون فى بيوت غير آمنة . وهكذا فان ظروف الطفولة تؤثر فى امكانية تحقيق الفرد لذاته . ولقد وصف ماسلو الظروف المثلى

التى تمكن الطفل من تحقيق ذاته فبين انها الظروف التى تتوافر له فيها الحرية فى حدود . لقد شعر ان توافر قدر كبير من التسامح مضر كتوافر قدر كبير من الضبط . ان ما نحتاج اليه هو الخليط السليم من المكونين .

الظروف الضرورية لتحقيق الذات :

بالاضافة الى اشباع الحاجات الفسيولوجية وحاجات الأمن والحب والانتماء ، ينبغى ان تتميز البيئة التى ينشأ فيها الفرد بخصائص اخرى لكى يحدث تحقيقه لذاته . وتشتمل هذه الخصائص فيما يرى ماسلو على حرية التعبير ، والحرية فى أن يعمل الفرد ما يريده طالما انه لا يؤذى احدا آخر ، وحرية الاستقصاء ؛ وحرية الدفاع عن النفس ، والنظام والعدالة والاستقامة والامانة ، وقد اضاف اليها فيما بعد « التحدى » او الاثارة المناسبة كخاصية للبيئة التى تيسر تحقيق الذات .

واذا ادركنا اهمية هذه المتطلبات البيئية ، وفهمنا الاسباب الأربعة التى تحول دون أن يحقق مزيد من البشر ذواتهم ، سهل علينا ان نفهم لماذا لا يحقق اكثر من ١٪ من البشر الناضجين ذواتهم . ومعظمنا يعيش بقية أيام حياته فى موضع ما بين حاجات الحب والانتماء وتقدير الذات .
(Hergenhahn, pp. 341-346)

تقويم النظرية :

— ليس من شك فى أن اعتقاد ماسلو أن علم النفس التقليدى قد ركز على الجانب المظلم من الطبيعة الانسانية صحيح . غير ان هناك عددا من علماء النفس كانت وما زالت لهم مواقف مشابهة لموقف ماسلو ومخالفة للاتجاه التقليدى من امثال ادلر والبورت وروجرز وكيلى . ويمكن القول بصفة عامة أن عددا كبيرا من علماء النفس التقليديين قد اهتموا فى الماضى

وما يزالون بابراز أهميــة الدوافع الفسيولوجية من حيث تأثــيرها فى السلوك،كما انشغل بعض آخر ومازالوا بالشروط والملابسات التى تسهم فى تعرض البشر للعصاب والذهان . ولقد بذل ماسلو جهدا كبيرا لكى يوسع نطاق علم النفس ومجال اهتمامه بحيث يتصدى لدراسة الاصحاء والأسوياء من البشر . ولا شك أن جهوده بالاضافة الى جهود روجـرزا والبورت قد خلقت قوة ثالثة فى علم النفس .

— ولقد تعرض ماسلو لنقد مؤداه أنه لم يلتزم بالمنهج العلمى ، واستخدم أساليب بحثية غير موثوق بها وغير مضبوطة . وأنه أسس نتائجه عن المحققين لذواتهم على عينة من الأفراد . وقد اتهم فضلا عن ذلك باختياره للمفحوصين فى بحوثه وفقا لمحكاته الحدسية عن الخصائص المميزة لمن يحققون ذواتهم . كما اتهم باستخدامه لمصطلحات غامضة مثل ما بعــد الحاجة metaneed وما بعد المرض metapathology

— ولقد اتهم ماسلو أيضا بأنه يخلط بين الاعتبارات الاخلاقية وبين المنطق. ولقد أدى هذا الخلط ببعض النقاد الى اعتباره مصلحا اجتماعيا أكثر منه باحثا موضوعيا .

— وقد نتج أحد الانتقــادات التى وجهت لنظريته عمـــا اتضح من بعض الدراسات أنه يمكن لعدد من الأفراد أن يصبحوا منتجين مبتكرين حتى ولو لم تشبع حاجاتهم الأساسية .

— وعلى الرغم من هذه الانتقادات ، فقد اتضحت فائدة نظرية ماسلو فى علم النفس وفى التربية وفى مجال الصناعة والادارة ويمكن القــول أن نظريته أكثر ملاءمة للحياة الواقعية منها لما يجرى فى معامل علم النفس .

— ولقد اتخذ ماسلو موقفا معارضا لفرويد . ذلك أن الأخير يرى الانسان

ذا طبيعة حيوانية فى صراع مع المجتمع ، الذى يضع القيود على نزعاته الفريزية . أما عند ماسلو فان الانسان فى أساسه خير وغير عدوانى يبحث عن الحق والجمال ويسعى للاتقان . ولو اعطى الانسان الحرية من وجهة نظر فرويد لاصبح عدوانيا ذا شبق عبثى . أما لو اتيحت له الحرية عند ماسلو فسوف يخلق مدينة فاضلة يسودها الحب والوئام . فوجهة نظر ماسلو تعارض وجهة نظر فرويد معارضة شديدة وكأنهما نقيضان .

الفصل الثامن عشر

الوضع الراهن والمستقبل فى نظريات الشخصية

يبدو أن هناك خلافا أساسيا فى دراسة الشخصية يقسم نظرياتها الى مجموعتين احداهما ترى أن دراسة الشخصية فرع من العلوم الطبيعية والثانية تعتبرها وثيقة الصلة بالانسانيات . ولا بد أنه قد اتضح لدارسى الشخصية أن الباحثين فيها يعلنون ولاءهم دائما للمنهج العلمى . ومع ذلك فان طالب العلم سوف يتضح له أن بعض علماء النفس فى هذا المجال يقتربون ممن يكتبون السير ويترجمون لحياة الاشخاص اكثر من اقترابهم الى البيولوجيين ، ومن هؤلاء اريكسون وموری والبورت فنظرياتهم تأخذ بالمدخل البيوجرافى باعتباره أفضل طريقة لاكتشاف ماهية الشخصية وكيف تؤدى عملها . ويستمد يونج كثيرا من بياناته من البحث التاريخى وطرقه فهو أقرب الى الاثنوجرافيا أو الانثربولوجيا الوصفية منه الى علم النفس . ودعاوى ماسلو أقرب الى أن تكون أخلاقية ، والأخلاق فرع من الفلسفة يحاول الأجابة عن سؤال هو : كيف ينبغى أن نحيا ؟ والبيوجرافيا والتاريخ والاثنوجرافيا والأخلاق فروع من الانسانيات وليست علوما بالمعنى الوارد فى العلوم الطبيعية ومع ذلك فان علماء النفس هؤلاء جميعا يصرون على انهم طلاب علم وملتزمون بالمنهج العلمى فى دراساتهم .

وطبيعى أن يتخذ سكنر من الاتجاهات السابقة موقف النقد لان علم النفس عنده هو ذلك العلم الذى يمكننا من التنبؤ بالسلوك وضبطه . ولا بد ان يتفق باندورا وكاتل وايزنك وميللر مع وجهة النظر هذه ، على الرغم من أن سكنر وباندورا يبحثان عن أسباب السلوك أساسا فى البيئة الخارجية ، وكاتل وايزنك يتعمقان فى الفرد للبحث عن الأسباب ودولارد وميللر قد يجمعان بين هذين الاتجاهين ، الا انهم جميعا يسعون الى ذلك النوع من التوضيح الذى يتحدث عن الظواهر قائلا : اذا حدث (س) فانه لا بد أن ينتج عنه بالضرورة (ص) أى أن النموذج العلمى المفضل هو ذلك الذى يربط النتائج بأسبابها . وواضح أن هذه ليست الطريقة الوحيدة لشرح الظواهر وتفسير الأحداث . والأمر الذى ليس واضحا تماما هو هل هذه هى الطريقة العلمية الوحيدة لتفسير الظواهر ؟

ان سكنر يقول بحسم أن هذه هى الطريقة الوحيدة . ولكن ماسلو مثلا يقول انها ليست الطريقة الوحيدة . فالتفسيرات التى تستند الى اغراض السلوك والى الخصائص البنائية والقصدية للشخصية ليست صادقة فحسب ولكنها ايضا علمية . وهو يرى أن نسقه الأخلاقى يقوم على اساس علمى .

وينتهى سيجمند كوخ Koch الذى اشرف على تحرير ونشر ستة مجلدات كلاسيكية فى علم النفس بعنوان :

Psychology : A Study of A Science

الى القول « لا يمكن أن يكون علم النفس علما متماسكا » وينبغى أن ننظر الى أحد اجزائه على الأقل باعتباره فرعا من الانسانيات أو الآداب (١٩٨١) ولا احد ينكر أن العلم يشكل جزءا من علم النفس . ولكن النقطة التى يؤكد عليها كوخ هى أن علم النفس لا يمكن ان يكون كله علما متماسكا مترابطا موحدا . ولا بد أن يكون من المسائل الأساسية التى لها علاقة بعلم النفس التمييز بين الآداب والعلوم .

ولقد بحث جيورجى نفس المشكلة ، اى مشكلة وجود نوعين من علم النفس ورفض أن يقرر ما اذا كان احدهما اجدر بان يسمى علما اذا قورن بالآخر . واقترح أن يطلق على النظريات الفنومنولوجية العلم الانسانى . وأن يطلق على النظريات التى تتخذ من الفيزياء والبيولوجيا نموذجا لهـا العلم الطبيعى . ان لكل منهما مكانه فى علم النفس ، وان كلاهما علمى . غير أنهما ببساطة يمثلان نوعين مختلفين من العلوم .

فهل تفضل نظريات الشخصية التى تشبه البيوجرافيا أو السير وتعتبرها علمية أم ترفضها ؟ من الصعب انكار انها تختلف نمطيا عن نظريات الشخصية التى تتابع خطى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا . ومن العسير أن نجمع مكونات من هذه النظريات ومن تلك ونضعها فى نسق واحد . لان هذه المكونات لا تتسق معا لان كلا منها يستند الى نوع مختلف من المسلمات . ولا بد أن يكون اختيارك لنظرية فى الشخصية مرهون بالمسلمات التى تستطيع أن تتعايش معها على نحو مريح .

وتستند نظريات الشخصية التى تقوم على التقاليد العلمية الطبيعيـة

الى مسلمات الحتمية والموضوعية والذرية . ولما كان هدفها هو التنبؤ بالسلوك وضبطه فلا بد أن تسلم هذه النظريات بأن السلوك يتحدد على نحو شرعى . وانها اذا افسحت المجال لحرية الارادة فانها لن تقدر على التنبؤ وكل ما تستطيعه عندئذ هو التخمين . وأصحاب نظريات العلم الطبيعى يكافحون للتوصل الى طرق موضوعية بقدر الامكان لكى يتخلصوا من التحيز الشخصى فى عملهم وليضمنوا أن جميع الملاحظات قابلة للاعادة . ان هدفهم هو الابتعاد بأكبر درجة ممكنة عن موضوع الدراسة لضمان الحيدة . ولتحقيق هذه الغاية كثيرا ما يعبرون كميا عما يلاحظونه ويسجلوه تسجيلا آليا باستخدام الآلات . وهم يعلون من قيمة الطريقة التجريبية ويبذلون كل جهد لانقاص التفسير الذاتى الى حده الادنى . ويتميز مدخل العلم الطبيعى بأنه ذرى تجريبى . انه يفترض أن فهم الظاهرة يتحقق بردها الى جزئياتها وعناصرها الأولية . ونجاح الفيزيائيين فى تعمق طبيعة المادة وتقدمهم من العناصر الى الذرات ومن الذرات الى الالكترونيات والبروتونات .... الخ يؤخذ كدليل على حكمة هذه الاستراتيجية . وعلى الرغم من أن نظريات المجال الكلى فى الفيزياء قد حققت اسهامات لها مغزاها فى فهم المادة خلال القرن العشرين الا أن باندورا يعد من الذين تخففوا من المدخل التجريبى الذرى مقتربا من هذا الاتجاه . اما كاتل وسكنر فقد تمسكا بهذا الموقف الذرى . وهذه المسلمات رغم وجاهتها لم تتم البرهنة على اهميتها وقد تكون غير قابلة للبرهنة على قيمتها . فدعاوى العلم الطبيعى ببلوغه الحقيقة تستند الى اساس أقل رسوخا واستقرارا مما نظن ، رغم أن معظم العلماء ليسوا على استعداد للتسليم بهذا .

وقد لا يكون لنظريات الشخصية البيوجرافية التاريخية اساس أكثر رسوخا من النظريات السابقة . ومعروف أنه لا يوجد تاريخ بغير تفسير . وما وجد فى الواقع ما هو الا تفسيرات مختلفة للتاريخ أحدها قد يكون التفسير الرسمى او التفسير الذى يتفق عليه معظم العلماء . وقد تتقبله على أنه تاريخ ولكنه ليس كذلك ، انه تفسير للتاريخ ، بل وحتى لو توافر لديك فريق من المصورين ليصوروا كل ما يحدث وما يجرى من احداث ، فان هذا التسجيل الذى كثيرا ما يقبل دون تفكير على أنه رصد موضوعى للوقائع والأحداث لا يؤلف التاريخ . لماذا ؟ لان آلات التصوير انتقائية فهى لا تصور

كلى شىء ، انها توجه عدساتها وجهة معينة ولا توجهها وجهات أخرى ، كما أن للصورة اطارا محددا وما يشتمل عليه اطار الصورة يختلف عما هو خارج هذا الاطار . والمصورون يعرفون هذا حق المعرفة لانهم يستهدفون من خلال صورهم نقل رسالة للمشاهدين،فالتاريخ لا يمكن تسجيله وانما يمكن تفسيره فحسب . والبيوجرافيا أى دراسة تاريخ حياة الفرد أو سيرته تتعرض لنفس القيود . ويستطيع البيوجرافيون ان يطوروا طرقهم كما فعل مورى ليحول دون التعرض للتحيز المنتظم . وقد يتوصل العلماء الى اتفاق فيما يتصل بتفسير تاريخ حياة فرد معين . ومع ذلك فان النتاج النهائى ما هو الا تفسير . وتعتمد التفسيرات لا محالة على مسلمات معينة . وسواء تخيرت نظرية شخصية ذات تقاليد علمية طبيعية أم ذات تقاليد انسانية ، أو بين هذه وتلك فلا سبيل الى تجنب المسلمات القبلية وبالتالى ليس هناك ضمان لبلوغ الحقيقة المطلقة .

انماط نظريات الشخصية :

لمساعدتك على اختيار نظرية تناسبك دعنا نفحص المسلمات التى تقوم عليها أربعة انماط من نظريات الشخصية وهى النظريات السيكودينامية ونظريات السمات ، والنظريات السلوكية ، والنظريات الانسانية .

تفضل النظريات السيكودينامية والنظريات الانسانية المدخل الداخلى لفهم الشخصية بينما تفضل النظريات السلوكية ونظريات السمات المدخل الخارجى لفهم الشخصية .وتتشابه الفنومنولوجيا والتحليل النفسى من حيث انهما يهتمان بالعالم العقلى الداخلى للشخص كما يراه ذلك الشخص فنظرتهما من الداخل الى الخارج . أن أصحاب نظريات السمات والنظريات السلوكية يفضلون أن تكون نظرتهم للشخصية من الخارج الى الداخل . فالسلوكيون لا يهتمون على الاطلاق بالعالم العقلى الداخلى للفرد.كما أن أصحاب نظريات السمات لا يهتمون بعالم الشخص الداخلى حين يركزون على خبرته الذاتية وكيف تفسر.وهم يفترضون أن السمات الداخلية التى يسعون الى اكتشافها خصائص للشخص ولا تختلف اختلافا له مغزى عن فصيلة دمه او زمن الرجع عنده ، وأن هذه السمات يمكن قياسها على افضل نحو من الخارج . وهكذا

يتشابه التحليل النفسى والفنومنولوجيا من حيث أنهما يأخذان بمنظور داخلى، وتتشابه النظريات السلوكية مع نظريات السمات من حيث أنها تتخذ منظورا خارجيا للشخص .

ومن الغريب أن نتبين أن السلوكيين والفنومنولوجيين يدعون أنهم لا يختلفون من حيث أنهم امبيريقيون ، أى أنهم يتناولون الخبرة على نحو مباشر ، ويحاولون الابتعاد عن التنبير ، وتفسير ما يلاحظون بالعودة الى قوى فرضية أو تجريدات نظرية . ان المعطيات العيانية للخبرة هى مادتهم . وينظر السلوكيون بطبيعة الحال الى هذه المعطيات العيانية من منظور خارجى ، بينما ينظر اليها الفنومنولوجيون من منظور داخلى . وكلاهما يختلف على أية حال اختلافا جذريا عن نظريات التحليل ونظريات السمات اللتان تستبيحان وجود القوى والبنيات فى الشخصية والتى لا يمكن ملاحظتها على نحو مباشر . فالغرائز والسمات تكوينات فرضية ويمكن ملاحظة آثارها أما هى فيمكن استنتاجها فحسب ، لانها تجريدات ومثل هذه النظريات تتطلب مسلمات أكثر من هذا النوع . وهكذا فان النظريات السلوكية والنظريات الفنومنولوجية تتشابه لانها تعالج احداثا امبيريقية ، كما أن نظريات التحليل النفسى والسمات تتشابه من حيث أنها تسلم بوجود قوى افتراضية وبنيات فى الشخصية . ويلخص الجدول (١ — ١٨) هذه المعلومات .

جدول (١ — ١٨)

يوضح ابعاد نظريات الشخصية

	أحداث أمبيريقية	قوى افتراضية وبنيات
منظور داخلى	الفنومنولوجية	التحليل النفسى
منظور خارجى	السلوكية	السمات

وهناك بعض التشابه بين النظريات المتقابلة على المحورين فى الجدول (١ — ١٨) فالنظريات الفنومنولوجية ونظريات السمات على سبيل المثال متشابهة من حيث أن مدخلها لمادتها وصفى بنائى . وتحاول النظريات الفنومنولوجية أن تتوصل الى تحليل وصفى لبنية الخبرة الذاتية . ولا يختلف الفنومنولوجى عن عالم النبات الأول الذى وضع ورقة الشجر تحت الميكرسكوب ليستطلع وحدة بنائها وهى وحدة لم تكن معروفة من قبل . أى أن الفنومنولوجى يعمل على فحص الخبرة الشعورية بأسلوب يمكنه من رؤية ملامح لها لم تكتشف من قبل . ويبحث أصحاب نظريات السمات عن الملامح البنائية ولكنهم يرونها كخصائص للشخص بدلا من اعتبارها ببساطة خبرة شعورية . ان منظورهم خارجى . وبالرغم من ذلك فان نظريات السمات تشبه النظريات الفنومنولوجية من حيث انهما فى الأساس وصفيتان . صحيح انهما كثيرا ما تعبران عما يقدمانه من أوصاف تعبيرا كميا ، وان هذا يظهرهما بمظهر العلمية ، ولكن هذا لا ينقلهما من مرحلة الوصف الى مرحلة التفسير . وتهتم نظريات السمات باكتشاف السمات التى تؤلف بنية الشخصية ثم قياس كم كل من هذه السمات فى مختلف الأفراد وتتطلب وصف الملامح البنائية .

ويقع على المحور الثانى للجدول (١ — ١٨) التحليل النفسى والسلوكية وهما يتشابهان من حيث أنهما منغمستان فى تقديم تفسيرات وظيفية لما يفعله الناس انهما أكثر اهتماما بالسؤال : كيف تعمل الشخصية وذلك أكثر من اهتمامها بالسؤال ما هى الشخصية ؟ ولو ان هذا بطبيعة الحال يصدق على السلوكيين بدرجة أكبر من صدقه على التحليل النفسى . وتحاول التفسيرات الوظيفية تتبع العلاقات العلية ، أى ربط الأسباب بالنتائج . وتصور الأسباب عادة كقوى تصدر من داخل الشخصية أو من البيئة . ولما كانت هذه القوى تحدد الفعل فان استراتيجيات التحلل النفسى والسلوكية هى تحديد هذه القوى الهامة والمبادىء القانونية التى تعمل هذه القوى وفقا لها . وفى هذا الجانب نلاحظ قدر كبيرا من التشابه بين التحليل النفسى والسلوكية .

والحق أن أى تعمق من هذه الأنماط الأربعة يكشف عن نواحى تشابه

فيها وأخرى تختلف فيها ذلك انه على الرغم من أن كل نمط يختلف عن الانماط الأخرى اختلافا واضحا الا أنه يشترك مع نمط آخر على الأقل فى ناحية هامة ، ونتيجة لذلك كان تاريخ علم النفس سلسلة متتابعة من تغير الولاءات .

ومعنى هذا أن اختيار شخص معين لنظرية فى الشخصية تلائم أغراضه يمكن أن يتيسر فى ضوء الاجابة عن سؤالين أو ثلاث وهى : هل تريد نظرية ذات منظور داخلى أم نظرية ذات منظور خارجى ؟ أى هل تفضل نظرية تقوم على الاحداث الامبيريقية القابلة للملاحظة أم انك على استعداد للتسليم بقوى فرضية أو بوجود بنيات فرضية ؟ وفى الواقع لو انك أجبت عن هذين السؤالين فلا بد أن تنتهى الى اختيار نمط من انماط نظريات الشخصية الأربعة . وقد يساعدك سؤال ثالث على مراجعة اختيارك . هل تفضل نظرية تؤكد على الجوانب البنائية والوصفية ، أم نظرية تؤكد على الجانب الوظيفى التفسيرى ؟ واذا كانت اختياراتك واضحة ومنطقية فان الاجابة عن هذا السؤال سوف تتأدى بك الى اختيار نمط من انماط النظريات الشخصية الأربع وهو النمط الذى انتهيت الى اختياره بعد اجابتك عن السؤال الأول والثانى .

اختيار نظرية معينة

حتى لو انك انتهيت الى اختيار نمط من الأنماط الأربعة من نظريات الشخصية فانك ما تزال تواجه بعض الصعوبات فى اختيار نظرية من نظريات هذا النمط . ولعلك تستطيع أن تيسر هذا الاختيار حين تقوم المسلمات الاساسية التى تستند اليها كل نظرية ، وبعض المسلمات مستساغة عقليا عن اخرى بغير شك .

ويوضح الجدول (٢ — ١٨) موقف كل نظرية بالنسبة لمسلمات ست مفيدة ، وهذه المسلمات لا تستغرق المجال كله ؛ فلكل نظرية مسلمات اكثر من هذه ولكن هذه المسلمات تمثل أهم الخلافات بين النظريات المختلفة . ولا يتخذ كل منظار موقفا قويا بالنسبة لكل من هذه المسلمات وبالتالى فقد ادرج اسم النظرية التى تتخذ موقفا متشددا او واضحا تماما من المسلمة بجوارها .

جدول (٢ — ١٨)

موقف النظريات بالنسبة للمسلمات الأساسية

الحرية	روجرز، ماسلو، البورت	فرويد، سكنر، كاتل أريكسون، مورى	الحتمية
اللاعقلانية	فرويد، يونج	سكنر، كيلى، البورت باندورا، روجرز، ماسلو	العقلانية
الخيرية	روجرز، ماسلو، البورت	فرويد	الشرية
البيئة	سكنر، باندورا، اريكسون	فرويد، يونج	الوراثة
الذاتية	روجرز، كيلى	سكنر، كاتل، أيزنك	الموضوعية
الكلية	يونج، ماسلو، روجرز مورى، ألبورت	فرويد، سكنر، كاتل باندورا، أيزنك ميلر ودولارد	التجزيئية

دعنا نراجع هذه المسلمات الست على نحو سريع. هل تفترض الحتمية أم الحرية ؟ ويتوقف هذا على اعتقادك : هل الأشياء التى تقوم بها تصدر عن اختياراتك الشعورية وقراراتك أم تنتج عن قوى لا تسيطر عليها ؟ هل تتحكم فى مجريات الأمور أم انك تتابع ما يجرى فقط وتسايره ؟ ويعتبر روجرز من أكبر المدافعين عن حرية الارادة ، وسكنر من أكبر دعاة الحتمية .

هل تفترض أو تسلم بالعقلانية أم باللاعقلانية ؟ ان هذا يتوقف على ما اذا كان الناس يسلكون على اساس من العقل أو على أساس نزعاتهم ورغبتهم . ويمثل فرويد اللاعقلانية بينما يمثل كيلى العقلانية .

والاختيار بين الخيرية والشرية يشير الى ما اذا كانت الطبيعة الانسانية خيرة بطبيعتها أم شريرة . فالنظرة المأسوية للطبيعة الانسانية ترجع الى ايام الأغريق القدماء الذين رأوا أن هناك عيبا اساسيا فى الطبيعة الانسانية يحول دون بلوغها الكمال . ولعل خروج آدم من الجنة بسبب الخطيئة الأصلية وما يرتبط بهذا من نظريات لاهوتية يمثل هذا الاتجاه . ويعتبر فرويد متميزا بين أصحاب نظريات الشخصية لان هذه النظرة المأسوية مكون أساسى فى نظريته . هـذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجد نظريات تحقيق الذات كنظرية روجرز ، ونظرية ماسلو ترفضان هـذا المسلم وتعتبران الشخصية الانسانية فى اساسها خيرة وقابلة لبلوغ الاتقان والكمال .

والمسلمات التى تتصل بالوراثة والبيئة مألوفة لنا جميعا. هل الشخصية فى أساسها نتاج للتعلم ولخبرات الحياة أم نتاج للطبيعة الفسيولوجية والجداول النمائية . ان الجدال العنيف الذى يدور حول هذه المسألة يرجع الى حد ما الى ان لها مضامين بالنسبة للسياسة التربوية والاجتماعية .

ولقد اتجه علماء النفس الامريكيون كمجموعة الى انتقاص دور العوامل الوراثية فى تحديد السلوك ومن أبرزهم سكنر . ويتخذ مورى والبورت موقفا وسطا بين الوراثة والبيئة أما المنظرون الذى جاءوا من أوربا من أمثال فرويد ويونج وكاتل فيؤكدون على الأغلب على أهمية العوامل الوراثية .

ومسألة الذاتية أو الموضوعية مسألة منهجية . والسؤال هو : هل

يمكن فهم الشخصية على أفضل نحو من منظور حيادى بعيـــدا عن الظاهرة وذلك بأن ننظر اليها من الخارج ، أم من منظور ملاحظ منغمس فيها ينظـــر اليها من الداخل . والتمييز بين الداخل والخارج ليس قاطعا ولا واضحا لانه كما يدعى الفنومنولوجيون يمكن أن ندرس الذاتية دراسة موضوعية . فكيلى على سبيل المثال يصر على أن هذا هو برنامجه . ويقاوم روجرز القول بأنه ذاتى صرف ومع هـــذا ، فانه من الواضح أن كليهما أقل موضـــوعية أو أن موضوعيته ذات معنى مختلف عن موضوعية سكنر الذى يدافع دفاعا قويا عن الطرق الموضوعية فى دراسة الشخصية .

ومسلم الكلية أو التجزيئية الذرية يعد مسالة منهجية ، على الرغم من أن له مضامين ميتافيزيقية . والسؤال المنهجى هو : هل من الأفضل اذا أردنا فهم الشخصية أن ننظر اليها ككل لا يتجزأ أم أن نجـــزئها الى مكوناتها . والسؤال الميتافيزيقى المطروح هو : هل هذه الأجزاء موجودة حقيقة أم انها مجرد تجريدات فى عقل من يقوم بعملية التحليل . وينادى ماسلو الذى أطلق على نظريته النظرية الكلية الدينامية بوجهة النظر الكلية ، ويمثل سكنر الذى يعتبر الشخصية مجموعة كبيرة من الاستجابات الشرطية أكثر المواقف الذرية تطرفا . وهذا يصدق أيضا على كاتل الذى حاول التوصل الى عناصر مماثلة لتلك التى نجدها فى الكيمياء .

ومعظم أصحاب نظريات الشخصية المعاصرين يرون الفـــرد باعتباره وحدة وظيفية . وأن عنصر السلوك قد لا يفهم بمعزل عن بقية الشخص الذى يؤدى وظائفه ، بما فى ذلك تكوينه البيولوجى . وهـــكذا فان عدد المنظرين الذين يرفضون المدخل الكلى رفضا تاما فى دراسة الشخصية قليل . ويدخل فى هذه الفئة كاتل وايزنك وسكنر ودولارد وميللر وباندورا وهم يتساءلون عن أهمية دراسة الفرد ككل وان تفاوتوا فى ذلك بعضهم عن بعض .

ويمكن القول بصفة عامة أن دعاة المدخل الكلى يرون ان النظـــرية الناجحة ينبغى أن تكون معقدة وكثيرة المتغيرات وأن تدخل فى اعتبارها الموقف الذى تحدث فيه الوقائع السلوكية والاحداث ، بل وان تدخل فى اعتبـــارها أيضا الاحداث السلوكية الأخرى التى تصدر عن الفرد . وعلى الرغم من

اصرار بعض المنظرين من أمثال ماسلو وروجرز والبورت على أن من الضرورى أن تنال جميع جوانب الفرد ما تستحق من اهتمام ودراسة وكذلك الموقف الذى يوجد فيه ذلك الفرد ، الا انهم على استعداد لتحليل السلوك وتجزئته طالما أن هذه الأجزاء سوف تجمع معا فى كل واحد .

وتواتر ظهور اسماء نظريات معينة فى الجدول (٢ — ١٨) يدل على أن بعض النظريات اكثر تعرضا من اخرى للمواقف المتطرفة فى هذه المسائل وهذا الجدول يفيد من حيث أنه يبرز بعض نواحى الاختلاف بين النظريات التى عرضنا لها كما يظهر بعض نواحى التشابه غير المتوقعة . وعلى سبيل المثال فان فرويد وسكنر اللذين نتوقع عدم اتفاقهما على أى شىء يؤكدان على الحتمية وعلى المدخل الذرى ، وهما يختلفان اختلافا كبيرا فى مسألتين : الوراثة والبيئة والعقلانية واللاعقلانية . ويختلف فرويد مع روجرز فى أربع مسلمات من المسلمات الست ، ولا يظهران معا فى نفس الخانة قط ، ففرويد يتمسك بالحتمية واللاعقلانية والشرية والذرية بينما يسلم روجرز بالحرية والعقلانية والخيرية والكلية . ويتفق روجرز وسكنر على العقلانية ومع ذلك يختلفان فى الحرية وفى الكلية .

ومما يساعد على اختيار أفضل نظرية مدى وفائها بخمسة محكات هى :

١ — كيف تنظم نظرية الشخصية المعرفة ؟

٢ — ما مدى قدرتها على توليد البحوث العلمية ؟

٣ — ما مدى قدرتها على ترشيد الممارسات العملية ؟

٤ — ما مدى اتساقها الداخلى ؟

٥ — ما مدى بساطتها أو اقتصادها ؟

ولنتناول فى ايجاز هذه المحكات :

١ — فيما يتصل بمدى قدرة النظرية على تنظيم المعرفة نتساءل . هل يمكن تفسير معظم نتائج البحوث النفسية باحدى النظريات التى عرضناها

فى الفصول السابقة أو بأكثر من نظرية ؟ والاجابة عن هذا السؤال نعم . فالسلوك الانسانى سواء أكان بسيطا أو معقدا ، وسواء أكان صحيحا أو مرضيا ، أنانيا أو يؤثر الآخرين يمكن تفسيره بواسطة معظم النظريات التى عرضنا لها . ولن تكون هذه التفسيرات بطبيعة الحال واحدة فالنظريات تتفاوت فى قدرتها على ذلك بالنسبة للدارس . وهذا معقول لان لكل منا موقفه الشخصى وتفضيلاته مما يتيح له أن يرفض بعض التفسيرات لانها لا تتسق مع وجهة نظره أو مع توجهه الفكرى أو الفلسفى .

والواقع أن نظريات الشخصية تقوم بوظيفة التفسير للأنماط السلوكية أفضل من قيامها بوظائف أخرى . فهى أكثر نفعا وأكثر دقة فى تفسير السلوك عنها فى التنبؤ به أو ضبطه . والنظريات التى تم تطويرها حديثا ربما تكون أكثر فاعلية مما سبقها فى تقديم المقترحات التى تساعد على ضبط السلوك ، ولعلها أكثر حذقا فى التنبؤ به . أما النظريات المبكرة كنظرية فرويد وأدلر ويونج فهى مفيدة فى تفسير ما نعرفه عن السلوك الانسانى وهى أقل قدرة فى التنبؤ به .

٢ — ما مدى قدرة نظريات الشخصية على توليد البحوث العلمية ؟ على الرغم من أن كثيرا من البحوث السيكولوجية المعاصرة ليس لها رؤية نظرية واضحة الا ان جانبا كبيرا منها يحاول أن يختبر فروضا مشتقة من هذه النظريات . ولقد أثارت نظرية فرويد وحدها آلافا من البحوث وما تزال تثير العديد من البحوث كل عام . ولقد اثبتت نظريات أدلر وسكنر وباندورا وماسلو قدرتها على انتاج البحوث . ويمكن القول بصفة عامة أن نظريات الشخصية قد اثارت قدرا كبيرا من البحوث وهى مسئولة الى حد كبير عن كثير مما نعرفه الآن عن السلوك الانسانى .

٣ — والمحك الثالث لتقويم نظرية الشخصية هو مدى قدرتها على افادة الممارسين فى ميدان العمل والتطبيق . وهنا نجد ان النظريات ككل تحظى بدرجة تتفاوت من حيث الكبر والصغر من حيث تحقيقها

لهذا الهدف . ان هذا المحك يفترض أن الممارس سواء أكان معالجا نفسيا ، أو مربيا أو مديرا أو سياسيا يستطيع أن يسترشد بما تقدمه نظرية أو كثر من هـذه النظريات . وينبغى الا يغيب عن بالنا أن الممارس سوف يواجه مشكلات لا يجد لها حلولا جاهزة فى هـذه النظريات . وعلى الرغم من نواحى القصور هـذه ، الا أن نظريات الشخصية تقدم لنا زادا يساعدنا على فهم السلوك الانسانى والتنبؤ به وضبطه . والالمام بنظرية فى الشخصية أو أكثر قد يغنى الممارس الذى يتخذ قرارات يومية عن السلوك الانسانى عن كثير من المحاولات والاخطاء ، أى أن هذه المعرفة تساعد على ترشيد قراره فى مجال الممارسة والفعل .

٤ — والمحك الرابع للنظرية الجيدة اتساقها الداخلى . ولو نظرنا لنظريات الشخصية التى عرضنا لها فاننا نتبين انها تتفاوت فى وفائها بهـذا المحك . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى اختلاف المواقف بل والى لجوء بعضها الى المواقف الوسط والتوفيق . فنظرية أدلر قد وضعت كفكر معارض ومخالف لفكر فرويد فى معظم المسائل . ونظرية هورنى تأخذ ببعض فكر فرويد وترفض البعض الآخر وتقدم فى مجال الاختلاف شيئا من الفكر الجديد ، وتحتل نظرية يونج موضعا وسطا بين نظرية فرويد ونظرية ادلر . ولقد تأثر دولارد وميللر بفرويد ولكنهما حاولا أن يتوصلا الى نسيج نظرية يجمع بين فكره وبين نظرية التعلم . ولقـد توصل البورت الى نظرية كانت بمثابة رد الفعل لفـكر دولارد وميللر وفكر فرويد ولقد قامت نظرية سكنر على التحليل العلمى للسلوك ولم تتأثر باى نظرية شخصية اخرى . ولم يهتم باندورا بفكر فرويد اهتماما واضحا . ولقد حاول كاتل وايزنك أن يدرسا الشخصية بأسـلوب رياضى ، على الرغم من أن كاتل استخلص عدة عوامل تضاهى بعض المفاهيم الفرويدية . ولقد اتخذ ماسلو وروجرز موقفا انسانيا يختلف اختلافا واضحا عن السيكوديناميين وعن دعاة التعلم وتعديل السلوك.

٥ — والمحك الخامس هو محك البساطة والاقتصاد . وقانون الاقتصـاد لا يمكن تطبيقه حين ننظر الى نظرية الشخصية ككل لانه اذا تساوت

نظريتان او اكثر فان الابسط هى الأفضل . واذا أردنا أن نقوم نظرية الشخصية على اساس البساطة ، فلا بد ان يكون الحكم هو انها معقدة جدا ومتعددة الأشكال شأنها فى ذلك شأن الشخصية نفسها .

واخيرا فان هناك مجموعة من القضايا ينبغى ان نلفت النظر اليها . ومن اهمها :

١ ــ تزايد الاهتمام بدراسة العوامل البيولوجية وتأثيرها فى السلوك .

٢ ــ تأثير نتائج البحوث فى علم نفس النمو على نظرية الشخصية آخذ فى التزايد .

٣ ــ اهتمام النظريات التى تبرز دور الآنا او الذات فى السلوك بالبحوث فى النمو المعرفى .

٤ ــ تزايد التأثير والتأثر بين نظرية الشخصية والاتجاه المعرفى فى دراسة السلوك .

٥ ــ وثمة اتجاه اكثر اعتدالا فى مواقف النظريات فى المسائل الاخلاقية ، اى ان الاستقطاب حول قضايا مثل الشخص أم البيئة والموقف قد خفت حدته .

٦ ــ وثمة تطورات منهجية تيسر بحوث الشخصية كالتقدم الذى طرأ على الحاسب الآلى . واساليب التحليل العاملى .

٧ ــ ولقد اتضح أن البحوث التى تجرى عن الذكاء الصناعى تتطلب نظريات اكثر دقة ووضوحا فى تناولها للسلوك الانسانى .

ومن السابق لأوانه ان نحاول التوصل الى نظرية اكليكتيكية فى الشخصية . فالنظريات المعاصرة بها قدر ليس بالقليل من عدم الدقة ، وهى تتصارع وتختلف على انحاء شتى ، وما تزال كثير من نتائجها تأملية . ومحاولة الخروج بنسيج نظرى واحد من هذا التنوع الخصب قد يعوق النظريات المعاصرة عن استقصاء كل السبل فى محاولة لفهم الشخصية الانسانية

المـــراجـع

اولا : المراجع العربية :

١ــ احمد عبد الخالق : **الأبعاد الأساسية للشخصية**، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٣ م .

٢ــ اسحق رمزى : **علم النفس الفردى** ، أصوله وتطبيقه ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٢ م .

٣ــ ب . م فوس : **آفاق جديدة فى علم النفس** ، ترجمة : فؤاد ابو حطب ، القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٢ م .

٤ــ جابر عبد الحميد جابر : **علم النفس التربوى**، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٨١ م .

٥ــ : **سيكولوجية التعلم ونظريات التعليم** ، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٨٥م.

٦ــ جوردن البورت : **نمو الشخصية** ، ترجمة : جابر عبد الحميد جابر، محمد مصطفى الشعبيني، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٣م.

٧ــ روبرت ودورث : **مدارس علم النفس المتعاصرة** ، ترجمة : كمال دسوقى ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨١ م .

٨ــ س. هـ . باترسون : **نظريات الارشاد والعلاج النفسى**، ترجمة حامد الفقى ، الكويت : دار القلم ، ١٩٨١م.

٩ — سيد محمد غنيم : **سيكولوجية الشخصية** ، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ م .

١٠ — عادل عز الدين الأشول : **سيكولوجية الشخصية** ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ، ١٩٧٨ م .

١١ — فرانك ت . سيفرين : **علم النفس الانسانى** ، ترجمة : طلعت منصور ، عادل عز الدين الأشول ، فيولا البيلاوى ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨ .

١٢ — فؤاد ابو حطب وآمال صادق : **علم النفس التربوى** ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ م .

١٣ — كالفن س . هول : **علم النفس عند فرويد** ، ترجمة : احمد عبد العزيز سلامة وسيد احمد عثمان ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٧م .

١٤ — ك . هول، ج . لندزى : **نظريات الشخصية** ، ترجمة : فرج احمد فرج وقدرى حفنى ولطفى فطيم، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ م .

١٥ — محمد عماد الدين اسماعيل : **الشخصية والعلاج النفسى** ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ م .

١٦ — نعيمة الشماع : **الشخصية : النظرية ، التقييم ، مناهج البحث** ، القاهرة : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٧ م .

١٧- هـ . ايزنـــــك : **مشكلات علم النفس** ، ترجمـــة : جابر عبد الحميد جابر ويوسف محمود الشيخ ، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٤م .

١٨- : **كراسة تعليمات قائمة ايزنك للشخصية** ، جابر عبد الحميد جابر ، وفخر الاســـلام ، القاهرة : دار النهضة العربية ، (ب.ت) .

المــراجع الاجنبيــة

1 - Arndt. W. B. Theories of Personality New York : Macmillan Publishing Co., Inc., 1974

2 - Bischof, L. J. Interpreting Personality Theories. New York : Harper & Row, 1970 .

3 - Cook, M. Levels of Personality, London : Holt, Rinehart and Winston, 1984.

4 -- Feist, J. Theories of Personality New York : CBS College Publishing, 1982.

5 -- Feshach, S. and Weiner, B. Personality. Toronto : Heath & Co. 1982.

6 Ford and Urban, Ann Rev. of Psychol, 1967, 18.

7 - Fordham, F. An Int reduction to Jung's Psychology, London : Penguin Books LT D, 1954.

8 - Hall, C.S. A Lindzey, G., Theories of Personality. New York : John Wiley & Sons, Inc 1970.

9 - Hall. C.S. & Lindzey, G. Introduction to Theories of Personality: New York : John Wiley & Sons, 1985.

10 Hergenhahn. B.R. An Introducation to Theories of Personality. Englewood Cliff, N.J. : Prentice - Hall, 1980.

11 - Hjeile, L.A. & Ziegler D.J. Personality Theories, London: McGrow - Hill Interrnational Book Co., 1981.

12 - Lindzey, G., Hall, C.S. & Manosevitz; Theories of Personality : Primary Sources and Rescasch. New York : John Wiley & Sons, Inc. 1973.

13 -- Maddi, S.R. Personality Theories : A Comparative Analysis Homewood, Illinois : The Dorsey Press., 1976.

14 —Peck D. aid Whitlow D., Approaches to Personality Theory. London : Merhuen & Co Ltd. 1975.

15 — Pervin, L.A. Personality : Theory and Reseasch. New York ; John Wiley & Sons, 1984.

16 — Ryckman, R.M. Theories of Personality. Monterey, California. Brooks., Cole Publishing Company, 1985.

17 — Scroggs, J.R. Key Ideas in Personality Theory. St Paul, Minnesota : West publishing Co. 1985.

18 — Sills, D.L. Encyclopendia of the Social Scinces; Vol; I and II New York : The Macmiilan Co. 1968, pp. 56-ol.

19 — Southwell, E.A. & Merbaum, M. Personality : Readings in Theory and Research. Belmmont California : Brooks; Cole Publishing Company, 1964.

20 — Wolman B., International Encylopedia of Psychiatry, Psychology Psychoanalysis & Neurology, New York : Aesculapius Publishers. Vol. II & IV. 1977.

مصادر أولية

(ف ٢)

1 — Freud S. On Beginning The Treatment. In The standard edition (Vol 12) London : Hogarth, 1958 (Originally published 1913)

2 — Freud S. Civilization and Its Discontents. In The standard edition (Vol. 21). London : Hogarth Press 1961 (Originally published 1930).

3 — Freud S. Introductory Lectures On Psycho - analysis. In Standard edition (Vol. 15 and 16). London : Hogarth Press, 1963 (First German edition, 1916, 1917).

4 — Freud S. New Introductory Lectures on Psycho - analysis. In Standard edition (Vol. 22) London Hogarth Press, 1964. (Originally published 1933).

(ق ٣)

1 — Jung, G.G. The Psychology of the Unconscious. In Collected works (Vol. 7) (Originally published, 1917).

2 — Jung, G.G. The Relations between the Ego and the Unconscious. In collected works (Vol. 7) . Originally published; 1928 b)

3 — Jung, G.G. Psychological Aspect of the Mother Archetype. In collected works (Vol. 9, part 1) (Originally published, 1954 b).

4 — Jung, G.G. (Ed). Man and his Symbols. Approaching the Unconscious London : Aldus Books, 1964.

5 — Jung, C.G. Letters (G. Adler, Ed). Princeton, N.J: Princeton University Press, 1973.

6 — Serrano, M.C.G. Jung and Hermann Hesse. London : Routledge & Kegan Paul, 1966.

7 — McGuire, W., & Hull; R.F.C. (Eds:) G:G: Jung Speaking; Princeton, N.J: Princeton University Press, 1977.

(ق ٤)

1 — Adler, A. Individual Psychology. In C. Murchison (Ed), Psychologies of 1930. Worcester, Mass. : Clark University Press, 1930.

2 — Adler, A What Life Should Mean to You. New York : Putnam. 1931.

3 — Adler, A. The psychology of hermaphroditism in life and in

neurosis) In H.L. Ansbacher & R. R. Ansbachher (Eds)
The Individual Psychology of Alfered Adler. New York :
Basic Books, 1956. (Originally published, 1910).

4 — Adler, A. The use of heredity and environment. In H.L. Ansbacher (Eds.), The individual psychology of Alfred Adler. New York : Harper, 1956. (Originally published, 1935).

5 — Adler, A. The Individual Psychology of Alfred Adler : A. Systematic presentation of selections From his writings. (H.L. Ansbacher & R.R. Ansbacher, Eds), New York : Harper; 1956.

6 — Adler, A. Problems of Neurosis. New York : Harper & Row, 1964. (Originally published, 1929.)

7 — Adler, A. The Science of Living. New York : Doubleday, 1969: (Originally published, 1929).

(ف ٥)

1 — Horney, K. The Neurotic Personality of Our Time. New York : Norton, 1937.

2 — Horney, K. New Ways in Psychoanalysis. New York : Norton, 1939.

3 — Horney, K. Self - Analysis New York : Norton, 1942.

4 — Horney, K. Our Inner Conflicts, New York : Norton, 1954:

5 — Horney, K. Neurosis and Human groth. New York : Norton; 1950.

(ف ٦)

1 — Erikson, E. Childhood and Society (2d ed.) New York Norton: 1963 a.

2 — Erikson, E. (Ed). Youth : Change and Challenge. New York : Norton, 1963 b.

3 — Erikson, E. Identity : Youth and crisis. New York : Norton, 1968 .

4 — Erikson, E. Gandhi's Truth. New York : Norton, 1969:

5 — Erikson, E. Reflections on the Dissent of Contemporary Youth. Deadalus, 1970 a, 99; 154-176:

6 — Erikson, E. Autobiographic Notes on the Identity Crisis Deadalus: 1970 b, 99, 730 - 759.

7 — Erikson, E. Dimensions of a New Identity : The 1973 Jefferson lectures in the humanities. New York Norton, 1974 .

8 — Erikson, E. Toys and Reasons. New York : Norton; 1977:

9 — Erikson, E. (Ed). Adulthood. New York : Norton; 1978:

(ف ٧)

1 — Murray, H.A. Explorations in Personality : A clincal and experimental study of fifty men of college age. New York : Oxford University Press 1938.

2 — Murray, H.A: What should psychologists do about psychoanlysis: Journal of abnormal and Social Psychology, 35, 150-175. (1940).

3 — Murray; H.A: In nomine diaboli: In E.S. Shneidman (Ed:), Endeavors in psychology : Selections from the personology of Henry A. Murray (82 - 94). New York : Harper & Row (Original work published 1951) 1981.

4 — Murray, H.A American Icarus. In E.S. Shneidman (Ed:) Endeavors in psychology; Selections from the personology of Henry A. Murray (535-556). New York : Harper & Row. (Original work published 1955) 1981.

5 — Murray, H.A. The case of Murr. In E.S. Shneidman (Ed:), Endeavors in psychology ; Selecions from the personology of

Henry A. Murray (52-78). New York : Harper & Row. (Original work published 1967) 1981 a.

6 — Murray, H.A. Dead to the world : The passions of Herman Melville. In E. S. Shneidman (Ed), Endeavors in psychology : Selections from the personology of Henry A. Murray (498-517). New York : Harper & Row. (Original work published 1967) 1981 b.

7 — Murray, H.A., & Kluckholn; C. Outine of a conception of personality. In E.S. Shneidman (Ed.), Endeavors in psychology : Selections from the personology of Henry A. Murray (204-234). New York : Harper & Row (Original work published 1953) 1981.

8 — Murray, H.A., & the Staff of the Harvard Psychological Clinic. Thematic apperception test manual. Cambridge, MA: Harvard University Press. 1943.

(ف ٨)

1 — Cattell; R.B: Personality : A Systematic; Theoretical; and Factual New York : Holt. Rinehart & Winston, 1937.

2 — Allport, G.W. Becoming, Basic Considerations for a Psychology of Personality. New Haven, Conn : Yale University Press, 1955.

3 — Allport, G.W., Personality and social Encounter. Boston b Beacon Press, 1960.

4 — Allport, G.W., Pattern and Growth in Personality. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1961.

5 — Allport, G.W. Autobiography. In E. G: Boring and G: Lindzey (Eds:),. A History of Psychology in Autobiography (Vol. 5). New York : Appletion - Century Crofts; 1967, 1-25.

6 — Allport, G.W. The Person in Psychology : Selected Essays, Boston : Beacon Press, 1968.

7 — Allport, G.., and F.H. Allport; Personality traits : Their Classification and measurement, J. Abnorm. Sic. Psychol., 1921; 16; 6-40.

(ف ٩)

1 — Cattell, R.B. Personality : A systematic, theoretical; and Factual study. New York : McGraw-Hill, 1950:

2 — Cattell, R:B:, Prsonality structres as learning and motivation patterns-a theme for the integration of methodologies; in Learning Theory, Personality Theory and Clinical Research : The Kentucky Symposium. New York : Wiley, 1954 pp. 91-113.

3 — Cattell; R.B. Personality and Motivation Structure and Measurement, New York : Harcourt Brace Jovanovich, 1957.

4 — Cattell, R.B· The Ssientific Analysis of Personality: Baltimore: Penguin Books, 1965.

5 — Cattell, R.B., Saunders; D.R.; & Stice; G:F: The 16 Personlity Factor Questionnaire. Champaign, Ill. : Institute for Personality and Ability Testing, 1950.

6 — Cattell, R.B. & Breul, H.; & Hartman; H.P. An attempt at more refined definition of the cultural dimensions of syntality in modern nations. American Sociological Review, 1952, 17; 408 - 421.

7 — Cattell, R.B. & Warburton; F.W: Objective Personality and Motivation tests. Urbana, Ill. : University of Illinois Press; 1967:

(ف ١٠)

1 — Eysenck, H.J. Dimensions of Personality. London : Routledge & Kegan Paul, 1947.

2 — Eysenck, H.J. The Scientific Study of Personality. London : Routledge & Kegan Paul, 1952.

3 — Eysenck, H.J. The Structure of Human Personality: London · Methuen, 1953 : rev. 1960.

(ف ١١)

1 — Skinner, B. F. Science and Human Behavior. New York : Macmillan, 1953.

2 — Skinner, B.F. Teaching Machines. Science, 1958; 128; 969-977.

3 — Skinner, B.F. Autobigraphy.. In E. G. Boring & G: Lindzey (Eds:), History of psychology in autobiography, Vol. 5. New York: Appleton - Century - Crofts, 1967 a. pp. 387 - 413.

4 — Skinner, B.F. About Behaviorism. New York : Knopf, 1974.

5 — Skinner, B.F· The steep and thorny way to a science of Behavior: American **Psychologist, 1975, 30;** 42-49.

6 — Skinner, B.F. The shaping of a behaviorist. New York : knopf, 1979.

(ف ١٢)

1 — Dollord, J., Doob; L.; Miller; M.; Mowrer; O. H.; & Sears; R: Frustration and Aggression. New Haven; Conn: : Yale University Press, 1939.

2 — Dollard, J.; & Miller; N.E: Personality and Psychotherapy : An Analysis in Terms of Learning, Thinking and Culture. New York McGrow - Hill, e1960.

(ق ١٣)

1 — Bandura, A. Behavior theory and the models of man. American Psychologist, 1974; 29 859-869.

2 — Bandura, A. Self-efficacy mechanisms in human agency. American Psychologyist, 1982. 37: 122-147.

3 — Bandura, A. Ross, D.; & Ross; S.A. Imitation of Film - mediated aggressive models: Journal of Abnorma and Social Psychology; 1963 a, 66-3-11.

4 — Bandura, A., & Walters; R.H. Social learning and personality development. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1963.

5 — Bandura, A., & Kupers, C.J. The Transmission of patterns of self - reinforcement through modeling. Journal of Abnormal and Social Psychology, 1964, 69; 1-9.

(ق ١٤)

1 — Lewin, K. ADynamic Theory of Personality. New York : McGraw-Hill, 1935.

2 — Lewin; K. Principles of Topological Psychology. New York : McGraw-Hill, 1936.

3 — Lewin, K. Resolving Social Conflicts : Selected papers on group dynamics (G.W. Lewin, ed). New York : Harr per & Row, 1948.

4 — Lewin, K. Field theory in social science : Selected theoretical papers (D. Cartwright, ed). New York : Harper & Row, 1951.

5 — Lissner, K. Die Entspannung von Bedurfnissen durch Ersatzhandlunge Psychologische Forschung, 1933; 18; 218-250.

6 — Mahler, W. Ersatzhandlunge veschiedenen Realitätsgrades. Psychologische Forschung 1933, 18, 27-89.

7 — Marrow, A.J. The practical theorist : The Life and work of Kurt Leiwn New York : Basic Books, 1969.

٤ — De Rivera, J. Field theory as human science : Contributions of Lewin's Berlin group New York : Halsted Press, 1976.

(ف ١٥)

1 — Kelly, G.A: The Psychology of Personal Constructs (2 vols) New York : W. W. Norton, 1955.

2 — Kelley, G. A. A summary statement of a cognitively - oriented comprehensive theory of behavior In J. C. Mancuso (Ed.) Readings for a Cognitive theory of Personality. New York : Holt, Rinehart and Winston, 1970.

(ف ١٦)

1 — Roger,s C.R, Counseling and Psychotherapy Counseling and Psychotherapy Boston : Houghton Mifflin Company 1942.

2 — Rogers C.R. Some directions and end points in therapy. In O.H. (Ed), Psychotherapy : Theory and Research New York : Ronald Press, 1953.

3 — Rogers, C.R. A theory of therapy, personality; and interpersonal relationships, as developed in the client. centered framework In S. Koch (Ed) Psychology : A Study of Science (Vol. 3) New York : McGraw - Hill, 1959.

4 — Rogers, C.R. Some directions and end points in therapy. in C.R: Rogers: on Becoming A Person, pp. 73-106 Boston : Houghton Mifflin Company, 1961.

5 — Rogers. C.R. Becoming a person In C.R. Rogers: on Becoming A Person, pp. 107-124. Boston : Houghton Mifflin Company 1961.

6 — Rogers. C. R. 1954 Toward a theory of cretivity. In C. R: Rogers. ON BECOMING A PERSON. pp. 347-59. Boston : Houghton Mifflin co. 1961 .

7 — Rogers, C.R. On becoming a person A Therapist's view of psychotherapy Boston : Houghton Mifflin, 1961.

8 — Rogers, C.R. Actualizing tendency in relation to motives and

to consciousness. In M. R. Jones (Ed) Nebraska Symposium on Motivaion, 1963. Lincoln : University of Nebraska Press, 1963.

9 — Rogers, C. R. (ed) The Theropeutic Relation ship and its impact · A study of Psychotherappy with Schizophrenies. Madison : University ot Wisconsin Press, 1967 c.

10 — 1969 b Rogers, C.R. Learning : What kind In C.R. Rogers. Freedom to Learn PP. 3 - 5 Columbus : Charles E. Merrill Publishers, 1969.

11 — Rogers' C. R. My personal growth. In A Burton (Ed) Twelve Therapists San Francisco : Jossey - Bass, 1972:

12 — Rogers, C.R. My philosophy of interpersonal relationships and it how it grew Journal of Humanistic Psychology 1973, 13: 3-15.

13 — Holdstock, T.L., & Rogers; C.R. Person - centered theory. In R. J. Corsini (Ed) Current Personality Theories Itasca, III : Peacock Publishers, 1977.

(ف ١٧)

1 — Maslow, A.H. Motivation and Personality. New York : Harper & Row, 1954.

2 — Maslow, A.H .The Psychology of Science : A reconniassance. New York : Harper & Row, 1966.

3 — Maslow, A.H. Toward a Psychology of Being (2nd ed.). Princeton: N.J. : Von Nostrand, 1968.

4 — Masyow, A.H. Motivation and Personality (2nd ed.). New York : Harper & Row, 1970.

5 — Maslow, A.H. The Farther Reaches of Human Nature. New York: Viking, 1971.

فهرس الكتاب

رقم الايداع ٢٣٢٢
الترقيم الدولى ٠٠ - ٢٦٨ - ٤٩٧